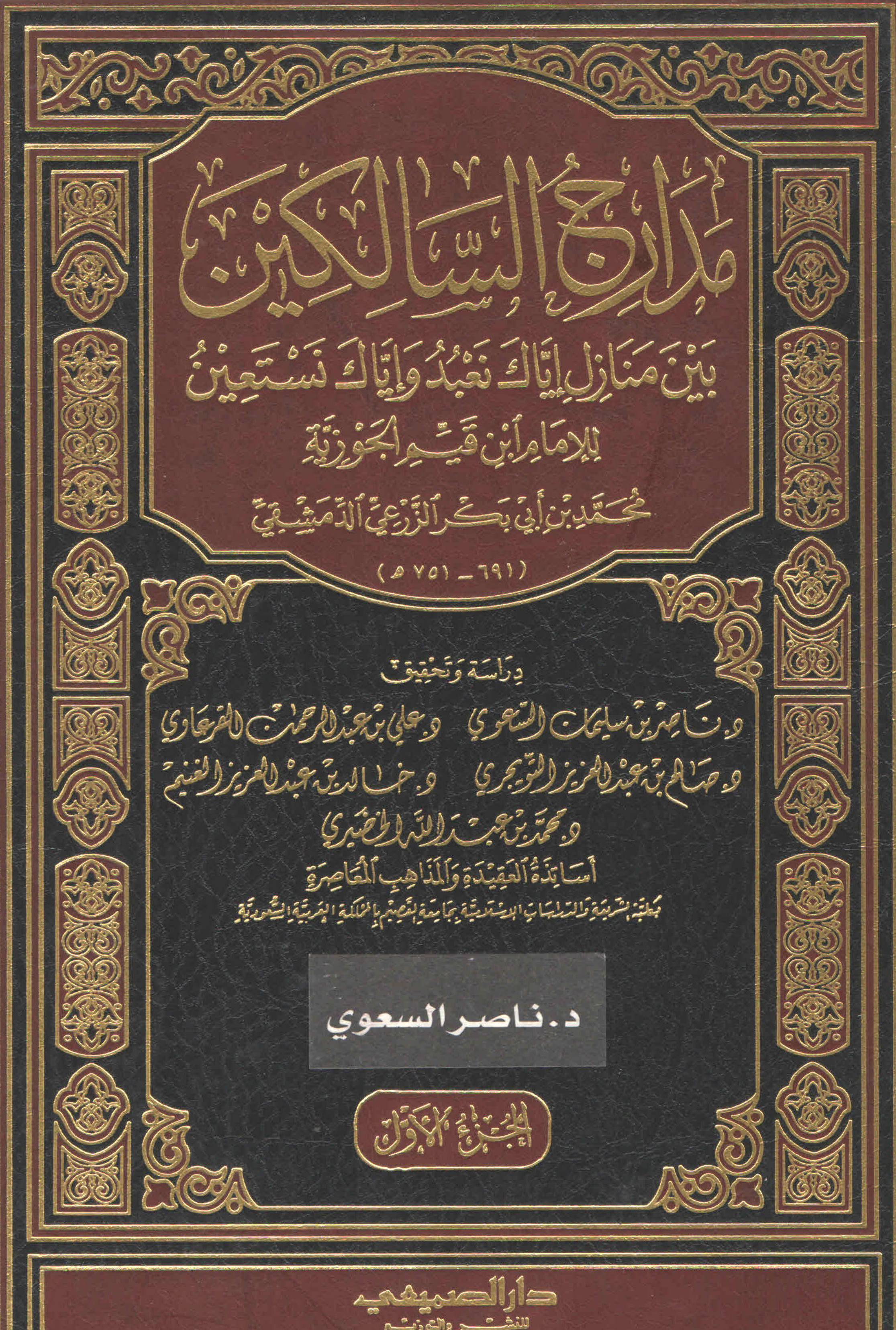

مدارج السالكين
بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
للإمام ابن قيم الجوزية
محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)
دراسة وتحقيق
د. ناصر بن سليمان السعوي
د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي
د. صالح بن عبد العزيز التويجري
د. خالد بن عبد العزيز الغنيم
د. محمد بن عبد الله الخضيري
أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية
د. ناصر السعوي
الجزء الأول
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله رحمة للعالمين، وحجة علىٰ المعاندين ، أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فعلَّم به من الجهالة ، وأرشد به من الغواية ، وبصَّر به بعد العمىٰ ، وهدىٰ به من الضلالة ، صلىٰ الله وسلم وبارك عليه ، وعلىٰ آله وصحبه ، ومن سار علىٰ نهجه ، واقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين.

أما بعد :

فإن خير ما صُرِفَت فيه الأوقات ، وأُفْنِيتْ فيه الأعمار هو الفقه في دين الله ، تعَلُّماً وعملاً ، وتعليماً ودعوة ، وأشرف أنواع الفقه هو العلم بالله تعالىٰ ، الذي سماه السلف: (الفقه الأكبر) ؛ لأنه فقه التوحيد والإيمان ، وعليه مدار صحة جميع الأعمال ، وبه عِصْمَة الدم والمال.

وهو أوَّل دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ، وهو أوَّل واجب علىٰ المكلَّف ، وآخر واجب عليه ، ولم يزل هذا العلم مُتلقّىٰ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ نشأ الصحابة – رضي الله عنهم – علىٰ هذا المنهج ، وساروا عليه ، وتلقاه عنهم التابعون فمن بعدهم ، وسار علىٰ نهجهم ممن أتىٰ بعدهم ، حيث اقتصر مصدرهم في الأخذ والتَّلقِّي علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وما أجمع عليه سلف هذه الأمة ، حتىٰ نشأت فِرَق ، وابتُدِعت بدع ، شاقت

الرسول ﷺ واتبعت غير سبيل المؤمنين ، وتنوعت مصادر هذه الفِرَق من العقل والهوىٰ تارة ، ومن الأقيسة المنطقية والمناهج الفلسفية تارة ، ومن آراء الرجال والمتبوعين تارة ، ومن أقوال الشيوخ وأذواقهم ومواجيدهم تارات أخرىٰ ، وانتشرت آثار الفلاسفة وأفكار الأعاجم والهنادكة ، وتسابق- بسبب الجهل والبعد عن نور الشريعة – بعض المسلمين إلىٰ هذه الثقافات تكاثراً وتفاخراً ؛ فانتسبوا إلىٰ أهلها ، وانتموا إلىٰ روّادها ومنظريها ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢].

وقد قيَّض الله لهذا الدين حملةً أبراراً ، وعلماءَ أطهاراً ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل المُبطلين ، في كل فترة من الزمن ؛ فألَّفوا المؤلفات ، ودوَّنوا المصنَّفات تأصيلاً وتقريراً ، وردًّا وتفنيداً ، فخلفوا لنا كنوزاً ثمينة ، وأسفاراً نفيسة ، تشهد بحسن بلائهم وصِدق مَقالهم ، فتعيّن علىٰ من يلي ميراثهم من طلبة العلم أن يخلفَهم فيها بخير ، فيُحْسِنَ القوامة عليها والدلالة إليها ، والنظر فيها: تحقيقاً وتصحيحاً ودِراسةً وتخريجاً.

وإذا ذُكِرَ أهل التحقيق والتدقيق من أهل العلم فالعلاّمة ابن القيم الجوزية – رحمه الله – فيهم علم من الأعلام ، وجهوده واضحة وجليَّة في سائر العلوم والفنون ؛ سيما علم العقيدة الذي يكاد يكون أكثر العلوم نصيباً من قلمه.

قال عنه ابن رجب – رحمه الله -: « ... تفنَّن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارىٰ فيه وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهىٰ ... »[1].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

قال عنه تلميذه الصفدي : «... ناظر واجتهد ، وأكبَّ علىٰ الطلب ، وصنَّف وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول ، فقهاً وكلاماً...»[١].

ومن تلك المصنفات التي خلَّفها لنا ابن القيم – رحمه الله – كتاب:

« مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » .

وهو سِفرٌ عظيم النفع غزير الفائدة ، تعرَّض فيه المصنف لعامَّة مسائل العقيدة ؛ فتكلم فيه علىٰ أنواع التوحيد: عرضاً لمنهج أهل السنة ، ورداً علىٰ مذاهب أهل البدعة ، وركز علىٰ قضية الأسماء والصفات ، وإثباتها لله تعالىٰ علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته ، ورد علىٰ عامة المعطلة والمؤولة ، وكذا مسائل الألوهية وتحقيق العبودية ، وبيان أكملها وأشرفها ، وبيان الميزان الصحيح لمعرفة ذلك ، وتناول فيه مسائل القدر ، ومسائل الإيمان ، ومسائل الشرك والكفر والفسق والكبائر والصغائر ، وتحدث فيه عن مسائل السلوك والأخلاق والمقاصد والنيات والمقامات والأحوال ، وردَّ فيه علىٰ الصوفية وبيَّن أصنافهم وأصناف مقالاتهم وأن منها الـمُعتدِل المقبول ، ومنها الساقط المردود ، وردَّ علىٰ غُلاتِهم من الحلولية والاتحادية بأسلوب علمي ، وأدب لفظي لا شطط فيه ولا اعتداء ، وردَّ فيه علىٰ النفاة من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، وردَّ علىٰ نفاة الحكمة والأسباب والعِلل.

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

وجلىٰ فيه منهج أهل السنة في مسائل أعمال القلوب ، وتفاوت العاملين والعُبَّاد بسببها: كمالاً ونقصاً ، اتِّباعاً وابتداعاً .

وتحدث فيه بإسهاب عن العبادة ومنازلها ، ووصْف السائرين إلىٰ الله ، وأقوال الناس في أفضلها وأكملها ، والتلازم بين إثبات الشرع والعمل به ، وإثبات القدر والإيمان به ، والرد علىٰ المخالفين.

كما امتاز الكتاب بحُسن عرضه ، وقوة ردِّه ، وجوْدَة تبويبه وتقسيمه وتأصيله للمسائل ، وقوة مأخذه في الاستدلال لها ، والتزامه بالنصوص والآثار ، وتعظيمه لها رحمه الله رحمة واسعة.

أهم الأسباب الداعية لتحقيق الكتاب

كان من أهم الأسباب الداعية إلىٰ تحقيق هذا الكتاب :

أولاً: أن مؤلف الكتاب هو الإمام ابن القيم – رحمه الله – وهو أحد المحقِّقين لمنهج السلف ، المحيين لما اندرس من معالمه ، فالعناية بمؤلفاته في العقيدة يحقق إسهاماً في نشر معتقد السلف ، والدعوة إليه الذي هو واجب علىٰ كلِّ طالب علم.

ثانياً: أن هذا الكتاب شمل كثيراً من مسائل العقيدة: ابتداءً أو استطراداً ، تفصيلاً أو إجمالاً ، تقريراً أو ردًّا.

ثالثاً: أن الكتاب يعتبر من أهم كتب أهل السنة التي تمثل مناقشة الصوفية ، والرد عليهم ، وتوضيح مصطلحاتهم ، وتبيين مغالطاتهم في عامة قضايا العقيدة، مع موافقتهم فيما هم عليه من صواب ، مع اتسامه بالعدل والإنصاف،

والردِّ إلىٰ الكتاب والسنة ، وانتهاج الوسطية ، فهو في جملته يبرز موقف ابن القيم من الصوفية. فالكتاب أقدم وأجمع مؤلَّف علىٰ هذا النَّسق ؛ سوىٰ ما هو مبثوث ومفرق للأئمة المتقدمين في ثنايا الكتبِ الأخرىٰ.

رابعاً: عناية الكتاب بمسائل التوحيد عامة وتوحيد العبادة خاصة ؛ حيث بيَّن المؤلف أن توحيد العبادة هو توحيد الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي من أجله أنزِلت الكتب ، وأرسلت الرسل ، وشرع الجهاد في سبيل الله ، ورد علىٰ المتكلمين والصوفية في عدم تحقيقهم لهذا التوحيد والعناية به.

خامساً: إن السلوك الصحيح ، وتزكية النفوس ، والعناية بأعمال القلوب من أعظم أمور الدين وأجلِّ خصاله ، وقد اهتم السلف -رحمهم الله تعالىٰ- بفقه السلوك علماً وعملاً ، وهذا الكتاب من أشهر المؤلفات التي عُنيت بهذه المسائل ؛ وإخراج الكتاب محققاً ومخرّجاً يعني: الاهتمام بهذا النوع من العلم الذي قلَّت معالجته في المؤلفات المعاصرة ، علىٰ ضوء الكتاب والسنة، مع أن هذه المسائل من جنس مسائل الاعتقاد ، منصوص عليها في الكتاب والسنة ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « ... فمسائل السلوك من جنس مسائل الاعتقاد كلها منصوصة في الكتاب والسنة »[1].

ويؤكد ابنُ القيم ذلك في نفس هذا الكتاب فيقول: « وتزكية النفوس مسَلَّم إلىٰ الرسُل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية ، وولاَّهم إياها ، وجعلها علىٰ أيديهم

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٩/ ٢٧٣.

دعوة وتعليماً وبياناً ؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم »[1].

سادساً: أن الكتاب تعرَّض في مواضع متعددة لفقه معاني الأسماء والصفات ، وآثارها السلوكية علىٰ العبد ، وعبادة الله بمقتضاها ، وهو نوع من العلم قلَّ وجودُه والعناية به عند كثير من أهل الإثبات والدارسين للأسماء والصفات.

سابعاً: من المعلوم أن متأخري الصوفية صنفوا كتباً كثيرة في السلوك ، وغلب علىٰ تلك الكتب قلة العلم بالسنن والآثار ، وكثرة الموضوعات ، والتعويل علىٰ أخبار الزهاد وحكاياتهم ، وقد أورد شيئاً منها ابن القيم – رحمه الله – ؛ فدراستها ، ومعرفة صحيحها من سقيمها يعتبر إضافة هامة في بابها.

ثامناً: أن ابن القيم شرح في هذا الكتاب منازل السائرين للإمام الهروي – رحمه الله – ، وهناك من يرىٰ أن ابن القيم أكثر الاعتذار عن الهروي ، والدفاع عنه ، والتماس أحسن المحامل لعباراته ، وغض الطرف عن بعض هفواته ، وهل هذه حقيقة أو دعوىٰ؟ تتوقف معرفتها علىٰ دراسة الكتاب وإخراجه.

تاسعاً: اشتمال الكتاب علىٰ مجموعة من الأحاديث النبوية تزيد علىٰ الخمسمائة حديث تحتاج إلىٰ تخريج ، وكذلك الآثار والمقالات والنقول التي تحتاج إلىٰ توثيق وعزوٍ. خصوصاً وأن النسخ المطبوعة لم تقم بهذا

---

(١) المدارج ٢/ ٣١٥.

العمل علىٰ الوجه المطلوب وفق منهج علمي في التحقيق والتخريج والتعليق.

عاشراً: أن الكتاب يعتبر مورداً لكثير ممن أتىٰ بعد ابن القيم -رحمه الله: كالإمام ابن أبي العزّ الحنفي في شرحه للطحاوية [1]، وغالب كتاب تجريد التوحيد للمقريزي، والإمام السفاريني في لوامع الأنوار البهية [2]، والشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب [3]، وعامة شرّاح كتاب التوحيد، وسائر أئمة الدعوة وعلمائها إلىٰ عصرنا هذا؛ بل كتابه هذا كسائر مؤلفاته مرغوب فيها بين الطوائف، كما ذكر ذلك ابن حجر -رحمه الله- [4].

حادي عشر: أن هذا الكتاب لم يُسبق وأن حُقِّق تحقيقاً علميًّا، وقد طبع عدة طبعات لا تخلو من: سقط وتحريف، أو عدم عناية بتخريج النصوص، وعزو الآثار والنقول. فالكتاب كان بحاجة إلىٰ إخراجه بصورة علمية موثَّقة وفق الأصول العلمية للبحث والتحقيق.

ثاني عشر: أن الكتاب قد اشتمل علىٰ قواعد هامة في باب الردِّ والمناظرة، وفيه تحقيقات نفيسة، وإشارات إيمانية لطيفة، ونكات بديعة، وفروق دقيقة. قد لا توجد مجتمعةً في غيره.

ثالث عشر: حاجة العامة والخاصة إلىٰ مادة هذا الكتاب، لاشتماله علىٰ

---

(١) انظر: شرح الطحاوية ١/ ٢٣، ٤٢-٥٦.

(٢) انظر لوامع الأنوار البهية ١/ ٣٤١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٤٧، ٤٩٧، ٥٠٠، ٥٠٦.

(٤) انظر: الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

مباحث متنوعة ، يرجع إليها أصناف من القرّاء والباحثين ، إذْ المؤلفات في موضوعه علىٰ منهج أهل السنة قليلة بالنسبة إلىٰ ما أُلِّف علىٰ منهج غيرهم ، فإخراجه في صورةٍ تليق بقيمة الكتاب ، وتخدم قراءه من طلبة العلم وغيرهم من الأهمية بمكان ؛ لاسيما وأن فيه مسائل عقدية تحتاج إلىٰ خدمة قد لا يتيسر للعامة الإلمام بها ؛ فكانت التعليقات الهامشية في المسائل الدراسية توفية بهذا الغرض.

رابع عشر: توفر نسخ خطية متعددة ، بلغت إحدىٰ عشرة نسخة خطية ، لم يعتمد علىٰ كثيرٍ منها كُلُّ من سبق وعمل علىٰ تحقيق هذا الكتاب ، ومنها نسخةٌ كتبت في حياة المؤلف سنة ٧٣١هـ. وهذا يساعد كثيراً في خدمة الكتاب -بالوصول إلىٰ أقرب لفظ يقصده المؤلف- من جهة ، وخدمة سائر القراء من جهة أخرىٰ ، من خلال تحقيق الأصل ، وبيان الفروق بين النسخ ، وتسديد ما يوجد فيها من سقط ، وتعديل ما يحدث فيها من تحريف ، أو نحو ذلك.

لتلك الأسباب السابقة وغيرها رغبنا جميعاً في المساهمة العلمية في خدمة هذا السفر المبارك ، وسجلناه أطروحة لنيل درجة الدكتوراه ، في قسم العقيدة بكلية أصول الدين ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، وكما لا يخفىٰ فإن كتاب مدارج السالكين كبير الحجم ، متعدد المسائل ، ثري المعلومات ، ولهذا وافقت الكلية إلىٰ تقسيم الكتاب إلىٰ خمسة أقسام ، دراسة وتحقيقاً ، ومع كل قسم عدة مسائل دراسية. تم بحثها ومناقشتها. وحين رغبنا

في طباعة هذا الكتاب عمدنا إلىٰ اختصار هذه المسائل تخفيفاً علىٰ الكتاب، وتسهيلاً علىٰ القرَّاء، واكتفاءً بما له علاقة مباشرة بموضوع الكتاب. وهي دراسات مفيدة في بابها، بُذل فيها جهد ووقت، واستقراء وتتبع، وبحث وتحرير، رغبةً في خدمة هذا السفر المبارك، وخدمةً للعلم وأهله وطلابه من المختصين وغيرهم.

أقسام الكتاب

هذا الكتاب خرج والحمد لله بخمسة أجزاء، والجزء السادس للفهارس التفصيلية، وعمدنا إلىٰ جعل كل جزء من هذه الأجزاء الخمسة خاصّاً بكل محقق حسب التقسيم الآتي:

القسم الأول: يبدأ من أول الكتاب إلىٰ قوله: (**فصل: و « الذنوب » تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر . بنص القرآن والسنة**). قام بدراسته وتحقيقه: د. **ناصر بن سليمان السعوي**.

القسم الثاني: يبدأ من قوله: (**فصل: و « الذنوب » تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر. بنص القرآن والسنة**) إلىٰ آخر منزلة: **التهذيب والتصفية**. قام بدراسته وتحقيقه: د. **علي بن عبد الرحمن القرعاوي**.

القسم الثالث: يبدأ من أول منزلة الاستقامة، إلىٰ آخر منزلة الأنس. قام بدراسته وتحقيقه: د. **صالح بن عبد العزيز التويجري**.

القسم الرابع: يبدأ من أول منزلة: **الذكر**، إلىٰ آخر منزلة: **التمكُّن**. قام بدراسته وتحقيقه: د. **خالد بن عبد العزيز الغنيم**.

القسم الخامس: يبدأ من أول منزلة: **المكاشفة**، إلىٰ آخر الكتاب. قام بدراسته وتحقيقه: د. **محمد بن عبد الله الخضيري**.

وقد تتبع ابنُ القيّم منازلَ السائرين للهروي بالشرح والتعليق حيث جعلها الهروي مائة منزلة، مقسمة علىٰ عشرة أقسام، كل قسم منها عشر منازل، وجعل لكل منزلة ثلاث درجات: درجة العامة، ودرجة الخاصة، ودرجة خاصة الخاصة. وهذه الأقسام هي:

(قسم البدايات، وقسم الأبواب، وقسم المعاملات، وقسم الأخلاق، وقسم الأصول، وقسم الأودية، وقسم الأحوال، وقسم الولايات، وقسم الحقائق، وقسم النهايات).

هذا وقد حاولنا بقدر الإمكان الاتفاق في عامة طرائق التحقيق والدراسة، والتعليق، والتخريج، والتقارب في بعضها؛ فما تجده أيُّها القارئ الكريم في كل جزء هو عصارة جهدٍ وتحقيقِ محقِّقِه، الذي بذله طوال سنوات البحث المقرَّرة؛ ليخرجه علىٰ هذه الصورة المقدمة للقرَّاء، وفي كل جزءٍ مقدّمةٌ مختصرةٌ لكل باحث، تتعلق ببيان نصيبه من: النسخ الخطية وأسمائها، ورموزها التي اعتمدَها، ومنهجه في الدراسة والتحقيق، والمسائل التي قام بدراستها.

ونذكر هنا أسماء المسائل التي قام بدراستها كل باحث وأثبتها في مقدمة قسمه: ففي **القسم الأول من الكتاب**: (ترجمة ابن القيم) و(عنوان الكتاب) و(مصادر ابن القيم في كتابه). وفي **القسم الثاني من الكتاب**: (موقف ابن

القيم من الصوفية). وفي **القسم الثالث من الكتاب**: (ترجمة الهروي: حياته الشخصية ، والعلمية) و(منهج الهروي في كتابه: منازل السائرين) و(تقويم كتاب الهروي إجمالاً مع مدخل في التقويم المقدمات). وفي **القسم الرابع من الكتاب**: (معارضات ابن القيم للهروي في كتاب منازل السائرين: جمع ، وعرض). وفي **القسم الخامس من الكتاب**: (مقارنة شرح عفيف الدين التلمساني: منازل السائرين إلىٰ الحق المبين ، مع شرح ابن القيم: مدارج السالكين). و(التوحيد عند الهروي صاحب المنازل).

عملنا في الكتاب

١- لقد بذلنا هذا الجهد لإخراج الكتاب علىٰ الصورة العلمية الموثقة ، وفق الأصول العلمية للبحث والتحقيق.

٢- عزو الآيات الواردة في متن الكتاب ، وجعل اسم السورة ورقم الآية بين معكوفين.

٣- تخريج الأحاديث النبوية ، من الكتب المعتمدة ، فما كان في الصحيحين اقتصرنا عليهما ، وربما زدنا بعض السنن أو مسند الإمام أحمد. وإن لم يكن فيهما أو أحدهما تتبعنا طرقه ، وذكرنا ما وقفنا عليه من كلام أهل العلم فيه تصحيحاً أو تضعيفاً.

٤- قمنا بتخريج الآثار ، وعزو النقول إلىٰ أصحابها مع بيان مصادرها ، وتتبعنا ذلك تتبعاً دقيقاً.

٥- عزو الأبيات الشعرية إلىٰ قائليها بعد الرجوع إلىٰ كافة الدواوين والمراجع اللغوية والأدبية.

٦- ترجمنا لعامة الأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب عدا المشهورين ، وذلك عند أول ورود ذكر العَلَم.

٧- عرفنا كل منزلة من المنازل في بداية شرحها ، معتمدين كثيراً علىٰ كتب الصوفية ومصنفاتهم المطبوعة ؛ ليتبين مراد القوم منها ودرجاتها عندهم.

٨- قمنا بشرح المصطلحات الصوفية من كتب القوم مع التركيز قدر الإمكان علىٰ مصادرهم المتقدمة ، ثم الرجوع إلىٰ كتب المعاجم والمصطلحات الصوفية الحديثة.

٩- شرح المصطلحات الكلامية ، والكلمات الغريبة.

١٠- التعريف بالفرق والطوائف.

١١- وضع عناوين جانبية لمحتوىٰ النص بالكتاب ، تساعد علىٰ فهمه.

١٢- ضبطنا متن المنازل بالشكل ، وميَّزناه بخط عريض ، وجعلناه بين قوسين صغيرين. ليسهل التمييز بين كلام الهروي وشرح ابن القيم.

١٣- قمنا بالتعليق فيما يحتاج إلىٰ تعليق وتوضيح ، علىٰ بعض المواضع من كلام الهروي أو من الشرح ، وذلك خدمة للكتاب وبياناً لما يعتقده الإنسان أنه الحق ، وربما كان توضيحاً لإشكال ، أو بيان غامض ، خاصة في كلمات الصوفية وبعض ألفاظهم وشطحاتهم ، وبعض اعتذارات ابن القيم وتأويلاته لكلام الهروي التي فيها نوع تكلف أحياناً. وغض الطرف عنها أحياناً أخرىٰ،

وهو ملحظ عام يدركه القارئ المتتبع لهذا الشرح.

١٤- جعلنا في نهاية كل مجلد فهرساً مختصراً خاصّاً بالموضوعات ؛ ليسهل علىٰ القارئ وجود بغيته قريباً في متناول يده ، أما الفهارس التفصيلية لجميع الكتاب فجعلناها في جزء مستقل ؛ تخفيفاً للكتاب ، وتسهيلاً علىٰ القارئ.

١٥- تم دمج فهارس المراجع لأقسام الكتاب جميعاً تحاشياً للإطالة فيما لو أفردنا مراجع كل قسم لوحده ، ولتقارب أو تماثل المراجع عند الجميع ، وذكرنا في مقدمة الفهارس رمزاً لكل قسم بحيث يوضع أمام الكتاب ليعرف القارئ الطبعة المعينة الخاصة بكل قسم.

هذا هو المنهج العام في العمل في الكتاب. أما فيما يتعلق بطريقة كلِّ محقق وما يوختص به فآثرنا إفرادها مختصرة كلٌّ في مجلده الخاص به.

ما تمتاز به هذه الطبعة عن غيرها من الطبعات السابقة

هذه الطبعة التي قمنا بالعمل عليها ، تميزت عن الطبعات السابقة لكتاب مدارج السالكين بمميزات كثيرة ، نذكر من أهمها ما يلي:

١- أنها اعتمدت علىٰ إحدىٰ عشر نسخة خطية ، ما بين كامل وناقص ، وهذا ما لم يقع لأي طبعة سبقت هذه الطبعة. ولذلك من الأهمية ما لا يخفىٰ في تحقيق نص الكتاب ، وحل كثير من الإشكالات التي ربما تظهر بسبب السقط أو الخرم أو التحريف في بعض النسخ.

٢- تميزت هذه الطبعة بتوفر نسخة خطية كاملة وهي نسخة (تشستربتي) بدبلن عاصمة إيرلندا ، ويُقدَّر أنها كتبت في عصر المؤلف بالقرن الثامن الهجري ، والتي تميزت بتمامها ، ووضوح خطها ، وموافقتها لنسخة سوريا. وقد ساعدت كثيرا في تخليص المعنىٰ المراد عند اختلاف النسخ ، وموافقتها للنص الصحيح عند الإشكال غالباً. وهي إحدىٰ أهم النسخ الخطية التي لم يعتمد عليها أحد ممن حقق الكتاب.

٣- إخراج الكتاب بصورة علمية موثقة ، حسب الأصول المتبعة في البحث والتحقيق ، وهو ما كان يحتاجه كتاب في حجم وأهمية كتاب المدارج لابن القيم ، وذلك لأهميته وحاجة العامة والخاصة إليه. وهذا ما لم يسبق لجميع طبعات الكتاب السابقة.

٤- القيام بدراسات علمية متخصصة حول: ترجمة ابن القيم ، ومصادره في كتابه المدارج ، وموقفه من الصوفية ، وترجمة الهروي ، ومنهجه في كتابه منازل السائرين. وتقويم المنازل ، ومعارضات ابن القيم للهروي ، ومقارنة شرح التلمساني مع شرح ابن القيم للمنازل. والتوحيد عند الهروي ، وغيرها. وهذه الدراسات موزعة في بداية كل مجلد من الأقسام الخمسة. وهي مفيدة وعظيمة النفع في بابها.

٥- تميزت هذه الطبعة بالتخريج الكامل لجميع الأحاديث والآثار والنقولات سواء في الأقوال ، أو الأبيات الشعرية ، وكذلك تعريف المصطلحات الصوفية ، والكلمات الغريبة ، وتراجم الأعلام والبلدان.

٦- ضبط متن المنازل ومقابلته علىٰ النص المطبوع لوحده وتشكيله ، حسب القواعد النحوية ؛ ليسهل علىٰ القارئ فهم المراد.

الطبعات التي وقفنا عليها

أولاً : طبع الكتاب لأول مرة في الهند ، في مدينة دهلي ، بعناية يوسف حسين خان بوري هزاروي ، سنة ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م ، وهي طبعة حجرية ، ثم طبع بعدها بسنتين في الهند في مدينة أمرتسر ، في مطبعة القرآن والسنة. وهذه الطبعة لم نقف علىٰ شيء منها ، وإنما ذكرها صاحب « معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية » الدكتور أحمد خان[1].

والذي يظهر أن هذه الطبعة ليست شاملة للكتاب وإنما هي لفصول من المدارج ضمن كتب أخرىٰ.

ثانياً : طبعة المنار وهي الطبعة الكاملة الأولىٰ للكتاب ، طبعت بمطابع دار المنار المصرية بالقاهرة عام ١٣٣١هـ - ١٩١٢م ، بتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - ، وهي في ثلاث مجلدات كبيرة ، وقوبلت علىٰ عدة نسخ كما في المقدمة ، وعليها تعليقات جيدة ، وتخريج لبعض الأحاديث ، وبيان الفروق بين النسخ .

ثالثاً : طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ، بتحقيق: الشيخ محمد حامد

---

(١) انظر: « معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية » منذ دخول المطبعة إليها حتىٰ عام ١٩٨٠م . مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ، ص٣٥٦ ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

الفقي، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر رحمه الله تعالىٰ. طبعت سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م. وعليها تعليقات في بعض المواضع؛ لرد بدع الصوفية وشطحاتهم، في كثير منها قسوة وشدة في اللفظ.

ورغم أنه قابلها علىٰ أربع نسخ خطية إلا أن فيها أخطاءً وأغلاطاً كثيرة تتمثل في سقط كلمات، وحروف، وتصحيفات أدّت إلىٰ تغيير المعنىٰ، وكذلك الاختلاف في عود الضمائر إلىٰ متعلقاتها مما يغير المعنىٰ أو يوجد إشكالاً في فهمه. وقد استفاد كثيراً من طبعة المنار، ونقل بعض التعليقات بنصها[1].

رابعاً: طبعة دار الكتاب العربي في بيروت، بتحقيق وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، سنة ١٤١٦هـ، في ثلاث مجلدات، ولم يقابلها المحقق علىٰ أية نسخة خطية؛ بل هو أعاد طبعة الفقي بتمامها، حتىٰ الصور والنماذج من المخطوطة صورها كما هي، ولم يذكر أو يشير إلىٰ طبعة الفقي، مع بعض التخريجات اليسيرة.

خامساً: طبعة دار البيان في دمشق، بتحقيق: بشير محمد عيون، الطبعة الأولىٰ، سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، في ثلاث مجلدات، وقد اعتمد المحقق علىٰ نسخة سوريا، واستدرك النقص الحاصل في المخطوط من طبعة الفقي. وقام بتخريج الأحاديث، وأبقىٰ بعض تعليقات الفقي مع نسبتها إليه، واستفاد

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال: هامش (١) في ١/ ٣٨ من ط الفقي هو في ط المنار ١/ ٢١ وفي ١/ ٦٠ من ط الفقي هو في ط المنار ١/ ٣٣ وفي ٣/ ٤١٨ من ط الفقي هو في ٣/ ٢٦٨ من ط المنار.

من جميع المطبوعات التي سبقت الكتاب ومن مختصره ، وقيد ما وجده بهامش المخطوط ، ووضعه بهامش الكتاب.

سادساً : طبعة دار الجبل ، بيروت ، أخرجها أحمد فخري الرفاعي ، وعصام فارس الحوستاني ، في ثلاث مجلدات ، وهي حديثة الطبع ولكن لم يذكر فيها تاريخ الطباعة ، وهذه الطبعة كسابقتها إلا أن المحققين صرحوا بمقابلتها علىٰ طبعة المنار وطبعة الفقي فقط ، وورثوا ما فيهما من أغلاط وأخطاء ، ونقلوا كثيراً من تعليقات الفقي مع بعض التخريجات اليسيرة .

سابعاً : وفي أثناء تحقيق الكتاب صدرت طبعة جديدة من نشر دار طيبة ، بالرياض، الطبعة الأولىٰ سنة ١٤٢٣هـ. بتحقيق: عبد العزيز بن ناصر الجُلَيِّل ، في أربع مجلدات ، واعتمد المحقق ، علىٰ ثلاث نسخ: طبعة الفقي وجعلها الأصل ، وطبعة المنار ، ونسخة خطية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، من مكتبة أحمد الراشد. وصرح بأنه اكتفىٰ بهذه النسخة الخطية عن نسخة أخرىٰ بجامعة الإمام قديمة (٨٣٠هـ) ؛ لأنه لا يوجد منها إلا جزء واحد. كما ذكر أنه استفاد من المطبوعات الأخرىٰ في حل الجمل المضطربة، خاصة طبعة دار البيان بتحقيق: بشير عيون.

وقد حذف كثيرًا من تعليقات الفقي ورشيد رضا ، وأبقىٰ بعضها مع وضع بعض الملاحظات عليها. كما علق تعليقات جيدة تتعلق بالدعوة والتحديات المعاصرة. وقام بتخريج الأحاديث ، وميّز متن الهروي بخط عريض ، ووضع بعض العناوين الإضافية لبعض الفصول ، وفهرس الآيات والأحاديث.

مختصرات وتهذيبات كتاب مدارج السالكين

- **تحفة المقتصدين من مدارج السالكين**، اختارها ورتبها: عبد الرحمن ابن عبدالعزيز بن محمد بن سحمان. وهذا الكتاب وقفنا عليه في فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ومضموم إليه كتابان آخران لنفس المؤلف هما: سبيل النجاة في باب الأسماء والصفات، والمحفوظات السامية الكافية الشافية.

- **تهذيب مدارج السالكين**، لعبد المنعم صالح العلي العزي، من مطبوعات مؤسسة الرسالة، ويقع في مجلدين، وهو من أشهر الكتب التي اختصرت كتاب المدارج وأفضلها، اعتمد في تهذيبه علىٰ حذف كل ما يقطع القارئ من ردود ابن القيم واستطراداته الفقهية واللغوية، والشواهد الشعرية، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والأحاديث الضعيفة، والآثار الإسرائيلية، والأقوال المنسوبة إلىٰ زهاد مجروحين، والمعاني المكررة.

- **المنتقىٰ الثمين من كتاب مدارج السالكين**، لزامل بن صالح الزامل. وهو انتقاء لبعض الفوائد من المدارج، يقع في جزء واحد، طبع الطبعة الأولىٰ بدار قارة بجدة سنة ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

- **بغية القاصدين من كتاب مدارج السالكين**، تأليف: عبد الله بن خلف السبت. يقع في جزء واحد، طبع الطبعة الأولىٰ بالدار السلفية، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

- **مسار الراغبين إلىٰ مدارج السالكين**، تأليف: صالح بن محمد

الخلف. الطبعة الأولىٰ سنة ١٩٩٨م ، ويقع في جزء واحد.

- **تهذيب مدارج السالكين** ، لمحمد بيومي. يقع في جزء واحد ، طبعة مكتبة الإيمان.

وصف النسخ الخطية

* **النسخة الأولىٰ: نسخة سوريا** ، وهي في معهد التراث العربي بحلب ، والنسخة الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب، وتحمل الرقم: [٦٩٦] تصوف، ثم نقلت إلىٰ مكتبة الأسد في دمشق [٧١٠ ، ٧١١] ، و[١٥٤١٢، ١٥٤١٣] ، وتقع في جزئين ، عدد أوراق الأول [٢٣٩] ، والثاني [٢٥٨] ، ورقم فلمها [٤٨ ، ٤٩] ، وفي كل صفحة [٢١] سطراً ، وفي كل سطر [١٠-١١] كلمة ، وقد نسخت سنة [٧٣١هـ]، كما نص علىٰ ذلك ناسخها في آخر المجلد الثاني، وعلىٰ هذا فهي كتبت قبل وفاة المؤلف بعشرين سنة. إلا أنها نسخة مخرومة حيث سقط منها ما يقارب الثلث تقريباً علىٰ أن ناسخها قال في آخرها (آخر المجلد الثاني وبه تم الكتاب نسأل الله تعالىٰ أن يجعله خالصاً لوجهه والحمد لله وحده وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم) وكان نهايتها في صفحة ٣٨ من المجلد الثالث من المطبوعة . أي في نهاية الدرجة الأولىٰ من منزلة المحبة .

كما أن علىٰ ورقة العنوان عشرة أبيات تقريظ لكتاب مدارج السالكين ، وفي نهايتها كتب: [كتبها ناظمها علي بن العز الحنفي] ، ولعله شارح

الطحاوية ، المتوفىٰ سنة ٧٩٢هـ. وكتب علىٰ صفحة العنوان: « الأول من مدارج السالكين في منازل السائرين » تأليف الشيخ الإمام العامل العلامة ، أوحد العصر إمام السنة وناصرها في المتأخرين شيخ الإسلام ، أبي عبد الله ، شمس الدين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ، إمام الجوزية ، تغمده الله برحمته ، بمنه وكرمه. وعليه تملك لمعتوق بن علي سنة ١١١٦هـ.

والكتاب مجزَّأ إلىٰ أجزاء ، كل عشر ورقات جزء ، وقد سقط من أول الكتاب مقدار عشر ورقات ، وهو الجزء الثاني ، ويوافق في المطبوع –طبعة الفقي– من ص ٢١-٣٦.

وهذه النسخة اتفق المحققون علىٰ جعلها النسخة الأصلية ، سوىٰ القسم الرابع والخامس ؛ لوجود سقط في آخرها.

وأهم أسباب الاعتماد علىٰ هذه النسخة:

١- أنها كتبت في حياة المؤلف.

٢- أنها سليمة من السقط والخرم والتصحيف ، إلا ما ندر.

٣- أنه يوجد عليها مقابلات علىٰ الأصل الذي كتبت منه ، فقد كتب علىٰ هامش النسخة في مواضع متعددة: « بلغ مقابلة » .

٤- جودة الخط ، وهو خط الرقعة.

٥- أنها تتفق مع نسخة « تشستربتي » ، والتي يقدر أنها نسخت في القرن الثامن ، أي في العصر الذي عاش فيه المؤلف.

٦- أن عليها تعليقات وتهميشات وتصحيح ، ومن ذلك: الدائرة المنقوطة

عند نهاية بعض المقاطع.

* **النسخة الثانية: نسخة «تشستربتي» بدبلن عاصمة إيرلندا**؛ وهي مصورة علىٰ فلم في جامعة الإمام برقم [٣٦٢٧]، وتقع هذه النسخة في [٤٣٢/ لوحة] أي [٨٦٤] صفحة، وفي كل صفحة [٣١] سطراً، وفي كل سطر ما بين [١٢] إلىٰ [١٤] كلمة، وعليها تعليقات وتهميشات وتصحيح وبيان لمعاني بعض الكلمات، وعليها مقابلات علىٰ الأصل الذي كتبت منه، كما أنها يوجد فيها الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع، وهي تدل علىٰ معارضة النسخة مع الأصل، وهي نسخة يقدر أنها كتبت في القرن الثامن، كما هو مثبت عليها، وهي تتفق مع نسخة سوريا [الأصل] في الغالب، وهي نسخة كاملة وسليمة من الخرم والتصحيف والأخطاء غالباً، وخطها نسخ ومشكول في بعض العبارات، وكتب علىٰ ورقة العنوان: [مدارج السالكين في شرح منازل السائرين]، ثم كتب اسم المؤلف، وهي مجزءة إلىٰ أجزاء، وكل جزء يتراوح بين [١٠] إلىٰ [١١] ورقة. ولم يكتب عليها اسم الناسخ.

وقد تم اعتمادها نسخة أصلية للقسم الرابع والخامس. وأهم أسباب جعلها النسخة الأصلية:

١ - أنها أكمل النسخ وأتمها، وعدم خرمها إلا كلمات يسيرة.

٢ - أنها كتبت في القرن الثامن أي في عصر المؤلف، وقد كتب عليها: نُسِخَتْ في القرن الثامن تقديراً.

٣ - عليها مقابلات علىٰ الأصل الذي كتبت منه.

٤ - عليها تعليقات وتهميشات وتصحيح ، ومن ذلك الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع .

٥ - اتفاقها مع نسخة سوريا.

٦ - أنها سليمة من الخرم والتصحيف والأخطاء غالباً.

٧ - أن خطها واضح وهو نسخ ومشكول في بعض العبارات .

٨ - وجود التعليقات وبيان المبهمات غالباً ووضع العناوين للمنازل.

٩ - جودتها في تخليص المعنىٰ المراد عند اختلاف النسخ ، وموافقتها للنص الصحيح عند الإشكال غالباً.

*** النسخة الثالثة: نسخة أصلية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،** رقمهما [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨] ؛ تقع في مجلدين ، عدد أوراقها [٤٣٤] ، ومسطرتها [٢٣] ، وفي كل سطر ١٣ كلمة ، خطوط مختلفة ، واضحة جيدة ، وقد وقع فيها سقط من منتصف كلامه علىٰ الفناء إلىٰ منتصف كلامه علىٰ المحاسبة تقريباً ، وتتوافق كثيراً مع النسخة الثانية [تشستربتي] ، وهي تمثل في المطبوع [٢٢] صفحة من [ج١/ ١٥٣ إلىٰ ١٧٥] ، وقد أهداها عبد الله بن علي بن زيد الزير إلىٰ مكتبة جامعة الإمام وهذه النسخة قد حصل فيها سقط أيضاً في منزلة المحبة ما يقارب ثلاث ورقات منها وهي في المطبوعة ٣/ ١٠ عند قوله (ومنه حِب الماء) إلىٰ ٣/ ١٩ عند قوله: (قد أنكروا خاصة الخلق والأمر) .

وعليها تصحيحات ومقابلات ، وكتب علىٰ ورقة العنوان: «المجلد الأول

من كتاب مدارج السالكين في منازل السائرين» ، ثم ذكر اسم المؤلف ، وكتب عليها أيضا «المجلد الأول ، وهو وقف لوجه الله تعالىٰ علىٰ طلبة العلم ... والنظر عليه لمن أوقفه مدة حياته وهو الفقير إلىٰ الله عبد الله بن عيسىٰ بن زيد الزير ... وذلك سنة [١٣٣٥هـ]» ، وفي أول المجلد الثالث: «توقيف من عبد الله بن عيسىٰ الزير في شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٣هـ» .

* **النسخة الرابعة: نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٥٢٢]** ؛ تقع في مجلدين ، وعدد أوراقها [٢٥٥] ، وعدد الأسطر [٢٥] ، وعدد الكلمات من [١١] إلىٰ [١٤] ، وفي نهاية المجلد الأول كتب تم الجزء الأول من شرح منازل السائرين بحمد الله في العشر الأول من ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة ، بقلم سيد محمد الجمالي البخاري ، بمدينة دمشق ، وهي ناقصة من الآخر ، كتب علىٰ صفحة العنوان: [الجزء الأول من مدارج السالكين في شرح منازل السائرين] ، ثم ذكر اسم المؤلف ، وعلىٰ الكتاب وقفية كتبت في ثالث عشر من شهر رجب الفرد سنة سبع وأربعين وثمان مائة ، وأشير في الوقفية إلىٰ أن الكتاب يقع في مجلدين ، والمجلد الثاني مفقود ؛ والكتاب مجزء إلىٰ أجزاء ، كل [٨] ورقات جزء ، وعليه تصحيحات ومقابلات ، ويحتوي علىٰ الدائرة المنقوطة. خطها رقعة واضح وجيد.

* **النسخة الخامسة: نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة** ؛ عدد أوراقها [٣٢٨] ورقة ، وفي كل صفحة [٢٧] سطراً ، وفي السطر [١٦] كلمة ، وهي جزءان في مجلد واحد ، كتبها محمد أبو السعود الجمالي

المصري الأنصاري ، في يوم الجمعة ضحوة النهار ، التاسع عشر من شهر ذي القعدة ، سنة [٩٣٦هـ] ، توجد بها الدائرة المنقوطة ، وعليها تصحيحات وتعليقات ، كتب علىٰ بعضها: كتبها: « علي عراق » ، ولعلها لأبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني المتوفىٰ سنة [٩٦٣هـ] ، صاحب كتاب تنزيه الشريعة المرفوعة ، يوجد بأولها فهرست لأسماء منازل كتاب منازل السائرين التي ذكرت في كتاب المدارج ، ومعه أرقام الصفحات ، بخط مغاير لخط النسخة ، كما استخرجت بعض الفوائد ، ووضعت في صفحة العنوان وصفحة أخرىٰ ، وفي ورقة العنوان كتب: « الجزء الأول من كتاب مدارج السالكين في منازل السائرين » ، ثم ذكر اسم المؤلف. وهذه النسخة يكثر فيها الأخطاء والمخالفات للنسخ الأخرىٰ.

* **النسخة السادسة: نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١]**؛ تقع في ثلاث مجلدات، وتاريخ نسخها سنة [١٣٠١هـ] ، وعدد أوراقها [٥٢٤] ورقة، وعدد الأسطر [٢٥] ، وقد سقط من هذه النسخة ما يقارب الورقة وذلك في الفصل الثاني من منزلة الطمأنينة. وأما سقط الجمل فيكثر فيها. وفيها سقط من آخر منزلة الوجود إلىٰ قبيل نهاية الكتاب ، وتمثل في المطبوع [٨٦] صفحة ، وعلىٰ هوامش النسخة تصحيحات ومقابلات ، خطها ضعيف جداً والتعليقات التي في الهامش إنما هي لسقط حصل في المتن ، وكتبت بخط مغربي ، كتب في أول الكتاب: «كتاب مدارج السالكين في منازل السائرين» ، ثم ذكر اسم المؤلف.

* **النسخة السابعة: نسخة دار الكتب المصرية رقم [٨٧٤] تصوف؛** وتقع في مجلدين، وعدد الأسطر في الصفحة [٢٥]، وهي مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية، وخطّها جيد وعليها تهميشات، كتبت عام [١٣٢٠هـ]، بقلم محمد بن عبدالرحمن بن عبد العزيز بن محمد ابن فوزان، وفيها سقط من منزلة المعاينة إلىٰ قبيل نهاية منزلة الحياة، وهي في المطبوع [٤٢] صفحة، كتب علىٰ ورقة العنوان: « كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين »، ثم ذكر اسم المؤلف. وفيها سقط من منزلة المعاينة إلىٰ قبيل نهاية منزلة الحياة، وسقط آخر في وسط منزلة التوحيد ومقداره لوحة واحدة.

* **النسخة الثامنة: نسخة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مصورة من مكتبة أحمد الراشد في مدينة الغاط؛ وهي برقم [١٠٨٧٤/ ف]،** وتقع في ثلاث مجلدات، وأرقامها ١٠٨٧٣، ١٠٨٧٤، ١٠٨٧٥، وعدد أسطر الصفحة [٢٥] سطراً، وفي كل سطر ١٢ كلمة تقريباً. وتم نسخها في ذي الحجة عام [١٣١٧هـ]، خطها جيد، وفيها سقط من بداية منزلة التفريد إلىٰ آخر الكتاب، وهي في المطبوع [١٠٣] صفحات، وعليها مقابلات وتصحيحات، وفي ورقة العنوان كتب: « المجلد الأول من كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين »، ثم ذكر اسم المؤلف.

* **النسخة التاسعة: نسخة المعهد العلمي بحائل رقم [٨]؛** وهي من مكتبة صالح بن سالم البنيان، نسخت سنة [١٣١٨هـ]، وهي ناقصة من الأول

والوسط والأخير ، وخطها نسخ واضح ، وعدد الأسطر في الصفحة [٢٥] ، وعلىٰ هامشها تصحيحات وتهميشات ، وكتب علىٰ ورقة العنوان: «المجلد الأول من مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» ، ثم ذكر اسم المؤلف ، وكتب عليها «أمانة لإدريس أخونا راعي شقراء».

وينتهي المجلد الأول بنهاية منزلة الخشوع وما بعده ساقط ، وخطها جيد. وهو بقلم إدريس بن إدريس بن سليمان بن عبد الله بن حمد بن سلطان بن غيهب.

والمجلد الثاني يبدأ كما في المطبوعة من ٢/ ٣٦٤ ، وينتهي بآخر المجلد الثالث أي آخر الكتاب. في كل سطر ١٠ كلمات تقريبا. وهي بخط خلف بن عبدالله الخلف ، وهذه النسخة يكثر فيها السقط لكلمات وجمل ، وعلىٰ هامشها بعض التصويبات.

* **النسخة العاشرة: وهي المجلد الأول في المعهد العلمي بحائل ،** علماً أنه لا صلة بين المجلد الأول والثاني ، وهي في المعهد العلمي رقمت بنفس الرقم للمخطوطة السابقة أي رقم (٨) وهذه النسخة عدد أوراقها ١٥٨ ورقة وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة ٢٠ سطراً وفي كل سطر ١٠ كلمات تقريباً ، وخطها جيد وهذه النسخة من النسخ التي يكثر فيها الأخطاء والمخالفة لبقية النسخ كما يكثر فيها سقط الكلمات وبعض الجمل . كتب عليها اسم مالكها ناصر بن راشد الخياط شهد علىٰ ذلك مشاري بن عبد العزيز وكاتبه يعقوب بن محمد حرر في ١٣٠٧هـ .

ووقف الكتاب وجعل النظر فيه ليعقوب بن محمد مدة حياته ثم بعده علىٰ طلبة العلم شهد علىٰ ذلك عبد الرزاق ابن الشيخ وشهد به سليمان بن دواس حرر في ١٣١٣هـ. وهذه النسخة تبدأ من باب الذكر وتنتهي في منتصف باب التمكين وهي في المطبوعة من ٢/ ٤٢٣ - ٣/ ٢٢٠.

وعلىٰ هذا فهذه النسخة خاصة بالقسم الرابع من طبعتنا هذه.

النسخة الحادية عشر: نسخة مكتبة حمود بن حسين الشغدلي بحائل، رقمها [٦٤٩]، رقم الحفظ [١٣/ ٢/ ز]؛ وهي ناقصة من الأول والأخير، وعدد الأسطر في الصفحة [٣٥]، وعدد الكلمات في السطر [١٩]، خطها واضح وجيد، تم نسخها بيد عبد الله بن عايض، وعلىٰ ورقة العنوان: «أوقفت رقية آل متعب هذا الكتاب المسمىٰ بالمدارج» حرر بذي المحرم الثاني عشر من هجرته ﷺ.

النسخة المطبوعة

اعتمد أغلب المحققين طبعة دار الكتاب العربي بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر -رحمه الله-، وهي النسخة التي تم عليها المقارنة والمقابلة، وإظهار الفروق بينها وبين النص المعتمد عند التحقيق. وهي التي تقصد إذا قيل: كذا في المطبوع ونحو ذلك من عبارات. وهذه الطبعة يوجد فيها أخطاء وأغلاط كثيرة تتمثل في سقط كلمات، وحروف، وتصحيفات أدّت إلىٰ تغيير المعنىٰ، وكذلك الاختلاف

في عود الضمائر إلىٰ متعلقاتها مما يغير المعنىٰ أو يوجد إشكالاً في فهمه.
وهذه الطبعة وإن لم تكن الأسبق والأولىٰ حيث سبقتها الطبعة الحجرية في الهند وطبعة المنار ؛ إلا أنها هي الموجودة والمنتشرة بين أيدي الناس. وقد استفاد الفقي كثيراً من طبعة المنار ، ونقل بعض التعليقات بنصها. وقد قابلها علىٰ أربع نسخ خطية كما ذكر ذلك في أول الكتاب.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نشكر الله تعالىٰ الذي منَّ علينا وتفضَّل وسهَّل لنا إخراجَ هذا الكتاب ، فلولا فضلُ الله ما اهتدينا ، وما أطعنا وما اقتدينا ، وما كتبنا وما عَلِمنا ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل :٥٣] ؛ فله الحمد كلُّه ، وله الشكر والثناء كلُّه ، وإليه يرجع الأمر كلُّه: علانيتُه وسِرُّه.

ثم نشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ممثلةً بكلية أصول الدين بالرياض علىٰ إتاحتها هذه الفرصة ، وقبول هذه الأطروحات العلمية ؛ فلهم منَّا وافر الشكر والتقدير والعرفان. والشكر موصول لجميع مشايخنا المشرفين علىٰ هذه الرسائل ؛ فقد بذلوا من جهودهم وأوقاتهم ما لا نجازيهم به إلا دعاءً خالصاً أن يرفع الله أقدارهم ، ويزيدهم علماً وعملاً وثباتاً.

ونشكر أيضاً جميع المشايخ والأساتذة والزملاء وطلاب العلم ، الذين شاركوا بآرائهم واقتراحاتهم وأتحفونا بتوجيهاتهم ، وأعارونا من نوادر مكتباتهم ، وعلىٰ رأسهم: فضيلة الشيخ الدكتور: عبد الرحمن بن صالح المحمود. الأستاذ المشارك بقسم العقيدة بكلية أصول الدين بالرياض. وفضيلة الأستاذ الدكتور: إبراهيم بن حمد المحيميد. الأستاذ المساعد بكلية

اللغة العربية بجامعة القصيم.

كما نخص بالشكر الأخَ الكريم خالد بن محمد الخضيري ، الذي شارك معنا في تنسيق الرسائل ، ومراجعتها وتصحيحها ، فشكر اللهُ جهدَه ، وضاعف أجرَه.

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ معلِّمنا وحبيبنا محمد بن عبد الله ، وعلىٰ آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين. والحمد لله رب العالمين.

المحقِّقون

د. ناصر بن سليمان السعوي — د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي

د. صالح بن عبد العزيز التويجري — د. خالد بن عبد العزيز الغنيم

د. محمد بن عبد الله الخضيري

أعضاء هيئة التدريس بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

القصيم – بريدة ص.ب ٥٧٧٤ الرمز البريدي ٥١٤٣٢

بريد الكتروني : mal6044@gmail.com



صور من النسخ المخطوطة



فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم وسبيله التي هو عليها التي هي مستقيمة
سبحانه وتعالى فلا يستقيم هذا القول لبته وأما قول من فسر
بالوجوب أي على بيان استقامته والدلالة عليه فالمعنى صحيح لكن
في كونه هو المراد بالآية نظر لأنه حذف في غير موضع الدلالة ولم
يؤلف الحذف المذكور ليكون مدلولا عليه إذا حذف بخلاف حذف
عامل الظرف إذا وقع صفة فإنه محذوف مألوف معروف حتى أنه
لا يذكر البتة فإذا قلت له درهم على كان الحذف معروفا مألوفا
فلو أردت أن تقدر أو على وزنه وحفظه ونحو ذلك وجدت الشيخ
وهو نظير على بيانه المقدر في الآية مع أنها الذي قاله السلف
اللائق بالسياق وأجل المعنيين وأكبرهما وسمعت شيخ الإسلام
رضي الله عنه يقول وهما نظير قوله تبارك وتعالى إن علينا
للهدى قال فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى قلت
وأكثر المفسرين لم يذكروا في سورة والليل إذا يغشى إلا معنى
الوجوب أي علينا بيان الهدى من الضلال ومنهم من لم يذكر إلا
في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي وذكر في الجزء الأول
الثلاثة وذكر ال[illegible] هدي في بسيط المعنيين في سورة النحل
واختيار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث
فصل والصراط المستقيم هو من صراط الله وهو يخبر أن
الصراط عليه سبحانه كما ذكرنا ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم
وهذا في موضعين من القرآن في هود والنحل قال في هود ما من
دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم وقال

[illegible]

في

صورة من نسخة سوريا

الأول من مدارج السالكين

في منازل السائرين

تأليف الشيخ الإمام العالم العامل العلامة أوحد العصر

إمام السنة وناصرها في المتأخرين شيخ الإسلام

أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب

إمام الجوزية تغمده الله برحمته

بمنه وكرمه

وللشيخ المذكور كتاب آخر يقال له مفتاح دار السعادة ومطالب أهل العلم والإرادة

الحمد لله

صاح هذي مدارج السالكينا تدرجت في منازل السائرينا

جد واسعد تسعد بهذا الصراط المستقيم الذي إليه دعينا

لا تحد عن هذا الصراط فنيه تصحب الأنبياء والصالحينا

إن هدينا له فكل ضلال وجحود زال يقينا بيقينا

الورقة الأولى من نسخة سوريا

التي توصله اليها فلا بد هنا من امرين مفارقة شي والرجوع الى غيره
فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة وعند افراد احدهما يتناول
الامرين ولهذا والله اعلم جا الامر بهما مرتبا بقوله استغفروا ربكم ثم توبوا
اليه فانه الرجوع الى طريق الحق بعد مفارقة طريق الباطل وايضا فالاستغفار
من باب طلب ازالة الضرر والتوبة طلب جلب المنفعة فالمغفرة ان يقيه شر
الذنب والتوبة ان يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه فكل منهما يستلزم الاخر عند
افراده ٥ **فصل** وهذا نبتدي بذكر التوبة النصوح وحقيقتها
قال تعالى يا ايها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر
عنكم سياتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار فجعل وقاية شر السيات
وهو تكفيرها بزوال ما يكره العبد ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد
منوطا بحصول التوبة النصوح والنصوح على وزن فعول المعدول عن فاعل
قصدا للمبالغة كالشكور والصبور واصل مادة ن ص ح لخلاص الشي من الغش
والشوائب الغريبة وهو ملاق في الاشتقاق الاكبر لنصع اذا خلص فالنصح
في التوبة والعبادة والمشورة تخليصها من كل غش ونقص وفساد وايقاعها
على اكمل الوجوه والنصح ضد الغش وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها
الى شي واحد فقال عمر بن الخطاب وابي بن كعب رضي الله عنهما التوبة النصوح
ان تتوب من الذنب ثم لا تعود اليه كما لا يعود اللبن الى الضرع وقال الحسن
البصري هي ان يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على ان لا يعود فيه وقال
الكلبي ان تستغفر باللسان وتندم بالقلب وتمسك بالبدن وقال سعيد بن
المسيب توبة نصوحا تنصحون بها انفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب كالضروب
المعدول عن ضارب واصحاب القول الاول يجعلونها بمعنى المفعول اي قد
نصح فيها التائب ولم يشبها بغش فهي اما بمعنى منصوح فيها كركوبة وحلوبة
بمعنى مركوبة ومحلوبة او بمعنى الفاعل اي ناصحة كخالصة وصادقة وقال محمد
بن كعب القرظي رحمه الله يجمعها اربعة اشيا الاستغفار باللسان والاقلاع
بالابدان واضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الاخوان ٥ قلت النصح
في التوبة متضمن ثلاثة اشيا الاول تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا يدع
ذنبا الا تناولته والثاني اجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى
عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل ارادته وعزيمته مبادرا بها ٥
الثالث تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في اخلاصها ووقوعها لمحض
الخوف من الله تعالى وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب
لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته او لحفظ حاله او حفظ قوته وماله

او استدعا

صورة من نسخة تشستربتي



الورقة الأولى من نسخة تشستربتي

اذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية فان المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم وما لا
نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده او اكثر منه او دونه وما لا نقدر عليه مما نريده
كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله امر يفوت الحصر ونحن محتاجون
الى الهداية التامة فمن كملت له هذه الامور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت
والدوام وللهداية مرتبة اخرى وهي اخر مراتبها وهي الهداية يوم القيمة
الى طريق الجنة وهو الصراط الموصل اليها فمن هدي الى الصراط المستقيم الموصل
الى جنته وثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي
الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب
على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط
فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر
كشد الركاب ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبوا
حبوا ومنهم المخدوش المسلم ومنهم المكردس في النار فلينظر العبد سيره
على ذاك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا هل تجزون
الا ما كنتم تعملون ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على
هذا الصراط المستقيم فانها الكلاليب التي بجنبتي الصراط تخطفه وتعوقه
عن المرور عليه فان كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك وما ربك
بظلام للعبيد فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل
شر الموضع السابع من معرفة نفس المسؤل وهو الصراط المستقيم
ولا تكون الطريق صراطا حتى تتضمن خمسة امور الاستقامة والايصال
الى المقصود والقرب وسعته للمارين عليه وتعينه طريقا للمقصود ولا يخفى
تضمن الصراط المستقيم هذه الامور الخمسة فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه
لان الخط المستقيم هو اقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوج
طال وبعد واستقامته تتضمن ايصاله الى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم

صورة من النسخة الأصلية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رقم [٨٧٨٧، ٨٧٨٨]

كتاب المجلد الاول من مدارج السالكين في منازل السائرين

تاليف الشيخ الامام العلامه الاوحد

شيخ الاسلام علامة الدنيا ناصر السنة

قامع البدعة ابي عبد الله شمس الدين

محمد بن ابي بكر بن ايوب الزرعي المشهور

بابن القيم الجوزية قدس الله روحه

ونور ضريحه ولعاد علينا من

بركة علومه والمسلمين امين

والحمد لله اولا واخرا

وصلى الله على

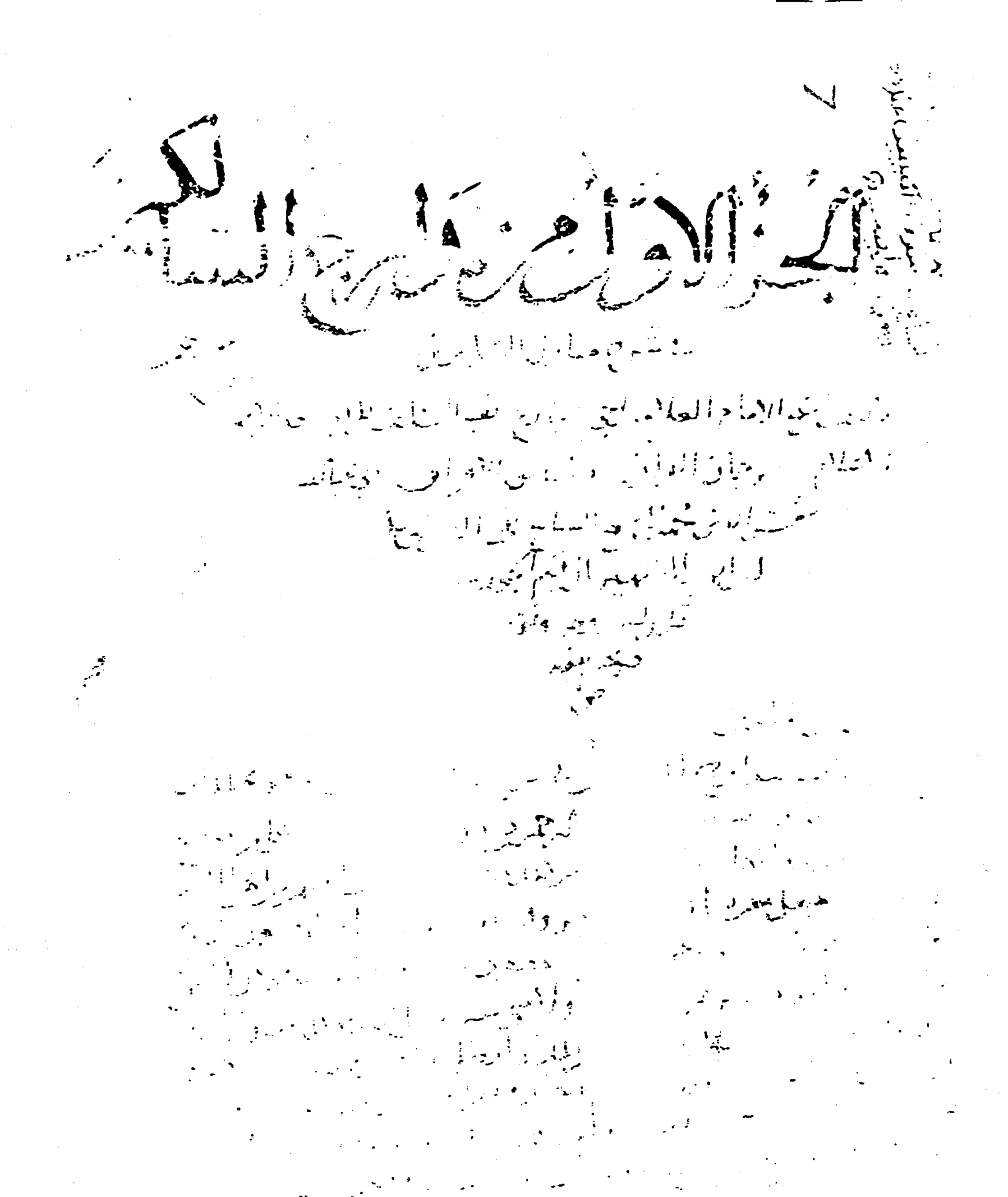
الورقة الأولى من النسخة الأصلية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رقم [٨٧٨٧، ٨٧٨٨]

الاسلام تقي الدين ابن تيمية رضي الله عنه يقول وهما نظير قوله تعالى إن علينا للهدى قال الحق
ثلثة مواضع في القرآن في هذا المعنى قلت واكثر المفسرين لم يذكر في سورة والليل اذا يغشى الا
معنى الوجوب اي علينا بيان الهدى من الضلال ومنهم من لم يذكر في سورة النحل الا الاصل
المعنى كالبغوي وذكر في البحر الاقوال الثلثة وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة
النحل واختار شيخنا رحمه الله قول مجاهد ويحسن في السور الثلث والله اعلم

فصل والصراط المستقيم هو صراط الله وهو يخبر ان الصراط عليه سبحانه كما
ذكرنا واخبر انه سبحانه على الصراط المستقيم وهذا في موضعين من القرآن في هود والنحل
قال في هود ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم وقال في النحل وضرب الله
مثلا رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي
ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم فهذا مثل ضربه الله للاصنام التي لا تسمع ولا تنطق
ولا تعقل وهي كل على عابدها يحتاج الصنم الى ان يحمله عابده ويضعه ويقيمه ويخدمه فكيف
يسوونه في العبادة بالله الذي يامر بالعدل والتوحيد وهو قادر متكلم غني وهو على صراط مستقيم
في قوله وفعله فقوله صدق ورشد ونصح وهدى وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة هذا
اصح الاقوال في الآية وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره ومن ذكر غيره قدمه على الاقوال ثم حكاها
بعده كما فعل البغوي فانه جزم به وجعله نسقا للآية ثم قال وقال الكلبي يدلكم على صراط مستقيم قلت
ودلالته لنا على الصراط المستقيم هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم فان دلالته بفعله
وقوله وهو على الصراط المستقيم في افعاله واقواله فلا يناقض قول من قال انه سبحانه على الصراط
المستقيم قال وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم قلت وهذا
حق لا يناقض القول فان الله على الصراط المستقيم ورسوله عليه فانه لا يامر ولا يفعل الا مقتضاه و
موجبه وعلى هذا يكون المثل مضروبا لامام الكفار وهاديهم وهو الصنم الذي هو ابكم لا يقدر على
هدى ولا خير ولامام الابرار وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم وعلى
القول الاول يكون مضروبا لمعبود الكفار ومعبود الابرار والقولان متلازمان فبعضهم ذكر هذا
وبعضهم ذكر هذا وكلاهما مراد من الآية قال وقيل كلاهما للمؤمن والكافر يرويه عطية عن ابن عباس
وقال عطاء الابكم ابي بن خلف ومن يامر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون قلت
والآية تحتمله ولا تناقض القولين قبله فان الله على صراط مستقيم ورسوله واتباع رسوله وضد ذلك

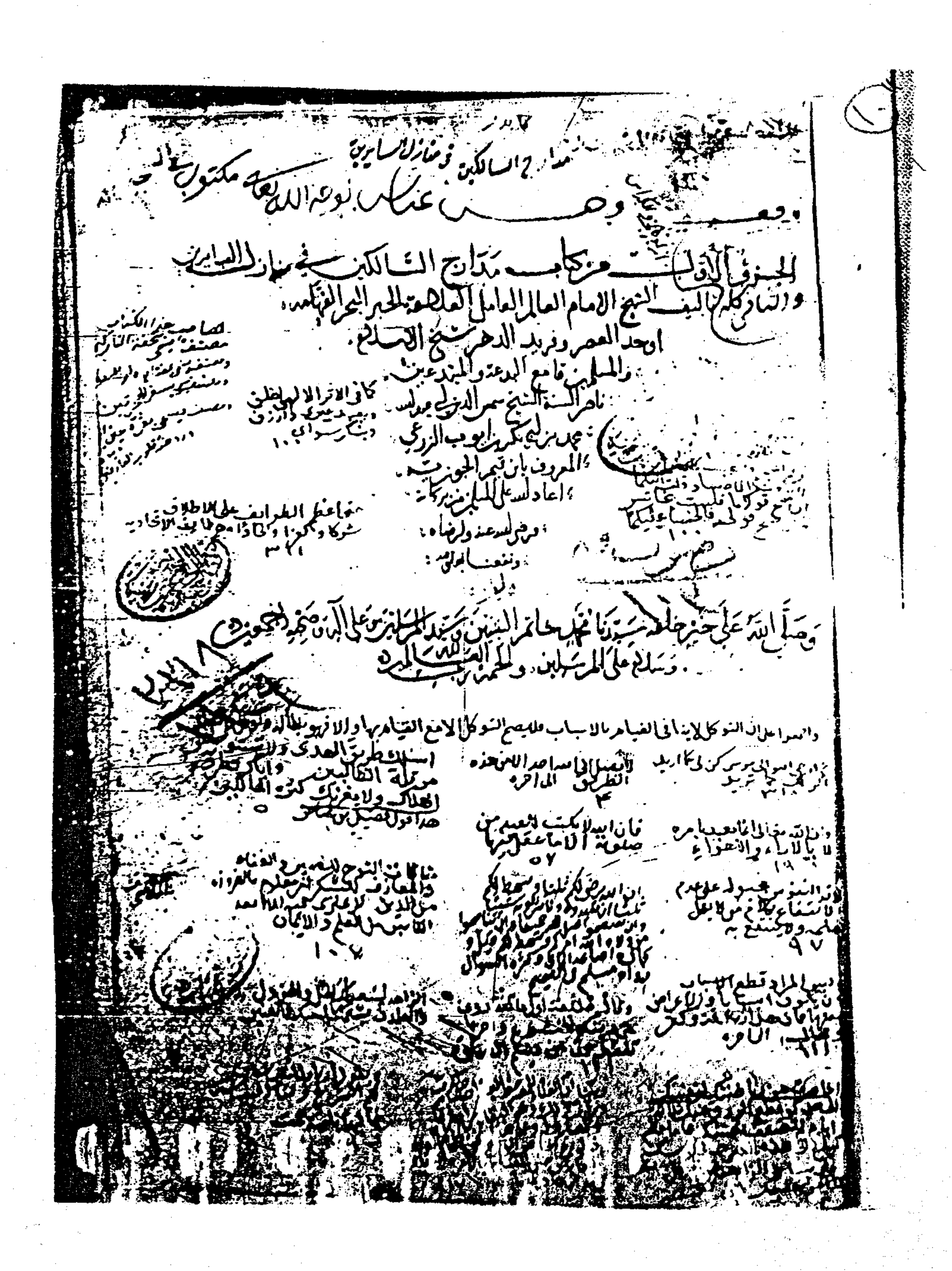
صورة من نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٥٢٢]



الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٥٢٢]

بالرفيق نبه به السبيل على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم
الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه
وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له فإنهم
هم الأقلون قدرا وإن كانوا الأكثرين عددا كما قال بعض السلف عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة
السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق
السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإذا صاحوا بك في
طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك وقد ضربت لذلك مثلان فليكونا
منك على بال المثل الأول رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها فعرض له في طريقه شيطان
من شياطين الإنس فألقى عليه كلاما يؤذيه فوقف ورد عليه وتماسكا فربما كان شيطان الإنس
أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتت الصلاة وربما كان الرجل أقوى من شيطان
الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة فإن التفت إليه أطمعه في نفسه
وربما فترت عزيمته فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر فإن أعرض عنه
واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه شيئا المثل الثاني
الظبي أشد سعيا من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه
والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم وهذا إحدى
الفوائد في دعاء القنوت اللهم اهدني فيمن هديت أي أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقا لهم ومعهم
[illegible] أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية
على من هديت وكان ذلك نعمة منك فاجعل لي نصيبا من هذه النعمة واجعلني واحدا من هؤلاء المنعم عليهم
فهو توسل إلى الله بإحسانه والفائدة الثالثة كما يقول السائل للكريم تصدق علي في جملة من تصدقت
عليه وعلمني في جملة من علمته وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك فصل ولما كان سؤال
الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب علم الله عباده كيفية سؤاله
وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان
إلى مطلوبهم توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديته وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما
الدعاء ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام
أحمد والترمذي أحدهما حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو وهو
يقول اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد

صورة من نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة


مدارج السالكين في منازل السائرين

الجزء الأول من كتاب مدارج السالكين في منازل السائرين

والسائر كلها تأليف الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة

اوحد العصر وفريد الدهر شيخ الاسلام

والمسلمين قامع البدعة والمبتدعين

ناصر السنة الشيخ شمس الدين ابو عبد الله

محمد بن ابي بكر بن ايوب الزرعي

المعروف بابن قيم الجوزية

اعاد الله على المسلمين من بركاته

ورضي الله عنه وارضاه

ونفعنا بعلومه

وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة

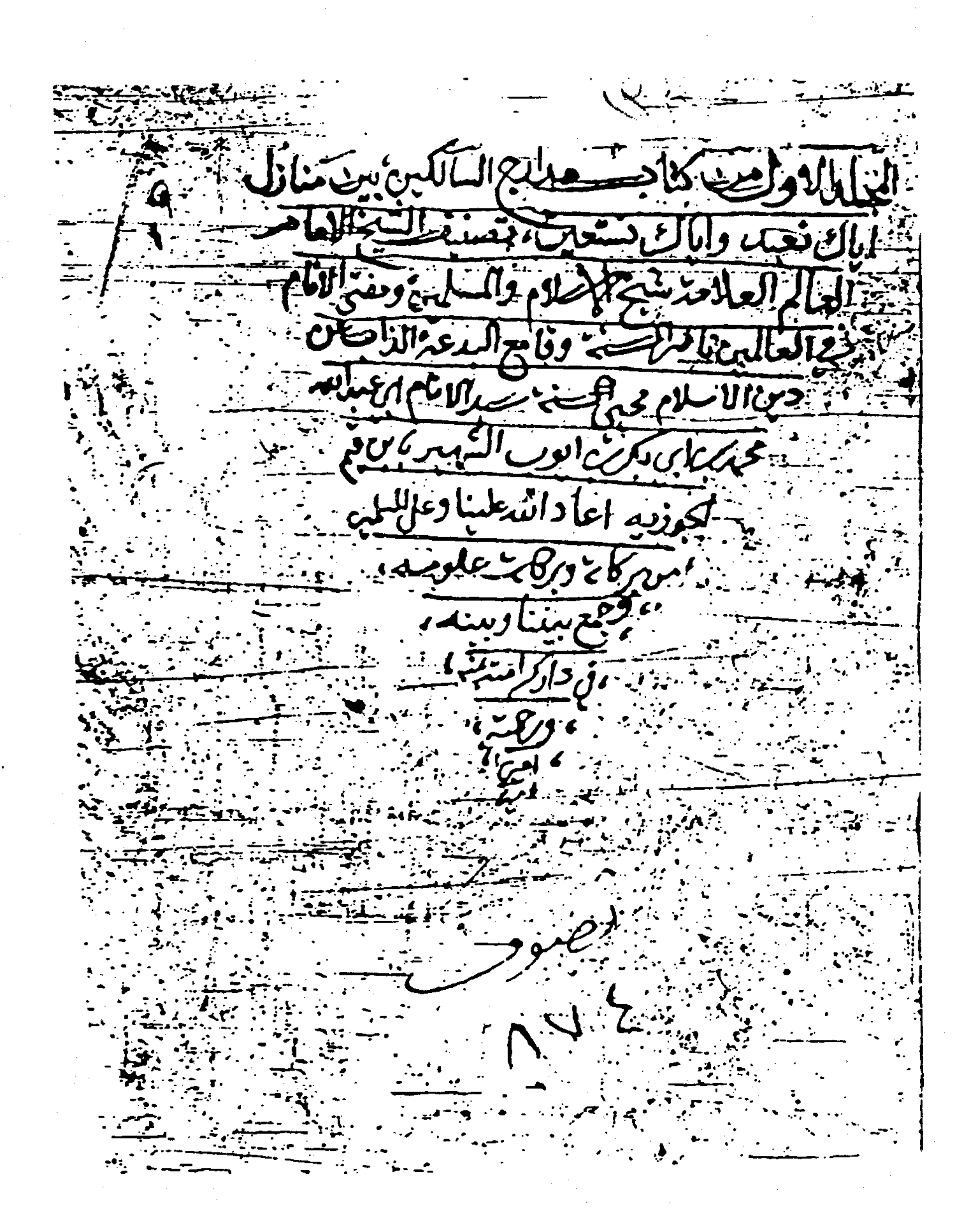
صورة من نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١]

الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١]

الثنا والمجد كما لا ن لجهة وتضمنت اثبات العدل وجزا العدل باعمالهم حسنها
وسيئها وتفرد الرب تعالى بالحكم اذ ذاك بين الخلايق وكون حكمه بالعدل وكل
هذا تحت قوله مالك يوم الدين وتضمنت اثبات النبوات من جهات عد
يده احدها كونه رب العالمين فلا يليق به ان يترك عباده سدى هملا لا
يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما فهذا هضم للربوبية
ونسبة الى الرب تعالى ما لا يليق به وما قدره حق قدره من نسبه اليه الثاني
اخذها من اسمه الله وهو المالوه المعبود ولا سبيل للعباد الى معرفة عبوديته
الا من طريق رسله الموضع الثالث من اسمه الرحمن فان رحمته تمنع اهمال
عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم فمن اعطى اسم الرحمن حقه عرف انه متضمن
لارسال الرسل وانزال الكتب اعظم من تضمنه علم انزال الغيث وانبات
الكلا واخراج الحب فاقتضى الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والارواح اعظم
من اقتضائها لما يحصل به حياة الابدان والاشباح لكن المحجوبون انما ادركوا من هذا
الاسم حظ البهايم والدواب وادرك منه اولو الالباب امرا وراء ذلك هـ
الموضع الرابع من ذكر يوم الدين فانه اليوم الذي يدين الله العباد فيه با
عمالهم فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات وما كان الله ليعذب
احدا قبل اقامة الحجة عليه والحجة انما قامت برسله وكتبه وبهم استحق الثواب
والعقاب وبهم قام سوق يوم الدين وسيق الابرار الى النعيم والفجار الى الجحيم
الموضع الخامس من قوله اياك نعبد فانما يعبد به تعالى لا يكون الا على ما
يحبه ويرضاه وعبادته هي شكره وحبه وخشيته فطري ومعقول للعقول
السليمة لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل الى معرفته الا برسله وفي هذا
بيان ان الرسل امر مستقر في العقول يستحيل تعطيل العالم عنه كما يستحيل
تعطيله عن الصانع فمن انكر الرسول فقد انكر المرسل ولم يؤمن به ولهذا
جعل سبحانه الكفر برسله كفرا به الموضع السادس من قوله اهدنا الصراط
المستقيم فالهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والالهام وهو بعد البيان
والدلالة ولا سبيل الى البيان والدلالة الا من جهة الرسل فاذا حصل البيا

والدلالة

صورة من نسخة دار الكتب المصرية رقم [٨٧٤] تصوف


المجلد الأول من كتاب مدارج السالكين بين منازل
إياك نعبد وإياك نستعين، تصنيف الشيخ الإمام
العالم العلامة شيخ الإسلام والمسلمين ومفتي الأنام
زين العالمين ناصر السنة وقامع البدعة الذي ...
دين الإسلام محيي السنة سيد الإمام أبي عبد الله
محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير بابن قيم
الجوزيه أعاد الله علينا وعلى المسلمين
من بركاته وبركات علومه
وجمع بيننا وبينه
في دار كرامته
ورحمته
آمين

تصوف
٨٧٤

الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية رقم [٨٧٤] تصوف

٢

حديث الاستخارة اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك فهو قادر بقدرة و

قال تعالى لموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فهو متكلم بكلام وهو العظيم

العظيم الذي له العظمة كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى العظمة إزاري والكبريا

ردائي وهو الحكيم الذي له الحكم فالحكم لله العلي الكبير وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه و

بصره وقوته وعزته وعظمته انعقدت يمينه وكانت مكفرة لأن هذه صفات كماله التي ا

شتقت منها أسماؤه وأيضا لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه

بأفعالها فلا يقال يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد فإن ثبوت أحكام الصفات فرع

ثبوتها فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها وأيضا فلو لم تكن أسماؤه ذوا

ت معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبا

ر معنى قام به فكانت كلها سواء ولم يكن فرق بين مدلولاتها وهذا مكابرة صريحة و

بهت بين فإن من جعل معنى اسم القدير هو معنى اسم السميع البصير ومعنى اسم التوا

ب هو معنى اسم المنتقم ومعنى المعطي هو معنى اسم المانع فقد كابر العقل واللغة والفطرة

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها والإلحاد فيها أنواع هذا أحدها الثاني تسميته الأو

ثان بها كما كانوا يسمونها آلهة وقال ابن عباس ومجاهد عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه

فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنا

ن وروي عن ابن عباس يلحدون في أسمائه يكذبون عليه وهذا تفسير بالمعنى وحقيقة الإلحاد

فيها العدول بها عن الصواب فيها وإدخال ما ليس من معانيها فيها وإخراج حقائق معا

نيها عنها هذا حقيقة الإلحاد ومن فعل ذلك فقد كذب على الله ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذ

ب هو غاية الملحد في أسمائه فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها وأخرج عنها حقائقها

أو بعضها فقد عدل بها عن الصواب والحق وهو حقيقة الإلحاد فالإلحاد إما بجحدها وإنكا

رها وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق با

لتأويلات الباطلة وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات كإلحاد

أهل الاتحاد فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها حتى قال زعيمهم وهو

المسمى بكل اسم ممدوح عقلا وشرعا وعرفا وبكل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا تعالى

الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا فصل الأصل الثاني أن الاسم من أسمائه تبارك وتعا

١٥

صورة من نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المصورة عن

مكتبة أحمد الراشد بالغاط رقم [١٠٨٧٣، ١٠٨٧٤، ١٠٨٧٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد الاول من كتاب مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد
واياك نستعين تصنيف الشيخ الامام العالم العلامة شيخ الا
سلام والمسلمين ومفتي الانام في العالمين ناصر السنة وقامع البد
عة الذاب عن دين الاسلام محيي سنة سيد المرسلين الامام ابي عبد
الله محمد بن ابي بكر بن ايوب الشهير بابن قيم الجوزية اعاد الله
علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات علومه وجمع
بيننا وبينه في محل رحمته برحمته انه على ما يشاء
قدير وبالله نستعين على هذا الكتاب
ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم آمين
يا رب العا
لمين

الورقة الأولى من نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المصورة
عن مكتبة أحمد الراشد بالغاط رقم [١٠٨٧٣، ١٠٨٧٤، ١٠٨٧٥]

العباد فيه بأعمالهم فيثيبهم على الحسنات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات وما كان الله ليعذب أحدا
قبل قيام الحجة عليه والحجة إنما قامت برسله وكتبه وبهم استحق الثواب والعقاب وبهم
قام سوق يوم الدين وسيق الأبرار إلى النعيم والفجار إلى الجحيم الموضع الرابع من قوله
إياك نعبد فإن ما يعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه وعبادته هي شكره وحبه
وخشيته فطري ومعقول للعقول السليمة لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل
إلى معرفته إلا برسله وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول يستحيل تعطيل
العالم عنه كما يستحيل تعطيله عن الصانع فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ولم يؤمن
به ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفرا به الموضع السادس من قوله اهدنا الصراط المستقيم
فالهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة ولا سبيل
إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه
هداية التوفيق وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إلى العبد وتزيينه في قلبه وجعله مؤثرا له
راضيا به راغبا فيه وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما
متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا وإلهامنا له وجعلنا مريدين
لاتباعه ظاهرا وباطنا ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم
ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة ومن هاهنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه
الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية
فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده
أو أكثر منه أو دونه وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي إلى تفا
صيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور
كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها
وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها فمن هدي في هذه
الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدي هناك إلى الصراط المستقيم
الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده
في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذا
الصراط يكون سيره على ذاك الصراط فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم

صورة من نسخة المعهد العلمي بحائل عن مكتبة صالح البنيان رقم (٨)

المجلد الأول من مدارج السالكين
بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
تصنيف الشيخ الإمام العالم العلامة
شيخ الإسلام والمسلمين ومفتي الأنام في العالمين
ناصر السنة وقامع البدعة الذاب عن دين
الإسلام محيي سنة سيد الأنام أبي
عبد الله محمد بن أبي بكر بن
أيوب الشهير بابن قيم
الجوزية أعاد الله علينا
وعلى المسلمين من بركاته
وبركات علومه وجمع
بيننا وبينه في محل
رحمته برحمته
إنه على ما يشاء
قدير
آمين
تم

هذه النسخة أمانة
لاد ريس أخونا
راعي شقرا

قال الإمام أبو عبد الله ابن القيم رحمه الله تعالى شعر
فما هو إلا الوحي أو حد مرهف
يقيم ظباه أخدعي كل مايل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل
وهذا دواء الداء من كل جاهل

الورقة الأولى من نسخة المعهد العلمي بحائل عن مكتبة صالح البنيان رقم (٨)

١٩

وهذا كلام يحتاج الى شرح وبيان فان الطلب لا يفارق العبد ما دامت
احكام العبودية تجري عليه ولكن هو منتقل في منازل الطلب
ينتقل من عبودية الى عبودية والمعبود واحد لا ينتقل عنه فكيف
يجرد المعرفة عن الطلب هذا موضع زلت فيه اقدام وضلت فيه
افهام وظن الملحدون المغرورون انهم قد استغنوا بالمعرفة عن
الطلب وان الطلب وسيلة والمعرفة غاية ولا معنى للاشتغال
بالوسيلة بعد الوصول الى الغاية فهؤلاء خرجوا عن الطريق بالكلية
بعد ان شمروا في السير فيه فردوا على ادبارهم ونكصوا على اعقابهم ولم
يفهموا مراد اهل الاستقامة بكون الطلب حجاب فاعلم ان كل ما منك
حجاب على مطلوبك فان وقفت معه فانت دون الحجاب وان
قطعته الى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب فطلبك وارادتك
وتوكلك وحالك وعملك كله حجاب ان وقفت معه او ركنت
اليه وان جاوزته الى الذي انت به وله وفي يديه وتحت
تصرفه ومشيئته وليس لك ذرة واحدة الا به ومنه ولم تقف
مع طلبك وارادتك فقد صرت فوق حجاب الطلب ففي الحقيقة
انت حجاب قلبك عن ربك فاذا كشفت الحجاب عن القلب
افضى الى الرب ووصل الى المقدس وقولنا اذا كشفت الحجاب
اخبار عن محل العبودية والا فكشفه ليس بيدك ولا انت
الكاشف له فان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ومن
اعظم حجاب القلب عن الرب وهو اعظم عذابا من الجحيم قال تعالى

صورة من نسخة المعهد العلمي بحائل مالكها ناصر بن راشد الخياط رقم (٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

في ملك الفقير الى الله المعترف [illegible] ناصر بن
راشد الخياط شهد على ذلك
عبدالعزيز [illegible] وشهد به كاتبه يعقوب
ابن محمد حرر
١٣٠٧ ... ٢٢ جا

الحمد لله وحده
وقد وقفه وحبسه صاحبه المذكور اعظم الله له الاجر
طلبا للثواب من الملك العلام وعملا بحديث نبيه عليه السلام حيث قال
اذا مات ابن ادم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد
صالح يدعو له وجعل النظر فيه ليعقوب ابن محمد مدة حياته ثم بعده
على طلبة العلم شهد على ذلك عبدالرزاق ابن الشيخ [illegible] سليمان ابن [illegible] وشهد به
كاتبه يعقوب ابن محمد حرر ٨ ج ب ١٣١٣

الورقة الأولى من نسخة المعهد العلمي بحائل

مالكها ناصر بن راشد الخياط رقم (٨)

وذكر الصراط المستقيم مفردا معرفا تعريفين تعريفا باللام وتعريفا بالاضافة وذلك يفيد تعينه واختصاصه وانه صراط واحد
واما طرق اهل الغضب والضلال فانه سبحانه يجمعها ولا يفردها كقوله وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له وقال ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا
وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم قرأ قوله وان
هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون وهذا لان الطريق الموصل
الى الله واحد وهو ما بعث به رسله وانزل به كتبه لا يصل اليه احد الا من هذه الطريق ولو اتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل
باب فالطرق عليهم مسدودة والابواب عليهم مغلقة الا من هذا الطريق الواحد فانه متصل بالله موصل الى الله قال الله تعالى
هذا صراط علي مستقيم قال الحسن معناه صراط الي مستقيم وهذا يحتمل امرين احدهما ان يكون اراد به انه من
باب اقامة الادوات بعضها مقام بعض فقامت اداة على مقام الى والثاني انه اراد التفسير على المعنى وهو الاشبه بطريقة السلف
اي صراط موصل الي وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء وهذا مثل قول الحسن وابين منه وهو من اصح
ما قيل في الاية وقيل على فيه للوجوب اي علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه والقولان نظير القولين في اية النحل وهي وعلى الله
قصد السبيل والصحيح فيها كالصحيح في اية الحجر ان السبيل القاصد وهو المستقيم المعتدل يرجع الى الله ويوصل اليه قال
طفيل الغنوي مضوا سلفا قصد السبيل عليهم ... وصرف المنايا بالرجال تشقلب اي ممرنا عليهم واليهم وصولنا وقال الاخر
فهن المنايا اي واد سلكته ... عليها طريقي او علي طريقها فان قيل لو اريد هذا المعنى لكان الاليق به اداة الى التي هي للانتهاء
لا اداة على التي هي للوجوب الا ترى انه لما اراد الوصول قال ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم وقال الينا مرجعهم ثم الى ربهم مرجعهم
وقال لما اراد الوجوب ثم ان علينا حسابهم ان علينا جمعه وقرانه وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ونظائر ذلك قيل
في ذكر اداة على سر لطيف وهو الاشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وحق مع وصوله الى الله تعالى فغاية الوصول الى الله و
هو في حال استقامته على هدى وعلى حق كما قال في حق المؤمنين اولئك على هدى من ربهم وقال لرسوله فتوكل على الله انك على الحق
المبين والله عز وجل هو الحق وصراطه حق ودينه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى فكان في اداة على على هذا المعنى ما
ليس في اداة الى فتامله فانه سر بديع فان قلت فما الفائدة في ذكر على في ذلك ايضا وكيف يكون المؤمن مستعليا
على الحق وعلى الهدى قلت لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته اليه فكان في الاتيان باداة على
ما يدل على علوه وثبوته واستقامته فان طريق الحق تاخذ علوا صاعدة الى العلي المبين وطريق الضلال تاخذ سفلا هاوية
في اسفل سافلين وهذا بخلاف الضلال والريب فانه يؤتى فيه باداة في الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه
كقوله تعالى فهم في ريبهم يترددون وقوله والذين كذبوا باياتنا صم وبكم في الظلمات وقوله فذرهم في غمرتهم حتى حين وانهم لفي
شك منه مريب وتامل قوله وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين فان طريق الحق تاخذ علوا صاعدة بصاحبها الى العلي الكبير
وطريق الضلال تاخذ سفلا هاوية بسالكها في اسفل سافلين وفي قوله تعالى قال هذا صراط علي مستقيم قول ثالث وهو
قول الكسائي انه على التهديد والوعيد نظير قوله ان ربك لبالمرصاد كما يقال طريقك علي وممرك علي لمن تريد اعلامه بانه غير فائت لك
ولا معجز والسياق يابى هذا ولا يناسبه لمن تامله فانه قاله مجيبا لابليس لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين فانه قال لا
سبيل لي الى اغوائهم ولا طريق لي عليهم فقرر الله عز وجل ذلك اتم التقرير واخبر ان الاخلاص صراط عليه مستقيم فلا سلطان لك على
عبادي الذين هم على هذا الصراط لانه صراط علي ولا سبيل لابليس الى اهل هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته فانه محروس محفوظ بالله
فلا يصل عدو الله الى اهله فليتامل العارف هذا الموضع حق التامل ولينظر الى هذا المعنى ويوازن بينه وبين القولين الاخرين
ايهما اليق بالايتين واقرب الى مقصود القران واقوال السلف واما تشبيه الكسائي له بقوله ان ربك لبالمرصاد فلا يخفى
الفرق بينهما سياقا ودلالة فتامله ولا يقال في التهديد هذا طريق مستقيم علي لمن لا يسلكه وليست سبيل المهددين مستقيمة
فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله فلا يستقيم هذا القول البتة واما من
فسره بالوجوب اي علي بيانه واستقامته والدلالة عليه فالمعنى صحيح لكن كونه هو المراد بالاية نظر لانه حذف في غير موضع
الدلالة ولم يؤلف الحذف المذكور ليكون مدلولا عليه اذا حذف بخلاف حذف عامل الظرف اذا وقع صفة فانه حذف مالوف معروف
حتى انه لا يذكر البتة فاذا قلت له درهم علي كان الحذف معروفا مالوفا فلو اردت علي نقده او علي وزنه وحفظه ونحو ذلك وحذفت

لم يسغ

صورة من نسخة مكتبة حمود الشغدلي بحائل رقم (٦٤٩)

رقم الكتاب
٦٤٩

الورقة الأولى من نسخة مكتبة حمود الشغدلي بحائل رقم (٦٤٩)



مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق

د. ناصر بن سليمان السعوي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الأول







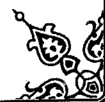
أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ : ٩/ ٨/ ١٤٢٣هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولىٰ







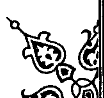
وتشمل :

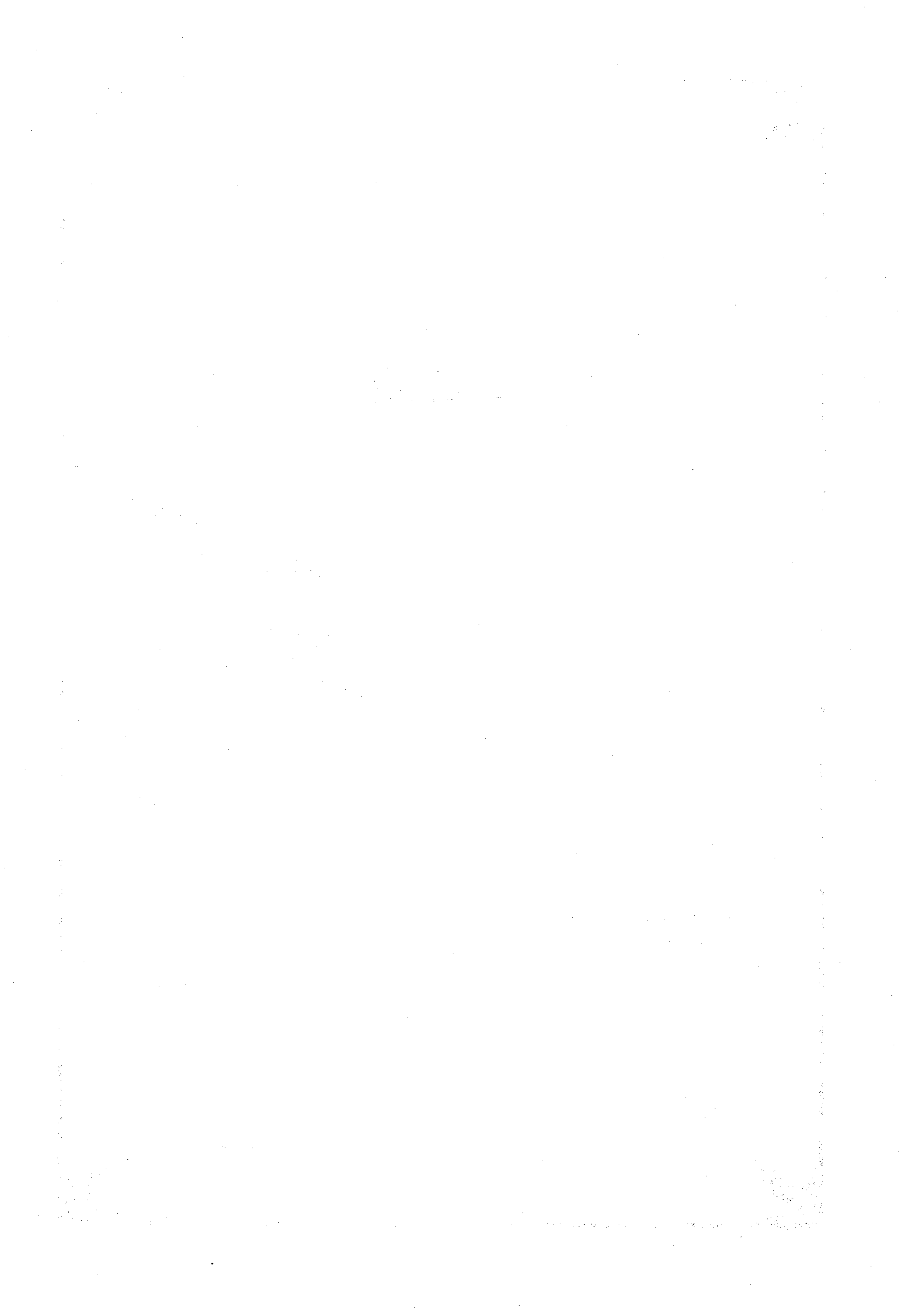
١ - خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .







مقدمة الجزء الأول

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فهذا هو الجزء الأول من دراسة وتحقيق كتاب : « مدارج السالكين » ، لابن القيم - رحمه الله- ، والذي يبدأ من أول الكتاب إلىٰ قوله : فصل : «والذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر » . وفي هذه المقدمة أذكر ما يتعلق بعملي من : خطة البحث ، وموضوعات الدراسة ، وعدد النسخ الخطية مع ذكر رموزها التي اعتمدتها في التحقيق ، وكذلك منهج التحقيق الذي سرت عليه.

*** خطة البحث :**

قسمت العمل في هذا البحث إلىٰ مقدمة ، وقسمين :

المقدمة ، وتشمل :

أ- خطة البحث.

ب-النسخ الخطية ، ورموزها.

ج- منهجي في التحقيق.

القسم الأول : الدراسة ، وتتضمن :

أولاً : ترجمة ابن القيم.

ثانياً: عنوان الكتاب.

ثالثاً : مصادر ابن القيم في كتابه.

القسم الثاني : تحقيق الكتاب ، من أوله إلىٰ قوله : فصل : « والذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر ». ويتضمن التحقيق القضايا الآتية :

١- المقابلة بين النسخ الخطية.

٢- عزو الآيات القرآنية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية والحكم عليها عند أهل العلم.

٤- عزو الآثار.

٥- عزو النقول إلىٰ مصادرها.

٦- بيان معاني الكلمات الغريبة.

٧- التعريف بالبلدان.

٨- التعريف بالفرق والطوائف.

٩- الترجمة للأعلام.

١٠- التعليق علىٰ المسائل التي تحتاج إلىٰ تعليق.

١١- نسبة الأبيات الشعرية إلىٰ قائليها.

١٢- الخاتمة.

*** النسخ الخطية :**

نظراً لأهمية كتاب مدارج السالكين ، فقد تعددت نسخه الخطية ، وقد تحصلت منها علىٰ عشر نسخ ، وقد قمت بالمقابلة بين هذه النسخ كلها. وهي كالآتي :

النسخة الأولىٰ : نسخة سوريا ، وهي في معهد التراث العربي بحلب ،

والنسخة الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب.

وهذه النسخة هي التي اخترتها لتكون أصلا للتحقيق تقابل عليها باقي النسخ الأخرىٰ ، وسميتها [الأصل] ، وذلك للأمور التالية :

١- أنها كتبت في حياة المؤلف كما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك.

٢- أنها سليمة من السقط والخرم والتصحيف ، إلا ما ندر ، وما سبقت الإشارة إليه من السقط.

٣- أنه يوجد عليها مقابلات علىٰ الأصل الذي كتبت منه ، فقد كتب علىٰ هامش النسخة في مواضع متعددة : « بلغ مقابلة » .

٤- عليها تعليقات وتهميشات وتصحيح ، ومن ذلك : الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع.

النسخة الثانية : نسخة « تشستربتي » بدبلن عاصمة إيرلندا ؛ وهي مصورة علىٰ فلم في جامعة الإمام برقم [٣٦٢٧] ، وقد رمزت لها بالحرف [ش].

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٥٢٢] ؛ وقد رمزت لها بالحرف [د].

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة ؛ ورمزت لها بالحرف [ق].

النسخة الخامسة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١] ؛ وقد رمزت لها بالحرف [ب].

النسخة السادسة : نسخة في جامعة الإمام مصورة عن مكتبة أحمد الراشد

في مدينة الغاط ؛ وهي برقم [١٠٨٧٤/ ف] ، وقد رمزت لها بالحرف [غ].

النسخة السابعة : **نسخة المعهد العلمي بحائل** رقم [٨] ؛ وهي من مكتبة صالح ابن سالم البنيان ، وقد رمزت لها بالحرف [ح١].

النسخة الثامنة : **نسخة دار الكتب المصرية** رقم [٨٧٤] تصوف ؛ وهي مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية ، وقد رمزت لها بالحرف [أ].

النسخة التاسعة : **نسخة مكتبة حمود بن حسين الشغدلي بحائل** ، رقمها [٦٤٩] ، رقم الحفظ [١٣/ ٢/ ز] ؛ وقد رمز لها بالحرف [ح٢].

النسخة العاشرة : نسخة أصلية في جامعة الإمام في مجلدين رقمهما [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨] ؛ وقد رمزت لها بالحرف [م].

*** منهجي في التحقيق :**

١ - اعتمدت نسخة [سوريا] أصلاً للكتاب ، للأسباب السابقة.

٢ - قابلت عليها جميع النسخ التسع السابقة الذكر ، وقد احتاج ذلك إلىٰ وقت طويل ، نظراً لكثرة النسخ.

٣ - أثبت فروق النسخ الخطية المخالفة للأصل في الهامش ، مبتدأ برمز النسخ ، وبعدها أذكر اللفظ ، وأضعه بين قوسين صغيرين ، فأقول مثلا : في أ ، م ، غ ، ح١ « كذا وكذا » .

٤ - إذا كان هناك سقط من أي نسخة من النسخ غير الأصل بدأت به أولاً ، ووضعته بين معقوفين [ ] ، ثم ذكرت النسخ التي سقط منها ، مثال ذلك :

«قال» سقط من ق ، د ، م ؛ هذا إذا كان السقط كلمة ، أما إذا كان كلمتين فأكثر فإني أذكر النسخ أولاً ، ثم أذكر السقط بعد ذلك ، فإن كان قليلاً أثبته كاملاً ، وإلا قلت : سقط من قوله : « كذا وكذا » إلىٰ قوله : « كذا وكذا ».

٥- إذا كان في إحدىٰ النسخ زيادة علىٰ الأصل ، فإن كان المقام والسياق يستدعي إثباته في صلب البحث ، أثبته بين معقوفين [ ] ، ثم أشير في الهامش إلىٰ النسخ التي أثبت منها هذه الزيادة ، وإن كانت الزيادة لا يستدعيها السياق ، أشرت إليها في الهامش ، فأقول في أ ، ب ، م زيادة « كذا وكذا ».

٦- إذا كان هناك خطأ في الأصل ، وترجح لدي ذلك بعد المقارنة والتأمل أثبت الصواب في صلب البحث ، وأشرت في الهامش إلىٰ النسخ التي أثبته منها وإلىٰ ما في الأصل.

٧- لم أشر إلىٰ اختلاف النسخ فيما يتعلق بألفاظ التعظيم لله ، والصلاة علىٰ النبي ﷺ ، والترضي عن الصحابة ، وألفاظ الترحم.

٨- جعلت متن منازل السائرين للهروي بين قوسين صغيرين ، وميزته عن الشرح بخط أسود عريض ، وقابلته علىٰ متن المنازل المطبوع ، وأثبت الفروق في الهامش ، مع أرقام الصفحات.

٩- أشرت في المتن إلىٰ أرقام لوحات مخطوط الأصل ، مع وضع حرف [أ] للصفحة اليمنىٰ ، وحرف [ب] للصفحة اليسرىٰ ، مثال : [٤٥/ أ] ، و[٤٥/ ب].

١٠- عزوت الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ، ورقم الآية ، وجعلت ذلك

في صلب الكتاب.

١١- قمت بوضع عناوين جانبية لمحتوىٰ النص.

١٢- قمت بتخريج الأحاديث النبوية ، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بالعزو إليهما ، وإن كان في أحدهما عزوت إليه ، وأضفت إليه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ، وإن لم يكن فيهما أو أحدهما خرجته من غيرهما ما أمكن ، وذكرت ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في الحديث تصحيحاً وتضعيفاً.

١٣- قمت بعزو الآثار والنقول إلىٰ مصادرها ، وكذلك الأبيات الشعرية عزوتها إلىٰ قائليها ومصادرها ، فإن كان البيت في ديوان الشاعر عزوت إليه ، وإن لم يكن في ديوانه ، أو لم أعلم قائله أشرت إلىٰ أي مصدر ذكره ، كل ذلك حسب الجهد والطاقة ، فما تركت من أثر أو قول أو بيت بلا تخريج أو نسبة فذلك بعد طول بحث وتحري.

١٤- ترجمت لجميع الأعلام الذين ورد ذكرهم في المخطوط ما عدا الأنبياء والرسل والخلفاء الأربعة.

١٥- عرفت كل منزلة من المنازل التي شرحها المؤلف ، كما بينت المصطلحات الصوفية والكلامية التي ورد ذكرها في الجزء المحقق ، معتمداً في ذلك علىٰ كتب الصوفية ومصنفاتهم ، والكتب التي تعنىٰ ببيان التعريفات والمصطلحات ، كما بينت الكلمات الغريبة ، معتمداً علىٰ كتب اللغة ، وكتب غريب الحديث.

١٦ - قمت بالتعليق علىٰ بعض المسائل التي تحتاج إلىٰ تعليق وتوضيح ، كما أشرت إلىٰ كلام ابن القيم علىٰ بعض المسائل في كتبه الأخرىٰ.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

د. ناصر بن سليمان السعوي
القصيم - بريدة



القسم الأول
الدراســة

وتتضمن :

أولاً : ترجمة ابن القيم .

ثانياً : عنوان الكتاب .

ثالثاً : مصادر ابن القيم في كتابه .



أولاً : ترجمة ابن القيم

* عصر ابن القيم :

هناك عدة عوامل تؤثر في شخصية الإنسان ، ومن هذه العوامل العصر الذي يعيش فيه الإنسان ، فإن له أثراً بارزاً في تكوين شخصيته ، فالمرء يتأثر بما يحيط به من ظروف ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو علمية أو دينية.

لذا سوف أتطرق للحديث عن العصر الذي عاش فيه ابن القيم – رحمه الله – قبل الحديث عن حياته الشخصية والعلمية ، وسيكون الحديث عن ذلك علىٰ وجه الاختصار ؛ لأن المقام لا يحتمل الإطالة في ذلك.

أولاً : الحالة السياسية :

مرت الأمة الإسلامية قبيل ولادة ابن القيم بعدة أحداث جسام ، كان لها أثرها البالغ في حياة الناس ، إضافة إلىٰ ما عليه الوضع السياسي الداخلي للأمة الإسلامية في ذلك الوقت.

فقد عاشت الأمة في ذلك الوقت صراعاً دامياً بين المماليك علىٰ السلطة ، إذ كانت دمشق تحت حكمهم. وقد بدأت سيادتهم علىٰ الشام في سنة ٦٥٨هـ، بعد انتصارهم علىٰ التتار في معركة عين جالوت ، فكان يعين في الشام نواب من قبل السلطان المقيم في مصر ، وكان هؤلاء النواب في صراع دائم مع السلطان المقيم في مصر ، محاولين الخروج عليه ، والانفصال عنه.

أما الأحداث التي مرت بها الأمة فهي :

أ- **الحروب الصليبية التي منيت بها الأمة الإسلامية** ، وقد بدأت هذه الحروب قبل ولادة ابن القيم بقرنين من الزمن. فقد بدأت هذه الحروب بالحملة الصليبية الأولىٰ علىٰ العالم الإسلامي ، وذلك في عام ٤٩٠هـ ، وتبعها ست حملات عسكرية أخرىٰ وجهها الصليبيون للعالم الإسلامي ، وكلها اصطدمت بالمسلمين في صراعات دامية ، إلا الحملة الصليبية الرابعة ، فإنها سيرت نحو العالم الإسلامي ، إلا أنها غيرت خطتها واتجهت نحو القسطنطينية البيزنطية ، واستولت عليها سنة ٦٠٠هـ.

أما آخر الحملات فإنها الحملة الصليبية السابعة ، وكانت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، واتجهت سنة ٦٤٧هـ إلىٰ مصر. واستمر الوجود الصليبي في العالم الإسلامي مستولياً علىٰ بعض المدن الإسلامية إلىٰ أن تم استعادتها علىٰ يد المماليك ، وكان آخرها مدينة عكا التي سقطت بأيدي المسلمين علىٰ يد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، وذلك في سنة ٦٩٠هـ.

وبذلك انتهىٰ الوجود الصليبي في العالم الإسلامي[1].

---

(١) انظر في الكلام علىٰ الحروب الصليبية وحملاتهم علىٰ المسلمين والأسباب التي دفعتهم إليها : البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣٣٨-٣٤٢ ، العبر في خبر من غبر للذهبي ٣/ ٣٧١ ، ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه ، عبد العظيم ، شرف الدين ص ٢٩-٣٥ ، الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي ١/ ٢٩٢-٢٩٤ ، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، د. حامد غنيم ١/ ٢٧٠ ، ٢/ ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧١.

ب- الهجمات المغولية علىٰ العالم الإسلامي : وقد بدأت هذه الهجمات علىٰ الأمة الإسلامية علىٰ يد التتار ، بزعامة قائدهم هولاكو الذي قصد دولة الخلافة العباسية في بغداد بعد قضائه علىٰ الإسماعيلية في إيران ، فحاصرها إلىٰ أن سقطت في أيديهم سنة ٦٥٦هـ ، فاستباحوها وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأهله وذويه ، وقتلوا العلماء والقضاة والأعيان وخلقاً كثيراً من أهل السنة في بغداد ، وأحرقوا المكتبات وخربوا المدارس والمساجد. قال ابن كثير : ولم ينج منهم أحد سوىٰ أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ ومن التجأ إليهم ، وإلىٰ دار الوزير ابن العلقمي الرافضي ... وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش ، وإسقاط أسهمهم في الديوان ، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبا من مائة ألف مقاتل ... فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلىٰ أن لم يبق سوىٰ عشرة آلاف ثم كاتب التتار ، وأطمعهم في أخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكىٰ لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضية ، وأن يقيم خليفة من الفاطميين[1] .

ويقول ابن القيم مبيناً تواطؤ الشيعة الرافضة مع التتار : وهل عاثت سيوف المشركين عباد الأصنام من عسكر هولاكو وذويه من التتار إلا من تحت رؤوسهم؟ ، وهل عطلت المساجد وحرقت المصاحف ، وقتل سروات

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٥ ، وانظر : العبر ٣/ ٢٧٧.

المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم إلا بسببهم ومن جرائهم؟، ومظاهرتهم للمشركين والنصارىٰ معلومة عند الخاصة والعامة ، وآثارهم في الدين معلومة[١] .

ولم يكتف التتار بسقوط دولة الخلافة ببغداد والاستيلاء عليها ، بل امتد طمعهم إلىٰ بلاد الشام ، فاتجهوا إليها ، وسقطت في أيديهم حلب ، ثم بعدها استولوا علىٰ دمشق دون مقاومة[٢] ، ثم استمر زحفهم نحو مصر ، فالتقىٰ جيش التتار بجيش المسلمين بقيادة قطز في رمضان سنة ٦٥٨هـ ، حيث دارت المعركة بين الفريقين في عين جالوت ، وكتب الله النصر للمسلمين علىٰ عدوهم ، فقتل المسلمون من التتار وأسروا عددا كثيراً[٣] ، ثم واصل قطز سيره نحو دمشق ودخلها ظافراً منتصراً ، وبذلك دخلت الشام تحت حكم المماليك في مصر.

وبعد هزيمة المغول في الشام وموت هولاكو ، دخل جماعة منهم في الإسلام وحسن إسلامهم، ومن الذين أعلنوا إسلامهم السلطان أحمد تكودار، وكان علىٰ مذهب أهل السنة ، وحكم من سنة ٦٨١ إلىٰ سنة ٦٨٣ ، وأسلم علىٰ يديه كثير من المغول ، إلا أن المغول ثاروا عليه بسبب إسلامه وقتلوه[٤] .

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٢.

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٣/ ٢٣١-٢٣٣.

(٣) انظر : المرجع السابق ١٣/ ٢٣٣.

(٤) مقدمة الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة ، ص ٣٥.

ومع ذلك لم تقف هجمات التتار علىٰ الشام ، حيث ظلوا باقين في العراق ، وقاموا ببعض الغارات إلىٰ أن هزموا شر هزيمة في موقعة مرج الصُّفَّر ، أو شقحب سنة ٧٠٢هـ ، وكانت هي الفاصلة بين المماليك والتتار[١].

وقد انتقلت الخلافة العباسية بعد سقوطها في بغداد إلىٰ مصر في زمن الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ ، وذلك رغبة من السلاطين المماليك في أن يصبغوا حكمهم بالصبغة الشرعية ورد طعن أعدائهم فيهم[٢].

وقد أثارت هذه الحروب في نفوس المسلمين روح الاستبسال والتضحية ، وخلعت عنهم ثوب الخمول ، فرفعوا راية الجهاد في سبيل الله ، كما أكسبتهم لدىٰ النصارىٰ سمعة طيبة ، وذلك بما لاقوه من معاملة حسنة من المسلمين بخلاف ما كان يشاع عن المسلمين في بلاد النصارىٰ[٣].

ثانياً : الحالة الدينية :

إن الناظر في العالم الإسلامي في ذلك العصر يرىٰ كثرة انتشار البدع ، وضعف تمسك المسلمين بدينهم ، حتىٰ آل الأمر إلىٰ وقوع كثير منهم في انحرافات عقائدية ، فضلاً عن المخالفات العملية والسلوكية. فالمجتمع في ذلك الحين كان مزيجاً من طوائف متباينة ، فمنهم أهل السنة ، ومنهم الرافضة،

---

(١) انظر : الكلام علىٰ هذه الوقعة في البداية والنهاية ، لابن كثير ١٤/ ٢٤-٢٨ ، ذيل العبر ٤/ ٥.

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٤.

(٣) انظر : ابن القيم ، عصره ومنهجه ، عبد العظيم شرف الدين ، ص ٣٥ ، ٣٨.

ومنهم الصوفية ، ومنهم النصيرية ، ومنهم أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ ، وفيهم العرب والترك والروم والتتار ، فكان هذا الاختلاف سبباً في انتشار كثير من البدع في المجتمع الإسلامي.

فراجت في المجتمع بدع الصوفية ، وانتشرت عقائدها المنحرفة بين الناس، وشُيِّدت القبَاب علىٰ القبور ، وعُظِّمت المشاهد ، ودُعي إلىٰ زيارتها وشدِّ الرِّحال إليها. وانتشرت أعلام التصوف في ذلك الزمن ، فتعددت الطرق الصوفية ، وبنيت لهم الزوايا ، والخوانق ، والأربطة[1] ، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، مما شجع علىٰ التصوف والانخراط فيه.

كما انتشرت المذاهب الكلامية والفلسفية، وعظم الخلاف بين السنة والشيعة، حتىٰ أدىٰ ذلك إلىٰ تمالؤ الرافضة مع التتار في القضاء علىٰ الخلافة الإسلامية.

---

(١) الزوايا : جمع زاوية ، وهي عبارة عن مصلىٰ للشيخ الصوفي وأتباعه ، ولها أوقاف يصرف عليها منها.

والخوانق : جمع خانقاه ، وهي كلمة فارسية ، معناها بيت ، وقد حدثت في حدود الأربعمائة من الهجرة ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة ، وكان يسكن فيها الصوفية ، وتجري عليهم الأرزاق من طعام وخبز ولحم من أوقافها، ومن أشهر الخوانق: خانقاه سعيد السعداء، أنشأت بمصر سنة ٥٦٩هـ ، وكانت تضم ثلاثمائة صوفي.

والأربطة : جمع رباط : وهي الدور المخصصة لأناس معينين ، وخصص بعضها للصوفية ، ينقطعون فيها ، وتجري عليهم الأرزاق من أوقافها.

انظر : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ٤/ ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ابن القيم عصره ومنهجه ، ٥٣.

كما انتشرت المعاصي والمنكرات ، كانتشار البغاء والأغاني واللهو والطرب ، والمخدرات، وعرف الحشيش، وانتشرت الحيل، وسوء المعاملات ، وانتشرت الرشوة والاحتكار والغش ، وكثر اللصوص وقطاع الطريق ، بسبب ضعف الوازع الديني ، والضعف الاقتصادي.

ولكن مع شيوع هذه المنكرات والمعاصي والبدع لم يعدم الخير ، بل كان هناك علماء أجلاء كانوا دعاة إلىٰ الخير ، فقاموا بإنكار المنكرات والدعوة إلىٰ الله ، و محاربة أرباب هذه الانحرافات باليد واللسان والقلم والبنان ، فكتب الله علىٰ أيديهم خيراً كثيراً عاد نفعه علىٰ معاصريهم وعلىٰ من جاء بعدهم ، إذ بقيت مؤلفاتهم التي ألفوها في بيان الحق والدعوة إليه ، وإبطال المنكرات ، ونقض شبه المنحرفين إلىٰ يومنا هذا[١].

---

(١) ومن هؤلاء العلماء : العز بن عبد السلام ، ألف «مجلس في ذم الحشيشة» ، وأنكر علىٰ ابن شيخ الشيوخ ، وزير نجم الدين أيوب عندما بنىٰ داراً للهو والغناء علىٰ أحد مساجد مصر ، ولم يكتف بالإنكار ، بل قام بهدمها مع أولاده ، وأسقط عدالة الوزير ، وعزل نفسه عن القضاء. ومنهم الشيخ محيي الدين النووي ، فقد أنكر علىٰ السلطان الظاهر بيبرس ، حينما أراد جمع الأموال من أهل الشام، وقد أفتاه جماعة بموافقة هواه، فقال له : «أفتوك بالباطل». ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ، ومواقفه مشهورة معلومة مع الحكام والملوك والصوفية وأهل الكلام والمبتدعة ومؤلفاته شاهدة بذلك. ومنهم ابن القيم رحمه الله فقد ألف مؤلفات عدة في دحض هذه المبتدعات وإبطال المنكرات ، ومن ذلك كتابه إغاثة اللهفان ، والصواعق المرسلة ، وهداية الحيارىٰ ، ومدارج السالكين ، وأنكر شد الرحال إلىٰ قبر الخليل.

ثالثاً : الحالة العلمية :

مر معنا في بيان الحالة السياسية أن الأمة مرت بمرحلة سياسية قاسية ، حيث واجهت الأمة غزواً خارجياً ، متمثلاً بالغزو الصليبي والغزو التتري ، نتج عنه تغير سياسي داخلي ، حيث آلت السلطة إلىٰ المماليك الذين قويت شوكتهم بسبب ما قاموا به من دفاع عن الأمة وصد لأعدائها.

كما نتج عنه ضياع لكثير من تراث الأمة الذي كانت تزخر به المكتبات الإسلامية في ذلك الحين ، حيث امتدت إليه يد التدمير التتري في بغداد وبلاد الشام. انضاف إلىٰ ذلك قتل العلماء ، وتخريب دُور العلم من مدراس ومساجد.

وبعد أن منَّ الله تعالىٰ علىٰ الأمة الإسلامية إذ قضىٰ علىٰ عدوها الخارجي وردّهم علىٰ أدبارهم خائبين ، قام العلماء والمصلحون بنشر العلم ، تعليماً ، وتأليفاً ، وبياناً للحق ، ودعوة إليه ، ومجادلة لأهل الباطل بالحجج النقلية والعقلية.

كما كان للحكام في ذلك العصر دور كبير في ذلك ، حيث كانوا مشجعين للعلم ، وذلك عن طريق بناء المدارس، والإنفاق عليها بسخاء، كما قربوا العلماء،

انظر في بيان ذلك: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف محمد بن أحمد ابن عبد الهادي الحنبلي ١٩٩-٢٠٣ ، ٢١٠-٢١١ ، حسن المحاضرة للسيوطي ٢/ ١٦٢ ، ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه ٦٤ ، مقدمة الصواعق المرسلة ، لابن القيم ص ٤٠-٤٢.

وأجزلوا لهم العطاء، وبذلوا جهدهم في تشجيع العلم والتعليم.

وقد تميز هذا العصر بنهضة علمية كبيرة، تمثلت في الآتي :

١ - كثرة دور التعليم، من مساجد، ومدارس، فاتخذت المساجد والزوايا دوراً للتعليم، وتخرج فيها كثير من العلماء، ومن هذه المساجد جامع عمرو ابن العاص، وابن طولون، والأزهر، وجامع الحاكم وغيرها.

وبنيت المدارس الكثيرة في مصر والشام، ووجد في دمشق وحدها في ذلك العصر نحو تسعين مدرسة، تدرس فيها أنواع العلوم من تفسير، وحديث وعلوم، وفقه، ولغة، وتاريخ، وحساب، وهندسة، وطب، ولكل فن مدارسه الخاصة، حتىٰ المذاهب الأربعة لكل مذهب مدارسه الخاصة[1].

٢ - كثرة العلماء الذين قاموا بعمارة تلك المدارس بما يقومون به من تدريس وتعليم لشتىٰ أنواع العلوم والمعارف، فكان لكل مدرسة علماؤها ومشيختها الخاصة، وإن كان من العلماء من قام بالتدريس في أكثر من مدرسة.

كما أن منهم الحفاظ الذين اهتموا بحفظ الحديث ودراسة متنه وسنده، ومنهم القراء الذين اهتموا بكتاب الله إقراء وتفسيراً، ومنهم الفقهاء الذين اهتموا بتحرير المذهب، والاستدلال له، ومنهم من جمع ذلك كله، وكان له في كل فن يد ومشاركة.

---

(١) انظر في بيان هذه المدارس : «الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر النعيمي وكتاب «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» لابن بدران.

٣- كثرة المؤلفات في شتىٰ أنواع العلوم ، سواء ما يتعلق بالعلوم الشرعية ، من تفسير ، وفقه ، وحديث ، ورجال ، وعقائد ، وسلوك ؛ أو ما يتعلق باللغة العربية وعلومها ، أو التاريخ ، أو العلوم الكونية والإنسانية.

ولكن مما يكدر صفو هذه النهضة العلمية الشاملة ما وجد لدىٰ بعض العلماء من جمود وتقليد وتعصب مذهبي ، حورب بسببه مَن نَبذ التقليد ، ونهج منهج التحرر من آراء الرجال ، ودعا إلىٰ الكتاب والسنة ، ونصر ما يدلان عليه ، وإن خالف ذلك ما عليه جميع الناس[(١)].

حياته الشخصية

أولاً : اسمه ونسبه ومولده :

هو أبو عبد الله ، شمس الدين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي ، الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي ، الشهير بابن قيم الجوزية[(٢)].

---

(١) انظر في بيان الحالة العلمية : الأيوبيون والمماليك ، د. سعيد عاشور ص ١٤٨-١٥٥ ، ٣٥٥-٣٦٢ ، وابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه ص ٤١-٦٦ ، ومقدمة الصواعق المرسلة ص ٤٣-٤٨.

(٢) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧ ، ذيل العبر للذهبي ٤/ ١٥٥ ، المعجم المختص بالمحدثين للذهبي ص ٢٦٩ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦ ، الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ٢/ ٢٧٠ ، الرد الوافر ، لابن ناصر الدين الدمشقي ص ١٢٤ ، الدرر الكامنة ، لابن حجر ٤/ ٢١ ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي ص ٦٢٨ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٩٠ ، شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي ٦/ ١٦٨ ، البدر الطالع ،

والزرعي : نسبة إلىٰ قرية اسمها «زرع» بضم الزاي ، في حوران ، ناحية واسعة من نواحي دمشق ، يطلق عليها الآن « ازرع »[١].

والدمشقي : نسبة إلىٰ دمشق.

والحنبلي : نسبة إلىٰ مذهب الإمام أحمد.

وابن قيم الجوزية : نسبة إلىٰ أبيه ، حيث كان قيماً للمدرسة الجوزية ، وهي إحدىٰ مدارس الحنابلة في ذلك الوقت ، وسميت بالجوزية نسبة إلىٰ مؤسسها ومنشئها الحافظ : يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المتوفىٰ سنة ٦٥٦هـ[٢].

وقد اشتهر والده بلقب : « قيم الجوزية » ؛ لأنه كان قيماً علىٰ المدرسة الجوزية مدة من الزمن ، واشتهر بهذا اللقب أيضاً ذريته وحفدتهم من بعده ، فصار الواحد منهم يُدْعىٰ بابن قيم الجوزية[٣].

وقد اشتهر محمد بن أبي بكر بهذا اللقب عند أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين ، كما اشتهر أيضاً لدىٰ عامة المتأخرين بلقب « ابن القيم » ، اختصاراً ؛ وقد سبقهم إلىٰ ذلك بعض المتقدمين، كابن حجر، والسيوطي[٤].

للشوكاني ٢/ ١٤٣ ، الفتح المبين في طبقات الأصوليين ، للمراغي ٢/ ١٦٨ ، ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ، وموارده ، د. بكر بن عبد الله أبو زيد ص ١٧.

(١) انظر : الضوء اللامع ، للسخاوي ١١/ ٢٠٤ ، ابن قيم الجوزية حياته آثاره ١٩.

(٢) انظر : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ٢٢٧.

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ١٤/ ١١٤ ، ابن قيم الجوزية حياته، آثاره ٢٣.

(٤) انظر : ابن قيم الجوزية حياته، آثاره ٢٦.

ولد ـ رحمه الله ـ في اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١هـ.

وقد اتفقت كتب التراجم التي ترجمت له علىٰ سنة ولادته، ومنهم من اقتصر علىٰ ذكر السنة، ومنهم من ذكر اليوم والشهر الذي ولد فيه، كتلميذه الصفدي[١].

ولم يذكر أحد ممن ترجم له مكان ولادته، سوىٰ المراغي في طبقات الأصوليين، فقد ذكر أنه ولد في دمشق[٢]؛ أما غيره فإنه يكتفي بقوله: «الزرعي الأصل ثم الدمشقي».

ثانياً: أسرته ونشأته:

نشأ - رحمه الله - في كنف والده نشأة دينية صالحة، في بيت علم ودين، فتربىٰ علىٰ يدي والده تربية حسنة في جو علمي ووسط كريم.

فوالده هو الشيخ الصالح العابد الناسك أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي، قيم الجوزية، كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف، وكان فاضلاً، وقد سمع شيئا من دلائل النبوة عن الرشيد العامري، توفي فجأة ليلة الأحد، تاسع عشر ذي الحجة سنة ٧٢٣هـ بالمدرسة الجوزية[٣]. كان عالماً بالفرائض،

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠، الدليل الشافي علىٰ المنهل الصافي، لابن تغري بردي ٢/ ٥٨٣، بغية الوعاة ١/ ٦٢، طبقات المفسرين ٢/ ٩١.

(٢) طبقات الأصوليين للمراغي ٢/ ١٦٩.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١١٤، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

وعنه أخذها ابنه محمد.

وأخوه زين الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر ، شارك أخاه في أكثر شيوخه ، ولد سنة ٦٩٣هـ ، وتوفي سنة ٧٦٩هـ[١].

وابن أخيه زين الدين ، عماد الدين ، أبو الفداء ، إسماعيل بن زين الدين عبد الرحمن ، كان من أفاضل العلماء ، وقد اقتنىٰ أكثر مكتبة عمه شمس الدين، توفي سنة ٧٩٩هـ[٢].

وابنه عبد الله ، شرف الدين ، وجمال الدين ، عبد الله بن شمس الدين ، محمد ، كانت ولادته سنة ٧٢٣هـ ، كان مفرط الذكاء والحفظ ، حفظ سورة الأعراف في يومين ، تسلم التدريس في الصدرية بعد والده ، توفي سنة ٧٥٦هـ[٣].

وابنه إبراهيم ، برهان الدين بن محمد ، ولد سنة ٧١٦هـ ، اشتغل في أنواع العلوم ، أخذ عن والده وغيره ، أفتىٰ ودرس وناظر ، قال الذهبي : قرأ الفقه والنحو علىٰ أبيه ، وسمع وقرأ وتنبه ، وسمَّعه أبوه من الحجَّار[٤].

درس بالصدرية والتدمرية ، وله تصدير بجامع الأموي ، وشرح ألفية ابن

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٦/ ٢١٦ ، الدرر الكامنة ٢/ ٤٣٤ ، ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ص٣٨.

(٢) انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٦/ ٣٥٨.

(٣) انظر ترجمته في : البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٥ ، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠.

(٤) المعجم المختص للذهبي ٦٦-٦٧.

مالك، وكان له أجوبة مسكتة، توفي يوم الجمعة، مستهل صفر سنة ٧٦٧هـ[1].

هذه هي أسرة ابن القيم، أسرة نشأت علىٰ العلم وطلبه وتعليمه وخدمته، فنشأ ابن القيم في هذا الجو العلمي الكريم، ترعاه يد أمينة حريصة علىٰ أن يكون من أهل العلم وحملته.

أضف إلىٰ ذلك أنه عاش في مدينة العلم في ذلك الوقت، مدينة دمشق، حيث كانت حافلة بمدارسها وعلمائها، فتلقىٰ العلم من صغره متنقلا بين تلك المحافل، ينهل من علومها، فشب علىٰ العلم وحبه، وتأثر بما كان سائداً في ذلك الزمن من تنوع المشارب، واختلاف المذاهب، كما حكىٰ ذلك عن نفسه في النونية، ولم ينج منها إلا بعد اتصاله بشيخ الإسلام ابن تيمية، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

وقد بين الدكتور بكر أبو زيد حسن نشأته، فقال: «في هذا الجو العلمي الكريم نشأ ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ، يتقلب في أعطاف العلم تعلماً وتعليماً، فصار هذا مع ما آتاه الله من فكر وقّاد، وحافظة غريبة، واطلاع مدهش، وصفاء نفس، وسلامة صدر، صار له الأثر الكبير جدا في تخرجه ونبوغه علىٰ تلك الصفة الكريمة، والحياة السعيدة التي ملأ بها الطروس والأسماع، ثناء جميلاً وتراثاً ازدانت به المكتبة الإسلامية،

---

(١) انظر ترجمته في: المصدر السابق، البداية والنهاية ١٤/ ٣٢٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٠٨، السحب الوابلة علىٰ ضرائح الحنابلة، لابن حميد ١/ ٥٠.

والمحافل العلمية»[1].

ثالثاً : عبادته وأخلاقه :

كان ابن القيم ـ رحمه الله ـ من خيرة العلماء وأفاضلهم ، وقد تجلت هذه الخيرية بما كان متصفا به من صفات حميدة ، وبما كان عليه من ملازمة للعبودية ، واجتهاد في طاعة ربه ، ولذا نجد أن كل من ترجم له أثنىٰ عليه بحسن الخلق ، ولطيف المعاشرة ، وطيب السريرة ، وعلو الهمة ، وثبات الجنان ، وسعة الأفق، وحسن السمت ، والصلاح، والعلم ، والتزام الفضائل ، وطول التهجد والتعبد.

كما أن كتبه تنطق بما هو عليه من سعة العلم ، وقوة الحجة ، والتمسك بالسنة ، وعظيم يقينه بربه ، واطِّراحه بين يديه ، واضطراره إليه ، وشوقه إلىٰ لقائه ، وعيشه في ظل محبته ، وتلذذه بكلامه ومناجاته.

كما تشهد أيضا بتواضعه ، وازدرائه لنفسه ، وشهوده لبشريته التي هي منشأ كل نقص وعيب.

ولعلي هنا أذكر طرفاً من كلام تلامذته الذين ترجموا له ، وشهادتهم له بالأخلاق العالية والصفات الكريمة التي كان عليها ، وما كان عليه من العبادة والزهد.

يقول ابن كثير ــ رحمه الله ــ عنه : « كان حسن القراءة والخلق ، كثير

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته، آثاره ٤١.

التودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ، ولا يستعيبه ، ولا يحقد علىٰ أحد ، وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يطيلها جداً ، ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله»[1].

وقال أيضاً عنه : «والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة»[2].

وقال ابن رجب موضحاً ما كان يتصف به من شدة ملازمته لعبادة ربه وحسنها : «كان رحمه الله ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلىٰ الغاية القصوىٰ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار ، والافتقار إلىٰ الله والانكسار له ، والاطّراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك»[3].

وقال واصفاً حاله وهو في السجن مع شيخ الإسلام ابن تيمية : «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة»[4].

وقال أيضاً : «وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

(٤) المرجع السابق.

أمراً يُتَعجّب منه»[١].

وقال ابن حجر واصفاً شيئاً من عبادته : «وكان إذا صلىٰ الصبح جلس مكانه يذكر الله حتىٰ يتعالىٰ النهار ، ويقول : هذه غدوتي ، لو لم أقعدها سقطت قواي. وكان يقول : بالصبر والفقر تنال الإمامة بالدين. وكان يقول : لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه»[٢].

أما عن وصف ابن القيم لحاله ، وما نطقت به كتبه ومؤلفاته من بيان تواضعه وهضم نفسه وافتقاره لربه فكثير ، من ذلك ما تضمنه كتابه المدارج من أقوال كثيرة ، منها قوله : «ولو لا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك ، وهو عرضة الوهم والخطأ ، لما اعترضنا علىٰ من لا نلحق غبارهم ، ولا نجري معهم في مضمارهم ، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ، ومنازل السائرين كالنجوم الدراري ، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأىٰ في كلامنا زيغاً أو نقصاً وخطأ ، فليهد إلينا الصواب ، نشكر له سعيه ، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم ؛ والله أعلم ، وهو الموفق»[٣].

وقال في منزلة التواضع : «من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقاً كان أو باطلاً ، وتكل سريرته إلىٰ الله

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٣) المدارج ٢/ ١٣٧.

تعالىٰ ... وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه ، وقل يمكن أن يكون الأمر كما تقول»(١).

ونختم الكلام عن أخلاقه وعبادته بأبيات قالها ابن القيم ، ذكرها الصفدي في ترجمته ، حيث قال : أنشدني من لفظه بنفسه :

بُنـيُّ أبي بكـر كثيـر ذنوبـه ... فليس علىٰ من نال من عرضه إثم

بُنـيُّ أبي بكـر جهـول بنفسـه ... جهـول بـأمر اللـه أنـىٰ لـه العلـمُ

بُنـيُّ أبـي بكـر غـدا متـصدراً ... يعلـم علـماً وهـو ليـس لـه عِلْـمُ

بُنـيُّ أبـي بكـر غـدا متمنيـا ... وصـال المعـالي والـذنوب لـه هـمُّ

بُنـيُّ أبي بكـر يـروم ترقيـا ... إلىٰ جنـة المـأوىٰ ولـيس لـه عـزم

بُنيُّ أبي بكـر يـرىٰ الغـنْمَ في الـذي ... يـزول ويفنـىٰ والـذي تـرك الغُنْـم

بُنـيُّ أبي بكـر لقـد خـاب سعيُـه ... إذا لم يكـن في الـصالحات لـه سـهمُ

بُنـيُّ أبـي بكـر كمـا قـال ربـه ... هلـوع كنـود وصـفه الجهـل والظلـم

بُنـيُّ أبي بكـر وأمثالـه غـدىٰ ... بفتواهـم هـذي الخليقـة تأتـم

ولـيس لـهم في العلـم بـاع ولا التقـىٰ ... ولا الزهـد والـدنيا لـديهم هـي الـهم

فواللـه لـو أن الـصحابة شاهـدوا ... أفاضلـهم قـالوا هـم الـصم والـبكم(٢)

---

(١) المدارج ٢/ ٣٣٧.

(٢) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٢.

رابعاً : وفاتــه :

ذكر كل من ترجم لـه ـ رحمه الله ـ أن وفاته كانت في ليلة الخميس ، ثالث عشر رجب ، وقت أذان العشاء ، سنة إحدىٰ وخمسين وسبع مائة ٧٥١هـ ، وقد كمل لـه من العمر ستون سنة[١] .

وصُلِّي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي ، ثم بجامع جراح ، ودفن بمقبرة الباب الصغير عند والدته.

قال ابن كثير عن جنازته : «وقد كانت جنازته حافلة ـ رحمه الله ـ ، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة ، وتزاحم الناس علىٰ حمل نعشه»[٢] .

وقال ابن رجب : «وشيعه خلق كثير ، ورئيت لـه منامات كثيرة حسنة رضي الله عنه ، وكان قد رأىٰ قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ في النوم وسأله عن منزلته ، فأشار إلىٰ علوها فوق بعض الأكابر ، ثم قال لـه : وأنت كدت تلحق بنا ، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ »[٣] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦، الوافي بالوفيات ٢/ ٦٩٢، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣ ، الرد الوافر ١٢٥ ، وغيرها.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٧.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٤٥٠-٤٥١.

حياته العلمية والعملية

أولاً : طلبه للعلم :

ابتدأ ابن القيم ـ رحمه الله ـ طلبه للعلم منذ نعومة أظفاره ، وذلك بسبب ما هيأه الله له من أسباب طلب العلم المبكر ، فقد نشأ في بيئة علمية ، كما تقدم.

فتوجه إلىٰ طلب العلم منذ السادسة من عمره ، وقد ذكرت كتب التراجم أن من شيوخه الذين أخذ عنه الشهاب العابر المتوفىٰ سنة ٦٩٧هـ ، كما أن ابن القيم ـ رحمه الله ـ أشار إلىٰ ذلك حيث ذكر أنه سمع عليه عدة أجزاء ، وأثنىٰ عليه في تعبير الرؤيا ، فقال عنه : وهذه كانت حال شيخنا هذا ورسوخه في علم التعبير ، وسمعت عليه عدة أجزاء ، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن ، واخترام المنية له رحمه الله تعالىٰ[1].

هذه البداية المبكرة في مجالسة العلماء ، والأخذ عنهم ، أكسبته محبة للعلم وأهله ، ومنحته رغبة صادقة في طلبه وتحصيله ، فجد واجتهد في الأخذ عن علماء بلده ، ولازمهم مدة طويلة ، قرأ فيها أنواع العلوم الشرعية ، وعلوم الآلة.

وقد تحدث تلميذه الصفدي عن طلبه العلم ، فقال : قرأ العربية علىٰ أبي الفتح البعلي ، قرأ عليه الملخص ، لأبي البقاء ، ثم قرأ الجرجانية ، ثم قرأ ألفية ابن مالك ، وأكثر الكافية الشافية ، وبعض التسهيل ، ثم قرأ علىٰ الشيخ مجد

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١٥-٦١٦.

الدين التونسي قطعة من المقرب.

وأما الفقه فأخذه عن جماعة ، منهم : الشيخ إسماعيل بن محمد الحراني ، قرأ عليه مختصر أبي القاسم الخرقي ، والمقنع لابن قدامة ، ومنهم ابن أبي الفتح البعلي ، ومنهم الشيخ الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية ، قرأ عليه قطعة من المحرر ، تأليف جده ، وأخوه الشيخ شرف الدين.

وأخذ الفرائض أولاً عن والده ، وكان له فيها يد ، ثم علىٰ إسماعيل بن محمد ، ثم علىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية.

وأما الأصول ، فأخذها عن جماعة ، منهم : الشيخ صفي الدين الهندي ، وإسماعيل ابن محمد ، قرأ عليه أكثر الروضة لابن قدامة ، ومنهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، قرأ عليه قطعة من المحصول ، ومن كتاب الإحكام للسيف الآمدي.

وقرأ في أصول الدين علىٰ الشيخ صفي الدين الهندي أكثر الأربعين والمحصل ، وقرأ علىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية قطعة من الكتابين ، وكثيراً من تصانيفه[(١)].

ومما يدل علىٰ حرصه علىٰ طلب العلم وغرامه به ، حيازته علىٰ مكتبة عظيمة ، شملت فنونا مختلفة من أنواع العلوم ، ظهرت آثارها في كتاباته المتنوعة ، واستطراداته الكثيرة ، وتعمقه في المسائل التي يكتب عنها ،

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

وكثرت استدلالاته من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح ، ومعرفته بأقوال المخالفين ، وعزوه لأمهات المراجع والمصادر.

يقول الدكتور بكر أبو زيد في معرض حديثه عن غرامه بجمع الكتب : «وهل غزارة المادة في مؤلفاته ، والقدرة العجيبة علىٰ حشد الأدلة ، وذكر الخلاف والقائل به إلا نتيجة الاطلاع المدهش ، والقراءة المتتابعة ، مع ما آتاه الله من عوامل التحصيل : من الذكاء المفرط ، والحافظة المذهلة ، والجامعية الغريبة ، والصدق مع الله في السر والعلن»[1].

وقد تحدث كثير ممن ترجم له عن غرامه بجمع الكتب ، وبيان مآل مكتبته بعد وفاته ، ومن هؤلاء :

الحافظ ابن كثير ، حيث يقول عنه : «واقتنىٰ من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشر معشاره من كتب السلف والخلف»[2].

ويقول ابن رجب عنه : «وكان شديد المحبة للعلم ، وكتابته ، ومطالعته ، وتصنيفه ، واقتناء الكتب ، واقتنىٰ من الكتب ما لا يحصل لغيره»[3].

ويقول ابن حجر : «وكان مغرىٰ بجمع الكتب ، فحصَّل منها ما لا يحصىٰ ، حتىٰ كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلا ، سوىٰ ما اصطفوه منها

---

(١) ابن قيم الجوزية حياته، آثاره ٦١.

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

لأنفسهم»[١].

وقد آل جزء من هذه المكتبة إلىٰ ابن أخيه عماد الدين ، أبو الفداء إسماعيل ابن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقد ذكر ابن العماد في ترجمته : أنه اقتنىٰ كتبا نفيسة ، وهي كتب عمه الشيخ شمس الدين ابن القيم[٢].

وقد تضمنت مكتبته جل ما كتب عن الإمام أحمد ، حيث قال عن الإمام أحمد : فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكُتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً ، منَّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل[٣].

كما أنه جمع مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وألف في بيان أسمائها رسالة بعنوان : « رسالة في أسماء مؤلفات ابن تيمية » ، بلغت ٣٣٠ مؤلفاً[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ، أنه لم يذكر أحد ممن ترجم له أنه رحل في طلب العلم ، مع أنها دأب أكثر طلاب العلم ، ولعله اكتفىٰ بما وجده من فحول العلماء الذين يُرحل إليهم في مدينته التي نشأ وعاش فيها ، وهي دمشق التي كانت محط رحال العلماء ، وموئل طلاب العلم ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ ما كانت تزخر به دمشق من المدارس المتنوعة في فنون العلم المختلفة ، هذا إضافة إلىٰ ما وجده لدىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية من سعة العلم التي

---

(١) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

(٢) شذرات الذهب ٦/ ٣٥٨.

(٣) أعلام الموقعين ١/ ٢٨.

(٤) انظر : ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ٦٢.

جعلته يلازمه إلىٰ وفاته - رحمه الله - ملازمة تامة ، يجد فيها الغبطة والسرور.

ولا يعني عدم ذكرهم لذلك أنه لم يفارق بلده إلىٰ بلد آخر ، فقد ذكر هو عن نفسه أنه رحل إلىٰ مكة ، وجاور فيها ، كما ذكر تلميذه ابن رجب عنه أنه حج مرات كثيرة ، وجاور بمكة[1].

كما ذكر هو عن نفسه أنه رحل إلىٰ مصر ، فقد ورد في كتابه «إغاثة اللهفان» في معرض كلامه عن طب القلوب والأبدان قوله : ذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت إلىٰ المغرب في معرفة هذه الفائدة ، لكان سفرا قليلاً[2].

وورد في كتابه « هداية الحيارىٰ » قوله : وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة[3].

ثانياً : مكانته العلمية :

تبوأ ابن القيم مكانة علمية رفيعة ، وفاق أقرانه في العلم ، فقد برز في عدة علوم من علوم الشريعة ، والآلة ؛ وكان من العلماء الذين اتسعت ثقافتهم ، فكان لهم يد في كل فن من فنون العلم المختلفة.

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ١/ ٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢/ ٢٤٦ ، المدارج ١/ ٣٠٤ من هذه الرسالة ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

(٢) إغاثة اللفهان ١/ ٢٥.

(٣) هداية الحيارىٰ ١٧٢.

وهذه المكانة إنما نالها بما كان عليه في مرحلة الطلب من حرص على طلب العلم ، فقد كان ـ رحمه الله ـ : موهبة متحركة ، تنبض بالعقل الواسع ، والفكر الخصب ، والحافظة المدهشة ، والقدرة العجيبة ، فلا عجب إذا رأيناه يزاحم بالرُّكَب في شتى الحلق على أعداد متكاثرة من الشيوخ بروح متعطشة ، ونفس متألقة ، ليشفي غلته ، ويروى نهمته ، فينهل من كل عالم متخصص حتى تفنن في علوم الإسلام ، وصارت له اليد الطولى في فنون شتى[1].

قال عنه ابن رجب : «الفقيه الأصولي ، المفسر ، النحوي ، العارف ... تفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ، وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيه المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية ، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك ، وكلام أهل التصوف ، وإشاراتهم ودقائقهم ، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى»[2].

وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه : «ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه»[3].

وقال الذهبي : «الفقيه الإمام المفتي المتفنن النحوي ... عني بالحديث

---

(١) ابن قيم الجوزية ، حياته، آثاره ٥٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧-٤٤٨.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

متونه ورجاله ، وكان يشتغل في الفقه ، ويجيد تقريره ، وفي النحو ويدريه ، وفي الأصلين»[١].

وقال ابن كثير : «سمع الحديث واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعددة ، لاسيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلىٰ أن مات ، فأخذ عنه علماً جماً ، مع ما سلف من الاشتغال ، فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً»[٢].

وقال تلميذه الصفدي عنه : «واشتغل كثيراً وناظر واجتهد ، وأكب علىٰ الطلب ، وصنف ، وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير ، والحديث ، والأصول ، فقهاً وكلاماً ، والفروع ، والعربية ، ولم يخلف الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية مثله»[٣].

وقد وصفه ابن ناصر الدين الدمشقي بأنه : أحد المحققين ، وعلم المصنفين ، ونادرة المفسرين.

وقال عنه : «كان ذا فنون من العلوم ، وخاصة التفسير والأصول ، من المنطوق والمفهوم»[٤].

---

(١) المعجم المختص ٢٦٩.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦.

(٣) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

(٤) الرد الوافر ١٢٤.

وقال ابن حجر : «كان جريء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف»[١].

وقال الشوكاني : «هو العلامة الكبير ، المجتهد المطلق ... برع في جميع العلوم ، وفاق الأقران ، واشتهر في الآفاق ، وتبحر في معرفة مذاهب السلف»[٢].

وقال السخاوي : «هو العلامة الحجة ، المتقدم في سعة العلم ، ومعرفة الخلاف ، وقوة الجنان ، ورئيس أصحاب ابن تيمية الإمام ؛ بل هو حسنة من حسناته ، والمجمع عليه بين المخالف والموافق ، وصاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة ، انتفع به الأئمة ، ودَرَّس بأماكن»[٣].

هذه بعض أقوال الأئمة الذين تحدثوا عن ابن القيم ، وفيها بيان منزلته ومكانته العلمية.

ومما يبين لنا منزلته العلمية أيضاً ما كان يقوم به من أعمال جليلة في حياته، وما تركه للأمة بعد وفاته ، ولذا سأذكر أعماله التي كان يقوم بها ؛ من أجل أن تتبين لنا هذه المنزلة ، ويتضح لنا قدر الجهد الذي قدمه للمجتمع الإسلامي في وقته.

---

(١) الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٢) البدر الطالع ٢/ ١٤٣.

(٣) التاج المكلل ٤٢٨.

ثالثاً : أعماله :

تحدثت كتب التراجم عن الأعمال التي كان يقوم بها ـ رحمه الله تعالىٰ ـ، وينحصر جل هذه الأعمال في خدمة العلم وأهله، ونشر العلم الشرعي، والدعوة إلىٰ السنة النبوية، والتمسك بها، وتطبيقها، ومجانبة البدع.

ومن الأعمال التي كان يقوم بها ما يأتي :

أ- الإمامة بالمدرسة الجوزية :

ذكر جميع من ترجم له أنه تولىٰ إمامة المدرسة الجوزية.

قال ابن رجب : وأَمَّ بالجوزية مدة طويلة[1].

قال ابن كثير : هو إمام الجوزية، وابن قيمها[2].

قال الذهبي : شمس الدين، أبو عبد الله الدمشقي، إمام الجوزية[3].

إضافة إلىٰ ذلك تولىٰ خطابة أحد جوامع دمشق، يقول ابن كثير مبينا ذلك : «وفي سلخ رجب أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه عم نجم الدين خليخان تجاه باب كيسان من القبلة، وخطب فيه الشيخ الإمام العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية»[4].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦.

(٣) المعجم المختص ٢٦٩.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣.

ب- التدريس :

تولىٰ ابن القيم ـ رحمه الله ـ التدريس في حياة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية. يقول ابن رجب : «وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه إلىٰ أن مات، فانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ، ويتتلمذون له ، كابن عبد الهادي، وغيره»[1].

وقد ذكر ابن رجب ، وابن كثير ، والذهبي ، وغيرهم أنه تولىٰ التدريس في المدرسة الصدرية وغيرها[2].

وقد بين ابن كثير أن بداية تدريسه بالصدرية كان سنة ٧٤٣هـ ، فقال : «وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية ، وحضر عنده الشيخ عز الدين ابن المنجا الذي نزل له عنها ، وجماعة من الفضلاء»[3].

ج- الإفتاء :

من الأعمال التي كان يقوم بها ـ رحمه الله ـ الإفتاء ، وهذه من مهمات العالم ، إذ يتوجه إليه الناس بالأسئلة والاستفسار عما أشكل عليهم ، وعما يحتاجونه في حياتهم العقدية والعملية ، وابن القيم ـ رحمه الله ـ كان من الأئمة الذين اشتهر

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٤٤٩.

(٢) انظر : المرجع السابق ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٧ ، المعجم المختص ٢٦٩ ، ذيل العبر ٤/ ١٥٥ ، التاج المكلل ٤٢٨.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٢١٤.

عنهم في زمانهم اتباعهم للدليل ، وإن خالف المذهب الذي ينتسبون إليه ، فهو قد تحرر من ربقة التقليد للمشايخ ؛ ولذا قام بنصر السنة ، والعمل بها غير هياب ولا وجل ، وإن امتحن وأوذي ورمي في بطون السجون وغياهبها بسبب ذلك[(١)].

وكان ـ رحمه الله ـ له باع في الفتيا ، وكان علىٰ علم بأصولها ، وأحكامها ، وعلىٰ علم بالنوازل التي يكثر السؤال عنها ، وقد ألف في هذا الشأن كتابه : «إعلام الموقعين عن رب العالمين» خصصه لمعالجة أمور الفتيا ، وختمه بمسك الختام ، وهو فتاوىٰ خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد أفاد مترجموه أنه كان قائماً بهذا الشأن ، كما ذكروا بعض الفتاوىٰ التي أفتىٰ بها وأوذي بسببها ، وامتحن وسجن.

يقول الذهبي : «كان من عيون أصحاب ابن تيمية ، وأفتىٰ ، ودرس ، وناظر ، وصنف ، وأفاد»[(٢)].

وقال ابن رجب : «وتفقه في المذهب ، وبرع وأفتىٰ ... وقد امتحن ، وأوذي مرات ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ»[(٣)].

وقال ابن كثير : «وقد كان متصديا للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية ، حياته، آثاره ٦٨.

(٢) ذيل العبر ٤/ ١٥٥.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

الدين السبكي وغيره»[1].

وقال في حوادث سنة ٧٤٦هـ : «ووقع كلام وبحث في اشتراط المحلل في المسابقة ، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صنف فيه مصنفاً من قبل ذلك ، ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ذلك ، ثم صار يفتي به جماعة من الترك ، ولا يعزوه إلىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فاعتقد من اعتقد أنه قوله ، وهو مخالف للأئمة الأربعة ، فحصل عليه إنكار في ذلك ، وطلبه القاضي الشافعي ، وحصل كلام في ذلك ، وانفصل الحال علىٰ أن أظهر الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية الموافقة للجمهور»[2].

وقال ابن حجر : «وجرت له محن مع القضاة ، منها في ربيع الأول ، طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل ، فأنكر عليه ، وآل الأمر إلىٰ أنه رجع عما كان يفتي به من ذلك»[3].

قال بكر أبو زيد معلقاً علىٰ ذلك : «وقضية الرجوع محل نظر ، فلابد من تثبيت ذلك ، وأرجو من الله تعالىٰ أن يمن علي بما يدل علىٰ ذلك نفياً أو إثباتاً»[4].

وقد أنكر ـ رحمه الله ـ شد الرحال إلىٰ قبر الخليل ، فأوذي بسبب ذلك ، وسجن ، قال الذهبي : «وقد حبس مدة ، وأوذي لإنكاره شد الرحال إلىٰ قبر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) المرجع السابق ١٤/ ٢٢٧.

(٣) الدرر الكامنة ٤/ ٢٣.

(٤) ابن قيم الجوزية ، حياته، آثاره ٧٠.

الخليل»[١].

د- التأليف :

من الأعمال التي قام بها ابن القيم التأليف ، وقد فرغ له جزءاً كبيراً من وقته ؛ بل إنه لم يقتصر علىٰ التأليف في وقت إقامته ببلده وعند مكتبته ، وإنما لازم التأليف حتىٰ في وقت سفره ، وبُعْده عن وطنه ومكتبته ، وله عدة مصنفات ، صنفها في سفره ، وهي :

١- مفتاح دار السعادة.

٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

٣- زاد المعاد في هدي خير العباد.

٤- بدائع الفوائد.

٥- تهذيب سنن أبي داود.

٦- الفروسية.

وقد تنوعت مؤلفاته من حيث القصر والطول ؛ فمنها المختصرات ، ومنها المطولات ، كما أنها تنوعت من حيث الموضوع والمضمون ، فألف في العقائد، والفقه ، والحديث ، والسلوك ، والأخلاق ، والسيرة ، وغيرها ؛ حتىٰ بلغت مؤلفاته أزيد من مائة كتاب في فنون شتىٰ من العلم.

قال ابن رجب : «وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم ، وكان شديد

---

(١) المعجم المختص ٢٦٩.

المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه»[١].

وقال ابن حجر : «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف ، وهو طويل النفس فيها ، يتعانىٰ الإيضاح جهده فيسهب جداً»[٢].

وقال الشوكاني واصفاً حسن تصانيفه : «وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة ، وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين ، بحيث تعشق الأفهام كلامه ، وتميل إليه الأذهان ، وتحبه القلوب ، وليس له علىٰ غير الدليل معول في الغالب ... وغالب أبحاثه الإنصاف ، والميل مع الدليل حيث مال ، وعدم التعويل علىٰ القيل والقال ، وإذا استوعب الكلام في بحث وطول ذيوله أتىٰ بما لم يأت به غيره ، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل»[٣].

وقد تميزت مؤلفاته بمميزات ، وانفردت بخصائص ، جعلتها محل إعجاب أهل العلم علىٰ مر السنين ، فأصبحت مؤلفاته مرجعاً لأهل العلم وطلابه ، يأنسون بها ، ويتلذذون بمطالعتها وقراءتها ، ويستشهدون بأقواله وترجيحاته ، وقد تكلم الدكتور بكر أبو زيد عن منهجه في مؤلفاته ، وذكر أهم الخصائص وأبرز المميزات التي تميزت بها مؤلفاته ، فذكر اثنتي عشرة ميزة هي باختصار[٤]:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

(٢) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

(٣) البدر الطالع ٢/ ١٤٤-١٤٥.

(٤) انظر الكلام علىٰ هذه المميزات كتاب : ابن قيم الجوزية ، حياته، آثاره ٨٥-١٢٨.

الأولىٰ : الاعتماد علىٰ الأدلة من الكتاب والسنة.

الثانية : تقديم أقوال الصحابة رضي الله عنهم علىٰ من سواهم.

الثالثة : السعة والشمول.

الرابعة : حرية الترجيح والاختيار.

الخامسة : الاستطراد التناسبي.

السادسة : مظهر الانطباع بتفهم محاسن الشريعة ، وحكمة التشريع.

السابعة : عنايته بعلل الأحكام ، ووجوه الاستدلال.

الثامنة : الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعه.

التاسعة : الجاذبية في أسلوبه وبيانه.

العاشرة : حسن الترتيب والسياق.

الحادية عشرة : ظاهرة التواضع والضراعة والابتهال.

الثانية عشرة : التكرار.

هذه هي أهم الأعمال التي كان يقوم بها ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ، وهي تدل علىٰ مكانته العلمية ، والمنزلة التي كان يتبوأها ، فرحمه الله رحمة واسعة ، ونفعنا بعلمه.

رابعاً : شيوخه :

تلقىٰ ابن القيم العلم علىٰ عدد من شيوخ زمانه ، ومعاصريه في شتىٰ العلوم ، وقد ذكر مترجموه عدداً من هؤلاء العلماء الذين تلقىٰ عنهم العلم ، كما أشار هو إلىٰ بعض العلماء الذين تلقىٰ عنهم في ثنايا مؤلفاته ، وقد بذل الدكتور بكر أبو

زيد جهداً كبيراً في جمع شيوخه الذين تلقىٰ عنهم ، وأشار إلىٰ المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك.

وسأذكر شيوخه الذين تلقىٰ عنهم مرتبين حسب وفياتهم ، وهم :

١ - أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الحنبلي ، المعروف بالشهاب العابر ، لأنه كان يعبر الرؤيا ، وقد توفي سنة ٦٩٧هـ(١).

٢- محمد بن أبي الفتح البعلبكي ، شمس الدين أبو عبد الله الفقيه اللغوي النحوي المتوفىٰ سنة ٧٠٩هـ(٢).

٣- بنت جوهر فاطمة بنت الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلي المسندة المحدثة ، توفيت سنة ٧١١هـ(٣).

٤ - أبو العباس ، أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الواسطي ، المعروف بابن شيخ الحزاميين ، توفي سنة ٧١١هـ.

ولم أر من ذكره من شيوخه ، وإنما ذكرته لكون ابن القيم وصفه بذلك ، فقال في شفاء العليل : والذي يليق به ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي في شرحه ؛ انتهىٰ.

---

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٣٦-٣٣٨ ، البداية والنهاية ١٣/ ٣٧٤ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، المعجم المختص ص ٢٧ ، ٢٦٩ ، زاد المعاد ٣/ ٦١٥-٦١٦.

(٢) انظر : ذيل العبر ٤/ ٢١ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٥٦ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، المعجم المختص ٢٧٢ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٣) انظر : شذرات الذهب ٦/ ٢٨ ، ذيل العبر ٤/ ٢٨ ، المعجم المختص ٢٦٩ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٧ ، البداية والنهاية ١٤/ ٧٤.

ويعني بشرحه ، أي شرح منازل السائرين للهروي ، فقد شرحه الواسطي ، كما أفاد ذلك ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة[١].

٥- سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن قدامة المقدسي الصالحي ، تقي الدين ، أبو الفضل الحاكم ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وتوفي سنة ٧١٥هـ[٢].

٦- محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي ، صفي الدين الهندي، الفقيه الأصولي ، توفي سنة ٧١٥هـ[٣].

٧- المسند صدر الدين ، أبو الفداء ، إسماعيل بن يوسف ابن مكتوم بن أحمد القيسي الدمشقي ، توفي سنة ٧١٦هـ عن ثلاث وتسعين سنة[٤].

٨- علاء الدين ، علي بن مظفر بن إبراهيم الكندي الوداعي ، يعرف بكاتب ابن وداعة ، توفي سنة ٧١٦هـ[٥].

---

(١) انظر : شفاء العليل ص ٢٩ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٥٨-٣٦٠ ، ذيل العبر ٤/ ٢٩ ، الرد الوافر ١٢٩ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٤ ، العقود الدرية ١٩٣ .

(٢) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٦٤ ، ذيل العبر ٤/ ٤٢ ، البداية والنهاية ١٤/ ٧٧ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، شذرات الذهب ٦/ ٣٥-٣٦ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٣) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٧٧ ، ذيل العبر ٤/ ٤١ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، الدرر الكامنة ٤/ ١٣٢ ، طبقات المفسرين ٢/ ٩١ ، شذرات الذهب ٤/ ٣٧.

(٤) انظر : ذيل العبر ٤/ ٤٤ ، شذرات الذهب ٦/ ٣٨ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٥) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٨٠ ، ذيل العبر ٤/ ٤٣ ، شذرات الذهب ٦/ ٣٩ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

٩- أبو بكر بن المسند ، زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي ، مسند الوقت المعمر ، توفي عن ثلاث وتسعين سنة ، وأشهر ، سنة ٧١٨هـ[١].

١٠- مجد الدين ، أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي ، شيخ القراء والنحاة والبحاثين ، توفي سنة ٧١٨هـ[٢].

١١- عيسىٰ بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد الصالحي المطعم في الأشجار ، ثم السمسار في العقار ، شرف الدين ، توفي سنة ٧١٩هـ ، عن أربع وتسعين سنة[٣].

١٢- بهاء الدين ، أبو القاسم بن مظفر بن النجم محمود بن تاج الأمناء بن عساكر مسند الشام ، قال ابن كثير : شيخنا الجليل المعمر ، توفي في شعبان سنة ٧٢٣هـ عن أربع وتسعين سنة ونصف[٤].

١٣- شمس الدين ، أبو نصر ، محمد بن محمد بن محمد بن هبة الله الشيرازي الدمشقي. قال ابن كثير : شيخنا الأصيل ، سمع الكثير ، وأسمع ،

---

(١) انظر : ذيل العبر ٤/ ٥٠ ، شذرات الذهب ٦/ ٤٨ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

(٢) انظر : ذيل العبر ٤/ ٥٠ ، شذرات الذهب ٦/ ٤٧ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٣) انظر : ذيل العبر ٤/ ٥٥ ، البداية والنهاية ١٤/ ٩٨ ، شذرات الذهب ٦/ ٥٢ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧.

(٤) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ١١٢ ، ذيل العبر ٤/ ٦٨ ، وفيه : بهاء الدين القاسم بن مظفر ؛ وكذلك في شذرات الذهب ٦/ ٦١ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

وأفاد في علية شيخنا المزي، توفي ليلة عرفة سنة ٧٢٣هـ عن أربع وتسعين سنة[(١)].

١٤ - والده أبو بكر بن أيوب، قيم الجوزية، توفي سنة ٧٢٣هـ[(٢)].

١٥ - شرف الدين، عبد الله بن عبد الحليم ابن تيمية، أبو محمد، أخو شيخ الإسلام ابن تيمية، توفي سنة ٧٢٧هـ[(٣)].

١٦ - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية النميري الحراني، شيخ الإسلام، تقي الدين، توفي سنة ٧٢٨هـ، وقد لازمه أكثر من خمس عشرة سنة[(٤)].

١٧ - مجد الدين، إسماعيل بن محمد الفراء الحراني، شيخ الحنابلة بدمشق، توفي سنة ٧٢٩هـ[(٥)].

١٨ - أيوب بن نعمة النابلسي ثم الدمشقي الكحال، زين الدين، توفي سنة

---

(١) انظر: ذيل العبر ٤/ ٦٨، البداية والنهاية ١٤/ ١١٣، وفيها شمس الدين أبو نصر بن محمد، شذرات الذهب ٦/ ٦٢، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٢) سبقت ترجمته ص٧١.

(٣) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٢، ذيل العبر ٤/ ٨١، المعجم المختص ١٢١، شذرات الذهب ٦/ ٧٦، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

(٤) انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٤١، ذيل العبر ٤/ ٨٤، المعجم المختص ٢٥، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، شذرات الذهب ٦/ ٨٠، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٥) انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٥٢، ذيل العبر ٤/ ٨٦، شذرات الذهب ٦/ ٩٠، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٠٨، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١، المعجم المختص ٧٥.

٧٣٠هـ ، عاش أزيد من تسعين سنة[١] .

١٩- بدر الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي ، توفي سنة ٧٣٣هـ عن أربع وتسعين سنة[٢] .

٢٠- يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن القضاعي الكلبي الدمشقي الشافعي، جمال الدين المزي ، المتوفىٰ سنة ٧٤٢هـ[٣] .

٢١- محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الشافعي ، الإمام الحافظ ، صاحب التصانيف الكثيرة في الحديث وغيره ، وتوفي سنة ٧٤٨هـ ، ذكره ابن القيم في تهذيب السنن ، فقال : وضعفها شيخنا أبو عبد الله الحافظ ...[٤] .

خامساً : تلاميذه :

عرفنا فيما سبق أن من الأعمال التي قام بها ابن القيم في حياته التدريس ، ولذا فقد تتلمذ عليه جمع من طلبة العلم في ذلك الوقت ، بل تتلمذ علىٰ يديه أفاضل الطلاب ، ونخبتهم وخيرتهم ، ممن أصبحوا من كبار العلماء في زمن ابن القيم.

---

(١) انظر : ذيل العبر ٤/ ٨٩ ، شذرات الذهب ٦/ ٩٣ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

(٢) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ١٧١ ، ذيل العبر ٤/ ٩٦ المعجم المختص ٢٠٩ ، شذرات الذهب ٦/ ١٠٥ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١.

(٣) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٣ ، ذيل العبر ٤/ ١٢٦ ، المعجم المختص ٢٩٩ ، شذرات الذهب ٦/ ١٣٦ ، حادي الأرواح ٩٨.

(٤) انظر : تهذيب سنن أبي داود ٣/ ٢٦٨ ، المعجم المختص ص ٩٧ ، ذيل العبر ٤/ ١٤٨ ، شذرات الذهب ٦/ ١٥٣.

يقول ابن رجب في ترجمته : «وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلىٰ أن مات ، وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له ، كابن عبدالهادي وغيره»(١).

وقد ذكر ثبتا بمشاهير تلاميذه بكر أبو زيد في كتابه القيم «ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره» ، عني فيه بتوثيق تلمذة كل منهم علىٰ شيخه ابن القيم - رحمه الله -(٢).

* **ومن هؤلاء التلاميذ :**

١ - محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي الصالحي ، شمس الدين ، أبو عبد الله الحافظ الناقد ، ذكر له ابن رجب ما يزيد علىٰ سبعين مصنفاً ، توفي سنة ٧٤٤هـ(٣).

٢- عبد الله بن محمد بن قيم الجوزية ، وقد تقدمت ترجمته ، توفي سنة ٧٥٦هـ(٤).

٣- علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي ، تقي الدين ، أبو الحسن ، المتوفىٰ سنة ٧٥٦هـ(٥) ، ذكر ابن حجر عنه : أنه رحل إلىٰ الشام والأسكندرية

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ١٧٩.

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٣٦ ، ٤٤٩ ، المعجم المختص ٢١٥ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢١ ، شذرات الذهب ٦/ ١٤١.

(٤) انظر : ص٨٣.

(٥) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٤ ، المعجم المختص ١٦٦ ، الدرر الكامنة ٣/ ١٣٤ ، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠ ، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٤٦.

والحجاز ، فأخذ عن ابن الموازيني وابن مشرف ، وعن يحي الصواف ، وابن القيم ، وابن القيم يحتمل أن يكون ابن قيم الجوزية ، ويحتمل أن يكون علي بن عيسىٰ بن القيم الشافعي[1] .

٤ - محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقري التلمساني ، المتوفىٰ سنة ٧٥٩هـ[2] .

٥ - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفىٰ سنة ٧٦٤هـ[3] .

٦ - إبراهيم بن محمد ابن قيم الجوزية ، برهان الدين ، المتوفىٰ سنة ٧٦٧هـ ، وقد تقدمت ترجمته[4] .

٧- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي ، عماد الدين ، أبو الفداء الإمام الحافظ المشهور ، توفي سنة ٧٧٤هـ[5] .

٨- عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، زين الدين ، أبو الفرج ، توفي سنة ٧٩٥هـ[6] .

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ٢٩-٣٠.

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ١٨٣ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٣١٨ ، المعجم المختص ٩١ ، ذيل العبر ٤/ ٢٠٣ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٠٠.

(٤) انظر : ص٨٣.

(٥) انظر : المعجم المختص ٧٤ ، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٦.

(٦) انظر : الدرر الكامنة ٢/ ٤٢٨ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٦ ، السحب الوابلة علىٰ ضرائح الحنابلة ٢/ ٤٧٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧-٤٤٨ .

٩- محمد بن عبد القادر بن محيي الدين عثمان النابلسي الحنبلي ، شمس الدين ، أبو عبد الله ، المعروف بالجنَّة ، توفي سنة ٧٩٧هـ[١].

١٠- محمد بن محمد بن محمد الخضر الغزي الشافعي ، المعروف بالعبزري ، توفي سنة ٨٠٨هـ[٢].

سادساً : مؤلفاته :

سبقت الإشارة إلىٰ أن من الأعمال التي قام بها ابن القيم في حياته العلمية التأليف ، وقد عني من ترجم للشيخ من تلامذته ومن جاء بعدهم بذكر مصنفاته ، ووقع بينهم تفاوت في ذلك من حيث العدد ، ومن حيث الاسم والتكرار[٣].

وقد بذل الدكتور بكر أبو زيد في كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » جهداً مشكوراً في حصر مؤلفاته ، ببيان المؤلَّف ومن ذكره ومكان ذكره ، كما حرر اسم الكتاب ، وبين صحة نسبته إليه ، وأوضح هل هو موجود أو مفقود ، وإذا كان موجوداً هل هو مطبوع أو مخطوط ، فإن كان مطبوعاً بين بعض الطبعات المعتمدة ، وإن كان لايزال مخطوطاً أشار إلىٰ أماكن النسخ الخطية ، كما أشار إلىٰ الكتب التي ذكرها المؤلف في بعض كتبه المطبوعة ، وذكرها

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ٤/ ١٣٨ ، شذرات الذهب ٦/ ٣٤٩ ، السحب الوابلة ٣/ ٩٤١.

(٢) انظر : شذرات الذهب ٧/ ٧٩ ، البدر الطالع ٢/ ٢٥٤.

(٣) انظر : الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢٢ ، شذرات الذهب ٦/ ١٦٩ ، البدر الطالع ٢/ ١٤٤ ، هدية العارفين ٢/ ١٥٨ ، ابن قيم الجوزية حياته، آثاره ١٨٥ - ٣١٠.

ضمن مؤلفاته.

إلىٰ غير ذلك من الفوائد التي ضمنها كتابه عندما تكلم عن ثبت مؤلفاته - رحمه الله -.

ولذا سأكتفي بذكر مؤلفاته علىٰ وجه الإجمال ، إضافة إلىٰ كثرتها حيث بلغت ما يقارب مائة مؤلف ، وسأذكرها سرداً مرتبة علىٰ حروف المعجم ، سواء منها ما ذكره ابن القيم في ثنايا كتبه ، أو ذكرها من ترجموا له ، وإليك بيانها :

١ - اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية.

٢ - الاجتهاد والتقليد.

٣ - أحكام أهل الذمة.

٤ - أسماء مؤلفات ابن تيمية.

٥ - أصول التفسير.

٦ - الإعلام باتساع طرق الأحكام.

٧ - إعلام الموقعين عن رب العالمين.

٨ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.

٩ - إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.

١٠ - اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر.

١١ - الأمالي المكية.

١٢ - أمثال القرآن.

١٣ - الإيجاز.

١٤- بدائع الفوائد.

١٥- بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً.

١٦- بيان الاستدلال علىٰ بطلان اشتراط محلل السباق والنضال.

١٧- التبيان في أقسام القرآن.

١٨- التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير.

١٩- التحفة المكية.

٢٠- تحفة المودود في أحكام المولود.

٢١- تحفة النازلين بجوار رب العالمين(١).

٢٢- تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة.

٢٣- التعليق علىٰ الأحكام.

٢٤- تفضيل مكة علىٰ المدينة.

٢٥- تهذيب مختصر سنن أبي داود.

٢٦- الجامع بين السنن والآثار.

٢٧- جلاء الأفهام في الصلاة علىٰ خير الأنام.

---

(١) الذي يظهر لي أن هذا الكتاب هو كتاب مفتاح دار السعادة ، وذلك أنه قال فيه ص ٤٧ : «وسميته مفتاح دار السعادة ... إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها علي حين انقطاعي إليه عند بيته ... » ، وقال في المدارج ١/ ٢٣٠ : وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجها في كتابنا المسمىٰ تحفة النازلين » ، يشير إلىٰ الرد علىٰ منكري مسألة التحسين والتقبيح العقليين ، وقد رد عليهم في مفتاح دار السعادة.

٢٨- جوابات عابدي الصلبان ، وأن ما هم عليه دين الشيطان.

٢٩- الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قد قدر واقع.

٣٠- حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح.

٣١- الحامل هل تحيض أم لا.

٣٢- الحاوي.

٣٣- حرمة السماع.

٣٤- حكم إغمام هلال رمضان.

٣٥- حكم تارك الصلاة.

٣٦- حكم تفضيل بعض الأولاد علىٰ بعض في العطية.

٣٧- الداء والدواء.

٣٨- دواء القلوب. ولعله الكتاب السابق.

٣٩- ربيع الأبرار في الصلاة علىٰ النبي المختار. ولعله كتاب جلاء الأفهام.

٤٠- الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية.

٤١- الرسالة الشافية في أحكام المعوذتين.

٤٢- رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه.

٤٣- الرسالة التبوكية.

٤٤- رفع التنزيل.

٤٥- رفع اليدين في الصلاة.

٤٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

٤٧- الروح.

٤٨- الروح والنفس.

٤٩- زاد المسافرين إلىٰ منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء.

٥٠- زاد المعاد في هدي خير العباد.

٥١- السنة والبدعة.

٥٢- شرح أسماء الكتاب العزيز.

٥٣- شرح الأسماء الحسنىٰ.

٥٤- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

٥٥- الصبر والسكن.

٥٦- الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم.

٥٧- الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة.

٥٨- الطاعون.

٥٩- طب القلوب.

٦٠- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٦١- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٦٢- طريقة البصائر إلىٰ حديقة السرائر في نظم الكبائر.

٦٣- طلاق الحائض.

٦٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٦٥- عقد محكم الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلىٰ رب السماء.

٦٦- الفتاوىٰ.

٦٧- الفتح القدسي.

٦٨- الفتح المكي.

٦٩- الفتوحات القدسية.

٧٠- الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه.

٧١- الفروسية ، وهو مختصر الذي بعده.

٧٢- الفروسية الشرعية.

٧٣- فضل العلم وأهله.

٧٤- فوائد في الكلام علىٰ حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب وغيره.

٧٥- الفوائد.

٧٦- قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين.

٧٧- الكافية الشافية في النحو.

٧٨- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

٧٩- الكبائر.

٨٠- كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء.

٨١- الكلم الطيب والعمل الصالح. وطبع بعنوان : الوابل الصيب.

٨٢- اللمحة في الرد علىٰ ابن طلحة.

٨٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

٨٤- المسائل الطرابلسية.

٨٥- معاني الأدوات والحروف.

٨٦- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.

٨٧- مقتضىٰ السياسة في شرح نكت الحماسة.

٨٨- المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٨٩- مناقب إسحاق بن راهويه.

٩٠- المورد الصافي والظل الوافي.

٩١- مولد النبي ﷺ .

٩٢- المهدي.

٩٣- نقد المنقول والمحك المميز ؛ بين المقبول والمردود.

ولعله هو كتاب المنار المنيف ؛ لأن هذا العنوان يدل علىٰ مضمون كتاب المنار المنيف.

٩٤- نكاح المحرم.

٩٥- نور المؤمن وحياته.

٩٦- هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ.

٩٧- واضح السنن.

* * *

ثانياً : عنوان الكتاب

لم يحدد ابن القيم ـ رحمه الله ـ ولم يشر في مقدمة كتابه ، ولا في ثناياه إلىٰ عنوان هذا الكتاب ، وإنما ذكر ذلك وأحال إليه في موضعين من كتبه.

فذكره في كتابه الكبير (زاد المعاد) باسم : (مدارج السالكين) ، فقال في الفصل الذي أفرده في ذكر هديه ﷺ في رقية اللديغ بالفاتحة : «فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن ، ولا في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور مثلها ـ إلىٰ أن قال ـ : مع تضمنها لإثبات القدر والشرع ، والأسماء والصفات ، والمعاد والنبوات ، وتزكية النفوس وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ، والرد علىٰ جميع أهل البدع والباطل ، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير : (مدارج السالكين) في شرحها»[1] .

وذكره في كتاب : (كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء) وفي كتاب : (أسرار الصلاة) باسم : (مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين).

فقال فيهما : «وهذا موضوع يستدعي كتاباً كبيراً ولولا الخروج عما نحن بصدده لأوضحناه وبسطناه ، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب : (مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) وفي كتاب : (الرسالة المصرية)»[2] .

---

(١) زاد المعاد ٤ / ١٧٧.

(٢) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص ١٢٦ ، أسرار الصلاة ص ٨٨.

وقد وقع الاختلاف في عنوان الكتاب لدىٰ المترجمين لابن القيم الذين ذكروا هذا الكتاب ضمن مؤلفاته، وكذلك وقع الاختلاف في النسخ الخطية المتعددة لهذا الكتاب.

فجاءت التسمية لهذا الكتاب لدىٰ المترجمين لابن القيم علىٰ النحو الآتي:

فذكره ابن رجب[١]، والداودي[٢]، وابن العماد[٣] باسم: «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

قالوا: وهو شرح منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصاري، كتاب جليل القدر.

وأشار له ابن حجر[٤]، والشوكاني[٥] باسم: «شرح منازل السائرين». وذكره حاجي خليفة[٦]، والبغدادي[٧] باسم: «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين».

وقد وهم البغدادي فعدهما كتابين باسم: «مراحل السائرين»، وباسم: «مدارج السالكين»[٨].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩.

(٢) طبقات المفسرين ٢/ ٩٢.

(٣) شذرات الذهب ٦/ ١٦٩.

(٤) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

(٥) البدر الطالع ٢/ ١٤٤.

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٦٤٠، ١٨٢٨.

(٧) هدية العارفين ٢/ ١٥٨.

(٨) ابن قيم الجوزية حياته. د. بكر أبو زيد ٢٩٦.

أما النسخ الخطية فقد وقع الاختلاف فيها علىٰ النحو الآتي :

١ ـ في نسخة سوريا «الأصل» والتي كتبت في حياة المؤلف سنة (٧٣١ هـ) جاء العنوان فيها كالآتي : الأول في مدارج السالكين في منازل السائرين».

واتفقت معها في هذا العنوان كل من :

نسخة دار الكتب المصرية رقم : (١٠٣) تصوف قولة : والتي كتبت سنة (٩٣٦ هـ).

ونسخة دار الكتب المصرية رقم : (٢٠٥٣١) والتي كتبت سنة (١٣٠١ هـ).

ونسخة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رقم : (٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨) والتي عليها وقفية كتبت سنة (١٣٣٣ هـ).

٢ ـ في نسخة تشستربتي والتي كتبت في القرن الثامن تقريبا جاء العنوان فيها كالآتي : «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين».

واتفقت معها في هذا العنوان نسخة دار الكتب المصرية رقم : (١٥٢٢) ، والتي كتبت في سنة (٨٢٣ هـ).

٣ ـ في نسخة جامعة الإمام المصورة عن مكتبة أحمد الراشد في الغاط ، والتي كتبت سنة (١٣١٧ هـ) جاء العنوان فيها كالآتي : «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

واتفقت معها في هذا العنوان كل من :

نسخة المعهد العلمي بحائل رقم : (٨) والتي هي من مكتبة صالح بن سالم البنيان ، والتي كتبت سنة (١٣١٨ هـ).

ونسخة دار الكتب المصرية رقم : (٨٧٤) تصوف ، والتي كتبت سنة (١٣٢٠ هـ).

ومن هذا يتبين أنه لا اختلاف بين النسخ الخطية في الجزء الأول من العنوان. فكلها قد ورد العنوان فيها باسم : «مدارج السالكين» ، وليس في شيء من النسخ تسميته باسم «مراحل السائرين» كما هو عند ابن رجب، والداودي ، وابن العماد.

وإنما وقع الاختلاف بين النسخ في الشطر الأخير من العنوان ، وهو اختلاف يسير لا يؤثر في مدلول العنوان .

* * *

ثالثاً : مصادر ابن القيم في كتابه

* توطئـة :

بيَّن ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه مدارج السالكين هدفه من تأليفه لهذا الكتاب ، والغاية التي من أجلها قام بتصنيفه[1].

فبين أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره بهذين الأمرين، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر : ١ ـ ٣].

ثم أوضح أن ذلك لا يتحقق إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه، وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ثم أشار إلى أن سورة الفاتحة قد تضمنت ذلك كله ، ولذا فهو سيتكلم على هذه السورة ، ويبين ما تضمنته ، فقال :«ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن ، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع

---

(١) المدارج ١/ ٦ ـ ٧.

والضلال ، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها وكسبياتها ، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسدها ، ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»[١].

إذن ابن القيم خصص كتاب مدارج السالكين لبيان سورة الفاتحة ، وبيان ما اشتملت عليه من المطالب العالية.

وقد سار على هذه الخطة وهذا المنهج ، فابتدأ كتابه بالكلام على معاني الفاتحة وبيان ما دلت عليه من أصول الإيمان.

فبين أنها تضمنت التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء ، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العلى إليها ، ومدارها عليها ، وهي «الله ، والرب ، والرحمن» ، وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة[٢].

وتضمنت إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم ، حسنها سيئها[٣].

وتضمنت إثبات النبوة من جهات متعددة ، تكلم خلالها على الصراط ، ومعناه ، وأطال الكلام على قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧.

(٢) انظر : المدارج ١/ ٧.

(٣) انظر : المرجع السابق ١/ ٧.

(٤) انظر : المرجع السابق ١/ ٧-٢٤.

ثم بين اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة[١].

وتكلم على مراتب الهداية[٢].

ثم عقد ثلاثة فصول في بيان اشتمال الفاتحة على شفاء القلوب، وشفاء الأبدان[٣].

ثم انتقل بعد ذلك للكلام على اشتمال الفاتحة الردَّ على جميع الطوائف من أهل الملل والنحل، وأهل البدع والضلال من هذه الأمة، وبين تضمنها للرد عليهم من طريقين، مجمل ومفصل[٤].

وبعد ذكره لردها المفصل على جميع الطوائف، انتقل للكلام على قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فبين الفرق بين العبادة والاستعانة، وبين ارتباطهما، وذكر أقسام الناس في هذين الأصلين : العبادة والاستعانة، وبين أنهم أربعة أقسام[٥].

ثم أوضح أصول العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة.

ثم فصل الكلام على العبودية، وغاياتها، وحكمتها، وقواعدها، وأقسامها، ومراتبها[٦].

---

(١) انظر : المرجع السابق ١/ ٢٤-٣٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ١/ ٣٧-٥٢.

(٣) انظر : المرجع السابق ١/ ٥٢-٥٨.

(٤) انظر : المرجع السابق ١/ ٥٨-٧٤.

(٥) انظر : المرجع السابق ١/ ٧٤-٨٢.

(٦) انظر : المرجع السابق ١/ ٨٢-١٢٢.

بعد ذلك انتقل للكلام على منازل العبودية التي هي أعمال القلوب - أو ما يسمى بالمقامات عند الصوفية - فقال : فصل : في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله[١] .

ثم بين منهجه في دراستها وترتيبها ، فقال : وقد أكثر الناس في صفة المنازل وعددها ، فمنهم من جعلها ألفاً ، ومنهم من جعلها مائة ، ومنهم من زاد ونقص ، فكل يصفها بحسب سيره وسلوكه ، وسأذكر فيها أمراً مختصراً جامعاً نافعاً إن شاء الله[٢] .

وقال أيضا : «ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، كل يصف منازل سيره وحال سلوكه ، ولهم اختلاف في بعض منازل السير هل هي من قسم الأحوال؟ ، والفرق بينهما : أن المقامات كسبية ، والأحوال وهبية ، ومنهم من يقول الأحوال نتائج المقامات ، والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان أصلح عملاً ، كان أعلى مقاماً ، وكل من كان أعلى مقاماً ، كان أعظم حالاً»[٣] .

وقال في بيان ترتيب المقامات ، ومعنى ذلك وفائدته ، وبيان ما هو الأولى لمن أراد الكلام عليها : «واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني ، كمنازل السير الحسي ، هذا

---

(١) انظر : المرجع السابق ١/ ١٢٢.

(٢) انظر : المرجع السابق ١/ ١٢٢.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٣٥.

محال ، ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام ، لا تفارقه ، وكذلك «البصيرة» ، «والإرادة» ، «والعزم» ، وكذلك «التوبة» ، فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً ؛ بل هي في كل مقام مستصحبة ... وكذلك «الصبر» ، فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له ، ومثال ذلك أن الرضا مترتب على «الصبر» ؛ لتوقف الرضا عليه ، واستحالة ثبوته بدونه ، فإذا قيل : إن مقام «الرضا» أو حاله ... بعد مقام «الصبر» لا يعني به أنه يفارق الصبر ، ويتقدم له قبله مقام الصبر ، فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية»[١].

وقال أيضاً : «على أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتِّب للمنازل لا يخلو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة ، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ، ودخل فيه كله ، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ومقاماته وأحواله ، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات ، لا يكون موفِّياً لذلك العقد والواجب إلا بها ، وكلما وفَّى واجباً أشرف على واجب آخر بعده ، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى»[٢].

إلى أن قال : «فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام ، ببيان حقيقته وموجبه وآفته المانعة

---

(١) المدارج : ١/ ١٣٣-١٣٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ١٣٨.

من حصوله ، والقاطع عنه ، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ... فإنهم تكلموا على أعمال القلوب ، وعلى الأحوال كلاما مفصلاً جامعاً مبينا مطلقاً من غير ترتيب ، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم ، فإنهم كانوا أجل من هذا وهمهم أعلى وأشرف»[١].

ثم بين طريقته التي سار عليها في ترتيبه للمقامات ، فقال : فالأولى بنا : أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة ، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها ... فبمعرفة حدودها دراية والقيام بها رعاية يستكمل العبد الإيمان ، ويكون من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق ؛ بل مستحسن بحسب ترتيب السير الحسي ؛ ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس ، فيكون التصديق أتم ، ومعرفته أكمل ، وضبطه أسهل[٢].

من هذه النصوص يتبين استقلالية ابن القيم في منهجه ، وأنه لم يقصد ابتداء شرح كتاب منازل السائرين ، للهروي ، فلم يذكر في مقدمة الكتاب ولا في غيرها أن كتابه شرح لكتاب الهروي[٣].

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) المدارج ١/ ١٤٠.

(٣) ذكر ابن رجب في ترجمته عند ما ذكر مؤلفاته أن منها كتاب : «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » مجلدان ، ثم قال : وهو شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام

ولكن صنيعه في الكتاب يخالف ذلك ، إذ إنه في كل منزلة يتكلم عنها يذكر كلام الهروي فيها ، ويتتبعه في ذلك شارحا ومبينا لعبارته ، وماذا تدل عليه من معنى ، ثم ينبه على المعنى الصحيح من المعنى الفاسد ، ويبين ما تحتمله العبارة من معاني متعددة ، وما يمكن حمل كلامه عليه من وجوه حسنة ووجوه فاسدة ، ويحاول حمل كلامه على أحسن المحامل ، ويجتهد في الاعتذار له ما أمكن ذلك ، وإن لم يمكنه ذلك رد عليه بألطف عبارة وأهذبها ، مع الإشادة بفضله وجهاده ، ومما قال في حقه : «والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه ويعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه ، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته ، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل ، كيف وقد نفعه الله بكلامه ، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه ، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً ...»(١).

ولعل عذره في ذكر عبارة الهروي في المنازل ، واجتهاده في بيانها ، وذكره لاصطلاحات الصوفية ، وعباراتهم ما ذكره بقوله : «ولكن لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقي السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم ، ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ،

الأنصاري ، كتاب جليل القدر. ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩ ، وكذلك ذكر ابن حجر أن له شرح منازل السائرين ، وكذلك الداودي ، وابن العماد. انظر : الدرر الكامنة ٤/ ٢٢ ، طبقات المفسرين ٢/ ٩٢ ، شذرات الذهب ٦/ ١٦٩.

(١) المدارج ٢/ ٥٢ ، وانظر أيضاً ١/ ٢٦٣-٢٦٤ ، ١٤٩ ، ١٩٨ ، ٢/ ٣٩ ، ٣/ ٣٩٤.

ولعدوه سلوكاً عامّيا ، وللخاصة سلوك آخر »[١].

فابن القيم لما رأى انكباب عامة الصوفية على كتاب الهروي ، وعنايتهم بحفظه وفهمه ومطالعته ، أراد أن يوجههم إلى المنهج السلفي من خلال توضيحه لكتاب الهروي وتفسير عباراته ، على ما يوافق الكتاب والسنة والمنهج الصحيح.

كما أنه أراد الدفاع عن الهروي ، والرد على شارحي منازله ممن اتسم بالنزعة الصوفية الفلسفية ، وأشرب قلبه بالحلول والاتحاد كالتلمساني ، فقال ـ رحمه الله ـ : «وتولى شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة ، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفَرق : العفيف التلمساني ، ونزل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل على جمع الوجود ، وهو لم يرد به - حيث ذكره - إلا جمع الشهود ، ولكن الألفاظ مجملة ، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ، ولسانا فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[٢].

وقال أيضا : «قال الاتحادي : هذا دليل على أن الشيخ يرى مذهب أهل الوحدة... وهذا كذب على شيخ الإسلام ، وإنما مراده فناء شهود العيان...»[٣].

وقال أيضاً : «لكن صاحب المنازل برئ من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفر لهم ؛ بل مخرج لهم من جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك ؛ لأنهم يحملون

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٣٩.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٦٤.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٥٢.

كلامه عليه ، ويظنونه منهم»[١].

وابن القيم لم يكتف بتوضيح عبارة المنازل وتحليل ألفاظه ، وإنما تكلم على المنازل بكلام مفصل بين فيه عبارة الهروي ، إضافة إلى كلامه على حقيقة المنازل ومعناها ، وموجبه وثمرته وآفته المانعة من حصوله ، وذكر الأدلة على ذلك وبيان أقوال أهل العلم ، فهو – رحمه الله – يسترسل في المسائل ، ويفصل في الأدلة. كما تعرض إلى كثير من مسائل العقيدة التي يستدعي كلامه على المنازل ، التطرق إليها ، وتوضيحها ، وبيان كلام الفرق فيها ، والرد عليهم ، وبيان انحرافهم عن الصراط المستقيم ، والمنهج الحق.

ولهذا أصبح كتابه موسوعة شاملة لأعمال القلوب ، مع مسائل أخرى في العقيدة والسلوك ، وغيرها. وهذا ما تميز به شرح ابن القيم على غيره من شروح منازل السائرين.

وقد استفاد ابن القيم في كتابه هذا من مصادر متعددة ومتنوعة ، منها ما نص عليه ، وذكره باسمه ، ومنها ما لم ينص عليه ، وسأتحدث عن هذه المصادر ، معتمداً على الترتيب الموضوعي أولاً ، ثم أتبعه بعد ذلك بذكر المصادر التي نص عليها أو أشار إليها.

أولاً : المصادر التي اعتمد عليها واستفاد منها :

اعتمد ابن القيم على عدة مصادر يرتكز حديثه عن المنازل عليها ،

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٩.

ويستشهد بها دائماً في كلامه عن أي عمل من أعمال القلوب ، أو مسألة من المسائل التي يتطرق للحديث عنها في كتابه هذا.

وهذه المصادر تنحصر فيما يأتي :

أ- الكتاب والسنة :

مما تميزت به مؤلفات ابن القيم اعتماده على الكتاب والسنة ، وإكثاره من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ولعل كتابه مدارج السالكين من أبرز هذه المؤلفات ، إذ حوى ما يزيد على ألف وستمائة آية وخمسمائة حديث ، كل ذلك من أجل ربط الناس بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، وإرجاعهم إلى المنهج السلفي الذي كان عليه السلف الصالح من تقديمهما على غيرهما ، والرد والتحاكم إليهما ، وعدم الالتفات إلى قول من خالفهما كائنا من كان.

يقول بكر أبو زيد مبينا منهج ابن القيم في ذلك : «فابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ يبرز الأدلة من الكتاب والسنة ، ويستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوب سهل مبسط خال من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي ، متطلباً نشر التشريع وبث التوجيه ، رداً إلى الله ورسوله ، وإلى أن يَرِدَ الناسُ منابع الشريعة الأولى خالية من كل ضر خالصة من كل شائبة ، وهذا منهج أصيل في عامة كتبه ومباحثه»[1].

ويقول مصطفى حلمي : «كان ابن القيم مخلصاً للمنهج السلفي ، من حيث

---

(١) ابن قيم الجوزية ، حياته ، آثاره ٨٦.

احترامه للنصوص ، وتقديمها عما عداها ، ومن هذه القاعدة يقف مهاجما للمتكلمين وصوفية وحدة الوجود معاً ؛ لأنه ولو أنه اختلفت بهما السبل ، فإن منبع الخطأ ناجم في رأيه عن التأويل والإسراف فيه»[١].

وقد ركز ابن القيم في كتابه مدارج السالكين على وجوب احترام الأدلة من الكتاب الكريم والسنة النبوية ، والإنكار على كل من أعرض عنهما من سائر الطوائف ، ومن هؤلاء الصوفيةُ الذين تعرضوا لنقده في هذا الكتاب.

ومن نفيس كلامه مما يتعلق بهذا الجانب قوله في منزلة التواضع :

«التواضع للدين هو : الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان ، وذلك بثلاثة أشياء :

الأول : أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم ، المسماة بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة.

فالأولى : للمنحرفين ، أهل الكبر من المتكلمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ، وعزلنا النقل ، إما عزل تفويض ، وإما عزل تأويل.

والثاني : للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه ، قالوا : إذا تعارض القياس والرأي والنصوص ، قدمنا القياس على النص ، ولم نلتفت إليه.

والثالث : للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد ، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر ، قدموا الذوق والحال ، ولم يعبأوا بالأمر.

---

(١) أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة ؛ د. مصطفى حلمي ٩٠.

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين ، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ، قدموا السياسة ، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء هم أهل الكبر ؛ والتواضع التخلص من ذلك كله.

الثاني : أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين ، بحيث يظنه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة ، أو قاصرها ، أو أن غيره كان أولى منه ، ومتى عرض له شيء من ذلك فلْيَتَّهِم فهمه ، وليعلم أن الآفة منه ، والبلية فيه ... ، وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك ، وينبو فهمك عنه ، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم ، ولم تؤت مفتاحه بعد ، هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي ، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص ، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء ، ولو .. ولو .. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

الثالث : أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلا البتة ، لا بباطنه ، ولا بلسانه ، ولا بفعله ، ولا بحاله»[1].

وقال مبينا وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ : «وأما الأدب مع الرسول ﷺ، فالقرآن مملوء به ؛ فرأس الأدب معه : كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمله معارضة خيال باطل ، يسميه

---

(١) المدارج ٢/ ٣٣٤-٣٣٥.

معقولاً. أو يحمله شبهة أو شكاً ، أو يقدم عليه آراء الرجال ، وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما وحد المرسِل سبحانه بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل»[١].

وقال مبيناً وجوب الاعتماد على السنة ناعيا من أعرض عنها : «ولولا «أخبرنا» ، و «حدثنا » ، لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام ، ومن أحالك على غير «أخبرنا » ، و «حدثنا » فقد أحالك إما على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي ، فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة ، فهي من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم»[٢].

وقد أطال في هذا الموضع في ذكر منزلة العلم وأهميته ، وبيان أنه خير من غيره ، وأنه هو الحاكم على غيره ، وأنه هو الهادي والآمر والناهي ، وأنه لا ينفع شيء بغير العلم ؛ بل يكون وبالاً على صاحبه ، وأنه سبب السعادة والهداية في الدنيا والآخرة ، وأنه سبب كل خير ، وأنه الفرقان الذي يفرق به بين الشك واليقين ، والغي والرشاد ، والهدى والضلال ، وأنه الطريق الذي

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٣٨٧.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٤٦٨-٤٦٩.

به يعرف الرب ويعبد، ويذكر ويوحد، وبه تعرف الشرائع والأحكام»[١].

كما قرر أن تزكية النفوس إنما تكون من طريق الرسل، فلا تحصل تزكية النفوس بغير هذا الطريق، يقول مبينا ذلك: «... فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً، وبياناً، وإرشاداً ... ، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ... ، وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟، فالرسلُ أطباءُ القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم»[٢].

وقد أكثر ابن القيم من تقرير هذا الأصل، والدعوة إليه، ولو ذهبنا لنقل كل ما قاله في ذلك لطال بنا الحديث، وهذا أمر لا يحتمله مثل هذا الموضع.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا ليس منهجاً نظريا، يقرره ابن القيم فحسب؛ بل جعله منهجاً عملياً في كتابه، فقد عاش في ظل النصوص الشرعية، يستقي منها أحكام السلوك في كلامه على المنازل، إضافة إلى بناء العقائد التي يتكلم عنها، وكذلك الأحكام التعبدية عليها، ومنها يصدر في أحكامه، وإليها يرد عند التنازع، وعليها يبني ترجيحه للأقوال؛ ولذا قرر أن «كل علم أو عمل أو

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٤٦٩-٤٧١.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٣١٥.

حقيقة أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة المحمدية ، بحيث يكون من ضرب المدينة ، فهو من الصراط المستقيم ، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال »[(١)].

وقد اعتمد في الاستدلال على أمهات كتب السنة ، كصحيحي : البخاري ، ومسلم ، وسنن الترمذي ، وأبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وموطأ الإمام مالك ، ومسند الإمام أحمد ، ومستدرك الحاكم ، ومعاجم الطبراني ، ومصنفي : عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وكتب السنة ، كالسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، وكتب الزهد ، ككتاب الزهد للإمام أحمد ، وابن المبارك ، ووكيع ، وكرسائل ابن أبي الدنيا ، وغيرها من الكتب التي اعتنت بحديث رسول الله ﷺ[(٢)].

ب – آثار الصحابة والتابعين ، وأقوال أئمة التفسير :

مما جمّل به ابنُ القيم كتابَه مدارج السالكين إيراده لأقوال الصحابة وأفعالهم ، والاستشهاد بها في تفسير كلام الله تعالى ، وبيان المنهج الصحيح في الزهد والعبادة ، فأورد كثيراً من أقوالهم في الكلام على منازل العبودية وأعمال القلوب ؛ وذلك لأنهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأصدق حالاً ، وأكثر تمسكاً من غيرهم بسنة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً.

يقول الشيخ بكر أبو زيد مبيناً هذا الأصل الذي اعتمد عليه ابن القيم : «نهج

---

(١) المرجع السابق ١/ ٥٨.

(٢) انظر مثالا لذلك ٢/ ١١٢ ، ٢٣٣-٢٣٨.

ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في مسائل العلم منهج الاسترواح، والتطلب من كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فإن لم يجد أخذ بأَزِمَّة أقوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؛ لأنهم أبر الأمة قلوباً وأعمقها ديناً، وأصحها فهوما، وهذه صفة بارزة وسمة ظاهرة في جميع مباحثه في العقائد والأحكام، ولهذا أفاض ـ رحمه الله تعالى ـ بالاستدلال بهذا الأصل، ووجوب الأخذ به، والعمل بموجبه من ستة وأربعين وجهاً بسطها في كتابه: «إعلام الموقعين»[١].

يقول ابن القيم مقرراً هذا الأصل: «فأين الإشارة في القرآن أو في السنة، أو في كلام سادات العارفين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى هذا الفناء، وأنه هو الكمال»[٢].

وقال أيضاً: «فأين في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أو كلام الصحابة – الذين نسبة معارف من بعدهم إلى معارفهم، كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم – ما يدل على ذلك أو يشير إليه؟، فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة – أعرف بمقامات السالكين، ومنازل السائرين وغاياتها من أعلم الخلق بالله بعد رسله؟، هذا من أعظم المحال ... فلا نجد هذا التكلف الشديد والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلاً، وإنما يوجد عند من عدل عن طريقهم»[٣].

---

(١) ابن قيم الجوزية، حياته، آثاره ٨٩.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٠.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٣٦-٤٣٧.

ولهذا أكثر ابن القيم من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم[١].

وقد اعتنى بنقل كلام المفسرين ، وذكر الأقوال والخلاف في تفسير الآيات، وقد أكثر من النقل عن البغوي ، تارة يصرح بنقله عنه ويعزو إليه ، وتارة أخرى لا يذكر ذلك ؛ بل ينقل عنه من غير تصريح ، أو إشارة إلى أنه نقل عنه ، كما اعتمد أيضا على ابن جرير ، والواحدي ، وأئمة التفسير ، كمجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك ، والشعبي ، وطاووس ، والزهري ، والسدي ، وابن زيد، وابن سيرين ، وغيرهم، ويرجح وينقل إجماعهم فيما اتفقوا عليه.

ومن ذلك قوله عندما تكلم على قوله : ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر : ٤١] ، قال : «قال الحسن : معناه صراط إليَّ مستقيم ، وهذا يحتمل أمرين : الأول : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض... الثاني : أنه أراد التفسير على المعنى ، وهو الأشبه بطريق السلف. أي صراط موصل إليَّ. وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه ، لا يعرج على شيء ، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه ، وهو من أصح ما قيل في الآية. وقيل : «علي» فيه للوجوب ، أي علي بيانه وتعريفه ، والدلالة عليه ، والقولان نظير القولين في آية النحل ، وهي : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل : ٩] ، والصحيح فيها الصحيح في آية الحجر»[٢].

---

(١) انظر المرجع السابق ١/ ٧٣ ، ٢/ ٣ ، ٦ ، ٢٠-٢١ ، ٣٠٤ ، ٣/ ١٥٦ ، ٤٢٤ ، ٤٣٨.

(٢) المدارج ١/ ١٥.

وقال أيضا : «وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل : ١] إلا معنى الوجوب ، أي علينا بيان الهدى من الضلال ، ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي ، وذكر في الحجر الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل ، واختار شيخنا قول مجاهد ، والحسن في السور الثلاث»[١].

وقال في بيان معنى التوبة من قريب : «وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة : قبل الموت ، وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت ، وقال السدي والكلبي : أن يتوب في صحته قبل مرض موته»[٢].

وقال عند تفسير قوله : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر : ٤] ، قال قتادة ، ومجاهد : نفسك فطهر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب، وهذا قول إبراهيم النخعي ، والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا عذر».

ثم ذكر عدة أقوال في تفسيرها، ثم قال : «والقول الأول أصح الأقوال»[٣].

وأكتفي بهذا القدر من النقول التي تدل على اعتماده على أقوال المفسرين.

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٨٤.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٢٠-٢١ ، وانظر أيضا : ٢/ ٧٤ ، ١٧٩ ، ٣٨٢ ، ٤٣١ ، ٤٦٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٤ ، ١/ ٣١٦.

جـ – اللغة العربية :

كان ابن القيم على قدر كبير من المعرفة باللغة العربية ، نحواً ، وبلاغة ، وشعراً ، فقد كان متمكناً من اللغة العربية ، وقد انعكس ذلك على ما يتطرق إليه من مباحث لغوية في مؤلفاته ، فمن يطلع عليها يظن أنه من المتخصصين في هذا الجانب ، هذا إضافة إلى ما يستدل به من أقوال أئمة اللغة ، وما ينثره في كلامه من أشعار وأمثال ، تدل على ملكته الشعرية والبيانية. «وذلك لكثرة اطلاعه على الآثار الأدبية التي زخرت بها المكتبة العربية في عهده»(١).

وقد أثر ذلك على أسلوب ابن القيم في كتاباته ، فأكسبها عذوبة في اللفظ ، وقوة في البيان ، بأسلوب سهل ، خال من التعقيد والإغراب ، وكذا حظيت مؤلفاته بإقبال القراء عليها ، اقتناء وقراءة واستشهاداً بكلامه.

يقول ابن حجر : «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف ، وهو طويل النفس فيها ، يعاني الإيضاح جهده ، فيسهب جدًّا»(٢).

ويقول الشوكاني : «وله حسن التصرف مع العذوبة الزائدة ، وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين ، بحيث تعشق الأفهام كلامه ، وتميل إليه الأذهان ، وتحبه القلوب»(٣).

وقد تجلى هذا الجانب في كتاب مدارج السالكين ، فقد اعتمد على أقوال

---

(١) ابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه ٨٤.

(٢) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

(٣) البدر الطالع ٢/ ١٤٤.

أئمة اللغة، كالفراء والكسائي، ومن ذلك قوله في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]: «فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة، ورفع توهم المجاز، قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً، بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام»[١].

وقال معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه: ١٤]: «وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية، أي عند ذكري، أو في وقت ذكري»[٢].

وهو يتطرق إلى المسائل النحوية وإلى إعراب بعض الآيات في مواضع كثيرة من كتابه[٣].

وكما تجلى الجانب اللغوي في مدارج السالكين باعتماده على أقوال أئمة اللغة، وتطرقه للمسائل النحوية، فقد تجلى ذلك بالأسلوب الأدبي الرفيع، العذب اللفظ، السهل الفهم، القوي المعنى، وهذا أكثر من أن يستشهد له أو يحصر[٤].

وقد استفاد ابن القيم من شاعريته في هذا الكتاب، فقد ضمنه أبياتا من نظمه،

---

(١) المدارج ١/ ٣٧.

(٢) المرجع السابق١/ ٣٨٠.

(٣) انظر مثلا: ١/ ٤٣٣، ٢/ ٦٠، ٣٢٧، ٣٥١، ٤٨٢، ٣/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٤) انظر مثلا: ١/ ٣-٧، ٣٤٧-٣٥٩، ٣٦٩.

وأخرى من نظم غيره ، وقد حوى كتابه أكثر من خمسمائة وعشرين بيتاً.

من هذا يتبين لنا مكانته اللغوية ، وأصالة مصادره في ذلك ، واعتناؤه بهذا الجانب في كتابه هذا.

د- أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية

كانت بداية صلة ابن القيم بشيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧١٢هـ ، عند مقدمه من مصر ، وقد لازمه ملازمه تامة إلى أن توفي شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٢٨هـ.

وقد ذكر ابن القيم في نونيته أن نجاته من المهالك التي وقع فيها كثيرٌ من النفاة للصفات وغيرُهم من المنحرفين ، كانت بسبب اتصاله بشيخ الإسلام ، وملازمته ، وصحبته له.

فيقول مصورا حاله :

يا قوم والله العظيم نصيحة ... من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ... تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
فتى أتى من أرض حران فيا ... أهلا بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ... من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم ... حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت آثارا عظيماً شأنها ... محجوبة عن زمرة العميان[1]

---

(١) الكافية الشافية لابن القيم ١٠٦-١٠٧ ، وانظر أيضاً ١٨٨.

وقد كان لصلة ابن القيم بشيخ الإسلام، وملازمته له الأثر البارز في حياة ابن القيم العلمية، فأخذ عنه كثيراً من العلوم، وقرأ عليه جملة وافرة من الكتب المعتمدة، فذكر الصفدي: أنه قرأ عليه قطعة من المحرر لجده المجد، وقرأ عليه من المحصول، ومن كتاب الإحكام للآمدي، وقرأ عليه قطعة من الأربعين والمحصل، وقرأ عليه كثيراً من تصانيفه.

وكان لذلك الأثر الكبير في إثراء مادته العلمية التي ظهرت جلية في مؤلفات ابن القيم، حيث تطرق لكثير من الموضوعات التي تناولها شيخ الإسلام ابن تيمية، كما سلك منهجه في التحرر من التقليد، ونصرة الدليل، وقد أوضح ذلك مترجموه.

يقول ابن حجر عنه: «وغلب عليه حب ابن تيمية، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله؛ بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه»[1].

وقال أيضاً: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وهو طويل النفس فيها، يتعانى الإيضاح جهده، فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه، يتصرف في ذلك، وله ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته، وينصرها، ويحتج لها»[2].

وقال الشوكاني: «وغالب أبحاثه الإنصاف، والميل مع الدليل حيث مال،

---

(١) الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٢) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢.

وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيولَه، أتى بما لم يأت به غيرُه ، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل ، وأظنها سَرَتْ إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء ، والقيام معه في محنه ، ومواساته بنفسه ، وطول تردده إليه»[1].

وهذا لا يعني أن ابن القيم لم يخالف شيخه في شيء ، ولم يختلف عنه ؛ بل خالف شيخه في عدة مسائل ، وأفاض في مباحث ، وانفرد بمباحث ومؤلفات لم تكن لشيخه ...

وكذلك شيخه لديه من ضروب التأليف في أبواب من العلم لا نجدها عنده[2].

وكما تأثر به في حياته العلمية ، فقد سار على منهاجه في محاربة البدع ، والصدع بكلمة الحق ، وإنكار المنكر ، ومحاربة التقليد والجمود.

يقول بكر أبو زيد مبينا حفاوة ابن القيم بشيخه ، و محبته له : «وكما احتفى بشيخه ، وعلومه حال حياته ، وأخلص في محبته وولائه ، فقد كان خليفته الراشد بعد وفاته، فتلقف راية التجديد، وثبت على جادة التوحيد ، بنشر العلم، وبِرَدِّ الخلق إلى مذهب السلف ، فاتسعت به دائرة المدرسة السلفية ، وانتشر روادها في كل ناحية وصقع. وكان من حفاوته بشيخه ـ شيخ الإسلام ـ أن دون

---

(١) البدر الطالع ٢/ ١٤٥.

(٢) توسع بكر أبو زيد في كتابه ابن قيم الجوزية ، في بيان هذه المسألة ، وكشف زيف الادعاء بأن ابن القيم ما هو إلا نسخة من شيخه. انظر : ١٣٩-١٥٦.

في ثنايا كتبه جملاً من مواقفه، وسؤالاته له، وأسئلة غيره له، وطائفة من أحواله، ومرائيه، واختياراته»[١].

وقد حوى كتابه مدارج السالكين كثيراً من ذلك؛ بل يعتبر من الكتب التي أكثر فيها من النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر أحواله، واختياراته، وتوجيهاته له، وزهده، وورعه، وفراسته، ومعرفته بأحوال القلوب، وقد ذكر ابن القيم شيخه في ثمانين موضعاً من كتابه[٢]، وتارة يصرح بالسماع منه.

وأخرى يقول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وتارة يقول: قال لي، وتارة: قال شيخنا، وتارة يقول: وهذا اختيار شيخنا، وتارة يقول: هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وتارة يقول رأيت أو شاهدت، إلى غير ذلك من العبارات التي يذكرها.

ولعلي هنا أذكر بعض ما ورد في كتابه، فمن ذلك: قوله: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: العارف لا يرى له على أحد

---

(١) ابن قيم الجوزية، ١٣٧.

(٢) انظرها في هذه المواضع: ١/ ١٧، ١٨، ٣٩، ٥٤، ٦٠، ٧٨، ٢٠٩، ٢٢٣، ٢٦٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٢٨، ٣٩٠، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٣١، ٤٤٠، ٤٤٨، ٤٥٤، ٥١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٢/ ١٠، ٢٦، ٦٨، ١٠٤، ١٠٥، ١١٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٣١، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٠، ١٧١، ١٧٦، ٢٢٣، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٩٤، ٣١٣، ٣١٤، ٣٣٢، ٣٤٥، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٧٥، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٤، ٤١٠، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٣، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٥٦، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٩، ٥٠٢، ٥٠٣، ٣/ ٣، ١٤، ٢١، ٣٠، ٥٩، ٦٩، ١٤٠، ٢٦٤، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤٥٨، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٩٧.

حقاً ، ولا يشهد له على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتب ، ولا يطالب ، ولا يضارب[١].

وقال واصفا حاله : «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً : ما لي شيء، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المكدِّى وابن المكدِّى وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول : «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً»[٢].

وقال أيضاً: «ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أموراً عجيبة ، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعي سِفْراً ضخماً».

ثم ذكر نبذاً من فراسته ، ثم قال : «وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته ؛ والله أعلم»[٣].

كما ذكر بعض توجيهاته له ، فمن ذلك قوله : «وقال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – في الشيء المباح : هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة. أو نحو من هذا الكلام».

---

(١) المدارج ١/ ٥٢٣.

(٢) المدارج ١/ ٥٢٤.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٤٨٩-٤٩٠ ، ٢/ ٢٩٤.

قال ابن القيم معلقاً على ذلك : «فالعارف يترك كثيراً من المباح ، إبقاءً على صيانته ، ولاسيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام»[١].

ومنها قوله في باب التحقيق : «قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرة : العوارض والمحن هي كالحر والبرد ، فإذا علم العبد أنه لابد منهما ، لم يغضب لورودهما ، ولم يغتم لذلك ، ولم يحزن ، فإذا صبر العبد على هذه العوارض ، ولم ينقطع بها ، رُجي له أن يصل إلى مقام التحقيق ، فيبقى مع مصحوبه الحق وحده فتهذب نفسه ، وتطمئن مع الله ...»[٢].

وكما استفاد ابن القيم مما شاهده من شيخه من أحوال ومقامات ، وما وجهه له من توجيهات ، استفاد أيضا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح كلام الهروي ، ومن ذلك قوله : وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على ما ذكره صاحب المنازل في التوحيد، فقال - بعد أن حكى كلامه إلى آخره -: «أما التوحيد الأول الذي ذكره ، فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، ونزلت به الكتب كلها ، وبه أمر الله الأولين والآخرين ، وذكر الآيات الواردة بذلك ...»[٣].

ثم أطال في النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان ذلك.

ولم تقتصر استفادة ابن القيم من شيخه على ما صرح فيه بذكره ؛ بل تعدى

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٢٦.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٨٩.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٨٢.

ذلك إلى موافقته في كلامه على بعض المنازل ، وتماثل وتشابه كلامهما ، مما يدل على استفادته منه في ذلك الموضع. ومن ذلك كلامه عن الفناء، والرضا، وأنواع التوحيد ، والعبادة ، والتوبة.

هـ – أقوال الصوفية ومؤلفاتهم :

كان ابن القيم ذو خبرة واسعة بمذاهب أهل التصوف ، ومعرفة بمقولات رجاله المتقدمين والمتأخرين ، المعتدلين والغلاة.

كما كان عارفاً باصطلاحاتهم وإشاراتهم ودقائقهم ، وشطحاتهم ، وما جرى لكثير منهم ، وكل ذلك ناتج عن اطلاعه الواسع على مصنفات ومصادر التصوف التي عرف عن طريقها كثيراً من ذلك إضافة إلى ما شاهده عن متصوفة زمانه ، وما سمعه عمن سبقه.

يقول ابن رجب في ترجمة ابن القيم : «وكان عالماً بعلم السلوك ، وكلام أهل التصوف ، وإشاراتهم ، ودقائقهم»[(١)].

وقال أيضا : «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف ، والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك»[(٢)].

ومن خلال الاطلاع على كتاب مدارج السالكين نجد أن ابن القيم قد رجع

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق.

في تأليفه لهذا الكتاب إلى كثير من مصادر التصوف ، كالرسالة القشيرية التي نقل عنها كثيراً من تعريفات أئمة التصوف للمنازل[١] .

ونقل من اللمع لأبي نصر السراج بعض أقوالهم وأحوالهم[٢] .

ورجع إلى عوارف المعارف للسهروردي[٣] .

ونقل عن المحاسبي صاحب الرعاية ، ونقد كلامه[٤] . واستفاد من إحياء علوم الدين للغزالي[٥] . وذكر بعض الأشعار والأقوال المنسوبة إلى ابن الفارض ، وابن عربي ، وابن سبعين ، وابن سينا[٦] .

كما رجع إلى شرح التلمساني لمنازل السائرين ، ونقل عنه ، وتتبع انحرافاته في شرحه للمنازل ، وحمله عبارة الهروي على ما يوافق مذهب الاتحادية ، ورد عليه. ووصفه قائلاً : «وتولى شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة ، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفرق : العفيف التلمساني ، ونزل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل على جمع الوجود ، وهو لم يرد به حيث ذكره إلا جمع الشهود ؛ ولكن الألفاظ مجملة ، وصادفت قلباً مشحوناً

---

(١) انظر على سبيل المثال : المدارج ٢/ ٤٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٣٦٤-٣٦٦ ، ٤١٢ .

(٢) انظر : المدارج ٢/ ٣٧٦-٣٧٧ ، وقارن اللمع ١٩٥ .

(٣) انظر : المدارج ٢/ ٣٦٨ .

(٤) انظر : المدارج ١/ ٤٣٩ ، ٢/ ٢٧٨ ، ٣٤٢ .

(٥) انظر : المرجع السابق ١/ ٥٢٦ .

(٦) انظر : المرجع السابق ١/ ٢٦٠ ، ٣/ ٢٤٣ ، ٤٤٨ ، ٥١٩ .

بالاتحاد ، ولسانا فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد»[١].

وقام بتتبع انحرافاته في مواضع كثيرة ومتفرقة من كتابه ، ويشير إليه بقوله : قال الملحد ، أو قال الاتحادي ، أو قال صادق الملاحدة[٢].

وقد قام ابن القيم بالرد على تلك الانحرافات ، وإبطال حمل كلام الهروي عليها.

وكما رجع إلى شرح التلمساني من أجل الرد عليه ، وبيان انحرافه ، فقد رجع إليه ناقلاً لبعض كلامه ، ومقتبساً منه في شرح وبيان عبارة الهروي من غير أن يشير إلى ذلك ، ولكن بالتتبع والمقارنة بين الشرحين نجد أنه قد نقل منه عدة نقولات ، منها ما يكون نصاً بالحرف الواحد ، ومنها ما يكون بنوع تصرف بالعبارة واللفظ ، أو تقديم وتأخير[٣].

وهذه الطريقة تكثر في كتب السلف ، وهي تدل على إنصاف ابن القيم ـ رحمه الله ـ ، حيث استفاد منه ، ولم يمنعه من ذلك كون التلمساني وقع في

(١) المرجع السابق ١/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) انظر على سبيل المثال : المدارج ١/ ١٤٩ ، ٢٥٩ ، ٤٦٣ ، وقارنه بشرح التلمساني على الترتيب ٢/ ٥٧٠ ، ١/ ٦٩ ، ١/ ٩٤. وانظر أيضاً : المدارج ٣/ ٩٧ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ٢٩٢ ، وقارنه بشرح التلمساني ٢/ ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٥٢٧.

(٣) انظر مثلا : المدارج ١/ ١٤٧ وقارنه بشرح التلمساني ١/ ٨٢ ، المدارج ١/ ١٧٠-١٧١ = بشرح التلمساني ١/ ٧٤ ، المدارج ٢/ ١٣٦ = بشرح التلمساني ١/ ٢٠١ ، المدارج ٢/ ١٣٨ = بشرح التلمساني ١/ ٢٠٣ ، المدارج ٣/ ٣ = بشرح التلمساني ٢/ ٣٨٣ ، المدارج ٣/ ٣٧٠ = بشرح التلمساني ٢/ ٥٦٩-٥٧٠.

عظائم الأمور.

كما أكثر من الاستشهاد بأقوال الصوفية الأوائل كالجنيد بن محمد، وسهل التستري، وأبي سليمان الداراني، وغيرهم ممن ذكر أقوالهم السلمي في طبقاته، والقشيري في رسالته، والكلاباذي في التعرف، وهو يستشهد بكلامهم في مجالين:

المجال الأول: في الرد على المنحرفين من الصوفية الذين خالفوا المتقدمين في كثير من مسائل الدين، كتزهيدهم في العلم، والإزراء به وبأهله.

يقول في منزلة العلم: «وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه، فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبيل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها، وهذا إجماع من الشيوخ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشرطه»[١].

ثم نقل كلام بعض الشيوخ في الحث على العلم، والتقيد بالكتاب والسنة.

المجال الثاني: يستشهد بأقوالهم في بيان المنازل والمراد بها، فينقل كلامهم الذي ورد عنهم في غالب المنازل، ويعرضها بين يدي الموضوع، ولذا اشتمل الكتاب على كثير من أقوالهم التي أوردها القشيري في الرسالة، والسلمي في طبقات الصوفية، والسراج في اللمع، والكلاباذي في التعرف.

---

(١) المدارج ٢/ ٤٦٤-٤٦٧.

و- كتب العقائد والملل :

اطلع ابن القيم على كثير من كتب العقائد والملل ، ولذا فكتبه التي صنفها مليئة بذلك ، وهذا أمر ظاهر في جميع مؤلفاته.

ويكفي للتدليل على ذلك : كتاب الصواعق المرسلة ، واجتماع الجيوش الإسلامية ، وهداية الحيارى.

وقد أشار ابن القيم في كتابه مدارج السالكين إلى بعض تلك المؤلفات ، فمن ذلك قوله بعد أن ذكر حكم من مات معذوراً من خلقه ، كالطفل الذي لا يميز والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة وغيرهم ؛ قال : «فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا ذنب البتة ، وله فيهم حكم آخر ، في المعاد ، يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم ، فمن أطاع الرسول منهم أدخله الجنة ، ومن عصاه ، أدخله النار. حكى ذلك أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والحديث في مقالاته»(١).

ولما ذكر المراد بالدنيا عند الصوفية ، وأنها عبارة عما سوى الله من المال ، والجاه ، والصور والمراتب ، قال : «واختلف المتكلمون فيها على قولين ، حكاهما أبو الحسن الأشعري في مقالاته»(٢).

وقال حينما تكلم عن الرضا بالقضاء ، وذكر المذاهب في ذلك ، قال : «واختلفت طرق أهل الإثبات للقدر ، والشرع في جواب الطائفتين :

---

(١) المدارج ١/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٤٤٤.

فقالت طائفة : لم يقم دليل من الكتاب ولا السنة ولا الإجماع على جواز الرضى بكل قضاء ، فضلاً عن وجوبه واستحبابه ، فأين أمر الله عباده ، أو رسوله أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره.

وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم ، وبه أجاب القاضي أبو يعلى ، وابن الباقلاني»(١).

ثم ذكر عدة أجوبة ، ثم قال : «وهذه الأجوبة لا يتمشى شيء منها على أصول من يجعل محبة الرب تعالى ، ورضاه ومشيئته واحدة ، كما هو أحد قولي الأشعري ، وأكثر أتباعه»(٢). ثم قال بعد ذلك : «وقد أورد القاضي أبو بكر الباقلاني على نفسه هذا السؤال ، فقال : فإن قيل : القضاء عندكم هو المقضي أو غيره؟.» ثم ذكر جوابه على ذلك ، ثم تكلم عليه وبيّن ما فيه(٣).

ولما ذكر كلام الهروي عن نصوص الأسماء والصفات وبين مراده بقوله : «ولا يتكلف لها تأويلاً ». قال : «أراد بالتأويل هاهنا : التأويل الاصطلاحي ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، وعن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح ، وقد حكى غير واحد من العلماء : إجماع السلف على تركه ، وممن حكاه : البغوي ، وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية ، بخلاف ما سلكه في شامله ، وإرشاده ، وممن حكاه : سعد بن علي الزنجاني»(٤).

---

(١) المدارج ٢/ ١٨٩-١٩٠.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٩٠.

(٣) المرجع السابق ٢/ ١٩١.

(٤) المدارج ٢/ ٨٧.

ويكثر ابن القيم من ذكر وإيراد الآثار الإسرائيلية ، فيقول مثلاً : كما في الأثر الإسرائيلي[١] .

أو يقول : وفي بعض الكتب المتقدمة ...[٢] ؛ أو يقول : وفي التوراة أن الله تعالى قال لموسى...[٣] ؛ أو يقول : إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ...[٤] .

وهذه الآثار التي يستدل بها ، يستدل بها استشهاداً ، لا اعتماداً عليها ، وإنما يذكرها لكونها موافقة لما في الكتاب والسنة[٥] .

ز- أقوال الفقهاء والأصوليين :

من العلوم التي تعلمها ابن القيم ، وأتقنها وبرع فيها علم الفقه ، ومعرفة الخلاف ، يقول ابن رجب عنه : «تفقه في المذهب ، وبرع وأفتى»[٦] .

وقال الذهبي : «وكان يشتغل بالفقه ، ويجيد تقريره»[٧] .

وهو ـ رحمه الله ـ لم يتقيد بالمذهب ؛ بل كان متبعاً للدليل يسير معه حيث سار ، وقد عني بجمع الكتب ، ومن ذلك كتب المذهب الحنبلي. يقول ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن الإمام أحمد : «وكان ـ رضي الله عنه ـ شديد

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٩٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢١٦.

(٣) المرجع السابق ١/ ٤٠٨.

(٤) المرجع السابق ١/ ٤٢٧.

(٥) انظر : بعض هذه الآثار ٢/ ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥ ، ٤٩٧ ، ٣/ ٣٣ ، ٦٩ ، ١٥٣.

(٦) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

(٧) المعجم المختص ٢٦٩.

الكراهة، لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث، ويكره أن يكتب كلامه، ويشتد عليه جداً، فعلم الله حسن نيته وقصده، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً منَّ الله سبحانه علينا بأكثرها، فلم يفتنا منها إلا القليل، وجمع الخَلاَّل نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفراً أو أكثر»[1].

ويكفي في الدلالة على رسوخ قدمه في الفقه ومعرفته بالخلاف، وأصوله كتابيه: إعلام الموقعين، وزاد المعاد في هدي خير العباد.

وقد تطرق في كتابه مدارج السالكين إلى بعض المسائل الفقهية، وذكر الخلاف فيها، فمن ذلك قوله في حكم الرضا: «فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية، والقولان لأصحاب أحمد»[2].

وقال عند تعريف الفناء في اللغة: «وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فان»[3].

وقال في مسألة التحسين والتقبيح: «وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع، يقولون: قبحها ثابت بالعقل، والعقاب متوقف على ورود الشرع، وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبو الخطاب من الحنابلة، وذكره الحنفية، وحكوه عن أبي حنيفة نصاً»[4].

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٢٨.

(٢) المدارج ١/ ١١٠.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٥٤.

(٤) المرجع السابق ١/ ٢٣٢.

وقال في الكلام على توبة القاذف : «وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة القاذف: إعلام المقذوف والتحلل منه أم لا؟، ويخرّج عليهما توبة المغتاب والشاتم ، والمعروف في مذهب الشافعي ، وأبي حنيفة، ومالك، اشتراط الإعلام والتحلل، هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم»[1].

من هذه النقولات يتبين لنا رجوعه إلى المؤلفات التي صنفت في الفقه وأصوله واستفاد منها.

وأكتفي بهذا القدر من الكلام على المصادر التي استفاد منها ، واعتمد عليها في تأليفه لهذا الكتاب.

ثانياً : المصادر التي نص عليها في كتابه ، أو أشار إليها :

صرح ابن القيم في كتابه بذكر بعض المراجع التي استفاد منها ، كما أشار إلى بعض الكتب ، وإن لم يصرح بنقله منها ، كما أحال إلى بعض مؤلفاته وبيّن توسعه في الكلام عن المسألة فيها ؛ وإليك بيان هذه الكتب :

١ – إحياء علوم الدين ، للغزالي.

٢ – الأدب المفرد ، للبخاري.

٣ – الإرشاد ، لأبي المعالي الجويني.

٤ – أصول الدين ، لأبي إسماعيل الهروي.

٥ – البسيط ، للغزالي.

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٩٠، وانظر أيضا : ١/ ٣٦٥-٣٧٠ ، ٣٧٥-٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٢/ ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٤٧٠.

٦- البسيط للواحدي.

٧- التائية لابن تيمية.

٨- تفسير البغوي.

٩- تفسير الطبري.

١٠- التوراة.

١١- ذم الكلام لأبي إسماعيل الهروي.

١٢- الرسالة للقشيري.

١٣- الرسالة النظامية لأبي المعالي الجويني.

١٤- الرعاية للمحاسبي.

١٥- الزهد للإمام أحمد.

١٦- الزهد لعبد الله بن المبارك.

١٧- الزهد لوكيع.

١٨- الزهد لهناد.

١٩- سنن أبي داود.

٢٠- سنن الترمذي.

٢١- سنن النسائي.

٢٢- سنن ابن ماجه.

٢٣- السنة لعبد الله بن الإمام أحمد.

٢٤- الشامل لأبي المعالي الجويني.

٢٥- شرح منازل السائرين للتلمساني.

٢٦- صحيح البخاري.

٢٧- صحيح مسلم.

٢٨- صحيح ابن حبان.

٢٩- صحيح الحاكم (المستدرك).

٣٠- عوارف المعارف للسهروردي.

٣١- علل المقامات لأبي إسماعيل الهروي.

٣٢- فصوص الحكم لابن عربي.

٣٣- الفاروق لأبي إسماعيل الهروي.

٣٤- الفروق اللغوية للعسكري.

٣٥- المحصل للرازي.

٣٦- محن العلماء لابن عبد البر.

٣٧- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

٣٨- المواقف للنثري.

٣٩- الموطأ للإمام مالك.

هذه هي المؤلفات التي نص عليها ، أو أشار إليها ؛ أما مؤلفاته التي أحال عليها فهي :

١- إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان.

٢- تحفة النازلين بجوار رب العالمين.

٣- سفر الهجرتين.

٤- الصواعق المرسلة.

٥- قرة عيون المحبين ، وروضة قلوب العارفين.

٦- المحبة.

٧- مفتاح دار السعادة.

٨- الوابل الصيب ، ورافع الكلم الطيب .

* * *

القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من أوله إلىٰ قوله :

فصل : «والذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر».



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّر وأَعِنْ[1]

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين. وأشهد أن محمداً[2] عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله علىٰ أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق أخباره[3]، ونجتهد علىٰ إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلىٰ الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكم[4] من بين

---

(١) في ش، ب «وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت» غير أن في ب زيادة «وإليه أنيب، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم، كتاب مدارج السالكين في منازل السائرين، تأليف الإمام مفتي الأنام أبي عبد الله، محمد الشهير بابن القيم الجوزية»، بدل «رب يسر وأعن»، وبدله في ح١، غ «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رب يسر وأعن يا كريم»، غير أن «يا كريم» ساقط في غ، وبدله في ح٢ «وبه نستعين، وعليه نتوكل»، وبدله في م «رب يسر وأعن يا كريم»، وبدله في أ «وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، وبدله في ق «وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، رب يسر وأعن يا كريم»، والكل ساقط في د.

(٢) طمس في ب علىٰ قوله: «أن محمداً».

(٣) في غ، ح١، أ «به» بدل «أخباره».

(٤) في ح٢ «الحكمة» بدل «الحكم».

رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدال لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت[١] الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنىٰ عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته[٢]، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكراً[٣] زادها هداية وتبصرا[٤]، وكلما بجست[٥] معينه فجّر لها[٦] ينابيع الحكمة[٧] تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها[٨]، وشفاء الصدور من

---

(١) في ح١ «أغلقت».

(٢) في ح١ «دلالته».

(٣) في ش، غ، ح١، ح٢، أ «وتفكيراً».

(٤) في ش، غ، أ، ح٢ «وتبصيراً».

(٥) قال الفيروزآبادي: بَجَسَ الماء والجرح يَبْجِسُه، ويَبْجُسُه شقه. وقال في لسان العرب: وبَجَسْتُه، أبْجُسُه بَجْساً فانبجس، وبَجَّسْتُه فتَبَجس، وماء بجيس أي سائل.
القاموس المحيط ٢/ ١٩٩، ولسان العرب ١/ ٢١٢، مادة: (بجس).

(٦) في الأصل «بها».

(٧) في ح١، أ، د، غ «الحكم».

(٨) في ح١، غ «عمائها».

أدوائها وجواها[(١)(٢)]، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصبا: يا أهل الفلاح، حي علىٰ الفلاح. نادىٰ[(٣)] [٣/ ب] به[(٤)] منادي الإيمان علىٰ رأس الصراط المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

أسمع - والله - لو صادف آذانا[(٥)] واعية، وبصّر لو صادف قلوبا من الفساد خالية، لكن عصفت علىٰ القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبواب رشدها[(٦)]، وأضاعت مفاتيحها[(٧)]، وران عليها كسبها فلم تجد[(٨)] حقائق القرآن فيها منفذاً، وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح الغذاء[(٩)].

---

(١) في غ «جوائها».

(٢) الجوىٰ: الحرقة، وشدة الوجد من عشق، أو حزن، ويطلق علىٰ الهوىٰ الباطن، والحزن، والماء المنتن، وتطاول المرض، وداء في الصدر. لسان العرب ١/ ٧٣٤، مادة جوا، القاموس المحيط ٤/ ٣١٤.

(٣) في م «فنادىٰ».

(٤) «به» ساقط من ح١، ح٢.

(٥) في ح١، غ، «أذنا».

(٦) في ح١، أ، غ «أبوابها» بدل «أبواب رشدها».

(٧) سقط من د قوله: «وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها».

(٨) في غ زيادة «عليها».

(٩) في غ، ح١، أ «العمل».

واعجبا لها جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء[١] بكلام[٢] رب العالمين، ونص[٣] نبيه المرفوع. سبحان الله[٤]! كيف اهتدت في ظلم الآراء إلىٰ التمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب؟.

واعجباً[٥]! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأقرت علىٰ أنفسها بالعجز عن تلقي الهدىٰ والعلم من كلامِ مَنْ[٦] لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع[٧] غاية التبيان[٨]، وكلام من أوتي جوامع الكلم، واستولىٰ [كلامه][٩] علىٰ الأمد[١٠] الأقصىٰ من البيان؟.

كلا بل هي والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول

---

(١) في ق «الغذاء».

(٢) في ح١ «من كلام».

(٣) في ح١، أ، غ «ونصوص».

(٤) في ح١، غ «أم» بدل «سبحان الله».

(٥) في ب زيادة «لها».

(٦) «من» ساقط من ش، د.

(٧) في م «من» بدل «مع».

(٨) في د، غ، أ، ح١ «البيان».

(٩) ما بين المعكوفين زيادة في غ، أ.

(١٠) «الأمد» ساقط من غ.

عن طرائقِ قصْدِها ، يربَّىٰ فيها الصغير، ويهرم عليها[١] الكبير. وظنت خفافيش البصائر[٢] أنها الغاية التي يسابق[٣] المتسابقون إليها[٤]، والنهاية التي تنافس[٥] المتنافسون فيها[٦]، وتزاحموا عليها. وهيهات أين السها[٧] من شمس الضحىٰ؟ وأين الثرىٰ من كوكب الجوزاء ؟ وأين كلام الذي لم تضمن[٨] لنا عصمة قائله بدليل معلوم من النقل المصدق عن القائل [٤/ أ] المعصوم ؟ وأين الأقوال التي أعلا درجاتها أن تكون سائغة الاتباع ، من النصوص الواجب علىٰ كل مسلم تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها في محل النزاع ؟ وأين الآراء التي نهىٰ قائلها عن تقليده فيها وحذّر من[٩] النصوص التي فرض

---

(١) في ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، غ «فيها» بدل كلمة : (عليها).

(٢) خفافيش البصائر هم ضعاف البصائر ، مأخوذ من الخفش ، وهو ضعف البصر ، والأخفش : الذي يبصر الشيء بالليل ، ولا يبصره بالنهار ، والخفافيش : الحشرات التي تطير بالليل. مختار الصحاح ١٨٢ ، لسان العرب ٢/ ١٢١٠ ، مادة (خفش).

(٣) في ح١ ، ح٢ ، أ ، د ، م ، ب ، غ «تسابق».

(٤) في د ، أ ، ق ، غ «إليها المتسابقون».

(٥) في م «يتنافس».

(٦) في د ، أ ، ق ، غ ، م «فيها المتنافسون» ؛ و «فيها» ساقط في ح٢.

(٧) السها : كوكب خفي من بنات نعش الصغرىٰ. وقال في لسان العرب : هو كويكب صغير ، خفي الضوء في بنات نعش الكبرىٰ. القاموس المحيط ٤/ ٣٤٦ ، ولسان العرب ٣/ ٢١٣٨ ، مادة سها).

(٨) في ح١ ، ش ، ح٢ ، م ، أ ، ب ، غ «يضمن».

(٩) في الأصل ، ش ، د ، م ، غ ، ح١ ، ح٢ ، أ «إلىٰ».

علىٰ كل عبد أن[1] يهتدي بها ويتبصر ؟ ، وأين المذاهب التي إذا مات أربابها فهي من جملة الأموات ، من[2] النصوص التي لا تزول إذا زالت الأرض والسماوات؟.

سبحان الله ! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي ، واقتباس العلم من مشكاتها[3] من كنوز الذخائر ؟ وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر ؟ قنعوا بأقوال استنبطتها[4] معاول الآراء فكراً ، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبراً ، وأوحىٰ بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورا ، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً.

درست[5] معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها ، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها ، وأفلت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحيونها[6] ، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يبصرونها. خلعوا نصوص الوحي من سلطان الحقيقة ، وعزلوها عن ولاية اليقين ، وشنوا عليها غارات التأويلات

---

(١) في الأصل ، ش ، ق ، د «أنه».

(٢) في الأصل ، ش ، د ، م ، غ ، ح١ ، ح٢ ، أ «إلىٰ».

(٣) في ح١ ، غ ، أ «مشكاته».

(٤) في الأصل ، ش ، ب ، أ ، ح١ ، ق ، غ «استنبطها».

(٥) في ق زيادة «لأجل ذلك».

(٦) في الأصل ، ش ، ق ، د «يحبونها» ؛ وفي اجتماع الجيوش الإسلامية (فليسوا يبصرونها).

الباطلة ، فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف علىٰ أقوام لئام، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام، وتلقوها من بعيد ؛ ولكن بالدفع في[1] صدورها والأعجاز ، وقالوا : ما لك عندنا من عبور ، وإن كان لا بد ، فعلىٰ سبيل المجاز[2]. أنزلوا النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان ، له السكة[3] [٤/ ب] والخطبة ، وما له حكم نافذ ولا سلطان ، المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس حظه من المعقول ، والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول ، وأهل الكتاب والسنة المقدمون لنصوصها علىٰ غيرها ، جهال لديهم منقوصون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣].

حرموا - والله - الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحي ، وتضييعهم الأصول ، تمسكوا[4] بأعجاز لا صدور لها ، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها ، وتقطّعتْ بهم أسبابُها أحوج ما كانوا إليها ، حتىٰ إذا بُعثر ما في القبور ،

---

(١) في ق «عن ».

(٢) في ح١ ، أ ، غ «الاجتياز ».

(٣) السِّكّة : بالكسر ، حديدة منقوشة ، يضرب عليها الدراهم. القاموس المحيط ٣/ ٣٠٦ ، لسان العرب ٣/ ٢٠٥١ ؛ مادة (سكك).

(٤) في ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، ب «وتمسكوا ».

وحُصّل ما في الصدور ، وتميّز[1] لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه ، وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه[2] ، وقَدِموا علىٰ ما قدَّموه وبدا لهم من الله ما لم يكونوا ليحتسبوه[3] ، وسقط في أيديهم عند الحصاد لمَّا عاينوا غلَّة ما بذروه ، فيا شدة الحسرة عند ما يعاين[4] المبطل سعيه وكدَّه[5] هباء منثوراً ، ويا عِظَم المصيبة عندما يتبين[6] بوارق أمانيه خلبا[7] ، وآماله الكاذبة غروراً ، فما ظن من انطوت سريرته علىٰ البدعة والهوىٰ ، والتعصب للآراء بربه يوم تبلىٰ السرائر ؟ ، وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا ينفع[8] الظالمين فيه المعاذر[9]؟.

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال ؟

---

(١) في ب «وتبين».

(٢) في ح٢ «اعتمدوه».

(٣) في ح٢ ، ش ، م ، أ ، غ ، ب ، د «يحتسبوه» ، وفي ح١ ، «يحتسبون».

(٤) في ش «عاين».

(٥) في ح١ «وكدره».

(٦) في ش ، ب «تتبين».

(٧) أي خادعه ، يقال : خَلَبَه ، يخلبه خَلْبا ، وخلابَةً : أي خدعه ، والخلابة : الخديعة ، والبرق الخُلّبُ : الذي لا مطر فيه ، كأنه خادع. انظر: مختار الصحاح ٨٣ ، لسان العرب ٢/ ١٢٢٠ ؛ مادة (خلب).

(٨) في ح١ ، غ «تنفع».

(٩) في ح١ «معاذير».

أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة، وتنوع الأشكال؟، أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟.

هيهات والله. لقد ظن أكذب الظن، ومنّته نفسُه أبين المحال، وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدىٰ الله تعالىٰ علىٰ غيره، وتزود [٥/ أ] التقوىٰ، وائتم بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها والله سميع عليم[(١)].

وبعد: فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدىٰ ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال[(٢)] تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣]. فأقسم[(٣)] [سبحانه][(٤)] أن كل واحد[(٥)] خاسر إلا من كمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان

---

(١) هذه المقدمة التي ذكرها المؤلف هنا، ذكر بعضاً منها في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية مع بعض الاختلاف، والتقديم والتأخير.

انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية ٨٩-٩٣.

(٢) في ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في ح١ «وأقسم».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة في ح١، أ، ق، د، وح٢، غ، ب، م.

(٥) في ش، أ، ق، غ، ب، م، د «أحد».

والعمل ، ولا يتم[1] إلا بالصبر عليه[2] ، والتواصي به[3] ، كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ؛ بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ، ويخلص به من الخسران المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال علىٰ القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ؛ فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلىٰ سبيل الرشاد. فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ، ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن بعون الله ننبه علىٰ هذا بالكلام علىٰ فاتحة الكتاب وأم القرآن ، وعلىٰ بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وما تضمنته من الرد علىٰ جميع [طوائف][4] أهل البدع والضلال. وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها وكسبياتها[5] ، وبيان أنه لا يقوم[6] غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسدّها. ولذلك لم ينزل

---

(١) في ح١ ، ح٢ ، غ ، ق ، د ، أ ، ب ، م «يتمان».

(٢) في ح١ ، غ ، ح٢ ، د ، ق ، ب ، أ ، م «عليهما».

(٣) في ح١ ، غ ، ح٢ ، د ، ب ، ق ، أ ، م «بهما».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة في م ، ب ، ح١ ، ق ، د ، أ ، غ ، ح٢.

(٥) سيأتي كلام المؤلف علىٰ المقامات والأحوال والفرق بينهما عند بداية كلامه علىٰ المنازل ؛ ص ٤٥٠.

(٦) في د زيادة «علىٰ».

في التوراة ، ولا [٥/ ب] في الإنجيل ، ولا في الزبور[١] ، ولا في القرآن مثلها. والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلي العظيم][٢].

قوله عز وجل بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٣] ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[٤] [سورة الفاتحة][٥].

بيان اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب

[اعلم أن][٦] هذه السورة[٧] اشتملت علىٰ أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت علىٰ التعريف بالمعبود تبارك وتعالىٰ بثلاثة أسماء ، مرجع[٨] الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا إليها ، ومدارها عليها. وهي «الله ، والرب ، . . . .

---

(١) سقط من غ ، ح١ ، أ قوله : «ولا في الزبور».

(٢) ما بين المعكوفين زيادة في ح١ ، م ، أ ، غ . وفي د زيادة «العظيم» فقط.

(٣) سقط من ب قوله : «قوله عز وجل بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

(٤) في ش ، ب زيادة «آمين».

(٥) سقط من ح١ ، ق ، وح٢ ، د ، أ ، م ، غ من قوله : «قوله عز وجل» إلىٰ قوله: «ولا الضالين».

(٦) ما بين المعكوفين زيادة في م ، ح٢ ، ق ، ح١ ، د ، أ ، غ.

(٧) في ش زيادة «الكريمة».

(٨) في ش «ترجع».

والرحمن »[1] وبنيت السورة على الإلـهية ، والربوبية ، والرحمة فـ «إيـاك نعبـد »

---

(١) اسم الجلالة «الله » ، قيل : أصلـه إِلـه ، فحذفت همزته ، وأدخـل عليـه الألـف والـلام فخـص بالباري سبحانه. وقيل : هو من أَلـه : أي تحير ، وقيل : أصلـه ولاه ، فأبـدل من الـواو همـزة ، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والـها نحوه. وقيل غير ذلك.

والإلـه : هو المعبود. قال الزجاج : ومعنىٰ قولنا : «إلاه » إنما هو الذي يستحق العبـادة ، وهـو تعالىٰ المستحق لـها دون من سواه.

وقال ابن سيده : والإلاهة ، والألوهة ، والألوهية : العبادة.

وقال ابن بري : «الله » أصلـه إلاه علىٰ فعال بمعنىٰ مفعول ؛ لأنه مألوه أي معبود.

واختلف فيه هل هو اسم مشتق أم لا ؟ ، علىٰ قولين.

قال الخطابي : واختلف الناس هل هو اسم علـم موضـوع أو مـشتق ، فـروي فيـه عـن الخليـل روايتان :

إحداهما : أنه اسم علم ليس بمشتق ... ، وروىٰ عنه سيبويه أنه اسم مشتق ، وكان في الأصل إلـه مثال فعال.

وذهب الخطـابي ، والزجـاج ، وأبـو بكـر بـن العـربي ، والـسهيلي إلىٰ أنـه اسـم علـم. وذهـب سيبويه وغيره إلىٰ أنه مشتق ، وهو الذي رجحه ابن القيم ، والزركشي ، وقد رد ابن القيم عـلىٰ السهيلي زعمه عدم اشـتقاق اسـم الله ، وأجـاب عـن حجـتهم التـي احتجـوا بهـا ، وكـذلك رد عليهم الزركشي في معنىٰ لا إلـه إلا الله.

انظـر : تفـسير أسـماء الله الحـسنىٰ للزجـاج ٢٥ ، شـأن الـدعاء للخطـابي ٣٠ ، المفـردات للأصفهاني ٣١ ، لسان العرب ١/ ١١٤-١١٥ ، بـدائع الفوائـد ١/ ٢٢ ، معنىٰ لا إلـه إلا الله للزركشي ١٠٤-١٢١.

الرب : قال ابن الأثـير : الـرب يطلـق في اللغـة عـلىٰ المالـك ، والـسيد ، والمـدبر ، والمـربي ، والمقيم ، والمنعم ، ولا يطلق غير مضاف إلا علىٰ الله تعالىٰ ، وإذا أطلق علىٰ غيره أضيف.

انظر : النهاية في غريب الحـديث لابـن الأثـير ٢/ ١٧٩ ، شـأن الـدعاء للخطـابي ٩٩-١٠٠ ،

مبني علىٰ الإلـهية. «وإياك نستعين» علىٰ الربوبية، وطلب الـهداية إلىٰ صراطه المستقيم[1] بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثـة، فهـو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لحمده. وتـضمنت إثبات

المفردات للراغب الأصفهاني ١٩٠، لسان العرب ٣/ ١٥٤٦.

الرحمن: اسم مشتق من الرحمة، وكذلك اسم الرحيم، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، كندمان ونديم، واسم الرحمن من الأسماء المختصة به تعالىٰ، فلا يجوز إطلاقه علىٰ غيره، وأما اسم الرحيم فيجوز إطلاقه علىٰ غيره، ومعنىٰ الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق كلهم المؤمن والكافر في أرزاقهم وأسباب معاشهم، وأما الرحيم فخاص للمؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ولـهذا يقال: إن الرحمن خاص في التسمية عام في المعنىٰ. والرحيم عام في التسمية، خاص في المعنىٰ.

وقال ابن القيم في بيان الفرق بينهما: إن الرحمن دال علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال علىٰ أن الرحمة صفته، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها.

وقال قبل ذلك: فالرحمن اسمه تعالىٰ ووصفه لا تنافي اسميتُه وصفيتَه، فمن حيث هو صفة جرىٰ تابعا علىٰ اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم. ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالىٰ حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجئ اسم الله كذلك.

انظر: تفسير أسماء الله الحسنىٰ للزجاج ٢٨، شأن الدعاء للخطابي ٣٥-٣٩، النهاية لابن الأثير ٢/ ٢١٠، المفردات للأصفهاني ١٩٧، بدائع الفوائد ١/ ٢٤.

(١) في د، أ، م، ب «صراط مستقيم».

المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها. وتفرد الرب تعالىٰ بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يتركهم[1] سدىٰ مهملا[2] لا يعرّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، [٦/ أ] ونسبة إلىٰ[3] الرب تعالىٰ[4] ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني[5]: أخذها من اسمه «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلىٰ معرفة عبوديته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» الذي[6] رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم [فمن أعطىٰ][7] اسم «الرحمن» حقه علم[8] أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال

(١) في ح١، ح٢، غ، أ «يترك عباده».

(٢) في د، أ، م «هملا».

(٣) «إلىٰ» ساقطة في ش.

(٤) في ش زيادة «إلىٰ».

(٥) في د «الموضع الثاني».

(٦) في ش، ح١، ق، غ، ح٢، د، أ، م، ب «فإن» بدل «الذي».

(٧) ما بين المعكوفين مطموس في الأصل، وهو هكذا في سائر النسخ.

(٨) في غ، أ، ح١، ح٢، د، م «عرف».

الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقتضاء[1] الرحمة[2] لما يحصل[3] به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما يحصل[4] به حياة الأبدان والأشباح؛ لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولوا الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم علىٰ الخيرات، ويعاقبهم علىٰ المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل[5] إقامة الحجة عليه؛ والحجة إنما قامت برسله وكتبه[6]، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلىٰ النعيم، والفجار إلىٰ الجحيم[7].

الموضع الخامس: من قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يعبد به تعالىٰ لا يكون إلا [علىٰ][8] ما يحبه ويرضاه؛ وعبادته هي شكره، وحسنه[9] فطري

---

(١) في م زيادة «الحب».

(٢) في ح١ «رحمته».

(٣) في ش «تحصل».

(٤) في د، وش «تحصل».

(٥) في ب «إلا بعد» بدل «قبل».

(٦) سقط من ق من قوله: «والسيئات» إلىٰ قوله: «وكتبه».

(٧) كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥].

(٨) ما بين المعكوفين زيادة من أ، ب، ح١، ح٢، د، غ، ق، م.

(٩) هكذا في الأصل، وفي ش «وخشيته»، وأشير إلىٰ أن الظاهر «وحسنه»، وفي م، أ، ب، غ، ح٢، ح١، «وحبه وخشيته»؛ وفي د «وحبه وحسنه»، وفي ق «وحبه».

معقول[1] للعقول السليمة ؛ لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلىٰ معرفته إلا برسله ، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول ؛ يستحيل تعطيل العالم عنه ، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ، ولم يؤمن به ، ولهذا جعل[2] [الله][3] سبحانه الكفر برسوله[4] كفراً به[5].

مراتب الهداية

الموضع السادس : من[6] قوله : «اهدنا [٦/ ب] الصراط المستقيم » فالهداية : هي البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلىٰ البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق وجعل الإيمان في القلب ، وتحبيبه إلىٰ العبد ، وتزيينه في قلبه ، وجعله مؤثراً له[7] ، راضياً به ، راغباً فيه.

وهما [هدايتان مسؤولتان][8] ، ولا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنان

---

(١) في ح١ ، أ ، ب ، د «ومعقول » .

(٢) في الأصل ، د ، أ ، ش «يجعل » .

(٣) ما بين المعكوفين زيادة في م.

(٤) في ح١ ، أ ، غ ، ب «رسله » .

(٥) كما قال سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام : ٣٣].

(٦) «من » ساقط من ش .

(٧) في ب «مريداً له » بدل «مؤثراً » .

(٨) هكذا ما بين المعكوفين في سائر النسخ، وكتب مكانه في الأصل «هذان اللذان» بخط مغاير.

تعريف ما لم نعلمه[١] من الحق تفصيلاً وإجمالاً ، وإلهامنا له[٢] ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً ، ثم خلق القدرة لنا علىٰ القيام بموجب الهدىٰ بالقول والعمل والعزم[٣] ، ثم إدامة ذلك لنا ، وتثبيتنا عليه إلىٰ الموافاة[٤].

ومن هاهنا يعلم اضطرار العبد إلىٰ[٥] هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، وبطلان سؤال[٦] من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟ ؛ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده ، أو أكثر منه ، أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلىٰ الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور ، كان سؤال الهداية له[٧] سؤال التثبيت والدوام. وللهداية مرتبة أخرىٰ وهي آخر مراتبها : وهي الهداية يوم القيامة إلىٰ

---

(١) في ش «يعلمه».

(٢) «له» ساقط من ش .

(٣) في م زيادة «والمعرفة».

(٤) قد دل القرآن الكريم علىٰ هذين النوعين من أنواع الهداية ، فمن أدلة هداية البيان والدلالة قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورىٰ ، آية : ٥٢] ، ومن أدلة هداية التوفيق والإلهام قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ ، [سورة القصص ، آية : ٥٦]. انظر : المدارج ٤٢-٤٣ ، بدائع الفوائد ٢/ ٣٧ ، وجمع الشتيت ٣١.

(٥) في ب ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د ، ق زيادة كلمة : «سؤال».

(٦) في ح١ ، د ، أ ، غ ، ح٢ ، ق ، م «قول».

(٧) «له» ساقط من ش .

طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها(١). فمن هدي في هذه الدار إلىٰ صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسوله(٢)، وأنزل به كتابه(٣)، هدي هناك إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جنته ودار ثوابه. وعلىٰ قدر ثبوت قدمه(٤) علىٰ هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه علىٰ الصراط [٧/ أ] المنصوب علىٰ متن جهنم. وعلىٰ قدر سيره علىٰ هذه الصراط يكون سيره علىٰ ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق(٥)، ومنهم من يمر كالطرف، [ومنهم من يمر كالريح](٦)، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعىٰ سعياً، ومنهم يمر(٧)

---

(١) من الأدلة الدالة علىٰ هذه المرتبة من مراتب الهداية قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة يونس، آية: ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٤٣]، وللهداية مرتبة رابعة هي أول مراتب الهداية لم يذكرها ابن القيم هنا، وقد ذكرها في بعض كتبه، وهي الهداية العامة المشتركة بين الخلق، المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه، آية: ٥٠]، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره.

انظر: مفتاح دار السعادة ٨٤، بدائع الفوائد ٢/ ٣٥، وشفاء العليل ص ١١٧-١٤٨.

(٢) في ح١، د، أ، غ، ق، ب «رسله».

(٣) في ح١، أ، غ، ب «كتبه».

(٤) في ح١، د، غ، ق «قدم العبد».

(٥) في ب زيادة «الخاطف».

(٦) ما بين المعكوفين زيادة في أ، د، ب، غ، م، ق، ح٢.

(٧) في ح١، أ، غ، ح٢، ق، م، ب «يمشي».

مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار[١]. فلينظر العبد سيره علىٰ ذلك الصراط من سيره علىٰ هذا حذو القذة بالقذة، جزاءً وفاقاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل: ٩٠].

ولينظر الشهوات والشبهات[٢] التي تعوقه عن سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك[٣] الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه؛ إن[٤] كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، وللسلامة[٥] من كل شر.

---

(١) يشير المؤلف إلىٰ صفة الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم، ومرور الناس عليه يوم القيامة، وقد دل علىٰ ذلك حديث أبي سعيد الخدري، وفيه «ثم يؤتىٰ بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة عليه خطا طيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق والريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتىٰ يمر آخرهم يسحب سحباً ...».

أخرجه البخاري في التوحيد، (١٣/ ٤٢٠)، حديث (٧٤٣٩)، وأخرجه مسلم في الإيمان، (١/ ١٦٧)، حديث (١٨٣).

(٢) هكذا في الأصل، وش، وفي باقي النسخ الخطية «الشبهات والشهوات» وهو الأولىٰ، لأن مرض الشبهات أعظم من مرض الشهوات، فاستوجب التقديم.

(٣) في أ، ب «ذلك»؛ وهو ساقط في م.

(٤) في ح١، أ، د، م، ق «فإن».

(٥) في م، غ، ح٢ «والسلامة».

الموضع السابع: من[1] معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم؛ ولا تكون الطريق صراطا حتىٰ تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلىٰ المقصود، والقرب، وسعته للمارِّين عليه، وتعينه طريقا للمقصود. ولا يخفىٰ تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة؛ فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن[2] الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلىٰ المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلىٰ المنعم عليهم[3]، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعيّنه[4] طريقاً[5].

والصراط تارة يضاف إلىٰ الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٥٢ ـ ٥٣]، وتارة يضاف إلىٰ العباد، كما في الفاتحة[6]؛ لكونهم [٧/ ب] أهل سلوكه، وهو المنصوب لهم، وهم المارون عليه.

---

(١) في ب «في» بدل «من».

(٢) في ح١ «لأنه».

(٣) «عليهم» ساقط في د.

(٤) في غ «تعيينه».

(٥) انظر هذا المعنىٰ في بدائع الفوائد ٢/ ١٦.

(٦) يشير إلىٰ قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الكلام على المنعم عليهم وبيان وجه إضافة النعمة إلى الله دون الغضب

الموضع الثامن: من[1] ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال. فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالما بالحق، أو جاهلا به؛ والعالم بالحق إما عامل[2] بموجبه، أو مخالف[3] له. فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه، وهو الذي زكّىٰ نفسَه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ والعالم به المتبع هواه[4]: هو المغضوب عليه؛ والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه؛ ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولىٰ بوصف الغضب وأحق به. ومن هاهنا كان اليهود أحق به[5]، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالىٰ في حقهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

---

(١) «من» ساقط من غ.

(٢) في ب، ح١، م، وق غ، أ، ح٢ «أن يكون عاملا»؛ وفي د «أن يكون عالما عاملا».

(٣) في ب، ق، أ، ح١، د، غ، ح٢، م «مخالفاً».

(٤) في ح١ «لهواه».

(٥) سقط من ح٢ قوله: «ومن هاهنا كان اليهود أحق به».

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ [(١)]﴾ [المائدة : ٦٠] ، والجاهل بالحق أحق باسم الضلال. ومن هاهنا[(٢)] وصفت النصارىٰ به[(٣)] في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة : ٧٧]. فالأولىٰ في سياق الخطاب مع اليهود ، والثانية في سياقه مع النصارىٰ ؛ وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عديّ بن حاتم[(٤)] قال : قال رسول الله ـ صلىٰ الله [٨/ أ] عليه وسلم ـ : **«اليهود مغضوب عليهم ، والنصارىٰ ضالون»**[(٥)].

ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه ، والمغضوبِ عليهم

---

(١) في غ ، ح٢ ، م ، ق ، ب ، أ ، د زيادة «وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل».

(٢) في أ ، غ «هنا».

(٣) انظر هذا المعنىٰ في بدائع الفوائد ٢/ ٢٩.

(٤) هو عدي بن حاتم ، صاحب النبي ﷺ ، وَلَدُ حاتم طي الذي يضرب بجوده المثل ، وفد علىٰ النبي ﷺ سنة ٧هـ ، توفي سنة ٦٧هـ ، وقيل : ٦٨هـ ، وقيل : ٦٦هـ. انظر : طبقات ابن سعد ٦/ ٢٢ ، التاريخ الكبير ٧/ ٤٣ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٢.

(٥) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب (٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤) وصححه ابن حبان ، الإحسان (٨/ ٤٨) ، حديث (٦٢١٣) ، وانظر موارد الظمآن (٤٢٤).

وأخرجه الإمام أحمد عن عدي بن حاتم (٤/ ٣٧٨).

وأخرجه الطبري ١/ ٧٩ ـ ٨٣ مفرقا من طرق عن عدي بن حاتم عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

وهم من عرفه واتبع هواه ، والضالين وهم من جهله ، ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة ؛ لأن[١] انقسام الناس إلىٰ ذلك هو الواقع المشهود ، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وأضاف[٢] النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه :

منها : أن النعمة هي الخير والفضل ، والغضب من باب الانتقام والعدل ، والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلىٰ نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواهما ، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم[٣] إليه. وحذف الفاعل في مقابلها[٤] ، كقول مؤمني الجن : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن : ١٠] ، ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا[٥]﴾ [الكهف : ٨٢] ، وقال في خرقه[٦] السفينة : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف : ٧٩] ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف : ٨٢] ، وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ

---

(١) «أن» ساقط في ح٢.

(٢) في غ «وإضافة».

(٣) في ش تقديم وتأخير «النعم والخيرات».

(٤) في ح١ ، أ ، د ، ح٢ ، م ، ب «مقابلتها» ؛ وفي غ «مقابلتهما».

(٥) في ح١ ، أ ، د ، ح٢ ، غ ، ب ، م زيادة «ويستخرجا كنزهما».

(٦) في أ ، غ ، ح١ ، ح٢ ، د (خرق).

وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة : ٣] ، وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، ثم قال : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٤].

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق في نعمة. وهذا فصل النزاع في مسألة : هل لله على الكافر[1] نعمة أم لا؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة يكون[2] للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤].

والنعمة من جنس الإحسان ؛ بل هي [٨/ ب] الإحسان ، والرب تعالى إحسانه على[3] البر والفاجر ، والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون[4].

الوجه الثاني : أن الله سبحانه هو المتفرد[5] بالنعم ﴿ وَمَا[6] بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ

---

(١) في ح١ ، ب ، أ ، غ ، ح٢ ، م زيادة «من».

(٢) في سائر النسخ «تكون» ، وما أثبته من الأصل.

(٣) في ح١ «إلى».

(٤) انظر : بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٢-٢٣.

(٥) في ح١ ، غ ، ب «المنفرد».

(٦) في الأصل ، و باقي النسخ «فما».

فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ، فأضيف إليه ما هو متفرد[1] به ، وإن أضيف إلىٰ غيره فلكونه طريقا ومجرىٰ للنعمة ، وأما الغضب علىٰ أعدائه فلا يختص به تعالىٰ ؛ بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان في لفظة : «المغضوب عليهم » من الإشعار[2] بِموافقة[3] أوليائه له في غضبه ما لم يكن في «غضبت عليهم » وكان في لفظة[4] «أنعمت عليهم »[5] من الدلالة علىٰ تفرده بالإنعام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، وهو المتفرد[6] بها ، ما ليس في لفظة «المنعم عليهم ».

الوجه الثالث : أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه ، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكره و[7] في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعَم عليه ، والإشادة[8] بذكره ، ورفع قدره ، ما ليس في حذفه. فإذا رأيت من قد أكرمه مَلِكٌ وشرَّفَه ، ورفعَ قدْرَه ، فقلت : هذا الذي أكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ومنّاه ، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك :

---

(١) في ح١ ، أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب «منفرد ».

(٢) سقط من ح١ ، غ قوله : «من الإشعار ».

(٣) في م «بموافقته ».

(٤) «لفظة » ساقط من أ ، ب .

(٥) سقط من ح١ ، غ من قوله «في غضبه » إلىٰ قوله «أنعمت عليهم ».

(٦) في ح٢ ، ب ، م «المنفرد ».

(٧) سقط من ح١ ، م ، ح٢ ، غ قوله : «في ذكره و » .

(٨) في ح٢ ، غ «الإشارة ».

هذا الذي أُكرم وخُلع عليه وشُرِّف وأُعطي"[1].

وتأمل سراً بديعا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره ، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح ، وهي الهدىٰ ودين الحق ، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء ، فهذا تمام النعمة ، ولفظة : «أنعمت عليهم»[2] تتضمن[3] الأمرين.

وذكر غضبه علىٰ المغضوب عليهم يتضمن أيضا أمرين : الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان ، والسبب الذي استحقوا به غضبه [٩/ أ] سبحانه ؛ فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب عليهم[4] بلا جناية منهم ولا ضلال ، وكان[5] الغضب عليهم مستلزما لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم ، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله ، وغضب الله عليه ؛ فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاثة للسبب والجزاء أبين استلزام ، واقتضاه أكمل اقتضاء ، في غاية الإيجاز ، والبيان ،

---

(١) انظر : هذه الأوجه الثلاثة في بدائع الفوائد ٢/ ١٨-٢٠ ، وقد ذكر هناك وجها رابعاً وهو : أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها ، وأصل الشكر : ذكر المنعم والعمل بطاعته ، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالىٰ ، الذي هو أساس الشكر ...

(٢) في غ «النعمة عليهم».

(٣) في ح١ ، غ ، م «متضمن» ؛ وفي ب «يتضمن».

(٤) «عليهم» ساقط من أ ، ح٢ .

(٥) في ب «فكان».

والفصاحة ، مع ذِكْرِ الفاعل في أهل السعادة ، وحذفه في أهل الغضب ، وإسناد الفعل إلىٰ السبب في أهل الضلال.

وتأمّل المقابلةَ بين الهداية والنعمة ، والغضبِ والضلال ، فذكر «المغضوب عليهم» و «الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم ، وهذا كثير في القرآن ، يقرن بين الضلال والشقاء[1] ، وبين الهدىٰ والفلاح ؛ فالثاني كقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ٥] ، وقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨٢] ؛ والأول[2] كقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر : ٤٧] ، وقوله : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ٧] ، وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] ، فهذا الهدىٰ والسعادة ؛ ثم قال[3] : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] ، فذكر الضلال والشقاء ؛ فالهدىٰ والسعادة متلازمان ، والضلال والشقاء متلازمان.

---

(١) في ش «الشقاوة».

(٢) في ح١ «الأولىٰ».

(٣) سقط من ش قوله : «فهذا الهدىٰ والسعادة ؛ ثم قال».

فصل

الكلام على قوله (الصراط المستقيم)

وذكر «الصراط المستقيم» مفرداً[1] معرفاً تعريفين، تعريفا باللام، وتعريفاً بالإضافة؛ وذلك يفيد تعيينه [٩/ ب] واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق[2] أهل الغضب والضلال، فإنه سبحانه يجمعها ولا[3] يفردها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّد لفظ[4] «صراطه»[5] و«سبيله»، وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، علىٰ كل سبيل شيطان يدعو إليه؛ ثم قرأ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣][6].

---

(١) في ح١، أ، د «منفرداً».

(٢) في م «طريق».

(٣) «لا» ساقطة من غ أ، ح١.

(٤) في ش «لفظة».

(٥) في أ، م، غ، ح١، ح٢، د «الصراط».

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، وأبو داود الطيالسي ح (٢٤٤) ص ٣٣، والدارمي ١/ ٦٧)، وابن أبي عاصم ١/ ١٣) ح (١٧)، وقال الألباني: إسناده حسن رجاله كلهم

وهذا لأن الطريق الموصل إلىٰ الله واحد[1]، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يوصل[2] إليه[3] إلا من هذا[4] الطريق. ولو أتىٰ الناس من كل طريق أو[5] استفتحوا من كل باب، فالطرق[6] عليهم مسدودة، والأبواب في وجوههم[7] مغلقة، إلا[8] هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله تعالىٰ، موصل إلىٰ الله تعالىٰ، قال[9] تعالىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾[الحجر:

ثقات رجال الشيخين غير عاصم، وهو ابن أبي النجود، وهو حسن الحديث. وصححه ابن حبان الإحسان (١/ ١٠٤)، حديث (٦ ـ ٧)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي؛ وأخرجه من طريق آخر ٢/ ٢٣٩ عن عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قال ابن كثير بعد أن ذكر طرقه عن ابن مسعود، وشاهده عن جابر: ولكن العمدة علىٰ حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روي موقوفاً عليه. تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠-٣٦٢) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢)، وقال: رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف.

(١) في غ، ق «واحدة».

(٢) في ح١، أ، غ، د، ح٢ «يصل».

(٣) في غ، ح٢، ق، زيادة «أحد».

(٤) في ح١، غ «هذه».

(٥) في غ، ح٢، ق «و».

(٦) في م «فالطريق».

(٧) في غ، ح٢، ح١ «عليهم» بدل «في وجوههم»، والكل ساقط في د، ق.

(٨) في د، أ، ح٢، غ، م، ب، ق، زيادة «من».

(٩) في غ، ح٢، م، ب، ح١، ق، زيادة اسم الجلالة «الله».

٤١] ، قال الحسن[١] - رضي الله عنه - : معناه صراط إليّ مستقيم[٢]. وهذا يحتمل أمرين :

أحدهما[٣] : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت أداة «علىٰ» مقام «إلىٰ».

والثاني : أنه أراد التفسير علىٰ المعنىٰ ، وهو الأشبه بطريق السلف ، أي صراط يوصل[٤] إليَّ. وقال مجاهد[٥] رضي الله عنه : الحق يرجع إلىٰ الله ، وعليه طريقه ، لا يعرّج علىٰ شيء[٦]. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه ، وهو[٧]

---

(١) هو أبو سعيد البصري الحسن بن أبي الحسن يسار ، مولىٰ زيد بن ثابت ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، كان عالما زاهدا شجاعا ، مات في رجب سنة ١١٠هـ.

انظر : طبقات ابن سعد ٧/ ١٥٦ ، التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٨٩ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣.

(٢) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٤.

(٣) «أحدهما» ساقطة من م ، غ ، ح١ ، د.

(٤) في ش ، ح١ ، د ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، م ، ق «موصل».

(٥) هو أبو الحجاج المكي مجاهد بن جبر ، الإمام شيخ القراء والمفسرين ، روىٰ عن ابن عباس ، وعنه أخذ القرآن ، والتفسير ، والفقه ، وروىٰ عن غيره من الصحابة ؛ توفي سنة ١٠٣هـ ، وقيل غير ذلك.

انظر : طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦ ، التاريخ الكبير ٧/ ٤١١ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩.

(٦) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣) ، ورواه البخاري تعليقاً ، انظر الفتح (٨/ ٣٧٩).

(٧) في ح١ ، ح٢ ، م ، ب ، د ، أ ، غ زيادة «من».

أصح ما قيل في الآية، وقيل: «عليَّ» فيه للوجوب، أي علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل[1]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[النحل: ٩]، والصحيح فيها [١٠/أ] كالصحيح في آية الحجر، أن السبيل القاصد، وهو المستقيم المعتدل يرجع إلى الله، ويوصل إليه.

قال طفيل[2] الغنوي:

مَضَوا سلفاً قصد السبيل عليهم — وصرف المنايا بالرجال تقلّبُ[3]

أي ممرنا[4] عليهم، وإليهم وصولنا.

وقال الآخر[5]:

فَهُنَّ المنايا أي وادٍ سلكتُه — عليها طريقي أو عليّ طريقها[6]

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ

---

(١) في م، غ، ب، أ، ح٢، ح١، د زيادة «وهي».

(٢) طفيل بن عوف من بني غنيّ، من قيس غيلان، شاعر جاهلي، عاصر النابغة الجعدي، وزهير بن أبي سلمى، له ديوان شعر صغير مطبوع. انظر: الأعلام ٣/ ٢٢٨.
والبيت في ديوانه ص ٣٧.

(٣) في ح١، ح٢، غ «تشقلب».

(٤) في ش، م، ب «مرورنا».

(٥) سقط من ب قوله: «وقال الآخر».

(٦) ذكر هذا البيت شيخ الإسلام في تفسير سورة الحجر في الفتاوى ١٥/ ٢١٥.

إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية : ٢٥ ـ ٢٦] وقال : ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان : ٢٣] ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ[1]﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وقال لما أراد[2] الوجوب ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية : ٢٦] ، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة : ١٧] ، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] ، ونظائر ذلك.

قيل : في ذكر[3] أداة «علىٰ» سر لطيف ، وهو الإشعار بكون السالك علىٰ هذا الصراط علىٰ هدىٰ و[4]حق ، مع وصوله إلىٰ الله تعالىٰ ، فغايته الوصول إلىٰ الله ، وهو في حال استقامته علىٰ هدىٰ وعلىٰ حق[5] ، كما قال في حق المؤمنين : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٥] ، وقال لرسوله ﷺ : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل : ٧٩] ، والله عز وجل هو الحق ، و[6]صراطه حق ، ودينه حق ، فمن استقام علىٰ صراطه فهو علىٰ الحق والهدىٰ، فكان[7]

---

(١) في ق «يرجعون» ، بدل «مرجعهم».

(٢) سقط من ب قوله «لما أراد».

(٣) «ذكر» ساقطة من غ ، أ ، ح١.

(٤) في ح١ ، د ، أ ، غ ، ب ، ق زيادة «علىٰ».

(٥) سقط من د ، غ ، أ ، ق ، ح١ من قوله : «مع وصوله» إلىٰ قوله : «وعلىٰ حق».

(٦) سقط من ش قوله : «هو الحق و».

(٧) في ش ، د «وكان».

في دلالة[١] أداة «علىٰ» علىٰ هذا المعنىٰ ما ليس في[٢] أداة «إلىٰ» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «علىٰ» في ذلك أيضاً، وكيف يكون المؤمن مستعليا[٣] علىٰ الحق، وعلىٰ الهدىٰ؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدىٰ، مع ثباته عليه، واستقامته عليه[٤]؛ فكان في الإتيان بأداة «علىٰ» ما يدل علىٰ علوه وثباته[٥] واستقامته[١٠/ ب][٦]، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتىٰ فيه بأداة «في» الدالة علىٰ انغماس صاحبه فيه[٧]، وانقماعه[٨][٩]

---

(١) «دلالة» ساقط من ح١، أ، غ، ح٢، م.

(٢) في ب زيادة «دلالة».

(٣) في غ «متعلياً».

(٤) في م، غ، أ، ح١، ح٢، د «إليه».

(٥) في م، ب، ح١، ح٢، أ، د، غ، ق «وثبوته».

(٦) في الأصل، ش، ب، ح٢، م زيادة: «فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة [بصاحبها] إلىٰ العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلا هاوية [بسالكها] في أسفل سافلين». وما بين المعكوفين زيادة من ب.

(٧) «فيه» ساقط من غ، ح١، أ، د.

(٨) القمع: الدخول فرارا وهربا، وقمع في بيته وانقمع: دخله مستخفياً. لسان العرب ٥/ ٣٧٤٠، مادة (قمع)، النهاية لابن الأثير ٤/ ١٠٩، القاموس المحيط ٣/ ٧٤-٧٥، مادة (قمع).

(٩) في ش زيادة «فيه».

وتدسسه[١][٢] فيه ، كقوله تعالىٰ : ﴿فَهُمْ[٣] فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة : ٤٥] ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام : ٣٩] ، وقوله : ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٤] ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود : ١١٠] ، وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] ، [فإن طريق الحق تأخذ علوا صاعدة بصاحبها إلىٰ العلي الكبير ، وطريق الضلال تأخذ سفلا هاوية بسالكها في أسفل سافلين].

وفي قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ[٤] هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر : ٤١] قول ثالث ، وهو قول الكسائي[٥] : أنه علىٰ[٦] التهديد والوعيد نظير قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر : ١٤] ، كما يقال : طريقك علي ، وممرك[٧] علي ،

---

(١) الدس : إدخال الشيء من تحته ، ودسست الشيء في التراب أخفيته فيه. لسان العرب ٢/ ١٣٧٢ القاموس المحيط ٢/ ٢١٥ ، مادة (دسس).

(٢) في ب «وتدسيسه».

(٣) «فهم» ساقطة من ح١.

(٤) «قال» ساقطة من ب .

(٥) هو أبو الحسن ، علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي مولاهم الكوفي ، الملقب بالكسائي ، شيخ القراءة والعربية ، حدث عن جعفر الصادق ، والأعمش ، وجماعة ، أخذ النحو عن الخليل ، مات بالري سنة ١٨٩هـ. التاريخ الكبير ٦/ ٢٦٨ ، الجرح والتعديل ٦/ ١٨٢ ، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣١.

(٦) في ب تقديم وتأخير «علىٰ أنه».

(٧) في ب «مرورك».

لمن[1] تريد[2] إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز[3]، والسياق يأبىٰ هذا، ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله[4] تعالىٰ مجيبا لإبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر ٣٩-٤٠]، فإنه لا سبيل لي إلىٰ إغوائهم، ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله تعالىٰ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك علىٰ عبادي الذين هم[5] علىٰ هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلىٰ أهل[6] هذا الصراط، [ولا الحوم حول ساحته][7] فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلىٰ أهله.

فليتأمل[8] العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلىٰ هذا المعنىٰ، ويوزان بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلىٰ مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فلا

---

(١) «لمن» ساقط من د.

(٢) في ش «يريد».

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٥١.

(٤) هكذا في ح١، غ، م، ح٢، ب، ق؛ وفي الأصل، ش، أ، د «قال».

(٥) «هم» ساقطة من ح٢.

(٦) «أهل» ساقطة من أ، د، ح١، غ.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة في سائر النسخ، وساقط في الأصل، ش.

(٨) في ح١ «فليتأ».

يخفىٰ الفرق بينهما سياقاً ودلالةً ، فتأمله. ولا يقال في التهديد : هذا طريق مستقيم عليّ لمن لا يسلكه ، وليست سبيلُ المهدِّدِ مستقيمةً ، [١١/أ] فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم ، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة علىٰ الله تعالىٰ ، فلا يستقيم هذا القول البتة[١].

وأما قول[٢] من فسره بالوجوب ، أي علي بيان استقامته والدلالة عليه ، فالمعنىٰ صحيح ؛ لكن في كونه هو المراد بالآية نظر ؛ لأنه حذفٌ في غير موضع الدلالة ، ولم يؤلف الحذف المذكور ، ليكون مدلولا عليه إذا حذف ، بخلاف حذف[٣] عامل الظرف إذا وقع صفة ، فإنه حذف مألوف معروف ، حتىٰ إنه لا يذكر البتة ، فإذا قلت : له درهم عليَّ ، كان الحذف معروفاً مألوفاً ، فلو أردت : علي نقده ، أو علي وزنه وحفظه ، ونحو ذلك وحذفت لم يسغ ، وهو نظير : علي بيانه المقدر في الآية ، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق ، وأجل المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية[٤] ـ رضي الله عنه ـ يقول : وهما

---

(١) انظر : الفتاوىٰ ١٥/ ٢٠٠-٢٠٥ ، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الأقوال في تفسير الآية ، وذكر قول الكسائي ، وحكم عليه بالضعف ، وبين وجه ذلك.

(٢) «قول» ساقطة من ق.

(٣) «حذف» ساقطة من ح١ ، أ.

(٤) هو شيخ الإسلام ، تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي ، ولد سنة ٦٦١هـ بحران ، كان ـ رحمه الله ـ فقيها محدثا مفسرا عالما بأقوال السلف الصالح سائرا علىٰ نهجهم في الاعتقاد والعمل ، اشتهرت تصانيفه بين الأنام ، وهي كثيرة ،

نظير قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل : ١٢] ، قال : فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنىٰ(١).

قلت : وأكثر المفسرين لم يذكروا(٢) في سورة : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلا معنىٰ الوجوب ، أي علينا بيان الهدىٰ من الضلال ، ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنىٰ كالبغوي(٣) ، وذكر في الحجر الأقوال الثلاثة(٤) ، وذكر

منها : الفتاوىٰ الكبرىٰ ، منهاج السنة ، ودرء تعارض العقل والنقل ، والجواب الصحيح ، توفي - رحمه الله - سنة ٧٢٨هـ في ذي القعدة، بقلعة دمشق. انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٤١، العبر ٤/ ٨٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلامه علىٰ الآيات الثلاث : «فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا علىٰ الله ، ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم ، والمعنىٰ الأول متفق عليه بين المسلمين ، وأما الثاني فقد تقول طائفة : ليس علىٰ الله شيء ، لا بيان هذا ولا هذا ، فإنهم متنازعون هل أوجب علىٰ نفسه ... وإذا كان عليه بيان الهدىٰ من الضلال ، وبيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته ، فهذا يوافق قول من يقول : إن عليه إرسال الرسل ، وإن ذلك واجب عليه ؛ فإن البيان لا يحصل إلا بهذا ... ودلالة الآيات علىٰ هذا فيها نظر ، وأما المعنىٰ المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً». الفتاوىٰ ١٥/ ٢١٢-٢١٣.

(٢) في ح١ ، د ، غ ، أ «لم يذكر».

(٣) هو شيخ الإسلام ، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر ، صاحب التصانيف ، منها : شرح السنة ، ومعالم التنزيل ، والتهذيب ، والجمع بين الصحيحين ، وغيرها ، توفي بمرو الروذ في شوال سنة ٥١٦هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩ ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٦ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢١٤.

(٤) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، ٦٣.

الواحدي(١) في بسيطه المعنيين في سورة النحل ، واختار(٢) شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث(٣).

فصل

والصراط المستقيم هو صراط الله ، وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه ، كما ذكرنا ، ويخبر أنه سبحانه علىٰ الصراط المستقيم ، وهذا في موضعين من القرآن في هود ، والنحل. قال في هود : ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية : ٥٦] ، وقال [١١/ ب] في النحل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الآية : ٧٦] ، فهذا مثل ضربه الله تعالىٰ للأصنام التي لا تسمع ، ولا تنطق ، ولا تعقل ، وهي كَلٌّ علىٰ عابدها(٤) ، يحتاج الصنم إلىٰ أن يحمله عابده ،

---

(١) هو أبو الحسن علىٰ بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي الشافعي ، المفسر ، صنف التفاسير الثلاثة : البسيط ، والوسيط ، والوجيز. ومن مؤلفاته : أسباب النزول ، وشرح ديوان المتنبي ، وغيرها ، توفي سنة ٤٦٨هـ. انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ٣٣٩ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٢١ ، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٨٩.

(٢) في الأصل ، و ب «واختيار».

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «القول الصواب هو قول أئمة السلف - قول مجاهد ونحوه - فإنهم أعلم بمعاني القرآن ، لاسيما مجاهد ، فإنه قال : عرضت المصحف علىٰ ابن عباس من فاتحته إلىٰ خاتمته ، أقفه عند كل آية وأسأله عنها ... » الفتاوىٰ ١٥/ ٢٠١.

(٤) في ش ، غ ، ح٢ «عابديها».

ويضعه[1] ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد وهو قادر، متكلم، غني، وهو علىٰ صراط مستقيم في قوله وفعله؟، فقوله صدق ورشد ونصح وهدىٰ، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية؛ وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه علىٰ الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي - رحمه الله -، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية، ثم قال: وقال الكلبي[2]: يدلكم علىٰ صراط مستقيم[3].

قلت: ودلالته لنا علىٰ الصراط المستقيم[4] هي من موجب كونه سبحانه وتعالىٰ علىٰ الصراط المستقيم؛ فإن دلالته بفعله وقوله، وهو علىٰ الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله، فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه علىٰ الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ[5] يأمر بالعدل، وهو علىٰ صراط مستقيم.

---

(١) في أ، د «وصنعه».

(٢) هو أبو النضر، محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر النسابة، أخذ عن أبي صالح، وجرير، والفرزدق، وجماعة، قال الذهبي عنه: شيعي متروك الحديث، توفي سنة ١٤٦هـ.
انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٣٥٨، التاريخ الكبير ١/ ١٠١، سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٧٨، تفسير الطبري ١٤/ ١٥٠.

(٤) «المستقيم» ساقط من ح١، أ، ح٢، غ.

(٥) في الأصل، ش، ح٢، أ، د زيادة «بما» وهي غير موجودة في البغوي.

قلت : وهذا قول[١] لا يناقض القول الأول. فالله علىٰ الصراط المستقيم ، ورسوله عليه ، فإنه لا يأمر ولا ينهىٰ إلا بمقتضاه[٢] وموجبه ، وعلىٰ هذا يكون المثل مضروبا لإمام الكفار وهاديهم[٣] ، وهو الصنم الذي هو أبكم ، لا يقدر علىٰ هدىٰ ولا خير. ولإمام الأبرار ، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل ، وهو علىٰ صراط مستقيم.

وعلىٰ القول الأول يكون مضروبا لمعبود الكفار ، ومعبود الأبرار.

والقولان متلازمان ، فبعضهم ذكر هذا ، وبعضهم [١٢/ أ] ذكر هذا ، وكلاهما مراد من الآية ، قال : وقيل : كلاهما للمؤمن والكافر ، يرويه عطية[٤] عن ابن عباس[٥] ، وقال عطاء[٦] : الأبكم : أبي بن خلف ، ومن يأمر بالعدل :

---

(١) في م ، ب ، ق ، ح١ ، غ ، أ ، د ، ح٢ «حق».

(٢) هكذا في ش ، وفي الأصل وسائر النسخ «مقتضاه».

(٣) في الأصل ، ش ، د ، ق «وهاديه».

(٤) أبو الحسن عطية بن سعد بن جنادة العوفي الكوفي، من مشاهير التابعين، ضعيف الحديث ، روىٰ عن ابن عباس ، وأبي سعيد ، وابن عمر ، توفي سنة ١١١هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٥ ، طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٤ ، التاريخ الكبير ٦/ ٣٨٢.

(٥) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ، ابن عم رسول الله ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولد بشعب بني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨هـ ، وقيل : ٦٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١ طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥ ، التاريخ الكبير ٥/ ٣.

(٦) أبو محمد عطاء بن أبي رباح ، الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم ، أبو محمد ، ولد في أثناء خلافة عثمان - رضي الله عنه - ، كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، انتهت فتوىٰ أهل مكة إليه

حمزة[1]، وعثمان بن عفان[2]، وعثمان بن مظعون[3][4].

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله علىٰ صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله؛ وضد ذلك معبود الكافر[5]، وهاديه[6]، والكافر التابع والمتبوع والمعبود، ويكون بعض السلف ذكر أعلىٰ الأنواع، وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل[7]، وتكون الآية متناولة لذلك كله، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وإلىٰ مجاهد في زمانهما، مات بمكة سنة ١١٥هـ، وقيل: ١١٤هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٧، التاريخ الكبير ٦/ ٤٦٣، سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٨.

(١) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي البدري الشهيد، عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، كان أحد المبارزين يوم بدر، بارز عتبة بن ربيعة فقتله، كان يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله، قتل شهيداً يوم أحد، قتله وحشي. انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ١٧١، طبقات ابن سعد ٣/ ٨، أسد الغابة ٢/ ٤٦.

(٢) «وعثمان بن عفان» ساقط في ش.

(٣) أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي القرشي، من سادة المهاجرين ومن أولياء الله المتقين، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر الهجرتين، توفي بعد بدر، وكان أول من دفن بالبقيع، قبله النبي ﷺ وهو ميت، ـ رضي الله عنه ـ. انظر: طبقات ابن سعد ٣/ ٣٩٣، التاريخ الكبير ٦/ ٢١٠، سير أعلام النبلاء ١/ ١٥٣.

(٤) انظر: هذه الأقوال في تفسير البغوي ٣/ ٧٨.

(٥) في ح١، غ، ح٢ «كفار»، وفي ق، م، ب، أ، د «الكفار».

(٦) في م، ق، ب، ح٢، ح١، أ، د، غ «وهاديهم».

(٧) في د، غ «المقابل».

وأما آية هود ـ عليه السلام ـ فصريحة لا تحتمل إلا معنىً واحداً، وهو أن الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان علىٰ صراط مستقيم، فإن أقواله كلها صدق، ورشد، وهدىً، وعدل، وحكمة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا في أقواله البتة؛ لخروج الشر عن الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال من هو علىٰ الصراط المستقيم، أو[1] أقواله؟، وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وأقواله[2].

---

(١) في غ «و».

(٢) تكلم ابن القيم عن هذه المسألة في كتابه بدائع الفوائد، فبين أن الشر لا يدخل في أسمائه ولا في صفاته ولا أفعاله، فأسماؤه كلها حسنىٰ، وصفاته كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ لأن ذاته كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأفعاله سبحانه كلها حكم وخيرات محضة لا شر فيها أصلا، ثم بين أن ما يفعله سبحانه من العدل بعباده، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم، هو خير محض، وهو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم، فالشر واقع في تعلقه بهم، وقيامه بهم لا في فعله القائم به تعالىٰ. ثم قال: «ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر؛ ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك علىٰ بال:

أحدهما: أن ما هو شر أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً، لا يكون وصفا له ولا فعلا من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلىٰ من هو شر في حقه.

وفي دعاء النبي ﷺ[1] : «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك**[2]، **والشر ليس إليك**»[3]، ولا يلتفت[4] إلىٰ تفسير من فسره بقوله : والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك[5]. فإن المعنىٰ أجل من ذلك وأكبر وأعظم قدراً، فإن

ثم أوضح هذه المسألة وضرب لها أمثلة تبينها. ثم قال بعد ذلك : إذا عرف هذا عرف معنىٰ قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «**لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك**»، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال والشر لا يتقرب به إليك وقول من قال : والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالىٰ عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه وإن دخل في مخلوقاته. ثم ذكر بعض الآيات الدالة علىٰ نسبة الخير إليه، ونسبة الشر إلىٰ سببه، وإلىٰ من قام به أو حذف فاعله.

انظر : بدائع الفوائد ٢/ ٢١٠-٢١٥، ١/ ١٦٣، وانظر : الفتاوىٰ ٨/ ٩٦.

(١) في ح٢، غ، ق، ح١، أ، د «وفي دعائه عليه السلام».

(٢) في غ «بيدك».

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، (١/ ٥٣٤-٥٣٥)، حديث (٢٠١)، والترمذي في الدعوات، (٥/ ٤٨٦)، وقال : هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في الصلاة، (١/ ٤٨١)، والنسائي في الافتتاح، (٢/ ١٢٩) كلهم عن علي بلفظ مطول، وما ذكره المؤلف جزء منه، وأخرجه ابن خزيمة في الصلاة، ١/ ٢٣٥-٢٣٦، وقال في تفسير قوله : «والشر ليس إليك» : أي ليس مما يتقرب به إليك.

(٤) في ش «تلتفت».

(٥) ذكر هذه الأقوال وغيرها النووي في شرح مسلم ٦/ ٥٩. وبذلك فسره ابن الأثير. انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٥٨.

مَنْ أسماؤه كلها حسنىٰ ، وأوصافه كلها كمال ، وأفعاله كلها حِكَم ، وأقواله كلها صدق وعدل ، يستحيل دخول الشر في أسمائه ، أو[1] أوصافه كلها[2] ، أو[3] أفعاله ، أو[4] أقواله. وطابق[5] [١٢/ ب][6] بين هذا المعنىٰ وبين قوله : ﴿[7]إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٦] ، وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود : ٥٦] ، أي : هو ربي ، فلا يسلمني ولا يضيعني[8] ، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ، ولا يمكنكم مني ؛ فإن نواصيكم بيده ، لا تفعلون شيئا بدون مشيئته ، فإن ناصية كل دابة بيده ، لا يمكنها أن[9] تتحرك إلا بإذنه ، فهو المتصرف فيها.

ومع هذا فهو في تصرفه فيها ، وتحريكه لها ، ونفوذ قضائه وقدره فيها علىٰ

---

(١) في أ ، ح٢ ، ق «و».

(٢) «كلها» ساقط في ش ، د ، أ ، م .

(٣) في أ ، ح٢ ، ق «و».

(٤) في أ ، ح٢ ، ق «و».

(٥) في ح١ ، أ ، د ، غ ، ح٢ «فطابق».

(٦) من هنا إلىٰ ص ١٨٦ سقط من الأصل ، وموجود في سائر النسخ.

(٧) في ب ، ش زيادة «ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي ... ».

(٨) في ش ، ب العبارة هكذا : «وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، فقوله : ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني ...).

(٩) «أن» ساقطة من ق ، د ، ب ، أ ، م ، غ ، ح٢.

صراط مستقيم ؛ لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة ، وعدل ، ومصلحة. ولو[١] سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه ؛ لأنه تسليط[٢] من هو علىٰ صراط مستقيم ، لا يظلم ولا يفعل شيئاً[٣] عبثاً بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله ، لا معرفة القدرية المجوسية[٤] ، ولا[٥] القدرية

---

(١) في ش «فلو».

(٢) في د «لا يسلط».

(٣) «شيئا» ساقطة من ش .

(٤) يشير المؤلف بذلك إلىٰ الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ ، وفيها الإخبار أن القدرية مجوس هذه الأمة ، منها ما أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، (٥/ ٦٦) (٤٦٩١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ، وقد حسن هذا الحديث الألباني - رحمه الله - ، وضعفه المنذري ، وقال ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود : فأما حديث ابن عمر وحذيفة فلهما طرق وقد ضعفت. انتهىٰ. انظر : عون المعبود (١٢/ ٤٥٣ ، ٤٥٤) ، صحيح الجامع الصغير (٤/ ١٥٠).
والقدرية المجوسية : هم الذين كذبوا بقدر الله ، غلاتهم أنكروا العلم والكتابة ، ومقتصدتهم أنكروا عموم مشيئة الله وخلقه وقدرته ، فهم يرون أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله ، وإنما العباد هم الخالقون لها ، وهذا مذهب المعتزلة ومن وافقهم ، وأول من قال بالقدر في الإسلام معبد الجهني ، وذلك في البصرة في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وقد أنكر ذلك من بقي من الصحابة ، كعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - ، كما أخرج ذلك مسلم في صحيحه عن يحيىٰ بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني... الحديث. انظر : صحيح مسلم ١/ ٣٦ ، التدمرية لابن تيمية ٢٠٨ ، الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٣-٤٥ ، التنبيه والرد للملطي ١٧٦-١٨٧ ، الفرق بين الفرق للبغدادي ١٨ ، ١١٤ ، مقالات الإسلاميين ١/ ٢٢٧.

(٥) «لا» ساقطة من غ ، أ ، ح١.

الجبرية[1]، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه.

فصل

الكلام على قوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر[2] أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا[3] لسلوك طريق مُرَافِقُه فيها في غاية العزة[4]، والنفوس مجبولة علىٰ وحشة التفرد، وعلىٰ الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه علىٰ الرفيق في هذه الطريق، وأنهم[5] هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراط إلىٰ الرفيق السالكين

---

(١) الجبرية: سموا بذلك نسبة إلىٰ الجبر، لأنهم يقولون إن العباد مجبورون علىٰ أفعالهم، وليس لهم أي دور فيها، وإنما تنسب الأعمال إليهم علىٰ سبيل المجاز، كما يقال: سقط الجدار، ودارت الرحىٰ، والفاعل علىٰ الحقيقة هو الله، وهم صنفان:

جبرية خالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلا، ولا قدرة علىٰ الفعل أصلا، وإنما هو كالريشة في مهب الريح، كجهم بن صفوان وأصحابه.

وجبرية متوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وتنسب الفعل إليها علىٰ جهة الكسب والمباشرة، كالأشاعرة. انظر: الملل والنحل ١/ ٨٥، الفرق بين الفرق ٢١١، التبصير في الدين ١٠٧.

(٢) في غ، ح١ «أمراً».

(٣) هكذا في م، وفي باقي النسخ «مريد».

(٤) في هامش غ، ح١ تفسير «العزة» بالقلة؛ قال في مختار الصحاح ٤٢٩: عزَّ الشيء فهو عزيز، إذا قل فلا يكاد يوجد.

(٥) في ش «فإنهم».

له ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشةُ تَفرُّدِهِ عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم[١] أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم ؛ فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له[٢] ، فإنَّهم هم الأقلون قدراً ، وإن كانوا الأكثرين عددا ، كما قال بعض السلف : «عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين »[٣] ، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلىٰ الرفيق السابق ، واحرص علىٰ اللحاق بهم ، وغض الطرف عمن سواهم ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم ، فإنك متىٰ التفت إليهم أخذوك أو[٤] عاقوك.

وقد ضرب[٥] لذلك[٦] مثلان[٧] ؛ فليكونا[٨] منك[٩] علىٰ بال.

المثل[١٠] الأول : رجل خرج من بيته إلىٰ الصلاة لا يريد غيرها ؛ فعرض له

---

(١) في م «ويعلم».

(٢) «له» ساقط من ش .

(٣) بحثت عن هذا الأثر فلم أجده.

(٤) في ب «و» بدل «أو».

(٥) في أ ، غ ، ح١ ، د «ضربت».

(٦) في د ، أ «لك».

(٧) في ح٢ ، م زيادة «متلازمان».

(٨) في ش «يكونان».

(٩) «منك» ساقطة من ش .

(١٠) في ب «المثال».

في طريقه شيطان من شياطين الإنس ، فألقىٰ عليه كلاما يؤذيه ، فوقف ورد عليه ، وتماسكا ، فربما كان شيطان الإنس أقوىٰ منه ، فقهره ومنعه عن الوصول إلىٰ المسجد ، حتىٰ فاتته[1] الصلاة ؛ وربما كان الرجل[2] أقوىٰ من شيطان الإنس ؛ ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصفِّ الأول ، وكمالِ إدراك الجماعة ، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمتُه ، فإن كان له معرفةٌ وعلمٌ زَادَ في السعي والجمْز[3] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده ، وخاف فوت الصلاة أو الوقت ، لم يبلغ عدوُّه منه ما شاء[4].

المثل[5] الثاني : الظبي أشد سعياً من الكلب ؛ ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف[6] سعيه ، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشةَ التفرد ، ويحث علىٰ السير والتشمير للحاق بهم ، وهذه إحدىٰ[7] الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني

---

(١) في ش «قامت» ، وفي د ، أ ، غ ، ح٢ «فاتت».

(٢) «الرجل» ساقطة من ش .

(٣) أي الهرب، يقال : جمز الإنسان والبعير والدابة يجْمِز جمْزا وجمَزَىٰ، والجمزىٰ بالتحريك: ضرب من السير سريع فوق العَنَق ودون الحُضْر. النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٩٤ ، لسان العرب ١/ ٦٧٧ ، مختار الصحاح ١٠٩ ، مادة (جمز).

(٤) في ش ، د ، م «شيئا» بدل «ما شاء».

(٥) في ب «المثال».

(٦) في ش «فضعف».

(٧) في ش ، ق ، ب ، م «وهذا أحد».

فيمن هديت »[1] أي أدخلني في هذه الزمرة ، واجعلني رفيقا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية : أنه توسل إلىٰ الله بنعمه ، وإحسانه إلىٰ من أنعم عليه بالهداية ، أي قد أنعمت بالهداية علىٰ من هديت ، وكان ذلك نعمة منك ، فاجعل لي نصيبا من هذه النعمة ، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعَم عليهم ، فهو توسل إلىٰ الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة : كما يقول السائل للكريم : تصدق عليَّ في جملة من تصدقت عليه ، وعلِّمني في[2] جملة من علَّمتْه ، وأحسِنْ إلي في جملة من شمِلْتَه بإحسانك.

فصل

التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته والإيمان به وعبوديته

ولما كان سؤالُ الله[3] الهداية إلىٰ الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ، ونيلُه أشرفَ المواهب ، علّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ، (٢/ ١٣٣) ، والترمذي في الصلاة ، (٢/ ٣٢٨) ، وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه ... ، ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيئا أحسن من هذا. والنسائي في قيام الليل ، (٣/ ٢٤٨). وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، (١/ ٣٧٢). وأحمد (١/ ١٩٩). وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٥١). وابن حبان ، انظر : الإحسان (٢/ ١٤٨) ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين إلا أن محمدا بن جعفر بن أبي كثير قد خالف إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة في إسناده ، انظر : المستدرك (٣/ ١٧٢) ، وصححه الألباني ، انظر : إرواء الغليل (٢/ ١٧٢).

(٢) في د ، أ ، ش «من ».

(٣) اسم الجلالة ساقط في ش ، ق .

حمدَه والثناءَ عليه، وتمجيدَه، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلىٰ مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته؛ وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُردُّ معهما الدعاء. وهما[1] الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان[2] في صحيحه، والإمام أحمد والترمذي[3] رضي الله عنهم.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة[4] عن أبيه[5] - رضي الله عنهما - قال:

---

(١) في أ، غ، ح١ «ويؤيدهما».

(٢) الإمام العلامة الحافظ، أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي السجستاني، ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وولي قضاء سمرقند، كان من فقهاء الدين وحفاظ الحديث، له من المؤلفات: المسند الصحيح، والتاريخ، والضعفاء، توفي سنة ٣٥٤هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٢، البداية والنهاية ١١/ ٢٧٦، طبقات الشافعية ٢/ ١٤١.

(٣) محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي، الحافظ العلم الإمام، مصنف الجامع، والعلل، وغير ذلك، ولد في حدود سنة ٢١٠هـ، سمع بخراسان، والعراق، والحرمين، كان يضرب به المثل في الحفظ، مات سنة ٢٧٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٠، البداية والنهاية ١١/ ٧١، ميزان الاعتدال ٣/ ٦٧٨.

(٤) أبو سهل عبد الله بن بريدة بن الحصيب، الحافظ الإمام شيخ مرو وقاضيها، الأسلمي المروزي، ولد سنة خمس عشرة، حدث عن أبيه، وعمران بن الحصين، وأبي موسىٰ، وعائشة، وغيرهم من الصحابة، وثقه يحي بن معين، وأبو حاتم، والعجلي، توفي سنة ١١٥هـ - رحمه الله -. انظر: طبقات خليفة ٢١١، التاريخ الكبير ٥/ ٥١، معرفة الثقات للعجلي ٢/ ٢٢، سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٠.

(٥) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج الأسلمي، الصحابي الجليل، قيل:

سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ، و[1] يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد. فقال : «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطىٰ ». قال الترمذي : حديث حسن صحيح[2][3].

فهذا توسل إلىٰ الله بتوحيده ، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» ، وهو كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

إنه أسلم عام الهجرة إذ مر به النبي مهاجرا ، وشهد غزوة خيبر والفتح ، وكان معه اللواء ، واستعمله النبي علىٰ صدقة قومه ، وكان يحمل لواء أسامة بن زيد حين غزا أرض البلقاء إثر وفاة النبي ﷺ ، له جملة أحاديث، نزل مرو ونشر العلم بها، توفي سنة ٦٢هـ. رضي الله عنه .. انظر : طبقات ابن سعد ٤/ ٢٤١ ، طبقات خليفة ١٠٩ ، التاريخ الكبير ٢/ ١٤١ ، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٩.

(١) في م ، ح٢ ، د ، ش ، ق زيادة « هو ».

(٢) في غ ، ب ، ح٢ ، ح١ ، د ، أ ، ش «حديث صحيح ».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ، (٥/ ٥١٥) ، وقال : حديث حسن غريب. وأبو داود في الصلاة ، (٢/ ١٦٦). وابن ماجه في الدعاء ، باب اسم الله الأعظم ، (٢/ ١٢٦٧). وأحمد (٥/ ٣٥٠ ، ٣٦٠) ، وابن حبان في صحيحه ، (الإحسان ٢/ ١٢٥) ، والحاكم (١/ ٥٠٤) ، وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وقال المنذري : قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي : وهو إسناد لا مطعن فيه ، ولا أعلم أنه روي في هذا الباب حديث أجود إسنادا منه ، وهو يدل علىٰ بطلان مذهب من ذهب إلىٰ نفي القول بأن لله تعالىٰ اسماً هو الاسم الأعظم. انظر : مختصر سنن أبي داود للمنذري (٢/ ١٤٥)، وقال ابن حجر عنه: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك. انظر: الفتح (١١/ ٢٢٥) ، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٢/ ٧٠٨).

«العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته»، وفي رواية[١] عنه: «هو السيد الذي قد[٢] كمل فيه[٣] جميع أنواع السؤدد»[٤]، وقال أبو وائل[٥]: «هو السيد الذي قد[٦] انتهىٰ سؤدده»[٧].

وقال سعيد بن جبير[٨]: «هو الكامل في جميع صفاته، وأفعاله، وأعماله»[٩][١٠]،

---

(١) في ش، د، أ، ح٢، غ، م، ق، ب زيادة «عليّ».

(٢) «قد» ساقطة من م.

(٣) «فيه» ساقطة من ح١، وفي د بدل «فيه» «في».

(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٤٦، تفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٥) أبو وائل الأسدي شقيق بن سلمة، الإمام الكبير شيخ الكوفة، مخضرم أدرك النبي ﷺ وما رآه، حدث عن عمر، وعثمان، وعلي، وعمار، وغيرهم، وروىٰ عنه الأعمش، وعطاء بن السائب، وعمرو بن مرة، وغيرهم، كان من أئمة العلم والدين، كان تقيا ورعاً ثقة، توفي سنة ٨٢هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٩٦، التاريخ الكبير ٤/ ٢٤٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦١.

(٦) «قد» زيادة في ش، ب.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣٤٦، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٣٠٠.

(٨) أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبيُّ مولاهم الكوفي الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أحد الأعلام، روىٰ عن ابن عباس فأكثر وجود، وعن عبد الله بن مغفل، وعائشة، وغيرهم، قرأ القرآن علىٰ ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، وطائفة، قتله الحجاج في شعبان سنة ٩٥هـ، وعمره سبع وخمسين سنة.

انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦، التاريخ الكبير ٣/ ٤٦١، الحلية ٤/ ٢٧٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢١.

(٩) في ش «صفاته وأعماله» وفي د «صفاته وأفعاله».

(١٠) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

وبنفي[١] التشبيه والتمثيل[٢] عنه بقوله : «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه[٣] ترجمة عقيدة أهل السنة ، و[٤] التوسل بالإيمان بذلك ، والشهادة به هو الاسم الأعظم[٥].

---

(١) في أ ، ح١ «ينفي».

(٢) في أ ، د ، غ ، ح٢ ، ش تقديم وتأخير «التمثيل والتشبيه».

(٣) في ش «هذا».

(٤) في ش ، م ، ب ، ق ، د «ف».

(٥) اختلف أهل العلم القائلون بتفاضل أسماء الله الحسنىٰ في المراد بالاسم الأعظم ، فذهب بعضهم إلىٰ أن الاسم الأعظم مخفي في الأسماء الحسنىٰ كليلة القدر لا يعلمه الناس ، وإنما جعل مكتوما ليصير ذلك سببا لمواظبة الناس علىٰ ذكر جميع الأسماء رجاء أن يصيب الاسم الأعظم.
وذهب بعضهم إلىٰ أن الله تعالىٰ يختص بمعرفته من يشاء من الأنبياء والأولياء دون غيرهم من سائر الناس ، كما ذهب إلىٰ ذلك الغزالي في المقصد الأسنىٰ.
وذهب جمهور العلماء إلىٰ القول بتعيين الاسم الأعظم استنادا إلىٰ ما ورد في ذلك عن النبي ﷺ ؛ لكن اختلفوا في هذا التعيين علىٰ أقوال كثيرة ذكر منها ابن حجر في فتح الباري أربعة عشر قولا مع ذكر مستند كل قول.
وأشهر الأقوال المعينة للاسم الأعظم قولين :
القول الأول : أن الاسم الأعظم هو اسم الجلالة «الله» وممن قال بذلك الطحاوي ، وابن المبارك ، وابن العربي ، والطرطوشي ، وقال : «وبهذا المذهب قال معظم العلماء» ، والخطابي ، وقال السفاريني : «وعند أكثر أهل العلم أنه اسم الجلالة» ، وهذا الرأي هو الراجح ؛ لأنه الاسم المذكور في كل الأحاديث الواردة ؛ ولأنه المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وجابر بن زيد ، والشعبي ، وابن المبارك ؛ ولما لهذا الاسم من الخصائص والمزايا المعنوية واللفظية ما لا يوجد في غيره ، منها : أن هذا الاسم ما أطلق علىٰ غير الله تعالىٰ ،

والثاني : حديث أنس(١) - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً

ومنها أنه هو الأصل في أسماء الله تعالىٰ وسائر الأسماء مضافة إليه ، ومنها أن هذا الاسم دال علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ، وذلك لأنه مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ.

القول الثاني : أن الاسم الأعظم هو «الحي القيوم » . وقد اختار هذا القول ابن القيم ـ رحمه الله ـ ، فقال في النونية :

ولأجل ذا جاء الحديث بأنه ... في آية الكرسي وذي عمران
اسم الإله الأعظم اشتملا علىٰ ... اسم الحي والقيوم مقترنان
فالكل مرجعها إلىٰ الاسمين يد ... ري ذاك ذو بصر بهذا الشان

وقال في الهدي : «ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطىٰ : هو اسم الحي القيوم ».

وهذا مخالف لما يفهم من كلامه هنا بأن الاسم الأعظم هو ما تضمنه حديث بريدة من الشهادة لله بالوحدانية ، والإيمان بتفرده سبحانه بالإلهية الدال عليها اسم الله.

انظر : المصنف لابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣، شأن الدعاء للخطابي ٢٥، فتح الباري ١١/ ٢٢٤ ، زاد المعاد ٤/ ٢٠٤ ، شرح النونية للهراس ١/ ٢٥٩ ، الصواعق المرسلة ٣/ ٩١١ ، تحفة الذاكرين ٨٢-٨٤ ، لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٣٥ ، أسماء الله الحسنىٰ للغصن ٩٠-٩٨ ، اسم الله الأعظم للدميجي ١١١ وما بعدها.

(١) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري الخزرجي النجاري المدني ، خادم رسول الله ﷺ ، الإمام المفتي المقرئ المحدث ، روىٰ عن النبي ﷺ علماً جماً ، وعن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومعاذ ، وغيرهم ، وروىٰ عنه خلق عظيم ، قدم النبي المدينة وهو ابن عشر ، ومات وهو ابن عشرين ، وصحب النبي ولازمه أتم الملازمة إلىٰ أن مات ، وغزا معه غير مرة ، وبايع تحت الشجرة ، توفي سنة ٩٣هـ.

انظر : طبقات ابن سعد ٧/ ١٧ ، التاريخ الكبير ٢/ ٢٧ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥.

يدعو : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنّان ، بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم. فقال : «**لقد سأل**[١] **الله باسمه الأعظم**»[٢] ؛ فهذا توسل بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما[٣] التوسل بالحمد[٤] ، والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤالُ أهمِّ[٥] المطالب ، وأنجح الرغائب[٦] وهو الهداية بعد الوسيلتين ؛ فالداعي به حقيق بالإجابة.

---

(١) في ق «سألت» ، وما في الأصل هو الموافق لابن ماجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٢٠ ، ١٥٨ ، ٢٤٥ ، ٢٦٥) من طرق عن أنس بألفاظ متقاربة ، وأخرجه أبو داود في الصلاة ، باب الدعاء (٢/ ١٦٧) ، وأخرجه الترمذي في الدعوات ، باب خلق الله مائة رحمة ، (٥/ ٥٥٠) ، وقال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس ، وقد روي من غير هذا الوجه عن أنس. وأخرجه النسائي في السهو ، (٣/ ٥٢) ، وابن ماجه في الدعاء ، (٢/ ١٢٦٨) ، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٢٥-١٢٦) ، والحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني ، انظر : صحيح أبي داود (١/ ٤١٠) ، حديث : (١٤٩٥) ، وفي تخريج المشكاة ، (٢/ ٧٠٨) ، وفي صحيح ابن ماجه (٣/ ٢٦١).

(٣) «وهما» ساقطة من ش.

(٤) في ش ، ب زيادة «لله».

(٥) في غ «أهل».

(٦) في ش ، ب ، د «الرغبات». قال في لسان العرب : الرغباء الضراعة والمسألة ، والرغبة السؤال والطمع ، والرغيبة الأمر المرغوب فيه ، والرغيبة من العطاء : الكثير ، والجمع الرغائب ؛ قال الكلابي : الرغائب ما يرغب فيه من الثواب العظيم.
لسان العرب ٣/ ١٦٧٨ ، القاموس المحيط ١/ ٧٤ مادة (رغب)، مشارق الأنوار ١/ ٢٩٥.

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من[1] الليل ؛ رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم[2] السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت**»[3] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

فصل

اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة

في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ[4].

التوحيد نوعان : نوع في **العلم والاعتقاد**، ونوع في **الإرادة والقصد**،

---

(١) في ق «بـ».

(٢) هكذا في ش ب ، وفي باقي النسخ «قيوم». وما أثبته هو الموافق لما في البخاري.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد ، (٣/ ٣) ح(١١٢٠) ، وفي الدعوات ، ح(٦٣١٧) ، وفي التوحيد ، ؛٧٣٨٥) و(٧٤٤٢) و(٧٤٩٩). ومسلم في صلاة المسافرين ، (١/ ٥٣٢) ، ح(٧٦٩).

(٤) في م زيادة «أجمعين».

ويسمىٰ الأول : **التوحيد العلمي**. والثاني : **التوحيد القصدي الإرادي** ؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة ، والثاني بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني أيضا نوعان : توحيد في الربوبية ، وتوحيد في الإلـهية[1] ، فهذه[2] ثلاثة أنواع.

أدلة التوحيد العلمي الخبري

فأما **توحيد العلم** : فمداره علىٰ إثبات صفات الكمال ، وعلىٰ نفي التشبيه والمثال ، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل علىٰ هذا شيئان : مجمل ، ومفصل.

---

(١) هكذا في جميع النسخ الخطية جعل توحيد القصد والإرادة نوعين : توحيد في الربوبية ، وتوحيد في الإلـهية ، والصحيح أن توحيد الربوبية داخل ضمن النوع الأول ، وهو التوحيد العلمي الاعتقادي ، وهذا ما ذكره المؤلف في آخر الكتاب في باب التوحيد ، فقد قال : «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله ، وهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد ، فالأول : هو حقيقة ذات الرب تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته علىٰ عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه » إلىٰ أن قال : «بل نقول قولاً كلياً إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي ... ». المدارج ٣/ ٤٤٩-٤٥٠ ، وانظر : اجتماع الجيوش الإسلامية ٩٣ ، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لابن عيسىٰ ٢/ ٢٥٩ ، شرح القصيدة النونية لمحمد خليل هراس ٢/ ٥٥.

(٢) في ش ، ب «وهذه».

فأما[1] **المجمل**: فإثبات الحمد له سبحانه.

وأما **المفصل**: فذكر صفة[2] الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلىٰ هذه الأربعة مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات الممدوح، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال الممدوح أكثر، كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله، نقص من حمده بحسبها؛ ولهذا كان الحمد كله لله حمدا لا يحصيه أحد سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولهذا[3] لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه، ولهذا ذم الله تعالىٰ آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم[4] ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر[5]، وهذه صفة إله[6] الجهمية، التي عاب بها الأصنام، [7] نسبوها إليه، تعالىٰ الله عما يقول

(١) في أ، غ، ح١، د «أما».

(٢) في ب «صفات».

(٣) في أ، م، غ، ح١، ح٢، د «ولأجل هذا».

(٤) في ش، ب «لا تتكلم ولا تكلم».

(٥) سقط من ش قوله «ولا تنفع ولا تضر».

(٦) في أ، ب، م، ح٢ «آلهة».

(٧) في ش، م، ح٢ زيادة «ف».

الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً. فقال تعالىٰ حكاية[1] عن خليله إبراهيم عليه السلام[2] في محاجته لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم : ٤٢] ، فلو كان إلـه إبراهيم بهذه الصفة والمثابة[3] لقال لـه آزر : وأنت إلـهك بهذه المثابة ، فكيف تنكر عليّ ؟ ؛ لكن كان مع شركه أعرف بالله من الجهمية. وكذلك[4] كفار قريش كانوا مع شركهم مقرِّين بصفات الصانع سبحانه ، وعلوِّه علىٰ خلقه. وقال تعالىٰ : ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ [وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ][5]﴾[الأعراف : ١٤٨]، فلو كان إلـه الخلق سبحانه كذلك ، لم يكن في هذا إنكار[6] عليهم ، ولا استدلال[7] علىٰ بطلان الإلـهية[8] بذلك.

فإن قيل[9] : فالله تعالىٰ لا يكلم عباده.

---

(١) في غ «حاكياً».

(٢) في ش ، ق «علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام» ؛ والكل ساقط من د .

(٣) في ش ، ق «بهذه المثابة».

(٤) في ش «فكذلك».

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د ، أ ؛ وسقط من ب من قوله تعالىٰ : «اتخذوه» إلىٰ آخر الآية.

(٦) في ش «الإنكار».

(٧) في ش «ولا الاستدلال».

(٨) في ش «إلـهيته».

(٩) في ب «قلت».

قيل[١] : بلىٰ[٢] ، قد كلمهم ، فمنهم من كلمه الله[٣] من[٤] وراء حجاب ، منه إليه بلا واسطة ، كموسىٰ ـ عليه السلام ـ . ومنهم من كلمه الله علىٰ لسان رسوله الملكي ؛ وهم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ . وكلم الله سائر العباد علىٰ ألسنة رسله ؛ فأنزل عليهم كلامه الذي بلَّغته رسلُه عنه. وقالوا لهم : هذا كلام الله الذي تكلم به ، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن هاهنا قال السلف ـ رضي الله عنهم ـ : من أنكر كون الله متكلما ، فقد أنكر رسالة[٥] الرسل كلهم[٦] ؛ لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم[٧] به إلىٰ عباده . فإذا انتفىٰ كلامه[٨] انتفت الرسالة[٩] ؛ و[١٠] قال تعالىٰ في سورة طه عن السامري : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الآية : ٨٨- ٨٩] ، ورَجْعُ القول هو التكلم والتكليم. وقال تعالىٰ :

---

(١) في ب «قلت».

(٢) في ش «بل».

(٣) سقط لفظ الجلالة من ش.

(٤) «من» ساقطة من أ.

(٥) في ح٢ «رسالات».

(٦) في ح١ ، أ ، غ «كلها».

(٧) في ش «تتكلم».

(٨) في ش ، د «تكلمه».

(٩) في ش «رسالته».

(١٠) «الواو» ساقطة من ش.

﴿ وَضَرَبَ[1] ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل : ٧٦] ، فجَعَلَ نَفْيَ صفاتِ الكمال موجِباً لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم[2] بالفطر والعقول والكتب السماوية ، أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ، ولا مدبّراً ، ولا رباً ؛ بل هو مذموم ، معيب ناقص ، ليس له الحمد ، لا في الأولىٰ ولا الآخرة[3] ، وإنما الحمد في الأولىٰ والآخرة[4] لمن له صفات الكمال ، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد. ولهذا سمىٰ السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه علىٰ خلقه ، وكلامه وتكليمه توحيداً ؛ لأن نفي ذلك وإنكاره[5] والكفر به إنكار للصانع ، وجحد له. وإنما توحيده إثبات صفات كماله ، وتنزيهه عن الشبه والنقائص. فجَعَل المعطلةُ جَحْدَ الصفات ، وتعطيلَ الصانع عنها توحيداً. وجعلوا إثباتها لله تعالىٰ تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً. فسموا الباطل باسم الحق ، ترغيبا فيه ، وزخرفا ينفقونه[6] به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيرا عنه. والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ، ليس لهم نقد النقاد ، ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن

---

(١) «الواو» ساقطة من م .

(٢) في م «وهذا أمن معلوم».

(٣) سقط من ش قوله : «لا في الأولىٰ ولا الآخرة» .

(٤) سقط من ش قوله : «في الأولىٰ والآخرة».

(٥) سقط من ش قوله : «وإنكاره» .

(٦) في ش «ينفقوه» ، وأشار في حاشيته إلىٰ أنه في نسخة «ينفقونه».

تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا[١]﴾ [الكهف : ١٧] ؛ والمحمود لا يحمد على العدم والسلوب البتة ، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية ، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ، ولا مدح ولا كمال. وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه ، وتعبد كل شيء له ؛ فاتخاذ الولد ينافي ذلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس : ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك ، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية ، وتوحده[٢] بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره ، فيكون شريكاً له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه ؛ لأن الموجود أكمل من المعدوم ؛ ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنا ثبوتاً : كما حمد نفسه بكونه لا يموت ؛ لتضمنه كمال حياته ، وحمد نفسه بأنه[٣] لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ لتضمن ذلك كمال قيوميته ، وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه[٤] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[٥] ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[٦] ؛ لكمال علمه

---

(١) في ش «ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فما له من هاد».
(٢) في م «وتوحيده».
(٣) في ح١ ، ح٢ ، أ ، د «بكونه».
(٤) في م ، ح٢ ، ب «عنه».
(٥) في أ «في السماوات ولا في الأرض».
(٦) سقط من ش قوله : «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر».

وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً ؛ لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار ؛ لكمال عظمته ، يُرىٰ ولا يدرك ، كما أنه يُعلم ولا يحاط به علماً. وإلا فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال ؛ لأن العدم لا يرىٰ ، فليس في كون الشيء لا يرىٰ كمال البتة ، وإنما الكمال في كونه لا[1] يحاط به رؤيةً ولا إدراكاً ؛ لعظمته في نفسه ، وتعاليه عن إدراك المخلوق له. وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان ؛ لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد به نفسه فلمضادته لثبوت ضده ؛ ولتضمنه كمال ثبوت ضده[2].

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال ، وأن نفيها نفي لحمده ، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

* * *

(١) «لا» ساقطة من غ.

(٢) هكذا في جميع النسخ الخطية ، ولعل الأنسب أن تكون العبارة هكذا : «ولتضمنه ثبوت كمال ضده» ؛ لأن ما نفاه الله عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل علىٰ الكمال ، ولهذا فصفات النقص يجب نفيها عن الله تعالىٰ مع إثبات ضدها علىٰ الوجه الأكمل.

فصل

فهذا دلالة الحمد علىٰ توحيد الأسماء والصفات.

دلالة الأسماء الخمسة على صفات الكمال

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها وهي «الله»، و «الرب»، و «الرحمن»، و «الرحيم»، و «الملك» فمبني علىٰ أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالىٰ دالة علىٰ صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات؛ فهي أسماء، وهي أوصاف؛ وبذلك كانت حسنىٰ، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنىٰ، ولا كانت دالة علىٰ مدح ولا كمال، ولساغ وقوعُ أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم. و[1] اللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع[2]، ونحو ذلك.

[هذا][3] ونفي معاني أسمائه الحسنىٰ من أعظم الإلحاد فيها؛ قال[4] تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ ولأنها لو لم تدل علىٰ معان وأوصاف لم يجز[5] أن يخبر عنه[6]

---

(١) «الواو» ساقطة من ب.

(٢) في ح٢، م، ب «النافع».

(٣) زيادة من ح٢.

(٤) في ق، غ، ح٢، م، ب زيادة اسم الجلالة «الله».

(٥) في ش، ق «يسغ».

(٦) هكذا في ش، وفي باقي النسخ «عنها».

بمصادرها ويوصف بها؛ لكن الله[1] أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه[2]، وأثبتها له رسوله ﷺ، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القوي» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.
وكذلك قوله: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة[3] له[4] لم يسم قوياً ولا عزيزاً. وكذلك قوله: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ[5] أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ[6]﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض[7] القسط ويرفعه، يُرفعُ إليه عمل الليل قَبْل عملِ[8] النهار، وعملُ النهار قَبْلَ عملِ[9] الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات[10] وجهه ما**

(١) سقط لفظ الجلالة من غ.
(٢) سقط قوله: «وأثبتها لنفسه» من أ.
(٣) في ش، ب «العزة والقوة».
(٤) «له» ساقطة من ش.
(٥) «فاعلموا» ساقطة من ش.
(٦) في ش زيادة «إلا بما شاء».
(٧) في أ، د، غ «يحفظ».
(٨) «عمل» ساقطة من أ، د، ح١.
(٩) «عمل» ساقطة من أ، د، ح١.
(١٠) السبحات: جمع سبحة، وسبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه ومحاسنه وأضواؤه.
النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٣٢، مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار للقاضي عياض ٢/ ٢٠٣.

انتهىٰ إليه بصره من خلقه»[1]. فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه[2] «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة[3] ـ رضي الله عنها ـ : «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[4].

وفي الصحيح حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»[5]، فهو قادر بقدرة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، (١/ ١٦١-١٦٢)، ح(١٧٩) وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، (١/ ٧٠-٧١)، وأحمد (٤/ ٣٩٥).

(٢) في ح١ «اسم».

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية أم المؤمنين، تكنىٰ أم عبد الله الفقيهة، روت عن النبي ﷺ، وأبيها، وعمر، وغيرهم، كانت أحب النساء إلىٰ رسول الله ﷺ، توفي وهي بنت ثماني عشرة سنة، وتوفيت في رمضان سنة ٥٨هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٥، تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٣٣، رجال صحيح مسلم ٢/ ٤١٢.

(٤) رواه البخاري تعليقا في التوحيد، باب «وكان الله سميعاً بصيراً»، (١٣/ ٣٧٢)، وأحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي في الطلاق، (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه في المقدمة، (١/ ٦٧)، وأخرجه موصولا ابن حجر في تغليق التعليق علىٰ صحيح البخاري (٥/ ٣٣٩)، وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني، انظر: صحيح النسائي (٢/ ٤٨٨)، وصحيح ابن ماجه (١/ ٨٠-٨١).

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات، من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ (١١/ ١٨٣)، ح(٦٣٨٢)، والترمذي في الصلاة، (٢/ ٣٤٥)، وقال: حديث جابر حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في النكاح (٦/ ٨٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١/ ٤٤٠)، وأحمد (٣/ ٣٤٤).

وقال تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه السلام ـ : ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف : ١٤٤] ، فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في الصحيح عنه ﷺ : «**يقول الله**[1] **تعالىٰ: العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي**»[2] .

وهو الحكيم الذي له الحكم[3] ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] .

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، وسمعه، وبصره ، وقوته ، وعزته، وعظمته انعقدت يمينه ، وكانت مكفرة ؛ لأن هذه صفات كماله التي[4] اشتقت منها أسماؤه.

وأيضا لو لم تكن أسماؤه مشتملة علىٰ معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال : يسمع ويرىٰ ، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام

---

(١) لفظ الجلالة ساقط من ش.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة في كتاب اللباس ، (٤/ ٣٥٠) ، بلفظ : «قال الله عز وجل : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار » ، وابن ماجه في الزهد ، (٢/ ١٣٩٧) عن أبي هريرة ، وابن عباس به ، وأحمد (٢/ ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) عن أبي هريرة به ، ومسلم في البر والصلة ، باب تحريم الكبر ، (٤/ ٢٠٢٣) ، عن أبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : «**العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**». وصححه ابن حبان ، انظر : (الإحسان ٧/ ٤٧٣) ، وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥١٧).

(٣) في أ «الحكمة» .

(٤) في أ «الذي» .

الصفات فرع ثبوتها ، فإذا انتفت[١] أصل الصفة[٢] استحال ثبوتُ حكمِها.

وأيضا فلو لم تكن أسماؤه ذوات[٣] معان وأوصاف لكانت[٤] جامدة ؛ كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنىٰ قام[٥] به ، فكانت[٦] كلها سواء ، ولم يكن فرق بين مدلولاتها ، وهذا مكابرة صريحة ، وبهت بيِّن ، فإن من جعل معنىٰ[٧] اسم «القدير» هو معنىٰ اسم «السميع[٨] البصير» ، ومعنىٰ اسم «التواب» هو معنىٰ اسم «المنتقم» ، ومعنىٰ «المعطي» هو معنىٰ اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

الإلحاد في أسماء الله حقيقته وأنواعه

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها ، والإلحاد فيها أنواع ، هذا أحدها.

الثاني : تسمية الأوثان بها ، كما كانوا يسمونها آلهة. و[٩] قال ابن عباس ، ومجاهد : «عدلوا بأسماء الله تعالىٰ عما هي عليه ، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا

---

(١) هكذا في جميع النسخ ، والصواب أن يقال : «انتفىٰ» ، لأن كلمة «أصل» مذكر.

(٢) في م ، ح٢ ، «الصفات».

(٣) في أ «ذات».

(٤) في ش «كانت».

(٥) في ش ، ب «قائم».

(٦) في ش ، ب «وكانت».

(٧) «معنىٰ» ساقطة من ش.

(٨) في ب ، ق زيادة «و».

(٩) الواو ساقطة من ش.

ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزىٰ من العزيز ، ومناة من المنان » ، وروي عن ابن عباس ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ ، «يكذبون عليه » وهذا تفسير بـ[1] المعنىٰ[2].

وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها ؛ هذا حقيقة[3] الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب علىٰ الله تعالىٰ. ففسر ابن عباس - رضي الله عنهما - الإلحاد بالكذب ، إذ[4] هو غاية الملحد في أسمائه تعالىٰ ، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها ، وأخرج[5] عنها حقائقها ، أو بعضها ، فقد عدل بها[6] عن الصواب والحق ، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة ، وإما بجعلها[7] أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات ، كإلحاد أهل الاتحاد[8] ؛

---

(١) سقط في ح١ ، غ ، ح٢ ، د ، م ، ب ، أ حرف الباء.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٣٣-١٣٤ ، تفسير البغوي ٢/ ٢١٨ ، تفسير القرطبي ٧/ ٢٨٨.

(٣) في ش «قصد ».

(٤) وفي غ ، ح١ ، ق «أو » ، وفي أ «أي ».

(٥) في غ ، ح٢ ، ح١ ، م «فأخرج ».

(٦) في ب «فيها » ، وسقطت من ح١.

(٧) في غ «أن يجعلها ».

(٨) قال الجرجاني : الاتحاد : هو تصيير الذاتين واحدة ، ولا يكون إلا في العدد من الاثنين

فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها ، حتىٰ قال زعيمهم : «وهو المسمىٰ بـ[1] كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً ، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً »[2] ؛ تعالىٰ الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

فصاعدا... إلىٰ أن قال : وهو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه ، لا من حيث إن له وجودا خاصاً اتحد به ، فإنه محال. التعريفات ٢٢.

وبذلك عرفه التهانوي الحنفي في كشاف اصطلاحات الفنون ، انظر : ٤/ ٣٠٩-٣١٠.

والاتحادية هم القائلون باتحاد الخالق بالمخلوق ؛ لكن منهم من يجعله خاصا في بعض الشيوخ والأقطاب ، ومنهم من يجعله اتحاد كليات أي : اتحاد الخالق بجميع المخلوقات ، وذكر ابن القيم أن الاتحادية هم القائلون بوحدة الوجود بقوله ـ رحمه الله ـ : وإذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ؛ بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة هذا العالم ، فليس عند القوم رب وعبد ولا مالك ومملوك ولا راحم مرحوم ولا عابد ومعبود ... المدارج ١/ ٦٠.

وقد ذكر هذا القول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : «اعلم أن حقيقة قول هؤلاء أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالىٰ ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة ... إلىٰ أن قال : وأما وجه تسميتهم اتحادية ففيه طريقان : أحدهما : لا يرضونه ؛ لأن الاتحاد علىٰ وزن الاقتران ، والاقتران يقتضي شيئين : اتحد أحدهما بالآخر ، وهم لا يقرون بوجودين أبداً.

والطريق الثاني : صحة ذلك بناء علىٰ أن الكثرة صارت وحدة.

مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٧٠٦ ، وانظر أيضا ١/ ١٧٨ وما بعدها ، بغية المرتاد ٣٩٤ وما بعدها ، وانظر للتوسع في بيان ذلك كتاب : لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام ، لعبد الرزاق القاشاني ١/ ١٥٩.

(١) في ش زيادة «معني ».

(٢) القائل هو ابن عربي، وهذا معنىٰ كلامه، فقال في فص حكمة قدسية في كلمة إدريسية ١١٣ :

فصل

دلالات المطابقة والتضمن واللزوم

الأصل الثاني : أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالىٰ كما يدل علىٰ الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة ، فإنه يدل دلالتين أخريين[1] بالتضمن واللزوم[2] ، فيدل علىٰ الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك علىٰ الذات المجردة

«فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية ، والنسب العدمية ، بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها ، وسواء كانت محمودة عرفا وعقلا وشرعاً ، أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعاً » ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول عن ابن عربي في بغية المرتاد ٥٢٤ ، وذكر معنىٰ هذا القول عنه أيضاً ٤٠٨ ، فقال : «ولكن صاحب الفصوص يجعل وجود هذا الوجود الحق ، الذي هو وجود كل شيء ، فهو الموصوف عنده بجميع صفات النقص والذم والكفر والفواحش والكذب والجهل ، كما هو الموصوف عنده بصفات المدح والكمال ، فهو العالم والجاهل والبصير والأعمىٰ والمؤمن والكافر و...».

(١) في غ ، ح٢ ، ق ، م ، ب ، ح١ ، أ ، د «يدل دلالتان أخريان ».

(٢) هذه الدلالات الثلاث هي أقسام «الدلالة اللفظية الوضعية » وهي : كون اللفظ بحيث متىٰ أطلق أو تخيل فُهم منه معناه للعلم بوضعه.

ودلالة المطابقة : هي دلالة اللفظ علىٰ تمام المعنىٰ الموضوع له اللفظ ، كدلالة لفظ الرجل علىٰ الإنسان الذكر ، ودلالة لفظ البيت علىٰ الجدار والسقف معا. وسميت مطابقة لتطابق الوضع والفهم ، والمفهوم من اللفظ هو عين المعنىٰ الموضوع له اللفظ.

وأما دلالة التضمن : فهي دلالة اللفظ علىٰ جزء مسماه في ضمن كله ، وذلك كدلالة لفظ البيت علىٰ الجدار وحده ، وعلىٰ السقف وحده ، وكدلالة الأربعة علىٰ الواحد ربعها ، وعلىٰ الاثنين نصفها. وسميت تضمنية ؛ لأن الجزء يفهم في ضمن الكل.

وأما دلالة الالتزام : فهي دلالة اللفظ علىٰ خارج عن مسماه لازم له لزوماً ذهنياً ، بحيث يلزم

عن الصفة ، ويدل علىٰ الصفة الأخرىٰ باللزوم ، فإن اسم «السميع » يدل علىٰ ذات الرب وسمعه بالمطابقة ، وعلىٰ الذات وحدها ، والسمع وحده بالتضمن، ويدل علىٰ اسم « الحي » ، و صفة[1] الحياة بالالتزام ، وكذلك سائر أسمائه وصفاته ؛ ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ، ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة ، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة ، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها. وكذلك سائر صفاته ، فإن اسم «العظيم » له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم « العلي » واسم «الحكيم » وسائر أسْمائه ، فإن من لوازم اسم «العلي » العلو المطلق ، بكل اعتبار ، فله العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات ، فمن جحد علو الذات ، فقد جحد

من فهم المعنىٰ المطابقي فهم ذلك الخارج اللازم ، كدلالة الأربعة علىٰ الزوجية ، وكدلالة السقف علىٰ الحائط.

انظر في الكلام علىٰ الدلالة وأنواعها :

كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٢/ ١١٩-١٢٦ ، والتعريفات ١٤٠ ، الكليات للكنوي ٤٣٩-٤٤٣ ، الإحكام للآمدي ١/ ١٥ ، روضة الناظر لابن قدامة ١/ ٥٠ ، آداب البحث والمناظرة للشنقيطي ، القسم الأول مقدمات منطقية ١٣.

(١) في ش «وصفات ».

لوازم اسمه « العلي ».

وكذلك اسمه «الظاهر » من لوازمه أن لا يكون فوقه شيء ، كما في الصحيح[1] عن النبي ﷺ «وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء »[2] ؛ بل هو سبحانه فوق كل شيء ، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر » ، ولا يصح أن يكون «الظاهر » هو من له فوقية القدر ، كما يقال : الذهب فوق الفضة ، والجوهر فوق الزجاج ؛ لأن هذه الفوقية لا تتعلق بالظهور ؛ بل قد يكون المَفُوقُ أظهر من الفائق فيها ، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط ، وإن كان سبحانه ظاهرا بالقهر والغلبة ، لمقابلة الاسم بـ «الباطن » وهو الذي ليس دونه شيء ، كما قابل «الأول » الذي ليس قبله شيء ، بـ «الآخر » الذي ليس بعده شيء.

كذلك اسم «الحكيم » من لوازمه[3] ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ، ووضعه الأشياء في مواضعها ، وإيقاعها علىٰ أحسن الوجوه ، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه ، وكذلك[4] سائر أسمائه الحسنىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ، (٤/ ٢٠٨٤) ، حديث (٢٧١٣) ، والترمذي في الدعوات (٥/ ٤٧٢) ، وأبو داود في الآداب (٥/ ٣٠١) ، وابن ماجه في الدعاء (٢/ ١٢٧٤).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط من ح١ .

(٣) في ح١ «لوازم ».

(٤) في ش زيادة «كانت ».

فصل

بيان دلالة اسم الله على جميع الأسماء والصفات

إذا تقرر هذان الأصلان ، فاسم «الله» دال علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ[١] والصفات العليا بالدلالات الثلاث ؛ فإنه دال علىٰ إلـهيته[٢] المتضمنة لثبوت صفات الإلـهية لـه ، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلـهية هي صفات[٣] الكمال ، المنزهة عن التشبيه والمثال ، وعن العيوب والنقائص ، ولـهذا يضيف تعالىٰ سائر الأسْماء الحسنىٰ إلىٰ هذا الاسم المعظم ، كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، ويقال : «الرحمن ، والرحيم ، والقدوس ، والسلام ، والعزيز ، والحكيم» من أسماء الله ، ولا يقال : «الله» من أسماء الرحمن ، ولا من أسماء العزيز ، ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ ، دال[٤] عليها بالإجمال ، والأسماء الحسنىٰ تفصيل وتبيين لصفات الإلـهية ، التي اشتق منها اسم «الله» ، واسم «الله»[٥] دال علىٰ كونه مألوهاً معبوداً ، تألـهه[٦] الخلائق محبةً وتعظيماً وخضوعاً ، ومفزعا إليه في الحوائج والنوائب ؛ وذلك مستلزم

---

(١) سقط من أ من قوله «إذا تقرر» إلىٰ قوله : «الحسنىٰ».

(٢) في ش «الإلـهية».

(٣) في ق «صفة».

(٤) في ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، ق ، ب ، أ «دالا».

(٥) سقط من ش من قوله : «دال عليها» إلىٰ قوله : «واسم الله».

(٦) في ش «ألـهه».

لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنتين[1] لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

فصفاتُ الجلال والجمال أخصُّ باسم «الله». وصفاتُ الفعل والقدرة، والتفردِ بالضر والنفع[2]، والعطاء والمنع ونفوذِ المشيئة وكمالِ القوة، وتدبيرِ أمر الخليقة أخصُّ باسم «الرب». وصفاتُ الإحسان، والجود، والبر، والحنان، والمنةِ[3]، والرأفة، واللطف أخصُّ باسم «الرحمن[4] الرحيم»، وكرر إيذانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى[5]: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه للموصوف به. ألا ترىٰ أنهم يقولون: غضبانُ، للممتلئ غضباً،

---

(١) في ح١، ح٢، ب، ق، م، غ، أ «المتضمنين».

(٢) في ش «بالنفع والضر».

(٣) سقط من ش قوله: «والمنة».

(٤) في ب «الرحمن والرحيم»؛ وساقطة من أ، ش، ح١، د، ق، غ «الرحيم».

(٥) في ش، ح١ «يقول الله تعالىٰ».

وندمانُ ، وحيرانُ ، وسكرانُ ، ولهفانُ ، لمن مُلئَ بذلك ، فبناء فعلان للسعة والشمول ، ولهذا يُقرن استواؤه علىٰ العرش بهذا الاسم كثيراً ، كقوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، فاستوىٰ علىٰ عرشه باسم الرحمن ؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات ، قد وسعها ، والرحمة محيطة[1] بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، فاستوىٰ علىٰ أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ[2] قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما قضىٰ الله الخلق ، كتب في كتاب ، فهو عنده موضوع علىٰ العرش : إن رحمتي تغلب غضبي** » وفي رواية : « **سبقت** »[3] ، وفي لفظ : « **فهو عنده وضع**[4] **علىٰ العرش** »[5].

---

(١) في ش « تحيط ».

(٢) أبو هريرة الإمام الفقيه المجتهد الحافظ ، صاحب رسول الله ﷺ ، الدوسي اليماني ، اختلف في اسمه علىٰ أقوال ، قال الذهبي : أرجحها عبد الرحمن بن صخر ، أسلم عام فتح خيبر ، توفي سنة ٥٨هـ بالعقيق. انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٨ ، طبقات ابن سعد ٤/ ٣٢٥.

(٣) قوله : « وفي رواية سبقت » ساقط من د ، ق ، غ ، أ ، ح١ ، و في ب أبدلت بقوله : « وفي لفظ سبقت رحمتي غضبي ».

(٤) في ش ، ق ، ب ، أ « وضعه ».

(٥) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في بدء الخلق ، ح(٣١٩٤) ، (٦/ ٢٨٦) بلفظ : « **لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي** ». وأخرجه

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ، ووضعه عنده علىٰ العرش ، وطابق بين ذلك وبين قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، وقوله[1] : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان : ٥٩] ، ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالىٰ ، إن[2] لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، والعطاء والمنع ، والإعزاز والإذلال ، والقهر والحكم ، ونحوها أخص باسم «الملك» ، وخصه بيوم الدين ، وهو الجزاء بالعدل ، لتفرده بالحكم فيه وحده ، ولأنه اليوم

في التوحيد ، ح(٧٤٠٤) ، (١٣/ ٣٨٤) ، بلفظ : «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، وهو يكتب علىٰ نفسه ، وهو وضع عنده علىٰ العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي». قال في الفتح : وهو أي المكتوب. وضع : بفتح فسكون أي موضوع ، ووقع كذلك في الجمع للحميدي بلفظ موضوع ، وهو رواية الإسماعيلي فيما أخرجه من وجه آخر عن أبي حمزة المذكور في السند. و(٧٤٢٢) ، (١٣/ ٤٠٤) ، بلفظ : «إن الله لما قضىٰ الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي». و(٧٥٥٣) ، (١٣/ ٥٢٢) ، بلفظ : «لما قضي الله الخلق كتب كتابا عنده، غلبت. أو قال : سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش». و(٧٥٥٤) ، بلفظ : «إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش».

وأخرجه مسلم في التوبة ، ح(٢٧٥١) ، (٤/ ٢١٠٧-٢١٠٨) ، بلفظ : «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : «إن رحمتي تغلب غضبي» ، وبلفظ : «قال الله عز وجل : سبقت رحمتي غضبي» ، وبلفظ : «لما قضىٰ الله الخلق ، كتب في كتابه علىٰ نفسه ، فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي».

(١) سقط من م «وقوله».

(٢) «إن» ساقطة من ش.

الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

فصل

بيان ارتباط الخلق والأمر بأسمائه الثلاثة

وتأمّل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة ؛ وهي «الله ، والرب ، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب؟ ، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟[1] ، فلها الجمع ، والفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات ، فهو رب كل شيء ، وخالقه ، والقادر عليه ، لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في[2] قبضته ، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية ، وافترقوا[3] بصفة الإلهية ، فألَّهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل ، والرجاء والخوف ، والحب والإنابة ، والإخبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له.

وها هنا افترق الناس ، وصاروا فريقين : فريقا مشركين في السعير ، وفريقا موحدين في الجنة. فالإلهية هي التي فرقتهم[4] ، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

---

(١) في ش : «وفرقهم».

(٢) في ش : «وفي».

(٣) في ق «وتفرقوا».

(٤) في ش ، ب «فافترقوا بصفة الإلهية ، فهي التي فرقتهم».

فالدين والشرع ، والأمر والنهي مظهرُه وقيامه من صفة الإلـهية ، والخلق والإيجاد ، والتدبير ، والفعل من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب ، والجنة والنار من صفة الملك وهو[١] ملك يوم[٢] الدين ، فأمرهم بإلـهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحد[٣] من هذه الأمور لا ينفك[٤] عن الآخرين.

وأما الرحمة فهي[٥] التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأله منهم له ، والربوبية منه لهم ، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده ، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم[٦] ، وبها أسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه علىٰ عرشه برحمته ، فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، مطابق لقوله : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة : ٢ - ٣] ، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضىٰ[٧] شمول الرحمة ، وسعتها. فوسع

---

(١) في ب ، ش «فهو».

(٢) ساقطة من أ.

(٣) في أ ، ح٢ ، م ، ح١ ، غ ، د «واحدة».

(٤) هكذا في ش ، د ، ق ، ب وفي سائر النسخ «تنفك».

(٥) في ق «فهو».

(٦) سقط من م قوله : «وبها هداهم».

(٧) في ش «اختص» ، وفي غ ، ح٢ ، ح١ ، م «أقصىٰ».

كل شيء برحمته وربوبيته[1]، مع أن في كونه ربا للعالمين ما يدل علىٰ علوه علىٰ خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه[2] إن شاء الله.

فصل

وجه ذكر هذه الأسماء بعد الحمد

وفي[3] ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد علىٰ مضمونها ومقتضاها ما يدل علىٰ أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمالٌ من هذا الاسم بمفرده، وكمالٌ من الآخر بمفرده، وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، فالغنىٰ صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضا. وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا[4]﴾ [النساء: ١٤٩]، واقتران العلم بالحِلم: ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) في ش، ب «بربوبيته ورحمته».

(٢) في ش زيادة «عن قرب»، وفي ب «عن قريب».

(٣) في أ، ح١، د، غ، ق، «في» بدون «الواو».

(٤) وفي جميع النسخ الخطية: «وكان الله عفوا قديراً» والصحيح أن الآية كما أثبتها.

عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء : ١٢].

وحملة العرش أربعة[1] ؛ اثنان يقولان : «**سبحانك اللهم وبحمدك ، لك**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وغيره من طريق محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدَّق أمية في شيء من شعره ، فقال : رجل وثور تحت رجل يمينه ، والنسر للأخرىٰ وليث مرصد. فقال النبي ﷺ : «صدق» الحديث.

قال ابن كثير في التفسير (٧/ ١٢١) وهذا إسناد جيد ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية.

وقال في البداية والنهاية (١/ ١٠) : فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد - ثم ذكر الحديث - فإنه حديث صحيح الإسناد ، ورجاله ثقات ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال ، اللهم إلا أن يقال : إن إثبات هؤلاء الأربعة علىٰ هذه الصفات لا ينفي ما عداهم ؛ والله أعلم.

وحديث أمية أخرجه الإمام أحمد ، وابنه عبد الله في زوائد المسند (١/ ٢٥٦) ، والدارمي في سننه (٢/ ٢٩٦) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٥-٢٥٦) ، والآجري في الشريعة (٣/ ١٥٤٤) ، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٠٢-٢٠٦) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٣).

والحديث مختلف فيه ، فقد قوىٰ إسناده ابن كثير كما سبق ، وحسنه محقق كتاب الشريعة عبد الله الدميجي ، وصححه الحاشدي في تخريج الأسماء والصفات للبيهقي ، انظر : الشريعة للآجري (٣/ ١٥٤٦).

وأعلّ البيهقي الحديث بتفرد محمد بن إسحاق به ، كما في الأسماء والصفات ، ولكن هذا التفرد ينتفي بما أخرجه ابن خزيمة من طريق إسماعيل بن علية قال : حدثنا عمارة بن أبي حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس به.

وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني، ورجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس»، المجمع (٨/ ١٢٧).

الحمد علىٰ حلمك بعد علمك » ، واثنان يقولان : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك»[1]. فما كل من قدر عفا ، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة ، ولا كل من علم يكون حليما ، ولا كل حليم عالم. فما قرن شيء إلىٰ شيء أزين من حلم إلىٰ علم ؛ ومن عفو إلىٰ قدرة ؛ ومن ملك إلىٰ حمد ، ومن عزة إلىٰ رحمة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الشعراء : ٩] ، ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة : ١١٨] أحسن من أن يقول : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن تغفر لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة ؛ وهي كمال القدرة ، وعن حكمة ، وهي كمال العلم. فما غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني[2] ، فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة ، وعلم تام ، وحكمة تضع بها

وضعف الحديث الألباني ، وأعله بعنعنة ابن إسحاق ، إلا أن ابن إسحاق صرح بالتحديث كما عند ابن خزيمة في التوحيد ، والآجري في الشريعة ، والبيهقي في الأسماء والصفات.

(١) أخرج هذا الأثر ابن أبي شيبة في كتاب العرش (٦٣) ، والبغوي في التفسير (٤/ ٩٣) عن شهر بن حوشب ، قال : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون ... ثم ذكر الأثر. وحسن إسناده محمد الحمود في تحقيقه لكتاب العرش.

وأخرجه الذهبي في العلو (٥٨) عن حسان بن عطية ، قال : حملة العرش ثمانية ، يتجاوبون بصوت حسن رخيم ، فيقول أربعة منهم : ... ، ثم ذكر الأثر ، وقال : إسناده قوي ، وقال الألباني في مختصر العلو (١٠١) : وهذا إسناد قوي كما قال.

(٢) العبارة في جميع النسخ ، «فمن» والأصوب حسب السياق ما أثبته.

الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها[1]، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور][2] الرحيم. كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما نزه عنه منصب المسيح ـ عليه السلام ـ، لا سيما والموقف موقف عظمة وجلالة، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، واتخذه إلـها من دونه، فذِكْرُ العزة والحكمة فيه أليق من ذكر المغفرة والرحمة[3]؛ وهذا بخلاف قول الخليل - صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦]، ولم يقل: فإنك عزيز حكيم؛ لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر له وترحمه، بأن توفقه[4] للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[5].

---

(١) في ش «جنسها».

(٢) من قوله: «بين هذا المعنىٰ وبين قوله....» في ص ٢٠٦ وهذه الكلمة «الغفور» سقط من الأصل، وموجود في سائر النسخ.

(٣) في ح١، وح٢، غ، ق، د، ش، م، أ «والرحمة والمغفرة».

(٤) في ق، أ، ب، ح١، ح٢، د، م، غ «توفقهم».

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء، ح(٣٤٧٧)، (٦/ ٥١٤)، وأخرجه مسلم في الجهاد، باب غزوة أحد، حديث: (١٧٩٢)، (٣/ ١٤١٧).

وفي هذا أظهر الدلالة علىٰ أن أسماء الرب تعالىٰ مشتقة من أوصاف ومعانٍ[1] قامت به ، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه ، واقترن به من فعله وأمره، والله الموفق للصواب.

فصل
في مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب

مراتب الهداية الخاصة والعامة

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله تعالى لعبده

المرتبة الأولىٰ : مرتبة تكليم الله تعالىٰ لعبده يقظة بلا واسطة ؛ بل منه إليه ، وهذه أعلىٰ مراتبها ، كما كلم موسىٰ بن عمران ، ـ صلوات الله وسلامه علىٰ نبينا وعليه ـ ، قال[2] تعالىٰ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء : ١٦٤] ، فذكر في أول الآية وحيه إلىٰ نوح والنبيين من بعده ، ثم خص موسىٰ من بينهم بالإخبار بأنه كلمه ؛ وهذا يدل علىٰ أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية ؛ ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلّم» وهو «التكليم» رفعا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة[3]

---

(١) في ش «صفات».

(٢) في ح٢ ، غ ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) المعتزلة : هم أتباع واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد ، سموا بذلك حينما طردهم الحسن البصري من مجلسه ، فاعتزلوه بأتباعهم جانبا من المسجد ، فسموا معتزلة من ذلك الحين ؛ لاعتزالهم مجالس المسلمين ، وانقسموا بعد ذلك إلىٰ عدة فرق.

ومن أهم أصولهم : نفيهم صفات الله ، وقولهم : إن الله لا يُرىٰ بالآخرة ، وقولهم : بالمنزلة بين المنزلتين ، فقالوا : إن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، ومن أصولهم : نفي القدر ،

وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو [١٣/ أ] تعريف للمعنىٰ النفسي بشيء غير التكليم. فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة، ورفع توهم المجاز، قال الفراء[١]: العرب تسمي ما يُوصل إلىٰ الإنسان كلاما بأي طريق وصل؛ ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة، يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة؛ لأنه مجاز غير حقيقة، هذا كلامه[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلىٰ فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من

فقالوا: إن أفعال العباد خارجة من قدرة الله، ومن أصولهم: إنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي المنكر.

انظر تفاصيل مذهبهم وفرقهم في: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ١٥٥، التبصير في الدين للإسفراييني ٦٣، التنبيه والرد للملطي ٤٩، البرهان للسكسكي ٤٩، اعتقادات فرق المسلمين للرازي ٣٨، الفرق بين الفرق ١١٤، الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٣.

(١) أبو زكريا، يحي بن زياد بن عبد الله ابن منظور الأسدي الكوفي النحوي صاحب الكسائي، كان إماما في النحو واللغة، عالما بالفقه، والطب، والشعر، وأيام العرب، له من المصنفات كتاب البهي، ومعاني القرآن، وغيرها. توفي سنة ٢٠٧هـ، وله ٦٣ سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١٨، البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢، العبر ١/ ٢٧٨.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٥٠٠.

الله لـه. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه[١] قال الله لـه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي بتكليمي لك، بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بُعْد، والنجاء من قُرْب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء[٢]، وقال لـه أبوه آدم ـ عليه السلام ـ في محاجته: «**أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟**»[٣].

وكذلك يقول لـه أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلىٰ ربه عز وجل[٤]، وكذلك في حديث الإسراء في رؤية موسىٰ ـ عليه السلام ـ في السماء السادسة أو السابعة علىٰ اختلاف الرواية، قال[٥]: «**وذلك بتفضيله بكلام الله**

---

(١) أي في التكليم الثاني.

(٢) قال في النهاية: ومنه حديث الشعبي «إذا عظمت الحلقة فهي بذاءٌ ونجاء» أي مناجاة، يعني يكثر فيها ذلك. النهاية ٥/ ٢٦.

والنَّجْوىٰ والنَّجِي: السّرُّ، والنَّجْوُ: السر بين اثنين، والنداء: الدعاء بأرفع الصوت، وفلان أندىٰ صوتا من فلان أي أبعد مذهباً وأرفع صوتاً.

لسان العرب ٦/ ٤٣٦١، ٤٣٨٨؛ مادة (ندىٰ).

(٣) حديث محاجة موسىٰ لآدم أخرجه البخاري في القدر، (١١/ ٥٠٥)، ح(٦٦١٤). ومسلم في القدر، (٤/ ٢٠٤٤)، ح(٢٦٥٢).

(٤) حديث الشفاعة، أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٣٩٥) ح(٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان، (١/ ١٨٠)، ح(١٩٣).

(٥) قوله: قال، أي في حديث الإسراء.

تعالىٰ »[١]، ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنىٰ ، ولا كان يسمىٰ «كليم [١٣/ ب] الرحمن » ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٥١] ، ففرق[٢] بين تكليم الوحي ، والتكليم بإرسال الرسول، وتكليمه من وراء حجاب.

* * *

(١) حديث الإسراء والمعراج أخرجه البخاري في التوحيد ، (١٣/ ٤٧٨) ، ح(٧٥١٧) ، وفيه : «موسىٰ في السابعة بفضل كلامه لله». قال ابن حجر في الفتح : في رواية أبي ذر عن الكشميهني «بتفضيل كلام الله » ، وهي رواية الأكثر ، وهي مراد الترجمة والمطابق لقوله تعالىٰ ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الفتح (١٣/ ٤٨٢) ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، (١/ ١٤٥) ، ح(١٦٢).

(٢) في الأصل ، ش «فرق ».

فصل

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص[1] بالأنبياء عليهم السلام

المرتبة الثانية

قال[2] تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ الآية [الشورىٰ: ٥١]، فجعل[3] الوحي في هذه الآية قِسْماً من أقسام التكليم، وجعله في آية النساء قسيما للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص؛ الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام؛ الذي هو إيصال المعنىٰ بطرق متعددة.

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي[4]، ويقال: في فعله: وحىٰ، وأوحىٰ. قال رؤبة:

وحىٰ لها القرار فاستقرت[5]

---

(١) في ش، ب «المختصة».

(٢) في ق، ح١، أ، د، غ، ح٢، م زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في أ زيادة «هذا».

(٤) قال ابن منظور: قال أبو إسحاق: وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء، ولذلك جاء الإلهام وحيا. لسان العرب ٦/ ٤٧٨٨، وانظر: التعريفات للجرجاني ٥٩.

(٥) ذكر هذا البيت ابن منظور في لسان العرب ٦/ ٤٦٨٧ وتكملته:

وشدها بالراسيات الثُّبَّت

والبيت لرؤبة بن العجاج، وهو رؤبة بن عبد الله بن رؤبة التميمي، يكنىٰ أبا الجحَّاف، راجز

وهو أقسام، كما سنذكره؛ إن شاء الله تعالىٰ.

فصـل

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلىٰ الرسول البشري

المرتبة الثالثة

فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاثة خاصة بالأنبياء - عليهم السلام -، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلا يراه عياناً ويخاطبه، وقد يراه علىٰ صورته التي خلق عليها، وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه أي يقصم[1][2].

من الفصحاء المشهورين، أخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره، ويقولون بإمامته في اللغة، توفي سنة ١٤٥هـ.

انظر: طبقات فحول الشعراء ٢/ ٧٣٨، ٧٦١، البداية والنهاية ١٠/ ٩٨، الأعلام ٣/ ٣٤.

(١) في ح١، ق «يقلع»، وفي د، أ، غ، ح٢، ب، م، وليس شيء من ذلك في ش.

(٢) وهذا هو معنىٰ قوله: ثم يفصم عنه أي يقلع عنه، قال ابن الأثير: وفي الحديث «فيفصم عني وقد وعيت» يعني الوحي أي يقلع، وأفصم المطر إذا أقلع وانكشف. وقد أفاد قبل ذلك أن معنىٰ القصم قريب من معنىٰ الفصم، وفرق بينهما عند كلامه علىٰ القصم، فقال: القصم كسر الشيء وإبانته، وبالفاء كسره من غير إبانة.

قال ابن حجر: قوله: «فيفصم» بفتح أوله وسكون الفاء وكسر المهملة أن يقلع، ويتجلىٰ ما يغشاني ... وأصل الفصم القطع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾، وقيل الفصم بالفاء القطع بلا إبانة، وبالقاف، القطع بإبانة، فذكر بالفصم إشارة إلىٰ أن الملك فارقه ليعود، والجامع بينهما بقاء العلقة.

انظر: النهاية ٣/ ٤٥٢، ٤/ ٧٤، لسان العرب ٥/ ٣٤٢٤، فتح الباري ١/ ٢٠-٢١.

والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ(١).

---

(١) قد دل علىٰ هذه الأنواع الثلاثة الأدلة من الكتاب والسنة :

فمن أدلة النوع الأول : حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرىٰ عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه ، ووضع كفيه علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ... » فذكر الحديث ، وفي آخره قال : «**يا عمر أتدري من السائل ؟** » ، قلت : الله ورسوله أعلم. قال : «**فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم** ».

أخرجه مسلم في الإيمان ، ح(٨) ، (١/ ٣٦).

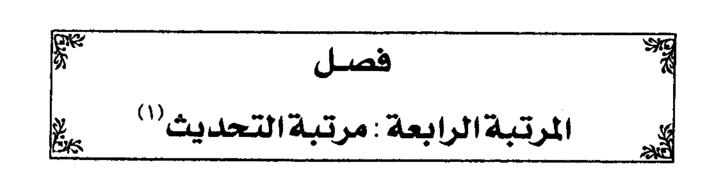
وقد دل علىٰ النوع الثاني قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النجم : (١٣ ، ١٤) ، وحديث عائشة أن النبي ﷺ قال : «**إنما هو جبريل لم أره علىٰ صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلىٰ الأرض** ».

أخرجه مسلم في الإيمان ، (١/ ١٥٩) ، حديث (١٧٧).

ودل علىٰ النوع الثالث حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ ، فقال رسول الله ﷺ : «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول** ».

أخرجه البخاري في بدء الوحي ، ح(٢) ، (١/ ١٨) ، ومسلم في الفضائل ، ح(٢٣٣٣) ، (٤/ ١٨١٦).

وقد ذكر مراتب الوحي هذه وغيرها ابن القيم في كتابه زاد المعاد (١/ ٧٨).



فصل

المرتبة الرابعة : مرتبة التحديث[1]

المرتبة الرابعة

وهذه دون مرتبة الوحي الخاص ، فتكون للصدّيقين[2] ، كما كانت لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، كما قال النبي ﷺ : «إنه قد[3] كان في الأمم قبلكم **مُحَدَّثون ، فإن يكن في هذه الأمة أحد فعمر بن الخطاب**»[4] ـ رضي الله عنه ـ.

وسمعت [١٤/ أ] شيخ الإسلام[5] ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يقول : جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ «إن» الشرطية مع أنها أفضل الأمم ، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال[6]

---

(١) في ش «المحدث».

(٢) في ق ، ح١ ، غ ، د ، أ «وتكون دون مرتبة الصديقين».

(٣) «قد» ساقطة من ح١ ، غ ، ح٢ ، م ، ق.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ٤٢) ، ح(٣٦٨٩) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٦٤) ، ح(٢٣٩٨) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ.
وفيه قال ابن وهب : تفسير مُحَدَّثون ملهمون .
قال ابن الأثير : جاء في الحديث تفسيره أنهم المُلهمون ، والمُلهم هو الذي يُلقَىٰ في نفسه الشيء ، فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفىٰ مثل عمر ، كأنهم حُدِّثوا بشيء فقالوه. النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٥٠ .
وانظر في تفسير هذه الكلمة أيضاً فتح الباري ٧/ ٥٠ ، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٨٥.

(٥) في أ ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د ، ق ، م زيادة «تقي الدين».

(٦) في ش ، ب «الكمال».

نبوة[1] نبيّها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة[2] بعده إلىٰ محدَّث ولا مُلهَم ، ولا صاحب كشف[3] ، ولا إلىٰ منام ، فهذا التعليق لكمال[4] الأمة ، واستغنائها لا لنقصها[5].

والمُحدَّث : هو الذي يُحدَّث في سره وقلبه بالشيء ، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا ـ رضي الله عنه ـ : والصدِّيق كان[6] أكمل من المُحدَّث ؛ لأنه استغنىٰ بكمال صدِّيقيّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سلّم قلبه[7] وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ ، فاستغنىٰ به عما منه[8].

قال : وكان هذا المحدَّث يعرض ما يحدَّث به علىٰ ما جاء به الرسول ، فإن وافقه قبله ، وإلا رده. فعُلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

---

(١) «نبوة» ساقطة من غ.

(٢) «الأمة» ساقطة من ش.

(٣) الكشف في اصطلاح الصوفية : هو الاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجودا وشهودا. انظر : التعريفات ٢٣٧ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ١٩ ، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٢٠٧.

(٤) في أ زيادة «هذه».

(٥) انظر كلام شيخ الإسلام في الصفدية ١/ ٢٥٩ ، شرح الأصفهانية ١٢٣.

(٦) «كان» ساقطة من أ ، د ، ق ، ح١ ، غ ، م.

(٧) في ح١ ، أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، ق زيادة «كله».

(٨) قوله : «فاستغنىٰ به» أي بالرسول ، «عما منه» أي عما من قبل نفسه ، وهو التحديث والإلهام.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: «حدثني قلبي عن ربي» ، فصحيح أن قلبه حدثه لكن[1] عمّن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال : «حدثني قلبي عن ربي» كان مسنداً للحديث إلىٰ من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب.

قال : و محدَّث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوَّه به يوماً من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ؛ بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرىٰ اللهُ تعالىٰ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب» ، فقال : «لا ، أمحه ، واكتب : هذا ما رأىٰ عمر ابن الخطاب ؛ فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه بريء»[2].

وقال في الكلالة : «أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»[3] [١٤/ ب] ، فهذا قول المحدث بشهادة الرسول

---

(١) «لكن» ساقطة من ح١ ، غ ، أ ، ب.

(٢) هذا الأثر عن عمر ، أخرجه البيهقي في السنن (١٠/ ١١٦) عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب ... ثم ذكره.

(٣) أخرج الدارمي عن الشعبي قال : سئل أبو بكر عن الكلالة ، فقال : إني سأقول فيها برأيي ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد ، فلما استخلف عمر قال : إني لأستحيي الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر ». سنن الدارمي (٢/ ٣٦٥-٣٦٦). وأخرج نحوه البيهقي في السنن الكبرىٰ عن أبي بكر (٦/ ٢٢٣). ولم أجد هذا الأثر عن عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

ﷺ ، وأنت ترىٰ الاتحادي[1] والحلولي والمباحي[2] والشطّاح[3] ، والسماعي[4] مجاهراً[5] بالقحة والفرية ، ويقول : «حدثني قلبي عن ربي ».

فانظر إلىٰ ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين ؛ وأعْطِ كلَّ ذي حق حقّه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحداً[6].

---

(١) **الاتحادي** : هو القائل باتحاد الخالق بالمخلوق ، وقد تقدم بيان معنىٰ الاتحاد ، ومذهب الاتحادية ، ص٢٣١.

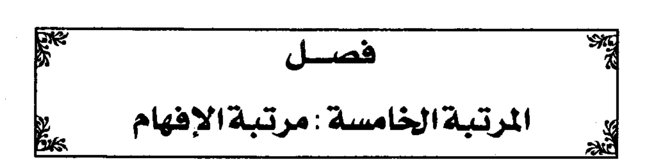
(٢) والمباحي هو الذي يقول بإباحة كل شيء ، مشتق من الإباحة ، وهي الإذن بإتيان الفعل كيف شاء الفاعل ؛ والمباحية : قوم من الصوفية يدعون محبة الله ، وليس لهم نصيب من الحقائق ؛ بل يخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنه التكليف. انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٧٤ ، التعريفات ٢٠.

(٣) **الشطاح** نسبة إلىٰ الشطح ، والشطح عبارة عما يصدر عن بعض من ينتسب إلىٰ التصوف من كلام غير متزن مشتملا علىٰ دعوىٰ باطلة ، وذلك في وقت غلبة الحال والسكر عليهم ، وذلك كقول أبي يزيد البسطامي : سبحاني ما أعظم شأني. انظر : التعريفات ١٦٧ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٤٦٦ ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ١٤٠.

(٤) **السماعي** نسبة إلىٰ السماع ، والمراد به السماع الصوفي ، وهو الاستماع إلىٰ الأصوات والأنغام والألحان المستحسنة ، وجعلوا لذلك أثراً علىٰ الروح والقلب والبدن. انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ١٧٨ ، إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥١-٢٧٠ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٣٨١-٣٨٢ ، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٦٤٤.

(٥) في ش « يجاهر ».

(٦) انظر هذه الأقوال التي نقلها ابن القيم عن شيخ الإسلام ، وما في معناها الكتب التالية : كتاب الصفدية ١/ ٣٥٢-٣٦٠ ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ٨٠-٨٧ ، شرح العقيدة الإصفهانية ١٢١-١٢٣ ، الرد علىٰ المنطقيين ٥١٣-٥١٤ ، درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٨ ، ٣٤٩-٣٥٧ ، بغية المرتاد ٣٨٤-٣٨٨ ، النبوات ٢/ ٦٩١-٦٩٣.



فصل

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام

المرتبة الخامسة

قال[1] تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩]، فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنىٰ عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟. فقال: «لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو[2] الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[3].

وفي كتاب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأبي موسىٰ الأشعري[4]:

---

(١) في ح١، أ، د، غ، ح٢، م، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٢) سقط من د قوله: «وهو».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، ح(٣٠٤٧)، (٦/ ١٦٧)، وفي الديات، ح(٦٩١٥)، (١٢/ ٢٦٠)، والترمذي في الديات، (٤/ ٢٤)، والنسائي في القسامة، (٨/ ٢٣)، وابن ماجه في الديات، (٢/ ٨٨٧)، وأحمد (١/ ٧٩).

(٤) عبد الله بن قيس بن سليم، الإمام الكبير صاحب رسول الله ﷺ الفقيه المقرئ، معدود فيمن قرأ علىٰ النبي ﷺ، أقرأ أهل البصرة وأفقههم في دين الله، دعا له النبي ﷺ واستعمله هو

«والفهم الفهم فيما أدلي إليك»[١].

فالفهم نعمة من الله علىٰ عبده، ونور يقذفه[٢] في قلبه، يدرك به ما لا يدركه غيره[٣]، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الوراثة[٤] النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتىٰ عُدَّ ألفٌ بواحد، فانظر إلىٰ فهم[٥] ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقد سأله عمر ولمن[٦] حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، وما خُصَّ به ابن عباس من فهمه منها[٧] نعي

ومعاذ علىٰ زبيد وعدن، وولي إمرة الكوفة لعمر وإمرة البصرة، أسلم بمكة وهاجر إلىٰ الحبشة، وأول مشاهده خيبر، مات بالكوفة سنة ٤٤هـ علىٰ الصحيح.

انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٠، طبقات ابن سعد ٤/ ١٠٥، التاريخ الكبير ٥/ ٢٢.

(١) كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسىٰ الأشعري، أخرجه الدارقطني بطوله في سننه (٤/ ٢٠٦)، وأخرجه البيهقي مختصرا في السنن الكبرىٰ، (١٠/ ١١٥، ١١٩).

(٢) في ح١، ح٢، م، ب، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في ق، غ، ح٢، ب، م، أ، د، ح٢ العبارة كالتالي: «يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه».

(٤) في ح١، أ، د، ب، ق، غ «الولاية».

(٥) «فهم» ساقطة من أ.

(٦) في م، ح٢، ب «ومن».

(٧) في ب «بها».

الله سبحانه[١٥/ أ] نبيَّه إلىٰ نفسه ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له علىٰ ذلك ، وخفاؤه علىٰ[١] غيرهما من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا[٢]. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص[٣] ؟ ويدق هذا حتىٰ يصل إلىٰ مراتب يتقاصر[٤] عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلىٰ غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه ؛ وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلىٰ غيرها.

* * *

---

(١) في ب ، م «عن».

(٢) قصة عمر مع أشياخ بدر وابن عباس ، أخرجها البخاري في التفسير ، (٨/ ٧٣٤) ، ح(٤٩٧٠) ، والإمام أحمد (١/ ٣٣٧-٣٣٨) ، وانظر : تفسير الطبري ، (٣٠/ ٣٣٣).

(٣) في ق «الخارق».

(٤) في أ ، م ، ب ، غ ، ح٢ ، ق «تتقاصر».

المرتبة السادسة

فصل
المرتبة السادسة(١) مرتبة البيان العام

وهو تبيين الحق وتمييزه من(٢) الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله علىٰ خلقه، التي لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال(٣) تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بيَّن لهم، فلم يقبلوا ما بيَّنه(٤) [لهم](٥)، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدىٰ، وما أضل الله سبحانه أحداً(٦) قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سرَّ القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله(٧)

---

(١) سقط من ح١ قوله: «المرتبة السادسة».

(٢) في ب «عن».

(٣) في ح١، ح٢، م، غ، ب، أ، د، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٤) في ق «بين».

(٥) زيادة من ح١، أ، د، غ، ح٢، م، ب، ق.

(٦) سقط من م قوله: «سبحانه أحداً» وفي ش «أحدا سبحانه».

(٧) سقط من ح١، أ، ب قوله: «وقوله».

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء : ١٥٥] ، فالأول : كفر عناد ، والثاني : كفر طبع ، وقوله : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام : ١١٠] ، فعاقبهم علىٰ ترك الإيمان به حين تبينوه[١] وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، فإنه موضع عظيم. وقال تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧] ، فهذا هدىٰ[٢] البيان والدلالة ؛ [١٥/ ب] وهو شرط لا موجب ، فإنه إن لم يقترن به هدىٰ آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هدىٰ التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات علىٰ توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ؛ ولهذا يدعو الله[٣] عباده بآياته المتلوة إلىٰ التفكر في آياته المشهودة ، ويحضهم علىٰ التفكر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل ، وجُعِل إليهم وإلىٰ العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء[٤] ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ

---

(١) في ح١ ، أ ، م «تيقنوه».

(٢) في ح١ ، أ ، م ، ب ، ق زيادة «بعد».

(٣) لفظ الجلالة ساقط من ح١ ، أ ، غ ، ق.

(٤) سقط من ح١ ، غ ، أ ، ق ، د قوله : «ويهدي من يشاء».

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1] [إبراهيم : ٤] ، فالرسل تبين ، والله هو الذي يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

فصل

المرتبة السابعة : البيان الخاص

المرتبة السابعة

وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان ومواردها عن القلب ، فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال[2] تعالى في هذه المرتبة : ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل : ٣٧] ، وقال : ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، فالبيان الأول شرط ، وهذا موجب.

فصل

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع

المرتبة الثامنة

قال[3] تعالى : ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال : ٢٣] ، و[4] قال تعالى : ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي

(١) الآية مكررة في أ.

(٢) في أ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في أ ، د ، ح٢ ، م ، ب ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٤) في ح١ ، أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، ق زيادة «قد».

ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٣]، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ؛ فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم؛ لكن ذاك [١٦/ أ] إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ ومعنىٰ، وله نسبة إلىٰ الأذن والقلب، وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإن[١] الله سبحانه نفىٰ عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣]، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب[٢] منه، فلا يحصل مع لهو القلب، وغفلته وإعراضه؛ بل يخرج السامعُ قائلا للحاضر معه: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام، أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه، ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر، وهي أنها تتعلق بالمعنىٰ المراد، ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها علىٰ إيصال[٣] المقصود بالخطاب

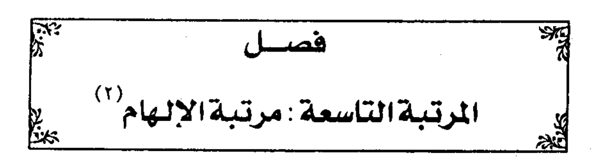
---

(١) في ح١، م، د، أ، غ، ح٢، ق «فإنه سبحانه»، وفي ش «وإنه سبحانه»، و«إن» ساقطة من ب.

(٢) في الأصل «والمطلوبة»، وفي م «المطلوب».

(٣) في ب «اتصال».

إلىٰ القلب ، وترتب[1] علىٰ هذا السماع سماع القبول ؛ فهو إذن ثلاث مراتب : سماع الأذن ، وسماع القلب ، وسماع القبول والإجابة.



فصل

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام[2]

المرتبة التاسعة

قال[3] تعالىٰ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧ - ٨] ، وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر الخزاعي[4] لما أسلم[5] : «قل : اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي »[6].

---

(١) في ح١ ، م ، ب ، ق «يترتب ».

(٢) الإلهام : هو أن يلقي الله في النفس أمرا يبعثه علىٰ الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحي يخص به الله من يشاء من عباده ، ويكون من غير استدلال تام ، ولا نظر في حجة شرعية ، وهو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفية. انظر : النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤/ ٢٨٢ ، التعريفات ٥١ ، الكليات للكفوي ١٧٣ كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٩٣.

(٣) في د ، أ ، ح٢ ، غ ، م ، ب ، ق زيادة اسم الجلالة «الله ».

(٤) هو حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي ، والد عمران بن حصين ، اختلف في إسلامه ، والصحيح أنه أسلم كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن ربعي بن عمران أن حصينا أتىٰ النبي ﷺ قبل أن يسلم ، وفيه : ثم إن حصينا أسلم ؛ ذكر ذلك ابن حجر في الإصابة. انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/ ٢٥ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٥٧ ، التاريخ الكبير ٣/ ١.

(٥) في م زيادة «قال ».

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات ، باب (٧٠) ، (٥/ ٥١٩) عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ لأبي : يا حصين ، كم تعبد اليوم ... ؛ وذكر فيه «اللهم ألهمني رشدي وأعذني

وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدَّثين. قال: «**وَهُوَ فَوقَ**[1] **الفِرَاسَةِ؛ لأَنَّ الفِرَاسَةَ رُبَّما وَقَعَت نَادِرَةً، واَستَصعَبت علىٰ صَاحِبِهَا وَقتاً، أَو استَعصَتْ عَلَيهِ، وَالإِلهامُ لاَ يَكُونُ إلاَّ في مَقَامٍ عَتِيدٍ**»[2].

قلت: التحديث أخص من [١٦/ ب] الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان، وأما[3] التحديث، فالنبي ﷺ قال فيه: «**إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر**[4]»، يعني من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلىٰ غير الأنبياء - عليهم السلام - إما من المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى[5] وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١]، وإما من غير المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام.

من شر نفسي» قال الترمذي: هذا حديث غريب. والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٣٤)، والأصفهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ١١١)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٢٥).

(١) في ح١، أ، د، غ، ح٢، م، ب، ق زيادة «مقام».

(٢) منازل السائرين للهروي ص ٨٢.

(٣) في غ «فأما».

(٤) في م زيادة «بن الخطاب»، وقد تقدم تخريج الحديث، ص٢٥٣.

(٥) في أ «بربكم».

وأما جعله فوق مقام الفراسة[1] فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم ، والنادر لا حكم له ، وربما استصعبت[2] علىٰ صاحبها ، واستعصت[3] عليه ، فلم تطاوعه. والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد ، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا أن كل واحد من الفراسة والإلهام ينقسم إلىٰ عام وخاص[4] ، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد منهما قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً ؛ ولكن الفرق الصحيح أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فموهبة مجردة ، لا تنال بكسب البتة.

فصل

درجات الإلهام

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ : الدَّرجَةُ الأُوْلَىٰ : نَبأٌ يَقَعُ وَحياً قَاطِعاً مَقرُوناً[5] بِسَمَاعٍ ، أَو مُطلَقاً**»[6] النبأ : الخبر الذي له شأن ، فليس كل خبر نبأ ،

---

(١) **الفراسة** : لغة اسم من التفرس ، وهو التثبت والنظر ، ويقصد بها الاستدلال بالأمور الظاهرة علىٰ الأمور الخفية ، وفي اصطلاح أهل التصوف : هي مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب ، وهي من مقامات الإيمان. انظر : الرسالة القشيرية ٢٣١ ، التعريفات ٢١٢ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٤٣٤ ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ٢٠٤.

(٢) في ح١ ، د ، غ ، م ، ح٢ ، ق «استعصت».

(٣) في ح١ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ق «استصعبت».

(٤) في أ «خاص وعام».

(٥) في أ «مقترنا».

(٦) في ق ، أ ، ب ، غ ، م ، ح٢ ، د ، ح١ «إذ يطلق» ، والصحيح المثبت ؛ لأنه الأنسب لسياق الكلام ، ولأنه الموافق لما في منازل السائرين للهروي. انظر : ص ٨٢.

وهو[١] خبر عن غيب معظم.

ويريد بالوحي والإلهام[٢] : الإعلام الذي يقطع من وصل إليه بموجبه ، إما بواسطة سمع ، أو[٣] بلا واسطة.

أنواع الخطاب المسموع

قلت : أما حصوله بواسطة سمع ، فليس ذلك إلهاما ؛ بل من قبيل الخطاب ، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء - عليهم السلام - ، وهو الذي خص به موسىٰ عليه [١٧/ أ] السلام إذا كان المُخَاطِب هو الحقَّ - عز وجل - .

وأما ما يقع [لكثير][٤] من أرباب الرياضات من سماع الخطاب[٥] ، فهو من أحد وجوه ثلاثة ، لا رابعة لها. أحدها[٦] : أن يخاطبه الملك خطابا جزئياً ، فإن هذا يقع لغير الأنبياء ، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام[٧]،

---

(١) في ح١ ، أ زيادة «نبأ».

(٢) «إلهام» ساقطة من ش ، وهو الأولىٰ ، لأن المؤلف يتكلم علىٰ تفسير كلمة (وحياً) في تعريف الهروي للدرجة الأولىٰ من درجات الإلهام.

(٣) في ب ، م ، ح١ ، ح٢ ، أ ، غ زيادة «هو الإعلام» ؛ وفي د زيادة «هو».

(٤) هكذا في أ ، د ، ب ، م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، ق ؛ وفي الأصل وش ، ح١ «للبشر».

(٥) ساقطة من ح١ ، أ ، غ .

(٦) في ح١ ، أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، ق ، ش «أعلاها».

(٧) أبو نجيد عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي القدوة الإمام صاحب رسول الله ﷺ، أسلم سنة ٧هـ ، ولي قضاء البصرة ، بعثه عمر إلىٰ أهل البصرة ليفقههم ، غزا مع النبي ﷺ غير مرة ، وكان ممن اعتزل الفتنة ، وتوفي - رضي الله عنه - سنة ٥٢هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٠٨ ، طبقات ابن سعد ٤/ ٢٨٧ ، أسد الغابة ٤/ ١٣٧ .

فلما اكتوىٰ تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه[1]، وهذا[2] خطاب ملكي، وهو نوعان؛ أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلىٰ عموم المؤمنين. والثاني: خطاب يلقىٰ في قلبه يخاطب به الملَكُ روحَه، كما في الحديث المشهور «**إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد**»[3]،

---

(١) حديث سلام الملائكة علىٰ عمران بن حصين أخرجه مسلم (٢/ ٨٩٩)، حديث: (١٢٢٦)، عن مطرف قال: قال لي عمران بن حصين: أحدثك حديثا عسىٰ الله أن ينفعك به: إن رسول الله ﷺ جمع بين حجة وعمرة، ثم لم ينه عنه حتىٰ مات، ولم ينزل فيه قرآن يحرمه، وقد كان يسلِّم علي حتىٰ اكتويت، فتركت، ثم تركت الكي فعاد. وأخرجه أحمد (٤/ ٤٢٧).

(٢) «وهذا» ساقطة من د، أ، ح١، د، غ.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، (٥/ ٢١٩)، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرىٰ فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾**، قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص.

وأخرجه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١٧١)، والطبري في تفسيره (٣/ ٨٨)، قال الألباني رحمه الله: وسند الحديث عندي ضعيف؛ لأن فيه عطاء بن السائب، وكان قد اختلط.

انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٢٨)، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٨٥)، ح(١٩٦١).

قال محقق جامع الأصول: وفي سنده عطاء بن السائب، وقد رمي بالاختلاط في آخر عمره، فمن سمع منه قديما فحديثه صحيح، وقد استظهر الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ من مجموع كلام أئمة الجرح والتعديل أن اختلاطه كان حين قدم البصرة، وعطاء كوفي،

ثم قرأ قوله[١]: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، قيل في[٢] تفسيرها: قوّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال[٣]. والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب واعظ الله في قلوب عباده المؤمنين، كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان[٤] عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالىٰ ضرب مثلا صراطاً مستقيماً، وعلىٰ كنفي الصراط سوران لهما أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم[٥] الإسلام، والسوران حدود الله،**

والراوي عنه في هذا الحديث أبو الأحوص كوفي أيضا، فالظاهر أنه سمع منه قبل الاختلاط. جامع الأصول (٢/ ٥٨).

(١) ساقطة من ح١، أ، د، غ، م، ب، ق.

(٢) «في» ساقطة من أ، د، غ، ق.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٩٧، تفسير البغوي ٢/ ٢٣٤، تفسير القرطبي ٧/ ٣٣٢.

(٤) هو النواس بن سمعان بن خالد العامري الكلابي، له ولأبيه صحبة، حديثه في مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، روىٰ عن النبي ﷺ، وعنه أبو إدريس الخولاني، وجبير بن نفير الحضرمي. انظر: التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ١٢٦، الجرح والتعديل ٨/ ٥٠٧، الإصابة ١٠/ ١٩٢، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٨٠.

(٥) في غ زيادة «هو».

والأبواب المفتحة محارم الله ، فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتىٰ يكشف الستر ، والداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله تعالى[1] ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل[2] مؤمن »[3]. هذا أو معناه[4] ، فهذا الواعظ في قلوب [١٧/ ب] المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة فمما لم يتبين بعد ، والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف علىٰ الدليل ؛ والله أعلم.

* * *

(١) ساقطة من ح١ ، أ ، د ، ح٢ ، غ ، م ، ق.

(٢) في ق «كل قلب».

(٣) أخرجه بألفاظ مقاربة الإمام أحمد (٤/ ١٨٢ ، ١٨٣) ، والترمذي في الأمثال ، (٥/ ١٤٤) ، وقال : هذا حديث غريب ، وابن أبي عاصم في السنة ، ح(١٨ ، ١٩) (١/ ١٤) ، والرامهرمزي في كتاب أمثال الحديث ، ص ١٣-١٤ ، والآجري في الشريعة (١/ ٢٩٤) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٣) ، وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وقال الألباني : وهو كما قالا. انظر : السنة (١/ ١٤).

(٤) سقط من ح١ ، أ ، د ، غ ، ق : «هذا أو معناه».

فصل

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان، فقد يكون المخاطب جنياً مؤمناً صالحاً، وقد يكون شيطاناً مغوياً، وهذا أيضا نوعان:

أحدهما: أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقي في قلبه عندما يلم به، ومنه وعده وأمنيته حين يعد الإنسي ويمنيه، ويأمره وينهاه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ[1]﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ[2]﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وللقلب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن أيضا منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل، ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي؟، بأي برهان وبأي دليل؟، والشيطان يقذف في النفس وحيه، ويلقي في السمع خطابه، فيقول المغرور المخدوع: «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك، والمُخَاطِب، وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لغيلان بن سلمة[3] - وهو من الصحابة - لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه: «إني

---

(١) في د، م، أ، غ، ح٢، ب، ق تكملة الآية «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً».

(٢) في أ زيادة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾.

(٣) غيلان بن سلمة الثقفي، أسلم بعد فتح الطائف، وكان أحد وجوه ثقيف، روىٰ عنه ابن عباس شيئاً من شعره، قدم علىٰ كسرىٰ، مات غيلان في آخر خلافة عمر - رضي الله عنه -.

انظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٥٠٥، أسد الغابة ٤/ ١٧٢، الإصابة ٨/ ٦٣.

لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع ، سَمِع بموتك ، فقذفه في نفسك »[1].

فمن يأمن القراء بعدك يا شهرُ ؟[2].

فصل

النوع الثالث : خطاب حالي[3] ، تكون بدايته من النفس ، وعوده إليها ، فيتوهم أنه من[4] خارج ، وإنما هو من نفسه ، منها بدا وإليها يعود. وهذا كثيراً[5] ما يعرض للسالك ، فيغلط فيه ، ويعتقد أنه خطاب من الله عز وجل ، كلمه به منه إليه، وسبب غلطه أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت من[6] الرياضة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٤) ، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧/ ٦٦) ، ح(١٢٢١٦) ، بلفظ : والله إني لأرىٰ الشيطان فيما يسرق من السمع سمع بموتك فألقاه في نفسك. وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر : الإحسان (٦/ ١٨١) ، وأبو يعلىٰ في مسنده (٩/ ٣٢٥) ، قال ابن حجر في كلامه علىٰ حديث غيلان : وقد كشف مسلم في كتاب التمييز عن علته وبينها بيانا شافيا ، فقال : إنه كان عند الزهري في قصة غيلان حديثان ، أحدهما مرفوع والآخر موقوف ، فأدرج معمر المرفوع علىٰ إسناد الموقوف ، قال ابن حجر : وقد أوردت طرق هذين الحديثين في كتابي الذي في معرفة المدرج. انظر : الإصابة (٨/ ٦٦).

(٢) هذا شطر بيت قيل في شهر بن حوشب التابعي المشهور ، كان من كبار علماء التابعين ، قيل : كان علىٰ بيت المال ، فأخذ خريطة فيها دراهم ، فقيل فيه :

لقد باع شهر دينه بخريطة … فمن يأمن القراء بعدك يا شهر

انظر : البيت والقصة في تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٨-٥٣٩ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٥.

(٣) في الأصل ، ش ، م ، ب ، ح٢ «خيالي».

(٤) في أ ، د ، ح٢ ، ق «فيتوهمه من». وفي ش «فيثق بأنه من».

(٥) في الأصل ، ش ، غ ، ق «كثيرا».

(٦) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، أ ، د ، غ ، ق «بـ».

وانقطعت[1] علقها من الشواغل الكثيفة ، صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح [١٨/ أ] والقلب علىٰ البدن ، ومصير[2] الحكم لهما ، فتنصرف[3] عناية النفس والقلب إلىٰ تجريد المعاني التي هي متصلة بهما ، وتشتد عناية الروح بها ، وتصير في محل تلك العلائق والشواغل ، فتملأ القلب ، فتنصرف[4] تلك المعاني إلىٰ النطق[5] والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة. ويتفق تجرد الروح ؛ فتتشكل تلك[6] المعاني للقوة السامعة تشكل[7] الأصوات المسموعة ، وللقوة الباصرة بشكل[8] الأشخاص المرئية ، فترىٰ[9] صورها ، وتسمع[10] الخطاب ، وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء ، ويحلف أنه رأىٰ وسمع وصدق ؛ لكن رأىٰ وسمع في الخارج ، أو في نفسه ؟. ويتفق ضعف التمييز ، وقلة العلم ، واستيلاء تلك المعاني علىٰ الروح ، وتجردها عن الشواغل.

---

(١) في ش «وانقلعت».

(٢) في ح٢ ، أ ، ب «ويصير».

(٣) في الأصل «فيصرف».

(٤) في ح١ ، غ ، ح٢ ، م ، د ، ق «فتصرف». وفي الأصل «فيصرف».

(٥) في ح١ ، غ ، ح٢ ، م ، د ، ق ، أ «المنطق».

(٦) في م «كل» بدل «تلك».

(٧) في ق ، د «بشكل».

(٨) في ب زيادة «تلك».

(٩) في ح١ ، غ ، م ، ح٢ ، ب «فيرىٰ».

(١٠) في ح١ ، غ ، م ، ح٢ ، ب «ويسمع».

فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب ، فلا يسمع[١] غيرها ، فإنما هو غرور وخدع وتلبيس ، وهذا الموضع مقطع القوم ، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه ، والله الموفق للصواب[٢].

فصل

الدرجة الثانية من درجات الإلهام

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : إِلْهَامٌ يَقَعُ عِيَاناً ، وَعَلاَمَةُ صِحَّتِهِ : أَنَّه لاَ يَخْرِقُ سِتراً ، وَلاَ يجُاوِزُ حَدّاً ، وَلاَ يُخْطِئُ أَبَداً**»[٣].

الفرق بين هذا وبين الإلهام في الدرجة الأولىٰ ، أن ذلك علم شبيه بالضروري الذي لا يمكن دفعه عن القلب ، وهذا معاينة ومكاشفة ، وهو[٤] فوقه في الدرجة ، وأتم منه ظهوراً ، ونسبته إلىٰ القلب نسبة المرئي إلىٰ العين ، وذكر له ثلاث علامات.

أحدها : «أنه لا يخرق ستراً»[٥] ؛ لأن[٦] صاحبه إذا كوشف بحال غيره المستور عنه لا يخرق ستره ويكشفه ، خيراً كان أو شراً ، وأنه[٧] لا يخرق ما

---

(١) في ح١ ، أ «ولا تسمع» ، وفي د ، ق ، ب ، ش «فلا تسمع» ، وفي غ «ولا يستمع» وفي م ، ح٢ «ولا يسمع».

(٢) سقط من د قوله : «والله الموفق للصواب».

(٣) منازل السائرين ٨٢.

(٤) في أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب «فهو».

(٥) «سترا» ساقطة من س.

(٦) في أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، ق ، ح٢ «أي».

(٧) هكذا في الأصل ، وفي باقي النسخ «أو أنه».

ستره الله تعالىٰ من نفسه عن الناس ؛ بل يستر نفسه ، ويستر من كوشف بحاله.

الثانية : «أنه لا يجاوز حدا» يحتمل وجهين.

أحدهما : أنه لا يتجاوز به إلىٰ ارتكاب المعاصي ، وتجاوز حدود الله تعالىٰ ؛ مثل كشف الكهان ، والكشف [١٨/ ب] الشيطاني[١].

الثاني : أنه لا يقع علىٰ خلاف الحدود الشرعية ، مثل أن يتجسس به العورات التي نهىٰ الله عن التجسس عليها وتتبعها. فإذا[٢] تتبعها[٣] ووقع عليها بهذا الكشف ، فهو شيطاني لا رحماني.

الثالثة : أنه لا يخطئ أبداً ، بخلاف الشيطاني ، فإن خطأه كثير[٤] ، كما قال النبي ﷺ لابن صائد[٥] : «**ما ترىٰ ؟**» ، قال : أرىٰ صادقاً وكاذباً. فقال : «**لبس عليك**»[٦]،

---

(١) انظر هذا المعنىٰ في شرح منازل السائرين للتلمساني ٢/ ٣٦٣.

(٢) في ق «و» بدل «فإذا».

(٣) في أ «تتبع».

(٤) انظر هذا المعنىٰ في شرح منازل السائرين للتلمساني ٢/ ٣٦٣.

(٥) في ح٢ ، غ «صياد».

(٦) حديث ابن صائد أخرجه البخاري في الجنائز ، ح(١٣٥٤) ، (٣/ ٢١٨) ، ومسلم في الفتن ، ح(٢٩٣٠) ، (٤/ ٢٢٤٤) ، كلهم بلفظ : «**ماذا ترىٰ**» ، قال : «**يأتيني صادق وكاذب**» فقال له رسول الله ﷺ : «**خلط عليك الأمر**». وأخرجه أبو داود في الملاحم ، (٤/ ٥٠٣) ، بلفظ : ثم قال له النبي ﷺ : «**ما يأتيك؟**» ، قال : يأتيني صادق وكاذب ، فقال له النبي ﷺ : «**خلط عليك الأمر**» ، وأخرجه الترمذي في الفتن ، (٤/ ٥١٧-٥١٩) ، حديث بلفظ أبي داود وآخر بلفظ «فما ترىٰ؟» ، قال : أرىٰ صادقا وكاذبين ، أو صادقين وكاذباً ، قال النبي ﷺ : «**لبس عليه**».

فالكشف الشيطاني لا بد أن يكذب ، ولا يستمر صدقه البتة[١].

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الإلهام

قال : «الدَّرَجةُ الثَّالِثَةُ : إِلْـهَامٌ[٢] يجْلُو[٣] عَيْنَ التَّحْقِيقِ صِرْفًا ، وَيَنْطِقُ عَنْ عَيْنِ الأَزَلِ مَحْضاً. وَالإِلْـهَامُ غَايَةٌ تَمْتَنِعُ الإِشَارَةُ إِلَيْهَا»[٤].

عين التحقيق عنده هي الفناء في شهود الحقيقة ، بحيث يضمحل كل ما سواها في ذلك الشهود ، وتعود[٥] الرسوم أعداماً[٦] محضة ، فالإلـهام في هذه الدرجة يجلو هذه[٧] العين للملـهم صرفاً ، بحيث لا يمازجها شيء من إدراك العقول ولا الحواس ، فإن كان هناك إدراك عقلي أو حسي لم يتمحض جلاء عين الحقيقة ، والناطق عن هذا الكشف عندهم لا يفهم عنه إلا من هو معه ومشارك لـه. وعند أرباب هـذا الكشف أن كل الخلق عنه في حجاب ، وعندهم أن العلم والعقل والحال حجب عليه ، وأن خطاب الخلق إنما يكون علىٰ لسان الحجاب ، وأنهم لا يفهمون لغة ما وراء[٨] الحجاب من المعنىٰ

---

(١) في د زيادة قولـه : «والله تعالىٰ أعلم».

(٢) «إلـهام» ساقطة من غ.

(٣) في غ «يخلو».

(٤) منازل السائرين ٨٣ ، وآخر العبارة عند الـهروي : «الإلهام غاية تمتنع عن الإشارة إليها».

(٥) في الأصل ، و ش «ونفود» ؛ وفي ق «ويعود».

(٦) في الأصل ، و ش «أعلاها» ، وفي ح٢ ، م «أعلاما».

(٧) في غ ، ح١ «هذا».

(٨) في م زيادة «هذا».

المحجوب. فلذلك تمتنع الإشارة إليه، والعبارة عنه، فإن[١] الإشارة والعبارة إنما يتعلقان بالمحسوس أو المعقول، وهذا أمر وراء الحس والعقل[٢].

وحاصل هذا الإلهام أنه إلهام ترتفع معه الوسائط كلها[٣] وتضمحل وتعدم؛ لكن في الشهود لا في الوجود. وأما الاتحادية القائلون بوحدة الوجود فإنهم يجعلون ذلك اضمحلالاً وعدما في الوجود؛ ويجعلون صاحب «المنازل» منهم، وهو بريء منهم[٤]، عقلاً وديناً وحالاً ومعرفة [١٩/ أ] [والله أعلم][٥].

* * *

---

(١) في ح١ «فالإشارة».

(٢) انظر: شرح منازل السائرين للتلمساني ٢/ ٣٦٤.

(٣) «كلها» ساقطة من ح١، أ.

(٤) هو الإمام الجليل، والحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن أحمد بن علي الأنصاري الهروي، كان يلقب بشيخ الإسلام، وكذلك بخطيب العجم لفصاحته، ولد في مدينة هراة من خراسان سنة ٣٩٦هـ، كان إماما عالماً زاهداً عابداً قوياً في نصرة الحق والرد علىٰ المبطلين، له من المؤلفات منازل السائرين، الأربعين في دلائل التوحيد، ذم الكلام وأهله، وغيرها، توفي سنة ٤٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٠٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٤، طبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٧.

(٥) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

فصل

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة

المرتبة العاشرة

وهي من أجزاء[1] النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[2].

وقد قيل في سبب هذا التخصيص بالعدد[3] المذكور: إن أول مبدأ[4] الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلىٰ وحي اليقظة مدة[5] ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلىٰ أن توفي - صلوات الله وسلامه عليه -. فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً، وهذا حسن، لولا ما جاء في الرواية الأخرىٰ الصحيحة: «**أنها جزء من سبعين جزءاً**»[6].

---

(١) في م «أجل» بدل «أجزاء».

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، (١٢/ ٣٧٣) ح(٦٩٨٩)، عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**».

وأخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الرؤيا، (٤/ ١٧٧٤) ح(٢٢٦٣)، بلفظ البخاري السابق، وأخرجا عن أبي هريرة بلفظ: «**إن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**».

(٣) سقط «بالعدد» من ح١، أ، د، غ، ق.

(٤) في غ، ح١، ح٢، د، م، أ، ق «مبتدأ».

(٥) في م «من» بدل «مدة».

(٦) هذه الرواية أخرجها مسلم في كتاب الرؤيا (٤/ ١٧٧٥) ح(٢٢٦٥) من حديث ابن عمر، وأخرجها ابن ماجه في تعبير الرؤيا، (٢/ ١٢٨٣)، والإمام أحمد (٢/ ١٨)، وعبد الرزاق في مصنفه من حديث ابن مسعود (١١/ ٢١٣).

وقد قيل في الجمع بينهما : أن ذلك بحسب حال الرائي ، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين ، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقين[1] من سبعين. والله أعلم[2].

والرؤيا مبدأ الوحي ، و[3] صدقها بحسب صدق الرائي ، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا ، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ ، كما قال النبي ﷺ[4] ، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها ، فيعوض[5] المؤمنون بالرؤيا ؛ وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، ولم تظهر عليهم ، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج من بعدهم إليها

---

(١) في د ، غ ، ح٢ ، م ، ق «الصادقة ».

(٢) تكلم ابن حجر ـ رحمه الله ـ ، في فتح الباري علىٰ الروايات الواردة في بيان أن الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة ، وحصر هذه الروايات المختلفة في بيان العدد ، وتكلم علىٰ ما ذكره المؤلف هنا من سبب هذا التخصيص بهذا العدد المعين ، وذكر اعتراض بعض أهل العلم علىٰ ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ. انظر : فتح الباري ١٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٨.

(٣) في ق « في » بدل « و ».

(٤) أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **«إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب »** ، زاد مسلم : **«وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً »**. أخرجه البخاري في التعبير ، (١٢/ ٤٠٤) ، ح(٧٠١٧) ، ومسلم في كتاب الرؤيا ، (٤/ ١٧٧٣) ، ح(٢٢٦٣). وأخرجه ابن ماجه مختصراً في تعبير الرؤيا (٢/ ١٢٨٥).

(٥) في ح١ ، غ ، ق «فتعوض ».

لضعف إيمانهم ، وقد نص أحمد ـ رضي الله عنه ـ[1] على هذا المعنى. قال[2] عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ[3] : «**رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام**»[4] ، وقد قال النبي ﷺ : «**لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات**» . قيل :

---

(١) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه ، إمام أهل السنة والجماعة ، أعز الله به السنة وقمع به البدعة ، أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي ، ولد سنة ١٦٤هـ ، وطلب العلم في صغره ، سمع خلقا كثيرا ، كان له معرفة بالسنة والحديث والرجال، توفي سنة ٢٤١هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧ ، طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، الجرح والتعديل ١/ ٢٩٢.

(٢) في أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ق «وقال».

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، شهد العقبة ، وكان أحد النقباء فيها ، وشهد بدرا وسائر المشاهد ، وحضر فتح مصر ، ومات بالرملة سنة ٣٤هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٥ ، التاريخ الكبير ٦/ ٩٢ ، الإصابة ٥/ ٣٢٢.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٣) ، ح(٤٨٦) ، عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : «**رؤيا المؤمن من كلام يكلم به العبد ربه تبارك وتعالى في المنام**» ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٤) ، وقال : رواه الطبراني ، وفيه من لم أعرفه. وأخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٧٢) ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ، وعزاه للطبري والضياء في المختارة. انظر : ضعيف الجامع الصغير للألباني (٣/ ١٧٧) ، قال ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣٥٤) : وذكر ابن القيم حديثا مرفوعا غير معزو «إن رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه في المنام» ووجد الحديث المذكور في نوادر الأصول للترمذي من حديث عبادة بن الصامت ، أخرجه في الأصل الثامن والسبعين ، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر ، وهو واه وفي سنده جنيد. انتهى. وضعف الحديث الألباني فقال في تخريج السنة : إسناده ضعيف ، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة بلفظ : «**هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن**

وما المبشرات ، يا رسول الله ؟[1]. قال : « **الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترىٰ** [١٩/ ب] **له** »[2]. وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب ، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا[3] ليلة القدر في العشر الأواخر[4] : «**أرىٰ رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر ، فمن كان متحريها[5] فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان** »[6].

لنفسه أو يرىٰ له ، وهو من كلام يكلم به ربك عبده في المنام » ، قال الألباني : إسناده صحيح إن كان ما في الأصل : حميد بن عبد الرحمن محفوظاً وهو حميد بن عبد الرحمن بن عوف ثقة من رجال الشيخين ، لكني في شك من ذلك لأمور ، ثم ذكرها. انظر : كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢١٣-٢١٤) ، حديث : (٤٨٧).

(١) في أ «قيل : يا رسول الله ، وما المبشرات ».

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ، (١٢/ ٣٧٥) ، ح(٦٩٩٠) ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لم يبق من النبوة إلا المبشرات** » ، قالوا : وما المبشرات؟ ، قال : «**الرؤيا الصالحة** ». وأخرجه مسلم في الصلاة ، (١/ ٣٤٨) ح(٤٧٩) ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «**أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترىٰ له ...** » .

(٣) في ق «رأوا ».

(٤) في غ ، ح٢ زيادة «قال ».

(٥) في ب «متحريا » وهو الموافق لما في البخاري ، والمثبت موافق لما في مسلم.

(٦) أخرجه البخاري في التهجد ، ح(١١٥٨) ، (٣/ ٤٠) ، وأخرجه مسلم في الصيام ، ح(١١٦٥) ، (٢/ ٨٢٢) ، عن ابن عمر بلفظ : «**أرىٰ رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر** ».

والرؤيا كالكشوف منها رحماني ومنها نفساني[١]، ومنها شيطاني، وقال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في المنام**»[٢].

والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل ـ عليه السلام ـ علىٰ ذبح إسماعيل بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم فتعرض علىٰ الوحي الصريح؛ فإن وافقته، وإلا لم يعمل بها، فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟.

قلنا: متىٰ كانت كذلك استحال[٣] مخالفتها[٤] للوحي؛ بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة علىٰ اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فينبه بالرؤيا علىٰ ذلك، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة علىٰ الأمر والنهي[٥]، ولينم علىٰ طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتىٰ تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

---

(١) سقط من ش قوله: «ومنها نفساني».

(٢) هو جزء من حديث أبي هريرة: «إذا اقترب الزمان» تقدم تخريجه ص٢٧٩.

(٣) في ب «استحالت».

(٤) هكذا في غ، ح٢، م، ب. وفي الأصل وباقي النسخ «مخالفتهما».

(٥) في غ النهي والأمر.

وأصدق الرؤيا رؤيا الأسحار[1] ، فإنه وقت للنزول[2] الإلهي ، [واقتراب الرحمة والمغفرة][3] ، وسكون الشياطين ، وعكسه رؤيا العتمة[4] ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية ، وقال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ : «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام»[5].

وللرؤيا ملك موكل بها ، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله [٢٠/ أ] فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك ـ رضي الله عنه ـ[6] : «الرؤيا من[7] الوحي[8]»،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٩) ، والترمذي في الرؤيا ، (٤/ ٥٣٤) ، والدارمي في الرؤيا ، (٢/ ١٢٥) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «أصدق الرؤيا بالأسحار».

(٢) في أ ، د ، ح٢ ، غ ، م ، ب «النزول».

(٣) زيادة من أ ، د ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، ق ، وهو ساقط من الأصل.

(٤) العتمة : هي ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق ، وقيل : هي وقت صلاة العشاء ، وقيل ظلمة الليل.

انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨٠ ، القاموس المحيط ٤/ ١٤٧ ، مختار الصحاح ٤١٢ ، مادة (عتم).

(٥) سبق تخريجه ص٢٨٠.

(٦) أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي المدني ، إمام دار الهجرة ، ولد على الأصح سنة ٩٣هـ ، نشأ في صون ورفاهية وتجمل ، روى عن خلق كثير منهم سعيد المقبري والزهري ، وعبد الله بن دينار ، من مصنفاته الموطأ ، توفي سنة ١٧٩هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٨ ، التاريخ الكبير ٧/ ٣١٠ ، الحلية ٦/ ٣١٦.

(٧) «من» ساقطة من ق.

(٨) في ح١ ، غ ، ب زيادة «وحي» ؛ وفي ق «وحي» بدل «الوحي».

وزجر عن تفسيرها بلا علم، وقال: «أيتلاعب[١] بوحي الله؟»[٢].

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود[٣].

فصل
في بيان اشتمال الفاتحة علىٰ الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان

اشتمال الفاتحة على شفاء القلوب

فأما اشتمالها علىٰ شفاء القلوب، فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها علىٰ أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما: الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما[٤] ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء علىٰ كل عبد، وأوجبه[٥] عليه كل يوم وليلة في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلىٰ الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

---

(١) في غ «تتلاعب».

(٢) بحثت عن هذا الأثر، فلم أجده.

(٣) في م، ح١، ب، د، أ، غ، ح٢، ق زيادة «والله أعلم».

(٤) في ش «كلاهما».

(٥) في غ «وواجبه».

والتحقق[١] بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» علما ومعرفة، وعملاً وحالاً، يتضمن الشفاء من مرض فساد القصد[٢]، فإن فساد القصد[٣] يتعلق بالغاية[٤] والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نَوْعَيْ قصده فاسداً. وهذا شأن كل من كان غاية طلبه[٥] غير الله وعبوديته، من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا[٦] جاء الحق معارضا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك[٧] حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلىٰ طريق أخرىٰ، وهم مستعدون لدفعه [٢٠/ ب] بحسب الإمكان؛ فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحقُّ ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق؛ بل لموافقته غرضهم وأهوائهم، وانتصارهم به ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم

---

(١) في الأصل، غ «التحقيق».

(٢) في ح١، ح٢، غ، أ، د، ب، ق «القلب والقصد».

(٣) في أ «القلب».

(٤) في ح١، ح٢، أ، غ، د، م، ق «بالغايات».

(٥) في ح١، أ، د، غ، ح٢، ق «مطلوبه».

(٦) في م «فإن».

(٧) سقط من أ قوله: «دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك».

مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم[١] ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت حصلوا علىٰ أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطّعت بهم الأسباب الوُصَل[٢] التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوىٰ من ذلك عند الرحيل منها، والقدوم علىٰ الله تعالىٰ، ومسك[٣] ظهوره، وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون، وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هنالك[٤] من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأعلىٰ؛ ولكن لم يتوسل إليه

---

(١) في غ «غايتهم».

(٢) في ب «الأسباب والوصل» وفي م، د، ق، ح١، ح٢، أ، غ «أسباب الوصل»؛ قال في لسان العرب: الوُصْلَة: الاتصال، والوُصْلة: ما اتصل بالشيء. قال الليث: كل شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصْلة، والجمع وُصَلٌ. ويقال: وصل فلان رحمه يصلها صلة، وبينهما وُصْلة، أي اتصال وذريعة. لسان العرب ٦/ ٤٨٥١، مادة (وصل).

(٣) هكذا في الأصل ش، و في النسخ الأخرىٰ «ويشتد».

(٤) «هنالك» ساقطة من ح١.

بالوسيلة الموصلة له[١] إليه ؛ بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضا كحال هذا ، فكلاهما فاسد القصد ، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء : «إياك نعبد وإياك نستعين ».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء : عبودية لله لا لغيره ، بأمره وشرعه ، لا بالهوىٰ ، و[لا][٢] بآراء الرجال ، وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم. واستعانة علىٰ عبوديته به ، لا بنفس العبد وقوته وحوله ، ولا بغيره.

فهذه[٣] أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فإذا ركبها الطبيب[٤] العالم بالمرض ، واستعملها [٢١/ أ] المريض ، حصل بها الشفاء التام ، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما تراميا به إلىٰ التلف ولا بد ، وهما الرياء ، والكبر. فدواء الرياء بـ «إياك نعبد » ، ودواء الكبر بـ «إياك نستعين ».

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : «إياك نعبد » تدفع الرياء ، «وإياك نستعين » تدفع الكبرياء[٥].

---

(١) «له » ساقطة من ب.

(٢) زيادة من ح١ ، أ ، د ، ح٢ ، غ ، م ، ب ، ق.

(٣) في ب ، د ، م ، أ ، ح١ ، ح٢ ، ق زيادة «هي ».

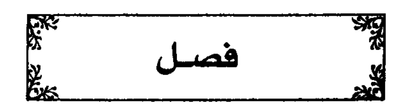
(٤) في ش ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، ب ، غ زيادة «اللطيف ».

(٥) في ب «الكبر ».

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ «إياك نعبد» ، ومن مرض الكبر والعجب بـ «إياك نستعين» ، ومن مرض الضلال والجهل بـ «اهدنا الصراط المستقيم» عوفِيَ من أمراضه وأسقامه ، ورفل في أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة ، وكان من المُنْعم عليهم «غير المغضوب عليهم» ، وهم أهل فساد القصد ، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ، والضالين وهم أهل فساد العلم ، الذين جهلوا الحق ، ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل علىٰ هذا الشفاء[1] أن يستشفىٰ بها من كل مرض ، ولهذا لما اشتملت علىٰ هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنىٰ بها أولىٰ ، كما سنبينه. فلا شيء أشفىٰ للقلوب التي عقلت عن الله تعالىٰ كلامه[2] ، وفهمت عنه فهما خاصا اختصها به ، من معاني هذه السورة.

وسنبين إن شاء الله تعالىٰ تضمنها للرد علىٰ جميع أهل البدع بأوضح البيان، وأحسن الطرق.



فصل

أدلة السنة على تضمن الفاتحة على شفاء الأبدان

وأما تضمنها لشفاء الأبدان فنذكر منه ما جاءت به السنة ، وما شهدت به قواعد الطب ، ودلت عليه التجربة.

---

(١) في ح١ ، د ، أ ، غ ، ح٢ ، م ، ب «هذين الشفاءين».

(٢) في ش ، د ، م ، غ ، ح١ ، ح٢ ، أ ، ق «وكلامه».

فأما ما دلّت عليه السنة : ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل[١] عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -[٢] : «أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من[٣] العرب ، فلم يقروهم ، ولم يضيفوهم ، فلُدِغ سيدُ الحي ، فأتوهم ، فقالوا: هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من راق؟ ، فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا ، فلا نفعل حتىٰ تجعلوا لنا جعلاً [٢١/ ب] فجعلوا لهم علىٰ ذلك قطيعا من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب ، فقام كأن لم يكن به قلبة[٤] ، فقلنا : لا تعجلوا حتىٰ نأتي النبي ﷺ ، فأتيناه ، فذكرنا له ذلك. فقال: «**وما يدريك أنّها رقية؟ ، كلوا ، واضربوا لي معكم بسهم**»[٥].

---

(١) هو أبو المتوكل الناجي ، علي بن داود من بني سامة بن لؤي ، روىٰ عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وابن عباس ، وروىٰ عنه قتادة ، وعلي بن زيد بن جدعان ، والمثنىٰ بن سعيد ، قال الذهبي : متفق علىٰ ثقته ، توفي سنة ٢٠٢هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٨ ، التاريخ الكبير ٦/ ٢٧٣ ، الجرح والتعديل ٦/ ١٨٤.

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة ، شهد الخندق ، وبيعة الرضوان ، كان أحد الفقهاء المجتهدين ، توفي سنة ٧٤هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٨ ، رجال صحيح مسلم ١/ ٢٣٢ ، أسد الغابة ٢/ ٢٨٩.

(٣) في ب زيادة «أحياء».

(٤) القلبة : الألم والعلة. انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٩٨ ، أساس البلاغة للزمخشري ٢/ ٢٦٩ ، مادة (قلب).

(٥) أخرجه البخاري في الطب ، (١٠/ ١٩٨ ، ٢٠٩) ، ح(٥٧٣٦ ، ٥٧٤٩) ، وأخرجه مسلم في السلام ، (٤/ ١٧٢٧) ، ح(٢٢٠١).

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه ؛ فأغنته عن الدواء ، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل ، إما لكون هؤلاء الحي[1] غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم ؛ فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فصل

قواعد الطب على تضمنها شفاء الأبدان

وأما شهادة[2] قواعد الطب بذلك : فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم ؛ وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية ، تثير[3] فيها سمية نارية ، يحصل بها اللدغ ، وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها ، فإذا تكيّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية[4] الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية ، تجد راحة ولذة في إلقائها إلىٰ المحل القابل ، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال[5] شره إلىٰ من يوصله به ، وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحداً من بني جنسه ، ويجد في نفسه تأذّياً بحمل تلك السمية والشر الذي فيه ، حتىٰ يفرغه في غيره. فيبرد عند ذلك أنينُه ، وتسكن نفسُه ، ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من

---

(١) في ح٢ «الحي هؤلاء».

(٢) في ش «شواهد».

(٣) في ش «تسري».

(٤) سقط من أ قوله : «بتلك الكيفية».

(٥) في ح٢ «إلقاء».

اشتدت شهوته إلىٰ الجماع ، فيسوء خلقه ، وتثقل نفسه حتىٰ يقضي وطره ، هذا في قوة الشهوة ، وذاك في قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالىٰ بحكمته السلطان وازعا لهذه النفوس الغضبية ؛ فلولا هو لفسدت الأرض ، وخرب العالم : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، وأباح[1] بلطفه ورحمته لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدّتَها.

والمقصود أن [٢٢/ أ] هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها ما يؤثر في المحل بِمجرد مقابلته له ، وإن لم يمسه ، فمنها ما يطمس[2] البصر ، ويسقط الحبل.

ومن هذا نظر العائن ، فإنه إذا وقع بصره علىٰ المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده ، وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب قوة تلك[3] النفس ، وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له ، فتتكيف نفسه وتقابله علىٰ البعد ، فيتأثر به ، ومنكر هذا ليس معدوداً من بني آدم إلا بالصورة والشكل ، فإذا قابلت النفس الزاكية العلوية الشريفة[4] التي

---

(١) في ح١ ، غ ، ح٢ ، م ، ب ، د ، أ ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٢) في الأصل «يلتمس» ، والمثبت من باقي النسخ الخطية.

(٣) «تلك» ساقطة من م ، ح٢.

(٤) «الشريفة» ساقطة من م.

فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله سبحانه وتعالى، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله و محقه، ولا على خير إلا نماه وزاده، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء، فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشيء بمثله، فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد(١)؛ أسبابٌ رَبَطَها بمسبباتها الحكيمُ العليمُ خلقاً وأمراً، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة(٢)، وقبول من الطبيعة المنفعلة، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا(٣) أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله تعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه [٢٢/ ب] من الرقى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع(٤)، وهذه إشارة مطلعة

---

(١) ساقطة من م.

(٢) في ب «الفاعلية».

(٣) في م، ب «فها هنا».

(٤) «للقطع» ساقطة من ش.

علىٰ ما وراءها لمن دق نظره ، وحسن تأمله. والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تذكر ، وذلك في كل زمان ؛ وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورا عجيبة ، ولا سيما مدة المقام بمكة أعزها الله تعالىٰ[1] ، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة ، بحيث تكاد تقطع الحركة مني ، وذلك في أثناء الطواف وغيره ، فأبادر إلىٰ قراءة الفاتحة ، وأمسح بها[2] محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جربت ذلك مراراً عديدة ، وكنت آخذ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً وأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء[3] ، والأمر أعظم من ذلك ؛ ولكن بحسب قوة الإيمان ، وصحة اليقين ، والله المستعان.

فصل

اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين

في اشتمال الفاتحة علىٰ الرد علىٰ جميع المبطلين من أهل الملل والنحل ، والرد علىٰ[4] أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين[5] ، مجمل ومفصل :

---

(١) ساقطة من ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، ق. وفي د «شرفها الله».

(٢) في ح١ ، ش ، م ، غ ، ب ، أ زيادة «علىٰ».

(٣) سقط من ش قوله : «في الدواء».

(٤) في ش زيادة «جميع».

(٥) في ب «من طريقين».

فأما[١] المجمل فهو[٢]: أن الصراط المستقيم يتضمن[٣] معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه علىٰ غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علما وعملا في باب صفات الرب سبحانه وتعالىٰ، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي[٤] منازل السائرين إلىٰ الله تعالىٰ. وكل ذلك مسلم إلىٰ رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم، أو عمل، أو حقيقة، أو حال، أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية [٢٣/ أ] بحيث يكون من ضرب المدينة، فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب أو الضلال. فما ثم خروج عن هذه الطرق الثلاث: طريق الرسول ﷺ وما جاء به، وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده، وطريق أهل الضلال، وهي طريق من أضله الله عنه، ولهذا قال عبد الله بن عباس[٥][٦] - رضي الله عنهما -:

---

(١) في ح، د، غ «أما».

(٢) في غ «فهي».

(٣) في ح٢، د، غ «متضمن».

(٤) في الأصل، ش «بين» بدل «هي» وفي ب «التي هي من منازل».

(٥) في ح٢ «عبد الله بن مسعود» بدل «عبد الله بن عباس».

(٦) في أ، غ م، ح٢، ح١، د، ق، ش، ب «ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وجابر بن عبد الله».

«الصراط المستقيم هو الإسلام» ، وقال عبد الله بن مسعود[١] ، وعلي بن أبي طالب «هو[٢] القرآن» ، وفيه حديث مرفوع في الترمذي[٣] وغيره، وقال سهل بن عبد الله[٤] : «طريق السنة والجماعة» ، وقال بكر بن عبد الله المزني[٥] : «طريق رسول الله ﷺ»[٦].

---

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل ، الهذلي المكي ، الإمام الحبر ، كان من السابقين الأولين ، بمكة ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرا والمشاهد بعدها ، روىٰ علماً كثيراً ، وفضائله كثيرة مشهورة ، توفي سنة ٣٣ بالمدينة. انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١ طبقات ابن سعد ٣/ ١٥٠ الإصابة ٦/ ٢١٤.

(٢) «هو» ساقطة من أ.

(٣) أخرج الترمذي في كتاب فضائل القرآن (٥/ ١٧٢) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ألا إنها ستكون فتنة**» فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله؟ ، قال : «**كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ...**» الحديث ، وفيه قوله : «**هو الصراط المستقيم**». قال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال. وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٥) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢) ، والطبري في التفسير (١/ ٧٤).

(٤) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس ، شيخ العارفين ، التستري الصوفي الزاهد ، له كلمات نافعة ، ومواعظ حسنة ، كان مجلا للحديث وأهله ، صحيح الاعتقاد ، مات سنة ٢٨٣هـ علىٰ الصحيح. انظر : سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠، حلية الأولياء ١٠/ ١٨٩، الرسالة القشيرية ٤٠٠.

(٥) أبو عبد الله بكر بن عبد الله بن عمرو المزني ، البصري ، أحد الأعلام يذكر مع الحسن وابن سيرين ، حدث عن المغيرة بن شعبة ، وابن عباس ، وابن عمر ، كان ثقة ثبتا كثير الحديث ، مات سنة ١٠٨هـ. انظر: سير أعلام البنلاء ٤/ ٥٣٢، طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠٩، الحلية ٢/ ٢٢٤.

(٦) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١/ ٧٤، المستدرك ٢/ ٢٥٨-٣٥٩، تفسير البغوي ١/ ٤١.

ولا ريب أنه ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علماً وعملاً ، وهو معرفة الحق وتقديمه ، وإيثاره علىٰ غيره[1].

فبهذه[2] الطريق المجملة[3] نعلم[4] أن كل ما خالفه فباطل ، وهو من صراط الأمتين[5] : الأمة الغضبية ، وأمة[6] الضلال.

* * *

(١) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق زيادة «فهو الصراط المستقيم ؛ وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه ، جامعة له ».

(٢) هكذا في ح١ ، ش ، م ، ب ، ح٢ ، د. وفي الأصل ، أ ، غ ، ق «فبهذا ».

(٣) في ح١ ، م ، ح٢ ، د «المجمل ».

(٤) في م ، ب ، ق «يعلم ».

(٥) في ح١ «الأميين ».

(٦) في م ، ب ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق زيادة «أهل ».

فصل

تضمن الفاتحة الرد على منكري وجوده سبحانه

وأما الطريق[١] المفصلة[٢] فمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها.

فنقول: الناس قسمان: مقر بالخالق[٣] تعالىٰ، وجاحد له. فتضمن الفاتحة لإثبات الخالق تعالىٰ، والرد علىٰ من جحده، بإثبات ربوبيته تعالىٰ للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه، تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العالم[٤] وجحده، لا فرق بينهما؛ بل دلالة الخالق علىٰ المخلوق، والفاعل[٥] علىٰ الفعل، والصانع علىٰ أحوال المصنوع عند العقول الزاكية[٦] المشرقة[٧] العلوية، والفطر الصحيحة أظهر من العكس.

والعارفون[٨] أرباب البصائر يستدلون بالله علىٰ أفعاله [٢٣/ ب] وصنعه،

---

(١) «الطريق» ساقطة من أ، غ، ح٢.

(٢) في م، د، ح٢، أ، غ، ح١ «المفصل».

(٣) في أ، غ «بالحق».

(٤) في غ «العلم».

(٥) في ش، م، ب، د، ح٢ «الفعّال».

(٦) في ش، غ، د، ب، م «الزكية».

(٧) في الأصل «المشرفة».

(٨) في ح٢، د، أ، غ «فالعارفون».

إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان، كل منهما حق، والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير، وأما الاستدلال بالصانع فله شأن، وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي أنشك[١] في الله حين تطلب[٢] إقامة الدليل علىٰ وجوده ؟، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول[٣]؟، فكيف يستدل علىٰ الأظهر بالأخفىٰ ؟، ثم نبهوا علىٰ الدليل بقولهم: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وسمعت شيخ الإسلام[٤] ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يقول: كيف تطلب[٥] الدليل علىٰ من هو دليل علىٰ كل شيء ؟ ؛ وكان كثيراً[٦] يتمثل بهذا البيت:

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلىٰ دليلِ[٧]

ومن المعلوم[٨] أن وجود الرب تعالىٰ أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما.

---

(١) في ح١، م، ب، د، ح٢، غ، أ، ق «أيشك».

(٢) في ق «يطلب».

(٣) في أ «الدليل».

(٤) في ح١، د، ح٢، م، ب، ق، م، غ زيادة «تقي الدين».

(٥) في م، ب، د، أ، ح٢، غ «يطلب».

(٦) في ب زيادة «ما».

(٧) هذا البيت للمتنبي. انظر: شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوني ٣/ ٢١٥.

(٨) في ح١، م، ح٢، د، غ، أ، ق «ومعلوم».

وإذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الاتحاد[١] القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم وجود قديم خالق، ووجود حادث مخلوق؛ بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله، وهو حقيقة هذا العالم. فليس عند القوم رب وعبد[٢]، ولا مالك ومملوك، ولا راحم ومرحوم، ولا عابد ومعبود، ولا مستعين ومستعان به، ولا هاد و[٣] مهدي[٤]، ولا منعم و[٥] منعم عليه، ولا غضبان ومغضوب عليه؛ بل الرب هو نفس العبد وحقيقته، والمالك هو عين المملوك، والراحم[٦] عين المرحوم، والعابد نفس المعبود. وإنما التغاير أمر اعتباري بحسب مظاهر الذات وتجلياتها. فتظهر تارة في صورة المعبود كما ظهرت في صورة فرعون، وفي صورة عبد كما ظهرت في صورة العبيد، وفي صورة هاد[٧] كما ظهرت[٨] في صورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والرسلِ والعلماء؛ والكل من عين واحدة؛ بل هو العين [٢٤/أ] الواحدة، فحقيقة العابد

---

(١) في ح١، م، ب، ح٢، د، غ، أ «الإلحاد».

(٢) في ح٢ «عبد ورب».

(٣) في ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق زيادة «لا».

(٤) في ش زيادة «به».

(٥) في م، د، ح٢، غ، أ، ق زيادة «لا».

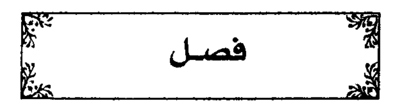
(٦) في ح١، ب، غ، أ زيادة «هو».

(٧) في ب زيادة «وأبنيه».

(٨) «ظهرت» ساقطة من ح١، غ، ش، أ، ق.

ووجوده وإنيَّته[١][٢] هي حقيقة المعبود ووجوده وإنيَّته[٣].

فالفاتحة من أولها إلىٰ آخرها تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم.



فصل

والمقرون بالرب تعالىٰ [أنه][٤] صانع العالم نوعان :

الرد على منكري العلو

نوع ينفي مباينته لخلقه، ويقولون : لا مباين ولا محايث[٥]، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا يمينه ولا يساره، ولا خلفه ولا أمامه، ولا فيه ولا بائن عنه.

فتضمن[٦] الفاتحة للرد[٧] علىٰ هؤلاء من وجهين[٨] :

---

(١) في ح١، غ «وأبنيته».

(٢) قال الجرجاني : **الإنيّة** : تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية. وقال أبوالبقاء الكفوي : (إنّ) بالكسر والتشديد هي في لغة العرب تفيد التأكيد والقوة في الوجود، ولهذا أطلقت الفلاسفة لفظ الإنية علىٰ واجب الوجود لذاته، لكونه أكمل الموجودات في تأكيد الوجود وفي قوة الوجود، وهذا لفظ محدث ليس من كلام العرب. انظر : التعريفات ٥٥، لطائف الإعلام ١/ ٢٤٧، الكليات ١٩٠، معجم مصطلحات الصوفية ٢٧.

(٣) في ح١، غ «وأبنيته».

(٤) زيادة من ح١، م، ب، د، ح٢، غ، أ، ق.

(٥) في د «ولا مجانب».

(٦) في ش، ح١، ق «فتضمنت».

(٧) في ح١، ح٢، ش، د، م، ب، وق «الرد».

(٨) لم يذكر المؤلف الوجه الثاني من وجوه الرد علىٰ أصحاب هذا القول.

أحدهما : إثبات ربوبيته عز وجل للعالم ، فإن الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرب[1] للعالم بالذات ، كما باينهم بالربوبية ، وبالصفات والأفعال ، فمن لم يثبت رباً مبايناً للعالم ، فما أثبت ربا. فإنه إذا نفىٰ المباينة لزمه أحد أمرين لزوما لا انفكاك له عنه البتة ؛ إما أن يكون هو نفس هذا العالم ، وحينئذ يصح قوله ، فإن العالم لا يباين ذاته ونفسه ، ومن هاهنا دخل أهل الوحدة ، كانوا معطلة أولا ، واتحادية ثانياً.

وإما أن يقول : ما ثم رب يكون مباينا ولا محايثاً، ولا داخلاً ولا خارجاً ، كما قالته[2] الدهرية المعطلة للصانع[3].

وأما هذا القول الثالث المشتمل علىٰ جمع[4] النقيضين[5] : إثبات الرب مغايراً[6] للعالم مع نفي مباينته للعالم ، وإثبات خالق قائم بنفسه ، لا في العالم ولا خارج العالم ، ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا خلفه ولا أمامه، ولا يمينه[7]،

---

(١) في غ زيادة «تعالىٰ».

(٢) في د «قاله».

(٣) قال السكسكي في البرهان (٨٨) : وأما الدهرية فإنهم ينفون الربوبية ، ويحيلون الأمر والنهي والرسالة ... ويجعلون الطينة قديمة ، وينكرون الثواب والعقاب ... وينفون أن يكون في العالم دليل يدل علىٰ صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ... ويضيفون النوازل بهم إلىٰ الدهر ، فيسبونه.

(٤) في ح١ «جميع».

(٥) في ب «التنقيض».

(٦) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق «رب مغاير».

(٧) في ح١ ، غ ، أ «يمنته».

ولا يساره[1] ، فقول لـه خبئ[2] ؛ والعقول لا تتصوره حتىٰ تصدق بـه[3]. فإذا استحال في العقل تصوره فاستحالة التصديق بـه أظهـر[4] ، وهـو منطبق علىٰ العدم المحض ، والنفي الصرف ، وصدقه عليه أظهر عند العقـول والفطـر مـن صدقه علىٰ رب العالمين.

فضع هـذا النفي وهـذه الألفـاظ الدالـة عليه[5] علىٰ العدم المستحيل ، ثـم ضعها علىٰ الذات [٢٤/ ب] القائمة بنفسها ، التي لم تحل في العالم ، ولا حل العالم فيها ، ثم انظر أي المعلومين أولىٰ به؟.

واستيقظ لنفسك ، وقم لله قومة مفكر[6] في نفسه في الخلوة في هذا الأمر ، متجرد عن المقالات وأربابها ، وعن الـهوىٰ والحمية والعصبية ، صادق في طلب الـهدىٰ[7] من الله تعالىٰ ؛ فالله أكرم من أن يخيب عبداً هـذا شأنه ، وهـذه

---

(١) في ح١ ، د ، غ ، أ «يسرته».

(٢) الخبء : كل شيء غائب مستور ، يقال : خَبَأْتُ الشيء أَخْبؤه خَبْأ إذا أخفيته ، والخبء والخبيُ والخبيئة الشيء المخبوء ، ومراد المصنف أن هذا القول وراءه أمر مخفي يخفيه صاحبه ، وهو إنكار الخالق ؛ ولكنه لا يستطيع الجهر به فيتوصل إليه بهذا القول. انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣ ، مختار الصحاح ١٦٧ ، لسان العرب ١/ ١٣ ، مادة (خبأ).

(٣) «به» ساقطة من ح١ ، ح٢ ، غ.

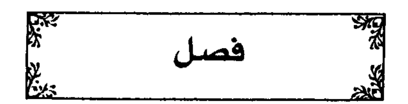
(٤) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، م زيادة «وأظهر».

(٥) «عليه» ساقطة من م.

(٦) في ب «متفكر». وفي الأصل «منكر».

(٧) في ح١ ، م ، ب ، د ، غ ، أ «الـهداية».

المسألة لا تحتاج إلىٰ[1] أكثر من إثبات رب قائم بنفسه، مباين لخلقه؛ بل هذا نفس ترجمتها.



فصل

الرد على أهل الإشراك في الربوبية

ثم المثبتون للخالق[2] تعالىٰ نوعان:

أهل توحيد، وأهل إشراك. وأهل الإشراك نوعان:

أحدهما: أهل الإشراك به في ربوبيته وإلٰهيته، كالمجوس[3] ومن ضاهاهم من القدرية، فإنهم يثبتون مع الله خالقا آخر، وإن لم يقولوا: إنه مكافئ له.

---

(١) في ب «لـ» بدل «إلىٰ».

(٢) لعل هذا النوع الثاني من أنواع المقرين بالرب سبحانه وتعالىٰ وأنه صانع العالم، فإنه ذكر النوع الأول في الفصل السابق: وهم الذين يثبتون ربا لا مباينا للعالم ولا محايثا، ثم ذكر المؤلف النوع الثاني في هذا الفصل: وهم الذين يثبتون خالقا للعالم مباينا له، وهم نوعان: أهل التوحيد، وأهل الإشراك.

(٣) **المجوس**: هم الذين يقولون بخالقين: النور وهو خالق الخير وهو أزلي، والظلمة وهي خالقة الشر وهي محدثة عند المجوس الأصلية، ثم هم مختلفون في سبب حدوثها، ومنهم من قال: إنها أزلية كالنور، وهي مساوية له في القدم، ولكن بينهما اختلاف في الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس والأبدان والأرواح.

والمجوس فرق شتىٰ منهم: الكيُومرثية، والزروانية، والزّرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والديصانية، وهم يعظمون النار ويعبدونها، واختلف فيهم هل كان لهم كتاب أم لا. انظر تفاصيل مذهبهم في: الملل والنحل ١/ ٢٣٣، البرهان للسكسكي ٩٠، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٨٦.

والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال، ليست أفعالهم مقدورة لله ، ولا مخلوقة له[1] ، وهي صادرة بغير مشيئته ، ولا قدرة له عليها ، ولا هو الذي جعل أربابها فاعلين ؛ بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين.

فربوبية العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم ؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات ، والصفات ، والحركات ، والأفعال.

وحقيقة قول القدرية المجوسية : أنه تعالىٰ ليس ربا لأفعال الحيوان ، ولا تناولتها ربوبيته ؛ إذ[2] كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟ مع أن في عموم حمده ما يقتضي حمده علىٰ طاعات خلقه ، إذ هو المعين عليها ، والموفق لها ، والذي شاءها منهم ، كما قال في غير موضع من كتابه : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠] ، فهو محمود علىٰ أن شاءها[3] منهم[4] ، فهم فاعلوها[5] بقدرته ومشيئته ؛ فهو المحمود عليها في الحقيقة ، وعندهم أنهم هم المحمودون عليها ، فلهم الحمد علىٰ فعلها ، [٢٥/ أ] وليس لله حمد علىٰ نفس فاعليتها عندهم ، ولا علىٰ ثوابه وجزائه عليها.

أما الأول : فلأن فاعليتها بهم لا به. **وأما الثاني** : فلأن الجزاء مستحق عليه

---

(١) في م ، د ، ح٢ ، غ ، ق «لهم».

(٢) في ح١ ، م ، ح٢ «أو» بدل «إذ».

(٣) في ح١ «شاء» بدون «ها».

(٤) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ «لهم».

(٥) في ح١ ، م ، بَ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق «وجعلهم فاعليها» ، وفي ش «فجعلهم فاعليها».

استحقاق الأجرة علىٰ المستأجر. فهو محض حقهم، الذي عاوضوه عليه.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ[1] نَسْتَعِينُ﴾[2] ردٌّ ظاهرٌ عليهم، إذ استعانتهم به إنما تكون علىٰ[3] شيء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته؛ فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده، إن شاء أوجده، وإن شاء لم يوجده؛ بمن ليس ذلك الفعل بيده، ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته؟

وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أيضا رد عليهم، فإن الهداية المطلقة التامة هي المستلزمة لحصول الاهتداء، ولولا أنها بيده تعالىٰ دونهم[4] ما[5] سألوه إياها، فهي[6] المتضمنة للإرشاد والبيان، والتوفيق والاقتدار[7]، وجعلهم مهتدين، وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة كما ظنته القدرية؛ لأن هذا القدر وحده لا يوجب الهدىٰ، ولا ينجي من الردىٰ، وهو حاصل لغيرهم من الكفار الذين استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، واشتروا الضلالة بالهدىٰ.

---

(١) في ح١، م، ب، ح٢، د، غ، أ «وإياك».

(٢) في ش «إياك نعبد وإياك نستعين».

(٣) في ح١، غ، أ «عن».

(٤) سقط من أ قوله: «تعالىٰ دونهم».

(٥) في ح١، ب، م، د، ح٢، غ، أ، ق «لما».

(٦) في غ، أ «وهي».

(٧) في ح١، ح٢، د، غ، أ «والأقدار».

فصل

الرد على أهل الإشراك في الألوهية

النوع الثاني : أهل الإشراك به في إلـهيته ، وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء ، ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ، ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، وهم[1] مع هذا يعبدون غيره ، ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم. وهم الذين اتخذوا من دونه[2] أنداداً فهؤلاء لم يوفوا ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ حقه ، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» ؛ لكن ليس لهم نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ المتضمن معنىٰ : لا نعبد إلا إياك ، حباً وخوفاً ورجاءً وطاعةً وتعظيماً ، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تحقيق لهذا التوحيد ، وإبطال للشرك في الإلـهية ، كما أن ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تحقيق لتوحيد الربوبية ، [٢٥/ ب] وإبطال للشرك به ؛ وكذلك قوله[3] : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[4] فإنهم أهل التوحيد ، وهم أهل تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وأهل الإشراك : هم أهل الغضب والضلال.

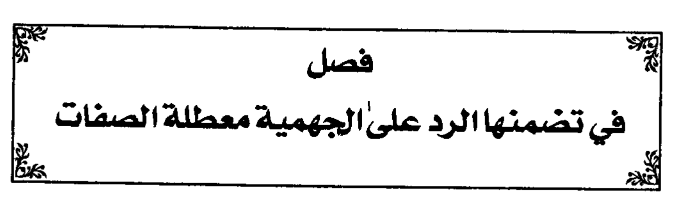
---

(١) «هم» ساقطة من أ.

(٢) في أ ، غ «من دون الله».

(٣) في م «قول» بدن الضمير.

(٤) في أ زيادة «غير المغضوب عليهم».



فصل
في تضمنها الرد علىٰ الجهمية معطلة الصفات

الرد على الجهمية

وذلك من وجوه :

أحدها : من قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإن إثبات الحمد الكامل له[1] يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، إذ مَنْ عُدم صفاتِ الكمال فليس بمحمود علىٰ الإطلاق ، وغايته أنه محمود من وجه دون وجه ؛ ولا يكون محمودا بكل وجه ، وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولىٰ علىٰ صفات الكمال جميعها ؛ فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له ما يتضمن إثبات الصفات التي تلزمها[2] من الحياة ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية تستلزم جميع صفات الفعل ، وصفة الإلـهية تستلزم جميع أوصاف الكمال ذاتاً ، وأفعالاً ، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلـهاً ربًّا ، رحماناً رحيماً ، ملكاً ، معبوداً ، مستعاناً ، هادياً ، مُنعِماً ، يرضىٰ ، ويغضب ، مع نفي قيام الصفات به جمع بين النقيضين ، وهو من أمحل المحال.

---

(١) «له» ساقطة من غ.

(٢) في ح١ ، ب ، ق «تستلزمها» ؛ وفي غ ، أ ، م «يستلزمها».

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق ؛ فإن استواءه علىٰ عرشه من لوازم علوِّه. ونزوله سبحانه كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا في نصف الليل الثاني من لوازم رحمته وربوبيته. ورضاه وفرحه وحبه وغضبه[1] وسخطه من لوازم إرادته ومشيئته وملكه وربوبيته ؛ وهكذا سائر الصفات الخبرية[2].

الوجه الثاني : أن السمع ورد بها ثناء علىٰ الله ومدحا له ، وتعرفاً[3] منه إلىٰ عباده بها[4]. فجحدها وتحريفها عما دلت عليه وأريد بها ، مناقض لما جاءت له[5] ؛ فلك أن تستدل بطريق [٢٦/ أ] السمع علىٰ أنها كمال ، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

❊ ❊ ❊

---

(١) «غضبه» ساقطة من ش. وفي ح١ زيادة «وبغضه» بعد «وغضبه».

(٢) الصفات الخبرية : هي الصفات التي طريق ثبوتها السمع ، والخبر عن الله ، أو عن رسوله ﷺ ، ولا سبيل للعقل علىٰ انفراده إلىٰ إثباتها ؛ لكنه لا يعارض الخبر الصحيح الوارد في إثباتها.

انظر : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة ؛ د. محمد أمان الجامي ٢٠٧ ، صفات الله عز وجل ؛ علوي السقاف ٢٩.

(٣) في د «وتعريفا».

(٤) «بها» ساقطة من أ.

(٥) في د ، أ ، ش ، ح١ ، ح٢ ، غ ، ق «به».

فصل
في[1] تضمنها الرد على الجبرية

الرد على الجبرية

وذلك من وجوه :

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه ، فإنه يقتضي أن لا يعاقب عبيده علىٰ ما لا قدرة لهم عليه ، ولا هو من فعلهم ؛ بل هو بمنزلة ألوانهم ، وطولهم ، وقصرهم ؛ بل هو يعاقبهم علىٰ نفس فعله بهم ، فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة ، وهو المعاقب لهم عليها ؛ فحمده[2] يأبىٰ ذلك أشد الإباء ، وينفيه أعظم النفي ، فتعالىٰ من له الحمد[3] عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ بل إنما يعاقبهم علىٰ نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة ، فهي أفعالهم لا أفعاله ، وإنما أفعاله العدل ، والإحسان ، والخيرات.

الثاني[4] : إثباتُ[5] رحمتِه ورحمانيّتِه ينفي[6] ذلك ، إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط ؛ أن يكون رحماناً رحيماً ، ويعاقب العبد علىٰ مالا قدرة له عليه ،

---

(١) في ب «وفي».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ زيادة «عليها».

(٣) في ش ، أ ، د ، غ زيادة «كله».

(٤) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق «الوجه الثاني».

(٥) «إثبات» ساقطة من م .

(٦) في ح١ ، ش ، م ، ب «تنفي».

ولا هو من فعله ؛ بل يكلفه ما لا يطيقه ، ولا له عليه قدرة[1] البتة ، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة ، ونقض لها وإبطال؟ ، وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك ، والرحمة التامة[2] الكاملة في ذات واحدة؟.

الثالث[3] : إثبات العبادة والاستعانة لهم ، ونسبتها إليهم ، بقولهم «نعبد ، ونستعين » وهي نسبة حقيقية لا مجازية. والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده ؛ بل العبد حقيقة هو العابد المستعين ؛ والله [هو][4] المعبود المستعان.

* * *

---

(١) في أ «ولا قدرة له عليه ».

(٢) «التامة » ساقطة من أ.

(٣) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق «الوجه الثالث ».

(٤) زيادة من ح٢ ، م ، ش ، ب ، وق.

فصل
في بيان تضمنها للرد على القائلين بالموجب بالذات[1] بدون[2] الاختيار والمشيئة وبيان أنه فاعل مختار

الرد على القائلين بالموجب بالذات

وذلك من وجوه :

أحدها : من إثبات حمده ، إذ كيف يحمد علىٰ ما ليس مختاراً لوجوده ، ولا هو بمشيئته وفعله؟ ، وهل يصح حمد الماء علىٰ آثاره وموجباته ؟ ، أو النار والحديد وغيرها في عقل أو فطرة ؟ ، وإنما يحمد الفاعل المختار بقدرته ومشيئته علىٰ أفعاله الحميدة ، هذا الذي ليس في العقول والفطر [٢٦/ ب] سواه ؛ فخلافه خارج عن الفطرة والعقل وهو لا ينكر خروجه عن الشرائع والنبوات ؛ بل يتبجح بذلك ، ويعده فخراً.

الثاني : إثبات ربوبيته تعالىٰ : يقتضي فعله بمشيئته واختياره ، وتدبيره وقدرته ؛ وليس يصح في عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها ، والماء لتبريده ، والنبات[3] الحاصل به ، ولا ربوبية شيء أبداً لما لا قدرة له عليه البتة ،

---

(١) الموجب بالذات : هو الذي يصدر عنه الفعل من غير اختيار ولا مشيئة ، وإنما تصدر الأفعال عنه وجوبا لا اختيارا ، فوجود العالم ملازم لوجوده ، لا ينفك عنه بحال ، وذلك كلزوم الإحراق للنار ، فإذا وجدت النار وجد معها الإحراق ، وهذا القول قول الفلاسفة. انظر : المطالب العالية للرازي ٣/ ٧٧ ، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ، ٢/ ٢٨٨ ، وانظر : طريق الهجرتين للمؤلف ١٤٧.

(٢) في م «دون».

(٣) في ق ، م ، أ ، د «وللنبات».

وهل هذا إلا تصريح بجحد الربوبية ؟. فالقوم كنوا للأغمار[1] ، وصرحوا لأولي الأفهام.

الثالث : إثبات ملكه ؛ وحصول ملك لمن لا اختيار له ، ولا فعل ولا مشيئة غير معقول ؛ بل كل مملوك له مشيئة واختيار وفعل أتم من هذا الملك وأكمل ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧].

الرابع : من كونه مستعاناً ؛ فإن الاستعانة بمن لا اختيار له ، ولا مشيئة ، ولا قدرة محال.

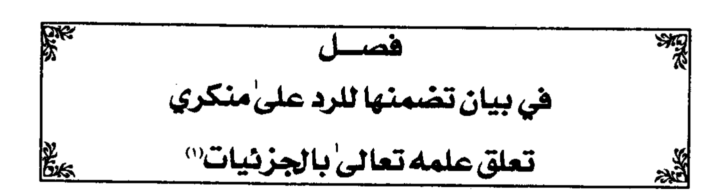
[**الخامس** : من كونه مسؤولاً أن يهدي عباده ؛ فسؤال من لا اختيار له محال][2]. وكذلك كونه منعماً.

* * *

(١) **الأغمار** جمع غُمْر ، وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور.

انظر : مختار الصحاح ٤٨٠ ، لسان العرب ٣٢٩٥ ، مادة (غمر).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط من د.



فصل
في بيان تضمنها للرد علىٰ منكري تعلق علمه تعالىٰ بالجزئيات[1]

الرد على منكري تعلق علمه بالجزئيات

وذلك من وجوه :

أحدها : كمال حمده ، إذ[2] كيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئا من العالم وأحواله وتفاصيله ، ولا عدد الأفلاك ، ولا عدد النجوم ، ولا من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه ؟.

الثاني : أن هذا مستحيل أن يكون إلـها ، وأن يكون ربا ، فلا بد للإلـه المعبود ، والرب المدبر[3] أن يعرف عابده ، ويعلم حاله.

الثالث : من إثبات رحمته ، فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلمه.

الرابع : إثبات ملكه ، فإن مَلِكاً لا يَعْرُف أحداً من رعيته البتة ، ولا شيئاً من

---

(١) المنكرون لتعلق علمه تعالىٰ بالجزئيات هم الفلاسفة ، قال الرازي : ومن الناس من يحكي عن الفلاسفة أنهم يقولون : إنه تعالىٰ غير عالم بالجزئيات ، وهذه الحكاية فيها نظر ، وذلك لأن ذاته المخصوصة ذات معينة ، وهو عالم بتلك الذات المعينة ، ولا معنىٰ للجزئي إلا ذلك، فيكون عالما بالجزئي ... بل الصحيح أن يقال : إنهم ينكرون كونه تعالىٰ عالما بالمتغيرات من حيث إنها متغيرة ، وينكرون كونه تعالىٰ عالما بالجسمانيات بحسب مقاديرها المعينة المخصوصة.

انظر : المطالب العالية ٣/ ١٥١ ، المواقف للإيجي ٣٨٦.

(٢) في ح١ ، م ، ح٢ ، غ ، أ «أو».

(٣) في ش ، م ، ب ، ح١ زيادة «من».

أحوال مملكته البتة ، ليس بملك[1] بوجه من الوجوه.

الخامس : كونه مستعاناً.

السادس : كونه مسؤولاً أن يهدي سائله ويجيبه.

السابع : كونه هادياً.

الثامن : كونه منعماً.

التاسع : كونه يغضب[2] علىٰ من خالفه.

العاشر : كونه [٢٧/ أ] مجازياً ، يدين الناس بأعمالهم يوم الدين.

فنفي علمه بالجزئيات[3] مبطل لذلك كله.

فصل
في بيان تضمنها للرد علىٰ منكري النبوات

الرد على منكري النبوات

وذلك[4] من وجوه :

أحدها : إثبات حمده التام ، فإنه يقتضي كمال حكمته ، وأن لا يخلق خلقه عبثا ، ولا يتركهم سدىٰ ، لا يؤمرون ولا ينهون ؛ ولذلك نزّه[5] نفسه عن هذا

---

(١) في م زيادة «يملك».

(٢) في ح١ ، ش ، م ، ب ، ح٢ ، د ، أ ، غ «غضبانا».

(٣) في م «فنفي الجزئيات».

(٤) في ح١ ، أ ، غ «فتلك».

(٥) في ش ، ح١ زيادة اسم الجلالة «الله».

في غير موضع من كتابه[١] ، وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة وأن يكون[٢] أنزل علىٰ بشر من شيء ، فإنه ما عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمته ، ولا قدره حق قدره ، بل نسبه إلىٰ ما لا يليق به ، ويأباه حمده ومجده[٣].

فمن أعطىٰ الحمد حقه علماً ومعرفة وبصيرة استنبط منه «أشهد أن محمداً رسول الله » ، كما يستنبط منه «أشهد أن لا إلـه إلا الله » وعلم قطعا أن تعطيل النبوات في منافاته[٤] للحمد ، كتعطيل [صفات][٥] الكمال ، وكإثبات الشركاء والأنداد لـه[٦].

الثاني : إثبات الإلـهية[٧] وكونه إلهاً، فإن ذلك مستلزم لكونه معبودا مطاعا ، ولا سبيل إلىٰ معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله.

---

(١) يشير المؤلف ـ رحمه الله ـ إلىٰ أمثال قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، آية : ١١٥] ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [سورة القيامة ، آية : ٣١].

(٢) في ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة «ما ».

(٣) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام، آية : ٩١].

(٤) في م «فيما فاته » بدل « في منافاته ».

(٥) زيادة من ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق.

(٦) «له » ساقطة من م ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٧) في ش ، «الألوهية » ، وفي غ ، ح١ ، ق ، أ ، ح٢ ، د ، م «إلـهيته ».

الثالث[١] : كونه ربا ، فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم ، وجزاء محسنهم بإحسانه ، ومسيئهم بإساءته ؛ هذا حقيقة الربوبية ، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة[٢].

الرابع : كونه رحماناً رحيماً ، فإن كمال رحمته أن يعرِّف عباده نفسه وصفاته ، ويدلهم علىٰ ما يقربهم إليه ، ويباعدهم منه ، ويثيبهم علىٰ طاعته ، ويجزيهم بالحسنىٰ. وذلك لا يتم إلا بالرسالة[٣] والنبوة ، فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس : ملكه ، فإن المُلك يقتضي التصرف بالقول ، كما أن المِلك يقتضي التصرف بالفعل ، فالمَلِك المتصرف بأمره وقوله ، فينفذ[٤] أوامره ومراسيمه حيث شاء ، والمالك المتصرف في ملكه بفعله ، والله له المُلك ، وله المِلك[٥] ، فهو المتصرف في خلقه بالقول [٢٧/ ب] والفعل.

فتصرفه[٦] بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونية ، وتصرف بكلماته الدينية ،

---

(١) في غ ، أ «والثالث».

(٢) «والنبوة» ساقطة من أ .

(٣) في م زيادة «له».

(٤) هكذا في الأصل، ب، وفي سائر النسخ «فتنفذ» ، والصحيح ما في الأصل ، لأن المقصود بقوله : «ينفذ» أي يمضي أوامره ، مأخوذ من قولهم : نفذ الأمر نفوذاً ونفاذا : أي مضىٰ ، ويقال : نفذ فلان لوجهه ، مضىٰ علىٰ حاله. انظر : لسان العرب ٦/ ٤٤٩٦ ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٩.

(٥) في ح١ ، غ «وهو الملك».

(٦) في ح٢ ، ح١ ، م ، ق ، د ، غ ، أ «وتصرفه».

وكمال الملك بهما.

فإرسال الرسل موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا[١] هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم. فكل ملك لا تكون له رسل يبثها في أقطار مملكته فليس بملك.

وبهذه الطريق يعلم[٢] وجود ملائكته[٣]، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه، فإنهم رسل الله في خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء اليوم[٤] الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً، وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يدان المطيع والعاصي[٥].

السابع: كونه معبوداً، فإنه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه، ولا سبيل للخلق إلىٰ معرفة[٦] ذلك[٧] إلا من جهة رسله، فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هاديا إلىٰ الصراط المستقيم، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلىٰ المطلوب، فإن الخط المستقيم هو أقرب خط

---

(١) في ب «فهذا».

(٢) في ش «يعرف».

(٣) في د «الملائكة».

(٤) في م، ش، ح١، ح٢، د، غ، أ «وهو يوم الجزاء الذي»، وفي ق: «وهو الجزاء الذي».

(٥) كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ١٥].

(٦) في ح١ «معرفته».

(٧) في ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق «ما يحبه ويرضاه» بدل «ذلك».

فاصل(١) بين نقطتين ، وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل قطعا. فتوقفه علىٰ الرسل ضروري ، أعظم من توقف الطريق الحسِّي علىٰ سلامة الحواس.

التاسع : كونه منعما علىٰ أهل الهداية إلىٰ الصراط المستقيم ، فإن إنعامَه عليهم إنما تمّ(٢) بإرسال الرسل إليهم ، وجعلهم قابلين لرسالاته(٣) ، مستجيبين لدعوته ، وبذلك ذكَّرهم منَّته عليهم وإنعامَه في كتابه(٤).

العاشر : انقسام خلقه إلىٰ مُنعَم عليهم ، ومغضوب عليهم ، وضالين ، فإن هذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق ، والعمل به ، إلىٰ عالم به عامل بموجبه ، وهم أهل النعمة ، وعالم به معاند له ، وهم أهل الغضب ، وجاهل به وهم الضالون [٢٨/ أ] . وهذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل ، فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة. فانقسامهم إلىٰ هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة ، وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع ، فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق ، وبالتي قبلها(٥) تضمنها للرد علىٰ من أنكر المعاد الجسماني ، وقيامة الأبدان(٦) ، وعرفت اقتضاءها ضرورة لثبوت الثواب

---

(١) في م «موصل» بدل «فاصل».

(٢) في ب «يتم».

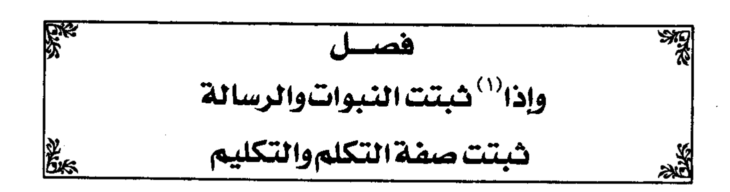
(٣) في د «لرسالته». وفي ح٢ «للرسالة». وفي ش ، م ، ح١ ، ب ، أ ، غ ، ق «الرسالة».

(٤) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [سورة النساء ، آية : ٦٩].

(٥) في د ، غ ، ح٢ ، أ زيادة «بيان».

(٦) المنكرون لذلك هم الفلاسفة ، انظر قولهم في اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ٩١ ، بغية المرتاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٣٥.

والعقاب والأمر والنهي ، وهو الحق الذي خلقت به وله السموات والأرض ، والدنيا والآخرة ، وهو مقتضىٰ الخلق والأمر ، ونفيه نفي لهما.



فصل
وإذا[1] ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم

دلالة النبوة على صفة التكلم والتكليم

فإن حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسِل ، فإذا لم يكن ثم كلام فماذا يبلِّغ الرسول؟ ؛ بل كيف يعقل كونه رسولا ؟ ، ولهذا قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلماً ، وأن[2] يكون القرآنُ كلامَه ، فقد أنكر رسالةَ محمدٍ ﷺ ؛ بل ورسالة جميع الرسل ، التي حقيقتها : تبليغ كلام الرب[3] - تبارك وتعالىٰ - . ولهذا قال منكرو رسالته ﷺ عن القرآن : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر : ٢٤ - ٢٥] ، وإنما عَنَوا القرآن المسموع الذي بُلِّغُوه ، وأُنذِروا به.

فمن قال : إن الله لم يتكلم به ، فقد ضاهَأَ قولُه قولَهُم ، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

---

(١) في ش ، غ ، ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، م ، ق «إذا» بدون الواو.

(٢) في ش ، غ ، أ ، م ، ب ، د ، ح١ ، ح٢ «أو» بدل «وأن».

(٣) في ح١ ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق اسم الجلالة «الله» بدل «الرب».

فصــل
في بيان تضمنها للرد علىٰ من قال بقدم العالم(١)

الرد على من قال بِقِدَم العالَم

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده ، فإنه يقتضي ثبوت أفعاله ؛ لا سيما وعامة موارد(٢) الحمد في القرآن ، أو كلها إنما هي علىٰ الأفعال ، وكذلك هاهنا ، فإنه حمد نفسه علىٰ ربوبيته المتضمنة لأفعاله الاختيارية ، ومن المستحيل مقارنة الفعل[٢٨/ ب] لفاعله ، هذا ممتنع في كل عقل سليم ، وفطرة مستقيمة. فالفعل متأخر عن فاعله بالضرورة.

وأيضا فإنه متعلّق الإرادة والتأثير والقدرة ، ولا يكون متعلقها قديما البتة.

الثاني : إثبات ربوبيته للعالمين ، وتقريره ما ذكرنا(٣) ، والعالم كل ما سواه ، فثبت أن كل ما سواه مربوب ، والمربوب مخلوق بالضرورة ، وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، فإذاً ربوبيته تعالىٰ لكل ما سواه تستلزم تقدمه عليه وحدوث المربوب ، ولا يتصور أن يكون العالم قديما مربوبا(٤) وهو مربوب

---

(١) القائلون بقدم العالم : هم الفلاسفة ، انظر قولهم في : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٩١ ، الملل والنحل ٢/ ٥٨ ، بغية المرتاد ٣٠٧ ، الفصل لابن حزم ١/ ٤٧.

(٢) في ح١ ، ب ، م ، غ ، أ ، ق «مواد».

(٣) في د «ما ذكرناه».

(٤) «مربوبا» ساقطة من م ، د ، غ ، ح٢ ، أ ، ق .

أبداً ، فإن القديم مستغن(١) بأزليته عن فاعل لـه ، وكل مربوب فهو فقير بالذات، فلا شيء من المربوب بغني ولا قديم.

الثالث : إثبات توحيده ، فإنـه يقتـضي عـدم مشاركة شيء مـن العـالم لـه في خصائص الربوبية [والقدم من خصائص الربوبية ، فالتوحيـد ينفـي ثبوتـه لغيره ضرورة ، كما ينفي ثبوت الربوبية](٢) والإلـهية لغيره.

* * *

(١) في م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ زيادة «مستقر».

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، م ، ب ، أ ، د ، غ ، ح٢ ، ق.

الرد على الرافضة

فصل
في بيان تضمنها للرد على الرافضة[1]

وذلك من قوله : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى آخرها.

ووجه تضمنه[2] إبطال قولهم[3] أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام ، «منعم عليهم» ، وهم أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه ، و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه ، و «ضالون» وهم الذين أخطأوه وجهلوه.

فكل من كان أعرف بالحق[4] ، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم.

---

(١) الرافضة : هي إحدى فرق الشيعة ، وسموا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ، وقيل : لرفضهم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حينما سألوه عن أبي بكر وعمر ، فأثنى عليهما ، وترضى عنهما ، ولم يتبرأ منهما ، فرفضوه ، ولم يبق معه إلا القليل ، فقال لهم زيد : رفضتموني؟ ، قالوا : نعم ، فسموا بالرافضة بعد ذلك. وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص ، وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وهم يدعون الإمامية ، لقولهم بالنص على إمامة علي ، وهم فرق شتى.
انظر في بيان مذاهبهم وفرقهم : التنبيه والرد للملطي ٢٩ ، مقالات الإسلاميين ١/ ١٦ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٥٢) ، الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٩) ، التبصير في الدين للإسفراييني (٢٧).

(٢) في ب ، ح٢ «تضمنها».

(٣) أي قول الرافضة وطعنهم في الصحابة.

(٤) في ش ، ح٢ ، غ ، أ ، د ، ق «للحق».

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ أولىٰ بهذه الصفة من الروافض، فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل علىٰ أهل الحق منهما، فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وأقاموها[1] بلاد إسلام، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم[2] والهدىٰ. فآثارهم تدل علىٰ [٢٩/ أ] أنهم هم أهل الصراط المستقيم، ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان[3]، فإنه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم علىٰ الإسلام، وكم جرّوا علىٰ الإسلام وأهله من بلية؟، وهل عاثت سيوف المشركين عبّاد الأصنام من عسكر هولاكو[4] وذويه إلا من تحت رؤوسهم؟، وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتلت سروات المسلمين[5]، وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم إلا بسببهم،

---

(١) في ح١، م، ب، ح٢، د، غ، أ، ق «وقلبوها».

(٢) سقط من ش قوله: «والعلم».

(٣) في ح١، د، ح٢، غ، أ، ق زيادة «ومكان».

(٤) هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان، ملك التتار بن ملك التتار، وهو والد ملوكهم، كان جباراً فاجراً كافراً لعنه الله، قتل من المسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله، كان لا يتقيد بدين من الأديان، هلك سنة ٦٦٤هـ. انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٢، العبر ٣/ ٣١١.

(٥) **سروات المسلمين**: أي عليتهم وأشرافهم. والسرو: المروءة والشرف، والسري الرفيع في كلام العرب، ومعنىٰ سرو الرجل يسرو، أي ارتفع يرتفع، فهو رفيع، مأخوذ من سراة كل شيء أي ما ارتفع منه وعلا، وجمع السراة سروات. انظر: لسان العرب ٣/ ٢٠٠١، مادة (سرا)، أساس البلاغة ١/ ٤٣٧، مادة (سرو).

ومن جرائهم؟ ، ومظاهرتُهم للمشركين والنصارىٰ معلومة عند الخاصة والعامة ، وآثارُهم في الدين معلومة.

فأيُّ الفريقين أحق بالصراط المستقيم(١)، وأيهم أحق بالغضب والضلال؟(٢).

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله بأبي بكر وعمر ، وأصحاب رسول الله ﷺ، وهو كما فسروه. فإنه صراطهم الذي كانوا عليه ، وهو عين صراط نبيهم ﷺ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، وغضب علىٰ أعدائهم ، وحكم لهم بالضلال. قال أبو العالية رُفَيع الرياحي(٣)، والحسن البصري ـ رضي الله عنهما ـ ، وهما من أجل التابعين : «الصراط المستقيم : رسول الله ﷺ وصاحباه»(٤) ،

---

(١) في أ «بالأمن إن كنتم تعلمون» بدل «بالصراط المستقيم».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة «إن كنتم تعلمون».

(٣) في الأصل «ربيع» وهو خطأ ، وهو رفيع بن مهران ، الإمام المقري الحافظ المفسر ، أبو العالية الرياحي البصري ، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، ودخل عليه ، سمع جمعا من الصحابة ، وقرأ القرآن علىٰ أبي بن كعب وابن عباس، وكان يجله ويقدمه علىٰ غيره ، مات سنة ٩٠هـ ، وقيل : سنة ٩٣هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، طبقات ابن سعد ٧/ ١١٢، التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٣٢٦.

(٤) أخرجه الحاكم عن أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ، قال هو رسول الله ﷺ وصاحباه ، قال : فذكرنا ذلك للحسن ، فقال : صدق والله ونصح ، والله هو رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ. قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي.

انظر : المستدرك (٢/ ٢٥٩) ، وأخرجه عن أبي العالية والحسن ، الطبريُّ في تفسيره (١/ ٧٥) ، والبغوي في التفسير (١/ ٤١).

وقال أبو العالية أيضا في قوله «صراط الذين أنعمت عليهم[1]» : «هم آل رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما»[2] ، وهذا حق ، فإن آله وأبا بكر وعمر علىٰ طريق واحد[3] ، ولا خلاف بينهم ، وموالاة بعضهم بعضا ، وثناؤه[4] عليه[5] ، ومحاربة من حاربه ، ومسالمة من سالمه معلومة عند الأمة ، خاصها وعامها ، وقال زيد بن أسلم[6] «الذين أنعم [الله][7] عليهم : هم رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما»[8].

ولا ريب أن المنعم عليهم هم أتباعه ، والمغضوب عليهم هم الخارجون

---

(١) في أ زيادة «غير المغضوب عليهم».

(٢) أورد هذا الأثر البغوي في تفسيره عن أبي العالية ، قال: «هم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما». تفسير البغوي (١/ ٤١).

(٣) في ب ، د ، غ ، ح١ ، ق ، أ «طريق واحدة».

(٤) في ش ، م «وثناؤهم».

(٥) في ح١ ، ب ، م «عليهم».

(٦) أبو عبد الله زيد بن أسلم ، العدوي العمري المدني الفقيه ، الإمام الحجة القدوة ، حدث عن والده ، وعبد الله بن عمر ، وجابر ، وأنس ، وغيرهم ، كان له حلقة علم في مسجد رسول الله ﷺ ، له تفسير ، رواه عنه ابنه عبد الرحمن ، توفي - رحمه الله - سنة ١٣٦هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٦ ، التاريخ الكبير ٣/ ٣٨٧ ، حلية الأولياء ٣/ ٢٢١.

(٧) زيادة من غ ، ق.

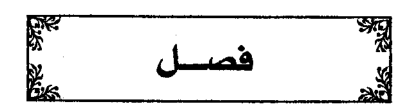
(٨) نسب هذا القول البغوي في التفسير إلىٰ أبي العالية ، وأخرج الطبري عن عبد الرحمن بن زيد أنه قال : هم رسول الله ﷺ ومن معه.

انظر : تفسير الطبري ١/ ٧٦ ، تفسير البغوي ١/ ٤١.

عن اتباعه ، وأتبع الأمة له وأطوعهم أصحابه وأهل بيته. وأتبع الصحابة [٢٩/ ب] له السمع والبصر ، أبو بكر وعمر. وأشد الأمة مخالفة له هم الرافضة ، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة ؛ ولهذا يبغضون السنة وأهلها ، ويعادونها ويعادون أهلها ، فهم أعداء سنته[١] ، وأهل بيته وأصحابه بالذات. فميراثهم من أمتي الغضب والضلال أتم ميراث. وميراث أصحابه وأهل بيته[٢] وأتباعهم من نبيهم[٣] أكمل ميراث ؛ بل هم ورثته حقا.

فقد تبين أن الصراط المستقيم طريق أصحابه وأتباعه ، وطريق أهل الغضب والضلال طريق الرافضة.

وبهذه الطريق بعينها يرد علىٰ الخوارج ؛ فإن معاداتهم للصحابة معروفة.



فصل

الكلام على قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

وسر الخلق والكتب ، والأمر[٤] والنهي[٥] ، والشرائع ، والثواب والعقاب انتهىٰ إلىٰ هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، حتىٰ قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع[٦]

---

(١) في م «السنة».

(٢) سقط من ح١ ، د ، غ ، أ من قوله «وأصحابه بالذات» إلىٰ قوله : «وأهل بيته».

(٣) في ش ، م ، ح١ «بنيهم».

(٤) في م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق تقديم وتأخير «والأمر والكتب».

(٥) «والنهي» ساقطة من ش ، م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٦) في ح٢ «وجميع».

معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع[1] معاني القرآن في المفصل، ومعاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفها له تعالىٰ وهو «إياك نعبد»، ونصفها لعبده، وهو «وإياك نستعين»[3].

وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه[4].

معنى العبادة

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع؛ والعرب تقول: طريق معبد، أي مذلل[5]، والتعبد: التذلل والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدا له،

---

(١) في ح٢ «وجميع».

(٢) عزا هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ الحسن البصري، فقال: «وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري، رواه ابن ماجه وغيره: إن الله أنزل مائة كتاب، وأربعة كتب، جمع علمها في الأربعة ...».

انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٤/ ٧، وقد بحثت عنه في ابن ماجه، وغيره، فلم أجده.

(٣) دل علىٰ ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل...**».

وفيه: «**فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل**».

أخرجه مسلم في الصلاة، ح(٣٩٥)، (١/ ٢٩٦).

(٤) في ب «في موضعه إن شاء الله تعالىٰ».

(٥) انظر في معنىٰ العبادة في اللغة: لسان العرب ٤/ ٢٧٧٦-٢٧٨١، مختار الصحاح ٤٠٧.

حتىٰ تكون محُبًّا خاضعاً.

ومِنْ هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين(١) حقيقة العبودية، والمنكرون(٢) لكونه محبوبا لهم؛ بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلىٰ نهاية بغيتهم منكرين لكونه إلـها وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم [٣٠/ أ]، فهذا غاية توحيدهم؛ و[هو](٣) توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخْرجوا به من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥]، ولهذا يحتج عليهم به علىٰ توحيد إلـهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

معنىٰ الاستعانة

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد علىٰ الله تعالىٰ(٤)، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به، لاستغنائه عنه؛ وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلىٰ اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

---

(١) في د «منكرون».

(٢) في ب «والمنكرين».

(٣) زيادة من م، د، ح٢، غ، أ، ق.

(٤) في ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق «عليه» بدل «علىٰ الله تعالىٰ».

والتوكل معنىٰ يلتئم من الأصلين[1] : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة «إياك نستَعِيْن »[2] ، وهذان الأصلان وهما : التوكل ، والعبادة. قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها ، هذا أحدها.

الثاني : قول شعيب ـ عليه السلام ـ : ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود : ٨٨].

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[هود : ١٢٣].

الرابع : قوله تعالىٰ حكاية عن المؤمنين : ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الممتحنة : ٤].

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[المزمل : ٨ ـ ٩].

السادس : قوله تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ[3]﴾[الرعد : ٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع[4] فيها بين[5] الأصلين ، وهما : «إياك نعبد وإياك

---

(١) في أ ، م ، غ ، ح١ «من أصلين».

(٢) في م ، غ ، ب ، أ ، ق ، د ، ح١ ، ح٢ «وهو حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين».

(٣) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، أ «أنيب».

(٤) في ب «تجمع».

(٥) في ب زيادة «هذين».

نستعين ».

سبب تقديم العبادة على الاستعانة

وتقديم العبادة علىٰ الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات علىٰ الوسائل ؛ إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها[1] ، والاستعانة وسيلة إليها ؛ ولأن «إياك نعبد » متعلق [٣٠/ ب] بألوهيته واسمه «الله » ، و «إياك نستعين » متعلق بربوبيته واسمه «الرب » ، فقدم «إياك نعبد » علىٰ «إياك نستعين » كما تقدم[2] اسم «الله» علىٰ «الرب» في أول السورة ؛ ولأن «إياك نعبد» قسم الرب، فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناء علىٰ الرب[3] تعالىٰ ، لكونه أولىٰ به ، و«إياك نستعين » قسم العبد ، فكان مع[4] الشطر الذي له ، وهو «اهدنا الصراط المستقيم » إلىٰ آخر السورة.

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس ، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ، ولا ينعكس ؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به علىٰ شهواته ؛ فكانت العبادة أكمل وأتم[5] ، ولهذا كانت من قسم الرب تعالىٰ.

ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس ؛ ولأن الاستعانة طلب منه ،

---

(١) في ش «لأجلها ».

(٢) في ش ، ح١ ، ح٢ ، د ، ب ، م ، ق «قدم ».

(٣) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، ق «الله ».

(٤) في م «من ».

(٥) في ش تقديم وتأخير «أتم وأكمل ».

والعبادة طلب [له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغير][1] مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون[2]، وهو صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمْتَ عبوديَّتَه، ودخلت تحت رقِّها أعانك عليها، فكان التزامُها والدخولُ تحت رقِّها سبباً لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت إعانة[3] الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نحبه.

ولأن «إياك نعبد» له، و «إياك نستعين» به، وما لَه مقدَّمٌ على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، الملائكة[4] والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات [٣١/ أ] والمعاصي. والمتعلق

---

(١) ما بين المعكوفين سقط من الأصل، ش، ح١، وهو موجود في سائر النسخ.

(٢) في ح١، ح٢، د، ب، م، أ، غ ق زيادة «على العبادة».

(٣) في م، غ، أ، ح٢، د «الإعانة من»؛ وفي ب «الإعانة له من».

(٤) في ح١، م، ب، د، غ، أ، ق «والملائكة».

بمحبته طاعاتهم وإيمانهم ، فالكفار أهل مشيئته ، والمؤمنون أهل محبته ، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله[١] أبداً ، وكل ما فيها فإنه به ، وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» علىٰ «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان علىٰ الفعلين ، ففيه أدبهم مع الله تعالىٰ ، بتقديم اسمه علىٰ فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمىٰ بالحصر ، فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما. وسيبويه[٢] نص علىٰ الاهتمام ، ولم ينف غيره[٣].

ولأنه يقبح[٤] من القائل : أن يعتق عشرة أعبد مثلا ، ثم يقول لأحدهم : إياك أعتقت. ومن سمعه أنكر ذلك [عليه][٥] ، فقال[٦] : وغيره أيضا أعتقت ، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام ، ولا حسن إنكاره.

---

(١) في م تقديم وتأخير «لله شيء».

(٢) أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ، ثم البصري ، إمام النحو ، وحجة العرب ، طلب الفقه ، والحديث ، ثم أقبل علىٰ العربية ، فبرع وساد أهل العصر ، وألف فيها ، عاش ٣٢ سنة ، وقيل نحو ٤٠ سنة ، مات سنة ١٨٠هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥١ ، البداية والنهاية ١٠/ ١٨٢ ، شذرات الذهب ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر : المحرر الوجيز ، ١/ ١١٤ ، الكشاف ١/ ٩ ، تفسير القرطبي ١/ ١٩٠.

(٤) في م «أقبح».

(٥) زيادة من أ ، ح١ ، ح٢ ، د ، ب ، م ، غ ، ق.

(٦) هكذا في الأصل ، وفي سائر النسخ «وقال».

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِيَّىٰ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

ولا عبرة بجدل من قل فقهه[1]، وفُتح عليه بابُ الشك والتشكيك؛ فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلىٰ نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي «إياك قصدت، وأحببت» من الدلالة علىٰ معنىٰ: حقيقتك وذاتك[2] قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني، فيه معنىٰ: نفسك وذاتك وفيه معنىٰ[3]: حقيقتك أعني.

ومن هاهنا[4] قال من قال من النحاة: إن «إيا» اسم ظاهر مضاف إلىٰ الضمير المتصل، ولم يرد عليه برد شاف؛ ولولا أنا في شأن وراء هذا [٣١/ ب] لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها[5]،

---

(١) في غ، ح١، ح٢، د، ب، م، أ ق «فهمه».

(٢) «ذاتك» ساقطة من م، ح٢.

(٣) سقط من د، ح٢، غ، أ قوله «فيه معنىٰ».

(٤) في ق «هنا».

(٥) ممن قال: إن (إيا) اسم ظاهر مضاف إلىٰ الضمير المتصل الزجاج، وهذا خلاف ما عليه سيبويه، والمحققون في جعلهم إيا من المضمرات. واختلف في المتصل بها هل هو حرف، وهذا مذهب سيبويه، ومن وافقه، وقيل: بل هو اسم مضاف إليها.

ونصرنا الراجح ، ولعل أن نعطف علىٰ ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرىٰ دلالة علىٰ تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين ؛ ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه ، فإذا قلت لملك مثلا : إياك أحب ، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ما ليس في قولك : إياك أحب وأخاف.

* * *

انظر : شرح التسهيل لابن عقيل ١/ ١٠١-١٠٢ ، مشكل إعراب القرآن لأبي طالب المكي ١/ ١٠ ، الكشاف للزمخشري ١/ ٩ ، لسان العرب ١/ ١٨٦-١٨٧.

فصــل

أقسام الناس في العبادة والاستعانة

إذا عرف[١] هذا، فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام.

أجلّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالىٰ الإعانة علىٰ مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل - رضي الله عنه -[٢]، فقال: **«يا معاذ، والله إني لأحبك؛ فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**[٣].

---

(١) في ش، ب، غ «عرفت».

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي الأنصاري المدني البدري، شهد العقبة شاباً أمرد، له عدة أحاديث، روىٰ عنه ابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأنس، وغيرهم، كان ممن شهد بدراً، بعثه النبي ﷺ، وكان أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن علىٰ عهد النبي ﷺ، وكان أعلم الأربعة بالحلال والحرام، توفي سنة ١٧هـ، وقيل ١٨هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٤٤٣، طبقات ابن سعد ٣/ ٥٨٣، طبقات خليفة ١٠٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل (٥/ ٢٤٥)، وأبو داود في الصلاة، (٢/ ١٨٠-١٨١) والنسائي في السهو (٣/ ٥٣)، وابن حبان في صحيحه انظر: الإحسان (٣/ ٢٣٤)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٣٤)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود (١/ ٤١٧).

فأنفع الدعاء طلب العون علىٰ مرضاته ، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها علىٰ هذا ، وعلىٰ دفع ما يضاده ، وعلىٰ تكميله وتيسير أسبابه ؛ فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ : « تأملت أنفع الدعاء ، فإذا هو في سؤال الله[1] العون علىٰ مرضاته ؛ ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ »[2].

القسم الثاني

ويقابل هؤلاء ، **القسم الثاني ، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به ، فلا عبادة ولا استعانة** ، بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلىٰ حظوظه وشهواته ، لا علىٰ مرضاة ربه وحقوقه. فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض ، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه[3] عدوه [٣٢/ أ] إبليس – لعنه الله – ، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عونا له علىٰ مرضاته ، كانت زيادة[4] في شقاوته[5] ، وبُعْده من[6] الله تعالىٰ ، وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به علىٰ أمر وسأله إياه ، ولم

(١) اسم الجلالة ساقط من ش ، غ ، ح١ ، م ، أ ، ح٢ ، د ، ق.

(٢) بحثت عن هذا القول لشيخ الإسلام ، فلم أجده.

(٣) «إليه» ساقطة من ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ.

(٤) في سائر النسخ زيادة «له» ، وفي ش زيادة «من الله».

(٥) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، م ، ق «شقوته».

(٦) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، م ، ب «عن الله».

يكن عونا علىٰ طاعته، كان مبعدا له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولا بد.

فليتأمل[١] العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل[٢] عليه؛ بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه، ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً، لا بخلا. وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه؛ فيظن بجهله أن ربه[٣] لا يحبه ولا يكرمه. ويراه يقضي حوائج غيره، فيسئ ظنه[٤] بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله.

والإنسان علىٰ نفسه بصيرة[٥]، وعلامة هذا: حمله علىٰ الأقدار، وعتابه الباطن[٦] لها، كما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفرصته حتىٰ إذا فات أمرٌ عاتبَ القَدَرا[٧]

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأىٰ هناك معاتبة القدر واتهامه[٨]، وأنه

---

(١) في أ، م، غ، ح١، ح٢ «وليتأمل».

(٢) في م، ب «السائل».

(٣) في ق، ح٢، ح١، غ، م، د، أ «الله».

(٤) في أ «الظن».

(٥) في أ زيادة «ولو ألقىٰ معاذيره».

(٦) ساقطة من ح٢.

(٧) ذكر هذا البيت الجاحظ في البيان والتبيين ٣٨٥، ولم ينسبه لقائل معين.

(٨) في ش، ح١ «وإنعامه».

قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن[1] ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟، والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأل[2] شيئا معينا[3] خيرته وعاقبته مغيبة عنك؛ وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلقه علىٰ شرط علمه تعالىٰ فيه الخيرة، وقدم بين [يدي][4] سؤالك الاستخارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة؛ بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلىٰ تفاصيلها [٣٢/ ب]، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً[5]؛ بل إن وكل إلىٰ نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال، فاسأله أن يجعله عوناً علىٰ[6] طاعته، وبلاغاً إلىٰ مرضاته، ولا يجعله قاطعا لك عنه، ولا مبعدا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه[7] كل ما أعطىٰ لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا

(١) في ق، ب، د، ح١، ح٢، غ، م، أ «لكن».

(٢) في ق، ب، د، ح١، ح٢، غ، م، أ «تسأله».

(٣) في د «مغيبا».

(٤) زيادة من ق، ب، د، ح١، ح٢، غ، م، أ. وفي ش وقع «من» بدل «بين».

(٥) في غ، ح١، د، أ «ضرا ولا نفعا».

(٦) في د، ق «إلىٰ».

(٧) في الأصل، ش: «عطاء»، وفي غ، أ «إعطاءه».

ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر : ١٥ ـ ١٧] ، أي ليس كل من[1] أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته عليّ ؛ ولكنه ابتلاء مني ، وامتحان له ، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه ، وأخوِّله غيره؟ ، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه عليّ ؛ ولكنه ابتلاء وامتحان[2] مني له ، أيصبر؟ ، فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط؟ ، فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه علىٰ من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدي بالغنىٰ لكرامته عليّ ، ولم ابتله بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران علىٰ المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه يوسع علىٰ الكافر لا لكرامته ، ويقتر علىٰ المؤمن لا لإهانته له[3] ، وإنما يكرم من يكرمه بمعرفته و محبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. وله الحمد علىٰ هذا و[4] هذا ؛ وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

* * *

---

(١) في د «ما».

(٢) «امتحان» ساقطة من ش.

(٣) «له» ساقطة من ب.

(٤) في ش ، ح١ زيادة «علىٰ».

فصل

القسم الثالث

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية القائلون [٣٣/ أ] بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف[١] ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له علىٰ الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ؛ بل قد ساوىٰ بين أوليائه وأعدائه في الإعانة ، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكنْ أولياؤه اختاروا لأنفسهم[٢] الإيمان ، وأعداؤه اختاروا لنفوسهم[٣] الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان. وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر ؛ فعبّاد هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ، فهم موكولون إلىٰ أنفسهم ، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله ،

---

(١) الألطاف جمع لطف ، واللطف عند المعتزلة هو ما يختار المكلف عنده الطاعة أو يقرب منها مع تمكنه في الحالين ، ويسمىٰ الأول عندهم لطفاً محصلاً ، والثاني لطفاً مقرباً.
وهم يقولون بوجوب اللطف علىٰ الله عز وجل.
انظر : مقالات الإسلاميين ٢٤٦ ، ٥٧٣ ، الفصل ٣/ ٢٠١ ، الكليات ٧٩٧ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٨١-٨٢ ، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ١٩٢ .

(٢) في د ، ح٢ ، غ ، أ «لنفوسهم».

(٣) في م ، ب ، د ، ح٢ «لأنفسهم».

وكذب بقدره ، نقض تكذيبُه توحيدَه[1].

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في طيّه[2] ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ؛ بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول علىٰ المحرك الأول.

فلم تنفذ قوىٰ بصائرهم من المتحرك إلىٰ المحرك ، ومن السبب إلىٰ المسبب ، ومن الآلة إلىٰ الفاعل ؛ فضعفت عزائمُهم وقصرت هممُهم ، فقلَّ نصيبُهم من «إياك نستعين» ، ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

وهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم ، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد علىٰ الله حق توكله في إزالة [٣٣/ ب] جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

فإن قلت : فما معنىٰ التوكل والاستعانة؟.

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالىٰ ، وتفرده بالخلق ،

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٢/ ٤٢٢ ، والآجري في الشريعة ٢/ ٨٧٥-٨٧٦ ، وابن بطة في الإبانة كتاب القدر ٢/ ١٥٨-١٥٩ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٦٧٠.

(٢) في ح١ ، غ ، أ «ضمنه».

والتدبير، والضر، والنفع، والعطاء، والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادا عليه، وتفويضا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أو أبوه[1].

فتشبه[2] حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلىٰ غير أبويه، وحبس همه علىٰ إنزال ما ينوبه بهما. فهذا حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه، ولا بد[3]، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي كافيه. والحسب: الكافي. فإن كان مع هذا من أهل التقوىٰ كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوىٰ فهو[4].

القسم الرابع

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالضر والنفع[5]، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به علىٰ حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقُضيتْ له، وأُسعفَ[6]

---

(١) في ق، أ، د، غ، م، ح١ «أم أبوه».

(٢) في الأصل، د، ش، ق، ب «فيشبه».

(٣) سقط من ح١ قوله: «ولا بد».

(٤) في م، ح٢، زيادة حرف «من».

(٥) في ح١، غ، أ «بالنفع والضر».

(٦) في ب «واستعف».

بها ؛ ولكن لا عاقبة له ، سواء كانت أموالا أو رياسات أو[1] جاها عند الخلق ، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإسلام ، فضلا عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والمال [والجاه][2] والحال يعطاه البر والفاجر ، والمؤمن والكافر.

فمن استدل بشيء من ذلك علىٰ محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ؛ فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدِهم معرفةً بالله تعالىٰ ، ودينه ، والتمييز بين ما يحبه [٣٤/ أ] ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه ؛ فالحال من الدنيا. وهو[3] كالملك والمال ، إن أعانه[4] علىٰ طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ، ألحقه[5] بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال علىٰ صاحبه ، ومُبعِدٌ له عن الله تعالىٰ ، ومُلْحِق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة.

* * *

---

(١) في الأصل ، ش ، ح١ ، م ، د ، ق «و».

(٢) زيادة من ش ، ح١ ، م ، ب ؛ وفي د ، ح٢ ، غ ، أ «والجاه والمال».

(٣) في سائر النسخ «فهو».

(٤) في ح١ ، د ، ح٢ ، ش ، غ ، أ ، ب ، م «أعانك» ؛ وفي ش «أعان صاحبه».

(٥) في ح٢ «ألحقك».

فصل

شروط العبادة

إذا عرف[1] هذا ، فلا يكون العبد متحققاً بـ « إياك نعبد » إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما : متابعة الرسول .

والثاني : الإخلاص للمعبود ؛ فهذا تحقيق « إياك نعبد ».

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلىٰ أربعة أقسام :

القسم الأول

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود[2] والمتابعة ، وهم أهل « إياك نعبد » حقيقة. فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده ، لا يريدون بذلك جزاء من الناس[3] ، ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة ، والمنزلة في قلوبهم ، ولا هربا من ذمهم ، بل قد عدّوا[4] الناس كأصحاب[5] القبور ، لا يملكون[6] لهم ضراً ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً ؛ فالعمل لأجل هؤلاء ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم ، لا

---

(١) في ب « عرفت ».

(٢) « للمعبود » ساقطة من د ، ش ، ق.

(٣) في غ ، أ ، ب ، م ، ح١ ، ح٢ ، د تقديم وتأخير « من الناس جزاء ».

(٤) في الأصل ، م ، غ ، ح١ ، أ ، ب ، ح٢ ، د « أعدوا ».

(٥) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « بمنزلة أصحاب ».

(٦) في الأصل « ولا يملكون ».

يكون من عارف بهم البتة ؛ بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه ، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص له أعمالَه وأقوالَه ، وعطاءَه ومنْعَه ، وحُبَّه وبُغْضَه ، ولا يعامل أحدٌ الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله علىٰ معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بلا[1] عباده بالموت والحياة لأجله ؛ قال[2] تعالىٰ : ﴿[3]ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ [٣٤/ ب] لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢] ، وجعل ما علىٰ[4] الأرض زينة لها ، ليختبرهم[5] أيهم أحسن عملا ،. قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه[6] : هو أخلصه وأصوبه. قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه؟ ، قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم

---

(١) في ب « ابتلىٰ ».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٣) في الأصل زيادة لفظ « هو ».

(٤) في م « في ».

(٥) في ش ، م ، ب « ليبلوهم ».

(٦) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الخراساني ، الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام ، ولد بسمرقند ، ارتحل في طلب العلم ، وكتب عن الكوفيين ، والحجازيين ، أخذ عنه العلم خلق كثير منهم ابن المبارك ، ويحيىٰ القطان ، ، وابن عيينة ، كان عابداً ورعاً كثير الحديث ، توفي سنة ١٨٧هـ في مكة المكرمة.

انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢١ ، الرسالة القشيرية ٤٢٤ ، الحلية ٨/ ٨٤.

يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا[١] ، لم يقبل ، حتىٰ يكون خالصا صواباً. فالخالص : أن يكون لله[٢]. والصواب : أن يكون علىٰ السنة[٣][٤]. وهذا هو[٥] المذكور في قوله :﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ[٦] فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] ، وفي قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء : ١٢٥] ، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً[٧] لوجهه ، علىٰ متابعة أمره ، وما عدا ذلك فهو مردود علىٰ عامله ، يعود أحوج ما هو إليه هباء منثوراً. وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « **كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد** »[٨] ، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا

---

(١) في غ « مخلصاً ».

(٢) في م ، د ، غ ، ح٢ ، ح١ ، أ ، ق « ما كان لله ».

(٣) في م ، د ، غ ، ح٢ ، ح١ ، أ ، ق « ما كان علىٰ السنة ».

(٤) ذكر هذا الأثر عن الفضيل أبو نعيم في الحلية ٨/ ٩٥ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٣٦٩.

(٥) « هو » ساقطة من ح٢.

(٦) في أ « الله » بدل « ربه ».

(٧) في أ زيادة « صوابا ».

(٨) أخرجه البخاري موصولا من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الصلح ، ح(٢٢٩٧) ، (٥/ ٣٠١) ، بلفظ « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه ، فهو رد** ». وأخرجه موقوفاً في الاعتصام ، (١٣/ ٣١٧) ، بلفظ : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** ». وأخرجه بهذا اللفظ موصولاً في كتابه خلق أفعال العباد ص (٦١). وأخرجه مسلم في الأقضية ، (٣/ ١٣٤٢) ، ح(١٧١٨) ، بلفظ : « **من أحدث...** ». ولفظ : « **من عمل عملاً ...** ».

قال ابن حجر في الفتح : وقوله : « رد » معناه مردود من إطلاق المصدر علىٰ اسم المفعول ، مثل

بعداً ، فإن الله تعالىٰ إنما يُعبد بأمره ، لا بالآراء والأهواء.



فصل

القسم الثاني

الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقا للشرع[1] ، ولا هو خالص[2] للمعبود ، كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله عز وجل ، ورسوله. وهؤلاء [هم][3] شرار الخلق ، وأمقتهم إلىٰ الله عز وجل ، ولهم أوفر نصيب من قوله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ[4] ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٨] ، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلىٰ العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم ، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص [٣٥/ أ] والعلم ؛

خلق ومخلوق ، ونسخ ومنسوخ ، وكأنه قال : فهو باطل غير معتد به ، واللفظ الثاني ، وهو قوله : « من عمل» أعم من اللفظ الأول وهو قوله : « من أحدث ». فتح الباري ٥/ ٣٠٣.

(١) في د ، ح٢ « لشرع ».

(٢) في أ ، غ ، ح١ « خالصا » ، والصواب ما في الأصل ، فـ(لا) : هنا غير عاملة عمل ليس ، لعدم تحقق أحد شروط إعمالها ، وهو : أن يكون اسمها وخبرها نكرتين.
انظر : شرح شذور الذهب ١٩٦.

(٣) زيادة من ح١ ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ.

(٤) في ح١ « لا يحسبن ».

فهم أهل الغضب والضلال.

القسم الثالث

الضرب الثالث : من هو مخلص في أعماله ، لكنها علىٰ غير متابعة الأمر ، كجهال العباد، والمنتسبين إلىٰ طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده[1] قربة إلىٰ الله، فهذه حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة ؛ وأمثال ذلك.

القسم الرابع

الضرب الرابع : من أعماله علىٰ متابعة الأمر ، لكنها لغير الله تعالىٰ ، كطاعات المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة ، وللمغنم[2] ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال ، فهؤلاء أعمالهم[3] أعمال صالحة مأمور بها ؛ لكنها غير خالصة ، فلا تقبل ، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البنية : ٥] ، فكل واحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أَمَر ، والإخلاص[4] له في العبادة ؛ وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

فصل

أفضل العبادة وانقسام الناس في ذلك

ثم أهل مقام « إياك نعبد » لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق ؛ وهم في ذلك أربعة أصناف :

---

(١) وفي ب « واعتقدها ».

(٢) قوله : « وللمغنم » سقط من غ ، أ .

(٣) في ش ، ح١ زيادة « ظاهرها ».

(٤) في ب « وبالإخلاص ».

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا : لأنه أبعد الأشياء من هواها ، وهو حقيقة التعبد ، قالوا : والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثا لا أصل له «أفضل الأعمال أحمزها»[1]. أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك ؛ إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني : قالوا : أفضل العبادات وأنفعها[2][3] التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها[4] غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

الصنف الثاني

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن الأثير في النهاية (١/ ٤٤٠) ، عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل؟ ، فقال : « أحمزها ». قال ابن الأثير : أي أقواها وأشدها.

وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧٥) ، ح (٤٥٩) ، وقال : قال في الدرر تبعا للزركشي : لا يعرف ، وقال ابن القيم في شرح المنازل : لا أصل له ، وقال المزي : هو من غرائب الأحاديث ، ولم يرو في شيء من الكتب الستة ؛ وذكره القارئ في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ، ص (٥٧) ، ح (٣٣). وذكره صاحب كتاب تمييز الطيب من الخبيث ص (٢٧) ، وقال : قال الترمذي : هو من غرائب الأحاديث ، ولم يرو في شيء من الكتب الستة. وذكره في أسنى المطالب ص (٦٤) ، ح (٢٣٤).

(٢) « وأنفعها » ساقطة من غ ، أ.

(٣) في ب « أنفع العبادات وأفضلها ».

(٤) « منها » ساقطة من م.

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم ظنوا أن [٣٥/ ب] هذا غاية فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ؛ فرأوا الزهدَ في الدنيا غاية كلِّ عبادة ورأسها.

وخواصُّهم رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب علىٰ الله تعالىٰ ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات(١) في الجمعية علىٰ الله تعالىٰ ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل(٢) ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان : فالعارفون المتبعون منهم ، إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ، ولو فرقهم ، وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب علىٰ الله ؛ فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول :

يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟(٣)

ثم هؤلاء أيضا قسمان : منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته ،

---

(١) في ب « العبادة ».

(٢) « كل » ساقطة من م.

(٣) لم أجد هذا البيت.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته[1].

وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي علىٰ الله تعالىٰ، فإنْ قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت علىٰ حالي بقيت علىٰ جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟.

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، فأجب داعي الله، ثم عد إلىٰ موضعك. وهذا لأن الجمعية علىٰ الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي[2] حق الرب. ومن آثر حظ روحه علىٰ حق ربه فليس من أهل « إياك نعبد ».

الصنف الثالث

الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات وأنفعها[3] ما كان فيه نفع متعد[4]، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له [٣٦/ أ] وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»[5][6].

---

(١) للكلام عن الجمع والفرق، انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ١٣٨، الرسالة القشيرية ٦٤، وانظر كلام المؤلف عليه في المدارج ٣/ ٤٢٦.

(٢) في ش « داعي الله تعالىٰ ».

(٣) في د، غ، ح٢، أ « أنفع العبادات وأفضلها ».

(٤) في م « متعدد ».

(٥) في ب، غ، أ زيادة « رواه أبو يعلىٰ ».

(٦) روي هذا الحديث عن أنس، وأبي هريرة، وابن مسعود:

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر علىٰ نفسه ، وعمل[1] النفاع متعد إلىٰ الغير ؛ وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا: ولهذا كان فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب.

رواه الطبراني في الكبير رقم : (١٠٠٣٣) عن ابن مسعود ، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢) ، (٤/ ٢٣٧) ، وقال : غريب من حديث الحكم ، لم يروه عنه إلا موسىٰ بن عمير. وابن عدي في الكامل (٥/ ١٨١٠) (٦/ ٢٣٤٠) ، وفيه موسىٰ بن عمير ، (٧/ ٢٦١٠ ، ٢٦١١) من طريق يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس ، قال ابن عدي : وليوسف غير ما ذكرت من الحديث عن ثابت وعن غيره ، وعامة حديثه مما لا يتابع عليه. والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٣٣٤) ، وقال تفرد به موسىٰ بن عمير. وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٢٨) ، وقال : هذا حديث لا يصح ، قال يحيىٰ : موسىٰ بن عمير ليس بشيء. وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٤٦٩) في ترجمة يوسف بن عطية ، فقال : ومن مناكيره عن ثابت عن أنس ثم ذكره.

وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ٣٩٨) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩١) عن أنس ، وقال : رواه أبو يعلىٰ والبزار ، وفيه يوسف بن عطية الصفار متروك.

وعن ابن مسعود ، وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عمير ، وهو أبو هارون القرشي متروك.

وذكره ابن حجر في المطالب العالية (١/ ٢٦٢) وقال : تفرد به يوسف ، وهو ضعيف جداً.

وقال في الفتاوىٰ الحديثية : ورد من طرق كلها ضعيفة.

انظر : كشف الخفاء (١/ ٤٥٧) ، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص (٢٠٠) ، وذكر الحديث الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٤/ ٣٧٢) ، رقم : (١٩٠٠) ، وذكر من أخرج الحديث ، ومن ضعفه.

(١) في ب زيادة « العالم ».

[قالوا][1] : وقد قال رسول الله[2] ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «**لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم**»[3] ، وهذا التفضيل للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ : «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[4][5] ، واحتجوا بقوله ﷺ : «**إن الله وملائكته يصلون علىٰ معلمي الناس الخير**»[6] ، وبقوله : «**إن العالم**

(١) زيادة من م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ.

(٢) في ب « النبي ».

(٣) هذا جزء من حديث سهل بن سعد أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، (٧/ ٧٠) ، ح(٣٧٠١) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، (٤/ ١٨٧٢) ، ح(٢٤٠٦).

(٤) سقط من ب من قوله : « واحتجوا بقوله ﷺ : « من دعا ... » إلىٰ قوله : « شيء ».

(٥) أخرجه مسلم في العلم ، (٤/ ٢٠٦٠) عن أبي هريرة ، وأبو داود في السنة (٥/ ١٥) ، والترمذي في العلم ، (٥/ ٤٣) ، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، (١/ ٧٥).

(٦) أخرجه الترمذي في العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة (٥/ ٥٠) عن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتىٰ النملة في جحرها ، وحتىٰ الحوت ليصلون علىٰ معلم الناس الخير** ». قال أبو عيسىٰ : هذا حديث غريب. وقال المزي في تحفة الأشراف (٤/ ١٧٧) : أخرجه الترمذي ، وقال : حسن صحيح غريب.

ورواه الدارمي عن مكحول مرسلاً (١/ ٨٨). وأورده التبريزي في مشكاة المصابيح (١/ ٧٤) وقال الألباني في تخريجه للمشكاة : أخرجه الترمذي من طريق سلمة بن رجاء : ثنا الوليد بن جميل ، ثنا القاسم أبو عبد الرحمن ، عن أبي أمامة ، وقال : حديث غريب ، ونقل عنه بعضهم أنه حسنه وصححه وفيه بعد ، فإن الوليد بن جميل فيه ضعف من قبل حفظه ، وكذا الراوي عنه سلمة بن رجاء ، وقد خالفه يزيد بن هارون الثقة الثبت ، فقال : ثنا الوليد بن جميل

ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتىٰ الحيتان في البحر ، والنملة في جحرها»[١].

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، ما دام نفعه الذي تسبب إليه[٢].

واحتجوا بأن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا بالإحسان إلىٰ الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم ، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ؛ ولهذا أنكر النبي ﷺ علىٰ أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع

الكناني ، ثنا مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العالم ... » الحديث ، رواه الدارمي (١/ ٨٨) وهو مرسل حسن ، انتهىٰ من المشكاة.

وقد صحح الحديث الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤/ ٨٦).

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أبو داود في العلم ، (٤/ ٥٧) ، وأخرجه الترمذي في العلم ، (٥/ ٤٨) من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير عن أبي الدرداء قال الترمذي : ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وليس هو عندي بمتصل هكذا حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد ، وإنما يروىٰ هذا الحديث عن عاصم بن رجاء ابن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش ، ورأىٰ محمد بن إسماعيل هذا أصح.

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب فضل العلماء (١/ ٨٠) ، وأحمد (٥/ ١٩٦) ، وصححه ابن حبان، انظر: الإحسان (١/ ١٥١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص (٦٣)، وتكلم علىٰ ما وقع في سنده من اضطراب. وقال المنذري : وقد اختلف في هذا الحديث اختلافا كثيراً. ثم ذكر أوجه الاختلاف فيه. مختصر سنن أبي داود (٥/ ٢٤٣).

(٢) في غ ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ « نسب إليه ».

للتعبد، وترك مخالطة الناس[1]. ورأىٰ هؤلاء أن[2] التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل علىٰ مرضاة الرب تعالىٰ في كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت، ووظيفته. ف[3] أفضل العبادات[4] في وقت الجهاد، الجهاد، وإن آل إلىٰ ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار؛ بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل[5] في وقت حضور الضيف [٣٦/ ب] مثلا، القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل، الإقبال علىٰ تعليمه،

---

(١) يشير المؤلف إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري، وغيره عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟، أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**». أخرجه البخاري في النكاح، (٩/ ١٠٤)، ح(٥٠٦٣).

(٢) «أن» ساقطة من ش، غ، ب، أ، م.

(٣) في غ زيادة «إن».

(٤) في ب «العبادة».

(٥) في الأصل، ش «والفضل».

والاشتغال به.

والأفضل في أوقات السحر، الاشتغال بالصلاة، والقرآن، والدعاء، والذكر، [والاستغفار][١].

والأفضل في وقت الأذان، ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس، الجد والنصح في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلىٰ الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلىٰ المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال، الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته[٢]، وإيثار ذلك علىٰ أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت[٣] قراءة القرآن، جمعية القلب والهمة علىٰ تدبره وتفهمه، حتىٰ كأن الله يخاطبك به، فتجمع قلبك علىٰ فهمه[٤]، وتدبره، والعزم علىٰ تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان علىٰ ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة، الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر

---

(١) هذه الفقرة مقدمة علىٰ التي قبلها في د، غ، أ، ح١، وما بين المعكوفين ساقط من الأصل، ش.

(٢) في الأصل، ش، ق «وإعانة رفقته».

(٣) «وقت» ساقطة من ح١.

(٤) في ب «تفهمه».

دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة ، الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من[١] الجهاد غير المعين.

والأفضل في العشر الأخير[٢] من رمضان ، لزوم المسجد فيه ، والخلوة ، والاعتكاف ، دون التصدي لمخالطة الناس ، والاشتغال بهم ، حتىٰ إنه أفضل من الإقبال علىٰ تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته، عيادته، وحضور جنازته ، وتشييعه ، وتقديم ذلك علىٰ خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذىٰ الناس لك ، أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس [٣٧/ أ] ويصبر[٣] علىٰ أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي[٤] أفضل من خلطتهم فيه ؛ فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فهي خير[٥]

---

(١) « من » ساقطة من ح٢.

(٢) في ب « الأخيرة ».

(٣) في ح١ ، ح٢ ، غ ، د ، أ ، ش « ليصبر ».

(٤) سقط من د قوله : « فهي ».

(٥) في ح١ ، أ ، غ « فخلطتهم حينئذ أفضل » بدل « فهي خير ».

من عزلتهم»[١].

فالأفضل في كل وقت وحال، إيثار مرضاة الله تعالىٰ في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت، ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم[٢] أهل التعبد المقيد، فمتىٰ خرج أحدهم عن الفرع[٣] الذي تعلق به من العبادة، وفارقه، يرىٰ نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته؛ فهو يعبد الله علىٰ وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره علىٰ غيره؛ بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالىٰ أين كانت. فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية، كلما رُفعتْ له منزلةٌ عمل علىٰ سيره[٤] إليها، واشتغل بها حتىٰ تَلوحُ له منزلةٌ أخرىٰ، فهذا دَأْبُه في السير حتىٰ ينتهي سيره[٥]، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد، رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين، رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين، رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب علىٰ الله، رأيته معهم، فهذا هو العبد

---

(١) في ب زيادة « فيه ». وانظر في الاستزادة من موضوع العزلة والخلطة: كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/ ٤٧٦، مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن محمد المقدسي ١١٨.

(٢) في م زيادة « هم ».

(٣) في م، ب، ح٢، أ، غ « النوع ».

(٤) في م، ح٢ « علىٰ مسيره ».

(٥) في د، ح٢، م « مسيره ».

المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله علىٰ مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ؛ بل علىٰ مراد ربه عز وجل ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه. فهذا المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقا ، القائم بهما[1] صدقاً. ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهىٰ، ووجده خالياً ، لا تملكه[2] إشارة ، ولا يقيده[3] قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر [٣٧/ ب] حيث دار ، يدين بدين الآمر أنىٰ توجّهَتْ ركائبُه ، ويدور معه حيث استقلَّتْ مضاربُه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتىٰ شوكها ، وهو موضع الغلظة منه علىٰ المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله تعالىٰ ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ؛ بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين ، وتخلىٰ عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلىٰ عنها ، فواها له ، ما أغربه بين الناس! ، وما أشد وحشته منهم ! ، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته به وسكونه إليه! ، والله المستعان ، وعليه التكلان.

---

(١) في م ، ح٢ « بها ».

(٢) في م « يمكنه ».

(٣) في م « يتعبده ».

فصـل

أقسام الناس في منفعة العبادة وحكمتها

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة ، وهم في ذلك أربعة أصناف.

الصنف الأول : نفاة الحكم والتعليل ؛ للذين يردون الأمر إلىٰ محض المشيئة ، وصرف الإرادة ، فهؤلاء عندهم القيام بها[1] ليس إلا لمجرد الأمر ، من غير أن تكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد ، ولا سببا لنجاة ، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ، و محض المشيئة ، كما قالوا في الخلق : إنه لم يخلق ما خلقه لعلة ، ولا لغاية هي المقصودة به ، ولا لحكمة تعود إليه منه ، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها ، ولا فيها قوىٰ ولا طبائع ، فليست النار سببا للإحراق ، ولا الماء سببا للإرواء والتبريد وإخراج النبات ، ولا فيهما قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك. وحصول الإحراق والريّ ليس بهما ، لكن بإجراء العادة الاقترانية علىٰ حصول هذا عند هذا[2] ، لا بسببه ولا بقوة قامت به ، وهكذا الأمر عندهم في أمره سواء ، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا ، من غير أن يقوم[3] بالمأمور صفة اقتضت حسنه ، ولا بالمنهي [٣٨/ أ] صفة اقتضت قبحه.

---

(١) « بها » ساقطة من م.

(٢) سقط من م قوله : « عند هذا ».

(٣) في ب « تقوم ».

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة، قد ذكرناها في كتابنا الكبير[١] المسمىٰ بـ « مفتاح دار السعادة، ومطلب أهل العلم والإرادة »، وبيَّنَّا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجها، وهو كتاب بديع في معناه، وذكرناه أيضا في كتابنا المسمىٰ بـ « سفر الهجرتين، وطريق السعادتين »[٢].

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها، وليست الصلاة قرة أعينهم، وليست الأوامر سرور قلوبِهم، وغذاء أرواحهم وحياتِها؛ ولهذا يسمونَها « تكاليف »، أي قد كلفوا بها، ولو سمىٰ مدع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفاً، وأني إنما أفعله بكلفة، لم يعده أحدٌ مُحِبًّا له، ولهذا أنكر هؤلاء أو كثير منهم محبة العبد لربه، وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به، لا أنه يحب ذاته، فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هي كمال المحبة، فأنكروا حقيقة العبودية ولبها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوها محبوبا بغاية الحب، المقرون بغاية الخضوع والذل[٣]، والإجلال والتعظيم، فأنكروا كونه محبوبا، وذلك إنكار

---

(١) « الكبير » ساقطة من م، ح٢.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة فقد تكلم عن ذلك وأطال الكلام في هذه المسألة، وبين الرد عليهم من ثلاثة وستين وجها، واستغرق الكلام عنها من صفحة (٣٤-١١٨)، ثم تكلم بعد ذلك عن مذهب الفلاسفة في المقصود من الشرائع والرد عليهم.

وانظر: طريق الهجرتين ص ٩٢، ١١٠، ١٤٧.

(٣) في ح١، م، د، ح٢، أ، غ تقديم وتأخير « الذل والخضوع ».

لإلهيته ، وشيخ هؤلاء هو الجعد بن درهم[1] الذي ضحىٰ به خالد بن عبد الله القسري[2] في يوم أضحىٰ. وقال : « إنه زعم أن الله لم يكلم موسىٰ تكليما[3] ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا »[4] ، وإنما كان إنكاره لكونه تعالىٰ محبوبا[5] ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التي هي الخلة عند الجهمية ، التي يشترك فيها جميع الخلائق ، فكلهم أخلاء لله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجها[6] في

---

(١) الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار ، وهو أول من ابتدع بأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسىٰ ، وأن ذلك لا يجوز علىٰ الله ، كان يقول بخلق القرآن ، قتله خالد القسري يوم عيد الأضحىٰ سنة ١٢٤هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٣٣ ، والبداية والنهاية ٩/ ٣٤ ، ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٩.

(٢) هو خالد بن عبد الله القسري ، أبو الهيثم ، أمير العراقين لهشام ، وولي قبل ذلك مكة للوليد ابن عبد الملك ، ثم لسليمان ، توفي سنة ١٢٦هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥ ، التاريخ الكبير ٣/ ١٥٨ ، البداية والنهاية ١٠/ ١٩.

(٣) « تكليماً » ساقطة من م ، ح٢.

(٤) أخرج هذا الأثر البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ص ٨ ، وفي التاريخ الكبير ١/ ٦٤ ، وأخرجه الدارمي في الرد علىٰ الجهمية ص ١٧ ، ١٨٢ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/ ٣١٩ ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٠٥ ، وفي الأسماء والصفات ٣٢٥ ، والذهبي في العلو ص ٩٩ ، ١٠٠ ، وفي مختصر العلو ١٣٣.

(٥) في غ ، أ ، د ، ب ، ح١ ، ح٢ زيادة « محبا ».

(٦) تكلم ابن القيم عن المحبة والرد علىٰ من أنكرها في كتابه الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٣٥ ، وما بعدها ، وقد رد علىٰ المنكرين لها ولغيرها من الصفات الفعلية من ثلاثين وجهاً.

كتابنا المسمىٰ بـ « قرة عيون المحبين ، وروضة قلوب العارفين» ، وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية ، وأنه لا كمال [٣٨/ ب] للإنسان بدون ذلك البتة ، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة ، ولا لعينه إلا بالنور الباصر ، ولا لأذنه إلا بالسمع ، إنَّ الأمر فوق ذلك وأعظم.

فصل

الصنف الثاني

الصنف الثاني : القدرية النفاة ، الذين يثبتون نوعا من الحكمة والتعليل ، لا تقوم بالرب ، ولا ترجع إليه ؛ بل ترجع[1] إلىٰ مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا : ولهذا يجعلها الله عوضاً كقوله : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ[2] أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف : ٤٣]، وقوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل : ٣٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل : ٩٠] ، وقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل : «**يا عبادي ، إنما هي أعمالكم**

وأما ما أشار إليه من كتابه المسمىٰ « قرة عيون المحبين » فهو من الكتب المفقودة ، وهو غير كتاب « روضة المحبين ». انظر : كتاب ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره لبكر أبو زيد ١٧٩.

(١) هكذا في الأصل وفي النسخ الخطية الأخرىٰ «لا يقوم بالرب ، ولا يرجع إليه بل يرجع ».

(٢) في ح١ زيادة « التي ».

أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها[1] »[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجراً وثوابا؛ لأنه يثوب إلىٰ العامل من عمله، أي يرجع إليه[3].

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءا ولا أجراً ولا ثواباً معنىٰ.

قالوا: ويدل عليه الموازنة[4]؛ فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضاؤها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للموازنة[5] معنىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف: ٨-٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين. فالجبرية لم

---

(١) في ح١ زيادة « فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ».

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، (٤/ ١٩٩٤)، حديث (٢٥٧٧) عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: « يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي ... » الحديث، وفيه ما ذكره المؤلف. وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧) والترمذي (٤/ ٦٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢).

قال مسلم: قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث، جثا علىٰ ركبتيه.

(٣) في ح١، م، ب، د، ح٢، غ، أ، ق زيادة « منه ».

(٤) في أ، غ « الوزن ».

(٥) في أ، غ « الوزن ».

تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتة ، وجوزت أن يعذب الله من أفنىٰ عمره في طاعته ، وينعم من أفنىٰ عمره في معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء ، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل علىٰ[1] أعظم عملاً منه ، وأكثر وأفضل درجات ثم[2] والكل راجع [٣٩/ أ] إلىٰ محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت عليه رعاية الأصلح ، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنا لها ، وأن وصول الثواب إلىٰ العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله ما أجهلهم بالله وأغرهم به ! ، جعلوا تفضله وإحسانه إلىٰ عبده بمنزلة صدقة العبد علىٰ العبد[3] ، حتىٰ قالوا : إن إعطاءه ما يعطيه أجرة علىٰ عمله أحب إلىٰ العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة ، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرا في الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ؛ وهو أن الأعمال أسباب موصلة

---

(١) هكذا في جميع النسخ الخطية والأنسب للعبارة أن تكون العبارة هكذا : « علىٰ من هو أعظم».

(٢) « ثم » ساقطة من أ ، ق ، م ، ب ، غ ، د ، ح١ ، ح٢.

(٣) « علىٰ العبد » ساقطة من ح١.

إلىٰ الثواب والعقاب، مقتضيات لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنّه، وصدقته علىٰ عبده[1]، أن أعانه عليها، ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها، والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه، وكرّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست بثمن[2] لجزائه وثوابه، ولا هي علىٰ قدره؛ بل غايتها إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها علىٰ أكمل الوجوه أن تقع شكرا له علىٰ بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقيت عليه من الشكر بقية لم يقم بها[3]. فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً[4] من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[5]. ولهذا نفىٰ النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل، كمال قال: «**لن يُدخل**

---

(١) في ش، ح١ «عباده».

(٢) في غ، أ، ح١، ح٢، ب، د، ق «ثمنا»، وفي م «أثمانا».

(٣) في أ، ح١، ح٢، م، د، ب «لبقيت عليه من الشكر علىٰ تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها»، وفي ق «لبقيت عليه من الشكر علىٰ تلك النعمة بقية لم يقم بها».

(٤) في ح١، ب، غ، أ «خيرا لهم»؛ وفي ش «رحمته خيرا من ...».

(٥) ثبت ذلك عن النبي ﷺ من حديث زيد بن ثابت، فعن ابن الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من القدر، فأتيت زيد بن ثابت، فسألته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم، كانت رحمته لهم خيراً ...**». الحديث، أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٨٥)، وأبو داود في السنة، (٥/ ٧٥)، وابن ماجه في المقدمة، (١/ ٢٩)، وأخرجه موقوفا عن أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة كل من الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

أحدا منكم الجنة عملُه » ؛ وفي لفظ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » ، وفي لفظ : «لن ينجي أحداً منكم عمله[١] » [٣٩/ ب] قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ ، قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[٢]. وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ، ولا تنافي بينهما ، إذ توارد النفي والإثبات ليس علىٰ معنىٰ واحد ، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ثمنا وعوضا لها ، ردا علىٰ القدرية المجوسية ، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله تعالىٰ ، وأغلظهم عنه حجابا ، وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة ، ويكفي من جهلهم بالله ، أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه في منته ، وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنه[٣] إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه أعرفهم بهذه المنة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكرا لها ، وشكرا عليها ، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منتـــه؟ ، ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات : ١٧].

---

(١) سقط من ب من قوله : « وفي لفظ : « لن يدخل أحد منكم ... » إلىٰ هنا.

(٢) أخرج الحديث بألفاظه المختلفة ، البخاري في الرقاق ، (١١/ ٢٩٤) ، ح (٦٤٦٣ ، ٦٤٦٤ ، ٦٤٦٧) ، ومسلم في صفات المنافقين ، (٤/ ٢١٦٩) ، ح (٢٨١٦ ، ٢٨١٧ ، ٢٨١٨).

(٣) في ش ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ب « وأنهم ».

واحتمال منَّةِ المخلوق إنما كانت نقصا ؛ لأنه نظيره ، فإذا مـنَّ عليه استعلىٰ عليه ، ورأىٰ الممنون عليه نفسه دونه. وهذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله ﷺ المنة علىٰ أمته ، وكان أصحابه رضي الله عنهم يقولون[1] : «الله ورسوله أمَنّ »[2] ، ولا نقص في منة الوالد علىٰ ولده ، ولا عار عليه في احتمالها ، وكذلك السيد علىٰ عبده ؛ فكيف رب[3] العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في مجرد[4] منته عليهم ، ومحض صدقته عليهم ، بلا عوض منهم البتة؟ ، وإن كانت إعمالهم أسبابا لما ينالونه من كرمه وجوده ، فهو المان[5] عليهم ، بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها ، وكملها لهم ، وقبلها منهم علىٰ ما فيها ، وهذا هو المعنىٰ الذي [٤٠/ أ] أثبت[6] به دخول الجنة في قوله : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٣٢].

---

(١) في م ، ب ، د ، ق ، ح٢ زيادة « له ».

(٢) وهذا كما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في الزكاة ، (٢/ ٧٣٨) ، ح(١٠٦١) عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حُنيناً قسم الغنائم ، فأعطىٰ المؤلفة قلوبهم ، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس ، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ، ومتفرقين فجمعكم الله بي» ، ويقولون : الله ورسوله أمنّ ، فقال : « ألا تجيبوني» ، فقالوا : الله ورسوله أمنّ ... » الحديث.

(٣) في ب « برب ».

(٤) في ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، أ ، د « بحر ».

(٥) في ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، أ ، د « المنان ».

(٦) في ح٢ « ثبت ».

فهذه باء السببية ، ردا علىٰ القدرية الجبرية الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ، ولا هي أسباب له ، وإنما غايتها أن تكون أمارات. قالوا : وليست أيضا مطردة ، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر ، فلم يبق إلا محض الأمر والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء ، كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول(١) والفطرة أيضا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب مقدار قول أهل السنة ، وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله ، وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها ، وانعقادها بها شرعا وقدراً ، وترتيبها عليها عاجلا وآجلا.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعا من الحق ، (٢) ارتكبت(٣) لأجله نوعا من الباطل ؛ بل أنواعا. وهدىٰ الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] ، و ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤].

فصل

الصنف الثالث

الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ، واستعدادها لفيض العلوم عليها ، وخروج قواها عن قوىٰ النفوس السبعية

---

(١) في أ ، م ، ح١ « العقول ».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، ق ، د ، غ ، أ زيادة الواو.

(٣) في د « ارتكب ».

والبهيمية. فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. فالعبادات تخرجها عن مألوفها[1] وعوائدها، وتنقلها إلىٰ مشابهة العقول المجردة[2]، فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان:

إحداهما[3]: من تقرب[4] إلىٰ النبوات والشرائع من الفلاسفة[5]، القائلين بقدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسف من صوفية الإسلام، وتقرب إلىٰ الفلاسفة، [٤٠/ ب] فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسي، ونزول الواردات والمعارف عليها[6].

---

(١) في ش، ق، غ، ح٢، ب، أ، م «مألوفاتها».

(٢) معنىٰ العقل المجرد: أي المجرد عن المادة والصورة، ويطلق الفلاسفة لفظ العقول المجردة، ويقصدون بهم الملائكة تسترا بالإسلام.

انظر: كشاف اصطلاحات الفنون (٣/ ٣٠٥)، التعريفات (١٩٦).

(٣) في غ، ق «أحدهما».

(٤) في غ، ح٢، ح١، ب، أ، م «يقرب».

(٥) **الفلاسفة**: هم القائلون بقدم العالم، وأن علته مؤثرة بالإيجاب، وليست فاعلة بالاختيار، وأكثرهم ينكر علم الله تعالىٰ، وينكرون حشر الأجساد، ومن أعظمهم أرسطاليس، له كتب كثيرة نقل تلك الكتب عنه أبو علي بن سينا، وجميع الفلاسفة، يعتقدون في تلك الكتب اعتقادات عظيمة.

انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٩١، الموسوعة الفلسفية ٣١٦.

(٦) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٥٠٧، فقد ذكر هذا القول عنهم.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنىٰ ، فإذا حصل لها بقي مخيرا في حفظ أوراده ، أو الاشتغال[1] بالوارد عنها ، ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف ، وعدم الإخلال بها ، وهم صنفان أيضا :

أحدهما : يوجبونه حفظا للقانون ، وضبطا للناموس[2].

والآخرون : يوجبونه حفظا للوارد ، وخوفا من تدرج النفس بمفارقته[3] إلىٰ حالتها الأولىٰ من البهيمية.

فهذه نهاية أقدام المتكلمين[4] علىٰ طريق السلوك ، وغاية معارفهم[5] بحكم العبادة ، وما شرعت لأجله ، ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة علىٰ سبيل الجمع ، أو علىٰ سبيل البدل.



فصل

الصنف الرابع

وأما **الصنف الرابع** : وهم المحمدية الإبراهيمية ، أتباع الخليلين ، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه ، وأهل البصائر في عبادته ، ومراده بها.

---

(١) في ح٢ « واشتغال ».

(٢) القانون : أمر كلي منطبق علىٰ جميع جزئياته التي يتعرف أحكامها منه.

والناموس : هو الشرع الذي شرعه الله. انظر : التعريفات ٢١٩ ، ٣٠٧.

(٣) في م ، ب ، د ، ح٢ ، أ ، ق ، غ « بمفارقتها ».

(٤) في أ ، ب « السالكين » بدل « المتكلمين ».

(٥) في ح١ ، أ « مفارقهم » ، وفي غ «مفارقتهم».

فالطوائف الثلاثة[1] محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة. ما عندهم وراء ذلك شيء ، قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركب من هذه الأمور إيثار ما عندهم علىٰ ما سواه ، وهذه بلية الطوائف ، والمعافىٰ من عافاه الله تعالىٰ.

سرُّ العبودية وغايتها وحكمتها

فاعلم أن سر العبودية ، وغايتها وحكمتها إنما يطلع عليه[2] من عرف صفات الرب تعالىٰ ، ولم يعطلها. وعرف معنىٰ الإلهية وحقيقتها ، ومعنىٰ كونه إلها ؛ بل هو الإله الحق، وكل إله سواه [٤١/ أ] فباطل؛ بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات ، وكارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله ؟ ، وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، فلها خُلِقوا ، ولها أُرسلَت الرسل ، وأُنزلت الكتب ،

---

(١) في ح٢ ، م « الثلاث ».
(٢) في أ ، غ ، ح١ ، ب « عليها ».

ولأجلها خُلقَتْ الجنة والنار؟ ، وأن فرَض تعطيلِ الخليقة عنها نسبةٌ لله إلىٰ ما لا يليق به ، ويتعالىٰ عنه من خلق السماوات والأرض بالحق ، ولم يخلقها[1] باطلا ، ولم يخلق الإنسان عبثا ، ولم يتركه سدىٰ مهملا ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا[2]﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، أي لغير شيء ، ولا حكمة ، ولا لعبادتكم لي[3] ومجازاتي لكم ، وقد صرح تعالىٰ بهذا في قوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فالعبادة : هي الغاية[4] التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها ، وقال[5] تعالىٰ : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] ، أي مهملا. قال الشافعي رضي الله عنه[6] : لا يؤمر ولا ينهىٰ[7]. وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب[8]. والصحيح الأمران ، فإن

---

(١) في ق ، ش ، ح٢ ، ب ، غ ، أ « يخلقهما ».

(٢) في أ زيادة « وأنكم إلينا ترجعون ».

(٣) في م « ولا عبادتي » ، وفي أ ، ح٢ ، ب ، ح١ ، غ « ولا لعبادتي ».

(٤) في ب زيادة « القصوىٰ ».

(٥) في م ، ب ، د ، ح٢ ، أ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٦) أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، القرشي ، ثم المطلبي الشافعي المكي ، نسيب رسول الله ﷺ ، وابن عمه ، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ، ونشأ يتيماً في حجر أمه ، تحولت به ، وهو ابن عامين إلىٰ مكة ، ونشأ بها ، أفتىٰ وتأهل للإمامة وهو ابن نيف وعشرين ، وصنف في أصول الفقه وفروعه ، توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٢٠٤هـ ، وله نيف وخمسون سنة.
انظر : سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥ ، التاريخ الكبير ١/ ٤٢ ، حلية الأولياء ٩/ ٦٣.

(٧) ذكر ذلك في الرسالة ٢٥ ، وبمثل قوله قال الحسن. انظر : تفسير الطبري ٢٩/ ٢٠١.

(٨) لم أجد هذا القول إلا ما ورد في تفسير القرطبي عند تفسير الآية ، قال : وقيل : أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث. تفسير القرطبي ١٩/ ١٠٥.

الثواب و[1] العقاب مترتب علىٰ الأمر والنهي. والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا[2]﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، [3] ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا[4] كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه. فإذا كانت السماوات والأرض وما بينهما [٤١/ب] خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟، و[5] أن ذلك لمجرد استئجار العمال[6] حتىٰ لا يتكدر[7] عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها لمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيبُ الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريحُ الوحي يجد أصحابَ هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالىٰ إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له

(١) «الواو» ساقطة من ح١.

(٢) في ح١، م، ب، د، ح٢، غ، ق، أ زيادة «سبحانك فقنا عذاب النار».

(٣) في ش زيادة «وقال تعالىٰ».

(٤) في ح١ «ما».

(٥) في ح١، م، ب، أ، غ «أو».

(٦) في ح١، غ، أ «الأعمال».

(٧) في غ، أ، د، م، ح١، ح٢ «ينكد».

والانقياد لأمره.

أصل العبادة

فأصل العبادة: محبة الله ؛ بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب ما يحبه[١] لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه ، فعند اتباع الأمر [واجتناب][٢] النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ؛ ولهذا جعل سبحانه اتباع رسوله[٣] ﷺ علما عليها ، وشاهداً لمن ادعاها ، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون تحقق[٤] شرطه[٥] ، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة ، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله[٦] ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم ؛ فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله ، وثبوت محبة الله

---

(١) سقط من ح١ ، غ ، أ قوله : « ما يحبه » ؛ وفي م « ما يحب ».

(٢) زيادة من غ ، أ ، ب ، د ، ح١ ، ح٢ ، م.

(٣) في ح١ « رسله ».

(٤) في سائر النسخ « وجود » ؛ بدل « تحقق ».

(٥) في سائر النسخ زيادة « وتحققه بتحققه » ؛ و « بتحققه » ساقطة من ق ، ح١ .

(٦) في ح١ « لرسله ».

لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ.

ودل علىٰ أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتىٰ يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إلىٰ العبد مما سواهما. فلا [٤٢/ أ] يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله[1]. ومتىٰ كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه البتة، ولا يهديه الله تعالىٰ. قال[2] تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعةَ أحد[3] هؤلاء علىٰ طاعة الله ورسوله، أو قولَ أحد منهم علىٰ قولِ الله ورسوله، أو مرضاةَ أحد منهم علىٰ مرضاة الله ورسوله، أو خوفَ أحد منهم ورجاءَه والتوكلَ عليه علىٰ خوفِ الله ورجائِه والتوكلِ عليه. أو معاملةَ أحد منهم[4] علىٰ معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما

---

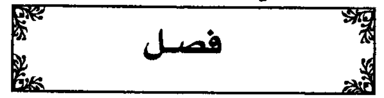
(١) وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان، كما قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ٦٠)، حديث (١٦).

(٢) في ح١، م، ب، أ، غ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في النسخ الخطية الأخرىٰ زيادة «من».

(٤) في ش، غ، أ، ح١، ح٢، م «هم» بدل «منهم».

سواهما ، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ما هو عليه ، وكذلك[1] من قدم حكم أحد علىٰ حكم الله ورسوله ، فذلك عنده أحب إليه من الله ورسوله ؛ لكن قد يشتبه الأمر علىٰ من يقدم قول أحد أو حكمه ، أو طاعته أو مرضاته، ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول ، فيطيعه، ويحاكم إليه ، ويتلقىٰ أقواله كذلك ، فهذا معذور إذا لم يقدر علىٰ غير ذلك ؛ وأما إذا قدر علىٰ الوصول إلىٰ الرسول ﷺ ، وعرف أن غير من اتبعه[2] أولىٰ به مطلقاً ، أو في بعض الأمور ، ولم يلتفت إلىٰ الرسول ولا إلىٰ من هو أولىٰ به ؛ فهذا[3] الذي يخاف عليه ، وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وآذاه[4] ، ولم يوافقه علىٰ اتباع شيخه ، فهو من الظلمة المعتدين ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.



فصل

تعريف العبودية

وبناءُ[5] «إياك نعبد» علىٰ أربع[6] قواعد : التحقق[7] بما يحبه الله [٤٢/ ب][8]

(١) في ح٢ زيادة « كل ».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، ح٢ ، د زيادة « هو ».

(٣) في ح١ زيادة « هو ».

(٤) في د ، ق ، ح٢ ، م ، غ ، أ « وأذله ».

(٥) في غ ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ « وبنىٰ ».

(٦) في الأصل وسائر النسخ « أربعة » ؛ والمثبت من ح٢.

(٧) في غ « التحقيق ».

(٨) في أ ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، م ، ق زيادة « ورسوله ».

ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب «إياك نعبد» حقا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه علىٰ لسان رسوله[1] ﷺ.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر له[2] علىٰ أوامره، وعن نواهيه، وعلىٰ أقداره، والرضىٰ به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحب إلىٰ الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلىٰ الخلق، ونحو ذلك.

فـ «**إياك نعبد**» التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و «**إياك نستعين**»

---

(١) في ح١، د، ح٢، غ، أ «رسله».

(٢) «له» ساقطة من ش، ب، د، ح١، ح٢، م.

طلب الإعانة عليها ، والتوفيق لها ، و « اهدنا الصراط المستقيم » متضمن للتعريف بالأمرين علىٰ التفصيل ، وإلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلىٰ الله بهما.

فصل

منزلة العبودية

وجميع الرسل إنما دعوا إلىٰ « إياك نعبد وإياك نستعين » ، فإنهم كلهم دعوا إلىٰ توحيد الله وعبادته ، من أولهم إلىٰ آخرهم. فقال نوح لقومه : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وكذلك قال هود، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم عليهم السلام ، قال(١) تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ [٤٣/أ] ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال(٢) تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون : ٥١-٥٢].

فصل

العبودية وصف أكمل الخلق

والله تعالىٰ جعل العبوديةَ وصف أكملِ خلْقِه ، وأقربِهم إليه ؛ فقال : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) في م ، ب ، د ، ح٢ ، غ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٢) في ب زيادة اسم الجلالة « الله ».

عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ، وهذا يبين أن الوقف التام في قوله : ﴿لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى[1] ٱلْأَرْضِ﴾ هاهنا ؛ ثم يبتدئ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ١٩-٢٠] ، فهما جملتان تامتان مستقلتان ، أي له من في السماوات ومن في الأرض عبيدا وملكا. ثم استأنف جملة أخرىٰ فقال : ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ ، يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته ، لا[2] يأنفون عنها ، ولا[3] يتعاظمون ، ولا يستحسرون ، فيعيون وينقطعون. يقال : حسر ، واستحسر ، إذا تعب وأعيا[4] ؛ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم. فالأول : وصف لعبيد ربوبيته. والثاني : وصف لعبيد إلهيته ، وقال تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٧][5] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : ٦٣] ، إلىٰ آخر السورة. وقال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان : ٦] ، وقال : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾

---

(١) « من في » ساقطة من غ ، أ ، ب ، م ، ح١ ، ح٢.

(٢) في غ « ولا ... ».

(٣) « لا » ساقطة من ح١.

(٤) انظر : المفردات للراغب الأصفهاني ١٢٥ ، لسان العرب ٢/ ٨٦٩ ، مادة (حسر).

(٥) سقط من أ ، غ ، ش ، د ، ح١ ، ق من قوله : «وقال تعالىٰ» إلىٰ هنا.

[ص: ١٧] ، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ [ص : ٤١] ، ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص : ٤٥] ، وقال عن سليمان : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ [٤٣/ ب] إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وقال عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : ٥٩] ، فجعل غايته العبودية، لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارىٰ لعنهم الله .

ووصف أكرمَ خلقِه عليه ، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته ؛ فقال : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣] ، وقال : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا[1]﴾ [الفرقان: ١]، وقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف : ١] ، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه ، و[2] التحدي بأن يأتوا بمثله ، وقال : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الجن : ١٩] ، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] ، فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه ﷺ[3] : « **لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله** »[4] ، وفي الحديث الآخر : «**إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد[5] ، وأجلس كما يجلس**

---

(١) سقط من غ ، د ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق قوله : « ليكون للعالمين نذيراً ».

(٢) في ش ، غ ، أ زيادة « في مقام ».

(٣) في ح١ ، م ، ب ، د ، ق ، ح٢ زيادة « أنه قال ».

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء ، (٦/ ٤٧٨) ، ح(٣٤٤٥) ، وأحمد (١/ ٢٣ ، ٢٤).

(٥) في ح١ ، م ، ب ، د ، ق ، ح٢ ، غ ، أ « العبيد ».

العبد[١]»[٢].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو[٣] قال: «**قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر**»[٤].

وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده؛ فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر: ١٧ - ١٨]، وجعل الأمن المطلق

---

(١) في ح١، م، ب، د، ح٢، غ، أ «العبيد».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن أيوب مرفوعاً (١٠/ ٤١٥)، وابن سعد في الطبقات عن عائشة (١/ ٣٨١)، والإمام أحمد في الزهد عن عطاء وعن الحسن مرسلا (١٧-١٨)، وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٣٤١)، وابن عدي في الكامل عن أنس (٥/ ١٩٧١)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه أبو يعلىٰ وإسناده حسن. وأورده الحسيني في البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث (١/ ٣٩-٤٠)، وقال: ولتعدد هذه الطرق رمز السيوطي لحسنه. وذكره الألباني في صحيح الجامع، وصححه (١/ ٦٠)، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٧٢)، وحكم له بالصحة.

(٣) أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، الإمام الحبر العابد. وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل، كان يكتب الكثير بإذن النبي ﷺ، وكان كثير الصيام والصلاة والقراءة، أسلم قبل أبيه، وكان إسلامه ومهاجره بعد سنة سبع، وشهد بعض المغازي، توفي سنة ٦٣هـ، وقيل ٦٥هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٩، طبقات ابن سعد ٤/ ٢٦١، التاريخ الكبير ٥/ ٥.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع، (٤/ ٣٤٢)، ح(٢١٢٥)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

لهم؛ فقال : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (١) ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٨ - ٦٩] ، وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة ، وجعل سلطانه علىٰ من تولاه وأشرك به ، فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، وقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٩-١٠٠].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلىٰ مراتب الدين ، وهو الإحسان [٤٤/ أ] ؛ فقال في حديث جبريل عليه السلام ، وقد سأله عن(٢) الإحسان : «**أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك** »(٣).

* * *

(١) سقط من هنا إلىٰ قوله « واتباع الأوامر » الآتي في ص ٣٨٧ من أ.

(٢) سقط من ش قوله : « وقد سأله عن ».

(٣) أخرج حديث جبريل المشهور البخاري عن أبي هريرة في الإيمان ، (١/ ١١٤) ، ح(٥٠) ، ومسلم عن أبي هريرة ، وعن عمر بن الخطاب في الإيمان ، (١/ ٣٦-٣٩) ، ح(٨ ، ٩).

فصل

في لزوم «إياك نعبد» لكل عبد إلىٰ الموت

لزوم العبودية إلىٰ الموت

قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦ - ٤٧]، واليقين هاهنا: الموت؛ بإجماع أهل التفسير(١).

وفي الصحيح في قصة [موت](٢) عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»(٣)، أي الموت وما فيه(٤)، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف؛ بل عليه في البرزخ عبودية أخرىٰ لما يسأله الملكان: من كان يعبد(٥)؟، وما يقول(٦) في رسول الله ﷺ؟؛ ويلتمسان منه الجواب(٧). وعليه عبودية أخرىٰ يوم القيامة، يوم يدعو الله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٦٦)، تفسير البغوي (٤/ ٤١٩)، تفسير القرطبي (١٩/ ٧٩).

(٢) زيادة من د، ح٢، غ.

(٣) أخرجه البخاري عن أم العلاء الأنصارية في الجنائز، (٣/ ١١٤)، حديث (١٢٤٣)، وأحمد (٦/ ٤٣٦).

(٤) سقط من د قوله: «وما فيه».

(٥) في ش «تعبده».

(٦) في ش «تقول».

(٧) حديث سؤال الملكين للميت في قبره أخرجه البخاري من حديث البراء بن عازب، وأنس ابن مالك في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، (٣/ ٢٣١-٢٣٢)، حديث (١٣٦٩، ١٣٧٤)، وأخرجه مسلم من حديثهما في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض

الخلق كلهم إلىٰ السجود ، فيسجد المؤمنون ، ويبقىٰ الكفار[1] والمنافقون لا يستطيعون السجود[2]. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن ظن أنه يصل إلىٰ مقام يسقط عنه التعبد ، فهو زنديق[3] كافر بالله ورسوله. وإنما وصل إلىٰ مقام الكفر بالله تعالىٰ ، والانسلاخ من دينه ، وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكثر من الواجب علىٰ من دونه ، ولهذا كان الواجب علىٰ رسول الله ﷺ ؛ بل علىٰ الرسل أعظم من الواجب علىٰ أممهم. [والواجب علىٰ أولي العزم أعظم من الواجب علىٰ من دونهم][4]. والواجب علىٰ أولي العلم أعظم من الواجب علىٰ من دونهم ؛ وكل أحد بحسب مرتبته.

مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١) حديث (٢٨٧٠-٢٨٧١) ، وأخرجه أبو داود في السنة من حديث البراء ، باب في المسألة في القبر (٥/ ١١٤).

(١) في غ « الكافرون ».

(٢) كما دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلىٰ السجود فلا يستطيعون» [القلم : ٤٢].

(٣) الزنديق : هو الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو المنافق الذي يظهر غير ما يبطن ، وقيل : هو الثانوي القائل بوجود إلـهين اثنين النور والظلمة ، ولـهذا قيل : إن هـذه الكلمة معرب (زندي) أي المؤمن بكتاب زند ، وهو كتاب زردشت المجوسي القائل بوجود إلـهين.
والزنديق كافر مع اعترافه بنبوة محمد ﷺ ؛ لأن في معتقداته ما هو كفر.
انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٣٠٢ ، لسان العرب ٣/ ١٨٧١.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

فصل
في انقسام العبودية إلىٰ عامة وخاصة

العبودية العامة

العبودية نوعان [٤٤/ب] عام وخاص[١].

فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله[٢]، برهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك؛ قال[٣] تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، فسماهم عباده مع ضلالهم؛ لكن تسمية مقيدة بالإشارة، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل [النوع][٤] الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ[٥].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ

---

(١) في د تقديم وتأخير «خاص وعام».

(٢) لفظ الجلالة سقط من ش.

(٣) في ح١، م، ب، د، ح٢، غ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٤) زيادة من ش، ح١، م، ب، د، ح٢، غ، ق.

(٥) سقط من م، د، ح٢، ق قوله: «إن شاء الله تعالىٰ».

تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴿٤٦﴾ [الزمر : ٤٦] وقال : ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ [غافر : ٣١].[1] ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ [غافر : ٤٨] ، فهذا يتناول العبودية العامة والخاصة.

العبودية الخاصة

وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر[2] ؛ قال تعالىٰ : ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ [الزخرف : ٦٨] ، وقال : ﴿فبشر عباد ﴿١٧﴾ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر : ١٧ - ١٨] ، وقال : ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما[3]﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وقال تعالىٰ عن إبليس : ﴿ولأغوينهم أجمعين ﴿٣٩﴾ إلا عبادك منهم المخلصين ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] ، وقال : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر : ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا علىٰ أحد خمسة أوجه : إما منكرا ؛ كقوله : ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ [مريم : ٩٣] [٤٥/أ].

---

(١) في م ، ح٢ زيادة « وقال تعالىٰ ».

(٢) إلىٰ هنا ينتهي السقط الذي في أ ، والذي كانت بدايته من ص ٣٨٣.

(٣) سقط من ح١ ، غ ، أ قوله : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ بدله « الآية ».

والثاني : معرفاً باللام ، كقوله : ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر : ٣١]،[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٨].

الثالث : مقيداً بإشارة أو نحوها ، كقوله : ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان : ١٧].

الرابع : أن يذكروا في عموم عباده ، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر ، كقوله : ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر : ٤٦].

الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم ؛ كقوله : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٥٣].

وقد يقال : إنما سماهم عباده إذا لم يقنطوا من رحمته ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلىٰ خاصة وعامة ؛ لأن أصل معنىٰ اللفظة : الذل والخضوع. يقال : طريق معبد ، إذا كان مذللا بوطء الأقدام. وفلان عبّده الحب ، إذا ذلَّه ؛ لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا له طوعا واختياراً ، وانقياداً لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

ونظير انقسام العبودية إلىٰ خاصة وعامة : انقسام القنوت إلىٰ خاص وعام ، والسجود كذلك ؛ قال تعالىٰ في القنوت[2] الخاص : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ

---

(١) في م زيادة « وقوله ».

(٢) في د « قنوت ».

سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال(١) : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ(٢) وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم : ١٢] ، وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام : ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم : ٢٦] ؛ أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ، وقال : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم : ٥٨] ، وهو كثير [في القرآن](٣).

وقال في السجود العام : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ [٤٥/ ب] وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾ [الرعد : ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكره غير السجود المذكور في قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج : ١٨] ، فخص هنا بالسجود(٤) كثيراً(٥) من

---

(١) في م ، غ ، أ ، ق ، ح١ ، ح٢ ، د زيادة « في حق مريم ».

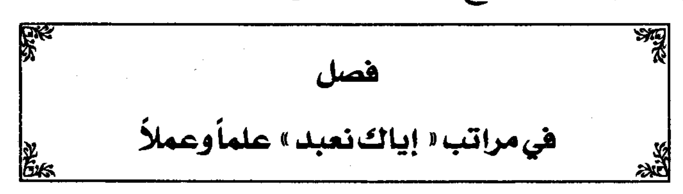
(٢) سقط من م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق ، ح١ قوله «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه».

(٣) زيادة من ح١ ، م ، ب ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٤) في ح١ ، ح٢ ، غ ، أ تقديم وتأخير « بالسجود هنا ».

(٥) في ح١ « كثير ».

الناس ، وعمهم بالسجود في سورة النحل[1] ، وهو سجود[2] الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته ، ذليل لعزته ، مقهور تحت سلطانه.



فصل
في مراتب « إياك نعبد » علماً وعملاً

للعبودية مراتب ، بحسب العلم والعمل ، فأما مراتبها العلمية فمرتبتان :

إحداهما[3] : العلم بالله. **والثانية**[4] : العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه[5] فخمس مراتب : العلم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان :

إحداهما[6]: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه[7].

---

(١) في ش « الرعد » بدل « النحل » ، ولعله هو الصواب ؛ لأن الآية التي ذكرها في السجود العام آية سورة الرعد ؛ وأما آية النحل فقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٤٩].

(٢) في أ زيادة « في ».

(٣) هكذا في ش ، د ، أ ، ح٢. وفي الأصل ، م ، ب ، ح١ ، غ ، ق « أحدهما ».

(٤) هكذا في ش ، د ، ح٢. وفي الأصل ، م ، ب ، ح١ ، غ ، أ ، ق « الثاني ».

(٥) في ب « بالله تعالىٰ » بدل « به سبحانه ».

(٦) هكذا في ش ، د ، أ ، ح٢ ، غ. وفي الأصل ، م ، ب ، ح١ ، ق « أحدهما ».

(٧) سقط من م قوله : «الموصل إليه».

والثانية[1] : دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه ، وقد دخل في هذا العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية ، فمرتبتان : مرتبة أصحاب[2] اليمين ، [ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين][3] فأداء[4] الواجبات ، وترك المحرمات ، مع ارتكاب المباحات ، وبعض المكروهات ، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والمكروهات ، زاهدين[5] فيما لا ينفعهم في معادهم ، متورعين[6] عما يخافون ضرره.

وخاصتهم : قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية ، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين ؛ بل كل أعمالهم راجحة. ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات ، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله تعالىٰ.

---

(١) هكذا في ح٢ ، ب ، د ، م ، ش. وفي الأصل ، ح١ ، غ ، أ ، ق « والثاني ».

(٢) في م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « لأصحاب ».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٤) في الأصل ، ش « بأداء ».

(٥) في الأصل ، ش ، أ ، ق ، ب ، غ ، ح١ ، د «زاهدون»

(٦) في الأصل ، ش ، أ ، ق ، غ ، ح١ ، د «متورعون».

فصل

مراتب العبودية

ورَحَىٰ العبوديةِ يدور[١] علىٰ خمس عشرة قاعدة. من كمّلَها كمَّل مراتب العبودية.

وبيانُها : أن العبودية منقسمة علىٰ القلب ، واللسان ، والجوارح. وعلىٰ كل منها عبودية تخصُّه[٢].

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، [٤٦/ أ] وحرام ، ومكروه ، ومباح[٣]. وهي لكل واحد من القلب ، واللسان والجوارح.

---

(١) في ب ، م ، ق « تدور ».

(٢) في ش « محضة ».

(٣) الواجب : هو ما أمر به الشارع علىٰ وجه الإلزام ، والواجب يثاب فاعله امتثالا ، ويستحق العقاب تاركه.

والمستحب : ما أمر به الشارع لا علىٰ وجه الإلزام ، والمندوب يثاب فاعله ، ولا يعاقب تاركه.

والمحرم : ما نهىٰ عنه الشارع علىٰ وجه الإلزام بالترك ، والمحرم يثاب تاركه امتثالا ، ويستحق العقاب فاعله.

والمكروه : ما نهىٰ عنه الشارع لا علىٰ وجه الإلزام بالترك ، والمكروه يثاب تاركه امتثالا ، ولا يعاقب فاعله.

والمباح : ما لا يتعلق به أمر ولا نهي لذاته ، وهو لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب لذاته.

انظر : الإحكام للآمدي ١/ ٩٦ ، وما بعدها ، روضة الناظر ١/ ٩٠ ، وما بعدها ، الأصول من علم الأصول للشيخ محمد العثيمين ، ص ٩-١١.

عبودية القلب

فواجب القلب : منه متفق علىٰ وجوبه ، ومختلف فيه.

فالمتفق علىٰ وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة[1] ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية للعبادة[2]. وهذه قدر زائد علىٰ الإخلاص ، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان : **أحدهما** : تمييز العبادة عن العادة. **والثانية** : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض. والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق ؛ والفرق بينه وبين الإخلاص : أن للعبد مطلوبا وطلبا ، فالإخلاص : توحيد مطلوبه ، والصدق : توحيد طلبه.

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسما. والصدق : أن لا يكون الطلب منقسما. فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة علىٰ وجوب هذه الأعمال علىٰ القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية ، ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية علىٰ الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب ، وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية لها طرفان ، واجب مستحق ، وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب ، وهو مرتبة المقربين.

---

(١) في ب زيادة « والصدق ».

(٢) في ح١ ، أ « في العبادة ».

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد رضي الله عنه: [ذكر الله][(١)] الصبر في[(٢)] تسعين موضعا من القرآن، أو بضعا وتسعين[(٣)]. وله طرفان أيضا: واجب مستحق، وكمال مستحب[(٤)].

حكم الرضا

وأما المختلف فيه فكالرضا[(٥)]. فإن في وجوبه قولين[(٦)] للفقهاء والصوفية. والقولان لأصحاب أحمد، فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

واحتجوا بأثر: « **من لَم يصبر علىٰ بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ رباً**

---

(١) زيادة من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق.

(٢) في ح٢ زيادة « نحو ».

(٣) قال أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٣٩٧): «قال بعض العلماء: وأي شيء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالىٰ في كتابه في نيف وتسعين موضعاً».
وكذلك هو في عوارف المعارف ٥/ ٢٢٩، وانظر ٢/ ١٥٢ من مدارج السالكين لابن القيم، فقد ذكر هذا القول، ونسبه إلىٰ الإمام أحمد.

(٤) تكلم ابن القيم علىٰ منزلة الصبر في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٥٢.

(٥) تكلم ابن القيم عن الرضا، وفصل فيه عند كلامه علىٰ منزلة «الرضا» في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٧١.
وقد ذكر الخلاف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في التحفة العراقية ٣٥٦، فقال: وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء، هل هو واجب أو مستحب علىٰ قولين.

(٦) في م، ب، غ « قولان ».

سواي »[١].

ومن قال هو مستحب ، قال : لم يجيء الأمر به في القرآن ولا في السنة ، بخلاف الصبر ، فإن الله أمر به [٤٦/ ب] في مواضع كثيرة من القرآن[٢]. وكذلك التوكل ؛ [قال تعالىٰ][٣] : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] ، وأمر بالإنابة ، فقال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر : ٥٤] ، وأمر بالإخلاص كقوله : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وقوله : ﴿ فَٱدْعُواْ[٤] ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ[٥] ﴾ [غافر : ١٤] ، وكذلك الخوف

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٢٧ عن سعيد بن زياد بن قائد بن زياد بن أبي هند الداري عن أبيه زياد عن أبيه قائد عن جده زياد بن هند عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله عز وجل : من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر علىٰ بلائي فليطلب رباً سواي».
وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٣٠-٢٣١.
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : رواه الطبراني ، وفيه سعيد بن زياد بن هند ، وهو متروك. وأورده الغزالي في الإحياء (٤/ ٣٤٥) ، وقال العراقي في تخريجه : إسناده ضعيف.
وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ١٦٩)، وأورده المناوي في الإتحافات السنية ٨٣.
قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام يقول : وأما ما روي من الأثر : «من لا يصبر علىٰ بلائي، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ ربا سواي» ، فهذا أثر إسرائيلي، ليس يصح عن النبي ﷺ . انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٧١).
وضعفه الألباني انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/ ٣-٤ ، ١٦٩).

(٢) في م ، ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق « كتابه ».

(٣) زيادة من ح٢.

(٤) في الأصل ، ش « فاعبدوا ».

(٥) سقط من م قوله : « له الدين».

كقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ[1] ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وكذلك الصدق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وكذلك المحبة ، وهي أفرض الواجبات ، إذ هي قلب العبادة المأمور بها ، ومخها وروحها.

وأما الرضا : فإنما جاء في القرآن مدح أهله ، والثناء عليهم ، لا الأمر به.

قالوا : وأما الأثر المذكور فإسرائيلي ، لا يحتج به[2].

قالوا[3] : و[4] في الحديث المعروف عن النبي ﷺ : « **إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع ، فإن في الصبر علىٰ ما تكره[5] خيراً كثيراً** » ، وهو في بعض السنن[6].

---

(١) في م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « إن كنتم مؤمنين ».

(٢) يقصد المؤلف الأثر السابق « من لم يصبر علىٰ بلائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ ربا سواي» ، وقد تقدم الكلام عليه.

(٣) في غ «وقالوا ».

(٤) « الواو » ساقطة من ب ، د ، ح١ ، ح٢ ، م.

(٥) في ش ، ح١ ، غ ، أ زيادة « النفس ».

(٦) هذا جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، (٤/ ٦٦٧) وأحمد (١/ ٣٠٧) ، وفيه : « **واعلم أن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيرا** » ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤) ، وفيه « **فاعمل لله تعالىٰ بالرضا في اليقين ، واعلم أن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً** » ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في التحفة العراقية ص (٣٥٦) ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس : « **إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيرا** » انتهىٰ كلامه.

قالوا : وأما قولكم : « لا خلاص عن التسخط إلا به » فليس بلازم ، فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة : الرضا ، وهو أعلاها. والسخط ، وهو أسفلها. والصبر عليه بدون الرضا به ، وهو أوسطها. فالأولى[١] للمقربين السابقين. والثالثة : للمقتصدين. والثانية : للظالمين[٢] ، وكثير من الناس يصبر علىٰ المقدور ، فلا يتسخطه[٣] ، وهو غير راض به ، فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل علىٰ بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم ، وظن أنهما متنافيان[٤]، وليس كما ظنه ، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في نهار[٥] رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به ، والبخيل متألم بإخراج زكاته[٦] ، راض بها ، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به[٧].

وقال ابن رجب : وفي رواية عمر مولىٰ غفرة ، وغيره عن ابن عباس زيادة أخرىٰ قبل هذا الكلام ، ثم ذكر هذه الزيادة التي ذكرها المؤلف. جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٥).

وأورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٧٧) ، فقال : وإلىٰ هذا ندب النبي ﷺ ابن عباس في وصيته له ، فقال : «**اعمل لله باليقين في الرضا، فإن لم يكن فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً**».

(١) في ح١ ، غ ، أ « فالأول ».

(٢) في الأصل ، غ « الثانية للمقتصدين ، والثالثة للظالمين ».

(٣) في م ، ب ، غ ، أ « يتسخط » ؛ وفي د ، ح١ ، ح٢ ، ش ، ق « يسخط ».

(٤) في غ ، أ « متباينان ».

(٥) في ق ، أ ، د ، غ ، ح١ ، م ، ح٢ « شهر ».

(٦) في ق ، أ ، د ، غ ، ح١ ، م ، ح٢ « زكاة ماله ».

(٧) انظر : مدارج السالكين ٢/ ١٧٥ من هذا الكتاب ، فقد تكلم ابن القيم عن هذه المسألة.

وهذا الخلاف بينهم ، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني ، وأما الرضا به ربا إلها ، والرضا بأمره الديني فمتفق علىٰ [٤٧/ أ] فرضيته ؛ بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا ، أن يرضىٰ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً(١).

ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة ، فيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره(٢) ؛ وعلىٰ القولين اختلافهم في وجوب الإعادة علىٰ من غلب عليه الوسوسة في صلاته ؛ فأوجبها ابن حامد(٣) من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالي(٤) في إحيائه ، ولم يوجبها أكثر الفقهاء(٥).

---

(١) في غ ، أ ، ح١ زيادة « ﷺ » بعد قوله رسولاً ، وفي د « وبمحمد ﷺ رسولاً ».

(٢) انظر الخلاف في مسألة الخشوع: المغني ٢/ ٣٧٥، الشرح الكبير مع المقنع والإنصاف ٣/ ٥٩٤.

(٣) أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي بن مروان ، البغدادي ، إمام الحنبلية في زمانه ومدرسهم ومفتيهم ، له المصنفات في العلوم المختلفات ، والجامع في المذهب ، وشرح الخرقي ، وشرح أصول الدين، وأصول الفقه، كان مجاهداً مناظراً في نصر السنة والحق ، كثير الحج ، توفي راجعا من مكة سنة ٤٠٣هـ.
انظر : طبقات الحنابلة ٢/ ١٧١ ، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٠٣ ، البداية والنهاية ١١/ ٣٧٣.

(٤) هو أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي ، صاحب التصانيف ، تفقه ببلده ، ثم رحل إلىٰ نيسابور ، فلازم إمام الحرمين ، فبرع في الفقه ، ومهر في الكلام والجدل ، ألف في الأصول والفقه والكلام والحكمة؛ من مؤلفاته: كتاب الإحياء، والأربعين ، ومحك النظر ، وغيرها ، ولد سنة ٤٥٠هـ ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ.
انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢ ، طبقات الشافعية ٤/ ١٠١ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٨٥.

(٥) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ١/ ١٦٠، الفتاوىٰ لابن تيمية ٢٢/ ٦٠٤، الإنصاف ٢/ ٩٨، الفروع لابن مفلح ١/ ٤٩٢.

واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو، ولم يأمره بالإعادة، مع قوله: « **إن الشيطان يأتيه في صلاته، فيقول اذكر كذا اذكر كذا**[١] **حتىٰ يضل الرجل إن يدري كم صلىٰ** »[٢]؛ ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب منها إلا بقدر حضور قلبه، وخشوعه، كما قال النبي ﷺ: « **إن العبد لينصرف من الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها، - حتىٰ بلغ عشرها** »[٣]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « **ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها** »[٤]، فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن

---

(١) في م « وكذا » بدل « اذكر كذا ».

(٢) أخرجه البخاري في السهو، (٣/ ١٠٣)، ح(١٢٣١) عن أبي هريرة، وفيه: « **فإذا قضىٰ التثويب أقبل حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا وكذا - ما لم يكن يذكر - حتىٰ يظل الرجل إن يدري كم صلىٰ ...** » الحديث. وأخرجه مسلم في المساجد، (١/ ٢٩١)، ح(٣٨٩)، قال ابن حجر: وأما قوله: « حتىٰ يظل الرجل إن يدري »، فقوله: « إن » بكسر الهمزة، وهي نافية.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١/ ٥٠٣) عن عمار بن ياسر بلفظ: « **إن الرجل لينصرف، وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها** »، وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٢١)، وصححه ابن حبان. انظر (الإحسان ٣/ ١٨٢). وحسنه الألباني. انظر: صحيح سنن أبي داود (١/ ٢٢٦)، صحيح الجامع ٢/ ٦٥)، المقنع والإنصاف (٣/ ٥٩٤).

(٤) أورد السهروردي في عوارف المعارف هذا الأثر مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ، فقال: وروىٰ عمار ابن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل** ». عوارف المعارف ص (١٦٨).

وأورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ١٩٨) عن عمار بلفظ: « **إنما يكتب للعبد من**

سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ، ولا ينبغي أن يطلق لفظ الصحة عليها ؛ فيقال : صلاة صحيحة مع أنه لا يثاب[1] فاعلها[2].

والقصد : أن هذه الأعمال واجبها ومستحبها هي عبودية القلب ، فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح. والمقصود أن يكون ملك الأعضاء قائما بعبوديته[3] لله تعالىٰ ، هو ورعيته.

صلاته ما عقل منها » ، ثم قال : وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد أنه إجماع ، فروينا عنه أنه قال : أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل. وقد عزا هذا القول لابن عباس شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوىٰ (٢٢/ ٦٠٣).

(١) في م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ زيادة « عليها ».

(٢) تكلم ابن القيم علىٰ هذه المسألة عند كلامه علىٰ منزلة الخشوع ، وذكر القولين ، وأدلة كل منهما ، ثم رجح القول الثاني القائل بعدم وجوب الإعادة ، فقال : فإن أردتم وجوب الإعادة لتحصل هذه الثمرات والفوائد فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها علىٰ نفسه ، وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه علىٰ تركها ، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة ، فلا ، وهذا القول الثاني أرجح القولين ، والله أعلم.

مدارج السالكين ١/ ٥٢٥-٥٣٠ ، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٣٢.

قال الآمدي في تعريف الصحة : أما في الشرع فقد تطلق الصحة علىٰ العبادات تارة ، وعلىٰ العقود تارة.

أما في العبادات فعند المتكلم الصحة عبارة عن موافقة أمر الشارع ، وجب القضاء أو لم يجب ، وعند الفقهاء ، الصحة : عبارة عن سقوط القضاء بالفعل. انظر : الإحكام ١/ ١٣٠ ، روضة الناظر ١/ ١٦٤.

(٣) في غ « بعبودية ».

وأما المحرمات التي عليه فكالكبر[1]، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق؛ وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر كالشك[2]، والنفاق، والشرك[3]، وتوابعها[4].

---

(١) في ش، ب، د، ح١، ح٢، م « فالكبر ».

(٢) في ب « كالشرك ».

(٣) في ب « كالشك ».

(٤) الكفر ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: كفر أكبر، وهو مخرج لصاحبه من الإيمان موجب للخلود في النار، وهو خمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

القسم الثاني: كفر أصغر: وهو غير مخرج لصاحبه من الإيمان، وموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود.

وكفر الشك: هو أن لا يجزم بصدق الرسول ﷺ، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ.

وكفر النفاق: هو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه علىٰ التكذيب، وهذا هو النفاق الأكبر الموجب للخلود في النار. وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق العملي الذي لا يخرج من الملة، كما في حديث « **آية المنافق ثلاث ...** ».

وأما الشرك: فهو نوعان: أكبر: وهو تسوية غير الله بالله، كمن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، وهو موجب للخلود في النار، ولا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وأما **الشرك الأصغر**: فهو ما ورد من الأعمال تسميته شركاً، ولم يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر، وذلك كيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت.

انظر: المدارج ١/ ٣٣٥-٣٤٧، المفردات للأصفهاني ٤٣٥، ٢٦٩، ٥٠٤، ٢٦٢، وانظر أيضاً كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية د. محمد الوهيبي.

والمعصية نوعان : كبائر ، وصغائر[١].

فالكبائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والقنوط من رحمة [٤٧/ ب] الله تعالىٰ ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذىٰ المسلمين ، والشماتة بمصيبتهم ، ومحبته أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم علىٰ ما أتاهم الله من فضله ، وتمنىٰ زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا ، وشرب الخمر ، وغيرهما من الكبائر الظاهرة ، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها ، والتوبة منها ، وإلا فهو قلب فاسد ، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها.

فوظيفة « إياك نعبد » علىٰ القلب قبل الجوارح ، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد ، وبحسب قيامه بها[٢] يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه ، وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها ، وخفتها ودقتها[٣].

---

(١) اختلف في تعريف الكبيرة علىٰ أقوال ، ومن أحسن وأجمع التعاريف أنها : ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا ، أو عذاباً في الآخرة ، أو ورد فيها وعيد بنفي إيمان، أو لعن ونحوهما.

والصغيرة : ما عدا ذلك من المعاصي.

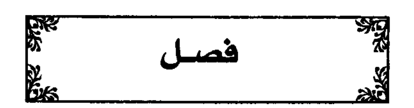
انظر : الفتاوىٰ ١١/ ٦٥٠-٦٥٨ ، المدارج ١/ ٣١٥-٣٢٧ ، المفردات ٤٢٣ ، لوامع الأنوار البهية ١/ ٣٦٥.

(٢) في م « بهذه ».

(٣) انظر الكلام علىٰ هذه المسألة في : المدارج ١/ ٣٢٨ ، الفتاوىٰ ١١/ ٦٥٩.

ومن الصغائر أيضا شهوة المحرمات وتمنيها ، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتهىٰ ، فشهوة الكفر والشرك كفر ؛ وشهوة البدعة فسق ، وشهوة الكبائر معصية ، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب ، وإن تركها عاجزاً مع بذله مقدورَه في تحصيلِها استحقَّ عقوبةَ الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ : «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار** » . قالوا : هذا القاتل يا رسول الله ، فما بال المقتول؟ ، قال : « **إنه كان حريصا علىٰ قتل صاحبه**»[1] ؛ فنزله منزلة القاتل لحرصه في[2] الإثم دون الحكم ؛ وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد عُلم بهذا مستحبُّ القلب ومباحُه.



فصل

عبودية اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس[3] ، فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته [٤٨/ أ] من القرآن ، وهو ما تتوقف[4] صحة صلاته عليه ، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح في

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي بكرة في الإيمان ، (١/ ٨٤) ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ، (٤/ ٢٢١٣) ، ح(٢٨٨٨).

(٢) في أ « علىٰ ».

(٣) في ب ، م ، غ ، ش ، ح١ ، ق ، ح٢ « الخمسة » ؛ وفي د « خمسة ».

(٤) في ب ، م « يتوقف ».

الركوع والسجود، وأمر بقول « **ربنا ولك الحمد** » بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن **واجبه** : رد السلام ؛ وفي ابتدائه قولان.

ومن **واجبه** : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما **مستحبه** : فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما **محرمه** : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول علىٰ الله بلا علم، وهو أشدها تحريما.

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين ؟، علىٰ قولين : ذكرهما ابن المنذر[1] وغيره، أحدهما : أنه لا يخلو كل

(١) هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة، وصاحب التصانيف منها : الإشراف في اختلاف العلماء، وكتاب الإجماع، وكتاب المبسوط، ولد في حدود موت أحمد بن حنبل، وعداده في فقهاء الشافعية، قال النووي : له اختيار فلا يتقيد في الاختيار بمذهب بعينه ؛ بل يدور مع ظهور الدليل، توفي سنة ٣١٨هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٩٠، طبقات الشافعية ٢/ ١٢٦، شذرات الذهب ٢/ ٢٨٠.

متكلم[1] به ، إما أن يكون له أو عليه ، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور ؛ وهو « **كل كلام ابن آدم عليه ، لا له ، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه** »[2].

واحتجوا[3] بأنه يكتب عليه كلامه كله ، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة : بل في[4] الكلام مباح لا له ولا عليه ، كما في حركات الجوارح.

قالوا : لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي ، وهذا شأن المباح.

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ، بل إما راجحة وإما مرجوحة ، لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح ، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر[5] اللسان ، [٤٨/ ب] تقول : «**اتق الله [فينا]**[6] ،

---

(١) في م ، أ ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ « ما يتكلم » بدل « متكلم » ؛ وبدله في غ « ما تكلم ».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ، (٤/ ٦٠٨) عن أم حبيبة عن النبي ﷺ قال : « **كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله**»، وقال: هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن ، (٢/ ١٣١٥) ، وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١٢) ، وضعفه الألباني.

انظر : ضعيف سنن ابن ماجه.

(٣) في ش زيادة « عليه ».

(٤) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، د ، ق ، م زيادة « هذا ».

(٥) في ش « تذكر ». ومعنىٰ تكفر : أي تذل وتخضع له ، وتقر له بالطاعة. انظر : النهاية ٤/ ١٨٨ ، لسان العرب ٥/ ٣٩٠٢ ، مادة : (كفر).

(٦) زيادة من ح٢.

فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[1]، وأكثر ما يكب الناس علىٰ مناخرهم في النار[2] حصائد ألسنتهم[3]. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أم لا؛ فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف سائر حركات الجوارح، فإن صاحبها قد[4] ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة، فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري في الزهد، (٤/ ٦٠٥)، رواه مرفوعاً موقوفا، ثم قال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد، ولم يرفعوه. وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ٩٦).

(٢) في ح١ تقديم وتأخير «في النار علىٰ مناخرهم».

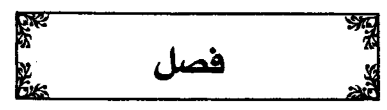
(٣) ورد ذلك في الحديث الذي أخرجه الترمذي في الإيمان، (٥/ ١١) عن معاذ بن جبل قال: قلت: «يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار...»؛ فذكر الحديث، وفيه: قول النبي ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه ابن ماجه في الفتن، (٢/ ١٣١٤)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٤) ساقطة من غ، أ، د، ح١، ح٢، ق.

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة ، وعند[1] عدم الحاجة عبث[2] مرجوحة لا تفيده ؛ فتكون عليه لا له.

فإن قيل : إذا[3] كان[4] الفعل متساوي الطرفين ، كانت حركة اللسان الوسيلة إليه كذلك ، إذ الوسيلة[5] تابعة للمقصود في الحكم.

قيل : لا يلزم ذلك ، فقد يكون الشيء مباحا ؛ بل واجبا ، ووسيلته مكروهة ، كالوفاء بالطاعة المنذورة ، هو واجب ، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء، أو[6] الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جداً ، فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها ، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.



فصل

عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس علىٰ الجوارح فعلىٰ[7] خمسة وعشرين مرتبة أيضاً.

---

(١) في أ « ومع ».

(٢) في أ ، ق ، د ، غ ، ح٢ ، ح١ « إليها ».

(٣) في سائر النسخ « فإذا ».

(٤) في أ زيادة « ذلك ».

(٥) في غ ، أ « الوسائل ».

(٦) في ح٢ « و ».

(٧) في غ ، أ ، ش « علىٰ ».

إذ الحواس خمسة ، وعلىٰ كل حاسة خمس عبوديات.

فعلىٰ السمع وجوب الإنصات ، والاستماع [٤٩/ أ] لما أوجبه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ عليه ، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء(١).

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة ، من رده ، أو الشهادة علىٰ قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ، ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولا يحب أن يطلعك عليه ، ما لم يكن متضمنا لحق لله(٢) يجب(٣) القيام به ، أو لأذىٰ مسلم يتعين نصحه ، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشىٰ الفتنة بأصواتهن ، إذا لم يدع(٤) إليه حاجة ، من شهادة ، أو معاملة ، أو استيفاء ، أو محاكمة ، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو كالعود والطنبور واليراع(٥) ،

---

(١) انظر : المغني لابن قدامة ٣/ ١٩٣-١٩٦.

(٢) في غ ، ش ، ح١ « الله ».

(٣) في ش « بحسب ».

(٤) في م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، ق « تدع ».

(٥) العود : آلة موسيقية وترية يضرب عليها بريشة ونحوها.

ونحوها. ولا يجب عليه سد[1] أذنه[2] إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنب سمعه[3] وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مسامه[4] لم يجب عليه سد أنفه.

ونظير هذا نظرة الفجاءة لا تحرم علىٰ الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

انظر: لسان العرب ٤/ ٣١٦٠، المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٥، مادة (عود).

الطنبور: آلة من آلات اللعب واللهو والطرب، ذات عنق، وأوتار.

انظر: لسان العرب ٤/ ٢٧٠٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٦٧، مادة (طرب).

اليراع: هي القصبة التي يزمر فيها الراعي.

انظر: لسان العرب ٦/ ٤٩٥٥، المعجم الوسيط ٢/ ١٠٦٤، مادة (يرع).

(١) في د «شد».

(٢) في ح٢ «أذنيه».

(٣) في م «سمعها»؛ وفي ب، ح١، د، ح٢، غ، أ «سماعها».

(٤) في غ، أ، ب، د، م، ح١، ح٢، ق «مشامه».

وأما **النظر الواجب** : فالنظر في المصحف ، وكتب العلم عند تعين تعلم[1] الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال [٤٩/ ب] من الحرام في الأعيان التي يأكلها ، وينفقها ، ويستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها إلىٰ أربابها ليميز بينها ، ونحو ذلك.

والنظر الحرام : النظر إلىٰ الأجنبيات بشهوة مطلقاً ، وبغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب، والمستام، والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم[2].

والمستحب : النظر في كتب العلمْ والدين الذي يزداد به[3] الرجل إيمانا وعلما ، والنظر في المصحف ، ووجوه العلماء والصالحين والوالدين ، والنظر في آيات الله المشهودة ، ليستدل بها علىٰ توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه : فضول النظر التي لا مصلحة فيها ، فإن له فضولا كما للسان فضولا ، وكم قادت فضولها إلىٰ فضولٍ عزَّ التخلصُ منها ، وأعيا دواؤها[4] ، وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول[5]

---

(١) في ش « نقل ».

(٢) انظر في بيان من يباح له النظر من الأجانب : المغني ٩/ ٤٩٨.

(٣) في ش ، غ ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ « بها ».

(٤) معنىٰ أعيا دواؤها : أي أعجز وصعب علاجها ، قال ابن المنظور : داء عياء : لا يبرأ منه ، ... وحكي عن الليث : الداء العياء الذي لا دواء له ... قال الجوهري : داء عياء : أي صعب ، لا دواء له ، كأنه أعيا علىٰ الأطباء. انظر : لسان العرب ٤/ ٣٢٠٢ ، مادة (عيا) ، المعجم الوسيط ٢/ ٦٤٢.

(٥) ساقطة من ح٢.

الكلام»[1].

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل ولا[2] الآجل، ولا منفعة.

ومن **النظر الحرام**: النظر إلىٰ العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هدراً، بنص رسول الله ﷺ [في الحديث][3] المتفق علىٰ صحته[4]، وإن ضمَّنه[5] بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله[6].

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها.

---

(١) هذا القول لداود بن نصير الطائي، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الرحمن بن مصعب، قال: رؤي علي داود الطائي جبة متخرقة، فقال له رجل: لو خيطتها؟، قال: أما علمت أنه نهىٰ عن فضول النظر. وروي عنه أيضاً من طريق أخرىٰ أنه قال له بعض من حضر: لو أذنت لي خيطته، فقال: كانوا يكرهون فضول الكلام. وروي ذلك عنه في قصص أخرىٰ أنه قال ذلك. انظر: الحلية (٧/ ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦١).

(٢) في ش زيادة «في».

(٣) زيادة من م، ب، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الديات، (١٢/ ٢٤٣)، ح(٦٩٠٢)، عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: **«لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة، ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح»**. وأخرجه مسلم في الآداب (٣/ ١٦٩٩)، ح(٢١٥٨).

(٥) في م، ح١، ب «ضعفه».

(٦) انظر الكلام علىٰ الخلاف في ذلك في: فتح الباري ١٢/ ٢٤٥.

وأما **الذوق الواجب** : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه ، وخوف الموت ، فإن تركه حتىٰ مات مات[1] عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس[2] رضي الله عنهما : من اضطر إلىٰ أكل الميتة فلم يأكل حتىٰ مات ، دخل النار[3].

ومن هذا : [٥٠/ أ] تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك ، علىٰ أصح القولين ، وإن ظن الشفاء به ، فهل هو مستحب أو مباح والأفضل تركه؟ ، فيه نزاع معروف بين السلف والخلف[4].

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة ، والذوق الممنوع منه للصيام الواجب.

---

(١) في م « صار ».

(٢) طاووس بن كيسان الفقيه القدوة ، عالم اليمن ، أبو عبد الرحمن الفارسي ثم اليمني الحافظ ، سمع من زيد بن ثابت ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وزيد بن أرقم ، ولازم ابن عباس مدة ، ويعد من كبار أصحابه ، وروىٰ عن غيرهم ، كان من عباد أهل اليمن ، ومن سادات التابعين ، توفي سنة ١٠٦هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٥٣٧ ، التاريخ الكبير ٤/ ٣٦٥.

(٣) ذكر ذلك ابن قدامة في المغني ، فقال : وهل يجب الأكل من الميتة علىٰ المضطر؟ ، فيه وجهان ، أحدهما : يجب ، وهو قول مسروق ، وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي ، قال الأثرم : سئل أبو عبد الله عن المضطر يجد الميتة ولم يأكل؟ ، فذكر قول مسروق : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب فمات ، دخل النار. المغني ١٣/ ٣٣١.

(٤) انظر الكلام في هذه المسألة ، وذكر الخلاف فيها في : كتاب قوت القلوب ٢/ ٤٣ ، الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٣٥٨.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المتبارين[1] في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ «**نهىٰ عن طعام المتبارين**»[2]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيب[3] نفس.

---

(١) في غ، أ، ح١، ح٢، د، م «المرائين».

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، (٤/ ١٣٢) عن عكرمة عن ابن عباس بلفظ: «**إن النبي ﷺ نهىٰ عن طعام المتباريين أن يؤكل**»، قال أبو داود: أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس، وهارون النحوي ذكر فيه ابن عباس أيضاً، وحماد بن زيد لم يذكر ابن عباس.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأورده التبريزي في مشكاة المصابيح (٢/ ٩٦٢)، وقال: رواه أبو داود. وقال محي السنة: والصحيح أنه عن عكرمة عن النبي ﷺ مرسلا. وصححه الألباني، وقال: أخرجه أبو داود وغيره بإسناد رجاله ثقات، لكنهم صححوا أنه مرسل، كما بينته في التعليق علىٰ المشكاة، وهو مرسل صحيح الإسناد ... لا سيما وقد أودعه الضياء المقدسي في المختارة؛ وأشار إلىٰ الخلاف في وصله وإرساله.

انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٠٣)، صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٣٨)، وله شاهد من حديث أبي هريرة بلفظ: «المتباريان لا يجابان ولا يؤكل طعامهما». أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٢٠١)، وأورده التبريزي في المشكاة (٢/ ٩٦٣)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٠٢).

ومعنىٰ المتباريين أي المتفاخرين، قال الإمام أحمد: يعني المتعارضين بالضيافة فخراً ورياء. انظر: المشكاة (٢/ ٩٦٣).

(٣) في غ، أ، ح١، ح٢، ق، د، م «بطيبة».

والذوق المستحب : أكل ما يعينك علىٰ طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه ، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها[1] ، للأمر به من الشارع[2].

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم ، فالشم الواجب : كل شم تعين[3] طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام ، كالشم الذي يعلم[4] به هذا العين[5]، هل هو خبيث أو طيب ، وهل هو سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ ، أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به ، و[ما][6] لا يملكه؟ ، ومن هذا شم المقوم ، ورب الخبرة ،

---

(١) سقط من ب قوله : « وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها ».

(٢) يدل علىٰ ذلك الحديث الذي أخرجه أبو داود في الصيام ، باب في الصائم يدعىٰ إلىٰ وليمة (٢/ ٨٢٨) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا دُعي أحدكم فليجب ، فإن كان مفطراً فليطعم ، وإن كان صائما فليصل** ».

وفي حكم إجابة الداعي إلىٰ الوليمة ، وحكم الأكل منها انظر تفاصيل ذلك في المغني ١٠/ ١٩٣ وما بعدها.

(٣) في غ ، أ ، ح٢ ، م « يعين ».

(٤) في ق « تعلم ».

(٥) في م ، ب ، ق « المعين ».

(٦) زيادة من أ ، ب.

عند الحكم في التقويم[(١)] ، والعيب[(٢)] ، ونحو ذلك.

وأما **الشم الحرام** : فالتعمد لشم الطيب في الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق ، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما **الشم المستحب** : فشم ما يعينك علىٰ طاعة الله ، ويقوي الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل [٥٠/ ب]. ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك ، وفي صحيح مسلم رضي الله عنه [(٣)] عن النبي ﷺ : « **من عرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنه طيِّبُ الريح ، خفيف المحمل** »[(٤)].

والمكروه : كشم طيب الظَّلَمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك.

---

(١) في أ ، ق ، ح١ ، ح٢ ، د ، م ، غ « بالتقويم ».

(٢) في أ ، غ ، ح١ « العبيد ».

(٣) هو الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري ، صاحب الصحيح ، ولد سنة ٢٠٤هـ ، أول سماعه سنة ثمان عشرة من يحيىٰ بن يحيىٰ التميمي ، حج سنة عشرين ، وسمع بمكة من القعنبي ، وهو أكبر شيخ له ، وسمع من أحمد بن يونس بالكوفة ، ذكر الذهبي شيوخه مرتبين علىٰ حروف المعجم ، وكذلك الراوية عنه ، توفي سنة ٢٦١هـ بنيسابور.

انظر : سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٥٧ ، الجرح والتعديل ٨/ ١٨٢ ، طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٧.

(٤) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب ، (٤/ ١٧٦٦) ، ح(٢٢٥٣) عن أبي هريرة به ، وأبو داود في الترجل ، (٤/ ٤٠٠) ، من حديث أبي هريرة بلفظ : « **من عرض عليه طيب فلا يرده ، فإنه طيب الريح خفيف المحمل** ». وأخرجه مسلم في الزينة ، باب الطيب (٨/ ١٨٩) بلفظ أبي داود.

والمباح : ما لا منع[1] فيه من الله ولا تبعة ، ولا فيه مصلحة دينيّة ؛ [ولا تعلق له بالشرع][2].

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس ، **فاللمس الواجب** : كلمس الزوجة حين يجب جماعها ، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام : لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله.

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة ، وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام إذا لم يأمن نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت لغير غاسله ؛ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريما له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون ، وتغسيله في قميص[3] في أحد القولين[4] ، ولمس فخذ الرجل ، إذا قلنا : هو[5] عورة.

والمباح : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

---

(١) في م « منفعة ».

(٢) زيادة من م ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ح١ ، ق.

(٣) في ب ، أ « قميص واحد ».

(٤) انظر الخلاف في ذلك في : المغني ٣/ ٣٦٨.

(٥) في ش ، ح١ ، غ ، أ « هي ».

وهذه المراتب أيضاً[١] على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى. فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب، وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح وجوبه لتمكنه من أداء دينه[٢]، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه[٣].

ومن **البطش الواجب**[٤]: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء، والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المعصوم[٥]، وضرب من لا يحل ضربه، ونحو ذلك، وكأنواع اللعب [٥١/ أ] المحرم بالنص كالنرد[٦]، أو

---

(١) في غ، ح١، ح٢، د، ق، ب، م، أ زيادة لفظة: «مرتبة».

(٢) انظر الخلاف في وجوب التكسب لقضاء الدين وإجبار الحاكم للمفلس الذي له صنعة على إيجار نفسه في: المغني ٦/ ٥٨١، المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ١٣/ ٣٣٩.

(٣) تكلم عن الاستطاعة وأحكامها ابن قدامة في المغني ٥/ ١٢٠٨.

(٤) في ب زيادة «عليه».

(٥) في الأصل «المغصوب».

(٦) ورد في ذلك ما أخرجه مسلم في كتاب الشعر (٤/ ١٧٧٠) ح(٢٢٦٠)، من حديث بريدة: أن النبي ﷺ قال: «**من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**»، النرد: هو شيء يلعب به، وهو عبارة عن لعبة ذات صندوق وحجارة وفصين، تعتمد على الحظ، وتنقل فيها الحجارة على حسب ما يأتي به الفص. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/ ٣٩، لسان العرب ٦/ ٤٣٩٢، المعجم الوسيط ٢/ ٩١٢، مادة (نرد).

ما هو أشد تحريما منه عند أهل المدينة ، كالشطرنج[١] ، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم ، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً ونسخاً ، إلا مقروناً بردِّها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم ، والحكم الجائر ، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة علىٰ المسلمين في دينهم أو دنياهم ، ولا سيما إن كسب عليه ما لا ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة : ٧٩] ، وكذلك كتابة المفتي علىٰ الفتوىٰ ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً، فالإثم موضوع عنه[٢].

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة ما لا[٣] فائدة في كتابته ، ولا منفعة في الدنيا ولا[٤] في[٥] الآخرة.

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين[٦] ، أو مصلحة لمسلم ،

---

(١) الشطرنج : لعبة تلعب علىٰ رقعة ذات أربعة وستين مربعا ، وتمثل دولتين متحاربتين باثنتين وثلاثين قطعة تمثل ملكين والوزيرين والخيالة والقلاع والفيلة والجنود. المعجم الوسيط ١/ ٤٨٢.

(٢) لحديث : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر ». أخرجه البخاري عن عمرو بن العاص في الاعتصام ١٣/ ٣١٨.

(٣) في ح٢ « ما ليس ».

(٤) « لا » ساقطة من ش ، غ.

(٥) « في » ساقطة من ش ، غ ، د.

(٦) في م ، ح٢ زيادة « والدنيا ».

والإحسان بيده ، بأن يعين صانعا ، أو يصنع لأخرق ، أو يفرغ من دلوه في دلو المستقي[1] ، أو يحمل له[2] علىٰ دابته ، أو يمسكها حتىٰ يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ، أو[3] نحو ذلك. ومنه لمس الركن بيده في الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان[4].

والمباح : ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلىٰ الجمعات والجماعات في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلا ، مذكورة في غير هذا الموضع[5] ، والمشي حول البيت للطواف الواجب ، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشي إلىٰ حكم الله ورسوله إذا دعي إليه ، والمشي إلىٰ صلة رحمه ، وبر والديه ، والمشي إلىٰ مجالس العلم الواجب طلبه ، أو[6] تعلمه ، والمشي إلىٰ الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

---

(١) في ح١ ، أ ، م « المستسقىٰ » ، وسقط من ق لفظ « في دلو ».

(٢) « له » ساقطة من ح٢.

(٣) في د ، ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، ب ، ق ، أ « و ».

(٤) قال ابن قدامة في المغني : فإذا وصل إلىٰ الرابع وهو الركن اليماني ، استلمه ، قال الخرقي : ويقبله ، والصحيح عند أحمد أنه لا يقبله ، وهو قول أكثر أهل العلم. المغني ٥/ ٢٢٦.

(٥) ذكر ابن القيم ذلك في كتابه : « الصلاة وحكم تاركها » ، فضمنه مسائل مهمة في حكم تارك الصلاة ، والخلاف في ذلك ، وأدلة كل منهم ، وذكر حكم صلاة الجماعة ، والأدلة علىٰ ذلك.

(٦) في م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، ق « و ».

والحرام: المشي في[1] معصية الله، وهو من رَجِل الشيطان؛ [٥١/ ب] قال تعالىٰ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، قال مقاتل رضي الله عنه[2]: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس لعنه الله[3].

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمسة بالركوب أيضاً.

فواجبه: [4] الركوب للغزو[5]، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: [6] الركوب للمستحب[7] من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع؛ هل الركوب فيه أفضل، أم علىٰ الأرض؟، والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة، من تعليم

---

(١) في سائر النسخ «إلىٰ»، والمثبت من الأصل، و ش.

(٢) أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي، كبير المفسرين، يروي عن مجاهد، والضحاك، وعطاء، وغيرهم، قال ابن المبارك: ما أحسن حديثه لو كان ثقة، وقال البخاري: مقاتل لا شيء البتة، توفي سنة نيف وخمسين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠١، طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٣.

(٣) روىٰ ابن جرير الطبري عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال: خيله: كل راكب في معصية الله، ورجله: كل راجل في معصية الله. وروىٰ ذلك أيضاً عن مجاهد، وقتادة. انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١١٨-١١٩)، وانظر قول مقاتل في تفسير البغوي (٣/ ١٢٣).

(٤) في ح١، غ، د، أ، ق زيادة «في».

(٥) في ق «في الغزو».

(٦) في ح١، غ، د، أ، ق، ح٢، م زيادة «في».

(٧) في ح١، أ، غ «المستحب».

للمناسك ، واقتداء به ، وكان أعون له[1] علىٰ الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر علىٰ الدابة[2].

وحرامه : الركوب في معصية الله.

ومكروهه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت[3] أجر ، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة علىٰ عشرة أشياء : القلب،[4] والسمع، والبصر، واللسان، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء علىٰ ظهر الدابة.

* * *

(١) في ح١ « عونا له ».

(٢) انظر : المغني ٥/ ٢٦٧.

(٣) في ب ، ش « فوات ».

(٤) في غ ، ح١ ، أ ذكر « اللسان » هاهنا تقديما.

فصل
في منازل «إياك نعبد» التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلىٰ الله تعالىٰ

منازل العبودية

وقد أكثر الناس في صفة المنازل وعددها ، فمنهم من جعلها ألفاً ، ومنهم من جعلها مائة ، ومنهم[1] من زاد ونقص ، فكلٌّ وَصَفَها بحسب سيره وسلوكه[2].

---

(١) « منهم » ساقطة من ق.

(٢) المنازل : هي المقامات عند أهل التصوف ، والمقامات جمع مقام ، وهو عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له.

وهذا بخلاف الحال الذي هو معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب ، من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب. وصاحب المقام ممكن في مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله ، فالمقامات لها صفة الديمومة ، بينما الأحوال لها صفة التغير ، وهم مختلفون في عدد المقامات وصفاتها وترتيبها ، وهي متداخلة عندهم مع الأحوال ، فمثلا منهم من يعتبر الرضا حالاً ، ومنهم من يجعله مقاماً.

يقول الهروي : اعلم أن السائرين في هذه المقامات علىٰ اختلاف مفظع لا يجمعهم ترتيب قاطع ، ولا يقفهم منتهىٰ جامع.

ولذا فإن منهم من أوصلها ألفا ، كأبي بكر الكتاني حيث يقول : « إن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة » ، ومنهم من جعلها مائة مقام كالهروي ، ومنهم من نقص عن ذلك كالكلاباذي وأبي طالب المكي والقشيري والسهروردي وغيرهم.

واختلفوا أيضا هل يجوز للسالك أن يترقىٰ من مقام إلىٰ مقام آخر غير مقامه الذي هو فيه قبل

تعريف اليقظة

وسأذكر فيها أمراً مختصرا جامعا نافعا ؛ إن شاء الله تعالىٰ.

فأول[1] منازل العبودية « اليقظة » وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين[2]. ولله ما أنفع هذه الروعة ! ، وما أعظم قدرها وخطرها ! ، وما أشد إعانتها علىٰ السلوك ! ، فمن أحس بها فقد أحس - والله - بالفلاح ، وإلا فهو في سكرات الغفلة ، فإذا انتبه شمر لله بهمته إلىٰ [٥٢/ أ] السفر إلىٰ منازله الأولىٰ ، وأوطانه[3] التي سبي منها.

فحي علىٰ جنات عدن فإنها ... منازلك الأولىٰ وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونسلم؟[4]

إحكام حكم مقامه؟ ، منهم من منع ذلك ، ومنهم من قال : لا يكمل المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلىٰ مقام فوقه.

انظر : الرسالة القشيرية ٥٦-٥٧ ، منازل السائرين ٥-٦ ، التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ١٠٧ ، قوت القلوب ١/ ٣٦١ ، رشح الزلال للكاشاني ٤٨-٤٩ ، عوارف المعارف ٢٢٥-٢٢٧ ، المدارج ١/ ١٣٨ ، التعريفات ١١٠ ، ٢٨٩ ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ٧٣ ، ٢٤٨ ، الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود القاسم ٣٧٩.

(١) في غ « فالأول ».

(٢) التيقظ التنبه ، يقال : تيقظ فلان للأمر إذا تنبه ، وقد عرف الهروي اليقظة بأنها هي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبه.

وعرفها الجرجاني بأنها : الفهم عن الله تعالىٰ ما هو المقصود في زجره.

انظر : منازل السائرين ١١ ، التعريفات ٣٣٢ ، لسان العرب ٦/ ٤٩٦٤ ، مادة (يقظ).

(٣) « أوطانه » ساقطة من ق ، وفي د ، م « من أوطانه ».

(٤) هذه الأبيات من القصيدة الميمية الموسومة بالرحلة إلىٰ بلاد الأشواق لابن القيم ـ رحمه الله ـ.

تعريف العزم

فأخذ في أهبة السفر ، فانتقل إلىٰ منزلة « العزم »[1] وهو العقد الجازم علىٰ المسير ، ومفارقة كل قاطع ومعوق ، ومرافقة كل معين وموصل. وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه ، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

تعريف الفكرة

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة « الفكرة »[2] وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملا ، ولم يهتد إلىٰ تفصيله ، وطريق الوصول إليه.

تعريف البصيرة

فإذا صحت فكرته أوجبت له « البصيرة »[3] فهي نور في القلب يبصر به

انظر : شرح القصيدة الميمية لمصطفىٰ عراقي ٣٤ ، مدارج السالكين ٣/ ٢٠٠ ، طريق الهجرتين لابن القيم ٥١ ، حادي الأرواح ٢٨.

(١) العزم : هو جزم الإرادة ، أي الميل بعد التردد الحاصل من الدواعي المختلفة المنبعثة من الآراء العقلية ، والشهوات ، والنغزات النفسانية ، هكذا عرفه التهانوي الحنفي. وعرفه الهروي بأنه : تحقيق القصد طوعا أو كرها. وقال الراغب : هو عقد القلب علىٰ إمضاء الأمر. انظر : منازل السائرين ٦٥ ، التعريفات ١٩٤ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٣٢٩ ، المفردات ٣٣٧ ، وانظر كلام ابن القيم علىٰ منزلة العزم ٢/ ٣٥٩.

(٢) الفكرة والفكر : إعمال الخاطر في الشيء ، قال الراغب : الفكرة قوة مطرقة للعلم إلىٰ المعلوم ، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل.

وعرف الهروي التفكر بأنه : تلمس البصيرة لاستدراك البغية. انظر : منازل السائرين ١٨ ، المفردات ٣٨٦ ، لسان العرب ٥/ ٣٤٥١ ، مادة (فكر) ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ٢٠٧.

(٣) عرف الراغب البصيرة بأنها : قوة القلب المدركة. وعرفها الجرجاني بأنها : قوة للقلب المنور بنور القدس يرىٰ بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرىٰ بها صور الأشياء وظواهرها ، وهي التي يسميها الحكماء : العاقلة النظرية ، والقوة القدسية. وعرفها الهروي بأنها : ما يخلصك من الحيرة.

انظر : منازل السائرين ٧٩ ، المفردات ٥٩ ، التعريفات ٦٦ ، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٦٧.

الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، وما وعد الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه ، فأبصر الناس وهم قد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم ، وقد جاء الله ونصب[1] كرسيه لفصل القضاء ، وقد أشرقت الأرض لنوره[2] ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقد نصب الميزان ، وتطايرت الصحف ، واجتمعت الخصوم ، وتعلق كل غريم بغريمه ، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب ، وكثر العطاش ، وقل الوارد[3] ، ونصب الجسر للعبور ، ولزَّ[4] الناس إليه. وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه. والنار يحطم[5] بعضها بعضا تحته ، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرىٰ بها ذلك ، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة ، يريه الآخرة ودوامها ، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ« البصيرة » نور يقذفه الله في القلب ، يرىٰ [٥٢/ ب] به حقيقة ما أخبرت به الرسل ، كأنه شاهد[6] رأي عين ، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه

---

(١) في ح١ ، د ، غ ، أ « وقد نصب ».

(٢) في ش ، أ ، ب ، ح٢ ، ح١ ، غ ، ق « بنوره ».

(٣) في الأصل « الموارد ».

(٤) قال في لسان العرب : لزَّ الشيء بالشيء يلزه لزاً وألزه : ألزمه إياه ... وكل شيء دوني بين أجزائه أو قرن فقد لز. لسان العرب ٥/ ٤٠٢٦ ، مادة (لزز).

(٥) في ب « تحطم ».

(٦) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، ق ، م « يشاهده ».

الرسل ، وتضرره بِمخالفتهم ، وهذا معنىٰ قول بعض العارفين : «البصيرة : تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به »[1] ، وقال بعضهم[2] : «البصيرة : ما خلصك من الحيرة ، إما بإيْمان وإما بعيان ».

درجات البصيرة

والبصيرة علىٰ ثلاث درجات ، من استكملها فقد استكمل البصيرة : بصيرة في الأسماء والصفات ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ؛ بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك[3] بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله ، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر.

الدرجة الأولى

وعقد هذا أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالىٰ مستويا علىٰ عرشه ، متكلما بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه ، وأشخاصه وذواته ، سميعا لأصواتهم ، رقيبا علىٰ ضمائرهم وأسرارهم ، وأمر الممالك تحت تدبيره ، نازل من عنده، وصاعد إليه ، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ، منزها عن العيوب والنقائص والمثال ، هو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه ،

---

(١) قال البغوي : البصيرة : هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل. تفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

(٢) القائل هو التلمساني. انظر : شرح المنازل ٢/ ٣٤٣.

(٣) في الأصل ، ش « عنده ».

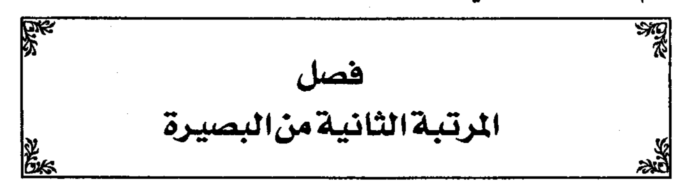
حي لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لا يخفىٰ عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، بصير يرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، سميع يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، علىٰ تفنن الحاجات ، تمت كلماته صدقا وعدلا ، فجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا ، وتعالت ذاته أن تشبه شيئا من الذوات أصلا ، ووسعت الخليقة أفعاله عدلا ، وحكمة ، ورحمة ، وإحسانا ، وفضلا ، له الخلق والأمر ، وله النعمة والفضل ؛ وله [٥٣/ أ] الملك والحمد ، وله الثناء والمجد ، أول ليس قبله شيء ، آخر ليس بعده شيء ، ظاهر ليس فوقه شيء ، باطن ليس دونه شيء ، أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنىٰ ، وصفاته كلها صفات كمال ، ونعوته نعوت جلال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل ، كل شيء من مخلوقاته دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ؛ لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ، ولا ترك الإنسان سدىٰ عاطلا ، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته ، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلىٰ زيادته وكرامته[1] ، تعرف إلىٰ عباده بأنواع التعرفات ، وصرف لهم الآيات ، ونوع لهم الدلالات ، ودعاهم إلىٰ محبته من جميع الأبواب، ومد بينه وبينهم من عهده أقوىٰ الأسباب، فأتم عليهم نعمه السابغة ، وأقام عليهم حجته البالغة ، أفاض عليهم النعمة ، وكتب علىٰ نفسه الرحمة ،

---

(١) في ح١ ، ق ، أ ، د ، م ، غ ، ب « إلىٰ زيادة كرامته » ، وفي ح٢ « إلىٰ زيادة كرمه ».

وضمن الكتاب الذي كتبه : أن رحمته تغلب غضبه[1] ، وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية ، وفهمها ، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف لجهلهم بالنصوص ومعانيها ، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم ، وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم ، رأيتهم أتم بصيرة منهم ، وأقوىٰ إيمانا ، وأعظم تسليما للوحي ، وانقياداً [للحق][2].



فصل
المرتبة الثانية من البصيرة

الدرجة الثانية

البصيرة في الأمر والنهي ، وهي تجريده عن المعارضة بتأويل ، أو تقليد ، أو هوىٰ ، فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به ، ولا تقليد [٥٣/ ب] يزيحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء[3] من غيرهم.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٤٩) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله حين خلق الخلق كتب بيده علىٰ نفسه : إن رحمتي تغلب غضبي** ». وابن ماجه في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٧) ، وأحمد (٢/ ٣٨١).

(٢) زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٣) في ح٢ ، م ، غ زيادة « كذا » ، وفي ح١ « أهل البصائر من غيرهم » ؛ ولعل الصواب أن يقال : « من العلماء ومن غيرهم ».

فصل
المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

الدرجة الثالثة

فهو أن تشهد قيام الله تعالىٰ علىٰ كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلا وآجلا، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله، وحكمته، وأن[1] الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته؛ بل شك في وجوده، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملا، وتركها سدىٰ؛ تعالىٰ الله عن هذا الحسبان علوًّا كبيراً.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل، وإنما اهتدي إلىٰ تفاصيله بالوحي، ولهذا يجعل الله سبحانه وتعالىٰ إنكار المعاد كفرا به سبحانه، لأنه إنكار لقدرته أو لإلهيته[2]، وكلاهما مستلزم للكفر به، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب

---

(١) في ح٢، ح١، ق، أ، د، م، غ «فإن».

(٢) في ح١، أ، ب، غ «إنكار لقدرته ولإلهيته».

قولهم ! ، كيف ينكرون هذا ، وقد خلقوا من تراب ، ولم يكونوا شيئاً.

والثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم للتوحيد[1] وعبادته وحده لا شريك له ، فإنكارهم للبعث ، وقولهم : ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب[2].

وعلىٰ التقديرين : فإنكار المعاد عجب من الإنسان ، وهو محض إنكار الرب ، والكفر به ، والجحد لإلهيته وقدرته ، وحكمته وعدله وسلطانه.

[3]ولصاحب « المنازل » في « البصيرة » طريقة أخرىٰ قال :

البصيرة عند الهروي

«البَصِيرَةُ مَا يُخَلِّصُكَ مِنَ الحَيْرَةِ. وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الأُولَىٰ[4] : أَنْ تَعلَمَ أَنَّ الخَبَرَ القَائِمَ بِتَمهِيدِ الشَّرِيعَةِ يَصدُرُ [٥٤/ أ] عَن عَينٍ لاَ تخَافُ عَوَاقِبَهَا، فَتَرَىٰ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تُؤَدِّيَهُ[5] يَقِيناً ، وَتَغْضَبَ لَهُ غَيْرَةً»[6].

ومعنىٰ كلامه : أن ما أخبر به الرسول ﷺ صادر عن حقيقة صادقة ، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروها ؛ بل يكون آمنا من عاقبة اتباعها ، إذ هي حق ، ومتبع الحق لا خوف عليه ، ومن حق ذلك الخبر عليك : أن تؤدي ما أمرت به

---

(١) في ح٢ ، ح١ ، ق ، أ ، د ، م ، غ « لتوحيده ».

(٢) انظر هذين القولين في تفسير الطبري ١٣/ ١٠٣-١٠٤ ، تفسير البغوي ٣/ ٧.

(٣) في ح١ زيادة « فصل ».

(٤) في م « أحدها » ، وفي ح١ « الدرجة الأولىٰ » ، وهو الموافق لما في منازل السائرين.

(٥) في منازل السائرين للهروي « تلذه ».

(٦) انظر : منازل السائرين ٧٩.

منه ، من غير شك ، ولا سلوك[١] الأحوط ؛ بل[٢] لا تبرأ ذمتك وتنال الأمر[٣] إلا بامتثال صادر عن تصديق محقق ، لا يصحبه شك ، وتغضب علىٰ من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه ، ويهمل جانبه.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام[٤] من تمام « البصيرة » ؛ لأنه علىٰ قدر المعرفة بالحق ومستحقه و محبته وإجلاله تكون الغيرة عليه أن يضيع ، والغضب علىٰ من أضاعه ، فإن ذلك دليل علىٰ محبة صاحب[٥] الحق[٦] ، وإجلاله ، وتعظيمه. وذلك عين البصيرة ، فكما أن الشك القادح في كمال

---

(١) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، ق « شكوك ».

(٢) في أ ، ح١ ، ح٢ ، غ ، م « بك ».

(٣) هكذا في جميع النسخ الخطية ، ولعل الصواب « الأجر » ؛ لأن براءة الذمة ونيل الأجر لا يكون إلا بالامتثال الصادق للأمر من غير شك أو تردد.

(٤) المراد بشيخ الإسلام هنا الهروي - رحمه الله - ، وقد عرف الغيرة بأنها : سقوط الاحتمال ضمنا ، والضيق عن الصبر نفاسة. منازل السائرين ٩٠.
وعرفها القشيري بأنها : كراهية مشاركة الآخرين ، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضىٰ بمشاركة غيره معه فيما هو حق له من طاعة عبده. والغيرة من لوازم المحبة ، ويوصف بها المحب والمحبوب.
الرسالة القشيرية ٢٥٤ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٩٨ ، وقد تكلم ابن القيم عن منزلة الغيرة ، وبين أدلتها وفضلها وأنواعها ، وشرح كلام الهروي عن الغيرة. انظر المدارج ٣/ ٤٢-٥١.

(٥) في ش « صادقة » بدل « صاحب ».

(٦) في ش « للحق ».

الامتثال مُعمٍ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة علىٰ حقوقه[١] إذا أضيعت[٢] ، و محارمه إذا انتهكت معم لعين البصيرة.

قال : « **الدَّرَجَةُ الثَّانِيةُ : أَنْ تَشْهَدَ فِي هِدَايَةِ الحَقِّ[٣] وَإِضْلاَلِه : إِصَابَةَ العَدْلِ ، وَفِي تَلْوِينِ أَقْسَامِهِ : رِعَايَةَ البِرِّ ، وَتُعَايِنَ فِي جَذْبِهِ : حَبْلَ الوِصَالِ**»[٤].

يريد رحمه الله بشهود العدل في هدايته من هداه ، وإضلاله من أضله : أمرين :

أحدهما : تفرده بالخلق ، والهدىٰ والضلال.

والثاني : وقوع ذلك منه علىٰ وجه الحكمة والعدل ، لا بالاتفاق ، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء[٥] مواضعها ، وتنزيلها منازلها ؛ بل بحكمة اقتضت هدي من علم أنه يزكو علىٰ الهدىٰ ، ويقبله ويشكره عليه ، ويثمر عنده ، وإضلال من علم أنه لا يزكو علىٰ الهدىٰ ، ولا يقبله ، ولا يشكر عليه ، ولا يثمر عنده ، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته ، أصلا وميراثا ، وقال تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ

---

(١) في غ ، أ ، د ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق « حقوق الله ».

(٢) في غ ، أ ، ب ، د ، م ، ح١ ، ح٢ « ضيعت » ، وفي ق « إذ ضيعت ».

(٣) في م « هدايته » بدل « هداية الحق ».

(٤) في ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق ، ش ، ح١ ، ب « الوصل » ، وما في الأصل هو الموافق لما في منازل السائرين. انظر ٧٩ من منازل السائرين.

(٥) في ح١ زيادة « في ».

بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين يعرفون[1] قدر نعمته بالهدىٰ، ويشكرونه [٥٤/ ب] عليها، ويحبونه ويحمدونه علىٰ أن جعلهم من أهله، فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدىٰ، وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه من يليق به التقريب والهدىٰ والإكرام؛ بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبىٰ تقريبَه وتكريمَه[2]، وجعْلَه من أهله وخاصته وأوليائه.

ولا يبقىٰ إلا أن يقال: فلم خلق من هو بهذه المثابة؟.

فهذا سؤال جاهل ظالم[3] مفرط في الجهل[4] والظلم[5]، و[6] خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، والألم واللذة[7]، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

قوله: « وَفِي تَلْوِينِ أَقْسَامِهِ رِعَايَةَ البِرِّ ».

يريد بتلوين الأقسام اختلافها في الجنس والقدر والصفة، من أقسام الأقوال[8]

---

(١) في ح٢ « يعلمون ».

(٢) في م، ب، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق « وإكرامه ».

(٣) في م، ب، ح١، د، غ، ق زيادة « ضال ».

(٤) في أ زيادة « والضلال ».

(٥) في م، ب، ح١، ح٢، د، غ، ق زيادة « والضلال ».

(٦) بدله في م، ب، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق « لأن ».

(٧) في ش، ب، ح١، ح٢، د، غ، ق، م « واللذة والألم ».

(٨) في د، ح١، ق، غ، ب « الأموال ».

والقوىٰ ، والعلوم[١] ، والصنائع وغيرها. قسمها علىٰ وجه البر والمصلحة ، فأعطىٰ كلا منهم ما يصلحه ، وما هو الأنفع له ، براً به[٢] وإحسانا.

وقوله : « **وَتُعَايِنَ فِي جَذْبِهِ حَبْلَ الوِصَالِ** ».

يريد تعاين في توفيقه لك للطاعة ، وجذبه إياك من نفسك : أنه يريد تقريبك منه ، فاستعار للتوفيق الخاص الجذب ، وللتقريب الوصال ، وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلىٰ أنك تستدل بتوفيقه لك ، وجذبك من نفسك ، وجعلك متمسكا بحبله الذي هو عهده ووصيته إلىٰ عباده ، علىٰ تقريبه لك ؛ بل تشاهد ذلك ليكون أقوىٰ في المحبة والشكر ، وبذل النصيحة في العبودية ، وهذا كله من تمام البصيرة. فمن لا بصيرة له بمعزل عن هذا.

قال : « **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : بَصِيرَةٌ تُفَجِّرُ المَعْرِفَةَ ، وَتُثْبِتُ الإِشَارَةَ ، وَتُنْبِتُ الفِرَاسَةَ** »[٣].

يريد البصيرة في الكشف والعيان : أي[٤] تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب ، ولم يقل : «تفجر العلم [٥٥/ أ]» ؛ لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم[٥].

---

(١) في ح٢ ، ح١ ، ق ، أ ، د ، م ، غ ، ب زيادة « والأعمال ».

(٢) « به » ساقطة من ش ، ح٢.

(٣) انظر : منازل السائرين ٧٩.

(٤) في أ ، ح٢ ، ح١ ، د ، غ ، ق ، م « أن » بدل « أي ».

(٥) قال القشيري : وعند هؤلاء القوم : المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالىٰ في معاملاته ، ثم تنقىٰ عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه

ونسبتها إلىٰ العلم نسبة الروح إلىٰ البدن[1] ؛ فهي روح العلم ولبُّه.

وصدق - رحمه الله - فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف ، لا تنال بكسب ولا دراسة ، إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه ، علىٰ قدر بصيرته[2].

وقوله : « **وَتُثْبِتُ الإِشَارَةَ**[3] ».

ودام بالقلب اعتكافه فحظي من الله تعالىٰ بجميل إقباله، وصدق الله تعالىٰ في جميع أحواله، وانقطعت عنه هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلىٰ خاطر يدعوه إلىٰ غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودامت في السر مع الله تعالىٰ مناجاته ، وحق في كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمىٰ عند ذلك عارفا ، وتسمىٰ حالته معرفة. انتهىٰ كلامه.

وعرفها الهروي فقال : المعرفة إحاطة بعين الشيء كما هو.

وقد تكلم ابن القيم علىٰ المعرفة والفرق بينها وبين العلم عند الصوفية عند كلامه علىٰ منزلة المعرفة. انظر الكلام علىٰ المعرفة في الرسالة القشيرية ٣١١ ، منازل السائرين ١٢٥ ، المدارج ٣/ ٣٣٥ ، الكليات ٨٢٤ ، ٨٦٨ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٢٦١ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٤٦.

(١) في ح٢ ، غ ، أ ، ب ، م ، د ، ش « الجسد ».

(٢) في ح٢ ، غ ، أ ، ب ، م ، د ، ح١ ، ق « بصيرة قلبه ».

(٣) **الإشارة** : هي الإخبار من غير الاستعانة إلىٰ التعبير باللسان ، وقيل : ما يخفىٰ عن المتكلم كشفه بالعبارة لِلَطَافة معناه ، وتكون مع القرب ومع حضور الغيب ، وتكون مع البعد ، وإذا قيل فلان صاحب إشارة فمعناه : أن يكون كلامه مشتملاً علىٰ اللطائف والإشارات. معجم مصطلحات الصوفية ١٦-١٧ ، وتكلم ابن القيم علىٰ الإشارات عند كلامه علىٰ منزلة الأنس

تعريف الإشارة

يريد **بالإشارة** : ما يشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات ، والأذواق[1] التي ينكرها الأجنبي من السلوك ، ويثبتها أهل البصائر ، وكثير من هذه الأمور ترد علىٰ السالك ، فإن كان له بصيرة ثبّتتْ بصيرتُه ذلك له ، وحقّقتْهُ عنده ، وعرّفَتْه تفاصيلَه ، وإن لم يكن له بصيرة ؛ بل كان جاهلا ، لم يعرف تفصيل ما يرد عليه ، ولم يهتد لتثبيته.

قوله : « **وَتُنْبِتُ الفِرَاسَةَ** »[2].

تعريف الفراسة

يعني أن البصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة ، وهي نور يقذفه الله في القلب ، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، قال[3] تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر : ٧٥] ، قال مجاهد : للمتفرسين[4] ، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

٢/ ٤١٦ ، فقال : الإشارات هي المعاني التي تشير إلىٰ الحقيقة من بعد ومن وراء حجاب ، وهي تارة تكون من مسموع، وتارة تكون من مرئي ، وتارة تكون من معقول ، وقد تكون من الحواس كلها ، فالإشارات من جنس الأدلة والأعلام وسببها صفاء يحصل بالجمعية ، فيلطف به الحس والذهن، فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة ، لا يكشف حسُّ غيرِه وفهمُه عن إدراكها.

(١) **الأذواق** : جمع ذوق ، وهو عند الصوفية نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره ، وهو كالشراب ؛ لكن الشراب لا يستعمل إلا في الراحات ، والذوق يلائم الراحات والمتاعب.

الرسالة القشيرية ٧٢ ، التعريفات ١٤٤ ، رشح الزلال ٨١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٠٤ .

(٢) انظر كلام ابن القيم علىٰ منزلة الفراسة في ٢/ ٤٨٢ .

(٣) في ح١ ، أ ، غ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٤) أخرج هذا القول عن مجاهد ابن جرير الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٥ .

قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله عز وجل » ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾(١).

تعريف التوسّم

و « التوسم » تَفَعُّل من السيما ؛ وهي العلامة ، فسمي المتفرس متوسماً ؛

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ، باب ومن سورة الحجر ٥/ ٢٩٨ ، وقال : هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن بعض أهل العلم.

وأخرجه ابن جرير في التفسير (١٤/ ٤٦) ، عن أبي سعيد وابن عمر.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٤).

وأورده الهيثمي من حديث أبي أمامة ، وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن ، مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨). وللحديث طرق عن جمع من الصحابة ، ولهذا قال السخاوي بعد ذكر الحديث ومن رواه من الصحابة قال : وكلها ضعيفة ، وفي بعضها ما هو متماسك لا يليق مع وجوده الحكم علىٰ الحديث بالوضع ...

انظر : المقاصد الحسنة للسخاوي (١٩).

وقال ابن الجوزي في الموضوعات «باب قوله: اتقوا فراسة المؤمن » ، فيه عن ابن عمرو وأبي سعيد ، وأبي أمامة ، وأبي هريرة ، ثم ذكر طرقها ، والكلام عليها. الموضوعات (٣/ ١٤٥) ، وقال ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة (٢/ ٣٠٦) : وحديث أبي سعيد لم ينفرد به محمد بن كثير بل تابعه مصعب بن سلام ، ومن طريقه أخرجه البخاري في تاريخه ، والترمذي وغيرهما ، ومصعب وثقه ابن معين في رواية ، وقال أبو حاتم : محله الصدق ، و محمد بن كثير مشاه ابن معين ، وقال : شيعي لا بأس به ، فحديثه بالمتابعة حسن ، وحديث أبي أمامة علىٰ شرط الحسن.

انظر : كشف الخفاء (١/ ٤٢) ؛ وقد جمع طرقه الألباني ، وتكلم عليها ، ثم قال : وجملة القول أن الحديث ضعيف ، لا حسن ولا موضوع ، وإليه مال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة. انظر : سلسة الأحاديث الضعيفة (٤/ ٢٩٩-٣٠٢).

لأنه يستدل بما يشهد علىٰ ما غاب، فيستدل بالعيان[1] علىٰ الإيمان[2]، ولهذا خص تعالىٰ بالآيات والانتفاع بها هؤلاء؛ لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها علىٰ حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وقد ألهم الله تعالىٰ ذلك لآدم عليه السلام، وعلمه إياه حين علمه أسماءَ كلِّ شيء، وبَنُوهُ هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك، وهو فيه بالقوة، وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة. فبعث الله رسله [٥٥/ ب] مذكرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فينضاف ذلك إلىٰ نور الفراسة والاستعداد، فيصير نوراً علىٰ نور، فتقوىٰ البصيرة، ويعظم النور، ويدوم لزيادة مادته ودوامها. ولا يزال في تزايد حتىٰ يرىٰ علىٰ الوجه والجوارح، والكلام والأعمال.

ومن لم يقبل هدىٰ الله، ولم يرفع به[3] رأساً دخل قلبه في الغلاف والكنان؛ فأظلم، وعمي عن البصيرة، فحُجبت عنه حقائقُ الإيمان، فيرىٰ الحقَّ باطلاً، والباطل حقّاً، والرُّشدَ غياً، والغيَّ رشداً، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، والرين، والران: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له[4].

---

(١) «بالعيان» ساقطة من ح٢.

(٢) انظر: لسان العرب ٥/ ٣٣٧٩، ٦/ ٤٨٣٨، المفردات ٥٣٩.

(٣) «به» ساقطة من ح١، م.

(٤) قال الراغب الأصفهاني: الرين صدأ يعلو الشيء الجليل، قال: «بل ران علىٰ قلوبهم» أي صار ذلك كصدإ علىٰ جلاء قلوبهم، فعمي عليهم معرفة الخير من الشر. المفردات ٢١٤.

أنواع الفراسة

وعلىٰ حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة ، وهي نوعان :

فراسة علوية شريفة ، مختصة بأهل الإيمان ، وفراسة سفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر ، وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة ، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل ، فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور ، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالا للنفس ، ولا زكاة ولا إيمانا ، ولا معرفة. وهؤلاء لا تتعدىٰ فراستهم هذه السفليات ؛ لأنهم محجوبون عن الحق تبارك وتعالىٰ ، فلا تصعد فراستهم إلىٰ التمييز بين أوليائه وأعدائه ، وطريق هؤلاء وطريق هؤلاء[1].

وهذه[2] فراسة الصادقين العارفين بالله تعالىٰ وأمره ، فإن هممهم[3] لما تعلقت بمحبة الله تعالىٰ ، ومعرفته ، وعبوديته ، ودعوة الخلق إليه علىٰ بصيرة ، كانت[4] فراستهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان ، فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه ، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب ، والمحق والمبطل ، والصادق [٥٦/ أ] والكاذب ، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلىٰ[5] الله تعالىٰ ، فحملت كل إنسان علىٰ قدر استعداده ،

---

(١) سقط من ش ، غ قوله : « وطريق هؤلاء ».

(٢) في ب ، أ ، د ، ح١ ، ح٢ « وأما » بدل « وهذه » ، وفي غ « وهذه وأما ».

(٣) في ح١ ، ح٢ ، أ ، د ، غ « همتهم ».

(٤) في د « وكانت ».

(٥) في أ « علىٰ ».

علما وإرادة وعملا.

وفراسة[1] هؤلاء دائماً حائِمةٌ حول كشف طريق الرسول ، وتعريفها[2] ، وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريقة[3] المرسلين ، فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة ، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.



فصل

منزلة القصد

فإذا انتبه وأبصر أخذ في « القصد » وصدق الإرادة ، وأجمع القصد والنية علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله ، وعَلِمَ وتيقَّن أنه لا بد له منه ، فأخذ في أُهْبَةِ السفر ، وتعبئة الزاد [ليوم المعاد][4] ، والتجرد عن عوائق السفر ، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج.

وقد قسم صاحب « المنازل » القصد[5] إلىٰ ثلاث درجات ، فقال :

---

(١) في ح١ ، ح٢ ، أ ، ب ، د ، غ ، ق ، م « ففراسة ».

(٢) في ش « ومعرفتها ». وفي ح٢ ، غ ، أ ، م ، د ، ح١ « وتعرفها ».

(٣) في أ ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، ق ، م « طريق ».

(٤) زيادة من م ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق.

(٥) القصد في كلام العرب هو الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض نحو الشيء.

وقد عرف الهروي القصد بأنه : الإزماع علىٰ التجرد للطاعة.

وقال الحفني : القصود معناه الإرادات والنيات الصادقة المقرونة بالنهوض إليه.

لسان العرب ٥/ ٣٦٤٣ ، منازل السائرين ٦٤ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢١٧.

« الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : قَصْدٌ يَبْعَثُ عَلَىٰ الارْتِيَاضِ ، وَيُخَلِّصُ مِنَ التَّرَدُّدِ ، وَيَدْعُو إِلَىٰ مُجَانَبَةِ الأَغْرَاضِ »[1].

فذكر له ثلاث فوائد : أنه يبعث علىٰ السلوك بلا توقف ولا تردد ، ولا علة غير العبودية ، من رياء أو سمعة ، أو طلب محمدة ، أو جاه أو منزلة عند الخلق.

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيةُ : قَصْدٌ لاَ يَلْقَىٰ سَبَباً[2] إِلاَّ قَطَعَهُ ، وَلاَ حَائِلاً إِلاَّ مَنَعَهُ[3] ، وَلاَ تحَامُلاً إِلاَّ سَهَّلَهُ »[4].

يعني أنه لا يلقىٰ سببا يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلا دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهلها[5].

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : قَصْدُ الاسْتِسْلاَمِ لِتَهْذِيبِ العِلْمِ ، وَقَصْدُ إِجَابَةِ دَوَاعِي[6] الحُكْمِ الدِّينِيِّ الأَمْرِيِّ[7] ، وَقَصْدُ اقْتِحَامِ بَحْرِ الفَنَاءِ »[8].

---

(١) منازل السائرين ٦٤-٦٥.

(٢) في ش « شيئا ».

(٣) في ش زيادة « ولا صعوبة إلا سهلها ».

(٤) في منازل السائرين ٦٥ : « قصد لا يلتقي سببا إلا قطعه ، ولا يدع حائلا إلا منعه ، ولا تحاملا إلا سهله ».

(٥) سقط من ش قوله : « ولا صعوبة إلا سهلها ».

(٦) في م ، د ، غ ، ح١ ، ح٢ ، أ ، ش ، ق « داعي ».

(٧) سقط من ح٢ ، غ ، أ ، م ، د ، ح١ ، ق قوله : « الديني الأمري ».

(٨) في منازل السائرين ٦٥ قال : « والدرجة الثالثة : قصد استسلام لتهذيب العلم ، وقصد إجابة لوطئ الحكم ، وقصد اقتحام في بحر الفناء ».

يريد أنه ينقاد إلىٰ العلم ليتهذب به ، ويصلح به. ويقصد[1] إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلما دعاه ، فإن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم مناديا[2] ينادي[3] للإيمان بها علما وعملا ، فيقصد إجابة داعيها ؛ ولكن مراده بدواعي[4] الحكم : الأسرار [٥٦/ ب] والحِكم الداعية إلىٰ شرع الحكم ، فإجابتها قدر زائد علىٰ مجرد الامتثال ، فإنها تدعو إلىٰ المحبة والإجلال ، والمعرفة والحمد ، والأمر يدعو إلىٰ الامتثال ، وما تضمنه من الحِكم والغايات تدعو إلىٰ المعرفة والمحبة.

وقوله : « **وَقَصْدُ اقْتِحَامِ بَحْرِ الفَنَاءِ** ».

هذا هو الغاية المطلوبة عند القوم ، وهو عند بعضهم[5] من لوازم الطريق ، وليس بغاية ، وعند آخرين عارض من عوارض الطريق ، وليس بغاية ، ولا هو لازم لكل سالك[6]، وأهل القوة والعزم لا يعرض لهم، وحال البقاء أكمل منه ،

---

(١) في ب زيادة « به ».

(٢) في أ ، ق ، ح١ ، د « مناد » ، وفي غ « منادي للإيمان ».

(٣) « ينادي » ساقطة من غ.

(٤) في م ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ح١ ، ق « داعي ».

(٥) في ح٢ ، غ ، أ ، ب ، م ، د ، ح١ ، ق زيادة « لازم ».

(٦) قال في عوارف المعارف ٢٤٧ : وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه ، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص ، وليس ذلك من ضرورة الفناء علىٰ الإطلاق.

وقد ذهب ابن القيم إلىٰ أن تقسيم كل مقام من المقامات إلىٰ ثلاثة أقسام : عام ، وخاص ، وخاص خاص ، إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق ، وهذا ما جرىٰ عليه الهروي في كتابه

ولهذا كان البقاء حال نبينا ﷺ ليلة الإسراء، وقد رأىٰ ما رأىٰ، وحال موسىٰ الفناء، ولهذا خر صعقا عند تجلي الله للجبل، وامرأة العزيز كانت أكمل حبا ليوسف من النسوة، ولم يعرض لها ما عرض لهن عند رؤيته[1]، لفنائهن وبقائها، وسيأتي إن شاء الله تحقيق الكلام فيه[2].

فصل

منزلة العزم

فإذا استحكم قصده صار عزماً جازماً مستلزما للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تعريف العزم وأنواعه

والعزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود. و[3] التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشيء عن

منازل السائرين، ولذا حكم عليه ابن القيم بأنه لا يقدم علىٰ الفناء شيئا ويراه الغاية التي يسعىٰ إليها السالكون والعلم الذي يؤمه السائرون، واستولىٰ عليه ذوق الفناء، وشهود الجمع، وعظم موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه علماً وحالا وذوقا.

ولكن يرىٰ ابن القيم أن الفناء الذي يذهب إليه الهروي ليس هو فناء أهل الوحدة والاتحاد - وإن ادعوا ذلك- وإنما هو الفناء عن شهود السوىٰ، لذا يقول: وأما الفناء عن شهود السوىٰ فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين، ويعدونه غاية، وهو الذي بنىٰ عليه أبوإسماعيل الأنصاري كتابه، وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه، وليس مرادهم فناء وجود ما سوىٰ الله في الخارج. المدارج ١/ ٢٦٤، ١٥٤-١٥٥، وانظر أيضاً ١/ ١٤٨-١٥٣.

(١) في ح٢، غ، أ، ب، م، د، ح١، ق « رؤية يوسف ».

(٢) تكلم ابن القيم عن الفناء في الجزء الأول من المدارج صفحة ١٤٧-١٦٩، وفي آخر المدارج ٣/ ٣٦٨-٣٨٣.

(٣) في غ، أ زيادة « أن ».

العزم ، لا أنه نفسه ، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو.

وحقيقته : هو استجماع قوىٰ الإرادة علىٰ الفعل.

والعزم نوعان :

أحدهما[١] : عزم المريد علىٰ الدخول في الطريق ، وهذا[٢] من البدايات[٣].

والثاني : عزم في حال السير[٤] ، وهو أخص من هذا ، وهو من المقامات ، وسنذكره في موضعه إن شاء الله تعالىٰ[٥].

وفي هذه المنزلة يحتاج إلىٰ تمييز ما له مما عليه ، ليستصحب ما له ويؤدي ما عليه. وهو « المحاسبة » وهي قبل « التوبة » في الرتبة[٦] ، فإنه إذا عرف

---

(١) « أحدهما » ساقطة من ش.

(٢) في ح٢ ، غ ، أ ، ب ، م ، د ، ح١ ، ق « وهو ».

(٣) قسم الهروي كتابه منازل السائرين إلىٰ عشرة أقسام ، وهي :

قسم البدايات ، ثم قسم الأخلاق ، ثم قسم الأحوال ، ثم قسم الأبواب ، ثم قسم الأصول ، ثم قسم الولايات ، ثم قسم النهايات ، ثم قسم المعاملات ، ثم قسم الأودية ، ثم قسم الحقائق.

ثم جعل كل قسم عشرة أبواب ، وقد تضمن قسم البدايات عشرة أبواب ، وهي : اليقظة ، والتوبة ، والمحاسبة ، والإنابة ، والتفكر ، والتذكر ، والاعتصام ، والفرار ، والرياضة ، والسماع.

(٤) في د ، ق ، أ ، ح١ ، ح٢ ، م ، غ زيادة « معه ».

(٥) تكلم ابن القيم علىٰ منزلة العزم في المدارج ٢/ ٣٥٩ ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ تعريف العزم ، وبيان تعريف الهروي له ص ٤٤٣.

(٦) في ح١ ، ح٢ ، أ ، ب ، د ، ق ، م ، غ « المرتبة ».

[٥٧/ أ] ما له وما عليه ، أخذ في أداء ما عليه ، والخروج منه ، وهو « التوبة ».

وصاحب المنازل قدم التوبة علىٰ المحاسبة ، ووجه هذا : أنه رأىٰ « التوبة » هي[1] أول منازل السائر بعد يقظته ، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة ، فالمحاسبة تكميل مقام التوبة ، فالمراد بالمحاسبة الاستمرار علىٰ حفظ التوبة ، حتىٰ لا تخرج عنها ، وكأنه وفاء بعقد التوبة.

الكلام على ترتيب المقامات

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ، ويفارقه وينتقل إلىٰ الثاني ، كمنازل السير الحسي ، هذا محال ، ألا ترىٰ أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه ، وكذلك «البصيرة» و «الإرادة»[2] و«العزم» وكذلك « التوبة » ، فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضا ؛ بل هي في كل مقام مستصحبة ، ولهذا جعلها الله آخر مقامات خاصته ، فقال تعالىٰ في غزوة تبوك[3] ، وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ

---

(١) ساقطة من غ ، ح١ ، أ.

(٢) الإرادة : هي ميل النفس ونزوعها نحو الفعل ، هي أول حركة النفس إلىٰ استكمال الفضائل، واستدامة الكد، وترك العادة والراحة ومغايرة الشهوة، ولا تكون إلا مع صحة القصد وصدق النية ، قال القشيري : وأما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالىٰ.
الرسالة القشيرية ٢٠١ ، رشح الزلال ٣٧ ، التعريفات ٣٠ ، الكليات ٧٣ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢١٠ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤.

(٣) وقعت غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة النبوية ، وقد أقام النبي ﷺ بالمدينة بعد منصرفه من الطائف ما بين ذي الحجة إلىٰ رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وحض رسول الله أهل الغنىٰ علىٰ النفقة والحملان في سبيل الله ورغبهم في ذلك، ثم سار في شدة الحر حتىٰ نزل بتبوك، وصالح صاحب أيلة وأهل أذرح وأعطوه الجزية ، وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ، ولم يجاوزها ثم انصرف قافلاً إلىٰ المدينة. تاريخ الطبري ٣/ ١٠٠ ، البداية والنهاية ٥/ ٣.

عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] ، فجعل التوبة أول أمرهم وآخره ، وقال في سورة أجل رسول الله ﷺ التي هي آخر سورة أنزلت[1] جميعاً : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾ [النصر : ١ - ٣].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ ما صلىٰ صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة ، إلا قال في ركوعه وسجوده : «**سبحانك اللهم ربنا**[2] **وبحمدك ، اللهم اغفر لي** »[3]. فالتوبة هي نهاية كلِّ سالك وكلِّ ولي لله ، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته ، وما ينبغي له ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [٥٧/ ب] وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢-٧٣] ، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

---

(١) في م « نزلت ».

(٢) « ربنا » ساقطة من غ ، أ.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ، (٨/ ٧٣٣) ، ح(٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨) ، ومسلم في الصلاة ، (١/ ٣٥١) ، ح (٤٨٤).

وكذلك « الصبر »[1] فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب للمشروط[2] المتوقف علىٰ شرطه المصاحب له.

مثال[3] ذلك : أن الرضا[4] مترتب علىٰ الصبر لتوقف الرضا عليه ، واستحالة ثبوته بدونه ، فإذا قيل : إن مقام الرضا أو حاله علىٰ الخلاف بينهم هل هو مقام أو حال؟[5] ، بعد مقام الصبر ، لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلىٰ الرضا ، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتىٰ يتقدم له قبله مقام الصبر ، فافهم

---

(١) الصبر : في اللغة الحبس والكف ، ومنه قُتل فلان صبراً ، والصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوىٰ ، وحبس الجوارح عن التشويش ، وهو ثلاثة أنواع : صبر علىٰ طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر علىٰ امتحان الله ، وهو واجب بإجماع الأمة ، وهو نصف الإيمان ، والنصف الآخر الشكر.

انظر : التعرف ١١٠ ، الرسالة القشيرية ١٨٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤٧ ، وقد تكلم ابن القيم علىٰ منزلة الصبر في المدارج ٢/ ١٥٢ ، وفي طريق الهجرتين ٢٦٤ ، وصنف في بيانه وفضله كتاب عدة الصابرين.

(٢) في غ ، أ « المشروط ».

(٣) في د ، ح٢ ، غ ، أ « ومثال ».

(٤) الرضا : سكون القلب تحت جريان الحكم ، فليس الرضا أن لا تحس بالبلاء ، وإنما الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء ، وشرطه أن يكون بعد القضاء ، وأما قبله فإنه عزم علىٰ الرضا ، والرضا بالقضاء منه الرضا بالمقتضي إذا لم يكن معصية.

انظر : التعرف ١٢٠-١٢١ ، عوارف المعارف ٢٣٨ ، قوت القلوب ٢/ ٧٦ ، الرسالة القشيرية ١٩٢ ، المدارج ٢/ ١٧١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢.

(٥) انظر الخلاف في ذلك : الرسالة القشيرية ١٩٣.

هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم متقدم علىٰ سائر المنازل ، فلا وجه لتأخيره[1] ، وعلمت بذلك أن المحاسبة متقدمة علىٰ التوبة بالرتبة أيضا. فإنه إذا حاسب نفسه خرج مما عليه ؛ وهي حقيقة التوبة. وأن منزلة التوكل[2] قبل منزلة الإنابة[3] ؛ لأنه يتوكل في حصولها ، فالتوكل وسيلة ، والإنابة غاية ، وأن مقام التوحيد أولىٰ المقامات أن يبدأ به. كما هو[4] أول دعوة الرسل كلهم. وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : «**فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله**»[5] ؛ ولأنه لا يصح مقام من المقامات ، ولا حال من الأحوال إلا به ، فلا

---

(١) ذكر الهروي منزلة القصد ومنزلة العزم ضمن قسم الأصول ، وهو القسم الخامس من الأقسام العشرة التي قسم عليها الهروي كتابه ، وجعل أول أبواب القسم الخامس القصد ، ثم باب العزم. انظر : منازل السائرين ٦٤.

(٢) التوكل : هو صدق اعتماد القلب علىٰ الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة ، وقد تكلم ابن القيم عن منزلة التوكل في المدارج ٢/ ١١٢ ، وانظر : جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٩٧ ، الرسالة القشيرية ١٦٢ ، التعريفات ٩٧.

(٣) جعل الهروي منزلة المحاسبة تأتي بعد منزلة التوبة في الرتبة ، ثم بعدها منزلة الإنابة ، وقد خالفه ابن القيم في ذلك، فجعل المحاسبة متقدمة علىٰ التوبة، ثم ذكر منزلة الإنابة بعد التوبة.
وقد عرف الهروي الإنابة بأنها : الرجوع إلىٰ الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً ، والرجوع إليه وفاءً ، كما رجع إليه عهداً ، والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة. انظر : منازل السائرين ١١ ، ١٦ ، المدارج ١/ ٤٣٣.

(٤) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ « أنه » بدل « هو ».

(٥) في م ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، وق زيادة « وفي رواية : إلىٰ أن يعرفوا الله ».

وجه لجعله آخر المقامات[1]، وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول فرض فرضه الله علىٰ العباد، وما عدا هذا من الأقوال فخطأ، كقول من يقول: أول الفروض النظر، أو القصد إلىٰ النظر، أو المعرفة، أو الشك الذي يوجب النظر[2].

والحديث أخرجه البخاري في الزكاة، (٣/ ٢٦١)، ح(١٣٩٥)، بلفظ: «**ادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ...**»، و(٣/ ٣٢٢)، ح(١٤٥٨)، بلفظ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم**»، وأخرجه في التوحيد، (١٣/ ٣٤٧)، ح(٧٣٧٢)، بلفظ: «**فليكن أول ما تدعوهم إلىٰ أن يوحدوا الله تعالىٰ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم**».

وأخرجه مسلم في الإيمان، (١/ ٥٠)، ح(١٩)، بلفظ: «**فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، ولفظ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل ...**» فلعل الزيادة التي في النسخ الأخر تحريف لقوله: «**إلىٰ أن يوحدوا الله**».

(١) يشير المؤلف بذلك إلىٰ تأخير الهروي لمقام التوحيد، وجعله آخر المقامات في كتابه منازل السائرين.

(٢) هذه الأقوال التي خطأها ابن القيم هي أقوال لمن ذهب إلىٰ أن المعرفة بالله لا تحصل إلا بالنظر، وهو قول لكثير من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم من الطوائف من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم، وقد ذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وبين اختلافهم في أول واجب علىٰ المكلف ما هو، وذهب إلىٰ أن الخلاف الذي وقع بينهم في أول واجب إنما هو خلاف لفظي، فقال: والنزاع لفظي، فإن النظر واجب وجوب الوسيلة من باب ما لا يتم الواجب إلا به، والمعرفة واجبة وجوب المقاصد، فأول واجب وجوب الوسائل هو النظر، وأول واجب وجوب المقاصد هو المعرفة، ومن هؤلاء من يقول أول واجب هو القصد إلىٰ النظر، وهو أيضا نزاع لفظي فإن العمل الاختياري مطلقا مشروط بالإرادة، وحكي عن أبي هاشم أنه قال: أول الواجبات الشك. انتهىٰ كلامه. كما ذهب إلىٰ القول بأن الخلاف لفظي الإيجي في المواقف.

انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٥٢-٣٥٣، ٤١٩، ٨/ ٣-١٨، الاستقامة ١/ ١٤٢،

وكل هذه الأقوال خطأ ؛ بل أول الواجبات : مفتاح [٥٨/ أ] دعوة المرسلين كلهم ، وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح ، [فقال][١] : ﴿[يَٰقَوۡمِ][٢] ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وأول ما دعا إليه خاتمهم محمد ﷺ .

الاختلاف في عدد المقامات وترتيبها

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، كل يصف منازل سيره ، وحال سلوكه ، ولهم اختلاف في بعض منازل السير ، هل هي من قسم المقامات[٣] ، أو من قسم الأحوال ؟ ، والفرق بينهما : أن المقامات كسبية ، والأحوال موهبة[٤] ، ومنهم من يقول : الأحوال هي[٥] نتائج المقامات ، والمقامات نتائج الأعمال ، [فكل من كان أصلح عملا كان أعلىٰ مقاما ، وكل من كان أعلىٰ مقاما كان أعظم حالاً][٦][٧].

فمما اختلفوا فيه الرضا هل هو حال ، أو مقام ؟ ؛ فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين.

المواقف للإيجي ٣٢ ، الفصل ٤/ ٦٧-٧٨ ، وانظر كلامه في درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٠٦ وما بعدها ، موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/ ٩٣٤.

(١) زيادة من غ ، أ ، ب ، م ، ح١. وفي ح٢ ، د ، ق « بقوله ».

(٢) زيادة من غ ، أ ، ب ، م ، ح١.

(٣) في ب زيادة « وترتيبها ».

(٤) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ب ، ق ، م « موهبية ».

(٥) في م ، ح١ ، غ ، أ « من » بدل « هي ».

(٦) زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٧) انظر : الرسالة القشيرية ٥٦-٥٧ ، عوارف المعارف ٢٢٥.

وحكم بينهم بعض الشيوخ ، فقال : إن حصل بكسب فهو مقام ، وإلا فهو حال[١]. والصحيح [في هذا][٢] : أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها ، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوِّها ، كما يلمع البارق ويلوح علىٰ بعد ، فإذا نازلته وباشرها فهي أحوال ، فإذا تمكنت منه ، وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات ، فهي لوامع ولوائح في أولها ، وأحوال في أوسطها ، ومقامات في نهايتها[٣] ، فالذي كان بارقا هو بعينه الحال ، والذي كان حالا هو بعينه المقام ، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب ، وظهوره له، وثباته فيه[٤].

---

(١) انظر الخلاف في الرسالة القشيرية ، فقد ذكر القشيري أن الخراسانيين عدّوا الرضا من جملة المقامات ، وأن العراقيين اعتبروه من جملة الأحوال ، وبعد ذكر الخلاف قال : ويمكن الجمع بين قول الفريقين ، فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة. الرسالة القشيرية ١٩٣ ، عوراف المعارف ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٣) في ش ، د ، ح١ ، ح٢ ، أ ، غ ، ق ، م « نهاياتها ».

(٤) هذه ألفاظ متقاربة المعنىٰ ، وهي عند الصوفية من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ذلك ضياء شموس المعارف ، فتكون لهم أولا لوائح وبوارق ثم لوامع ثم طوالع ، واللوائح كالبروق ما ظهرت حتىٰ استترت ، واللوامع أظهر من اللوائح ، وليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقىٰ اللوامع وقتين وثلاثة ، والطوالع أبقىٰ وقتا وأقوىٰ سلطانا وأدوم مكثا لكنها موقوفة علىٰ خطر الأفول.

واللوائح عندهم هي ما يلوح من الأسرار الظاهرة من السمو من حال إلىٰ حال.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب وينزل إلىٰ ما دونه ، ثم قد يعود إليه وقد لا يعود.

ومن المقامات : ما[1] يكون جامعاً لمقامين.

ومنها ما يكون جامعا لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات ، فلا يستحق صاحبه اسمه[2] إلا[3] عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف ، لا يتصور وجودها بدونهما.

والرضا جامع لمقام الصبر ومقام المحبة لا يتصور وجوده بدونهما.

والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة [٥٨/ ب] والرضا ، لا يتصور وجوده بدونها.

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

والبوارق جمع بارقة وهي عندهم لائحة ترد من الجناب الأقدس وتنطفئ سريعا وهي من أوائل الكشف ومباديه.

واللوامع عندهم هي أنوار ساطعة تلمع لأهل البدايات من أرباب النفوس الضعيفة الظاهرة ، فتنعكس من الخيال إلىٰ الحس المشترك، فتصير مشاهدة بالحواس الظاهرة، فترىٰ لها أنوار كأنوار الشهب والقمر والشمس. انظر : الرسالة القشيرية ٧٦-٧٧ ، رشح الزلال ١٠٦-١٠٨، التعريفات ٦١ ، ٢٤٨ ، معجم مصطلحات الصوفية ٣١ ، ٢٣٠.

(١) في أ زيادة « لا ».

(٢) « اسمه » ساقطة من م .

(٣) « إلا » ساقطة من ق.

والخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة.

والإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية ، لا يكون [العبد][1] منيبا إلا باجتماعهما.

والإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع ، لا يكون[2] أحدها بدون الآخر إخباتا.

والزهد جامع لمقام الرغبة والرهبة ، لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه ، ويرهب مما يخاف ضرره[3].

ومقام المحبة جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة ، فالمحبة معنىً يلتئم من هذه الأربعة ، وبها تحققها.

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله ، والمعرفة بحق عبوديته ، فمتىٰ عرف الله ، وعرف حقه اشتدت خشيتُه له ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته ، قال النبي ﷺ : « **أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية** »[4].

---

(١) زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٢) في ق ، غ ، أ ، ح٢ ، د ، ب ، م ، ح١ « لا يكمل ».

(٣) في غ ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ « ما يخاف ضرره » ، وفي ق « مما يخاف ضرره ».

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/ ٥١٣) ، ح(٦١٠١) ، عن عائشة ، بلفظ : « ... **فوالله إني لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية** ». وأخرجه مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٢٩) ح(٢٣٥٦) ، بلفظ : « **... فوالله لأنا أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية** ».

ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان ، ولذلك كان أرفعها وأعلاها ، وهو فوق الرضا ، وهو يتضمن الصبر من غير عكس ، ويتضمن التوكل ، والإنابة ، والحب ، والإخبات ، والخشوع ، والخوف ، والرجاء ، فجميع هذه المقامات[1] مندرجة فيه ، لا يستحق صاحبُه اسمَه علىٰ الإطلاق إلا باستجماع المقامات له ، ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ، ونصف شكر[2]. والصبر داخل في الشكر ؛ فرجع الإيمان كله إلىٰ الشكر[3] ، والشاكرون هم أقل العباد ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣].

ومقام الحياء جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام الأنس جامع لمقام الحب مع القرب ، فلو كان المحب بعيدا من محبوبه لم يأنس به ، ولو كان قريبا من رجل ولم يحبه لم يأنس به ، حتىٰ يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام الصدق الجامع[4] للإخلاص والعزم [٥٩/ أ] فباجتماعهما يصح له

---

(١) في غ ، أ ، م ، ح١ ، د ، ح٢ ، ق « فجميع المقامات ».

(٢) عزا هذا المعنىٰ لابن مسعود ، رضي الله عنه أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٣٩٠ ، ٤١٠ . وأخرج وكيع في الزهد عن ابن مسعود أنه قال : « **الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله** ». ٢/ ٤٥٦.

(٣) في ح١ ، غ ، أ « شكر » بدل « إلىٰ الشكر ».

(٤) في س ، ق ، « جامع ».

مقام الصدق.

ومقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية ، فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل ، والتفويض ، والرضا ، والتسليم ، فهو معنىٰ ملتئم من هذه الأمور ، إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة ، وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك الرغبة والرهبة كل منهما يلتئم من الرجاء والخوف ، والرجاء علىٰ الرغبة أغلب ، والخوف علىٰ الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان : أبرار ، ومقربون. فالأبرار في أذياله ، والمقربون في ذروة سنامه ، وهكذا مراتب الإيمان جميعها ، وكل من النوعين لا يحصي تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله تعالىٰ.

وتقسيمهم ثلاثة أقسام : عام ، وخاص ، وخاص خاص ، إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق ، وعلم القوم الذي(١) شمروا إليه ، وسنذكر ما في ذلك إن شاء الله تعالىٰ(٢) ، وأقسام الفناء ، محموده ومذمومه ، وفاضله ومفضوله ، فإن إشارة القوم إليه(٣) ، ومدارهم عليه.

علىٰ أن الترتيب الذي يشير إليه [كل](٤) مُرتِّب للمنازل لا يخلو عن تحكم ،

---

(١) في ش ، ب ، م « الذين ».

(٢) سقط من ح١ ، د ، غ ، أ ، ق قوله : « إن شاء الله تعالىٰ ».

(٣) في ش ، م ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « إن شاء الله ».

(٤) زيادة من م ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب .

ودعوىٰ من غير مطابقة ، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ، ودخل فيه كله ، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ، ومقاماته وأحواله ، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات ، لا يكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها ، وكلما وفَّىٰ واجبا أشرف علىٰ واجب آخر بعده ، وكلما قطع منزلة استقبل أخرىٰ.

وقد يعرض له أعلىٰ المقامات والأحوال في أول بداية سيره ، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد للسالك في نهايته ، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلىٰ أمور من البصيرة والتوبة ، والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها. [٥٩/ ب] فليس في ذلك ترتيب كُلِّي لازم للسلوك.

وقد ذكرنا أن التوبة التي جعلوها من أول المقامات هي غاية العارفين ، ونهاية أولياء الله المقربين ، ولا ريب أن حاجتهم إلىٰ المحاسبة في نهايتهم ، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم.

طريقة ابن القيم في ترتيب المقامات

فالأولىٰ الكلام في هذه المقامات علىٰ طريقة(١) المتقدمين من أئمة القوم كلاما مطلقا في كل مقام مقام ، ببيان حقيقته وموجبه ، وآفته المانعة من حصوله ، والقاطع عنه ، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو علىٰ هذا المنهاج لمن(٢) تأمله ، كسهل بن عبد الله

(١) في ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ش « طريق ».
(٢) في ح١ ، أ ، غ « فمن ».

التستري ، وأبي طالب المكي[١] ، والجنيد بن محمد[٢] ، وأبي عثمان النيسابوري[٣] ، ويحيىٰ بن معاذ الرازي[٤] ، وأرفع من هؤلاء طبقة ، مثل أبي سليمان الداراني[٥] ، وعون بن عبد الله[٦] الذي كان يقال له حكيم الأمة ،

---

(١) الإمام الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، أبو طالب ، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، روىٰ عن أبي بكر الآجري ، وأبي بكر بن خلاد ، صاحب كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ، توفي في جمادىٰ الآخرة ، سنة ٣٨٦هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦ ، البداية والنهاية ١١/ ٣٤١ ، شذرات الذهب ٣/ ١٢٠-١٢١.

(٢) هو أبو القاسم ، الجنيد بن محمد الجنيد النهاوندي ، ثم البغدادي ، القواريري ، شيخ الصوفية ، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، كان فقيهاً علىٰ مذهب أبي ثور، سمع من السَّريِّ ، ومن الحسن بن عرفة ، صحب الحارث المحاسبي ، تأله وتعبد ونطق بالحكمة ، كان عالماً زاهداً ، توفي سنة ٢٩٧هـ. انظر : الرسالة القشيرية ٤٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٦ ، طبقات الصوفية للسلمي ١٢٩.

(٣) أبو عثمان بن سعيد بن إسماعيل النيسابوري، أصله من الري، صحب يحيىٰ بن معاذ الرازي، وشاه الكرماني ، وهو من أوحد المشايخ في سيرته ، وعلىٰ يديه انتشر التصوف في نيسابور، مات سنة ٢٩٨هـ.
انظر : طبقات الصوفية ١٤٠ ، الرسالة القشيرية ٤٠٧ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢.

(٤) يحيىٰ بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، من كبار المشايخ ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة، خرج إلىٰ بلخ ، وأقام بها مدة ، ثم رجع إلىٰ نيسابور ، ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين.
انظر : طبقات الصوفية ٩٨ ، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٥١.

(٥) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية ، وقيل : ابن أحمد الداراني ، من أهل داريا – قرية من قرىٰ دمشق – ولد في حدود الأربعين ومائة ، روىٰ عن سفيان الثوري ، وغيره ، كان من الزهاد المتعبدين ، كثرت مقالاته في الزهد. توفي سنة خمس عشرة ومائتين.
انظر : طبقات الصوفية ٧٤ ، حلية الأولياء ٩/ ٢٥٤ ، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٢.

(٦) أبو عبد الله عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، الهذلي الكوفي ، أخو فقيه المدينة عبيد الله ،

وأضرابهما. فإنهم نظموا[1] علىٰ أعمال القلوب ، وعلىٰ الأحوال كلاما مفصلا جامعا مبينا مطلقا من غير ترتيب ، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم ، فإنهم كانوا أجل من هذا ، وهممهم أعلىٰ وأشرف ، إنما هم حائمون علىٰ اقتباس الحكمة والمعرفة ، وطهارة القلوب ، وزكاة النفوس ، وتصحيح المعاملة ، ولهذا كلامهم قليل[2] فيه البركة ، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

ولكن لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لا قوة لهم[3] للتشمير إلىٰ تلقي السلوك عن السلف الأول ، وكلماتهم وهديهم ، ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ، ولعدوه سلوكا عاميا ، وللخاصة سلوك آخر ، كما يقوله ضلال المتكلمين[4] وجهلتهم : « إن القوم كانوا أسلم ، وإن طريقنا أعلم »

حدث عن أبيه ، وأخيه ، وابن المسيب، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو وغيرهم، كان عابداً ، وثقه أحمد ، وغيره. توفي سنة بضع عشرة ومائة.

انظر : طبقات ابن سعد ٦/ ٣١٣ ، حلية الأولياء ٤/ ٢٤٠ ، سير أعلام النبلاء ٥/ ١٠٣.

(١) في ش ، م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، ق ، أ « تكلموا ».

(٢) في ب زيادة الواو.

(٣) « لهم » ساقطة من ش .

(٤) المتكلمون : هم أهل الكلام المذموم المخالف للكتاب والسنة ، والمخالف للعقل أيضاً ، وهم أهل الشبهات والأهواء ، المعتقدون للباطل ، المجادلون عنه ، وهم الذين ذمهم السلف الصالح ، ويدخل فيهم سائر الفرق المنحرفة عن المنهج الصحيح في أبواب الاعتقاد ، كالجهمية ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، ونحوهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « والسلف لم يذموا جنس الكلام ، فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به ورسوله ، ولا ذموا كلاماً

وكما يقوله من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلىٰ الفقه : « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه ، وضبط قواعده وأحكامه ، اشتغالا منهم بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك ، فهم أفقه ».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعمق علومهم ، وقلة تكلفهم، وكمال [٦٠/ أ] بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف[1] والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها ، وضبط قواعدها ، وشَدِّ معاقدها ، وهممهم مشمرة إلىٰ المطالب العالية في كل شيء ، فالمتأخرون في شأن ، والقوم[2] في شأن آخر[3] ، و ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : ٣].

فالأولىٰ بنا أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة ، ونشير إلىٰ معرفة حدودها ومراتبها ، إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله

هو حق ؛ بل ذموا الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً ، وهو الباطل ، فالكلام الذي ذمه السلف هو الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ». مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ١٤٧. ويقول أيضاً : « فالسلف ذموا أهل الكلام الذين هم أهل الشبهات والأهواء ، لم يذموا أهل الكلام الذين هم أهل كلام صادق يتضمن الدليل علىٰ معرفة الله تعالىٰ ، وبيان ما يستحقه ، وما يمتنع عليه ». درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٨١ ؛ وانظر في الاستزادة من ذلك : كتاب : موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضا ونقداً ؛ للدكتور سليمان الغصن.

(١) في ب ، أ ، غ ، د ، ح١ « التكليف ».

(٢) في ب « والمتقدمون » بدل « والقوم ».

(٣) « آخر » ساقطة من م ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ش ، ق.

تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ، وقد وصف تعالىٰ من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٩٧]، فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية، يستكمل العبد الإيمان، ويكون من أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

ونذكر لها ترتيبا غير مستحق؛ بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسي، ليكون ذلك أقرب إلىٰ تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس، فيكون التصديق به[1] أتم، ومعرفته أكمل، وضبطه أسهل.

وهذه فائدة ضرب الأمثال، وهي خاصة العقل ولبُّه[2]، ولهذا أكثر منها تعالىٰ[3] في القرآن؛ ونفىٰ عقلها عن غير العلماء، فقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فاعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان، فصاح به الناصح، وأسمعه داعي النجاح، وأذن به مؤذن الرحمن: «حي علىٰ الفلاح».

منزلة اليقظة

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم، وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه[4].

وصاحب المنازل يقول: «هِيَ القَوْمَةُ لله المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ

---

(١) «به» ساقطة من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق.

(٢) «ولبه» ساقطة من ش.

(٣) في م، ب، ح١، ح٢، د، أ، غ، ق «تعالىٰ منها».

(٤) سبق ذلك ص٤٢٣.

أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ [مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ](١)﴾ [سبأ : ٤٦]».

قال : « القَوْمَةُ لله هِي [٦٠/ ب] اليَقَظَةُ مِنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ ، وَالنُّهُوضُ عَنْ وَرْطَةِ الفَتْرَةِ ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يَسْتَنِيرُ قَلْبُ العَبْدِ بالحَيَاةِ لِرُؤْيَةِ نُورِ التَّنْبِيهِ ، وَهِيَ(٢) ثلاثَةُ أَشْيَاء : لَحْظُ القَلْبِ إِلَىٰ النِّعْمَةِ عَلَىٰ اليأسِ مِنْ عَدِّهَا ، وَالْوُقُوفِ عَلَىٰ حَدِّهَا ، وَالتَّفَرُّغِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ المِنَّةِ بِهَا ، وَالْعِلْمِ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهَا»(٣).

المرتبة الأولى من مراتب اليقظة

وهذا الذي ذكره هو موجب اليقظة وأثرها ، فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة واستنار(٤) قلبه برؤية(٥) نور التنبيه ، أوجب له ذلك ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة ، وكلما حدق قلبه وطرفه فيها ، شاهد عظمتَها وكثرتَها ، فيئس من عدِّها ، والوقوف علىٰ حدِّها ، وفرّغ قلبَه لمشاهدة منة الله عليه بها ، من غير استحقاق ، ولا استجلاب لها بثمن ، فتيقن حينئذ تقصيرَه في واجبِها ، وهو القيامُ بشكرها(٦).

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية : محبة المنعم ، واللهج بذكره ، وتذلله وخضوعه له ، وإزراءه علىٰ نفسه، حيث عجز

(١) زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٢) في م ، ب ، ح١ ، غ ، أ ، ح٢ ، د زيادة « علىٰ ».

(٣) منازل السائرين ص ١١-١٢.

(٤) في م ، ب ، أ ، غ ، ح١ ، ح٢ « لاستنارة » بدل « واستنار » ، وفي د « استنار » .

(٥) في ق « الرؤية » ، وفي أ « من رؤية ».

(٦) انظر قريبا من هذا المعنىٰ : شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٥٤-٥٥ ، وذلك عند شرحه لمنزلة اليقظة.

عن شكر نعمه، فصار متحققاً بـ « أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »(١)، وعلم حينئذ(٢) أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم(٣)، وعلم أن العبد دائما سائر إلىٰ الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير.

المرتبة الثانية

قال: « الثَّانِي: مُطَالَعَةُ الجِنَايَةِ، وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ الخُطَرِ فِيهَا، وَالتَّشْمِيرُ لِتَدَارُكِهَا، وَالتَّخَلُّصُ مِنْ رِقِّهَا، وَطَلَبُ النَّجَاةِ بِتَمْحِيصِهَا »(٤).

فينظر إلىٰ ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه علىٰ خطر عظيم فيها، مشرف علىٰ الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالىٰ في كتابه من نسي ما قدمت يداه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ

---

(١) هذا جزء من حديث سيد الاستغفار، الذي أخرجه البخاري في الدعوات، (١١/ ٩٧)، ح(٦٣٠٦)، عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: سيد الاستغفار أن يقول: «اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ... » الحديث، وأخرجه الترمذي في الدعوات، باب (١٥)، (٥/ ٤٦٧)، وأخرجه النسائي في الاستغفار، باب الاستغفار من شر ما صنع (٨/ ٢٧٩).

(٢) « حينئذ » ساقطة من ب.

(٣) يشير المؤلف إلىٰ ما أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وتقدم تخريجه ص٣٣٦.

(٤) منازل السائرين ١٢.

﴿فَأَعْرَضَ[1] عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف : ٥٧] ، [٦١/ أ] فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل ، وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم ، وطلب التمحيص ، وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية ، كتمحيص الذهب والفضة ، وهو تخليصهما من خبثهما ، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص ، فإنها [طيبة][2] ، لا يدخلها إلا طيب ، ولهذا تقول لهم الملائكة : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل : ٣٢] ، فليس في الجنة ذرة خبث[3].

ممحصات الذنوب

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء : بالتوبة ، والاستغفار ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته ، كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يبشرونهم بالجنة ، وكان من الذين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت : ٣٠- ٣٢].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه ، فلم تكن التوبة نصوحا ،

---

(١) في الأصل « ثم أعرض ».

(٢) زيادة من م ، غ ، أ ، ب ، ح١.

(٣) انظر هذا المعنىٰ في : شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٥٦-٥٧.

وهي العامة الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملاً تامّاً، وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، هذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح المسكر[1]، يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلىٰ فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب، وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما، محص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم له[2].

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إليه[3] إخوانه المسلمون من هدايا [٦١/ ب] الأعمال، من الصدقة عنه[4]، والحج عنه[5]، والصيام عنه، وقراءة القرآن[6]، والصلاة؛ وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس علىٰ وصول الصدقة والدعاء، قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: لا يختلفون في ذلك، وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة رحمه الله يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق. وأحمد ومن وافقه مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب، يقولون:

---

(١) في ح١، د، ح٢، غ، أ «السكر».

(٢) في غ، أ، م، ب، ق، د، ح١، ح٢ «فيه».

(٣) «إليه» ساقطة من غ.

(٤) «عنه» ساقطة من ش.

(٥) «عنه» ساقطة من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق، م.

(٦) في غ، ح٢، ح١، د، ق، ب، م، أ زيادة «عنه».

يصل إليه ثواب جميع القرب ، بدنيها وماليها ، والجامع للأمرين[1] ، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله : يا رسول الله ، هل بقي من بر والديَّ شيء أبرهما به بعد موتهما[2] ؟ ، قال : « نعم » . فذكر الحديث »[3].

---

(١) تكلم ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة في كتاب الروح ، وأطال الكلام عنها ، بذكر الخلاف والأدلة والمناقشة للأقوال ، والترجيح ، وقد استغرق الكلام عنها من ص ٤٣٥ إلىٰ ص ٥٠٠ ، وقد ابتدأ المسألة بقوله : « المسألة السادسة عشرة : وهي هل تنتفع أرواح الموتىٰ بشي من سعي الأحياء أم لا ؟ ، فالجواب أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير :

أحدهما : ما تسبب إليه الميت في حياته.

الثاني : دعاء المسلمين له ، واستغفارهم له ، والصدقة والحج علىٰ نزاع ما الذي يصل من ثوابه ، هل هو ثواب الإنفاق ، أو ثواب العمل ، فعند الجمهور : يصل ثواب العمل نفسه ، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية ، كالصوم ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والذكر ؛ فذهب الإمام أحمد ، وجمهور السلف إلىٰ وصولها ، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة ... ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل.

الروح ص ٤٣٥-٤٣٦ ؛ وانظر المغني ٣/ ٥١٨-٥٢٣ ، الإفصاح لابن هبيرة ١/ ١٩٤ ، تفسير القرطبي ١٧/ ١٠١ ، تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠٤ ، التحرير المرسخ في أحوال البرزخ محمد بن طولون الصالحي ص ٣٣٩.

(٢) في م ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، أ « مماتهما ».

(٣) هذا الحديث أخرجه أبو داود في الأدب ، (٥/ ٣٥٢) ، عن أبي أسيد ، مالك بن ربيعة الساعدي ، وتتمته قال : «**نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما**».

وقد قال النبي[١] ﷺ : «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[٢].

فإن لم تف هذه الثلاثة بالتمحيص ، محص[٣] في الموقف بثلاثة[٤] أشياء : أهوال القيامة ، وشدة الموقف ، وشفاعة الشفعاء ، وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير رحمة في حقه ، ليتخلص ويتمحّص ويتطهر في النار ، فتكون النار طهرة له وتمحيصا لخبثه ، ويكون مكثه فيها علىٰ حسب كثرة الخبث وقلته ، وشدته وضعفه ، [وتراكمه][٥]. فإذا خرج خبثه [وصفي ذهبه ، وصار خالصا طيبا][٦] ، أخرج من

وأخرجه ابن ماجه في الأدب (٢/ ١٢٠٨) ، والإمام أحمد (٣/ ٤٩٧-٤٩٨) ، والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٥) ، والحاكم (٤/ ١٥٤) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في السنن (٤/ ٢٨). وقد ضعف الحديث الألباني ، فقال : وهذا إسناد ضعيف ، رجاله ثقات كلهم غير علي مولىٰ أبي أسيد ، لم يوثقه غير ابن حبان ، ولم يرو عنه غير ابنه ، أسيد ؛ ولهذا قال الذهبي : «لا يعرف» ، وأشار إلىٰ ذلك الحافظ بقوله : «مقبول». انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/ ٦٢) ح(٥٩٧) ، وضعيف سنن أبي داود ح(٤٢٠) ، وضعيف سنن ابن ماجه ، ح(٢٩٨).

(١) «النبي» ساقطة من م ، ب ، ح٢ ، د ، غ ، أ.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في الصوم ، ٤/ ١٩٢ ، ح(١٩٥٢) ، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم في الصوم ، (٢/ ٨٠٣) ، ح(١١٤٧).

(٣) «محص» ساقطة من ح٢ ، ق ، وزيد عبارة «فبين يديه» وفي د «فبين يديه محص» ، وفي ب ، م ، ح١ ، غ ، أ زيادة «بين يديه» ، وفي ش زيادة «بدنه».

(٤) في م ، ش ، ح٢ «ثلاثة».

(٥) زيادة من م ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، ق ؛ وفي أ «وتركه».

(٦) زيادة من غ ، أ ، ح١ ، ق ، ح٢ ، د ، م ، ب.

النار، وأدخل الجنة.

المرتبة الثالثة

قال: «الثَّالِثُ» ؛ يَعْنِي مِنْ مَرَاتِبِ اليَقَظَةِ «الانْتِبَاهُ لِمَعْرِفَةِ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ مِنَ الأَيَّامِ، والتَّنَصّلُ عَنْ تَضْيِيعِهَا، وَالنَّظَرُ إِلَىٰ الضَّنِّ بِهَا لِتَدَارُكِ فَائِتِهَا، وَتَعْمِيرِ بَاقِيهَا»[١].

يعني أنه يعرف ما معه من الزيادة والنقصان، فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثمن لها، ويبخل بساعاته؛ بل بأنفاسه عن ذهابها ضياعا في غير ما يقربه إلىٰ الله تعالىٰ، فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم في قدره، قلة وكثرة، وكل[٢] نَفَسٍ يخرج في غير ما يُقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ هو[٣] حسرة علىٰ العبد [٦٢/ أ] في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، و[٤] حجاب إن انقطع به[٥].

ما تصفو به معرفة النعمة

قال: «فَأَمَّا مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ: فَإِنَّهَا تَصْفُو بِثَلاثَةِ أَشْيَاء: بِنُورِ العَقْلِ، وَشَيْمِ بَرْقِ المِنَّةِ، وَالاعْتِبَارِ بِأَهْلِ البَلاَءِ»[٦].

يعني أن حقيقة مشاهدة النعمة تصفو بهذه الثلاثة، وهي[٧] النور الذي

---

(١) منازل السائرين ١٢.

(٢) في ش، م، غ، أ، ح١، ق، ح٢، د، ب «فكل».

(٣) في سائر النسخ، ما عدا الأصل، ش، ق «فهو».

(٤) في غ، أ، ح١، ب «أو».

(٥) انظر: شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٥٧.

(٦) منازل السائرين ١٢.

(٧) في غ، م، ح١، ح٢ «فهي».

أوجب اليقظة ، فاستنار القلب به لرؤية التنبيه ، وعلىٰ حسبه قوة وضعفا تصفو له مشاهدة النعمة ، فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه ، وعافية بدنه ، وقيام وجهه بين الناس ، فليس له نصيب من هذا النور البتة ، فنعمة الله بالإسلام والإيمان ، وجذب عبده إلىٰ الإقبال عليه ، والتنعم بذكره ، والتلذذ بطاعته ، هو أعظم النعم ، وهذا إنما يدرك بنور العقل ، وهداية التوفيق.

وكذلك شيمه بروق منن[1] الله عليه ، وهو النظر إليها ، ومطالعتها من خلال سحب[2] الطبع ، وظلمات النفس ، والنظر إلىٰ أهل البلاء ، وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله ، فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقا ، فإذا رآهم، وعلم ما هم عليه ، عظمت نعمة الله عليه في قلبه ، وصَفَتْ له ، وعرف قدرها، فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء[3].

حتىٰ إن من تمام نعيم أهل الجنة رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب.

ما تصح به مطالعة الجناية

قال : «**وَأَمَّا مُطَالَعَةُ الجِنَايَةِ : فَإِنَّهَا تَصِحُّ بِثَلَاثَةِ أَشياء : بِتَعظِيمِ الحَقِّ ، وَمَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، وَتَصْدِيقِ الْوَعِيدِ**»[4].

يعني أن من كملت عظمة الحق في قلبه عظمت عنده مخالفته ؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه ، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها ، وفقرَها الذاتي إلىٰ مولاها الحق في كل لحظة ونفس ، وشدةَ حاجتها إليه ،

---

(١) في ش « نعم ».

(٢) في ش « حجب ».

(٣) شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٥٨.

(٤) منازل السائرين ١٢.

عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس [٦٢/ ب].

وأيضا فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه، عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وكذلك[1] بحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحقه به[2].

ومدار السعادة، وقطبُ رحاها علىٰ التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من قلبه التصديقُ بالوعيد خرب خرابا لا يرجىٰ معه فلاح البتة، والله تعالىٰ أخبر أنه إنما تنفع الآيات والإنذار لمن صدق[3] بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم، قال[4] تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالىٰ أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ[5] ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

(١) في غ، أ، ق، م، ح١، ح٢ «وذلك».

(٢) انظر هذا المعنىٰ في: شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٥٨-٥٩.

(٣) في م، ح٢ العبارة هكذا: «والله تعالىٰ أخبر أنه ما تنفع الآيات والإنذار إلا لمن صدق».

(٤) في م، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٥) سقط من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق، م من قوله: «وقال الذين كفروا» إلىٰ قوله: «لنهلكن الظالمين».

ﭐلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

ما تستقيم به معرفة الزيادة والنقصان من الأيام

قال: « وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ مِنَ الأَيَّامِ: فَإِنَّهَا تَسْتَقِيمُ بِثَلاَثَةِ أَشْيَاء: سَمَاعِ العِلْمِ، وَإِجَابَةِ دَوَاعِي[1] الحُرْمَةِ، وَصُحْبَةِ الصَّالحِينَ، وَملاَكُ ذَلِكَ كُلِّه: خَلْعُ العَادَاتِ »[2].

يعني أن السالك علىٰ حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب، تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه، وكذلك تفقد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها ؟، فبحسب إجابة الداعي سرعة وإبطاء تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم المشمرين إلىٰ اللحاق بالملأ الأعلىٰ، يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين[3] النفس علىٰ [٦٣/ أ] مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض، وما علىٰ العبد أضر من ملك[4] العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستمرة[5] الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين؛ فمن لم يوطن نفسه علىٰ

---

(١) في م، د، ب، غ، أ، ح٢، ح١، ق « داعي ».

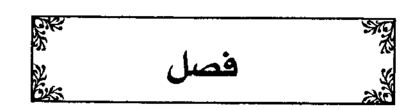
(٢) منازل السائرين ص ١٢-١٣.

(٣) في د، ح٢، ق، ح١، غ، م، أ « وتوطن ».

(٤) في الأصل « تلك ».

(٥) في ق، ح١، ح٢، غ، ب، م، د، أ زيادة « الماضين ».

مفارقتها والخروج منها ، والاستعداد للمطلوب منه ، فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦].



فصل

منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة ، وهي كما تقدم تحديق القلب إلىٰ جهة المطلوب التماسا له[1].

وصاحب المنازل جعلها بعد البصيرة ، وقال في حدِّها : « هي تلمس البصيرة لاستدراك البغية » أي التماس العقل للمطلوب بالتفتيش[2] عليه[3].

أنواع الفكرة

قال : «**وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : فِكْرَةٌ فِي عَيْنِ التَّوْحِيدِ ، وَفِكْرَةٌ فِي لَطَائِفِ الصَّنْعَةِ، وَفِكْرَةٌ فِي مَعَانِي الأَعْمَالِ وَالأَحْوَالِ**[4]»[5].

قلت : الفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل ، والثابت

---

(١) تقدم تعريف الفكرة ص٤٢٤.

(٢) في د « والتفتيش ».

(٣) قال التلمساني في شرح تعريف الهروي للتفكر : التفكر هو التماس العقل ، وهو تفتيشه لكي يدرك البغية ، والبغية هي المطلوب الذي يبتغيه المتفكر. شرح المنازل ١/ ٨١.

(٤) « والأحوال » ساقطة من ش.

(٥) منازل السائرين ١٨ .

والمنفي. والتي تتعلق بالطلب والإرادة[1] : فهي الفكرة التي تميز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرىٰ في الطريق إلىٰ حصول ما ينفع ، فيسلكها ، وطريق ما يضر فيتركها.

فهذه ستة أقسام لا سابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء.

فالفكرة في التوحيد : استحضار أدلته ، وشواهده الدالة علىٰ بطلان الشرك واستحالته ، وأن الإلهية[2] يستحيل ثبوتها لاثنين ، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين ، فكذلك[3] أبطل الباطل عبادة اثنين ؛ بل لا تصلح[4] العبادة إلا للإله الحق ، والرب الحق ، وهو الله الواحد القهار.

وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع ، وجاء بما يرغب عنه الكمّل من سادات السالكين والواصلين إلىٰ الله.

التوحيد عند الصوفية

فقال : « **الفِكْرَةُ فِي عَيْنِ [٦٣/ ب] التَّوْحِيدِ : اقْتِحَامُ بَحْرِ الجُحُودِ** ». وهذا بناء علىٰ أصله الذي أصله ، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء ، فإنه لما رأىٰ أن الفكرة في عين التوحيد تبعد العبد عن[5] التوحيد الصحيح ؛ لأن التوحيد

(١) سقط من ق من قوله : « فالتي تتعلق بالعم والمعرفة » إلىٰ قوله : « بالطلب والإرادة ».

(٢) في ب « إلـهيته ».

(٣) في غ ، ح٢ ، ق ، ب ، ح١ ، أ ، د ، م زيادة « من ».

(٤) في ح٢ ، م « لا تصح ».

(٥) في ح٢ ، أ ، ب ، ح١ ، م ، د ، ق « من ».

الصحيح عنده : لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والمتفكر[١]. والفكرة تدل علىٰ بقاء الرسم[٢] ، لاستلزامها مفكرا ، وفعلا قائما به ، والتوحيد التام عنده : لا يكون مع بقاء رسم أصلا ، كانت الفكرة عنده علامة الجحود ، لاقتحامها لبحره ، وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب[٣] :

مَا وَحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وحَّدَهُ جَاحِدُ

تَوحِيدُ مَن ينطِقُ عَن نعْتِه ... عَارِيةٌ أَبطلَهَا الواحِدُ

تَوحيدُه إيَّاه تَوحيدُه ... وَنَعْتُ مَن يَنْعَتُه لاَحِدُ[٤]

ومعنىٰ أبياته : ما وحد الله عز وجل أحد حق توحيده الخاص ، الذي[٥] تفنىٰ فيه الرسوم ، ويضمحل فيه كل أحد[٦] ، ويتلاشىٰ[٧] فيه كل مكون ، فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم ، وهو الموحد ، وتوحيده القائم به ، فإذا

---

(١) في ق ، م ، ب « الفكرة والتفكر ».

(٢) الرسم في اصطلاح الصوفية : هو الخلق وصفاته ؛ لأن الرسوم هي الآيات ، وكل ما سوىٰ الله آثاره الناشئة من أفعاله وإياه عني من قال : « الرسم نعت يجري في الأبد بما جرىٰ في الأزل ». انظر : رشح الزلال ص ١٢٢ ، التعريفات ص ١٤٧ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢٦٤ ، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ص ١١٢ ، إحياء علوم الدين ٥/ ١٧.

(٣) انظر هذا المعنىٰ الذي ذكره ابن القيم في تفسير كلام الهروي في : شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٨٢ ، فقد فسر كلام الهروي بمثل ما فسره به ابن القيم.

(٤) انظر : الأبيات في منازل السائرين في آخر الكتاب ص ١٣٩.

(٥) في ح١ ، ح٢ ، ب ، أ ، م ، غ « التي ».

(٦) في ب ، ح١ ، أ ، د ، م ، غ ، ق ، ح٢ « حادث ».

(٧) في ح٢ « فيتلاشىٰ ».

وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث، وذلك جحود لحقيقة التوحيد، الذي تفنىٰ فيه الرسوم، وتتلاشىٰ فيه الأكوان، فلذلك قال: «إذ كل من وحده جاحد» هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه، وقد فسره أهل الوحدة بصريح[1] مذهبهم.

قالوا: معنىٰ «كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدٌ»: أي كل من وحده فقد وصف الموحد بصفة تتضمن جحد حقه الذي هو عدم انحصاره تحت الأوصاف، فمَنْ وَصَفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات[2].

وقوله: «تَوحِيدُ مَنْ يَنطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عَارِيَةٌ[3]» أي توحيد المحدث له الناطق عن نعته، عارية مستردة، فإنه الموحد قبل توحيد هذا الناطق، وبعد فنائه، فتوحيده له عارية أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ما سواه.

والاتحادي[4] يقول: معناه أن الموحَّدَ واحدٌ من جميع الوجوه، فأبطل

---

(١) في م، ب، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق زيادة «كلامهم في».

(٢) انظر هذا التفسير الذي ذكره ابن القيم عن أهل الوحدة: شرح المنازل للتلمساني ٢/ ٦١١.

(٣) «عارية» ساقطة من ح١، أ، غ.

(٤) الاتحادي: المقصود به العفيف التلمساني شارح منازل السائرين، وهو أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن علي القابري التلمساني، عفيف الدين، كان يرعىٰ العرفان، ويتكلم علىٰ اصطلاح القوم، نسبه جماعة إلىٰ رقة الدين، والميل إلىٰ مذاهب النصيرية، وقال عنه الذهبي: أحد زنادقة الصوفية، له عدة مؤلفات؛ منها: شرح المنازل، وشرح فصوص الحكم لابن عربي، وشرح القصيدة العينية لابن سينا، وغيرها، ولد سنة ٦١٠هـ، وتوفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: العبر للذهبي ٣/ ٣٧٢، البداية والنهاية ١٣/ ٣٤٥، الأعلام ٣/ ١٣٠.

ببساطة[1] ذاته تركيب نطق واصفه، وأبطل [٦٤/ أ] بإطلاقه تقييد نعت موحده[2].

قوله : « تَوْحِيدُه إيّاهُ تَوحِيدُه » يعني أن توحيده الحقيقي هو توحيده لنفسه ، حيث لا هناك رسم ولا مكون ، فما وحد الله حقيقة إلا الله.

والاتحادي يقول : ما ثم غير يوحده ؛ بل هو الموحد لنفسه بنفسه ، إذ ليس ثم سوىٰ في الحقيقة[3].

قوله : « وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُه لاَحِدُ » أي نعت الناعت له ميل وخروج عن التوحيد الحقيقي ، والإلحاد أصله الميل ؛ لأنه بنعته له قائم بالرسوم ، وبقاء الرسوم ينافي توحيده الحقيقي.

والاتحادي يقول : نعت الناعت له شرك ؛ لأنه أسند إلىٰ المطلق ما لا يليق به إسناده من التقييد ، وذلك شرك وإلحاد[4].

فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل ، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد[5] ، فدخلوا منه ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم : إنه معهم ومنهم[6] ، وغره سراب الفناء ، فظن أنه لجة بحر المعرفة ، وغاية العارفين ، وبالغ في تحقيقه وإثباته ،

---

(١) في د ، ح٢ ، غ ، م « ببساطته ».

(٢) شرح منازل السائرين للتلمساني ٢/ ٦١١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) في الأصل « الاتحاد » ، والمثبت من باقي النسخ الخطية.

(٦) في م ، غ ، ق ، ب ، د ، ح١ ، ح٢ « إنه لمنهم وما هو منهم ».

فقاده قسراً إلىٰ ما ترىٰ[١].

الفناء ودرجاته

والفناء[٢] الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه، أن تذهب المحدثات في

(١) تكلم ابن القيم علىٰ هذه الأبيات وشرحها في آخر الكتاب عند كلامه علىٰ النوع الثالث من أنواع التوحيد عند الصوفية التي ذكرها الهروي في منازل السائرين، وبيّن هنالك ما تحتمله الأبيات من حق وباطل، وما يمكن حمل كلامه عليه من أوجه الحق التي يمكن حمل كلامه عليها، نظراً لما كان عليه ـ رحمه الله ـ من إثبات الصفات، ونفي التعطيل، ومعاداة أهله، كما في كتابه ذم الكلام، فقال: والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل، وسيرته، ومذهبه، وما يدعو إليه، ويناظر عليه. المدارج ٣/ ٥١٣-٥٢١.

وقال أيضا: وتولىٰ شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة، وأعظمهم فيه مبالغة وعنادا لأهل الفرق العفيف التلمساني، ونزّل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل علىٰ جمع الوجود، وهو لم يرد به – حيث ذكره – إلا جمع الشهود؛ ولكن الألفاظ مجملة وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد. المدارج ١/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) الفناء من المصطلحات الصوفية، وقد اختلفت عباراتهم في تعريفه، فممن تكلم علىٰ الفناء الكلاباذي وعرفه بقوله: الفناء: هو أن يفنىٰ عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء، كلها شغلا بما فني به، ... والحق يتولىٰ تصريفه، فيصرفه في وظائفه، وموافقاته، فيكون محفوظا فيما لله عليه، مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل. التعرف ١٤٢.

وقال القشيري في الرسالة ٦٧ : أشار قوم بالفناء إلىٰ سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء إلىٰ بروز الأوصاف المحمودة. ثم بين أن الإنسان لا يخلو من أحد هذين النوعين من الأوصاف، ثم قال: واعلم أن ما يتصف به العبد يشمل أفعالا، وأخلاقا، وأحوالا، ثم تكلم عليها، وبين كيف يفنىٰ العبد عن الأوصاف الذميمة، ويبقىٰ في الأوصاف المحمودة، وبتعريف القشيري عرفه الجرجاني في تعريفاته ٢١٧، ثم أردفه بقوله: والفناء فناءان؛

شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقىٰ الحق تعالىٰ كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا، فلا يبقىٰ[١] له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً، فلا يبقىٰ له شهود. و[٢] يصير الحق

أحدهما: ما ذكر وهو بكثرة الرياضة.

والثاني: عدم الإحساس بعالم الملك، والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق.

وعرفه الكاشاني في رشح الزلال ٧٧ بأنه: فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالىٰ علىٰ ذلك. ثم بين أن هذا قسم من أقسام الفناء، وهو فناء الفعل في الفعل، ولم يشمل علىٰ فناء الصفة والذات في الذات. وقد ذكر الحفني للفناء عدة تعريفات في معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٧.

أما ابن القيم فقد توسع في الكلام علىٰ الفناء، فتكلم عنه هنا بدءًا بشرح كلام الهروي، ثم أتبعه بتعريف الفناء، وذكر أقسامه، ومراتبه، وممدوحه، ومذمومه، ومتوسطه، كما أعاد الكلام عليه في آخر الكتاب، وذلك عند كلامه علىٰ منزلة الفناء من قسم النهايات عند شرحه لكلام الهروي علىٰ هذه المنزلة، فشرح كلام الهروي كما شرحه هنا.

وقد عرف ابن القيم الفناء بأنه مصدر فني فناء، إذا اضمحل وتلاشىٰ وعدم، وقد يطلق علىٰ ما تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء لا يقتل في المعركة شيخ فان ...، أي: هالك ذاهب؛ ولكن القوم اصطلحوا علىٰ وضع هذه اللفظة لتجريد شهود الحقيقة الكونية الغيبية عن شهود الكائنات. المدارج ١/ ١٥٤.

وعرفه في آخر الكتاب بقوله: حقيقة الفناء اسم يطلق علىٰ ثلاث معان: فناء عن وجود السوىٰ، وهو فناء أهل الاتحاد، وفناء عن شهود السوىٰ، وفناء عن إرادة السوىٰ.

وسيأتي كلامه علىٰ هذه الأنواع بعد قليل.

(١) في ب «تبقىٰ».

(٢) الواو ساقطة من م.

هو الذي يشاهد نفسه[1] بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات. وحقيقته: أن يفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل.

تعريف الفناء عند الهروي ودرجاته

قال صاحب المنازل: « هُوَ اضْمِحْلاَلُ مَا دُونَ الحَقِّ عِلْماً، ثُمَّ جَحْداً، ثُمَّ حَقًّا، وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: فَنَاءُ المَعْرِفَةِ فِي المعْرُوفِ[2]، وَهُوَ الفَنَاءُ عِلْماً، وَفَنَاءُ العَيَانِ فِي المُعَايِنِ، وَهُوَ الفَنَاءُ جَحْداً، وَفَنَاءُ الطَّلَبِ في الْوُجُودِ، وَهُوَ الفَنَاءُ حَقًّا.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَنَاءُ شُهُودِ الطَّلَبِ لإِسْقَاطِهِ، وَفَنَاءُ شُهُودِ المَعْرِفَةِ لإِسْقَاطِهَا، وَفَنَاءُ شُهُودِ العَيَانِ لإِسْقَاطِهِ.

الدَّرَجَةُ [٦٤/ ب] الثَّالِثَةُ: الفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ الفَنَاءِ، وَهُوَ الفَنَاءُ حَقًّا، شَائِماً بَرْقَ العَيْنِ، رَاكِباً بَحْرَ الجَمْعِ، سَالِكاً سَبِيلَ البَقَاءِ »[3].

فنذكر ما في هذا الكلام من حق وباطل، ثم نتبعه ذكر أقسام الفناء، والفرق بين الفناء المحمود، الذي هو فناء خاصة أولياء الله المقربين، والفناء المذموم الذي هو فناء أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود، وفناء المتوسطين الناقصين عن درجة الكمال؛ بعون الله وحوله وتأييده[4].

---

(١) « نفسه » ساقطة من ح١.

(٢) سقط من م قوله: « في المعروف ».

(٣) منازل السائرين ١٢٨.

(٤) هذه هي أقسام الفناء، ومراده بالفناء المحمود: الفناء عن إرادة السوىٰ، ومراده بالفناء المذموم: الفناء عن وجود السوىٰ، ومراده بفناء المتوسطين: الفناء عن شهود السوىٰ؛ وسيأتي تفصيل المؤلف لها، والكلام عليها عن قريب.

فقوله : «**الفَنَاءُ اضْمِحْلاَلُ مَا دُونَ الحَقِّ جَحْداً**» لا يريد به أنه يعدم من الوجود بالكلية ، وإنما يريد اضمحلاله في العلم ، فيعلم أن ما دونه باطل ، وأن وجوده بين عدمين ، وأنه ليس له من ذاته إلا العدم. فعدمه بالذات ، ووجوده بإيجاد الحق له ، فيفنىٰ في علمه ، كما كان فانيا في حال عدمه. فإذا فني في علمه ارتقىٰ إلىٰ درجة أخرىٰ فوق ذلك ، وهي جحد السوىٰ وإنكاره ، وهذه أبلغ من الأولىٰ ؛ لأنها غيبته عن السوىٰ ، فقد يغيب عنه وهو غير جاحد له ، وهذه الثانية جحده وإنكاره.

ومن هاهنا دخل الاتحادي ، وقال : المراد جحد السوىٰ بالكلية ، وأنه ما ثم غير بوجه ما[1].

وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد ، وإن كانت عبارته موهمة ؛ بل مفهمة [ذلك][2] ، وإنما أراد بالجحد : في الشهود ، لا في الوجود ، أي يجحده أن يكون مشهودا ، فيجحد وجوده الشهودي العلمي ، لا وجوده العيني الخارجي. فهو أولا يغيب عن وجوده الشهودي العلمي ، ثم ينكر ثانيا وجوده في علمه. وهو اضمحلاله جحدا ، ثم يرتقي من هذه الدرجة إلىٰ[3] أخرىٰ أبلغ منها ، وهي[4] اضمحلاله في الحقيقة ، وأنه لا وجود له البتة ، وإنما

---

(١) انظر : شرح منازل السائرين للتلمساني ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٢) زيادة من ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٣) في م زيادة « درجة ».

(٤) هكذا في سائر النسخ ، وفي الأصل ، ش « وهو ».

وجوده قائم بوجود الحق ، فلولا وجود الحق لم يكن هذا موجوداً ، ففي الحقيقة الموجود إنما هو الحق وحده ، والكائنات من أثر وجوده ، هذا معنىٰ قولهم : إنها لا وجود لها ، [ولا أثر لها](1) ، وإنها معدومة وفانية ومضمحلة.

والاتحادي يقول : إن السالك [٦٥/ أ] في أول سلوكه يرىٰ أنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله ، فهذا توحيد العلم. ولا يقدر في طوره علىٰ أكثر من ذلك. ثم ينتقل من هذا إلىٰ الدرجة الثانية ، وهي(2) شهود عود الأفعال إلىٰ الصفات ، والصفات إلىٰ الذات ، فعاد الأمر كله إلىٰ الذات ، فيجحد وجود السوىٰ بالكلية ، فهذا هو الاضمحلال جحدا ، ثم يرتقي عن هذه الدرجة إلىٰ ركوب البحر الذي تغرق فيه الأفعال والأسماء والصفات ، ولا يبقىٰ إلا أمر مطلق لا يتقيد باسم ولا فعل ولا صفة ، قد اضمحل فيه كل معنىٰ وقيد وصفة ورسم ، وهذا عندهم غاية السفر الأول ، فحينئذ يأخذ في السفر الثاني ، وهو البقاء(3).

الدرجة الأولى

قوله : « الدَّرَجَةُ الأُوْلَىٰ : فَنَاءُ المَعْرِفَةِ فِي المَعْرُوفِ ».

يريد اضمحلال معرفته وتلاشيها في معروفه ، وأن يغيب بمعروفه عن معرفته ، كما يغيب بمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمحبوبه عن حبِّه ، وبمخوفه عن خوفه ، وهذا لا ريب في إمكانه ووقوعه ، فإن القلب إذا امتلأ بشيء لم يبق فيه متسع لغيره. وأنت ترىٰ الرجل يشاهد محبوبه الذي قد

---

(١) زيادة من م ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق .

(٢) في الأصل ، ح١ ، د ، ش « وهو ».

(٣) انظر : شرح منازل السائرين للتلمساني ٥٧٠ ، فقد فسره بهذا.

استغرق في حبه ، بحيث تخلل حبُّه جميعَ أجزاء قلبه ، أو[١] شاهد المخوف الذي[٢] امتلأ بخوفه ، فيعترضه دهشٌ عن شعوره بحبه أو خوفه ، لاستيلاء سلطان المحبوب أو المخوف علىٰ قلبه ، وعدم اتساعه لشهود غيره البتة ؛ ولكن هذا لنقصه لا لكماله ، والكمال وراء هذا فلا أحد أعظم محبة لله من الخليلين ، وكانت حالهما أكمل من هذه الحال ، وشهود العبودية أكمل وأتم وأبلغ من الغيبة عنها بشهود المعبود ، فشهود العبودية والمعبود درجة الكُمّل ، والغيبة بأحدهما عن الآخر للناقصين ، فكما أن الغيبة بالعبادة عن المعبود نقص[٣] كذلك[٤] [٦٥/ ب] الغيبة بالمعبود عن عبادته[٥]. حتىٰ إن من العارفين من لا يعتد بهذه العبادة ، ويرىٰ إيجادها عدما[٦]. ويقول : هي بمنزلة عبودية النائم وزائل العقل ، لا يعتد بها ، ولم يبعد هذا القائل.

فالحق تعالىٰ مراده من عبده استحضار عبوديته ، لا الغيبة عنها ، والعامل علىٰ الغيبة عنها عامل علىٰ مراده من الله ، وعلىٰ حظه والتنعم بالفناء في شهوده ، لا علىٰ مراد الله منه ، وبينهما ما بينهما.

---

(١) في ح٢ « و ».

(٢) في د « والذي ».

(٣) « نقص » ساقطة من ق.

(٤) في ب ، م ، ق ، ح٢ ، د ، غ ، أ : « فكذلك ».

(٥) في ش ، أ ، ح٢ ، د ، غ زيادة « نقص ».

(٦) في ش بدل قوله : « ويرىٰ إيجادها عدما » كتب « ويرىٰ فسادها » ؛ ومعنىٰ هذه العبارة أن وجودها يعتبر كالعدم.

فكيف يكون قائما بحقيقة العبودية من يقول « إياك نعبد » ولا شعور له بعبوديته البتة ؟ ، بل حقيقة « إياك نعبد » علما ومعرفة وقصدا وإرادة وعملا ، وهذا مستحيل في وادي الفناء ، ومن له ذوق يعرف هذا وهذا.

قوله : « وَفَنَاءُ العَيَانِ في المُعَايِنِ ، وَهُوَ الفَنَاءُ جَحْداً ».

لما كان ما[1] قبل هذا فناء العلم في المعلوم ، والمعرفة في المعروف ، والعيان فوق العلم والمعرفة ، إذ نسبته إلىٰ العلم كنسبة المرئي إليه ، كان الفناء في هذه المرتبة فناء عيانه في معاينه ، ومحو أثره واضمحلال رسمه.

قوله : « وَفَنَاءُ الطَّلَبِ فِي المُوجُودِ وَهُوَ الفَنَاءُ حَقًّا ».

يريد أنه لا يبقىٰ لصاحب هذا العيان طلب ؛ لأنه قد ظفر بموجوده ومطلوبه ، وطلب الموجود محال ؛ لأنه إنما يطلب المفقود عن العيان لا الموجود ، فإذا استغرق[2] في عيانه وشهوده فني الطلب حقًّا.

الدرجة الثانية

قوله : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فَنَاءُ شُهُودِ الطَّلَبِ لإِسْقَاطِهِ ، وَفَنَاءُ شُهُودِ المَعْرِفَةِ لإِسْقَاطِهَا ، وَفَنَاءُ شُهُودِ العَيَانِ لإِسْقَاطِهِ ».

يريد أن الطلب يسقط ، فيشهد العبد عدمه ، فهاهنا أمور ثلاثة مترتبة أحدها: فناء الطلب وسقوطه ، ثم شهود سقوطه ، ثم سقوط شهوده.

فهذا هو فناء شهود الطلب لإسقاطه.

وأما « فَنَاءُ شُهُودِ المَعْرِفَةِ لإِسْقَاطِهَا » ، فيريد به : أن المعرفة تسقط في

---

(١) « ما » ساقطة من ش ، أ.

(٢) في ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، م ، ق « استقرت ».

شهود العيان. إذ هو فوقها، وهي تفنىٰ فيه، فيشهد سقوطها [٦٦/ أ] في العيان، ثم يسقط شهود سقوطها.

وصاحب المنازل يرىٰ أن المعرفة قد يصحبها شيء من حجاب العلم، ولا يرتفع ذلك الحجاب إلا بالعيان، فحينئذ تفنىٰ في حقه المعارف، فيشهد فناءها وسقوطها؛ ولكن بَعْدُ عليه[1] بقية لا تزول عنه حتىٰ يسقط شهود فنائها وسقوطها منه. فالعارف يخالطه بقية من العلم لا تزول إلا بالمعاينة، والمعاين قد يخالطه بقية من المعرفة لا تزول إلا بشهود سقوطها، ثم سقوط شهود هذا السقوط[2].

وأما «فَنَاءُ شُهُودِ العَيَانِ لِإِسْقَاطِهِ» فيعني أن العيان أيضا يسقط فيشهده العبد ساقطا، فلا يبقىٰ إلا المعاين وحده.

قال الاتحادي: هذا دليل علىٰ أن الشيخ يرىٰ مذهب أهل الوحدة؛ لأن العيان إنما يسقط في مبادئ حضرة الجمع؛ لأنه يقتضي ثلاثة أمور: معايِن، ومعايَن، ومعاينة، وحضرة الجمع تنفي[3] التعداد[4].

---

(١) في أ، ب «بقت عليه».

(٢) استفاد ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا المعنىٰ الذي فسر به كلام الهروي من التلمساني في شرحه للمنازل، فقد ذكر مثل هذا المعنىٰ عند شرحه لعبارة الهروي السابقة. انظر: شرح المنازل للتلمساني ٢/ ٥٧١-٥٧٢.

(٣) في ح١ «تفنىٰ»، وهذا موافق لما في شرح المنازل للتلمساني.

(٤) مراده بالاتحادي العفيف التلمساني، وكلامه هذا في شرحه للمنازل ٢/ ٥٧٢، فقد فسر كلام الهروي بهذا التفسير، وجعله دالاً علىٰ مذهب أهل الوحدة، ولم يقطع بأن الشيخ نفسه يعتقد مذهب أهل الوحدة.

وهذا كذب علىٰ شيخ الإسلام ، وإنما مراده : فناء شهود العيان ، فيفنىٰ عن مشاهدة المعاينة ، ويغيب بمعاينه عن معاينته ، لا أن مراده : انتفاء التعداد والتغاير بين المعايِن والمعايَن. وإنما مراده: انتفاء الحاجب عن درجة الشهود، لا عن حقيقة الوجود ، ولكنه باب لإلحاد[1] هؤلاء الملاحدة ، منه يدخلون.

والفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي ، وإسقاطه عن رتبة الوجود الخارجي العيني [بيِّن][2] ، فشيخ الإسلام بل مشايخ القوم المتكلمون بلسان الفناء هذا مرادهم.

وأما أهل الوحدة ، فمرادهم : أن حضرة الجمع والوحدة تنفي التعداد[3] والتقييد في الشهود والوجود ، بحيث يبقىٰ المعروف والمعرفة والعارف من عين واحدة ، لا بل ذلك هو نفس العين الواحدة. وإنما العلم والعقل[4] والمعرفة حُجُب ، بعضها أغلظ من بعض. ولا يصير السالك عندهم محققا حتىٰ [٦٦/ ب] يخرق حجاب العلم والمعرفة والعقل ؛ فحينئذ يفضي إلىٰ ما وراء الحجاب من شهود الوحدة المطلقة التي لا تتقيد بقيد ، ولا تختص بوصف.

---

(١) في ش « الاتحاد ».

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من د ، وهي ضرورية لاستقامة المعنىٰ ، وفي ش العبارة هكذا : «الوجود الخارجي بين لذي العين ».

(٣) في د ، غ ، م ، ح١ ، ب ، ق ، أ ، ح٢ « التعدد ».

(٤) في ح٢ تقديم وتأخير « العقل والعلم ».

الدرجة الثالثة

قوله : « **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ الفَنَاءِ** ».

أي يشهد فناء كل ما سوىٰ الحق في وجود الحق. ثم يشهد الفناء قد فني أيضا ، ثم يفنىٰ عن شهود الفناء ، فذلك هو الفناء حقا.

وقوله : « **شَائِماً بَرْقَ العَيْنِ** ».

يعني ناظرا إلىٰ عين الجمع ، فإذا شام برقه من بعد انتقل من ذلك إلىٰ ركوب لجة [بحر][1] الجمع ، وركوبه إياها هو فناؤه في جمعه.

ويعني بالجمع : الحقيقة الكونية القدرية التي يجتمع [فيها][2] جميع المتفرقات ، وتشمير القوم إلىٰ شهودها والاستغراق والفناء فيها ، فهو[3] غاية السلوك والمعرفة عندهم.

وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ أن العبد لا يدخل بهذا الفناء والشهود في الإسلام ، فضلا أن يكون به من المؤمنين ، فضلا أن يكون به من خاصة أولياء الله المقربين. فإن هذا شهود مشترك لأمر أقرت به عبَّاد الأصنام وسائر أهل الملل : أنه لا خالق إلا الله. قال تعالىٰ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان : ٢٥] ، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

---

(١) زيادة من م ، ب ، ح١ ، غ ، أ ، ق.

(٢) من هنا سقط من نسخة (م) إلىٰ ص ٥٢٣ ، ويوجد مكانه كلام آخر بخط مغاير لا علاقة بينه وبين الموضوع الذي يتكلم عنه المؤلف ، وإنما فيه الكلام عن المحبة ، وهو جزء من كلامه علىٰ منزلة المحبة في آخر الكتاب.

(٣) في د ، ش ، ق « وهو ». وفي ب ، أ ، ح١ ، ح٢ ، غ « هو ».

[الزخرف : ٨٧] ، فالاستغراق والفناء في شهود هذا القدر غايته[1] التحقيق لتوحيد الربوبية الذي أقر به المشركون ، ولم يدخلوا به في الإسلام. وإنما الشأن في توحيد الإلهية الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت[2] به الكتب ، وتميز به أولياء الله من أعدائه ، وهو أن لا يعبد إلا الله ، ولا يحب سواه ، ولا يتوكل علىٰ غيره.

والفناء في هذا التوحيد : هو فناء خاصة المقربين ، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.



فصل

تعريف ابن القيم للفناء

إذا عرف مراد القوم بالفناء ، فنذكر أقسامه ، ومراتبه ، [٦٧/ أ] وممدوحه ، ومذمومه ، ومتوسطه.

فاعلم أن الفناء مصدر فني يفنىٰ فناء إذا اضمحل وتلاشىٰ وعدم. وقد يطلق علىٰ ما تلاشت قواه وأوصافه ، مع بقاء عينه ، كما قال الفقهاء : لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ. وقال تعالىٰ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن : ٢٦] ، أي هالك ذاهب[3]. ولكن القوم اصطلحوا علىٰ وضع هذه اللفظة لتجريد شهود الحقيقة الكونية ، والغيبة عن شهود الكائنات.

---

(١) في د ، غ ، ح٢ ، ح١ ، أ ، ق « غاية ».

(٢) في د ، غ ، أ ، ح٢ ، ح١ ، ق « أنزلت ».

(٣) انظر المعنىٰ اللغوي للفناء : لسان العرب ٥/ ٣٤٧٧ ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٠٤ ، مادة (فني) وقد تقدم بيان المراد بالفناء عند الصوفية؛ عند قوله: «والفناء الذي يشير إليه القوم » ص٤٧٦.

درجات الفناء

وهذا الاسم يطلق علىٰ ثلاثة معان ؛ الفناء عن وجود السوىٰ ، والفناء عن شهود السوىٰ ، والفناء عن إرادة السوىٰ[(١)].

فأما الفناء عن وجود السوىٰ : فهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم غير ، وأن غاية العارفين والسالكين الفناء في الوحدة المطلقة ، ونفي التكثر ، والتعدد عن الوجود بكل اعتبار ، فلا يشهد غيرا أصلا ؛ بل يشهد وجود العبد عين وجود الرب ؛ بل ليس عندهم في الحقيقة[(٢)] رب وعبد.

وفناء هذه الطائفة في شهود الوجود كله واحداً ، وهو الواجب بنفسه ، ما ثم وجودان ممكن ، وواجب ؛ ولا يفرقون بين كون وجود المخلوقات بالله ، وبين كون وجودها هو عين وجوده. وليس عندهم فرقان بين العالمين ، ورب العالمين ، ويجعلون الأمر والنهي للمحجوبين عن شهودهم وفنائهم ، وهو تلبيس عندهم. والمحجوب عندهم يشهد أفعاله طاعات ومعاص[(٣)] ؛ لأنه في مقام الفرق ، فإذا ارتفعت درجته شهد أفعاله كلها طاعات ، لا معصية فيها ، لشهوده الحقيقة الكونية الشاملة لكل موجود. فإذا ارتفعت درجته عندهم فلا طاعة ولا معصية ؛ بل ارتفعت الطاعات والمعاصي ؛ لأنها تستلزم اثنينية

---

(١) تكلم ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن أقسام الفناء الثلاثة هذه أيضاً في كتابه طريق الهجرتين ٣٦٠ ، وسبقه إلىٰ ذكر هذه الأقسام الثلاثة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في أكثر من موضع في كتبه. انظر في ذلك مثلاً : مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٣١٣ ، ١٠/ ٢١٨-٢٢٣ ، ٣٣٧-٣٤٣ ، الاستقامة ٢/ ١٤٢.

(٢) في د تقديم وتأخير « في الحقيقة عندهم ».

(٣) في د ، غ ، أ ، ق ، ح٢ ، ح١ ، ب « أو معاص ».

وتعداداً[1]، وتستلزم مطيعاً ومطاعاً، وعاصياً ومعصيّاً. وهذا عندهم محض الشرك، والتوحيد المحض يأباه. فهذا فناء هذه الطائفة.

الفناء عن شهود السوى

وأما الفناء عن شهود السوىٰ: فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين [٦٧/ ب]، ويعدونه غاية، وهو الذي بنىٰ عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه، وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوىٰ الله تعالىٰ في الخارج؛ بل فناؤه عن شهودهم وحسِّهم. فحقيقته: غيبة أحدهم عن سوىٰ مشهوده؛ بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه[2]؛ لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده.

وقد يسمىٰ حال مثل هذا سكراً[3]، واصطلاماً[4]، ومحواً[5]،

---

(١) في ح٢، غ، د، أ، ق «تعددا».

(٢) «ونفسه» ساقطة من أ.

(٣) السكر: غيبة بوارد قوىٰ، وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء، ولا يغيب عن الأشياء، وهو يعطي الطرب والاستلذاذ المفرط، وهو أقوىٰ من الغيبة وأتم منها، وهو علىٰ ثلاثة أقسام: طبيعي، وعقلي، وإلهي. انظر: التعرف ١٣٥، الرسالة القشيرية ٧١، رشح الزلال ٧٩، التعريفات ١٥٩.

(٤) الاصطلام في اللغة: الاستئصال والإبادة، وهو عند الصوفية نعت وَلَهٍ يرد علىٰ القلب، فيسكن القلب تحت غلبته وسلطانه، وهو قريب من الهيمان: وهو عندهم وَلَهٌ يسلب النفس والحس، فلا يقوم هذا النعت بالقلب إلا إذا تجلىٰ له الحق في صورة الجمال. اللمع للطوسي ٤٥٠، معجم اصطلاحات الصوفية، للكاشاني ٥٥، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٧٠، لسان العرب ٤/ ٢٤٨٩، مادة (صلم).

(٥) عرف الجرجاني المحو بأنه: رفع أوصاف العادة، بحيث يغيب العبد عندها عن عقله،

وجمعا[1]. وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتىٰ يغيب به ويفنىٰ به. فيظن أنه اتحد به وامتزج؛ بل يظن أنه نفسه، كما يحكىٰ أن رجلا ألقىٰ محبوبه نفسه في الماء، فألقىٰ المحب نفسه وراءه، فقال [له][2]: ما الذي أوقعك في الماء؟، فقال: غبت بك عني، فظننت أنك أني.

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطا في ذلك، وأن الحقائق متميزة في ذاتها، فالرب رب، والعبد عبد، والخالق بائن عن المخلوقات، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته؛ ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء، قد يغيب عن هذا التمييز. وفي مثل[3] هذه

ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها، كالسكر من الخمر، ومحو الجمع والمحو الحقيقي فناء الكثرة في الوحدة، ومحو العبودية، ومحو عين العبد: هو إسقاط إضافة الوجود إلىٰ الأعيان. التعريفات ٢٦٤، الرسالة القشيرية ٧٣، رشح الزلال ٨٣.

(١) الجمع عند الصوفية هو: إزالة التفرقة بين القدم والحدث؛ لأنه لما انجذبت بصيرة الروح إلىٰ مشاهدة جمال الذات، استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة، وارتفع التمييز بين القدم والحدث، لزهوق الباطل عند مجيء الحق. هكذا عرفه التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣١٧.

وعرفه الكاشاني في رشح الزلال ٧٥ بأنه: إشارة إلىٰ الحق بلا كون. وانظر في الكلام عليه أيضا: التعرف ١٣٨، الرسالة القشيرية ٦٤، التعريفات ١٠٥.

(٢) زيادة من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق.

(٣) ساقطة من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق.

الحال قد يقول صاحبها ما يحكىٰ عن أبي يزيد[١] أنه قال[٢] : « سبحاني » ، أو «ما في الجبة إلا الله تعالىٰ». ونحو ذلك من الكلمات التي لو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان[٣] كافراً ؛ ولكن مع سقوط التمييز والشعور ، قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة[٤].

---

(١) هو طيفور بن عيسىٰ بن سروشان البسطامي ، أحد الزهاد ، كان جده مجوسياً فأسلم ، ولد سنة ١٨٨هـ ، وتوفي سنة ٢٦١هـ ، قليل الرواية ، له كلام نافع وحسن في المعاملات ، ذكرها السلمي في طبقاته ، وأبو نعيم في الحلية. انظر : طبقات الصوفية ٦٧ ، الحلية ١٠/ ٣٣ ، الرسالة القشيرية ٣٩٥ ، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦.

(٢) سقط من أ قوله : « أنه قال ».

(٣) في ش « لكان ».

(٤) ذكر الطوسي في اللمع ٤٦١-٤٧٧ بعضاً مما نسب إلىٰ أبي يزيد ، ومنها قوله : « سبحاني سبحاني » ، ونسب هذه المقالة إلىٰ أبي يزيد شيخ الإسلام ابن تيمية ، وجعلها من السكر الحاصل من الفناء القاصر - وهو الفناء عن شهود السوىٰ - ثم قال : وكلمات السكران تطوىٰ ولا تروىٰ ولا تؤدىٰ إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهي عنه ، فأما إذا كان السبب محظورا لم يكن السكران معذوراً ، لا فرق في ذاك بين السكر الجسماني والروحاني ، فسكر الأجسام بالطعام والشراب ، وسكر النفوس بالصور ، وسكر الأرواح بالأصوات. الفتاوىٰ ٢/ ٤٦١ ، وبيّن ـ رحمه الله ـ في موضع آخر أن من حصل له مثل ذلك من غير ذنب، فإنه يكون معذورا غير معاقب ما دام أنه غير عاقل لما يصدر عنه. انظر : الفتاوىٰ ٢/ ٣٩٦ ، ٨/ ٣١٢-٣١٣ ، ١٠/ ٣٣٩-٣٤٠. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٨ : « وجاء عنه أشياء مشكلة ، لا مساغ لها الشأن في ثبوتها عنه ، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو ، فيطوىٰ ولا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد ؛ مثل : سبحاني ، وما في الجبة إلا الله ... ».

وهذا الفناء يحمد منه شيء، ويذم منه شيء، ويعفىٰ منه عن شيء.

فيحمد منه: فناؤه عن حب ما سوىٰ الله، وعن خوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة به، والالتفات إليه، بحيث يبقىٰ دين العبد ظاهرا وباطنا كله لله.

وأما عدم الشعور والعلم [٦٨/ أ] بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره، ولا بين الرب والعبد، مع اعتقاده الفرق، ولا بين شهوده ومشهوده؛ بل لا يرىٰ السوىٰ ولا الغير، فهذا ليس بمحمود، ولا هو وصف كمال، ولا هو مما يرغب فيه ويؤمر به؛ بل غاية صاحبه: أن يكون معذورا لعجزه، وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان، وإنزال كل ذي منزلة منزلته، موافقة لداعي العلم، ومقتضىٰ الحكمة، وشهود للحقائق[1] علىٰ ما هي عليه، والتمييز بين القديم والمحدث، والعبادة والمعبود، فينزل العبادة منازلها، ويشهد مراتبها، ويعطي كل مرتبة منها حقها من العبودية، ويشهد قيامه بها. فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل في العبودية من غيبته عن ذلك، فإن أداء العبودية في حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمنزلة أداء السكران والنائم. وأداؤها في حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها، أتم وأكمل وأقوىٰ عبودية.

فتأمل حال عبدين في خدمة سيدهما، أحدهما: يؤدي حقوق خدمته في

وانظر أيضاً: البداية والنهاية ١١/ ٣٨، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٦، النور من كلمات طيفور، للسهلجي ضمن كتاب شطحات الصوفية، للدكتور عبد الرحمن بدوي ١٠٠.

(١) في ح٢، ب، غ، أ، ح١ «الحقائق».

حال غيبته عن نفسه وعن خدمته ، لاستغراقه بمشاهدة سيده ، والآخر : يؤديها في حال كمال حضوره ، وتمييزه ، وإشعار نفسه بخدمة السيد ، وابتهاجها بذلك ، فرحا بخدمته ، وسرورا والتذاذا منه ، واستحضارا لتفاصيل الخدمة ومنازلها ، وهو مع ذلك عامل علىٰ مراد سيده منه ، لا علىٰ مراده من سيده ، فأي العبدين أكمل؟.

فالفناء حظ الفاني ومراده والعلم ، والشعور ، والتمييز ، والفرق ، وتنزيل الأشياء منازلها ، وجعلها في مراتبها حق الرب ومراده. ولا يستوي صاحب هذه العبودية ، وصاحب تلك.

نعم ، هذا أكمل حالا من الذي لا حضور له ولا مشاهدة ، بل هو غائب بطبعه ونفسه عن معبوده ، وعن عبادته ، وصاحب التمييز والفرقان ، وهو صاحب الفناء الثالث [٦٨/ ب] أكمل منهما.

فزوال العقل والتمييز والغيبة عن شهود نفسه وأفعالها لا يحمد ، فضلا عن أن يكون في أعلىٰ مراتب الكمال ؛ بل يذم إذا تسبب إليه ، وباشر أسبابه ، وأعرض عن الأسباب التي توجب له التمييز والعقل ، ويعذر إذا ورد عليه ذلك بلا استدعاء ؛ بل كان مغلوبا عليه ، كما يعذر النائم والمغمىٰ عليه ، والمجنون ، والسكران الذي لا يذم علىٰ سكره ؛ كالموجر(١) ، والجاهل بكون

---

(١) الموجر هو المسقي للخمر كارها ، يقال توجر الدواء بلعه ، والماء شربه كارها ، والوَجُور الدواء يوجر في الفم ، والميجر والميجرة كالمسعط ، يوجر به الدواء.

انظر : مختار الصحاح ٧١٠ ، القاموس المحيط ٢/ ١٥٣ ، مادة (وجر).

الشراب مسكراً ، ونحوهما.

وليس أيضا هذه الحال بلازمة لجميع السالكين ؛ بل هي عارضة لبعضهم ، منهم من يبتلىٰ بها ، كأبي يزيد ، وأمثاله. ومنهم من لا يبتلىٰ بها ، وهم أكمل وأقوىٰ ، فإن الصحابة رضي الله عنهم وهم سادات العارفين ، وأئمة الواصلين[١] ، وقدوة السالكين ، لم يكن فيهم[٢] من ابتلي بمثل[٣] ذلك ، مع قوة إرادتهم ، وكثرة منازلاتهم ، ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم ، ولا شم له رائحة ، ولم يخطر علىٰ قلبه. فلو كان هذا الفناء كمالا لكانوا هم أحق به وأهله ، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم.

ولا كان أيضا هذا[٤] حال[٥] نبينا[٦][٧] ﷺ ، ولهذا في ليلة المعراج لما أسري به ، وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرىٰ ، لم تعرض له هذه الحال ؛ بل كان كما وصفه الله تعالىٰ بقوله : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٧ - ١٨] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي رؤيا عين ،

---

(١) في أ ، ح١ ، د ، غ ، ح٢ ، ب « الواصلين المقربين » ، وفي ق « الصالحين المقربين ».

(٢) في ح١ ، غ ، ح٢ ، أ « منهم ».

(٣) « مثل » ساقطة من غ ، د ، أ ، ح١ ، ح٢ ، ق.

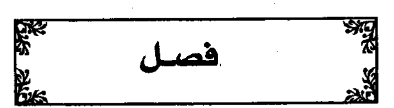
(٤) في ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق تقديم وتأخير « ولا كان هذا أيضا ».

(٥) « حال » ساقطة من ح١ ، غ ، ح٢ ، د ، أ ، ق.

(٦) في ح١ ، ح٢ ، غ ، د ، أ ، ق « لنبينا ».

(٧) في ح١ ، ب ، ح٢ ، غ ، د ، أ ، ق زيادة « ولا حالا من أحواله ».

أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به »[1]. ومع هذا فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله، ولم يعرض له صعق ولا غشي، يخبرهم عن تفاصيل ما رأىٰ، غير فانٍ عن نفسه، ولا عن شهوده، ولهذا كانت حاله ﷺ أكمل من حال موسىٰ بن عمران ﷺ، لما خر صعقاً، من تجلي الله للجبل وجعله دكاً [٦٩/ أ].



فصل

أسباب الفناء عن شهود السوى

وهذا الفناء[2] له سببان:

أحدهما: قوة الوارد وضعف المورود، وهذا لا يذم صاحبه.

الثاني: نقصان العلم والتمييز، وهذا يذم صاحبه، ولاسيما إذا أعرض عن العلم الذي يحول بينه وبين هذا الفناء، وذمه وذم أهله، ورأىٰ ذلك عائقاً من عوائق الطريق، فهذا هو المذموم المخوف عليه.

ولهذا عظمت وصية أئمة[3] القوم بالعلم، وحذروا من السلوك بلا علم، وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه، وعدم القبول منه، لمعرفتهم بمآل أمره، وسوء عاقبة[4] سيره[5].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير - سورة بني إسرائيل - (٨/ ٣٩٨)، ح(٤٧١٦).

(٢) أي الفناء عن شهود السوىٰ.

(٣) « أئمة » ساقطة من غ، ح١.

(٤) في غ، ق، أ، ح١، ح٢، د « عاقبته في ».

(٥) نقل شيخ الإسلام بعض هذه الوصايا في كتاب الاستقامة عند شرحه لكلام القشيري ١/ ٩٤ وما بعدها، منها: قول أحمد بن أبي الحواري: « من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله »،

وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيره علىٰ جادة الذوق والوجد[1] والفناء[2]، ذاهبة به الطريق كل مذهب؛ فهذا فتنته والفتنة به شديدة، وبالله التوفيق.

فصل

أصل الفناء عن شهود السوى

وأصل هذا الفناء: الاستغراق في توحيد الربوبية، وهو رؤية تفرد الله تعالىٰ بخلق الأشياء، وملكها واختراعها، وأنه ليس في الوجود قط إلا ما شاءه وكونه[3]. فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها، ومشيئته لها، وقدرته عليها، وشمول قيوميته وربوبيته لها[4]. ولا يشهد ما افترقت فيه من محبة الله لهذا، وبغضه لهذا، وأمره بما أمر به، ونهيه عما نهىٰ عنه، وموالاته

وقول الجنيد بن محمد: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدىٰ به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

وكذلك نقل ابن القيم جملة من هذه الوصايا عند كلامه علىٰ منزلة العلم. انظر: المدارج ٢/ ٤٦٤.

(١) الوجد: ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً. التعرف ١٣٢، التعريفات ٣٢٣، رشح الزلال ٧٤، كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٩٢.

(٢) «والفناء» ساقطة من ح١، أ، غ.

(٣) وهو ما يسمونه بالحقيقة، قال القشيري: الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة: مشاهدة الربوبية. الرسالة القشيرية ٨٢.

(٤) «لها» ساقطة من د.

لقوم، ومعاداته لآخرين.

فلا يشهد التفرقة في الجمع، وهي تفرقة الخلق والأمر في جمع الربوبية، تفرقة مُوجَب الإلهية في جمع الربوبية، تفرقة الإرادة الدينية في جمع الإرادة الكونية، تفرقة ما يحبه ويرضاه في جمع ما قدره وقضاه، ولا يشهد الكثرة في الوحدة، وهي كثرة معاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، واقتضاؤها لآثارها في وحدة الذات الموصوفة بها.

فلا يشهد كثرة دلالات أسماء الرب تعالىٰ وصفاته [٦٩/ب] علىٰ وحدة ذاته.

فهو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز، الجبار المتكبر. و[1] كل اسم له صفة، وللصفة حكم، فهو سبحانه واحد الذات، كثير الأسماء والصفات. فهذه كثرة في وحدة.

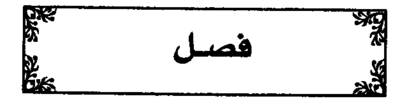
والفرق بين مأموره ومنهيه، ومحبوبه ومبغوضه، ووليه وعدوه، تفرقة في جمع، فمن لم يتسع شهوده لهذه الأمور الأربعة، فليس من خاصة أولياء الله العارفين؛ بل إن ضاق شهوده عنها مع اعترافه بها فهو مؤمن ناقص، وإن جحدها أو شيئا منها فكفر صريح أو بتأويل، مثل أن يجحد تفرقة الأمر والنهي، أو جمع القضاء والقدر، أو كثرة معاني الأسماء والصفات أو وحدة الذات.

---

(١) في ب زيادة «هو».

فليتدبر اللبيب السالك[1] هذا الموضع حق التدبر، وليعرف حقَّ[2] قدره، فإنه مجامع طرق العالمين، وأصل تفرقهم[3]. قد ضَبطتُّ لك معاقِدَه[4]، وأَحْكمتُ لك قواعدَه، وبالله تعالىٰ التوفيق.

وإنما يعرف قدر هذا من اجتاز القفار، واقتحم البحار، وعرض له ما يعرض لسالك القفر، وراكب البحر. ومن لم يسافر ولم يخرج عن وطن طبعه ومرباه، وما ألف عليه أصحابه وأهل زمانه، فبمعزل[5] عن هذا. فإن عرف قدره، وكفىٰ الناس شره، فهذا تُرجَىٰ له السلامة، وإن عدا طوره، وأنكر ما لم يعرفه، وكذب بما لم يحط بعلمه[6]، ثم تجاوز إلىٰ تكفير من خالفه، ولم يقلد شيوخه، ويرضىٰ بما رضي هو به لنفسه، فذلك الظالم الجاهل، الذي ما ضر إلا نفسه، ولا أضاع إلا حظَّه.



فصل

ما يعرض للسالك على درب الفناء من المهالك والمعاطب

ويعرض للسالك علىٰ درب الفناء معاطب[7] ومهالك، لا ينجيه منها إلا

---

(١) في ح٢، ق «السالك اللبيب».

(٢) «حق» ساقطة من د، ح٢، غ، ق، ح١.

(٣) في ق، غ، د، ح١ «تفرقتهم».

(٤) المعاقد: هي مواضع العقد. مختار الصحاح ٤٤٥، المعجم الوسيط ٢/ ٦١٤، مادة: (عقد).

(٥) في ق، ح١، د، غ، ح٢، ب «فهو بمعزل».

(٦) في ق، ح١، د، غ، ح٢، ب «به علماً».

(٧) المعاطب: هي المهالك. مختار الصحاح ٤٣٩، مادة (عطب).

بصيرة العلم ، التي إن صحبته في سيره ، وإلا فبسبيل من هلك.

منها : أنه إذا اقتحم عقبة الفناء ظن أن صاحبها قد سقط عنه الأمر والنهي ، لتشويشه[1] علىٰ الفناء ونقضه له ، والفناء عنده غاية العارفين [٧٠/ أ] ، ونهاية التوحيد ، فيرىٰ ترك كل ما أبطله وأزاله ، من أمر أو نهي أو غيرهما. ويصرح بعضهم بأنه إنما يسقط الأمر عمن شهد الإرادة ، وأما من لم يشهدها فالأمر والنهي لازم له ، ولا يعلم هذا المغرور أن غاية ما معه : الفناء في توحيد أهل الشرك الذي أقروا به ، ولم يكونوا به مسلمين البتة ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزمر : ٣٨] ، وقال : ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[2] ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[3] ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٤-٨٩] ، وقال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما : « تسألهم : من خلق السماوات والأرض؟ ، فيقولون : الله. وهم يعبدون غيره »[4].

---

(١) التشويش : التخليط. مختار الصحاح ٣٥١ ، مادة (شوش).

(٢) في د ، ش « الله ».

(٣) في الأصل ، د ، ش « الله ».

(٤) أخرج هذا الأثر ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس بلفظ : من إيمانهم إذا قيل لهم : من خلق السماء ، ومن خلق الأرض ، ومن خلق الجبال؟ ، قالوا : الله ، وهم مشركون. وأخرجه عن

ومن كان هذا التوحيد والفناء فيه[١] غاية توحيده ، انسلخ من دين الله ، ومن جميع رسله وكتبه ، إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به مما نهىٰ عنه ، ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين محبوبه ومبغوضه ، ولا بين المعروف والمنكر ، فسوىٰ[٢] بين المتقين والفجار ، والطاعة والمعصية ؛ بل ليس عنده في الحقيقة إلا طاعة ، لاستواء الكل في الحقيقة التي هي المشيئة العامة الشاملة.

ثم صاحب هذا المقام يظن أنه صاحب الجمع والتوحيد ، وأنه وصل إلىٰ عين الحقيقة ، وإنما وصل إلىٰ الحقيقة الشاملة التي يدخل فيها إبليس وجنوده أجمعون ، وكل كافر ومشرك وفاجر ، فإن هؤلاء كلهم تحت الحقيقة الكونية القدرية ، فغاية صاحب هذا المشهد وصوله إلىٰ أن يشهد استواء هؤلاء والمؤمنين الأبرار ، وأولياء الله وخاصة عباده في هذه الحقيقة. ومع هذا فلا بُدَّ له من الفرق [٧٠/ ب] والموالاة والمعاداة ضرورة. فينسلخ عن الفرق الشرعي ، فيعود إلىٰ الفرق الطبعي[٣] بهواه وطبعه ؛ إذ لا بد أن يفرق بين ما ينفعه فيميل إليه، ويضره[٤] فيهرب منه، فبينا هو منكر علىٰ أهل الفرق الشرعي،

عكرمة بلفظ : تسألهم من خلقهم ، ومن خلق السموات والأرض؟ ، فيقولون الله ، فذلك إيمانهم بالله ، وهم يعبدون غيره. ١٣/ ٧٧.

(١) « فيه » ساقطة من ش.

(٢) في ح٢ ، غ ، د « وسوىٰ ».

(٣) في ب زيادة « النفسي ».

(٤) في ح٢ ، ب ، غ ، د ، ح١ « وما يضره » ، وفي ق تقديم وتأخير في العبارة ، فالعبارة كالتالي : «فلا بد أن يفرق بين ما يضره فيهرب منه ، وما ينفعه فيميل إليه».

ناكبا عن طريقتهم إلىٰ عين الجمع ، إذ انتكس وارتكس ، وعاد إلىٰ الفرق الطبعي النفسي ، فيوالي ويعادي ، ويحب ويبغض ، بحسب هواه وإرادته.

فإن الفرق أمر ضروري للإنسان ، فمن لم يكن فرقه قرآنيًّا محمديًّا ، فلا بد له من قانون يفرق به ، إما سياسة سائس فوقه ، أو ذوق منه أو من غيره ، أو رأي منه أو من غيره ، أو يفرق فرقا بهيميًّا حيوانيًّا بحسب مجرد شهوته وغرضه أين توجهت به ، فلا بد من التفريق بأحد هذه الوجوه.

فلينظر العبد من الحاكم عليه في الفرق ، وليزن به إيمانه قبل أن يوزن ، وليحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وليستبدل الذهب بالخزف ، والدر بالبعر ، والماء الزلال بالسراب الذي ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] ، قبل أن يسأل الرجعة إلىٰ دار الصرف ، فيقال : هيهات ، اليوم يوم الوفاء ، وما مضىٰ قد فات، أحصي المستخرج والمصروف ، وستعلم الآن ما معك من النقد الصحيح والزيوف.

وأصحاب هذه الحقيقة أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق ، وإذا تناهوا في حقيقتهم ، وأضافوا الجميع إلىٰ الله إضافة المحبة والرضا ، وجعلوها عين المشيئة والخلق ، ضاهؤا[1] الذين قال الله فيهم : ﴿ سَيَقُولُ[2] ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

(١) في ب زيادة « قول ».

(٢) في ب « وقال ».

أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨][١]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقولهم عن آلهتهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] [٧١/ أ] وقولهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فاحتجوا بإقرار الله لهم قدراً وكونا علىٰ رضاه و محبته وأمره، وأنه لو كره ذلك لحال بينهم وبينه، ولما أقرهم عليه. فجعلوا قضاءه وقدره عين محبته ورضاه، وورثهم من سوّىٰ بين المخلوقات، ولم يفرق بالفرق النبوي القرآني.

وطائفة من المشركين ذكرت ذلك معارضين لأمر الله ونهيه، وما بعث به رسله، بقضائه وقدره، فعارضوا الحقيقة الدينية الشرعية بالحقيقة الكونية القدرية، وورثهم من يحتج بالقضاء والقدر في مخالفة الأمر والنهي. وكلا الطائفتين أبطلت أمره ونهيه بقضائه وقدره.

وظنت طائفة ثالثة أن إثبات القضاء والقدر يبطل الشرائع والنبوات، وأن المشركين احتجوا علىٰ بطلانها بإثباته، فجعلت التكذيب به من أصول الإيمان؛ بل[٢] أعظم أصوله، فردت قضاء الله وقدره الشامل العام بأمره ونهيه.

---

(١) سقطت الآية من ح٢، د، أ، ح١، غ.

(٢) في ش زيادة «من».

فانظر إلىٰ اقتسام[1] الطوائف[2] هذا الموضع ، وافتراقهم في مفرق هذا الطريق علما وخبراً ، وسلوكا وحقيقة ، وتأمل أحوال الخلق في هذا المقام ، تنكشف لك أسرار العالمين ، وتعرف[3] أين أنت وأين مقامك؟ ، وتعلم[4] ما جنىٰ هذا الجمع ، وهذا الفناء علىٰ الإيمان ، وما خرب من القواعد والأركان ، وتتحقق حينئذ أن الدين كله فرقان في قرآن ، فرق في جمع ، وكثرة في وحدة ، كما تقدم بيانه ، وأن أولىٰ الناس بالله ورسله وكتبه[5] ودينه ، أصحاب الفرق في الجمع ، فيقومون بالفرق بين ما يحبه الله ويبغضه[6] ، ويأمر به وينهىٰ عنه ، ويواليه ويعاديه ، علما وشهودا ، وإرادة وعملا ، مع شهودهم الجمع لذلك كله في قضائه وقدره ، ومشيئته الشاملة العامة ، فيؤمنون بالحقيقة الدينية والكونية. ويعطون كل حقيقة حظها [٧١/ ب] من العبادة.

الفرق بين الحقيقة الشرعية والحقيقة الكونية

فحظ الحقيقة الدينية : القيام بأمره ونهيه ، ومحبة ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه. وأصل ذلك الحب فيه والبغض فيه.

---

(١) في ش « انقسام ».

(٢) في ش ، ب ، غ ، ق زيادة « في ».

(٣) في غ ، ح١ ، ح٢ ، أ « وتعلم ».

(٤) في ح١ ، ق ، د ، أ « وتعرف ». وفي غ « وتفرق ».

(٥) في غ ، أ ، ش ، ح١ « وكتبه ورسله » ، وفي ب « وبرسله وكتبه ».

(٦) في ب زيادة اسم الجلالة « الله ».

وحظ الحقيقة الكونية : إفراده بالافتقار إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه، والالتجاء إليه ، وإفراده بالسؤال والطلب ، والتذلل له والخضوع ، والتحقق بأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا[١] يملك أحد سواه لهم[٢] ضرا ولا نفعاً[٣] ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأنه مقلب القلوب ، فقلوبهم ونواصيهم بيده ، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه ، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه.

فلهذه الحقيقة عبودية ، [ولهذه الحقيقة عبودية][٤] ، ولا تُبطل إحداهما الأخرىٰ[٥] ؛ بل لا تتم إلا بها ، ولا تتم العبودية إلا بمجموعهما ، وهذا هو[٦] حقيقة قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، بخلاف من أبطل حقيقة « إياك نعبد » بحقيقة «إياك نستعين »، وقال: إنها جمع ، و« إياك نعبد » فرق، وإذا غلا في هذا المشهد لم يستحسن حسنة ، ولم يستقبح قبيحة ، ويصرح بذلك ويقول : العارف لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح قبيحة ، لاستبصاره بسر القدر[٧].

(١) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ ، ق « ولا ».
(٢) « لهم » ساقطة من ش.
(٣) في ح١ تقديم وتأخير « نفعاً ولا ضراً ».
(٤) زيادة من ب ، د ، أ ، ق ، ح٢ ، ح١ . وفي غ « ولهذه العبودية حقيقة ».
(٥) في ش « بالأخرىٰ ».
(٦) ساقطة من ب ، ح١ ، د ، غ ، ح٢ ، أ .
(٧) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شفاء العليل ٢٦ : ولهذا قال شيخ الملحدين ابن سيناء في

ومنهم من يقول : حقيقة هذا المشهد : أن يشهد الوجود كله حسنا لا قبيح فيه ، وأفعاله كلها طاعات لا معصية فيها ؛ لأنهم وإن عصوا الأمر ، فهم مطيعون المشيئة ، ويقولون :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات[1]

ويقول قائلهم : «من شهد الحقيقة سقط عنه الأمر » ، ويحتجون بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩] ، ويفسرون اليقين بشهود الحكم الكوني ، وهي الحقيقة عندهم.

ولا ريب أن [٧٢/ أ] العامة خير من هؤلاء وأصحُّ إيماناً ، فإن هذا زندقةٌ ونفاقٌ ، وكذبٌ منهم علىٰ أنفسهم ونبيِّهم وإلههم[2].

أما كذبهم علىٰ أنفسهم : فإنهم لا بد أن يفرقوا قطعاً ، فرغبوا عن الفرق النبوي والقرآني ، ووقعوا في الفرق النفسي الطبعي. مثل حال إبليس ، تكبر

إشاراته : « العارف لا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله تعالىٰ في القدر » ؛ وهو في الإشارات والتنبيهات ، لابن سيناء (قسم التصوف) ، ٤/ ١٠٤.

(١) ذكر هذا البيت ابن القيم في أكثر من موضع من كتبه ، وسبقه إلىٰ ذكره أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد نسبه في أحد المواضع إلىٰ ابن إسرائيل ، فقد قال في الفتاوىٰ ٨/ ٢٥٧ : «وقول ابن إسرئيل» ثم ذكر البيت ؛ انظر البيت في الفتاوىٰ ١١/ ٢٤٥ ، منهاج السنة ٣/ ٢٥ ، شفاء العليل لابن القيم ٥ ، ٢٧ ، طريق الهجرتين ٢٨ ، ١٦٤ ، ٣٠٤ ، كما ذكره في المدارج في أكثر من موضع ١/ ١٩٠ ، ٢٢٩ ؛

(٢) انظر الكلام علىٰ الآية السابقة ، والرد علىٰ استدلالهم بها علىٰ سقوط الأمر والنهي عنهم عند حصول المعرفة لهم ؛ الفتاوىٰ ١١/ ٤١٧-٤٢٠.

عن السجود لآدم ، ورضي لنفسه بالقيادة لفساق ذريته ، ومثل المشركين ، تكبروا عن عبادة الله ، ورضوا لأنفسهم عبادة[1] الأحجار والأوثان ، ومثل أهل البدع تكبروا عن تقليد النصوص ، وتلقي الهدىٰ من مشكاتها ، ورضوا لأنفسهم بتقليد أقوال مخالفة للفطرة والعقل والشرع ، وظنوها قواطع عقلية ، وقدموها علىٰ نصوص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهي في الحقيقة شبهات باطلة[2] مخالفة للسمع والعقل.

ومثل الجهمية الأولىٰ[3] ، نزهوا الرب عن عرشه ، وجعلوه في أجواف البيوت والحوانيت والحمامات ، وقالوا : هو في كل مكان بذاته. ونزهوه عن صفات كماله ونعوت جلاله ، حذرا بزعمهم من التشبيه ، فشبهوه بالجمادات[4] الناقصة الخسيسة التي لا تتكلم ، ولا لها سمع ولا بصر ، ولا علم ولا حياة ؛ بل شبهوه بالمعدومات الممتنع وجودها[5].

---

(١) في ش ، م « بعبادة ».

(٢) سقط من غ ، أ ، ح١ قوله : « باطلة ».

(٣) الجهمية الأولىٰ : هم المعطلة النفاة الذين ينكرون أسماء الله وصفاته وأفعاله ، وينكرون السمعيات ، كالرؤية والصراط والميزان ، والحوض ، ويردون النصوص المتعلقة بذلك أو يؤولونها ، ويقولون بالإرجاء والجبر الخالصين.

انظر : الجهمية والمعتزلة للأستاذ الدكتور ناصر العقل ١٣ ، وقد سبق التعريف بالجهمية.

(٤) في الأصل ، د ، غ ، ق ، ش ، ح١ ، أ « الجامدات ».

(٥) قال شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ٢ / ٢٩٨ : القول الثاني : قول معطلة الجهمية ونفاتهم ، وهم الذين يقولون : لا هو داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين له ولا محايث ، فينفون الوصفين

ومثل المعطلة الذين قالوا : ما فوق العرش إلا العدم ، وليس فوق العرش رب يعبد ، ولا إله يصلىٰ له ويسجد ، ولا ترفع الأيدي إليه ، ولا رُفِعَ المسيح إليه ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه ، ولا أُسري برسول الله ﷺ إليه ، ودنا منه حتىٰ كان قاب قوسين أو أدنىٰ ، ولا ينزل من عنده شيء ، ولا يصعد إليه شيء ، ولا يراه أهل الجنة من فوقهم يوم القيامة ، واستواؤه علىٰ عرشه لا حقيقة له ؛ بل علىٰ المجاز الذي يصح نفيه[1] ، وعلوه فوق خلقه بالرتبة والشرف ، لا بالذات ، وكذلك فوقيته فوقية [٧٢/ ب] قهر ، لا فوقية ذات. فنزهوه عن كمال علوه وفوقيته ، ووصفوه بما ساووا به بينه وبين العدم المستحيل ، فقالوا : لا داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصلا به ، ولا منفصلا عنه ، ولا محايثا له ، ولا مباينا له ، ولا هو فينا ، ولا خارج عنا.

ومعلوم أنه لو قيل لأحد[2] : صف لنا العدم. لوصفه بهذا بعينه.

وانطباق هذا السلب علىٰ العدم المحض أقرب إلىٰ العقول والفطر من

المتقابلين اللذَين لا يخلو موجود عن أحدهما ، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة ومن وافقهم من غيرهم. والقول الثالث : قول حلولية الجهمية : الذين يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، كما يقول ذلك النجارية : أتباع حسين النجار ، وغيرهم من الجهمية ، وهؤلاء القائلون بالحلول والاتحاد من جنس هؤلاء ، فإن الحلول أغلب علىٰ عُبَّاد الجهمية وصوفيتهم وعامتهم ، والنفي والتعطيل أغلب علىٰ نظّارهم ومتكلميهم.

(١) المجاز : اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما ، كتسمية الشجاع أسداً.
التعريفات ٢٥٧ ، الكليات ٣٦١ ، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٢٨٢.

(٢) في د ، ق ، ب ، أ ، ح٢ ، ح١ ، غ « لأحدهم ».

انطباقه علىٰ رب العالمين ، الذي ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، بل هو بائن عن[1] خلقه ، مُسْتوٍ علىٰ عرشه ، عَالٍ علىٰ كل شيء ، وفوق كل شيء.

والقصد : أن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده ، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ، ولا بد ، حتىٰ في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته ونشوره[2] وسعادته بيده ، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئا من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله لله في طاعته[3] ، ابتلي بإنفاقه لغير الله ، وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بد.

وكذلك من رغب عن الهدىٰ بالوحي، ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان[4]، ووسخ الأفكار.

فليتأمل من[5] يريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه

---

(١) في د ، ق ، أ ، ح٢ ، غ « من ».

(٢) « ونشوره » ساقطة من ح١ ، د ، غ ، ح٢ ، أ ، م ، ق.

(٣) في غ ، أ ، ق ، د ، ب ، ح١ ، ح٢ « في طاعة الله ».

(٤) الكُناسة : القمامة ؛ والزبالة بمعناها ، ومنه المزبلة : وهي موضع القمامة والسرجين الذي هو الزبل. مختار الصحاح ٢٦٨ ، ٥٨٠ ، المعجم الوسيط ١/ ٣٨٨ ، ٢/ ٨٠٠ ، مادة (زبل ، وكنس).

(٥) في الأصل « ثم » ، وهو خطأ.

وفي غيره، والله المستعان[١].

ولا ريب أن العامة مع غفلتهم وشهواتهم أصح إيمانا من هؤلاء إذا لم يعطلوا الأمر والنهي، فإن إيمانا مع تفرقة وغفلة، خير من شهود وجمعية يصحبها فساد الإيمان والانسلاخ منه.

وأما كذبهم علىٰ نبيهم: فاعتقادهم أنه إنما كان قيامه بالأوراد والعبادات لأجل التشريع [٧٣/ أ]، لا لأنها فرض عليه، إذ قد سقط عنه ذلك[٢] بشهود الحقيقة، وكمال اليقين. فإن الله عز وجل أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلىٰ حين انقضاء آجالهم، فقال: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهو الموت بالإجماع كما قال في الآية الأخرىٰ عن الكفار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]، قال ﷺ: «**أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه**»[٣]، قاله لما مات عثمان. وقال المسيح صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٠-٣١]، فهذه وصية الله تعالىٰ للمسيح عليه السلام، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم. قال الحسن رضي الله عنه: لم يجعل الله[٤] لعبادة[٥]

---

(١) سقط من ح١، د، ح٢، غ، أ، ق قوله: «والله المستعان».

(٢) «عنه» ساقطة من ق، ح١، غ، أ، د، ح٢.

(٣) سبق تخريجه ٣٨٤.

(٤) في ب زيادة «سبحانه وتعالىٰ».

(٥) في ح٢، أ، غ، ح١، د «لعبده».

المؤمن[1] أجلا دون الموت[2].

وإذا جمع هؤلاء التجهم في الأسماء والصفات إلىٰ شهود هذه[3] الحقيقة والوقوف عندها ، فأعاذك الله من تعطيل الرب وشرعه بالكلية ، فلا رب يعبد ، ولا شرع يتبع بالكلية.

ومن[4] أراد الوقوف علىٰ حقيقة ما ذكرنا فليُسيِّر طرفَه بين تلك المعالم ، وليقفْ علىٰ تلك المعاهد ، وليسألْ الأحوالَ والرسومَ والشواهدَ ، فإن لم تجبه جؤاراً[5] ، أجابته حالا واعتباراً. وإنما يصدق بهذا من رافق السالكين ، وفارق القاعدين ، وتبوأ الإيمان ، وفارق عوائد أهل الزمان ، ولم يرض بقول القائل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[6]

---

(١) في ب « المؤمنين ».

(٢) أخرج هذا الأثر عن الحسن الإمام أحمد في الزهد ٣٨٥ بلفظ : « أبىٰ قوم المداومة ، والله ما المؤمن بالذي يعمل شهراً أو شهرين أو عاماً أو عامين ، لا والله ما جعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ». وأخرجه ابن المبارك في الزهد ٧ بنحوه.

(٣) « هذه » ساقطة من ح١ ، ح٢ ، أ ، غ ، د ، ق.

(٤) في ح١ ، أ ، غ ، ح٢ « فمن ».

(٥) في ش «جوارا ». و في أ «جوار جوار» ، وفي ب ، ق «جوازا» وفي ح١ ، غ «جوارا حوارا» ، وفي ح٢ « جوارا جوازاً ».

والجؤار : هو رفع الصوت ، يقال : جأر إلىٰ الله ، أي : رفع صوته إليه بالدعاء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون :٦٤] ، ويقال : جأر الثور يجأر جؤاراً أي : صاح.

انظر : لسان العرب ١/ ٥٢٨ ، مختار الصحاح ٩٠ ، مادة (جأر).

(٦) القائل الحطيئة ؛ انظر ديوانه شرح يوسف عيد ١١٧.

فصـل

الدرجة الثالثة من درجات الفناء :

الفناء عن إرادة السوى

فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، وهو الفناء عن إرادة السوىٰ ، شائماً برق الفناء عن إرادة ما سواه ، سالكاً سبيل الجمع علىٰ ما يحبه ويرضاه ، فانياً بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ، فضلا عن إرادة غيره ، قد اتّحد مرادُه بمراد [٧٣/ ب] محبوبه أعني المراد الديني الأمري ، لا المراد الكوني القدري فصار المرادان واحداً.

وليس في العقل اتحاد صحيح إلا هذا ، والاتحاد في العلم والخبر ، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحداً ، مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين ، فغاية المحبة : اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب ، وفناء إرادة المحب في مراد المحبوب.

فهذا الاتحاد والفناء : هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ، قد فنوا بعبادته(١) عن عبادة ما سواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه ، والاستعانة به ، والطلب منه ، عن حب ما سواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه.

ومن تحقيق هذا الفناء : أن لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا فيه ، ولا يوالي إلا فيه ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعطي إلا لله(٢) ، ولا يمنع إلا له ، ولا

(١) في ب ، ق ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ « بعبادة محبوبهم ».

(٢) في ب ، د ، ح٢ ، غ ، ش ، أ ، ح١ « إلا له ».

يرجو إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، فيكون دينه كله ظاهرا وباطنا لله ، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فلا يواد من حادّ الله ورسولَه ، ولو كان أقرب الخلق[1] إليه ؛ بل :

يعادي الذي عادىٰ من الناس كلهم جميعاً ولو كان الحبيب المصافيا[2]

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوىٰ نفسه وحظوظها بمراضي ربه وحقوقه.

والجامع لهذا كله : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علما ومعرفة ، وعملا وحالا وقصدا.

وحقيقة هذا النفي والإثبات الذي تضمنته هذه الشهادة : هو الفناء والبقاء ، فيفنىٰ عن تأله ما سواه علما وإقراراً وتعبداً ، ويبقىٰ بتألهه وحده.

فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد الذي اتفقت عليه المرسلون ، وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقامت[3] عليه سوق [٧٤/ أ] الجنة ، وأسس عليه الخلق والأمر.

وحقيقته أيضا : البراء والولاء ، البراء من عبادة غير الله ، والولاء لله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ

---

(١) في أ « قريب » بدل « الخلق ».

(٢) البيت لحسان ؛ انظر : شرح ديوان حسان بن ثابت ٤٧٩ .

(٣) في ح١ ، ح٢ ، أ ، د ، غ ، ق « قام ».

أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، و [إذ][1] ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ[2] وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]، وقال أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ[3] إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩]، وقال الله[4] لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ[5]﴾ إلىٰ آخر السورة[6]. وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

وهي حقيقة المحو والإثبات، فيمحو[7] إلهية[8] ما سوىٰ الله عز وجل من قلبه، علما وقصدا وعبادة، كما هي ممحوة من الوجود، ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وهي حقيقة الجمع والفرق، فيفرق بين الإله الحق ومن ادعيت له الإلهية بالباطل، ويجمع تألهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته علىٰ إلهه الحق الذي لا إله سواه.

---

(١) زيادة من ش، ح١، ح٢، د، غ، أ، ق.

(٢) في د «لقومه» بدل «لأبيه».

(٣) سقط من ح٢ قوله: «ياقوم».

(٤) لفظ الجلالة سقط من غ.

(٥) في ب زيادة «ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم».

(٦) في ح١، د، ح٢، غ، أ، ق «إلىٰ آخرها»؛ وهي سورة الكافرون.

(٧) في د «فتمحو».

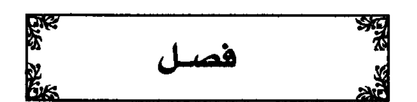
(٨) في ح١، ح٢، غ، أ «محبة» بدل «إلهية».

وهي حقيقة التجريد والتفريد ، فيتجرد عن عبادة ما سواه ، ويفرده وحده بالعبادة ، فالتجريد نفي ، والتفريد إثبات ، ومجموعهما هو التوحيد.

فهذا الفناء والبقاء ، والولاء والبراء ، والمحو والإثبات ، الجمع والفرق[1] والتجريد ، والتفريد المتعلق بتوحيد الإلهية هو النافع المثمر المنجي ، الذي به تنال السعادة والفلاح.

وأما تعلقه بتوحيد الربوبية الذي أقر به المشركون عباد الأصنام ؛ فغايته فناء في تحقيق توحيد مشترك بين المؤمنين والكفار ، وأولياء الله وأعدائه ، لا يصير به وحده الرجل مسلما ، فضلا عن كونه عارفا محققا.

وهذا [٧٤/ ب] الموضع مما[2] غلط فيه[3] من أكابر الشيوخ وأصحاب الإرادة من غلط[4]. والمعصوم من عصمه الله ، وبالله المستعان[5].



فصل

منزلة المحاسبة

فلنرجع إلىٰ ذكر منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » التي لا يكون العبد من أهلها حتىٰ ينزل منازلها.

فذكرنا منها اليقظة ، والبصيرة ، والفكرة ، والعزم.

---

(١) في ش « والتفرق » بدل « والفرق ».

(٢) في د « يكثر من » بدل « مما ».

(٣) في ب ، ح١ ، غ ، ح٢ ، أ ، ق زيادة « كثير ».

(٤) في ب ، ح١ ، غ ، أ « غلظ ».

(٥) في ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة « والتوفيق والعصمة ».

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان ، وعليها مدار منازل السفر إلىٰ الله تعالىٰ ، ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها البتة ، وهي علىٰ ترتيب السير الحسي ، فإن المقيم في وطنه لا يتأتىٰ منه السفر حتىٰ يستيقظ من غفلته عن السفر ، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره ، وما فيه من المنفعة والمصلحة ، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته ، ثم يعزم عليه ، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلىٰ منزلة المحاسبة وهي : التمييز بين ما له وعليه. فيستصحب ما له ، ويؤدي ما عليه ؛ لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة ؛ لأنه إذا حاسب نفسه ، عرف ما عليه من الحق ، فخرج منه ، وتنصل منه إلىٰ صاحبه ، وهي حقيقة التوبة ، فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولىٰ.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً(١) ، وهو أن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

أدلة المحاسبة

والتحقيق : أن التوبة بين محاسبتين ، محاسبة قبلها ، تقتضي وجوبها ، ومحاسبة بعدها ، تقتضي حفظها ، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين ، وقد دل علىٰ المحاسبة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾[الحشر : ١٨] ، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغده ، وذلك يتضمن محاسبة نفسه علىٰ ذلك ، والنظر : هل يصلح ما قدمه أن يلقىٰ الله به أو

---

(١) وهو ما فعله الهروي في منازل السائرين ، فقد جعل منزلة المحاسبة بعد منزلة التوبة.

لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه، من كمال [٧٥/ أ] الاستعداد [ليوم المعاد][(١)]، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها[(٢)] قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، أو قال][(٣)]: علىٰ من لا تخفىٰ عليه أعمالكم»[(٤)].

أركان المحاسبة

قال صاحب المنازل رحمه الله: «**المُحَاسَبَةُ لَهَا ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ: أَحَدُهَا: «أَنْ تَقِيسَ بَيْنَ نِعْمَتِهِ وَجِنَايَتِكَ**»[(٥)].

يعني تقايس بين ما مِنَ الله وما منك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

وفي هذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد، وتتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل

---

(١) زيادة من غ، أ، ب، د، ح١، ح٢، ق.

(٢) في غ، أ، ب، د، ح١، ح٢، ق «وزنوا أنفسكم».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من ح١، ب، غ، ح٢، أ، د، ق.

(٤) هذا الأثر عن عمر أخرجه الإمام أحمد في الزهد ١٧٧، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢)، وذكره الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٢٥)، (٤/ ٦٣٨).

(٥) قال الهروي تحت باب المحاسبة: «وإنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة علىٰ عقد التوبة، والعزيمة لها ثلاثة أركان؛ أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك». منازل السائرين ص (١٦).

نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك ، وبربوبية فاطرها وخالقها ، فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر ، وأساس كل نقص ، وأن حدها الجاهلة الظالمة ، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته [لها](١) ما زكت أبدا ، ولولا هداه ما اهتدت ، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلىٰ خير البتة ، وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها ، وتوقفه عليه كتوقف وجودها علىٰ إيجاده ، فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود ، فليس لها من ذاتها إلا العدم - عدم الذات ، وعدم الكمال - ، فهناك(٢) تقول(٣) حقاً : «**أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي**»(٤).

ثم تقيس بين الحسنات والسيئات ، فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة.

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة(٥).

قال : « **وَهَذِهِ المُقَايَسَةُ تَشُقُّ عَلَىٰ مَن لَيسَ لَهُ ثَلاثَةُ أَشيَاء : نُورُ الحِكمَةِ ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفسِ ، وَتميزُ النِّعمَةِ مِنَ الفِتْنَةِ** »(٦).

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح٢ ، ح١ ، ق ، أ ، د ، غ.

(٢) في ش « فهنالك ».

(٣) في ش « يقول ».

(٤) أخرجه البخاري وغيره ، سبق تخريجه ص٤٦٢ .

(٥) انظر هذا المعنىٰ في : شرح المنازل للتلمساني ١/ ٧٤.

(٦) منازل السائرين ١٦.

يعني أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة [٧٥/ ب]، وهو النور الذي نوّر اللهُ به قلوبَ أتباعِ الرسل، وهو نور الحكمة، فبقدره ترى التفاوت، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة هاهنا: هو العلم الذي يميز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه؛ لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالا، فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك[١].

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا[٢]

ولا يُسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بها[٣]، فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييزه النعمة من الفتنة: ليفرق بين النعمة التي يراد[٤] بها الإحسان

---

(١) في ب زيادة «بنفسه».

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية، انظر شعر عبد الله بن معاوية، جمعه عبد الحميد الراضي ٩٠.

(٣) في غ، أ، ب، د، ح١، ح٢، ق «بنفسه» بدل «بها».

(٤) في غ، ح١ «يرى» بدل «يراد».

واللطف، ويعان(١) بها علىٰ تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يراد(٢) بها الاستدراج ، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه ، وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ، ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه علىٰ الله فهو نعمة حقيقية(٣) ، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة(٤). فليحذر فإنما هو مستدرج ، ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة ، فلم(٥) تلتبس إحداهما عليه بالأخرىٰ.

فإن العبد بين مِنَّة من الله عليه ، وحجة مِنْه عليه ، ولا ينفك منهما ، فاعلم أن الدين(٦) متضمن لمنته وحجته ، قال(٧) تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[آل عمران : ١٦٤] [٧٦/ أ] ، وقال : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾[الحجرات: ١٧] .

---

(١) في غ « يعاين ».

(٢) في غ « يرىٰ » بدل « يراد ».

(٣) في ح١ ، ب ، أ ، غ « حقيقة ».

(٤) انظر هذا المعنىٰ في : شرح المنازل للتلمساني ١/ ٧٤.

(٥) في ب ، غ ، أ ، ح١ ، ح٢ ، ش « فكم يلتبس ».

(٦) في ش ، أ ، ب « فاعلم أن الحكم الديني » ، وفي د ، غ ، ق ، ح١ ، ح٢ « فالحكم الديني ».

(٧) في ب ، ح٢ ، ح١ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة اسم الجلالة « الله ».

وقال : ﴿ قُلْ[1] فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام : ١٤٩].

والحكم الكوني متضمن أيضا[2] لمنته وحجته ، فإذا حكم له كونا حكما مصحوباً باتصال[3] الحكم الديني به فهو منة منه عليه ، وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني ، فوفقه للقيام به ، فهو منة منه عليه ، وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه. فالمنة باقتران أحد الحكمين بصاحبه. والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر ، فكل علم صحبه عمل يرضيه سبحانه ، فهو منة ، وإلا فهو حجة. وكل قوة ظاهرة أو باطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة ، وإلا فهي حجة.

وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه ، والدعوة إليه ، فهو منة[4] ، وإلا فهو حجة.

وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء ولا للشكور[5] ، فهو مِنّة من الله عليه ، وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده ، فهو منة عليه ، وإلا فهو حجة.

---

(١) « قل » ساقطة من ح١ ، غ ، أ.

(٢) في غ ، أ ، د ، ح١ ، ح٢ ، ق تقديم وتأخير « أيضا متضمن ».

(٣) في ش « بإيصال ».

(٤) في ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة « منه ».

(٥) في ح٢ ، د ، ق « الشكور ».

وكل قبول في الناس ، وتعظيم ومحبة[1] اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق ، فهو منة ، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلىٰ العبد، اتصل به عبرة ومزيد في العقل ، والمعرفة[2] و[3] الإيمان ، فهي[4] منة ، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله ، أو مقام اتصل به السير إلىٰ الله ، وإيثار مراده علىٰ مراد العبد ، فهو منة من الله ، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به ، وإيثار مقتضاه من لذة النفس به ، وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه[5] ، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ، ويميز بين مواقع المنة[6] ومواقع الحجة[7] ، فما أكثر ما يلتبس[8] ذلك علىٰ خواص الناس وأرباب السلوك. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣].

---

(١) في ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة « له ».

(٢) في ق ، ح٢ ، أ ، ح٢ ، ب ، غ « ومعرفة ».

(٣) في ق ، ح٢ ، أ ، ح١ ، ب ، غ « في » بدل « و ».

(٤) في ب « فهو ».

(٥) في ب « عليه ».

(٦) في ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، ق ، أ « المنن والمحن » بدل « المنة ».

(٧) في ح١ ، د ، ق ، ح٢ ، غ ، أ « والحجج والنعم » بدل « ومواقع الحجة ».

(٨) في د « تلبس ».

فصل [٧٦/ ب]

الركن الثاني من أركان المحاسبة :

الركن الثاني

[١] أن تميز بين[٢] ما للحق[٣] عليك من وجوب العبودية ، والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية، وبين ما لك، والذي لك هو المباح الشرعي ، فعليك حق ، ولك حق[٤].

ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك ، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس[٥] يجعل كثيرا مما عليه من الحق من قسم ما له ، فيتحير بين فعله وتركه ، وإن فعله رأىٰ أنه فضل قام به لا حق أدَّاه.

وبإزاء هؤلاء من يرىٰ كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه. فيتعبد بترك ما له فعله ، كترك كثير من المباحات ، ويظن ذلك حقا عليه ، أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقا عليه.

مثال الأول : من يتعبد بترك النكاح ، و[٦] ترك أكل اللحم ، و[٧] الفاكهة مثلا ،

---

(١) في غ ، أ ، ب ، ح١ ، ح٢ زيادة « وهي ». وفي د « وهو ».

(٢) ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح١ .

(٣) في ش « يستحق ».

(٤) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ ، ب ، ق زيادة : « فأد ما عليك يؤتك مالك ».

(٥) في ش زيادة « من ».

(٦) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « أو » بدل « و ».

(٧) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « أو » بدل « و ».

أو الطيبات من المطاعم والملابس ، ويرىٰ لجهله أن ذلك مما عليه ، فيوجب علىٰ نفسه تركه ، أو يرىٰ تركه من أفضل القرب[1] ، وأجل الطاعات ، وقد أنكر النبي ﷺ علىٰ من زعم ذلك ، ففي الصحيح « أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر ؟ ، فكأنهم تقالوها ، فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر : أما أنا فلا أنام علىٰ فراش. فبلغ النبي[2] ﷺ مقالتهم. فخطب ، وقال : « **ما بال أقوام يقول أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم ؛ ويقول الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ؛ ويقول الآخر : أما أنا فلا أنام علىٰ فراش ؟. لكني أتزوج النساء ، وآكل اللحم ، وأصوم وأفطر وأقوم وأنام**[3] ، **فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[4] ، فتبرأ ممن رغب عن سنته ، وتعبد لله بترك ما أباحه الله لعباده من الطيبات ، رغبة عنه ، واعتقادا أن الرغبة عنه وهجره عبادة ، فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

ومثال الثاني : من يتعبد [٧٧/ أ] بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف ، ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها البتة ، فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركاً ، يراها حقاً عليه ، وهي حق له ، وله تركها ،

---

(١) في ح١ ، ح٢ « القربات ».

(٢) في ح٢ « رسول الله » بدل « النبي ».

(٣) في غ ، أ ، ق ، د ، ح٢ ، ح١ تقديم وتأخير « وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ».

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٩/ ١٠٤) ، ح(٥٠٦٣) ، ومسلم في النكاح (٢/ ١٠٢٠) ح(١٤٠١).

كفعل الرياضات ، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحهم[١] ، من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه ، فهذا لون وهذا لون.

ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحب المنازل ، فقال :

الركن الثالث

« **الثَّالِثُ : أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ كُلَّ طَاعَةٍ رَضِيتَهَا مِنْكَ**[٢] **فهي عَلَيكَ ، وَكُلَّ مَعصِيَةٍ عَيَّرْتَ بِهَا أَخَاكَ فَهِيَ إِلَيْك** »[٣].

رضا العبد بطاعته دليل علىٰ حسن ظنه بنفسه ، وجهله بحقوق العبودية ، وعدم علمه بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك : أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله ، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به][٤] ، يتولد منهما رضاه بطاعاته[٥] ، وإحسان ظنه بها ، ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا ، وشرب الخمر ، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات[٦] النفس وحماقتها.

---

(١) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ح١ ، ق « واصطلاحاتهم ».

(٢) في غ « لك » بدل « منك ».

(٣) منازل السائرين ١٦ ، وفيه زيادة : ولا تضع ميزان وقتك من يديك.

(٤) إلىٰ هنا نهاية السقط في نسخة م.

(٥) في غ ، ب ، أ ، ح١ « طاعته ».

(٦) الرعونات : جمع رعونة ، وهي الحمق والاسترخاء.

مختار الصحاح ٢٤٨ ، القاموس المحيط ٤/ ٢٢٨.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه ، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم علىٰ مثل هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالىٰ وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات ، وهو أجل المواقف وأفضلها ، فقال : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٧٧/ ب]﴾[البقرة : ١٩٨- ١٩٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران : ١٧] ، قال الحسن رضي الله عنه : مَدّوا الصلاة إلىٰ السحر ، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل[١]. وفي الصحيح : « أن النبي ﷺ كان إذا سلم[٢] استغفر[٣] ثلاثا. ثم قال : « **اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام** »[٤] ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ٣٧٤ بلفظ : مدوا الصلاة إلىٰ السحر ، ثم دعوا وتضرعوا. وأخرجه الطبري في التفسير ، تفسير سورة الذاريات (٢٦/ ٢٠٠) بلفظ : مدوا في الصلاة ، ونشطوا حتىٰ كان الاستغفار بسحر. وأورده البغوي في تفسير سورة آل عمران (١/ ٢٨٥).

(٢) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ب ، ق زيادة « من الصلاة ».

(٣) في م ، د ، ح٢ ، ب ، ق زيادة « الله ».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ، (١/ ٤١٤) ، ح(٥٩١) ، وأحمد (٥/ ٢٧٥ ، ٢٧٩) ، والترمذي في الصلاة ، (٢/ ٩٨) ، وأبو داود في الصلاة ، (٢/ ١٧٦) ، والنسائي في السهو ، (٣/ ٦٨) ، وابن ماجه في الإقامة ، (١/ ٣٠٠) ، كلهم من حديث ثوبان - رضي الله عنه -.

وأمره[1] الله سبحانه بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج والجهاد[2]، واقتراب أجله، فقال في آخر ما أنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

ومن هاهنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه [الله][3] به، فأمره أن يستغفر عقيب أداء ما[4] عليه، فكان إعلام بأنك قد[5] أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته[6] الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة[7] الوضوء أيضا إذ[8] يقول بعد فراغه: [«**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»][9]، «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**»[10].

---

(١) في ح٢، غ «وأمر».

(٢) ساقطة من غ، أ، ح١.

(٣) زيادة من ب، ح٢، م، د، ح١، أ، ق، وسقط من غ قوله: «أعلمه الله».

(٤) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ زيادة «كان».

(٥) «قد» ساقطة من ش.

(٦) في الأصل «خاتمة» والمثبت من باقي النسخ.

(٧) في غ «وختمة».

(٨) في ح١، م، ح٢، غ، أ «أن» بدل «إذ»، وهي ساقطة من ق.

(٩) ما بين المعكوفين زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، ق، غ.

(١٠) ورد هذا الدعاء الذي يقال بعد الوضوء في حديثين عن النبي ﷺ، أحدهما: عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ**

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها ، لا جهل أصحاب الدعاوي وشطحاتهم.

وقال بعض العارفين : متىٰ رضيت نفسك وعملك لله ، فاعلم أنه غير راض به ، ومن عرف أن نفسه مأوىٰ كل عيب وشر ، وعمله عرضة كل آفة ونقص ، كيف يرضىٰ لله نفسه وعمله؟.

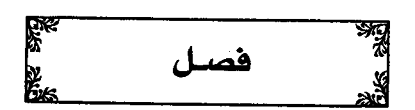
ولله در الشيخ أبي يزيد[1] حيث يقول : « من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء ، وأحواله بعين الدعوىٰ ، وأقواله بعين الافتراء ، وكلما عظم المطلوب في قلبك صغرت عندك ، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله ، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفت الله ، وعرفت النفس ، تبين لك أن ما معك من [٧٨/ أ] البضاعة لا يصلح للملك الحق ، [ولو جئت بعمل

الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء ». أخرجه مسلم في الطهارة ، (١/ ٢٠٩) ، ح(٢٣٤) ، والترمذي من حديثه في الطهارة (١/ ٧٧) وزاد في آخره : « اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين».

الثاني : عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ... ومن توضأ ثم قال : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، كتب في رق ، ثم طبع بطابع ، فلم يكسر إلىٰ يوم القيامة » ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٤١) وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وانظر الكلام علىٰ هذا الموضوع في كتاب الأذكار ، وبذيله تحفة الأبرار بنكت الأذكار صفحة (٤٠-٤١) ، تحفة الذاكرين ص ١٤٧ ، زاد المعاد ١/ ١٩٥ ، إرواء الغليل ١/ ١٣٥ ، ٣/ ٩٣.

(١) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « مدين » بدل « يزيد ».

الثقلين خشيت عاقبته][1]، وإنما يقبله بكرمه وجوده [وتفضله][2]، [ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وتفضله][3].



فصل

وقوله : « وَكُلُّ مَعْصِيةٍ عَيَّرتَ بِهَا أَخَاكَ فَهِيَ إِلَيكَ ».

الكلام على التعيير

يحتمل أن يريد به أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها. وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ : « من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتىٰ يعمله». قال الإمام أحمد رضي الله عنه في تفسيره : هذا[4] من ذنب قد تاب منه[5].

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، غ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، ق.

(٢) زيادة من م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ ، ب ، ق.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

(٤) في ح١ ، ب ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « في تفسير هذا الحديث ». بدل « في تفسيره هذا... ».

(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، (٤/ ٤٦١) ، من طريق خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وقد ذكر الترمذي تفسير الإمام أحمد للحديث ، ثم قال : هذا حديث غريب ، وليس إسناده بمتصل ، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل.

وأخرج الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الغيبة والنميمة ، وفي كتاب الصمت من طريق خالد ابن معدان عن معاذ ، وفيه قال ابن منيع : قال أصحابنا : قد تاب منه ، ثم ذكر بعده أثرا عن الحسن ، قال : كانوا يقولون من رمىٰ أخاه بذنب قد تاب إلىٰ الله عز وجل منه ، لم يمت حتىٰ يبتليه الله به.

=

وأيضا ففي التعيير[١] ضرب خفي من الشماتة[٢] بالمعيَّر ، وفي الترمذي أيضا مرفوعاً : «لا تظهر الشماتة لأخيك ، فيرحمه الله ويبتليك»[٣].

ويحتمل أن يريد[٤] : أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه ، وأشد من

= انظر : موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا (٢/ ١٢٨-١٢٩ ، ٥/ ١٧٧-١٧٨) ، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ؛ ثم قال : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، والمتهم به محمد بن الحسن ، قال أحمد ابن حنبل : ما أراه يساوي شيئاً ، وقال يحيىٰ : كان كذاباً ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال الدارقطني : لا شيء. الموضوعات (٣/ ٨٢) ، وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٢٩٥) : لا يصح ، فيه محمد بن الحسن الهمداني. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١/ ٢١٣) ، وقال : موضوع.

(١) التعيير : المسبة والعيب. مختار الصحاح ٤٦٥ ، المفردات ٣٥٧ ، مادة (عير).

(٢) الشماتة : هي الفرح ببلية العدو. مختار الصحاح ٣٤٦ ، المفردات ٢٧٠ ، مادة (شمت).

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، (٤/ ٦٦٢) ، عن واثلة بن الأسقع. قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ؛ وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٢/ ٣٨٧) ، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٢١٣) ، وقال : هذا لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ .

وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال : هذا حديث لا يصح (٣/ ٢٢٤).

وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٣٦٩) ، وقال : انقلب اسم القاسم في سند الترمذي ، فقال : أمية بن القاسم ، والصواب القاسم بن أمية ، كما نبه عليه الحافظ المزي ، ونقله عنه تلميذه العلائي ، ثم قال : والقاسم هذا معروف ، قال فيه أبو زرعة ، وأبو حاتم الرازيان : صدوق ، فبرئ عمر بن إسماعيل من عهدة الحديث ، وهو حسن ، كما قال الترمذي ، لكنه غريب كما قال ، لتفرد القاسم ؛ انتهىٰ والله أعلم. وضعفه الألباني ؛ انظر : ضعيف الجامع (٦/ ٧١).

(٤) في ب زيادة « به ».

معصيته ، لما فيه من صولة[1] الطاعة ، وتزكية النفس ، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب ، وأن أخاك هو الذي[2] باء به. ولعل كسرته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع ، والإزراء علىٰ نفسه ، والتخلص من مرض الدعوىٰ ، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف ، منكسر القلب ، أنفع له ، وخير له من صولة طاعتك ، وتكثرك[3] بها ، والاعتداد بها ، والمنة علىٰ الله تعالىٰ وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله ، وما أقرب هذا المدل[4] من مقت الله ، فذنب تذل به لديه ، أحب إليه من طاعة تدل بها[5] عليه ، [وإنك أن تبيت نائما وتصبح نادما ، خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا ، فإن المعجب لا يصعد له عمل ، وإنك أن تضحك وأنت معترف ، خير من أن تبكي وأنت مدل][6] ، وأنين المذنبين أحب إليه[7] من زجل

---

(١) الصولة : هي الاستطالة والتطاول والسطو ، يقال : صال علىٰ قِرنه ، أي : استطال وسطا عليه، والصؤول من الرجال : هو الذي يضرب الناس ، ويتطاول عليهم. لسان العرب ٤/ ٢٥٢٨ ، مختار الصحاح ٣٧٣.

(٢) سقط من د ، ح٢ ، غ ، أ قوله : « هو الذي ».

(٣) في ب « وتكبرك » بدل « وتكثرك ».

(٤) المُدلّ : هو المان بالطاعة ؛ قال ابن الأعرابي : دلَّ يَدِلُّ إذا مَنَّ بعطائه ، والأدلُّ : المان بعمله. لسان العرب ٢/ ١٤١٣.

(٥) في م زيادة « زيادة ».

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، م ، ق ، ح٢ ، د ، غ ، أ.

(٧) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق « إلىٰ الله ».

المسبحين المدلين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو[1] ، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر ، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون ، وقد قال النبي ﷺ : « **إذا زنت أمة أحدكم ، فليقم [٧٨/ ب] عليها الحد ، ولا يثرب** »[2] ، أي لا يعير ، من قول يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[يوسف : ٩٢] ، فإن الميزان بيد الله ، والحكم لله ، فالسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب ، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب ، ولا يأمن كرات القدر وسطواته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال[3] تعالىٰ لأعلم الخلق[4]، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[الإسراء : ٧٤] ، وقال يوسف الصديق :﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[يوسف : ٣٣] ، وكان[5] عامة يمين رسول الله ﷺ : « **لا ومقلب القلوب** »[6] ، وقال : «ما

---

(١) في ح٢ ، م « الله » بدل « هو ».

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ، (٤/ ٤٢١) ، ح(٢٢٣٤) ، (٢١٥٢) وفي غيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وأخرجه مسلم في الحدود ، (٣/ ١٣٢٨) ، ح(١٧٠٣).

(٣) في ح١ ، ق ، م ، غ ، ب ، أ ، د زيادة « الله ».

(٤) في ح١ ، ح٢ ، ق ، م ، غ ، أ ، د زيادة « به ».

(٥) في غ ، ح١ ، ب ، أ ، ش ، م ، ح٢ « وكانت ».

(٦) أخرجه البخاري عن ابن عمر في القدر ، (١١/ ٥١٣) ، ح(٦٦١٧) ، وأخرجه أيضا في

من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » ، ثم قال : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك ، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك »[1].

* * *

الأيمان ، ح(٦٦٢٨). وأخرجه الترمذي في النذور والأيمان ، (٤/ ١١٣) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود في الأيمان والنذور ، (٣/ ٥٧٦) ، والنسائي في الأيمان والنذور ، (٧/ ٢) ، وأحمد (٢/ ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٨ ، ١٢٧).

(١) هذا الحديث رواه عن النبي ﷺ جمع من الصحابة ، بألفاظ متقاربة ، منها حديث النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ». قال : فكان رسول الله ﷺ يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك ». أخرجه بهذا اللفظ الآجري في الشريعة (٣/ ١١٦٢) ، والإمام أحمد (٤/ ١٨٢) ، وابن ماجه (١/ ٧٢) ، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٨٩) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٨) ، والدارمي في الرد علىٰ المريسي ص (٦٢) ، وابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن) ص(٦٠٠) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٩) ، وقال: صحيح علىٰ شرطهما ، وفي (٤/ ٣٢١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهذا إسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين.

ومنها حديث عبد الله بن عمرو ، أخرجه مسلم في القدر ، (٤/ ٢٠٤٥) ، ح(٢٦٥٤) ، بلفظ : «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا علىٰ طاعتك ». وأحمد (٢/ ١٦٨) ، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٥٦) ، وابن أبي عاصم في السنة ، والدارمي في الرد علىٰ بشر المريسي ، واللالكائي ، والبيهقي في الأسماء والصفات.

فصل[1]

منزلة التوبة

فإذا صح له هذا المقام، ونزل في هذه المنزلة، أشرف منها علىٰ مقام التوبة[2]؛ لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ما له مما عليه، فليجمع علىٰ التشمير إليه، والنزول فيه[3] إلىٰ الممات.

ومنزلة التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد [السالك][4]، ولا يزال فيه إلىٰ الممات، وإن ارتحل إلىٰ منزل آخر ارتحل به، [واستصحبه معه][5]، ونزل به.

فضل التوبة

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما

---

(١) في هامش الأصل كتب: «منزلة التوبة»، وفي ح١، غ كتب: «منزلة التوبة وفقنا الله لها بمنه ورحمته».

(٢) عرف ابن القيم التوبة: بأنها الرجوع إلىٰ الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلىٰ محبوب، فالرجوع إلىٰ المحبوب جزء من مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر.

انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ١٠٧، الرسالة القشيرية ٩١، قوت القلوب ١/ ٣٦١، التوبة لابن أبي الدنيا، التوبة وسعة رحمة الله لابن عساكر، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ١١٩، رسالة في التوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن جامع الرسائل «المجموعة الأولىٰ» ص ٢١٧.

(٣) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق تقديم وتأخير «علىٰ النزول فيه والتشمير إليه».

(٤) زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، ق، غ، أ.

(٥) زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق.

حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال[1] تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب [الله][2] بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتىٰ بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم علىٰ رجاء الفلاح، فلا [٧٩/ أ] يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فقسم العباد إلىٰ تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم علىٰ من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[3]، وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد

---

(١) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٢) زيادة من م، د، ح٢، غ، أ، ق، ب، ح١.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، (٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦)، ح(٢٧٠٢) عن ابن عمر بلفظ: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة**».

وأحمد (٤/ ٢١١). والبخاري في الدعوات، (١١/ ١٠١)، ح(٦٣٠٧)، عن أبي هريرة، بلفظ: «**والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»، وأحمد (٢/ ٢٨٢، ٣٤١).

والنسائي في عمل اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف (١٠/ ٢٥٨)، بلفظ: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ ربكم، فإني أتوب إلىٰ الله مائة مرة**».

قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور[1]» مائة مرة[2]، وما صلىٰ صلاة[3] قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[4]، إلا قال (في صلاته)[5]: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[6]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحدا منكم عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟. قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[7].

فصلوات الله وسلامه علىٰ أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

---

(١) في م، ح٢ «الرحيم» بدل «الغفور».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١) عن ابن عمر، قال: إنا كنا لنعد من رسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.
وأخرجه الترمذي في الدعوات، (٥/ ٤٩٤)، وأبو داود في الصلاة، (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه في الأدب، (٢/ ١٢٥٣)، كلهم بلفظ: «التواب الرحيم». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٨٩) بعد ذكره لإسناد الإمام أحمد: هذا إسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولكن الرواة اختلفوا علىٰ مالك - يعني ابن مغول - في قوله: الغفور؛ ثم ذكر تخريج الحديث وطرقه.

(٣) «صلاة» ساقطة من أ.

(٤) في ح١، غ زيادة «آخرها». وفي أ زيادة «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» إلىٰ آخرها. وفي م أثبتت السورة كاملها.

(٥) في غ، أ، د، ش، ح١، ح٢، م، ق «فيها» بدل «في صلاته».

(٦) أخرجه البخاري ومسلم، وتقدم تخريجه ص٤٤٦.

(٧) أخرجه البخاري ومسلم، وتقدم تخريجه ص٣٦٧.

فصل

دلالة الفاتحة على التوبة

ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلىٰ الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله تعالىٰ له[1] إلىٰ الصراط المستقيم ، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده[2] ، انتظمتها[3] سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطىٰ الفاتحة حقها علما وشهوداً وحالا ومعرفة ، علم أنه لا تصح له قراءتها علىٰ العبودية إلا بالتوبة النصوح ، فإن الهداية التامة إلىٰ الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها ، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدىٰ ، والثاني غي ينافي قصده وإرادته ، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص [٧٩/ ب] من سوء عواقبه[4].

قال في المنازل : « **وَهِيَ أَنْ تَنظُرَ فِي الذَّنبِ إِلىٰ ثَلاَثَةِ أَشيَاء : إِلَىٰ انخِلاعِكَ مِنْ العِصمَةِ حِينَ إِتيَانِهِ ، وَفَرَحِكَ عِند الظَّفَرِ بِهِ ، وَقُعُودِكَ عَلَىٰ الإِصرَارِ عَن تَدَارُكِهِ ، مَعَ تَيَقُّنِكَ نَظَرَ الحَقِّ إِلَيكَ** »[5].

---

(١) « له » ساقطة من ش ، غ.

(٢) في ح١ « وتوفيقه وتفضله » بدل « توحيده ».

(٣) في غ ، ح١ ، ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، ق « وانتضمتها ».

(٤) في أ ، ب ، غ ، م زيادة « أولا وآخراً » ، وفي ح٢ ، ق ، ح١ « أولىٰ وآخره ».

(٥) قال في منازل السائرين : « والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب ، وهي أن تنظر في الذنب إلىٰ ثلاثة أشياء ... ». ١٣.

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة، انخلاعه عن اعتصامه بالله، فإنه لو اعتصم به[1] لما خرج عن هداية الطاعة، قال[2] تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً، قال[3] تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، أي متىٰ اعتصمتم به تولاكم، ونصركم، ومن نصره لكم نصركم[4] علىٰ أنفسكم وعلىٰ الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان، وعداوتهما أضرُّ من عداوة العدو الخارج، فالنصر علىٰ هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة عليه[5] بحسب كمال الاعتصام بالله.

وسيأتي الكلام إن شاء الله بعد هذا في حقيقة الاعتصام[6]، وأن الإيمان لا يقوم إلا به[7].

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له، وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من ثوب[8] عصمته لك. فمتىٰ عرف هذا الانخلاع عظم خطره عنده،

---

(١) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق «بالله» بدل «به».

(٢) في د، غ، أ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) في ح٢، د، ق، غ، أ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٤) سقط من غ، أ، م، ح١، ح٢ قوله: «ومن نصره لكم نصركم».

(٥) في ق، ح٢، ح١، غ، أ، م، د، ب «علىٰ العدو».

(٦) في أ «الكلام» بدل «الاعتصام».

(٧) انظر: الكلام علىٰ منزلة الاعتصام المدارج ١/ ٤٦٠.

(٨) في ح١ «توبة» بدل «ثوب».

واشتد[١] عليه مقارفته[٢]، وعلم أن الهلك[٣] كل الهلك[٤] بعده، وهو حقيقة الخذلان، فما خلىٰ الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلىٰ بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله تعالىٰ علىٰ أن الخذلان: أن يخلي الله بينك وبين نفسك[٥]. والتوفيق: أن لا يكلك[٦] الله إلىٰ نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب، وخذلانك حين واقعته حكماً وأسراراً[٧] سنذكر بعضها. وعلىٰ الاحتمالين فترجع بالتوبة إلىٰ اعتصامك به وعصمته لك.

قوله [٨٠/ أ]: « وَفَرَحِكَ عِنْدَ الظَّفَرِ بِهِ ».

الفرح بالمعصية دليل [علىٰ][٨] شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطىٰ عليه ذلك كله، وفرحه

---

(١) في ق، ح٢، أ، د، م، ح١، غ « اشتدت ».

(٢) في ق، ح٢، أ، ب، د، م، غ، ش، ح١ « مفارقته ».

(٣) في م، ح٢ « الهلاك » بدل « الهلك ».

(٤) في م، ح٢ « الهلاك » بدل « الهلك ».

(٥) في غ، أ، د، ب، م، ح١، ح٢، ق « أن يكلك الله إلىٰ نفسك، ويخلي بينك وبينها » بدل «أن يخلي الله بينك وبين نفسك».

(٦) في ق، ح١، غ، م، د، أ، ح٢ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٧) في ق، ح١، غ، م، د، أ، ح٢ العبارة هكذا: « حتىٰ واقعته حكم وأسرار ».

(٨) زيادة من ب، ح١، د، ح٢، غ، أ، م، ق.

بها أشد ضررا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذته[١] بمعصيته[٢] أبداً، ولا يكمل بها فرحه؛ بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه؛ ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتىٰ خلا[٣] قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره، فليتهم إيمانه، وليبك علىٰ موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولأحس[٤] القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قلّ من يهتدي لها[٥]، أو ينتبه[٦] عليها[٧]، وهي موضع مخوف جداً، مترام إلىٰ الهلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم علىٰ ما فاته من الله تعالىٰ بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه.

قوله: « **وَقُعُودِكَ عَلَىٰ الإِصرَارِ عَن تَدَارُكِهِ** ».

الإصرار: هو الاستقرار علىٰ المخالفة، والعزم علىٰ المعاودة. وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب، أنه يوجب

---

(١) في ح١، أ، ب، غ « له لذة ».

(٢) في ق، ح١، أ، ب، د، ش « بمعصية ».

(٣) في غ، أ، د، م، ش، ح١، ح٢، ق « خلي ».

(٤) في غ، ح١ « ولا يحس ».

(٥) في ح٢، م « إليها » بدل « لها ».

(٦) في د، ح٢، ش، ق « يتنبه ».

(٧) في ب، « إليها » بدل « عليها ».

ذنبا أكبر منه ، ثم الثاني كذلك ، ثم الثالث كذلك ، حتىٰ يستحكم الهلاك.

فالإصرار علىٰ المعصية معصية أخرىٰ ، فالقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها ، وذلك علامة الهلاك ، وأشد من هذا كله ، المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم علىٰ المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية. فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة [٨٠/ ب] نظر الله إليه[١] ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين ، فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً إليه مطلعا عليه ، يراه جهرة عند مواقعة الذنب ؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحدا له ، فتكون[٢] توبته دخوله في الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله[٣].

شروط التوبة

قال : «وَشَرَائِطُ التَّوبَةِ ثَلاَثَةٌ : النَّدَمُ ، وَالإِقْلاعُ ، وَالاعتِذَارُ»[٤].

فحقيقة التوبة : هو الندم علىٰ ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم علىٰ أن لا يعاوده في المستقبل[٥].

---

(١) في ب زيادة « واطلاعه ».

(٢) « تكون » سقط غ ، أ ، ح١ .

(٣) انظر هذا المعنىٰ في : شرح منازل السائرين للتلمساني ١/ ٦٢.

(٤) منازل السائرين ص ١٣ ، وقد تقدم الاعتذار علىٰ الإقلاع.

(٥) انظر شرح هذه الأمور الثلاثة في : إحياء علوم الدين ٤/ ٣ ، ورياض الصالحين ٣٧.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلىٰ العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفا علىٰ تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم علىٰ القبيح فذلك دليل علىٰ رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند «الندم توبة»[1].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: ففيه إشكال، فإن من الناس من يقول: من تمام التوبة ترك الاعتذار، فإن الاعتذار محاجة عن الجناية، وترك الاعتذار اعتراف بها، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف، وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه، وقد عتب عليه في شيء:

وما قابلت عتبك باعتذار ... ولكني أقول كما تقول
وأطرق باب عفوك بانكسار ... ويحكم بيننا الخُلُق الجميل[2]

---

(١) حديث: «الندم توبة»؛ أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٧٦، ٤٢٣)، عن ابن مسعود، وابن ماجه في الزهد، (٢/ ١٤٢٠)، والحميدي في مسنده (١/ ٥٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٣٦١)، وأبي يعلىٰ في المسند (٩/ ١٣، ٦٤، ١٧١)، والحاكم (٤/ ٢٤٣)، وصححه الذهبي، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٣٠٨)، وقال: رواه الحاكم ... ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦/ ٣٨)، وصححه محقق مسند الإمام أحمد شعيب الأرناؤوط؛ انظر: الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٧).

(٢) لم أقف علىٰ القائل.

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون في قلبه ولسانه : [اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولكني مذنب مستغفر](١) اللهم لا عذر لي ، وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتي ، فإن عفوت وإلا فالحق [٨١/ أ] لك.

والذي يظهر لي من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن مني ما كان استهانة بحقك ، ولا جهلا به ، ولا إنكارا لاطلاعك عليَّ(٢) ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان عن غلبات الهوىٰ ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعا في مغفرتك واتكالا علىٰ عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعا في سعة حلمك ورحمتك ، وغرني بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، [وسترك(٣) المرخي عليّ](٤) ، وأعانني جهلي ، ولا سبيل لي إلىٰ الاعتصام(٥) إلا بك ، ولا معونة علىٰ طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ،

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من غ ، أ ، ب ، د ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق.

(٢) ساقطة من غ ، ح١ .

(٣) في ح٢ ، م « وبسترك ».

(٤) زيادة من ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٥) في غ ، أ ، م ، ح٢ ، ح١ تقديم وتأخير. « ولا سبيل إلىٰ الاعتصام لي ».

والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب[1] أن يُتملق[2] له.

وفي الحديث: «**تملقوا لله**[3]»[4]، وفي الصحيح: «**لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالىٰ**»، وإن كان معنىٰ ذلك الإعذار، كما قال في آخره[5]: «**من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين**»[6]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥-٦]، فإنه من تمام عدله وإحسانه، أن[7] أعذر إلىٰ

---

(١) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ زيادة «من عبده».

(٢) التملق: هو التودد والتلطف. مختار الصحاح ٦٣٢، لسان العرب ٦/ ٤٢٦٥، مادة (ملق).

(٣) هكذا في ب، م، ق، ح٢، غ، أ. وفي الأصل، ش، د «الله».

(٤) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ، وإنما ورد في المسند للإمام أحمد (٥/ ١٥٣)، وفي سنن النسائي (٣/ ٢٠٧)، وفي الترمذي (٤/ ٦٩٨): أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله ... وقوم ساروا ليلتهم حتىٰ إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به نزلوا، فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملقني ويتلوا آياتي ...**». الحديث.

(٥) في ب، ح١، غ، أ «آخر الحديث».

(٦) أخرجه البخاري في التوحيد، (١٣/ ٣٩٩)، ح: (٧٤١٦)، عن المغيرة بن شعبة، بلفظ: «**ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ...**».

وأخرجه مسلم في اللعان (٢/ ١١٣٦)، ح: (١٤٩٩)، بلفظ: «**ولا شخص أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ...**».

(٧) في ح٢ «وأن».

عبيده[1] ، ولم[2] يأخذ[3] ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار[4] ، وإقامة الحجة ، فهو أيضا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفي الحديث : «من اعتذر إلىٰ الله قبل الله عذره»[5] ، فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة الله[6] ، واحتجاج من العبد علىٰ الرب ، وحمل لذنبه علىٰ الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله تعالىٰ. كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالىٰ : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ [٨١/ ب] ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران : ١٤] ، قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟ ، قالوا : ما المراد بها ؟ ، قال : إقامة أعذار الخليقة.

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفاني الذاهب ، والترغيب في الباقي الدائم ، والإزراء علىٰ من آثر هذا المزين واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يلعب به، فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل «زينا للناس» ، والله تعالىٰ يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلىٰ الشياطين ، كما قال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟

---

(١) في ح١ « عبده ».

(٢) في ح١ ، غ ، أ ، م « ولا ».

(٣) في ح١ ، غ ، أ « يؤاخذ ».

(٤) في ب « الاعتذار ».

(٥) لم أجد هذا الحديث.

(٦) في أ ، غ ، ب ، د ، ش ، ح١ ، ح٢ ، ق « لله » ؛ والكل ساقط من م .

يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وفي الحديث: «بُعثت هادياً وداعياً، وليس إلي من الهداية شيء، وبعث إبليس مُغْوياً ومُزيّناً، وليس إليه من الضلالة شيء»[1]. ولا يناقض هذا قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإن إضافة التزيين إليه قضاءً وقدراً، وإلىٰ الشيطان تسبباً، مع أن تزيينه تعالىٰ عقوبة لهم علىٰ ركونهم إلىٰ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٩١٠) بلفظ: «بُعثت داعياً ومبلغا، وليس إلي من الهدىٰ شيء، وبعث إبليس مزينا، وليس إليه من الضلالة شيء»، وقال: هذا لا يعرف إلا بعيسىٰ العسقلاني عن إسحاق بن الفرات عن خالد عن سماك، وفي قلبي من هذا الحديث شيء عن خالد عن سماك، ولا أدري سمع خالد من سماك أو لحقه أم لا، ولا أشك أن خالداً هذا هو خالد الخراساني، فكأن الحديث مرسلا عنه عن سماك، وأخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٨١) في ترجمة خالد الخراساني، وقال عنه: كان ممن يخطىء حتىٰ خرج عن حد العدالة، لكثرته، لا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد. وأخرجه قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٦)، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٧٢-٢٧٣)، وقال: قال العقيلي: خالد بن عبد الرحمن ليس بمعروف بالنقل، ولا يعرف لهذا الحديث أصل، وقال الدارقطني: خالد هذا مجهول، لا أعلمه روىٰ شيئاً غير هذا الحديث. وأورده الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ١١)، وعلاء الدين في كنز العمال (١/ ١١٦)، وعزاه للعقيلي وابن عدي، وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣١٥)، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص (٥٠٥): رواه العقيلي، وقال: خالد بن عبد الرحمن الهيثم ليس بمعروف بالنقل، وحديثه غير محفوظ، ولا يعرف له أصل. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ١٠): موضوع.

ما زينه الشيطان لهم ، فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها.

والمقصود أن الاحتجاج بالقدر مُنافٍ للتوبة ، وليس[1] من الاعتذار في شيء. وفي بعض الآثار : «إن العبد إذا أذنب ، فقال : يا رب ، هذا قضاؤك ، وأنت قدرت علي، وأنت حكمت علي، وأنت كتبت علي. فيقول الله عز وجل: وأنت عملت ، وأنت جنيت[2] ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه ، وإذا قال : يا رب أنا ظلمت ، وأنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت. يقول الله عز وجل: وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت، وأنا أغفر لك. وإذا عمل حسنة، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ، وأنا صليت ، [٨٢/ أ] وأنا أطعت[3]. يقول[4] الله عز وجل : وأنا أعنتك ، وأنا وفقتك. وإذا قال : يا رب أنت أعنتني ، وأنت[5] وفقتني ، وأنت مننت علي. يقول الله تعالىٰ : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت كسبتها »[6].

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافي الاعتراف ، فذلك مناف للتوبة ، واعتذار

---

(١) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق ، م زيادة « هو ».

(٢) في ق ، أ ، م ، غ ، ح١ ، ح٢ « كسبت ».

(٣) في غ « أطعمت ».

(٤) في د ، ح٢ « فيقول ».

(٥) « أنت » ساقطة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، د ، ح٢ ، ق.

(٦) لم أجد هذا الأثر.

يقرر الاعتراف، فذلك من تمام التوبة.

ما تتحقق به التوبة

قال صاحب المنازل رحمه الله: «**وَحَقَائِقُ**[١] **التَّوبَةِ ثَلاثَةُ أَشيَاء: تَعظِيمُ الجِنَايةِ، وَاتِّهامُ التَّوبَةِ، وَطَلَبُ أَعذَارِ الخلِيقَةِ**»[٢].

يريدون[٣] بالحقائق: ما يتحقق به الشيء، وتتبين صحته وثبوته، كما قال النبي ﷺ لحارثة: «**إن لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟**»[٤].

---

(١) الحقائق: جمع حقيقة، والحقيقة اسم أريد به ما وضع له، فعيلة من حق الشيء، إذا ثبت... وفي الاصطلاح: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب. واحترز به عن المجاز الذي استعمل فيما وضع له في اصطلاح آخر غير اصطلاح التخاطب.
التعريفات ١٢١، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٤٥٣.

(٢) منازل السائرين ١٣.

(٣) في ح١ «يريد».

(٤) رواه البزار عن أنس: أن النبي ﷺ لقي رجلاً يقال له حارثة في بعض سكك المدينة، فقال: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**»، فقال: أصبحت مؤمنا حقاً، قال: «**إن لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ ...**» الحديث؛ قال البزار: تفرد به يوسف بن عطية، وهو لين الحديث. انظر: كشف الأستار عن زوائد البزار (١/ ٢٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٧): رواه البزار، وفيه يوسف بن عطية، لا يحتج به، وأخرجه ابن المبارك في الزهد ص (١٠٦)، عن صالح بن مسمار، وعبد الرزاق في مصنفه عن صالح بن مسمار، وجعفر بن برقان أن النبي ﷺ قال للحارث بن مالك: «**ما أنت يا حارث بن مالك؟**»، قال مؤمن حقاً، قال: «**فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة ذلك ...**».

قال ابن حجر في ترجمة الحارث بن مالك الأنصاري: روىٰ حديثه ابن المبارك في الزهد عن معمر عن صالح ابن مسمار - ثم ذكر الحديث، ثم قال: وهو معضل، وكذا أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن صالح بن مسمار، وجعفر بن برقان. وقال أيضا: ورواه البيهقي في

الأول فأما « تَعْظِيمُ الجِنَايَةِ » : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها ، وعلىٰ قدر تعظيمها يكون ندمه علىٰ ارتكابها ، فإن من استهان بإضاعة فلس مثلا لم يندم علىٰ إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء.

الثاني وأما «اتِّهَامُ التَّوبَةِ» : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدىٰ هذا الحق علىٰ الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها[1] لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، أو أنها[2] توبة علة وهو لا

الشعب من طريق يوسف بن عطية الصفار ، وهو ضعيف جدا عن أنس أن النبي ﷺ لقي الحارث يوماً ، فقال : ثم ذكر الحديث. قال البيهقي : هذا منكر ، وقد خبط فيه يوسف. انظر: الإصابة (٢/ ١٧٤-١٧٥).

وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف عن مالك بن مغول عن زبيد قال : قال رسول الله ﷺ : «**كيف أصبحت يا حارث بن مالك ، قال أصبحت مؤمنا حقاً ، قال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة ذلك؟ ...**» الحديث. وأخرجه في كتاب الإيمان عن مالك بن مغول عن زبيد بلفظ : « **إن لكل حق حقيقة ...** » قال الألباني في تعليقه علىٰ كتاب الإيمان : والحديث معضل ، فإن زبيداً من الطبقة السادسة التي لم تلق أحدا من الصحابة عند الحافظ في التقريب ؛ وقد روي موصولا عن الحارث بن مالك نفسه ، رواه عبد بن حميد ، والطبراني ، وأبو نعيم ، وغيرهم بسند ضعيف.

انظر : المصنف لابن أبي شيبة (١١/ ٤٣) ، والإيمان لابن أبي شيبة ص (٣٨).

(١) في ق « وأنه ».

(٢) في ق ، ح٢ ، م « وأنها ».

يشعر بها[1]، كتوبة أرباب الجوائح[2] والإفلاس، والمحافظين علىٰ جاهاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة علىٰ حاله، فتاب للحال، لا خوفا من ذي الجلال، أو أنه تاب طلبا للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو إبقاءً[3][4] علىٰ عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق [٨٢/ ب]، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفا من الله تعالىٰ، وتعظيما له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، ومن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضا: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلىٰ الذنب الفينة بعد الفينة[5]، وتذكر[6] حلاوة مواقعته، فربما تنفس، وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه[7] من نفسه بأنه قد تاب، حتىٰ كأنه قد أعطي منشورا بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

---

(١) «بها» ساقطة من أ.

(٢) في ح١، ح٢، ق، غ، م، أ، ب «الحوائج».

(٣) في غ، أ، م، ح٢ «إنقاء».

(٤) في ش، ب، أ، غ، ح١ زيادة «ما يخافه».

(٥) في الأصل «لفته بعد لفته»، وفي ش «الهينة بعد الهينة».

(٦) في ح١ «ويذكر».

(٧) في الأصل، ش «ومعرفته».

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وأنه لم يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له[١] قبل[٢].

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها : أنه[٣] يكون[٤] بعد التوبة خيرا[٥] مما كان قبل الخطيئة[٦].

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن طرفة عين ، فخوفه مستمر إلىٰ أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهناك يزول الخوف.

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندما وخوفا ، وهذا علىٰ قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة[٧] لقوله تعالىٰ : ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ

---

(١) « له » ساقطة من م.

(٢) في ب ، ح١ ، غ ، أ ، م ، ح٢ زيادة « الخطيئة ».

(٣) في ب ، أ ، ح٢ ، ح١ ، م ، غ « أن ».

(٤) في ب زيادة « العبد ».

(٥) في ب ، ح١ زيادة «خير منه » ، وفي م « خيرا منه ».

(٦) في ب ، ح٢ ، ح١ ، م ، غ « قبلها ».

(٧) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ، الهلالي الكوفي ثم المكي ، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ ، طلب الحديث وهو غلام ، ولقي الكبار ، وحمل عنهم علما كثيراً ، انتهىٰ إليه علو الإسناد ، ورحل إليه من البلاد ، أكثر عنه الحميدي ، والشافعي ، وابن المديني ، وأحمد ، وغيرهم ، واشتهر بالتفسير ؛ توفي سنة ١٩٨هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٧ ، التاريخ الكبير ٤/ ٩٤.

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة : ١١٠] ، قال : تقطعها بالتوبة[١].

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة ؛ لأنه ينقطع قلبه[٢] حسرة علىٰ ما فرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه[٣] في الدنيا علىٰ ما فرط[٤] حسرة وخوفا ، تقطع في [٨٣/ أ] الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هي[٥] أمر[٦] وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي ربه[٧] كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدي ربه[٨] طريحا ذليلا خاشعا ، كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ وأحضر بين يديه ، ولم يجد من

---

(١) انظر هذا التأويل عن ابن عيينة في : تفسير القرطبي ٨/ ٢٤٢.

(٢) في ح٢ ، م « يتقطع عليه » بدل « ينقطع قلبه ».

(٣) « قلبه » ساقطة من م .

(٤) في ش ، ب ، ح١ ، م ، ح٢ زيادة « منه ».

(٥) « هي » ساقطة من م .

(٦) في م ، د ، ح٢ ، ق « أمور ».

(٧) في ق ، د ، غ ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ « الرب ».

(٨) في ب « الله تعالىٰ » بدل « ربه ».

ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بُدًّا ولا عنه غنىٰ ، ولا منه مهرباً ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاته[1] في رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده. فيجتمع[2] من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ، وما أجزل[3] عائدها[4] عليه ، وما أعظم جبره بها ، وما أقربه بها من سيده ، فليس شيء أحب إلىٰ سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له ، فلله ما أحلىٰ قوله في هذه الحال : « أسألك بعزك وذلي لك[5] إلا رحمتني ، أسألك بقوتك وضعفي ، وبغناك عني وفقري إليك ، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذل لك قلبه [٨٣/ ب] ».

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

---

(١) في غ ، أ ، ح١ ، ح٢ « ونجاحه » بدل « ونجاته » ، وفي ب ، ش « نجاحه ونجاته ».

(٢) في ب « فتجتمع ».

(٣) في ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ « أجدىٰ ».

(٤) في ق ، أ ، ح٢ ، م ، ح١ ، ب ، غ ، د « عائدتها ».

(٥) « لك » ساقطة من م ، ح٢ ، د ، غ ، أ .

لا يجبر الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره[1]

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلىٰ تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوىٰ ! ، وما عالج الصادق شيئا[2] أشق عليه من التوبة الصادقة الخالصة[3]. فلا[4] حول ولا قوة إلا بالله.

وأكثر الناس المتبرئين[5] عن الكبائر الحسية والقاذورات ، في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ، فعندهم من الإزراء علىٰ أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم عليهم[6] ، ومنّتهم علىٰ الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم علىٰ طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفىٰ علىٰ أحد غيرهم ، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلىٰ الله تعالىٰ ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك ، فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه[7] [فيها][8] ، ليكسر بها نفسه ، ويعرفه بها[9] قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها

---

(١) القائل هو المتنبي. انظر : شرح ديوان المتنبي ٢/ ٢٢٥.

(٢) في غ ، أ ، ح١ « بشيء ».

(٣) في غ ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ تقديم وتأخير « الخالصة الصادقة ».

(٤) في ح١ ، غ « ولا ».

(٥) في غ ، أ ، م ، د ، ح١ ، ح٢ ، ب ، ق « المتنزهين ».

(٦) « عليهم » ساقطة من غ ، أ ، د ، ح١ ، ح٢.

(٧) في ش ، ب « توقعه ».

(٨) زيادة من غ ، أ ، م ، د ، ح١ ، ح٢ ، ب ، ق.

(٩) « بها » ساقطة من ح١.

صولة الطاعة من قلبه ، فهي رحمة في حقه ، كما أنه[1] إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة[2] في حقهم ، وإلا فكلاهما علىٰ خطر.

فصل

الثالث مما تتحقق به التوبة

وأما « **طَلَبُ أَعْذَارِ الخلِيقَةِ** » فهذا له وجهان : وجه محمود ، ووجه مذموم حرام.

فالمذموم : أن يطلب أعذارهم ، نظرا إلىٰ الحكم القدري ، وجريانه عليهم، شاؤوا أم أبوا ، فيعذرهم بالقدر.

وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين الناظرين إلىٰ القدر الفانين في شهوده ، وهو كما تقدم درب خطر جدا ، قليل المنفعة ، لا ينجي وحده.

وأظن هذا مراد صاحب المنازل ؛ لأنه قال بعد ذلك : « **إِنَّ مُشَاهَدَةَ الْعَبْدِ الحُكْمَ لَمْ يَدَعْ لَه اسْتِحْسَانَ حَسَنَةٍ ،** [٨٤/ أ] **وَلاَ اسْتِقْبَاحَ سَيِّئَةٍ ، لِصعودِهِ مِنْ جَمِيعِ المعَانِي إِلىٰ مَعْنَىٰ الحُكْمِ** »[3].

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ،

---

(١) سقط من ق من قوله : « نفسه » إلىٰ هنا.

(٢) في أ « نعمة ».

(٣) انظر : منازل السائرين ١٤ ، فقد قال الهروي: «اللطيفة الثالثة : إن مشاهدة العبد الحكم ...» ثم ذكره. ومقصوده بالحكم أي الحكم الكوني القدري ، وسيأتي كلام ابن القيم علىٰ هذه الجملة عندما يذكر لطائف أسرار التوبة.

وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم ، كان مضادا لله في أمره ، عاذرا من لم يعذره الله ، طالبا عذر من لامه الله وأمر بلومه ، وليست هذه موافقة لله ؛ بل موافقته لوم هذا ، واعتقاد أنه لا عذر له عند الله ، ولا في نفس الأمر. فالله عز وجل قد أعذر إليه ، وأزال عذره بالكلية ، ولو كان معذورا في نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتة ، فإن الله أرحم وأغنىٰ وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب ، إزالة لأعذار خلقه ، لئلا يكون لهم عليه حجة.

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه ، فلله الحجة البالغة ، ومن له عذر من خلقه كالطفل الذي لا يميز ، والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصم الأعمىٰ[1] الذي لا يبصر ولا يسمع ، فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا ذنب البتة ، وله فيهم حكم آخر في المعاد ، يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم ، فمن أطاع الرسول منهم ، أدخله الجنة ، ومن عصاه أدخله النار ، حكىٰ ذلك أبو الحسن الأشعري[2] عن

(١) في د ، ح٢ « والأعمىٰ ».

(٢) هو الإمام أبو الحسن ، علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ، الذي ينسب إليه المذهب الأشعري ، كان لحياته ثلاث مراحل ، أولها : كان علىٰ مذهب الاعتزال ، ثم انتقل منه إلىٰ المذهب الأشعري ، ثم انتقل منه في آخر حياته إلىٰ مذهب أهل السنة ؛ من مؤلفاته : مقالات الإسلاميين ، واللمع ، والإبانة عن أصول الديانة ، وغيرها ، ولد ٢٦٠هـ ، وتوفي سنة ٣٢٤هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٥ ، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٤٥ ، البداية والنهاية ١١/ ١٩٩.

أهل السنة والحديث في مقالاته[1] ، وفيه عدة أحاديث بعضها في مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع[2] ،

---

(١) ذكر أبو الحسن في مقالته عن أهل السنة قولهم: أن الأطفال أمرهم إلىٰ الله ، إن شاء عذبهم، وإن شاء فعل بهم ما أراد ، وأن الله عالم ما العباد عاملون ، وكتب أن ذلك يكون ، وأن الأمور بيد الله. المقالات ١/ ٢٩٦.

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ علىٰ حكم أطفال المشركين في الآخرة ، وذكر الخلاف فيهم ، ثم قال : والأكثرون يقولون : لا يجزي علىٰ علمه بما سيكون حتىٰ يكون ، فيمتحنهم يوم القيامة ، ويمتحن سائر من لم تبلغه الدعوة في الدنيا ، فمن أطاع حينئذ دخل الجنة ، ومن عصىٰ دخل النار ، وهذا القول منقول عن غير واحد من السلف : الصحابة ، والتابعين ، وغيرهم ؛ وقد روي به آثار متعددة عن النبي ﷺ حِسَان ، يصدق بعضها بعضاً ، وهو الذي حكاه الأشعري في المقالات عن أهل السنة والحديث ، وذكر أنه يذهب إليه ، وعلىٰ هذا القول تدل الأصول المعلومة بالكتاب والسنة. درء التعارض ٨/ ٤٣٥-٤٣٧.

وذكر ابن القيم في طريق الهجرتين ٣٨٧ ، وفي تهذيب السنن : مسألة أطفال المشركين ، وأن الناس اختلفوا فيها علىٰ ثمانية أقوال ، وبين هذه الأقوال الثمانية مع أدلتها ، ثم رجح القول الثامن ، فقال في تهذيب السنن ٧/ ٨٧ : والقول الثامن : أنهم يمتحنون في الآخرة ، فمن أطاع منهم أدخله الله الجنة ، ومن عصىٰ عذبه ، وقد روىٰ هذا من حديث الأسود بن سريع ، وأبي هريرة وغيرهما ، وهي أحاديث يشد بعضها بعضاً ، وهذا أعدل الأقوال ، وبه يجتمع شمل الأدلة ، وتتفق الأحاديث في هذا الباب.

وقد ذكر الأدلة في طريق الهجرتين ، وبين طرقها ، وتكلم عليها بما فيه الكفاية.

(٢) هو الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة التميمي السعدي ، كان شاعراً مشهوراً ، روىٰ البخاري في تاريخه عنه أنه غزا مع النبي ﷺ أربع غزوات ، وروىٰ له في الأدب المفرد ، وأخرج له الإمام أحمد عدة أحاديث ، كان في أول الإسلام قاضيا ، قيل مات سنة ٤٢هـ ، وقيل فقد يوم الجمل.

انظر : التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٤٤٥ ، الجرح والتعديل ٢/ ٢٩١ ، الإصابة ١/ ٦٨.

وحديث أبي هريرة[1].

ومن طعن في هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء لا دار تكليف فهذه الأحاديث مخالفة للعقل ، فهو جاهل ، فإن التكليف إنما ينقطع بدخول دار القرار ، الجنة أو النار. وإلا فالتكليف واقع في البرزخ وفي العرصات ، ولهذا يدعوهم إلىٰ السجود له في الموقف ، فيسجد المؤمنون له طوعا واختيارا ،

---

(١) أخرج حديث الأسود بن سريع الإمام أحمد (٤/ ٢٤) ، بلفظ : « **أربعة يحتجون يوم القيامة ، رجل أصم لا يسمع شيئا ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول : رب لقد جاء الإسلام ، وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام ، وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة ، فيقول : رب ما أتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال : فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاماً** ».
وأخرجه ابن حبان في صحيحه ؛ انظر : الإحسان (٩/ ٢٢٥-٢٢٦) ، وأخرجه البيهقي في الاعتقاد ص (١١١) ، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٥) ، وقال : رواه أحمد والبزار ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤١٩) : رواه الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع مرفوعاً.
وأخرج حديث أبي هريرة الإمام أحمد (٤/ ٢٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧٦) ، والبيهقي في الاعتقاد ص (١١١) ، وقال : وبهذا الإسناد - أي إسناد حديث الأسود - عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحو من هذا وهذا إسناد صحيح. قال الهيثمي في المجمع : هذا لفظ أحمد ، ورجاله في طريق الأسود بن سريع ، وأبي هريرة رجال الصحيح ، وكذلك رجال البزار فيهما. وقد حسن الأحاديث في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، كما تقدم ، وقواها ابن القيم ، وقال عن حديث الأسود : إسناد صحيح. وصحح حديث أبي هريرة الألباني في السنة ، وفي الصحيحة.

ويحال بين الكفار والمنافقين وبين السجود[1].

والمقصود أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله، ومخالفة أمره، مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل [٨٤/ ب] والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم، لا في الدنيا ولا في العقبىٰ.

فإن قيل: هذا كلام بلسان ألجأه[2] بالشرع[3]، ولو نطقت بلسان الحقيقة لعذرت الخليقة، إذ هم صائرون إلىٰ مشيئة الله فيهم، وما قضاه و[4] قدره عليهم، ولا بد، فهم مجار لأقداره، وسهامها نافذة فيهم، وهم أغراض لسهام الأقدار لا تخطئهم البتة، ولكن من غلب عليه مشاهدة الحكم الشرعي لم يمكنه طلب العذر لهم، ومن غلب عليه مشاهدة الحكم الكوني عذرهم، فأنت معذور في الإنكار علينا بحقيقة الشرع، ونحن معذورون في طلب العذر بحقيقة الحكم، وكلانا مصيب.

الرد على من احتج بالقدر على المعاصي

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: العذر إن لم يكن مقبولا لم يكن نافعا، والاعتذار بالقدر

(١) انظر الكلام علىٰ هذه المسألة في كتاب طريق الهجرتين، لابن القيم ٣٩٩-٤٠١.

(٢) في ب، ح١، غ، أ «الحال» وهي ساقطة من ح٢، ومعنىٰ «ألجأه بالشرع» أي: عصمه وألزمه بالشرع، قال ابن منظور: ألجأه إلىٰ الشي: اضطره إليه، وألجأه: عصمه، وألجأت أمري إلىٰ الله: أسندت. لسان العرب ٥/ ٣٩٩٧، مختار الصحاح ٥٩٢، مادة: (لجأ).

(٣) في أ، ب «والشرع»، وفي ح٢ «الشرع».

(٤) في م زيادة «ما».

غير مقبول، ولا يعذر به أحد[1]، ولو اعتذر، فهو كلام باطل، لا يفيد شيئا البتة؛ بل يزيد في ذنب الجاني، وغضب[2] الرب عليه، وما هذا شأنه لا يشتغل به عاقل.

الثاني: أن الاعتذار بالقدر يتضمن تنزيه الجاني نفسه، وتبرئة[3] ساحته، وهو الظالم الجاهل، والحمل علىٰ القدر، ونسبة الذنب إليه، وتظليمه بلسان الحال والقال[4]، بتحسين العبارة وتلطيفها، وربما غلبه الحال، فصرح بالوجد[5]، كما قال بعض خصماء الله تعالىٰ:

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً، وقال له: إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالمَاء[6][7]

وقال خصم آخر:

---

(١) في ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق تقديم وتأخير «أحد به».

(٢) في ح١، ب، م، د، غ، ق، أ، ح٢ «ويغضب».

(٣) في ح٢، ب، ح١، غ، د، أ «وتنزيه».

(٤) في م، ح٢، ش «والمقال».

(٥) «بالوجد» ساقطة من م.

(٦) هذا البيت ذكره شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ٨/ ٤٤٦، بلفظ: ألقاه في البحر، وذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ٨٣، وشفاء العليل ٦، وذكره التلمساني في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٥/ ٢٩٢.

(٧) في هامش الأصل زيادة بيت هو:

من غص داووا بشرب الماء غصته فما التداوي لمن قد غُصَّ بالماء

وهذا البيت لأبي بكر بن أبي داود. انظر شعب الإيمان ٤/ ٤٦٥، مختصر شعب الإيمان ٤٥.

وضعوا اللحم للبزا ... ة علىٰ ذروتي عدن

ثم لاموا البزاة إذ[1] ... خلعوا عنهم الرسن

لو أرادوا صيانتي ... ستروا وجهك الحسن[2]

وقال خصم آخر:

أصبحت منفعلاً لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات [٨٥/ أ][3]

وقال خصم آخر شاكيا متظلّماً:

إذا كان المحب قليل حظ ... فما حسناته إلا ذنوب[4]

وقال[5] آخر معتذرا عن إبليس: إبليس لما[6] عصىٰ من كان إبليسه؟[7].

ولخصماء الله هاهنا تظلمات وشكايات، ولو فتشوا زوايا قلوبهم لوجدوا هناك خصماً متظلماً شاكياً عاتباً، يقول: لا أقدر أن أقول شيئاً، وإني مظلوم في صورة ظالم. ويقول بحرقة، وتنفس الصعداء: مسكين ابن آدم، لا قادر ولا معذور.

---

(١) في ح٢، ق، غ، م، ح١، أ، د «أن».

(٢) ذكر هذه الأبيات ابن الجوزي في تلبيس إبليس، ونسبها للشبلي ٥٠٥، وذكرها ابن القيم في طريق الهجرتين٨٣، وذكرها القلقشندي في صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء ١٤/ ٢٨٠.

(٣) سبق تخريج هذا البيت، ص٥٠٤.

(٤) لم أجد هذا البيت.

(٥) في ب، ح١، م، ح٢، ق، د، أ، غ زيادة «خصم».

(٦) في ح١، زيادة «كان».

(٧) لم أجده.

ويقول[١] الآخر : ابن آدم كرة تحت صولجانات[٢] الأقدار ، يضربها واحد ، ويردها الآخر ، وهل تستطيع الكرة الانتصاف من الصولجان[٣]؟.

ويتمثل خصم آخر بقول الشاعر :

بأبي أنت وإن أسـ ... ـرفت في هجري وظلمي[٤]

فجعله هاجرا بلا ذنب ظالماً ؛ بل مسرفاً ، قد تجاوز الحد في ظلمه ، ويقول الآخر :

أظلّت علينا منك يوماً سحابةٌ ... أضاءتْ لنا برقاً وأبطا رشاشُها

فلا غيمُها يجلو فييئَسُ طالبٌ ... ولا غيثُها يأتي فيروي عطاشها[٥]

ويقول خصم آخر :

يدنو إليك ونقص الحظ يبعده ... ويستقيم وداعي البين يلويه[٦]

---

(١) في غ ، أ ، ح١ ، ح٢ ، م « وقال ».

(٢) في ب « صولجان » ، وهو عصاً يعطف طرفها ، يضرب بها الكرة علىٰ الدواب ، وأما العصا التي اعوج طرفها خلقة في شجرتها فهي محجن.

انظر : لسان العرب ٤/ ٢٤٧٩ ، مختار الصحاح ٣٦٧.

(٣) في ب ، ش « الصولجانات ».

(٤) لم أجده.

(٥) هذان البيتان لبشار بن برد ؛ انظر ديوان بشار بن برد شرح مهدي بن محمد ناصرالدين ٥٤٦.

(٦) لم أجده .

ويقول خصم[1] آخر :

واقــــف في المـــــاء ظمــــآ ن ولكـــــن لـــيس يـــسقىٰ[2]

ومن له أدنىٰ فهم وبصيرة يعلم أن هذا كله تظلم وشكاية وعتب ، ويكاد أحدهم أن[3] يقول : يا ظالمي لولا . ولو فتش نفسه كما ينبغي لوجد ذلك فيها ، وهذا ما لا غاية بعده من الجهل والظلم ، والإنسان كما قال ربه[4] [٨٥/ ب] : ظلوم جهول ؛ ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر :١٥].

ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها ، وأنها أولىٰ بكل ذم وظلم ، وأنها مأوىٰ كل سوء، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة[5] : « كفور جحود لنعم الله ». قال الحسن رضي الله عنه : « هو الذي يعد المصائب ، وينسىٰ النعم ». وقال

---

(١) ساقطة من م ، ح١ ، أ ، د ، غ ، ق. وفي م ، ح٢ « ويقول الآخر ».

(٢) ذكر هذا البيت الغزالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٢٩٠ ، وابن الجوزي في المدهش ٣٢١.

(٣) ساقطة من م ، أ ، غ .

(٤) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « الله تعالىٰ » بدل « ربه ».

(٥) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري، حافظ العصر، وقدوة المفسرين والمحدثين، أحد التابعين ، ولد سنة ٦٠هـ ، كان حافظاً متقناً ، حجة إذا بين السماع ؛ لأنه مدلس ، ذكر الذهبي أنه ممن كان يرىٰ القدر ، كان رأسا في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها ، مات سنة ١١٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ ، طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩ ، طبقات خليفة ٢١٣.

أبوعبيدة[١] : « هو قليل الخير » ، والأرض الكنود[٢] : التي لا تنبت شيئا[٣]. وقال الفضيل بن عياض[٤] رحمه الله : «الكنود : الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان»[٥].

ولو علم هذا الظالم الجاهل أنه هو القاعد علىٰ طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه ، فهو حجر في طريق الماء الذي به حياتُه ، وهو السكر الذي قد سدَّ مجرىٰ الماء إلىٰ بستان قلبه ، ويستغيث مع ذلك : العطش ، وقد وقف في طريق الماء ، ومنع وصوله إليه ، فهو حجاب قلبه عن سر غيبه ، وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدىٰ علىٰ القلب، فما عليه أضر منه، ولا له عدو[٦] أبلغ

---

(١) في الأصل ، و ب زيادة « رضي الله عنه » ، وهي ليست في تفسير البغوي ، وقد نقل المؤلف عنه ذلك نصاً ، وأبو عبيدة : هو معمر بن المثنىٰ مولاهم البصري النحوي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ١١٠هـ ، كان عالما للسان وأيام الناس ، حدث عنه علي بن المديني ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وغيرهم له ما يقارب مائتي مصنف منها : مجاز القرآن ، غريب الحديث ، ومقتل عثمان ، وأخبار الحجاج ، كان يرىٰ رأي الخوارج ، مات سنة ٢٠٩. انظر : سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٤٥ ، شذرات الذهب ٢/ ٢٤.

(٢) في غ ، أ ، د ، ح١ ، ح٢ ، م ، ب ، ق زيادة « لا نبت بها ، قيل ».

(٣) في ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق زيادة « من المنافع ».

(٤) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ «الفضل بن عباس» بدل «الفضيل بن عياض»، وفي ق « الفصيل ».

(٥) ذكر تفسير ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وتفسير الأرض الكنود ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٢٧٧-٢٨٨ ، وذكر جميع ما ذكره ابن القيم هنا البغوي في تفسير الآية ٤/ ٥١٨.

(٦) في ش « عذر ». وفي ح١ ، أ ، غ « أعداء ».

عداوة منه[1].

مـا تبلـغ الأعـداء مـن جاهـل ... مـا يبلـغ الجاهـل مـن نفـسه[2]

فتبًّا له ظالما في صورة مظلوم، وشاكيا والجناية منه، قد جد في الإعراض، وهو ينادي : طردوني وأبعدوني. ولىّ ظهره الباب ؛ بل أغلقه علىٰ نفسه، وأضاع مفاتيحه وكسرها، ويقول :

دعـاني، وسـدَّ البـابَ دوني فهـل ... دخـولي سـبيل بيِّنـوا لي قـصَّتي[3]

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار، وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها، ويستغيث : ما حيلتي؟، وقد قدموني إلىٰ الحفرة[4]، وقذفوني فيها[1]. كم صاح

---

(١) في ح١، م، د، غ، ح٢، أ، ق العبارة هكذا : « أبلغ في نكايته وعداوته منه ».

(٢) هذا البيت لصالح عبد القدوس ؛ انظر : تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٣، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٩٧، الآداب الشرعية ٣/ ٥٦٧.

(٣) في ب، أ، ش « قضيتي » ؛ وقد ذكر هذا البيت ابن القيم في طريق الهجرتين ص ٨٣، وهذا البيت أحد أبيات القصيدة التي أوردها بعض المعتزلة وكتم اسمه وجعله علىٰ لسان بعض أهل الذمة وهذا السؤال هو :

أيـا علـماء الـدين ذمـي ديـنكم ... تحـير دلـوه بأوضـح حجـة

وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، قال السبكي : ويقال : إن الناظم هو ابن الثقفي الذي ثبت عليه أقوال تدل علىٰ الزندقة. انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٢٣٢، الدرة البهية شرح القصيدة التائية للسعدي ١٢.

(٤) في أ، ب، ح١، ح٢، غ « الحفيرة »، وفي م « حفرة ».

به الناصح : الحذر الحذر ، إياك إياك ، وكم أمسك بثوبه ، وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبىٰ إلا الاقتحام :

وكم سقت في آثاركم من [٨٦/ أ] نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح(١)

يا ويله ظهيراً للشيطان علىٰ ربه ، خصما لله مع نفسه ، جبري المعاصي ، قدري الطاعات ، عاجز الرأي مضياع لفرصته ، قاعد عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربه ، يحتج علىٰ ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته ، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره ، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه ، وقال : القدر ساقني إلىٰ ذلك. لما قبل منه هذه الحجة ، ولبادر إلىٰ عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك ، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك ؛ بل إذا أساء إليك مسيء ، وجنىٰ عليك جان ، واحتج بالقدر ، لاشتد غضبك عليه ، وتضاعف جرمه عندك ، ورأيت حجته داحضة ، ثم تحتج علىٰ ربك به ، وتراه عذرا لنفسك ؟ ، فمن أولىٰ بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك علىٰ مدىٰ الأنفاس ، أزاح عللك ، ومكنك من التزود إلىٰ جنته ، وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر ، وما تتزود به ،

---

(١) هذا البيت لعمارة بن عقيل ؛ انظر : جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ٢/ ١٦١.

وما تحارب به قطاع الطريق عليك ، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل كتابه[1] ، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك ، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته ، وأنت تأبىٰ إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم ؛ بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولىٰ بك ، قال[2] تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ [٨٦/ب] أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

طرد إبليس عن سمائه ، وأخرجه من جنته ، وأبعده من قربه ، إذ لم يسجد لك ، وأنت في صلب أبيك آدم ، لكرامتك عليه ، فعاداه وأبعده ، ثم واليت عدوه ، وملت إليه وصالحته ، وتتظلم مع ذلك ، وتشتكي الطرد والبعاد[3] [وتقول :

عودوني الوصال ، والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب][4]

---

(١) في أ ، ب ، ق ، غ ، م ، د ، ح٢ ، ح١ « وأنزل إليك كتابه ».

(٢) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « الله ».

(٣) في ح١ ، ح٢ ، م ، غ ، أ « الإبعاد ».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق. وهذا البيت ذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبي بكر الشبلي ١٠/ ٣٦٧.

نعم كيف لا يطرد من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من[1] هذا وصفه؟، وكيف يجعل من خاصته وأهل قربه من حاله معه هكذا؟، [قد أفسد ما بينه وبين الله وكدره][2].

أمره[3][4] بشكره، لا لحاجته إليه؛ ولكن لينال به المزيد من فضله، فجعل كفر نعمه، والاستعانة بها علىٰ مساخطه، من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانه سببا لنسيان الله له ﴿[نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾][5] [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أمره بسؤاله[6] ليعطيه، فلم يسأله؛ بل أعطاه أجل العطاء[7] بلا سؤال، فلم يقبل، يشكو من يرحمه إلىٰ من لا يرحمه، ويتظلم ممن[8] لا يظلمه، ويدع من يعاديه ويظلمه، إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه علىٰ معاصيه، وإن سلبه ذلك ظل متسخّطاً علىٰ ربه وهو شاكيه، لا يصلح له علىٰ عافية ولا علىٰ ابتلاء، العافية تلقيه إلىٰ مساخطه، والبلاء يدفعه إلىٰ كفرانه

---

(١) زيادة في ب، ح١، أ، غ زيادة: «كان».

(٢) زيادة من ح١، ب، م، د، ق، ح٢، أ، غ.

(٣) الضمير ساقط من ح١.

(٤) في ب، ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق.

(٦) في ب زيادة «له».

(٧) في ق، أ، د، ح١، ح٢، م، غ «العطايا».

(٨) في ش «من».

عافية ولا علىٰ ابتلاء ، العافية تلقيه إلىٰ مساخطه ، والبلاء يدفعه إلىٰ كفرانه وجحود نعمه[1] ، وشكايته إلىٰ خلقه.

دعاه إلىٰ بابه فما وقف عليه ولا طرقه، ثم فتحه له فما عرج عليه ولا ولجه، أرسل إليه رسوله يدعوه إلىٰ دار كرامته ، فعصىٰ الرسول ، وقال : لا أبيع ناجزاً بغائب ، ونقداً بنسيئة ، ولا أترك[2] ما أراه لشيء سمعت به ، [ويقول :

خذ ما تراه[3] ودع شيئا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل][4]

فإن وافق حظَّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيل حظِّه ، لا لرضىٰ مُرسِلِه ، لم يزل يتمقّت إليه بمعاصيه ، حتىٰ أعرض عنه ، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته ؛ بل قال : متىٰ جئتني قبلتك ، إن أتيتني ليلا قبلتك ، وإن أتيتني نهاراً قبلتك ، **«وإن تقربت [٨٧/ أ] مني شبراً تقربت[5] منك ذراعاً ، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً ، وإن مشيت إليّ هرولت إليك»**[6] ،

---

(١) في ش ، ب ، ح١ ، م ، أ ، غ « نعمته ».

(٢) في أ زيادة « شيئا ».

(٣) في أ ، م ، غ ، ح١ « ما رأيت ».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق ؛ وهذا البيت للمتنبي. انظر : شرح ديوان المتنبي ٣/ ٢٠٥.

(٥) في د ، ح٢ « اقتربت ».

(٦) أخرجه البخاري في التوحيد ، (١٣/ ٣٨٤) ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، قال : قال النبي ﷺ : « **يقول الله تعالىٰ : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً ، تقربت**

«ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي[١]، أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك»[٢]، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟.

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم علىٰ فرشهم، «إني[٣] والإنس والجن[٤] في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلىٰ العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمتي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيء إليَّ»[٥].

من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد، [ومن أعرض عني ناديته من قريب][٦]، ومن ترك لأجلي[٧] أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن

إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(١) في ش، غ، م، أ، ح٢، د، ق، ب، ح١ زيادة «شيئا».

(٢) أخرج الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٤٨)، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك علىٰ ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

(٣) في أ «وأني».

(٤) في ب، ح١، م، أ، غ تقديم وتأخير «والجن والإنس».

(٥) ورد ذلك في حديث قدسي، انظر الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي ٥/ ٢٢٣ والاتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوي ٤٦.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من ق، ح١، د، ب، أ، م، غ.

(٧) في ب زيادة «شيئا».

أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا[١] فأنا حبيبهم ، فإني[٢] أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب.

من آثرني علىٰ سواي أثرته علىٰ سواه ، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف ، إلىٰ أضعاف كثيرة ، والسيئة عندي بواحدة ، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها ، **«والله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض مهلكة دوية[٣] عليها طعامه وشرابه ، فطلبها حتىٰ[٤] يئس[٥] من حصولها ، فنام[٦] في أصل شجرة ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا هي علىٰ رأسه، قد تعلق خطامها بالشجرة ،**

---

(١) في ح١ ، ب ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « إلىٰ ».

(٢) في ب « وأنا ».

(٣) الدوية : الأرض القفر والفلاة الخالية الواسعة المستوية البعيدة الأطراف. لسان العرب ٢/ ١٤٦٢ ، مادة (دوا).

(٤) في أ ، ب ، ح١ ، م ، غ ، ق زيادة « إذا ».

(٥) في ب ، ح١ ، م ، غ « أيس ».

(٦) في أ ، ب ، ح١ ، م ، غ « نام ».

فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»[1].

وهذه فرحة إحسان وبر [٨٧/ ب] ولطف، لا فرحةُ محتاجٍ إلىٰ توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحسانا إليه، و محبة له وبرّاً منه، لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به في أمر: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]؛ فنفىٰ أن يكون له ولي من الذل، والله ولي الذين آمنوا، وهم أولياؤه. فهذا شأن الرب وشأن العبد، وهم يقيمون أعذار أنفسهم، ويحملون ذنوبهم علىٰ أقداره.

استأثر الله بالمحامد والمجـ ـد، وولّىٰ الملامةَ الرجلا[2]

وما أحسن قول القائل:

تطوي المراحل عن حبيبك دائباً وتظل تبكيه بدمعٍ سَاجِم[3]

كَذَبَتْكَ نفسُك لست من أحبابه تشكو البعاد وأنتَ عين الظّالم[4]

* * *

(١) ورد هذا المعنىٰ في حديث أخرجه البخاري في الدعوات، (١١/ ١٠٢)، ح: (٦٣٠٨)، عن عبد الله بن مسعود، وأخرجه مسلم في التوبة والفرح بها (٨/ ٢١٠٣) ح (٢٧٤٤) عنه.

(٢) البيت للأعشىٰ. انظر: ديوان الأعشىٰ، شرح محمد محمد حسين ٢٨٣.

(٣) بدمع ساجم، أي سائل، قال في مختار الصحاح: سجم الدمع سال.
مختار الصحاح ٢٨٧، مادة (سجم).

(٤) قرىٰ الضيف ٢/ ٢٧١.

فصل

فهذا أحد المعنيين في قوله : « إِنَّ مِنْ حَقَائِقِ التَّوبة : طَلَبُ أَعْذَارِ الخَلِيقَةِ ».

المعنى الثاني لطلب أعذار الخليقة

وقد ظهر لك بهذا : أن طلب أعذارهم في الجناية عائد علىٰ التوبة بالنقض والإبطال.

و[1] المعنىٰ الثاني : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجناياتهم عليك ، والنظر في ذلك إلىٰ الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر في حقك ، لا في حق ربك ، فهذا حق هو[2] من شأن سادات[3] العارفين ، وخواص أولياء الله الكمل ، يفنىٰ أحدهم عن حقه ، ويستوفي حقَّ ربه ، ينظر في التفريط في حقه ، والجناية عليه إلىٰ القدر ، وينظر في حق الله إلىٰ الأمر ، فيطلب لهم العذر في حقه ، ويمحو عنهم العذر ويبطله[4] في حق الله.

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « **ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، ولا نيل منه شيء فانتقم [٨٨/ أ] لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء ، حتىٰ ينتقم لله** »[5].

---

(١) الواو ساقطة من غ ، ش ، د ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق.

(٢) في ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « وهو ».

(٣) في ب زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٤) في غ ، ح١ « ويطلبه ».

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ، (٦/ ٥٦٦) ، ح : (٣٥٦٠) ، بلفظ : « وما انتقم رسول الله ﷺ

وقالت عائشة رضي الله عنها [أيضاً][1] : « **ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما ، ولا دابة ، ولا شيئا قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله**»[2].

وقال أنس رضي الله عنه : « **خدمت رسول الله**[3] **ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيء صنعته : لم صنعته؟ ، ولا لشيء لم أصنعه : لِمَ لَم تصنعه؟ ، وكان إذا عاتبني بعض أهله يقول : دعوه ، فلو قضي شيء لكان** »[4].

فانظر إلىٰ نظره إلىٰ القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حق الله ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها.

وكذلك عزمه علىٰ تحريق المتخلفين عن الصلاة معه في الجماعة ، ولم يقل : لو قضي لهم الصلاة لكانت[5].

[وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا ، ولم يحتج في ذلك لهما بالقدر.

لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها ». ومسلم في الفضائل ، (٤/ ١٨١٣) ، ح : (٢٣٢٧). وأخرج قوله : «ولا نيل منه شيء» مسلم (٤/ ١٨١٤) ، حديث : (٢٣٢٨) ، بلفظ : وما نيل منه شيء قط ، فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله ، فينتقم لله عز وجل.

(١) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، غ ، أ ، ب ، م ، ق ، ح٢ ، د.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ، (٤/ ١٨١٤) ، ح : (٢٣٢٨).

(٣) في غ ، أ ، ح١ ، م ، ح٢ « النبي ».

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا ، (٥/ ٣٩٥) ، وأخرجه في الأدب ، (١٠/ ٤٥٦) ، ح : (٦٠٣٨) ، وفي الديات ، (١٢/ ٢٥٣) ، ح : (٦٩١١) وأخرجه مسلم في الفضائل ، (٤/ ١٨٠٤) ، ح : (٢٣٠٩) ، والإمام أحمد (٣/ ٢٣١).

(٥) في م زيادة « زيادة ».

وكذلك فعله في العرنيين[١] الذين قتلوا راعيه ، واستاقوا الذود ، وكفروا بعد إسلامهم ، ولم يقل : قدر عليهم ؛ بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمرت أعينهم ، وتركوا في الحرة يستسقون فلا يسقون ، حتىٰ ماتوا عطشا. إلىٰ غير ذلك مما يطول بسطه][٢].

وكان رسول الله ﷺ أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر علىٰ ترك أمره ، أو يقبل الاحتجاج به من أحد ، ومع هذا فعذر أنسا بالقدر في حقه ، وقال : «لو قضي شيء لكان »[٣] ؛ فصلوات الله وسلامه عليه.

فهذا المعنىٰ الثاني ، وإن كان حقا ؛ لكن[٤] ليس[٥] من شرائط التوبة ، ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ، فإنه لو لم يقم أعذارهم في إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئا من توبته ، فما أراد إلا المعنىٰ الأول ، وقد عرفت ما فيه.

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر ، ويقيم عليهم حكم الأمر ، فينظر بعين القدر ويعذرهم بها ، وينظر بعين الأمر ويحملهم عليها ويأخذهم[٦] بموجبها ، فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر.

---

(١) « العرنيين » ساقطة من م ، ب ، ح١ ، ق.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من م ، ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٣) الحديث السابق ، وهذه اللفظة في رواية أحمد (٣/ ٢٣١).

(٤) « لكن » ساقطة من غ.

(٥) في ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « هو ».

(٦) سقط من غ ، د ، ح٢ ، ب ، أ ، قوله : « ويأخذهم ».

فهذا وإن كان حقا لا بد منه، فلا وجه لعذرهم، وليس عذرهم من التوبة في شيء البتة، ولو كان صحيحا فضلا عن كونه باطلا، فلا هم معذورون، ولا طلب عذرهم [٨٨/ ب] من حقائق التوبة؛ بل التحقيق: أن الغيرة لله[١]، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليقة في مخالفة الأمر والنهي، وشدة الغضب: هو من علامة[٢] تعظيم الحرمة، وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولىٰ من عذر مخالف[٣] الأمر والنهي. ولا سيما[٤] يدخل في هذا: عذر عباد الصلبان[٥] والأوثان، وقتلة الأنبياء، وفرعون وهامان، ونمرود بن كنعان، وأبو جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعدٍّ حدودَ الله، ومنتهكٍ محارمَ الله، فإنهم كلهم تحت القدر، وهم من الخليقة، أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة؟.

فهذا مما[٦] أوجبه السير علىٰ[٧] طريق الفناء في توحيد الربوبية، وجعله الغاية التي يشمر إليها السالكون.

ثم أي موافقة للمحبوب في عذر من لا يعذره هو؟ بل قد اشتد غضبه عليه،

---

(١) في ش «له» بدل «لله».

(٢) في غ، د، ح٢، أ، ح١، م «علامات».

(٣) في أ، ح٢، ح١، م، غ «مخالفة».

(٤) في ب زيادة «وهو».

(٥) في ق، ب، أ، ح١، غ، م، ح٢، د «الأصنام».

(٦) في ح٢، م «ما».

(٧) في أ، غ، ح١، «في».

وأبعده عن قربه ، وطرده عن بابه ، ومقته أشد المقت؟ ، فإذا عذرته ، فهل يكون عذره إلا تعرضا لسخط المحبوب ، وسقوطا من عينه؟.

ولا توجب هذه الزلة(١) من شيخ الإسلام إهدار محاسنه ، وإساءة الظن به ، فمحله من العلم والإنابة والمعرفة والتفقه(٢) في طريق السلوك المحل الذي لا يجهل ، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ(٣) صَلوات الله وسلامه عليه . والكامل من عُدَّ خطؤه ، ولاسيما في مثل هذا المجال الضنك، والمعترك الصعب ، الذي زلّت فيه أقدام، وضلّت فيه أفهام ، وافترقت بالسالكين فيه الطرقاتُ ، وأشرفوا إلا أقلهم علىٰ أودية الهلكات.

وكيف لا؟ ، وهو البحر الذي تجري سفينة راكبه به(٤) في موج كالجبال ، والمعترك(٥) الذي تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال ، وتحيرت فيه عقولُ ألبّاء الرجال ، ووصلت الخليقة إلىٰ ساحله يبغون ركوبه.

فمنهم من وقف [٨٩/ أ] مطرقا دهشا ، لا يستطيع أن يملأ منه عينه ، ولا ينقل عن موقفه قدمه ، قد امتلأ قلبه بعظمة ما شاهد منه ، فقال : الوقوف علىٰ الساحل أسلم ، وليس بلبيب من خاطر بنفسه. ومنهم : من رجع علىٰ عقبيه ،

---

(١) في ب ، أ ، ح١ « الزلقة ».

(٢) في ش ، ب ، أ ، ح١ ، غ ، ح٢ ، د ، ق ، م « التقدم ».

(٣) سقط من ح١ ، غ ، أ قوله : « الذي لا ينطق عن الهوىٰ ».

(٤) « به » ساقطة من أ.

(٥) في ب ، أ زيادة « الضنك ».

لما سمع[١] أصوات[٢] أمواجه ، ولم يطق نظرا إليه.

ومنهم : من رمىٰ بنفسه في لججه ، تخفضه موجة ، وترفعه أخرىٰ.

فهؤلاء الثلاثة علىٰ خطر ، إذ الوقوف[٣] علىٰ الساحل عرضة لوصول الماء إلىٰ[٤] تحت قدميه ، والهارب ولو جد في الهرب ، فما له مصير إلا إليه ، والمخاطر ناظر إلىٰ الغرق كل ساعة بعينيه ، وما نجا من الخلق إلا الصنف الرابع ، وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر ، فلما قربت منهم ناداهم الربان: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود : ٤١] ، فهي سفينة نوح حقا ، وسفينة من بعده من الرسل ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر ، فالقدر يجري[٥] بهم في تصاريف أمواجه علىٰ حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار ، فلم يكن[٦] إلا غفوة ، حتىٰ قيل لأرض الدنيا وسمائها : يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر[٧] ، واستوت علىٰ جودي دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة كقوم نوح أغرقوا ، ثم أحرقوا ، ونودي عليهم علىٰ

---

(١) في غ ، د ، ح٢ ، ب ، أ ، ح١ ، م ، ق زيادة « هديره ».

(٢) في غ ، د ، ح٢ ، أ ، ح١ ، م ، ق « وصوت ».

(٣) في ح١ ، د ، ح٢ ، أ ، غ « الواقف ».

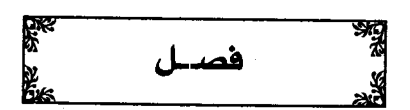
(٤) ساقطة من أ ، غ .

(٥) في ق ، ب ، م ، د ، أ ، غ ، ح١ ، ح٢ « فركبوا سفينة « الأمر بالقدر تجري ».

(٦) في ق ، م ، د ، أ ، غ ، ح١ ، ح٢ « يك ».

(٧) سقط من م قوله : « وقضي الأمر ».

رؤوس العالمين [﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : ٤٤]][1] ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف :٧٦] ، ثم نودوا[2] بلسان الشرع والقدر ، تحقيقا لتوحيده ، وإثباتا لحجته ، وهو أعدل العادلين : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٩].



فصل

دفع القدر بالقدر

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر ، وظيفته : مصادمة أمواج القدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك ، فيرد القدر بالقدر ، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين ، وهو[3] معنىٰ قول [٨٩/ ب] الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني[4][5] : « الناس إذا وصلوا إلىٰ القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا ،

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، ب ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق.

(٢) في ح١ ، غ ، أ « ثم نودي ».

(٣) في د « وهذا ».

(٤) في م « الجيلاني » بدل « الكيلاني » ، وهو شيخ الإسلام ، علم الأولياء ، أبو محمد ، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي ، شيخ بغداد ، ولد بجيلان في سنة ٤٧١هـ ، قدم بغداد شاباً فتفقه علىٰ أبي سعد المخرمي ، وسمع من غيره ، كانت له أحوال ومقامات ، له كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر ، وفي علوم المعرفة ، موافق للسنة ، له كتاب الغنية لطالبي طريق الحق ، وكتاب فتوح الغيب ؛ توفي في سنة ٥٦١هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩ ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٠ ، ذيل طبقات الحنابلة١/ ٢٩٠.

(٥) في ب زيادة « قدس سره ».

فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعا للقدر ، لا من يكون مستسلما مع القدر »[1] ، ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟.

والله تعالىٰ أمر أن تدفع السيئة وهي مِنْ قَدرِه بالحسنة وهي مِنْ قَدرِه ، وكذلك الجوع من قدره ، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره ، ولو استسلم العبد لقدر الجوع ، مع قدرته علىٰ دفعه بقدر الأكل حتىٰ مات ، مات عاصياً ، وكذلك البرد والحر والعطش ، كلها من قدره[2] ، وأمر بدفعها بأقدار تضادّها ، والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنىٰ كل الإفصاح ، إذ قالوا له[3] : يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوىٰ بها ، ورقىً نسترقي بها ، وتقىً نتقي بها ، هل ترد من قدر الله شيئا؟. قال : « **هي من قدر الله** »[4].

---

(١) ذكر هذا القول عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة العبودية ٥٢.

(٢) في ح١ ، غ ، أ « أقداره ».

(٣) « له » ساقطة من ب ، ح١ ، م ، غ ، أ.

(٤) أخرجه الترمذي في الطب (٤/ ٣٩٩) ، عن أبي خزامة عن أبيه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، أريت رقىً نسترقيها ودواء نتداوىٰ به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ ، قال : « هي من قدر الله » قال أبو عيسىٰ : هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه ابن ماجه في الطب ، (٢/ ١١٣٧) عن ابن أبي خزامة عن أبي خزامة ، قال : سئل رسول الله ﷺ ... الحديث. وأحمد (٣/ ٤٢١) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩) ، عن أبي خزامة عن أبيه ، وأخرجه أيضا عن حكيم ابن حزام ، وحكم علىٰ حديث حكيم بالصحة، ووافقه الذهبي.

وفي الحديث الآخر : « إن الدعاء والبلاء ليعتلجان[1] بين السماء والأرض»[2].

والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٣٤٩) ، وفي الاعتقاد (٨٩-٩٠) ، ثم قال : والذي يشهد لهذا الحديث بالصحة قوله ﷺ : « كل ميسّر لما خلق له » ، فهو إذا تداوىٰ ، أو استرقىٰ ، أو اتقىٰ ، فبتقدير الله وتيسيره أمكنه ذلك ، ولو لم يقدره لم يتيسر منه فعل ذلك.

قال ابن عبد البر : وأبو خزامة هذا من التابعين لا من الصحابة ، علىٰ أن حديثه هذا مختلف فيه جداً. الاستيعاب بذيل الإصابة (١١/ ٢١٣).

وقال الألباني عن الحديث : ضعيف. انظر : ضعيف ابن ماجه ص ٢٨٠ ، وضعفه محققو مسند الإمام أحمد ٢٤/ ٢١٧-٢٢٠.

(١) معنىٰ يعتلجان : أي يتصارعان. انظر : النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٨٦).

(٢) هذا الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقىٰ البلاء فيعتلجان إلىٰ يوم القيامة** ». المعجم الأوسط (٣/ ٢٤٢).

وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢) بلفظ : « **... وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلىٰ يوم القيامة**». هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه. قال الذهبي : زكريا مجمع علىٰ ضعفه.

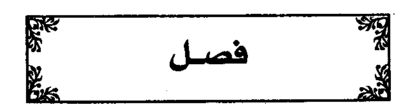
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١٠٦٨) في ترجمة زكريا بن يحيىٰ بن منظور ، قال ابن عدي : وزكريا ليس له أحاديث أنكر مما ذكرته ، وله غير ما ذكرته من الحديث غرائب ، وهو ضعيف كما ذكروه ، إلا أنه يكتب حديثه.

وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٦) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور ، وثقه أحمد بن صالح المصري ، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات.

وأورده الخطابي في شأن الدعاء بلفظ : **إن الدعاء والقضاء يلتقيان فيعتلجان ما بين السماء والأرض** ». شأن الدعاء ص ٨.

وإذا طرق العدو الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله ، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر ، وترك دفعه بقدر مثله ، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟.

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك ، وفعلتها بالقدر ، فادفع موجبها بالتوبة النصوح ، وهي من القدر.



فصل

ودفع القدر بالقدر نوعان :

أنواع دفع القدر بالقدر

أحدهما : دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع ، بأسباب أخرىٰ من القدر تقابله ، فيمتنع وقوعه ، كدفع العدو بقتاله ، ودفع البرد والحر[1] ونحوه.

الثاني : دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله ، كدفع [٩٠/ أ] قدر المرض بقدر التداوي ، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة ، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار ، لا الاستسلام لها ، وترك الحركة والحيلة ، فإنه عجز ، والله تعالىٰ يلوم علىٰ العجز. فإذا غُلِب[2] ، وضاقت به الحيل ، ولم يبق له مجال ، فهنالك الاستسلام للقدر ، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء[3] ، وهنا ينفع الفناء في القدر ، علما وحالا

---

(١) في ق ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، د « الحر والبرد ».

(٢) في ب « غلبه ».

(٣) في ق ، غ ، ح٢ ، أ ، د ، م ، ح١ « يشاء ».

وشهودا ، وأما في حال القدرة ، وحصول الأسباب ، فالفناء النافع : أن يفنىٰ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواه بأمر الله ، وعن إرادته و محبته بإرادة الله و محبته[1] ، وعن حوله وقوته بحول الله وقوته وإعانته ، فهذا الذي قام بحقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» علماً وحالاً ، و[2] الله المستعان.

فصل

سرائر حقائق التوبة

قال صاحب المنازل رحمه الله : « **وَسَرَائِرُ[3] حَقِيقَةِ التَّوبَةِ ثَلاثَةُ أَشْيَاء : تَمييزُ التَّقيةِ من العِزَّةِ ، وَنِسْيانُ الجنَايةِ ، وَالتَّوبَةُ مِنَ التَّوبَة ، لأَنّ التَّائِبَ دَاخِلٌ فِي الجَميعِ مِن قَولِهِ تَعَالىٰ : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [النور: ٣١] ، **فأَمَرَ التَّائِبَ بالتَّوبةِ**»[4]. يريد بتمييز[5] التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوىٰ الله ، وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ، فيعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله يرجو ثواب الله ، ويترك

---

(١) في الأصل ، ش « وعن إرادته و محبته بمحبة الله تعالىٰ ».

(٢) في ب ، ح١ ، م ، غ ، أ ، ح٢ زيادة الباء.

(٣) سرائر : جمع سريرة ، وهي الشيء الذي يكتم ، وهي تستعمل في الأعيان والمعاني ، قال التلمساني في شرح المنازل : السرائر هي البواطن ، يعني حقيقة التوبة لها بواطن غير ظواهرها المذكورة قبل.

انظر : المفردات ٢٣٤ ، مختار الصحاح ٢٩٤ ، شرح المنازل للتلمساني ١/ ٦٤.

(٤) انظر : منازل السائرين ص ١٣-١٤ ، وفيه : والتوبة من التوبة أبداً ، وليس فيه قوله تعالىٰ : ﴿... أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ .

(٥) في الأصل أ «يريد تمييز» ، وفي ق، غ، ح١ ، د بدون «يريد» ، والمثبت من ش، ح٢، م، ب.

معصية الله علىٰ نور من الله تعالىٰ[1]، يخاف عقاب الله[2]، لا يريد بذلك عز الطاعة، فإن للطاعة وللتوبة عزا ظاهرا وباطنا، فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة، وفي بعض الآثار: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبي من الأنبياء: قل لفلان الزاهد: أما زهدك [٩٠/ ب] في الدنيا [فقد][3] تعجلت به الراحة. وأما انقطاعك إليّ: فقد اكتسبت به العزة، ولكن ما عملت فيما لي عليك؟. قال يا رب، وما لك عليّ بعد هذا؟. قال: هل واليت فيَّ وليًّا، أو عاديت فِيَّ عدواً؟»[4].

يعني أن الراحة والعز حظك، وقد نلتهما بالزهد والعبادة؛ ولكن أين القيام بحقي، وهو الموالاة فيّ والمعاداة [فيّ][5].

فالشأن في التفريق في الأوامر بين حظك وحق ربك علماً وحالاً.

وكثير من الصادقين[6] يلتبس[7] عليهم حال نفوسهم في ذلك، ولا يميزه إلا

---

(١) سقط من أ قوله: «يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله علىٰ نور من الله».

(٢) هذا التعريف للتقوىٰ ذكره أبو نعيم في الحلية ٣/ ٦٤ عن طلق بن حبيب أنه لما سأله بكر بن عبد الله عن التقوىٰ، قال: اعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، والتقوىٰ ترك المعاصي علىٰ نور من الله، مخافة عقاب الله عز وجل. وذكر ذلك عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١، وقد ذكره القشيري في الرسالة مختصراً، وذكر تعاريف أخر للتقوىٰ عن آخرين. انظر: الرسالة ١٠٤-١٠٩.

(٣) زيادة من ق، ب، د، م، ح١، ح٢، غ، أ.

(٤) لم أجده.

(٥) زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق.

(٦) في ب، ح١، أ، غ، زيادة «قد».

(٧) في ش، ب، ح١، أ، غ «تلتبس».

أولوا البصائر منهم ، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأما نسيان الجناية : فهذا موضع تفصيل ، وقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم : من رأىٰ الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحا ، بصفاء[1] الوقت مع الله تعالىٰ أولىٰ بالتائب وأنفع له ، ولهذا قيل : ذكر الجفا في وقت الصفا جفا[2].

ومنهم : من رأىٰ أن الأولىٰ أن لا ينسىٰ ذنبه ؛ بل لا يزال نصب عينيه يلاحظه كل وقت ، فيحدث له ذلك انكسارا وذلاً وخضوعاً ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته[3].

قالوا : ولهذا[4] نقش داود الخطيئة في كفه ، وكان ينظر إليها ويبكي.

قالوا : ومتىٰ تُهْتَ عن الطريق فارجع إلىٰ ذنبك تجد الطريق.

ومعنىٰ ذلك : أنك إذا رجعت إلىٰ ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدي الله ، خاشعاً ذليلا خائفا. وهذه طريق العبودية.

والصواب : التفصيل في هذه المسألة ، وهو أن يقال : إذا أحس من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوىٰ ، ورقيقة من العجب ونسيان المنة ،

---

(١) في ب ، ح١ ، أ ، غ ، م « فصفاء ».

(٢) ذكر هذا القول التلمساني في شرح المنازل ١/ ٦٥ ، وذكر القشيري في الرسالة هذه المقولة عن الجنيد ، وقد فسر التوبة لما سئل عنها ، فقال : أن تنسىٰ ذنبك ، ثم قال : لأني كنت في حال الجفاء، فنقلني إلىٰ حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء. انظر: الرسالة ٩٥.

(٣) وإلىٰ هذا القول ذهب سهل بن عبد الله ، والسري. انظر : الرسالة ٩٥.

(٤) في الأصل ، ش ، ح١ ، ب زيادة « كان ».

وخطفته(١) نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فذِكْر الذنب أنفع له ، وإن كان في حال مشاهدة منَّة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وقيامه(٢) به ، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته ، وقد خالط [٩١/ أ] قلبه حال المحبة ، والفرح بالله ، والأنس به ، والشوق إلىٰ لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه. وقد أشرقت علىٰ قلبه أنوار الأسماء والصفات ، فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولىٰ به وأنفع له(٣). فإنه متىٰ رجع إلىٰ ذكر الجناية تواریٰ عنه ذلك ، ونزل من علو إلىٰ سفل(٤) ، ومن حال إلىٰ حال ، بينهما من التفاوت أبعد ما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له ، أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق إلىٰ وحشة الإساءة ، وحصر الجناية.

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله منّ بها عليه ، ليؤمنه بها من مقت الدعوىٰ ، وحجاب الكبر الخفي الذي لا يشعر به ، فهذا لون وهذا لون.

وهذا أمر الحكم(٥) فيه أمر وراء العبارة(٦) ، وبالله التوفيق ، وهو المستعان.

---

(١) في م « وخفيته له » بدل « وخطفته ».

(٢) في ش « وكماله ». وفي ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، أ « وفنائه ».

(٣) « له » ساقطة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق.

(٤) في أ ، غ « أسفل ».

(٥) في ش ، ح١ ، ح٢ ، ب ، م ، د ، غ ، أ ، ق « المحكّم ».

(٦) في ش « العبادة ».

فصل

معنى التوبة من التوبة

وأما « التوبة من التوبة » : فهي[1] من المجملات التي يراد بها حق وباطل ، ويكون مراد المتكلم بها حقًّا ، فيطلقه من غير تمييز.

فإن التوبة من أعظم[2] الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات، وأقبح الجنايات ؛ بل هو كفر ، إن أخذ علىٰ ظاهره ، ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان ؛ فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان؟.

ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته ، ولو خلي ونفسه لم تسمح بها البتة ، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به ، وغفل عن منة الله عليه ، تاب من هذه الرؤية والغفلة ؛ ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة ، ولا جزءا منها ، ولا شرطا لها ؛ بل هي جناية أخرىٰ عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولىٰ [٩١/ ب] فما تاب إلا من ذنب ، أولاً وآخراً. فكيف يقال : يتوب من التوبة ؟[3].

---

(١) في د ، ح٢ « فهو ».

(٢) في د تقديم وتأخير « التوبة أعظم من ... ».

(٣) قال الكاشاني عند تفسيره لمصطلح « التوبة من التوبة » قال : ومنها أن العبد متىٰ رأىٰ لنفسه قدراً بتوبته ، فقد يداخله العجب الذي هو ذنب في الحقيقة ، فوجب عليه أن يتوب من مثل هذه التوبة التي دعته إلىٰ الإعجاب. لطائف الإعلام ١/ ٣٥٤.

وهذا يبين لنا مرادهم بهذه العبارة وهو أن التوبة وقعت من توبة صادرة من التائب ، وهي

هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح في نفسه ؛ بل قد يكون في التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك ، وقد لا يشعر[1] فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها.

وهذا أيضا ليس توبة من التوبة ، وإنما هو توبة من عدم التوبة ، فإن القدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها ، والقدر المفقود منها هو الذي يحتاج أن يتوب منه.

فالتوبة من التوبة إنما تعقل علىٰ أحد هذين الوجهين.

نعم ، هاهنا وجه ثالث لطيف جداً ، وهو أن من حصل له مقام أنس بالله ، وصَفَا وقتُه مع الله ، بحيث يكون إقباله علىٰ الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له ، حتىٰ نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها ، وطالع الجناية واشتغل بها عن الله تعالىٰ ، فهذا نقص ينبغي له أن يتوب إلىٰ الله منه ، وهو توبة من هذه التوبة ؛ لأنه نزول من الصفاء إلىٰ الجفاء ، والله أعلم[2].

التوبة التي دعته إلىٰ الذنب ، لا من الذنب الذي حصل بعد التوبة وهو العجب ، وهذا يرد علىٰ تساؤل ابن القيم ـ رحمه الله ـ بقوله : فكيف يقال : يتوب من التوبة؟ ؛ فيقال علىٰ مذهبهم: يجوز منه ذلك، وهذا ما أشار إليه بقوله: والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات ؛ بل هو كفر إن أخذ علىٰ ظاهره...

(١) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ق زيادة « به ».

(٢) ذكر هذا المعنىٰ الثالث التلمساني في شرح المنازل ٦٥ ، وذكره أيضا الكاشاني، وغيره. انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣٥٤.

فصل

لطائف أسرار التوبة

قال صاحب المنازل : « وَلَطَائِفُ[١] أَسْرَارِ التَّوْبَةِ ثَلاثَةُ أَشْيَاء : أَوَّلُهَا[٢] : أَنْ تَنْظُرَ[٣] إلىٰ[٤] الجِنَايَةِ وَالقَضِيَّةِ[٥] ، فَتَعْرِفَ[٦] مُرَادَ الله فِيهَا ، إِذْ خَلاَّكَ وإتْيانها فَإنَّ الله عزَّ وَجَلَّ إنَّما يُخَلِّيَ[٧] العَبْدَ والذَّنْبَ لأَحد[٨] مَعْنَيَيْنِ.

أَحَدُهمَا : أَنْ يَعرِفَ عِزَّته في قَضَائِهِ ، وَبِرَّهُ فِي سِتْرِهِ ، وَحِلْمَهُ فِي إِمْهَالِ رَاكِبِهِ ، وَكَرَمَهُ في قَبُولِ العُذْرِ مِنْهُ ، وَفضْلَهُ فِي مَغْفِرَتِهِ.

الثَّاني : أَنْ يُقِيمَ عَلَىٰ عَبْدِهِ حُجَّةَ عَدلِهِ ، فَيُعَاقِبَهُ عَلَىٰ ذَنْبِهِ بِحُجَّتِهِ»[٩].

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلىٰ خمسة أمور :

أحدها : أن ينظر إلىٰ الوعد والوعيد ، فيحدث له ذلك خوفاً وخشية ،

---

(١) لطائف : جمع لطيفة ، وهي كل إشارة رقيقة المعنىٰ ، تلوح في الفهم لا تسعها العبارة.
لطائف الإعلام ٢/ ٢٥٩ ، التعريفات ٢٤٦ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٨٣.

(٢) في م « أقلها ».

(٣) في م ، ح٢ ، غ ، أ ، ق ، ب « ينظر ».

(٤) « إلىٰ » ساقطة من غ .

(٥) في الأصل ، ش « المعصية » ، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في المنازل.

(٦) في م ، د ، ح٢ ، ق ، ب « فيعرف » ، وفي غ « فيتعرف ».

(٧) في م ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ « خلىٰ ».

(٨) في م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ح١ « لأجل ».

(٩) منازل السائرين ص ١٤.

يحمله علىٰ التوبة[١].

الثاني : أن ينظر إلىٰ أمر الله تعالىٰ له ونهيه ، فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة ، والإقرار [٩٢/ أ] علىٰ نفسه بالذنب.

الثالث : أن ينظر إلىٰ تمكين الله تعالىٰ [له][٢] منها[٣] ، وتخليته بينه وبينها ، وتقديرها عليه ، وأنه لو شاء لعصمه منها[٤] ، وحال بينها وبينه[٥] ، فيحدث له ذلك أنواعا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته وعفوه ، وحلمه وكرمه ، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء ، ولا تحصل بدون لوازمها البتة ، ويعلم ارتباط الخلق والأمر ، والجزاء بالوعد[٦] والوعيد بأسمائه وصفاته ، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات ، وأثرها في الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه ، متعلق به لا بد منه.

وهذا المشهد يطلعه علىٰ رياض مؤنقة[٧] من المعارف والإيمان ، وأسرار

---

(١) هذا الأول هو الثاني، والثاني الذي سيأتي ذكره بعد هذا هو الأول في ح١، ح٢، د، غ، أ، ق.

(٢) زيادة من سائر النسخ.

(٣) ساقطة من أ .

(٤) في غ « عنها ».

(٥) في ب ، ح١ ، م ، د ، أ ، غ تقديم وتأخير « بينه وبينها ».

(٦) في غ ، ح١ « والوعد ».

(٧) مؤنقة : أي معجبة لحسنها. قال ابن منظور : والأنق : حسن المنظر ، وإعجابه إياك ، والأنق الفرح والسرور. وقال : وآنقني الشيء ، يؤنقني إيناقا : أعجبني.
لسان العرب ١/ ١٥٣ ، وانظر : القاموس المحيط ٣/ ٢١٠ ، مادة (أنق).

القدر والحكمة، تضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم[1].

المعنى الأول معرفة عزته في قضائه سبحانه

فمن بعضها: ما ذكره الشيخ رحمه الله: «أن يعرف العبد عزته في قضائه» وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي ما[2] يشاء، وأنه لكمال عزه حكم علىٰ العبد وقضىٰ عليه، بأن قَلَّبَ قلبَه وَصَرَفَ إرادتَه علىٰ ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة، إذ لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله تعالىٰ، وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهرك، وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولىٰ به وأنفع له؛ لأنه يصير مع الله تعالىٰ لا مع نفسه[3].

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مُدبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضا في قضائه: أن يشهد أن [٩٢/ ب] الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولىٰ بالنقص والذم، والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذلِّه ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده

---

(١) في ح١ «المتكلم».

(٢) في ح١، غ، أ «بما».

(٣) ذكر مثل هذا المعنىٰ التلمساني في شرح المنازل ١/ ٦٦.

لعزة الله تعالىٰ، وكماله، وحمده، وغناه، وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذلته تطلعه علىٰ مشهد العزة.

ومنها: أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هي معصية، فإذا شهد[1] جريان الحكم عليه، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له، ولا مريد[2] بإرادته ومشيئته واختياره، فكأنه مختار غير مختار، مريد غير مريد، شاءٍ غير شاءٍ، فهذا يشهده عزة الله وعظمته، وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف برَّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له[3]، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه «البر»، وهذا البر من سيده به مع[4] كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن ذل[5] الخطيئة، فيبقىٰ مع الله، وذلك أنفع له من اشتغاله بجنايته، وشهود ذل معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه هو المطلب الأعلىٰ، والمقصد الأسنىٰ.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقا؛ بل في هذه الحال، فإذا فقدها

---

(١) في ح٢ زيادة «العبد».

(٢) في ح١ «ولا مريدا». وفي غ «ولا يريد».

(٣) في ب «لها».

(٤) في ح١ «نفع» بدل «مع»، وفي ب «نفي».

(٥) في ق، د، ح٢، غ، ح١، أ، م «ذكر».

فليرجع إلىٰ مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها : شهوده[١] حلم[٢] الله سبحانه وتعالىٰ في إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ؛ ولكنه الحليم الذي لا يعجل ، فيحدث له ذلك معرفته سبحانه باسمه « الحليم » ، ومشاهدة صفة « الحلم » ، والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب أحب إلىٰ الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع له[٣] من فوتها ، ووجود [٩٣/ أ] الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها : معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار ، لا بالقدر ، فإنه مخاصمة و محاجة كما تقدم ؛ فيقبل عذره بكرمه وجوده. فيوجب له[٤] ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، و محبة أخرىٰ لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك علىٰ إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها أضعاف[٥] محبتك علىٰ شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ؛ فعبودية التوبة بعد الذنب لون آخر.

ومنها : أن يشهد فضلَه في مغفرته ، فإن المغفرة فضلٌ من الله تعالىٰ ، وإلا

(١) في ب ، ح١ ، غ ، أ « شهود ».

(٢) في د ، ق « حكم ».

(٣) « له » ساقطة من ح١ ، م ، غ ، أ ، ح٢ ، د ، ق.

(٤) « له » ساقطة من د .

(٥) في أ « أضعاف أضعاف ».

فلو واخذنا بالذنب لواخذ بمحض حقِّه، وكان عادلاً محموداً، وإنما غفره بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضا شكراً له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه «الغفّار»، ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية، والمعرفة والمحبة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه. فإن النفس فيها مضاهاة الربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون؛ ولكنه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر، وإنما يخلّصها من هذه المضاهاة ذلُّ العبودية، وهو أربع مراتب:

مراتب ذل العبودية

المرتبة الأولىٰ: مشتركة بين الخلق، وهي ذل الحاجة والفقر إلىٰ الله تعالىٰ. فأهل السماوات والأرض محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغني(١)، وكل أهل السماوات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحداً.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية. وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل [٩٣/ ب] طاعته، وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات لمحبوبه، وعلىٰ قدر محبته له يكون ذله له(٢)، فالمحبة أسست علىٰ الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضعْ وذُلَّ لمن تُحبُّ فليس في ... حكمِ الهَوىٰ أَنْفٌ يُشَالُ ويُعقَدُ(٣)

---

(١) في ق، ب، ح١، ح٢، م، غ زيادة «عنهم».

(٢) «له» ساقطة من ح١، م، غ، أ، ح٢، د.

(٣) ذكر هذا البيت ابن القيم في طريق الهجرتين ٢٩٤.

وقال آخر :

مساكيُن أهل الحب ، حتىٰ قبورُهم   عليها تـرابُ الـذلِّ بـين المقـابرِ[1]

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع ، كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفا وخشية ، و محبة وإنابة ، وطاعة ، وفقرا وفاقة.

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذي يشير إليه القوم[2] ، وهذا المعنىٰ أجل من أن يسمىٰ بالفقر ؛ بل هو لبُّ العبودية وسرُّها ، وحصوله أنفع شيء للعبد ، وأحب شيء إلىٰ الله.

فلا بد من تقدير لوازمه ، من أسباب الضعف ، والحاجة ، وأسباب العبودية والطاعة ، وأسباب المحبة والإنابة ، وأسباب المعصية والمخالفة ، إذ وجود

---

(١) ذكر هذا البيت القرطبي في تفسيره ، ولم ينسبه لقائل معين. انظر : الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٥٤.

(٢) انظر الكلام علىٰ الفقر عند القوم في الكتب التالية :

التعرف لمذهب أهل التصوف ١١٢ ، الرسالة القشيرية ٢٧١ ، منازل السائرين ٧١ ، عوارف المعارف ٢٣٥ ، لطائف الإعلام ٢/ ٢١١.

وقد تكلم ابن القيم عن منزلة الفقر عند شرحه لكلام الهروي ؛ انظر : مدارج السالكين (٢/ ٤٣٨) ، وقال عن منزلة الفقر : هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم ، وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة ، وسرها ولبها وغايتها ... ثم قال : ومراد القوم بالفقر شيء أخص من هذا كله ، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلىٰ الله تعالىٰ في كل حالة ، وهذا المعنىٰ أجل من أن يسمىٰ فقراً بل هو حقيقة العبودية ولبها ، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والفايت من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته ، ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده ، والحكمة مبناها علىٰ دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وقد فتح لك الباب ، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل ، وإلا فرد الباب ، وارجع بسلام.

ومنها : أن أسماءه الحسنىٰ تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها ، فاسم « السميع ، البصير » يقتضي مسموعا ومبصرا ، واسم « الرزاق » يقتضي مرزوقا ، اسم « الرحيم » يقتضي مرحوما ، وكذلك اسم « الغفور ، والعفو ، والتواب ، والحليم » يقتضي من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، ويحلم عنه(١) ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات ، إذ هي أسماء حسنىٰ ، وصفات كمال[٩٤/ أ](٢) ، ونعوت جلال ، وأفعال حكمة وإحسان وجود(٣) ، فلا بد من ظهور آثارها في العالم ، وقد أشار إلىٰ هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه ، حيث يقول : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، ثم يستغفرون فيغفر لهم** »(٤).

---

(١) في ش « له » بدل « عنه ».

(٢) (٩٤/أ).

(٣) في ش ، ح١ ، ب « وجوده ».

(٤) أخرجه مسلم في التوبة ، (٤/٢١٠٦) ، ح : (٢٧٤٩) ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وعن أبي أيوب ، بلفظ مقارب. وأخرجه الإمام أحمد (٢/٣٠٩) ، عن أبي هريرة. وأخرجه الترمذي عن أبي أيوب ، بلفظ مقارب في الدعوات ، (٥/٥٤٨).

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوما ، فلمن يرزق الرزاق سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم ، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلىٰ من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدَّتْ ، والعبيد أغنياء معافون ، فأين السؤال والتضرع والابتهال ، والإجابة وشهود الفضل والمنة ، والتخصيص بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّفَ إلىٰ خلقه بجميع[1] التصرفات[2] ، ودلّهم عليه بأنواع الدلالات ، وفتح لهم إليه جميع الطرقات ، ثم نصب إليه الصراط المستقيم ، وعرّفهم به ، ودلهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : ٤٢].

فصل

فرح الله بتوبة عبده

ومنها : السر الأعظم ، الذي لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، لولا ينادي عليه منادي الإيمان علىٰ رؤوس الأشهاد ، فشهد به قلوب خواص العباد ، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له ، وطمأنينة به وشوقا إليه ولهجا بذكره ، وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه ، ومطالعة لسر العبودية ، وإشرافا علىٰ حقيقة الإلهية ، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لله أفرح بتوبة عبده ، حين يتوب**

(١) في ح١ ، م ، ب ، غ ، أ ، ح٢ ، د ، ق زيادة « جميع أنواع ».

(٢) في ح١ ، م ، ب ، غ ، أ ، ح٢ ، د ، ق « التعرفات ».

إليه من أحدكم ، كان علىٰ راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ[1] هو[2] بها[3] قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال : - من شدة الفرح - اللهم أنت [٩٤/ ب] عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح ».

هذا لفظ مسلم[4].

وفي الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذي يجري علىٰ لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ، أو نحوه ، لا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكن هذا كافرا بقوله : « أنت عبدي وأنا ربك ».

ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلىٰ هذه الحال ، أو أعظم منها ، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام ، ولا يقع طلاقه بذلك ، ولا ردّته ، وقد نص الإمام أحمد رضي الله عنه علىٰ تفسير الإغلاق في قوله ﷺ : «لا طلاق في إغلاق»[5] بأنه الغضب،

---

(١) في ح١ « إذا ».

(٢) في أ « هي ».

(٣) ساقطة من أ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وسبق تخريجه ص٥٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود في الطلاق ، (٢/ ٦٤٢) ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وفسر أبو داود الإغلاق بالغضب. وابن ماجه في الطلاق ، (١/ ٦٦٠). والإمام أحمد (٦/ ٢٧٦). والحاكم (٢/ ١٩٨) ، وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : كذا قال ، و محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم ، وقال أبو حاتم : ضعيف. والبيهقي في السنن (٧/ ٣٥٧). وقد حسن الحديث الألباني ، كما في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٩).

وفسره به غير واحد من الأئمة ، وفسروه بالإكراه ، وفسروه بالجنون[١].

قال شيخنا رحمه الله : وهو يعم هذا كله ، وهو من الغلق ، لانغلاق قصد المتكلم عليه ، فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنىٰ ما قاله.

والقصد أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه ، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله. وقد كان الأولىٰ بنا طي الكلام فيه إلىٰ ما هو[٢] اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم ، ومهانة أقدامهم من المعرفة ، وضعف عقولهم عن احتماله.

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلىٰ تجارها ، ومن هو عارف بقدرها ، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفا بها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه.

فاعلم أن الله سبحانه اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله ، وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته و محبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما ، حتىٰ ملائكته الذين هم أهل قربه استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله[٣] وأرسل إليه ،

---

(١) قال القاضي عياض في مشارق الأنوار ٢/ ١٣٤ : قوله : «لا طلاق في إغلاق» ، قال ابن قتيبة : هو الإكراه عليه ، وهو من أغلقت الباب ، وإلىٰ هذا ذهب مالك ، وقيل : الإغلاق هنا : الغضب ، وإليه ذهب أهل العراق. وانظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٧٩.

(٢) في ش تقديم وتأخير « هو ما ».

(٣) في ق « ورسوله » ، وفي الأصل ، ش ، ح٢ ، م ، ب « ورسله » ، وما أثبته من : أ ، غ ، د ، ح١ ، وهو الأنسب لسياق الكلام.

وخاطبه وكلمه [٩٥/ أ] منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحباء[1]، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضعَ حبِّه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره علىٰ النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيديه[2]، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماءَ كلِّ شيء، وأظهر فضله علىٰ الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين واتخذه عدوّاً له.

فالمؤمنون من نوع الإنسان خير البرية علىٰ الإطلاق، وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسان الله إليه[3]، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر علىٰ باله، ولم يشعر به؛ ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره علىٰ ما سواه، فاتخذه محبوبا له، وأعدّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له

---

(١) في م، ق، د، غ، ح١، ح٢ «الأحبار»، وفي أ «الأحباب».

(٢) في ش، ح١، ب، غ، أ، ح٢ «بيده».

(٣) في ح٢، ح١، أ، غ، د، ق، م، ب «إحسانه إليه».

وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه[1].

وللمحبوب عدو ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه علىٰ ربهم ، وكانوا أعداء[2] له مع هذا العدو ، يدعون إلىٰ سخطه ، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه ، ويفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذىٰ ، ويجتهدون[3] علىٰ إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه ، وتبديله بكل[4] [٩٥/ ب] ما يسخطه ويكرهه ، فعرفه بهذا العدو[5] وطرائقهم[6] وأعمالهم ومآلهم ، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

تعلق التوبة بصفات الجود والإحسان

وأخبره في عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته ، وأنه قد أفاض علىٰ خلقه النعمة ، وكتب علىٰ نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء[7] والبر ، وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله

---

(١) في م « عينيه ».
(٢) في الأصل ، ش « أهلا ».
(٣) في م ، ق ، د ، غ ، أ ، ح١ ، ح٢ « ويجهدون ».
(٤) في الأصل ، ش « بدل » ، وفي م ، ح٢ « وكلما ».
(٥) في ب زيادة « وحزبه ».
(٦) في ق « وطريقهم ».
(٧) « العطاء » ساقطة من ب.

له ، وأحب ما إليه أن يجود علىٰ عباده ويوسعهم فضلا ، ويغمرهم إحسانا وجودا ، ويتم عليهم نعمه ، ويضاعف لديهم مننه[1] ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته ، وَجُودُ كلِّ جوادٍ خلقه الله ، ويخلقه أبدا أقل من ذرة بالقياس إلىٰ جوده ، فليس الجواد علىٰ الإطلاق إلا هو ، وجودُ كلِّ جوادٍ فمن جوده ، و محبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق ، أو يدور في أوهامهم ، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه أحوج ما هو إليه ، وأعظم ما كان قدرا ، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطىٰ؟ ، ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، ولله المثل الأعلىٰ، إذ هذا شأن الجواد من الخلق ، فإنه يحصل له من الفرحة[2] والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه ؛ ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه عن لذة المعطي ، وابتهاجه وسروره ، هذا مع[3] حاجته إلىٰ ما يعطيه وفقره إليه ، وعدم وثوقه باستخلاف مثله ، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه ، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره أو من هو دونه ، ونفسه قد طبعت علىٰ الحرص والشح.

---

(١) في ح٢ ، م « منته ».

(٢) في غ « الفرح ».

(٣) في ح٢ ، د ، أ ، ب ، م ، ح١ « كمال ».

فما الظن بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه ، ولو أن أهل سماواته وأرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه ، فأعطىٰ كلاًّ منهم ما سأله[١] ، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته ، كما أنه[٢] الحي لذاته ، العليم لذاته ، السميع البصير [٩٦/ أ] لذاته. فجوده العالي من لوازم ذاته ، والعفو أحب إليه من الانتقام ، والرحمة أحب إليه من العقوبة ، والفضل أحب إليه من العدل ، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده و محبوبه الذي خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله علىٰ غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله، واعتنىٰ بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدىٰ ، فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه ، وأبق منه ، ووالىٰ عدوه وظاهره عليه ، وتحيز إليه ، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه ، وفتح طريق العقوبة والانتقام والغضب[٣] ، فقد استدعىٰ من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر ، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه ، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وإعطائه ، فاستدعىٰ بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو

(١) في ح١ ، ح٢ ، م ، أ ، غ ، د « كلا ما سأله » ، وفي ق « كلا ما يسأله ».

(٢) ساقطة من ح٢ .

(٣) في ح١ ، د ، م ، ح٢ ، غ ، أ ، ق « العقوبة والغضب والانتقام ».

من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقا شاردا ، رادّاً لكرامته ، مائلاً عنه إلىٰ عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ، ناسيا لسيده ، منهمكا في موافقة عدوه ، قد استدعىٰ من سيده خلاف ما هو أهله ، إذ عرضت له فكرة فتذكر بر[1] سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه ، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدم به عليه علىٰ أسوأ الأحوال ، ففر إلىٰ سيده من بلد عدوه ، وجد في الهرب إليه حتىٰ وصل إلىٰ بابه ، فوضع خدَّه علىٰ عتبة بابه ، وتوسد ثرىٰ أعتابه ، متذللا متضرعا ، خاشعا باكيا آسفا ، يتملق [٩٦/ ب] سيدَه ويسترحمُه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقىٰ إليه بيده[2]، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقىٰ إليه زمامه ، فعلم سيدُه ما في قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفواً ، وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلما ، فاستدعىٰ بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنىٰ ، وصفاته العلا ، فكيف يكون فرح سيده به؟ ، وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعا واختيارا ، وراجع ما يحبه سيده

---

(١) في م « به » بدل « بر ».

(٢) في ح١ ، ق ، أ ، غ ، ح٢ ، د « وألقىٰ بيده إليه ».

منه ويرضاه[1] ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التي هي أحب إلىٰ سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين : أنه حصل له [شرود و][2] إباق[3] عن سيده ، فرأىٰ في بعض السكك بابا قد فتح ، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي ، وأمه خلفه تطرده ، حتىٰ خرج ، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت ، فذهب الصبي غير بعيد ، ثم وقف مفكرا ، فلم يجد له مأوىٰ غير البيت الذي أخرج[4] منه ، ولا من يؤويه غير والدته ، فرجع مكسور القلب حزينا ، فوجد الباب مرتجا[5] ، فتوسده ووضع خده علىٰ عتبة الباب ونام ، فخرجت أمه ، فلما رأته علىٰ تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه ، والتزمته تقبله وتبكي ، وتقول : يا ولدي ، أين تذهب عني؟ ، ومن يؤويك سواي؟ ، ألم أقل لك : لا تخالفني ، ولا تحملني بمعصيتك لي علىٰ خلاف ما جبلتُ عليه من الرحمة لك ، والشفقة عليك ، وإرادة[6] الخير لك؟ ، ثم أَخَذَتْه

---

(١) في د ، ق « ورضاه ».

(٢) زيادة من ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق .

(٣) في د ، ق « وأبق ».

(٤) في ش « خرّج ».

(٥) مرتجاً : أي مغلقاً ، قال في مختار الصحاح : أرتج الباب ، أغلقه ، وأرتج علىٰ القارئ علىٰ ما لم يسم فاعله ، إذا لم يقدر علىٰ القراءة ، كأنه أطبق عليه ، كما يرتج الباب.
مختار الصحاح ٢٣٢ ، القاموس المحيط ١/ ١٩٠ ، مادة (رتج).

(٦) في د ، أ ، غ ، ح٢ ، ق ، ح١ ، م ، ب « وإرادتي ».

ودخلَتْ.

فتأمل قول الأم: « لا تحملني بمعصيتك لي علىٰ خلاف ما جبلت عليه من الرحمة[1] والشفقة ».

وتأمل قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولـدها »[2]، وأيـن تقـع رحمة الوالدة من رحمة الله[3].

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعىٰ منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعىٰ منه ما هو أهله وأولىٰ به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك علىٰ [٩٧/ أ] سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، ويدق[4] عن إدراكه الأذهان.

وإياك وطريقة التعطيل والتمثيل، فإن كلا منهما منزل ذميم، ومرتع علىٰ علاته وخيم، ولا يحل لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونفسه؛ لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد[5] لحاسة الشم، كما هو مفسد لحاسة الذوق، فلا

---

(١) في ح٢ زيادة « لك ».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، (١٠/ ٤٢٦)، ح: (٥٩٩٩). ومسلم في التوبة، (٤/ ٢١٠٩)، ح: (٢٧٥٤) كلاهما من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٣) في م، ح١، أ، ح٢، د، ق زيادة « التي وسعت كل شيء »، وفي غ « الذي رحمته وسعت كل شيء ».

(٤) في غ، ب، ق، د، ح٢، أ، ح١ « وتدق ».

(٥) في م « مفسدة ».

يذوق طعم الإيمان ، ولا يجد ريحه ، والمحروم كل المحروم من عرض عليه الغنىٰ والخير فلم يقبله ، ولا مانع لما أعطىٰ الله ، ولا معطي لما منع ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

تعلق الفرح بصفة الألوهية

هذا إذا نظرت إلىٰ تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبوداً ، فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه ، وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته ، والخضوع له ، وطاعته[1]. وهذا هو الحق الذي خلقت به السماوات والأرض ، وهو غاية الخلق والأمر، ونفيه كما يقول أعداؤه هو الباطل ، والعبث الذي نزه نفسه عنه، وهو السدىٰ الذي نزه نفسه عن أن يترك الإنسان عليه ، فهو سبحانه يحب أن يعبد ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئا لولا محبتهم[2] ، وطاعتهم له.

وقد أنكر علىٰ من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثا وباطلا وسدىٰ ، وذلك مما يتعالىٰ عنه أحكم الحاكمين ، والإله الحق ، فإذا خرج العبد عما خلق له من طاعته وعبوديته[3] ، فقد

---

(١) « وطاعته » ساقطة من م .

(٢) في ح٢ ، أ ، م ، د ، ق ، غ ، ح١ زيادة « له ».

(٣) في ح٢ ، د ، أ ، م ، غ ، ح١ ، ق « من الطاعة والعبودية ».

خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثا لغير شيء ، إذ لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها ؛ بل قلبته شوكا ودغلا[١] [٩٧/ ب]. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله ، فقد رجع إلىٰ الغاية التي هي أحب الأشياء إلىٰ خالقه وفاطره ، ورجع إلىٰ مقتضىٰ الحكمة التي خلق لأجلها ، وخرج عن معنىٰ العبث والسدىٰ والباطل ، فاشتدت محبة الرب له ، فإن الله يحب التوابين[٢] ، فأوجبت[٣] هذه المحبة فرحا كأعظم ما يقدر من الفرح ، ولو كان[٤] في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره ؛ ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره ، بعد يأسه من أسباب الحياة بفقده ، وهذا لشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ، ثم وجده وصار طوع يديه ، فلا فرحة أعظم من فرحته به.

بل[٥] فما الظن بمحبوب لك تحبه حبّاً شديدا ، وأسره عدوك ، وحال بينك وبينه ، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، ويعرضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولىٰ به منه ، وهو غرسك وتربيتك ، ثم إنه[٦] انفلت من عدوه ، ووافاك

---

(١) الدغل : هو الفساد. مختار الصحاح ٢٠٦ ، مادة (دغل).

(٢) في د ، أ ، م ، غ ، ح١ زيادة « ويحب المتطهرين ».

(٣) في أ زيادة « له ».

(٤) في أ زيادة « يحب ».

(٥) « بل » ساقطة من ق ، ش ، أ ، ح٢ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، د.

(٦) « إنه » ساقطة من أ .

علىٰ غير ميعاد ، فلم يفجأك إلا وهو علىٰ بابك، يتملقك ويترضاك ويستعتبك، ويمرغ خديه علىٰ ثرىٰ[1] أعتابك ، فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصيته لنفسك ، ورضيته لقربك[2] ، وآثرته علىٰ سواه.

هذا ، ولست الذي أوجدته وخلقته ، وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده ، وخلقه وكونه ، وأسبغ عليه نعمه ، وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مُظهِراً لنعمه ، قابلا لها ، شاكراً لها ، محبًّاً لوليِّها[3] ، مطيعا له عابدا له ، معاديا لعدوه ، مبغضا له عاصيا له ، والله تعالىٰ يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يواليه سبحانه ويطيعه ويعبده ، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلىٰ محبته لعداوة عدوه ، ومعصيته [٩٨/ أ] ومخالفته ، فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبوبه ، وهذا حقيقة الفرح.

وفي صفة النبي ﷺ في بعض الكتب المتقدمة : «عبدي الذي سُرَّتْ به نفسي » ، وهذا لكمال محبته له ، جعله مما تسر به نفسه[4] سبحانه.

---

(١) في ق « ترب » أ ، ح٢ ، غ ، ح١ ، م ، د.

(٢) في ش « لديك ».

(٣) في ح٢ : « لموليها » ، معنىٰ ذلك أي : صاحب الإنعام والإحسان. قال ابن منظور : يقال : أوليت فلاناً خيراً ، وأوليته شراً ، كقولك : سمته خيراً وشراً ، وأوليته معروفا إذا أسديت إليه معروفاً. لسان العرب ٦/ ٤٩٢٤ ، مادة : (ولي).

(٤) في د ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، ق « نفسه به ».

ومن هذا ضحكه سبحانه من عبده ، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه ، فيضحك سبحانه فرحا به[1] ورضىٰ كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلىٰ خدمته ، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو ، فأقبل إليهم ، وباع نفسه لله ولقاهم نحره ، حتىٰ قتل في محبته ورضاه[2].

ويضحك إلىٰ من أخفىٰ الصدقة عن أصحابه لسائل اعتراهم ، فلم يعطوه ، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرا ، حيث لا يراه إلا الله تعالىٰ والذي أعطاه ، فهذا الضحك منه حبا له ، وفرحا به[3] ، وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة ،

---

(١) « به » ساقطة من أ ، غ ، ح٢ ، ح١.

(٢) أخرج الدارمي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : « إن الله يضحك إلىٰ اثنين ، رجل قام من جوف الليل ، فتوضأ وصلىٰ ، ورجل كان مع قوم فلقوا العدو ، فانهزموا وحمل عليهم ، فالله يضحك إليه ».

وأخرج أيضاً عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة يضحك الله تعالىٰ إليهم يوم القيامة : رجل قام من الليل ، والقوم إذا صفوا للقتال ، والقوم إذا صفوا للصلاة ».

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة يحبهم الله عز وجل ، يضحك إليهم ويستبشرهم ، الذي إذا انكشفت فيه قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل ، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه ، فيقول انظروا إلىٰ عبدي كيف صبر لي نفسه ، والذي له امرأة حسناء وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيذر شهوته ، فيذكرني ويناجيني ، ولو شاء لرقد... » الحديث.

انظر : رد الدارمي علىٰ بشر المريسي ص (١٧٩-١٨٠) ، الأسماء والصفات للبيهقي ٥٩٥.

(٣) ورد ذلك في حديث أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ، قال : « ثلاثة يحبهم الله عز وجل ،

فيضحك إليه فرحا به وبقدومه عليه[1].

وليس في إثبات هذه الصفات محذور البتة ، فإنه فرح ليس كمثله شيء ، وضحك ليس كمثله شيء ، وحكمه حكم رضاه ومحبته ، وإرادته وسائر صفاته ، فالباب باب واحد ، لا تمثيل ولا تعطيل.

وليس ما يلزم به المعطل للمثبت[2] إلا ظلم محض ، وتناقض وتلاعب ، فإن[3] هذا لو كان لازما للزم رحمته وإرادته ومشيئته وسمعه وبصره ، وعلمه وسائر صفاته ، فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفة دون الأخرىٰ؟ ، وهل يجد ذو عقل إلىٰ الفرق سبيلا؟ ، فما ثم إلا التعطيل المحض المطلق ، أو الإثبات المطلق لكل ما ورد به النص ، والتناقض لا يرضاه المحصلون.

وثلاثة يبغضهم عز وجل ، أما الذين يحبهم الله عز وجل ، فرجل أتىٰ قوماً فسألهم بالله عز وجل ، ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه ، فمنعوه فتخلفه رجل بأعقابهم ، وأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله عز وجل والذي أعطاه ...» الحديث.

أخرجه النسائي في الزكاة ، ثواب من يعطي (٥/ ٨٤) ، والإمام أحمد (٥/ ١٥٣).

(١) أخرج الدارمي في الرد علىٰ بشر المريسي ص (١٧٩) ، عن نعيم بن همار ، قال : جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال : أي الشهداء أفضل؟ ، قال : «الذين يلقون في الصف ، ولا يلتفتون وجوههم حتىٰ يقتلوا، أولئك الذين يتلبطون في الغرف العلىٰ من الجنة، يضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلىٰ عبد في موطن فلا حساب عليه».

وقد ورد في إثبات هذه الصفة لله عز وجل أحاديث كثيرة ، أخرجها البخاري ومسلم وأصحاب السنن ، ومن صنف من الأئمة في أبواب الاعتقاد ، كالدارمي ، وابن خزيمة ، وابن أبي شيبة ، وابن مندة ، والبيهقي ، وغيرهم.

(٢) في د ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، ق «المثبت».

(٣) في أ زيادة «كان».

فصل [٩٨/ ب]

المعنى الثاني إقامة الحجة على العبد

قوله : «**الثَّانِي: أَن يُقِيمَ عَلَىٰ عَبدِهِ حُجَّةَ عَدلِه ، فَيُعَاقِبَه عَلَىٰ ذَنبِه بِحُجَّتِه**»[1].

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان ، أطاع أم عصىٰ ، فإن حجة الله قامت علىٰ العبد بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وبلوغ ذلك إليه ، وتمكنه من العلم به ، سواء علم أو جهل ، فكل من تمكن من معرفة ما أمر به و[2] نهىٰ عنه ، فقصر عنه ولم يعرفه ، فقد قامت عليه الحجة ، والله سبحانه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، فإذا عاقبه علىٰ ذنبه عاقبه بحجته علىٰ ظلمه ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك : ٨- ٩] ، وقال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٧] ؛ وفي الآية قولان : أحدهما : ما كان ليهلكها بظلم منهم. والثاني : ما كان ليهلكها بظلم منه[3].

والمعنىٰ علىٰ القول الأول : ما كان ليهلكهم[4] بظلمهم المتقدم ، وهم

---

(١) منازل السائرين ١٤ ، وفيه « ليقيم » بدل « أن يقيم ».

(٢) في ب « أو » ، وفي أ زيادة « ما نهي عنه ».

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ١٤٠ ، تفسير البغوي ٢/ ٤٠٦.

(٤) في غ « ليهلكها ».

مصلحون الآن ، أي إنهم بعد أن أصلحوا ، وتابوا ، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلىٰ القول الثاني : أنه لم يكن ظالما لهم في إهلاكهم ، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون ، وإنما أهلكهم وهم ظالمون ، فهم الظالمون بمخالفة(١) رسله ، وهو العادل في إهلاكهم ، والقولان في آية الأنعام أيضا : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٣١].

قيل : لم يكن مهلكهم بظلمهم ، وشركهم وهو غافلون ، لم ينذروا ولم يأتهم رسول.

وقيل : لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول ، فيكون قد ظلمهم ، فإنه سبحانه لا يأخذ أحدا ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنبا إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسل(٢).

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب ، علم أن الله سبحانه قدره سببا مقتضيا لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعات سببا مقتضيا للثواب ، وكذلك تقدير سائر أسباب [٩٩/ أ] الخير والشر ، كجعل السم سببا للموت ، والنار سببا للإحراق ، والماء للإغراق.

فإذا أقدم العبد علىٰ سبب الهلاك وقد عرف أنه سبب الهلاك فهلك

---

(١) في ب ، ح١ ، م ، د ، غ ، أ ، ق « لمخالفتهم ».

(٢) انظر : تفسير البغوي ٢/ ١٣٢.

فالحجة مركبة عليه ، فالمؤاخذة[1] كالحريق مثلا ، والذنب كالنار ، وإتيانه كتقديمه نفسه للنار ، وملاحظة الحكم في هذا[2] لا يجدي عليه شيئا ، وإنما[3] الذي يُشهده قيام الحجة عليه ، ملاحظة الأمر ، لا ملاحظة القدر.

فَجعْلُ صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية[4] ليس بالبيّن ؛ بل هو من ملاحظة الجناية والأمر ؛ ولكن مراده : أن سر التقدير ، أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود ، كالشوك الذي لا يصلح إلا للنار ، والشجرة تشتمل علىٰ الثمر والشوك ، فاقتضىٰ عدله سبحانه أن يسوق هذا العبد إلىٰ ما لا يصلح إلا له ، وأن يقيم عليه حجة عدله ، بأن قدر عليه الذنب فواقعه ، فاستحق ما خلق له ، قال[5] تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس : ٦٩-٧٠].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان : حي قابل للانتفاع ، فإنه يقبل الإنذار وينتفع به ، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به ؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة

---

(١) في ح٢ ، د ، ب ، غ ، ح١ « والمؤاخذة ».

(٢) في غ ، أ ، ح٢ ، ح١ ، د ، ب ، م « فيها » بدل « في هذا ».

(٣) في غ ، أ ، ح١ ، ح٢ ، ق ، د ، م « فإنما ».

(٤) في الأصل « المعصية » ، والمثبت من باقي النسخ الخطية ، وهو الموافق لما في منازل السائرين ١٤.

(٥) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ زيادة اسم الجلالة « الله ».

للخير البتة، فيحق القول عليه(١) بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه، لا بمجرد كونه غير قابل للهدىٰ والإيمان؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل، وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه، فعصىٰ الرسول بكونه(٢) غير قابل للهدىٰ، وعوقب بكونه غير فاعل، فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ(٣) حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ [٩٩/ ب] عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وحق عليه القول(٤) بالعذاب(٥)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله(٦): أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني

---

(١) في غ، أ، م، ح١، ح٢ «فيحق عليه القول».
(٢) في ب «لكونه».
(٣) في ب، ح١، م، ح٢، د، غ، أ «وكذلك».
(٤) «القول» ساقطة من أ، ب، م، غ، ح١، ح٢.
(٥) في أ، ب، م، غ، ح١، ح٢ «العذاب».
(٦) «كله» ساقطة من أ.

منهم ، لا مع مراد أنفسهم ، فأهل طاعته آثروا الله ومراده علىٰ مرادهم ، فاستحقوا كرامته ، وأهل معصيته آثروا مرادهم علىٰ مراده ، وعلم سبحانه منهم، أنهم لا يؤثرون مراده البتة ، وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم ، فأمرهم ونهاهم ، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوىٰ أنفسهم ، ومرادهم علىٰ مرضاة ربهم ومراده ، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله ، فعاقبهم بظلمهم.

* * *

فصل

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلىٰ أربعة أمور[1] : نظر[2] إلىٰ الأمر والنهي. ونظر إلىٰ الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر إلى محل الجناية ومصدرها

النظر الثالث : النظر إلىٰ محل الجناية ومصدرها ، وهو النفس الأمارة بالسوء ، ويفيده نظره إليها أموراً.

منها : [أن يعرف][3] أنها جاهلة ظالمة ، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ، ومن صفته الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة ، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم ، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها ، وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلىٰ خالقها وفاطرها أن يقيه شرها ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه وليها ومولاها ، وأن لا يكله إليها طرفة عين ، [فإنه][4] إن وكله إليها هلك ، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلىٰ نفسه ، وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر : « **قل اللهم ألهمني رشدي**

---

(١) تقدم ، ذكر ابن القيم أن العبد في الذنب له نظر إلىٰ خمسة أمور ، وذكر منها ثلاثة ، ثم ذكر هنا النظر الثالث وهو في الحقيقة الأمر الرابع وسيأتي ذكره للأمر الخامس.

(٢) «نظر» ساقطة من د .

(٣) زيادة من أ ، د ، ح١ ، ب ، غ ، ح٢ ، م ، ق.

(٤) زيادة من ح٢ ، ب ، غ ، ق ، م ، ح١ ، د ، أ.

وقني [١٠٠/ أ] شر نفسي »[1]، وفي خطبة الحاجة « الحمد لله[2]، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات[3] أعمالنا »[4]، وقال[5] تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه، علم أنها منبعُ كلِّ شر، ومأوىٰ كلِّ سوء، وأن كلَّ خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال

(١) تقدم تخريجه ص٢٦٤.

(٢) في ح٢، غ، ش، ب، م زيادة « نحمده و ».

(٣) في ح٢، د، ح١، م، ق، غ « ومن سيئات ».

(٤) أخرجها أبو داود عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في الصلاة، (١/ ٦٥٩)، وأخرجها في النكاح، (٢/ ٥٩١)، وأخرجها الترمذي في النكاح، (٣/ ٤١٣)، قال الترمذي: حديث عبد الله حديث حسن، رواه الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله عن النبي ﷺ، ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله عن النبي ﷺ، وكلا الحديثين صحيح. وأخرجه النسائي في الجمعة، (٣/ ١٠٥)، واللفظ له، وابن ماجه في النكاح، (١/ ٦٠٩)، وأحمد (١/ ٤٣٢)، والحاكم (٢/ ١٨٢)، وسكت عنه، وكذلك الذهبي، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٨٨)، وقال: رواه أبو يعلىٰ والطبراني في الأوسط والكبير باختصار، ورجاله ثقات. وقد صحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/ ١٣٤)، وفي السلسلة الصحيحة (٣/ ٤٧٢)، كما أفرد خطبة الحاجة بتصنيف مفرد، جمع فيه طرقها الواردة عن جمع من الصحابة. وصحح الحديث أيضاً محققو مسند الإمام أحمد: (٦/ ٢٦٢-٢٦٤)، (٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٥) في ح٢، أ، د، ح١، م، ق، غ « وقد قال ».

تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهذا الحب، وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن الله هو[1] الذي منَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين، ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨]، عليم بمن يصلح لهذا الفضل، ويزكو عليه، ويثمر عنده. حكيم فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

ومنها: ما ذكره صاحب المنازل، فقال:

اللطيفة الثانية

«**اللَّطِيفَةُ الثَّانِيةُ: أَن يَعْلَمَ أَنَّ نَظَرَ البَصِيرِ الصَّادِقِ فِي سَيِّئَتِهِ لَمْ يُبقِ لَه حَسَنَةً بِحَالٍ؛ لأنَّه يَسِيرُ بَينَ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ، وَتَطَلُّبِ عَيبِ النَّفسِ والعَمَلِ**»[2].

يريد أن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله تعالىٰ، وهو صادق في طلبه، لم يبق له نظره في سيئاته حسنة البتة، فلا يلقىٰ الله تعالىٰ إلا بالإفلاس المحض، والفقر الصرف؛ لأنه إذا فتش عن[3] عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تشترىٰ بها النجاة من عذابه[4]، فضلا

---

(١) «هو» ساقطة من م، ح٢.

(٢) منازل السائرين ١٤، ولفظه: «أن تعلم أن طلب البصير الصادق سيئته لم يبق له حسنة بحال...».

(٣) في م، ح٢ «علىٰ».

(٤) في م، ق، ح٢، د، غ، أ، ح١ «عذاب الله».

عن الفوز بعظيم ثوابه[١]، فإن خلص له عمل وحال مع الله، وصفا له معه وقت شاهدَ منَّةَ الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهل لذلك[٢]، فهو دائما مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله؛ لأنه متىٰ تطلبها رآها.

وهذا [١٠٠/ ب] من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد، ولذلك كان سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[٣].

فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبيته، وإلـهيته، وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده، وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي له سواه، ثم التزام[٤] الدخول تحت عهده، وهو أمره ونهيه الذي عهد إليه علىٰ لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك

---

(١) في م، ق، ح٢، د، غ، أ، ح١ «ثواب الله».

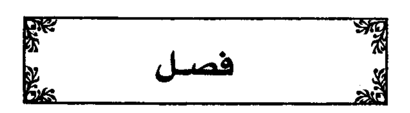
(٢) في ش، أ، د، ح١، م، ح٢، غ، ق «لذاك».

(٣) تقدم تخريجه، ص٤٦٢.

(٤) في ب، م، ح٢ «التزم».

بالعقاب ، فأنا مقيم علىٰ عهدك ، ومصدق[1] بوعدك ، ثم الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك ، فإنك إن لم تعذني[2] من شره ، وإلا أحاطت بي الهلكة ، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك ، وأنا أقر لك ، وألتزم بنعمتك علي ، وأقر وألتزم وأنجع[3] بذنبي ، فمنك النعمة والإحسان والفضل ، ومني الذنب والإساءة ، فأسألك أن تغفر لي بمحو[4] ذنبي ، وأن تقيني[5] من شره ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار ، إذ هو متضمن لمحض العبودية ، فأي حسنة تبقىٰ للبصير الصادق مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنة الله عليه ؟ ، فهذا الذي يعطيه نظره إلىٰ نفسه ونقصه.



فصل

النظر إلى الآمر له بالمعصية

النظر الرابع : نظره إلىٰ الآمر له بالمعصية ، المزين له [١٠١/ أ] فعلها ، الحاض له عليها ، وهو شيطانه الموكل به.

---

(١) في ش ، ح١ ، ق ، أ ، ب ، غ ، د « مصدق ».

(٢) في م ، ح٢ « تنقذني ».

(٣) في ب « وأرجع ». وفي ش « وأبجع » ومعنىٰ « أنجع » أي أرجع ، وألتزم وأقر وأطلب بذنبي، مأخوذ من الانتجاع ، والنجعة وهو طلب الكلأ. انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ١٥٩ ، مختار الصحاح ٦٤٧ ، لسان العرب ٦/ ٤٣٥٣ ، مادة « نجع ».

(٤) في ش ، ب « وتمحو ».

(٥) في أ ، غ ، ح١ « تعفيني ».

فيفيده النظر إليه ، وملاحظته اتخاذه عدوا ، وكمال الاحتراز منه ، والتحفظ واليقظة ، والانتباه لما يريده منه عدوه وهو لا يشعر ، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات ، بعضها أصعب من بعض ، لا ينزل منه[١] من العقبة الشاقة إلىٰ[٢] ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

عقبات الشيطان السبع

العقبة الأولىٰ : عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه ، وصفات كماله ، وما أخبرت به رسله عنه ، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح معه ، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسلم معه نور الإيمان طلبه علىٰ :

العقبة الثانية : وهي عقبة البدعة؛ إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله ، وأنزل به كتابه[٣] ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به[٤] ، من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين ، التي لا يقبل الله منها شيئا ، والبدعتان في الغالب متلازمتان ، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرىٰ ، كما قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس ، فلم يفجأهم إلا أولاد[٥] الزنا يعيشون في بلاد الإسلام ، فضج[٦] منهم العباد والبلاد[٧] إلىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) في م « عنه ».

(٢) في الأصل ، و ش « دون » بدل « إلىٰ ».

(٣) في ح٢ ، ش ، م زيادة « حقا ».

(٤) في ش ، ق ، ب ، د ، أ ، م ، غ ، ح١ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٥) في ق ، ح٢ ، د ، م ، غ ، ح١ ، أ « وأولاد ».

(٦) في غ ، أ ، د ، ش ، ح١ ، ح٢ ، م ، ق « تضج ».

(٧) في ح٢ « البلاد والعباد ».

وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ : تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع العبد[1] هذه العقبة ، وخلص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة ، وما مضىٰ عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب ، فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل ، وبغوه الغوائل ، وقالوا : مبتدع محدث ، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه علىٰ :

العقبة الثالثة : وهي عقبة الكبائر ، فإن ظفر به [١٠١/ ب] فيها زينها له ، وحسنها في عينه ، وسوف به ، وفتح له باب الإرجاء[2] ، وأن[3] الإيمان هو نفس التصديق ، فلا تقدح فيه الأعمال ، وربما أجرىٰ علىٰ لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق ، [وهي قوله][4] : لا[5] يضر مع التوحيد ذنب ، كما لا

---

(١) « العبد » ساقطة من ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق.

(٢) الإرجاء هو التأخير ، يقال : أرجىٰ الأمر : أخره ، وأرجأت الأمر ، وأرجيته أخرته ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة :١٠٦] ، والمرجئة فرقة من فرق الإسلام ، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة ، وسُموا مرجئة لتأخيرهم الأعمال عن مسمىٰ الإيمان ، قال ابن الأثير : سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم علىٰ المعاصي ، أي أخره. انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٠٦ ، لسان العرب ٣/ ١٦٠٤ ، مقالات الإسلاميين ١٣٢ ، التنبيه والرد للملطي ص ٥٧ ، ١٥٥ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٧٠ ، الفرق بين الفرق ٢٠٢.

(٣) في ب ، أ ، ح١ ، ق ، غ « فإن ».

(٤) زيادة من أ ، ق ، ح١ ، غ ، د ، ب ، ح٢ ، م.

(٥) في غ « ما ».

ينفع مع الشرك حسنة. والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه، لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها[١]، ويدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول علىٰ الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد علىٰ إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه[٢]، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلا، والباطل حقا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق علىٰ القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلىٰ كبيرها، حتىٰ ينسلخ صاحبها[٣] من الدين، كما تسل[٤] الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب[٥] البصائر، والعميان في ظلمة العمىٰ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه[٦]، طلبه علىٰ:

---

(١) في أ، ق، ح١، غ، د، ب، ح٢، م زيادة «ولا يرجع عنها».

(٢) في ب زيادة «الله ورسوله».

(٣) «صاحبها» ساقطة من ش.

(٤) في غ، م، د، ح١، ق، أ، ح٢ «تنسل».

(٥) في ب، أ زيادة «أهل».

(٦) في ب، د، م، غ، ق، أ، ح١، ح٢ زيادة «منها».

العقبة الرابعة : وهي عقبة الصغائر؛ فكال لـه منها بالقفزان[(١)] ، قال : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم ، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتىٰ يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه ، فإن الإصرار [١٠٢/ أ] علىٰ الذنب أقبح منه ، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ، وقد قال ﷺ : «إياكم ومحقرات الذنوب[(٢)] - ثم ضرب لذلك[(٣)] مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض ، فأعوزهم الحطب، فجعل يجيء هذا بعود، وهذا بعود ، حتىٰ جمعوا حطبا كثيرا ، فأوقدوه[(٤)] نارا ، [وأنضجوا خبزتهم][(٥)] ، فكذلك شأن[(٦)] محقرات الذنوب تجتمع علىٰ العبد ويستهين[(٧)] بشأنها حتىٰ تهلكه »[(٨)].

---

(١) في ق « بالغفران » ، والقفزان جمع قفيز ، والقفيز : مكيال ، وهو ثمانية مكاكيك. مختار الصحاح ٥٤٦ ، القاموس المحيط ٢/ ١٨٧؛ مادة (قفز).

(٢) محقرات الذنوب : أي صغائرها. انظر : مختار الصحاح ١٤٦ ، القاموس المحيط ٢/ ١٢ ، مادة (حقر).

(٣) في ح١ « لهن ».

(٤) في ق ، غ ، م ، د ، ب ، ح١ ، أ ، ح٢ « فأوقدوا ».

(٥) زيادة من ق ، غ ، م ، د ، ب ، ح١ ، ح٢.

(٦) في غ ، ح١ ، أ « فأن » وفي ح٢ ، م « كان ».

(٧) في ق ، غ ، م ، د ، ح١ ، أ ، ح٢ « وهو يستهين ».

(٨) حديث : «إياكم ومحقرات الذنوب» ، أخرجه الإمام أحمد عن سهل بن سعد ، وعن عائشة ،

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز ، والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار ، وإتباع السيئة الحسنة طلبه على :

العقبة الخامسة : وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها ، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ما ينال منه : تفويته الأرباح [والمكاسب](1) العظيمة ، والمنازل العالية ، ولو

وعن ابن مسعود. انظر : مسند الإمام أحمد (١/ ٤٠٢ ، ٥/ ٣٣١ ، ٦/ ٧٠ ، ١٥١) ، وأخرجه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن مسعود (٥٣). وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤١٧) عن عائشة بلفظ : « **يا عائشة ، إياك و محقرات الأعمال ، فإن لها طالباً** ». قال في الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات. وأخرجه الدارمي عنها بلفظ : « **يا عائشة إياك و محقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً** »؛ سنن الدارمي (٢/ ٣٠٣) ، وأخرجه ابن حبان عن عائشة بلفظ ابن ماجه؛ الإحسان (٧/ ٤٣٧). وأخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٨٣-٨٤) عن عبد الله ابن مسعود ، بلفظ : « **إياكم و محقرات الأعمال ...** »؛ وأخرجه في السنن (١٠/ ١٨٧)؛ قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٩) عن حديث عبد الله بن مسعود : رواه أحمد ، والطبراني في الأوسط ، ورجالهما رجال الصحيح ، غير عمران بن داور القطان ، وقد وثق. وأورده من حديث سهل بن سعد ، وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن عبد الحكم ، وهو ثقة. المجمع (١٠/ ١٩٠). قال ابن حجر عن حديث سهل بن سعد : أخرجه أحمد بسند حسن. فتح الباري (١١/ ٣٢٩). قال الألباني عن حديث سهل : هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند أحمد ثلاثي. انظر : السلسلة الصحيحة (١/ ٦٧٣-٦٧٤) ، وقد حسن الحديث محققو مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٦٨).

(١) زيادة من م ، ق ، ح٢ ، أ ، ح١ ، ب ، د ، غ.

عرف السعر لما فوت على نفسه شيئا من القربات؛ ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة، ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء[1]، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار[2]، فبخل بأوقاته، وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح؛ طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم [كسبا و][3] ربحا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبـ[4] ـالمحبوب لله عن الأحب [١٠٢/ب] إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟، فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

---

(١) في ح١ «الدنيا»، وفي ح٢، م «المينا». والميناء: كلاء السفن ومرفؤها، سمي بذلك؛ لأن السفن تني فيه، أي تفتر عن جريها. لسان العرب ٦/ ٤٩٢٩، القاموس المحيط ٤/ ٤٠٢، مادة (ونى).

(٢) في ب «التجارة».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من غ، د، أ، ح١، ح٢، ب، م، ق.

(٤) في ح٢، م «عن» بدل «بـ».

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله تعالىٰ، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا، ورئيسا ومرؤوسا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد**[1]: **اللهم أنت ربي، [لا إله إلا أنت]**[2]» الحديث[3]، وفي الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»[4]، وفي الأثر

---

(١) «العبد» ساقطة من ش.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من غ، د، أ، ح١، ح٢، ب، م، ق.

(٣) سبق تخريجه: ص٤٦٢.

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٥/ ١١)، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٢/ ١٣١٤)، عن معاذ.

وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٥)، الأول عن أبي وائل عن معاذ، والثاني عن عروة بن النزال عن معاذ، والثالث عن ابن غنم عن معاذ.

وأخرجه عبد الرزاق (١١/ ١٩٤) عن أبي وائل عن معاذ.

وأخرجه أبو داود الطيالسي (٧٦) عن عروة بن النزال عن معاذ.

وأخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (٢)، من طريقين؛ الأول: عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، والثاني: عن عروة بن النزال عن معاذ.

وأخرجه الحاكم (٢/ ٤١٢) عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ١٣٥): هذا الحديث خرجه الإمام

الآخر : « إن الأعمال تفاخرت ، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله ، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن»[1] ، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم ، [السائرين علىٰ جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال

أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من رواية معمر عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن معاذ بن جبل ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وفيما قاله نظر من وجهين : أحدهما : أنه لم يثبت سماع أبي وائل من معاذ . . .

الثاني : أنه قد رواه حماد بن سلمة عن عاصم ، عن شهر بن حوشب عن معاذ ، خرجه الإمام أحمد مختصرا ، قال الدارقطني : وهو أشبه بالصواب؛ لأن الحديث معروف من رواية شهر علىٰ اختلاف فيه.

قلت : ورواية شهر عن معاذ مرسلة يقيناً ، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه ، وقد خرجه الإمام أحمد من رواية شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ ، وخرجه الإمام أحمد أيضاً من رواية عروة بن النزال أو النزال بن عروة ، وميمون بن أبي شبيب كلاهما عن معاذ ، ولم يسمع عروة ولا ميمون عن معاذ ، وله طرق أخرىٰ عن معاذ ، كلها ضعيفة. انتهىٰ كلام ابن رجب.

وقد صحح الألباني ـ رحمه الله ـ قوله ﷺ : « **وذروة سنامه الجهاد** » ، فقال بعد كلامه علىٰ حديث معاذ في إرواء الغليل (٢/ ١٤١) : وخلاصة القول : أنه لا يمكن القول بصحة شيء من الحديث إلا هذا القدر الذي أورده المصنف ، لمجيئه من طريقين متصلين ، يقوي أحدهما الآخر؛ والله أعلم.

وقد صحح الحديث في تخريجه لكتاب الإيمان لابن أبي شيبة ، وفي تخريجه لسنن ابن ماجه. انظر : صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣٠٢).

(١) أخرج هذا الأثر الحاكم (١/ ٤١٦) عن عمر بن الخطاب ، ـ رضي الله عنه ـ ، قال : « ذكر لي أن الأعمال تباهي ، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم ». قال الحاكم : هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي.

منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه][1].

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوىٰ واحدة لا بد له منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذىٰ، باليد واللسان والقلب علىٰ حسب مرتبته في الخير؛ فكلما علت مرتبته أجلب عليه بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والقيام بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمىٰ عبودية المراغمة[2]، ولا ينتبه لها إلا أولوا البصائر التامة، ولا شيء أحب إلىٰ الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه وتعالىٰ [١٠٣/ أ] إلىٰ هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، سمىٰ المهَاجَر الذي يهاجر فيه إلىٰ عبادة [الله][3] مراغماً؛ لأنه[4]

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من غ، د، أ، ح١، ح٢، ب، م، ق.

(٢) المراغمة: هي الهجران والتباعد والمغاضبة، وراغمهم: نابذهم وهجرهم وعاداهم. القاموس المحيط ٤/ ١٢١، لسان العرب ٣/ ١٦٨٢، مادة: (رغم).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من: م، أ، ق، ب، ح١، ح٢، غ، د.

(٤) «لأنه» ساقطة من ح١، ح٢، غ، د، م، أ، ق.

يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، وإغاظته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة : ١٢٠] ، وقال تعالىٰ في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه : ﴿[1]وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فمغايظة الكفار غايةٌ محبوبةٌ للربِّ مطلوبةٌ له ، فموافقته فيها من كمال العبودية ، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين ، وقال : « **إن كانت صلاته تامة كانتا ترغيما للشيطان** »[2] ، وسماهما المرغمتين[3] .

---

(١) في ب زيادة « ذلك مثلهم في التوراة » .

(٢) في ب ، ح١ ، غ ، د ، ح٢ ، أ ، م العبارة كالآتي : « **إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان** » ، وفي رواية « **ترغيما للشيطان** » . والحديث أخرجه مسلم في المساجد ، (١/ ٤٠٠) ، ح : (٥٧١) ، عن أبي سعيد الخدري ، بلفظ : « **وإن كان صلىٰ إتماما لأربع ، كانتا ترغيماً للشيطان** » . وأبو داود في الصلاة ، (١/ ٦٢١) ، بلفظ : « **وكانت السجدتان مرغمتي الشيطان** » . والنسائي في السهو ، (٣/ ٢٧) ، بلفظ : « **وإن صلىٰ أربعاً كانتا ترغيما للشيطان** » . والإمام أحمد (٣/ ٧٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧) ، بلفظ : « **كانتا ترغيما للشيطان** » . وأخرجه الدارمي (١/ ٣٥١) ، بلفظ أحمد . وابن ماجه في إقامة الصلاة ، (١/ ٣٨٢) ، بلفظ : « **فإن كانت صلاته تامة ، كانت الركعة نافلة ، وإن كانت ناقصة ، كانت الركعة لتمام صلاته ، وكانت السجدتان رغم أنف الشيطان** » .

(٣) أخرج ذلك أبو داود في الصلاة ، (١/ ٦٢٢) ، عن ابن عباس ، **أن النبي ﷺ سمىٰ سجدتي السهو مرغمتين** .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر ، وعلىٰ قدر محبة العبد لربه ، وموالاته ومعاداة عدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين ، والخيلاء[١] والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله تعالىٰ ، لما في ذلك من إرغام العدو ، ببذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل[٢].

وهذا باب من العبودية ، و[٣] لا يعرفه و [لا][٤] يسلكه[٥] إلا القليل من الناس، ومن ذاق لذته وطعمه[٦] بكىٰ علىٰ أيامه الأول.

وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلىٰ الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه

---

(١) « الخيلاء » ساقطة من ح٢ .

(٢) يشير المؤلف إلىٰ حديث جابر بن عتيك أن نبي الله ﷺ كان يقول : « من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة ، وإن من الخيلاء ما يبغض الله ، ومنها ما يحب الله. فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال ، واختياله عند الصدقة ، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي ». أخرجه أبو داود في الجهاد ، (٣/ ١١٤) والنسائي في الزكاة ، (٥/ ٧٨) ، وأحمد (٥/ ٤٤٥ ، ٤٤٦).

(٣) الواو ساقطة من ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، د ، ق.

(٤) زيادة من ش ، ح٢ .

(٥) « يسلكه » ساقطة من ب ، ح١ ، أ .

(٦) في ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، د ، ق « طعمه ولذته ».

بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرىٰ.

فهذه نبذة [١٠٣/ ب] من بعض لطائف أسرار التوبة ، لا تستهين[1] بها ، فلعلك لا تظفر بها في مصنف البتة ، ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق.

* * *

(١) في ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، د «لا تستهزئ».

فصل

اللطيفة الثالثة من لطائف أسرار التوبة

قال صاحب المنازل : «اللَّطِيفَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّ مُشَاهَدَةَ العَبْدِ الحُكْمَ لمْ تَدَعْ لَهُ اسْتِحسَانَ حَسَنَةٍ ، وَلاَ اسْتِقبَاحَ سَيِّئةٍ ، لِصُعُودِهِ مِنْ جَمِيعِ المعَانِي إِلىٰ مَعْنَىٰ الحُكْمِ»[1].

هذا الكلام إن أخذ علىٰ ظاهره ، فهو من أبطل الباطل ، الذي لولا إحسان الظن بـ[2] قائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنسب إلىٰ لازم هذا الكلام؛ ولكن من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ومن ذا الذي لم تزلّ به القدم ، ولم يكب به الجواد؟[3].

ومعنىٰ هذا : أن العبد ما دام في مقام التفرقة ، فإنه يستحسن بعض الأفعال ، ويستقبح بعضها ، نظراً إلىٰ ذواتها وما افترقت فيه ، فإذا تجاوزها نظر إلىٰ مصدرها الأول، وصدورها عن عين الحكم، واجتماعها كلها في تلك العين،

---

(١) منازل السائرين ١٤ ، وقد أورد ابن القيم هذا الكلام في شفاء العليل ٢٨.

(٢) في ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، د ، ب ، ق زيادة « صاحبه و ».

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن أبي إسماعيل الهروي : وهو مع هذا في مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال أبلغ من الأشعرية ، لا يثبت سببا ولا حكمة؛ بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا يبقي له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ، والحكم عنده هو المشيئة؛ لأن العارف عنده من يصل إلىٰ مقام الفناء ، والحسنة والسيئة يفترقان في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه ، والالتفات إلىٰ هذا من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق. الفتاوىٰ ٨/ ٢٣٠ ، ٣٣٩.

وانسحاب ذيل المشيئة عليها ، ووحدة المصدر ، وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة ، فهي بالنسبة إلىٰ مصدر الحكم ، وعين المشيئة ، لا توصف بحسن ولا قبح، إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون، وجريانها عليه، فهي بمنزلة نور الشمس واحد في نفسه غير مُتَلوّن ، ولا موصوف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة ، فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال ، لإضافته إليها ، واتصاله بها ، فيرىٰ أحمر وأصفر وأخضر ، وهو بريء من ذلك كله ، إذا صعد من تلك المحال إلىٰ مصدره الأول المجرد عن القوابل؛ فهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.

علىٰ أن له محملا آخر مبنيا علىٰ أصول فاسدة ، وهي أن إرادة الرب تعالىٰ هي[1] عين محبته ورضاه ، فكل ما شاءه فقد أحبه ورضيه ، وكل ما لم يشأه فهو مسخوط له مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو ما لم يشأه ، والمحبوب المرضي هو ما شاءه[2].

---

(١) « هي » ساقطة من د.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في النبوات ١/ ٢٨٥ : وطائفة ثالثة لما رأت ما دل علىٰ أن الله يحب أن يكون محبوبا من أدلة الكتاب والسنة ، وكلام السلف ، وشيوخ أهل المعرفة ، صاروا يقرون بأنه محبوب؛ لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنىٰ المشيئة ، وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له ، وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث ، كأبي إسماعيل الأنصاري ، وأبي حامد الغزالي ، وأبي بكر بن العربي. وحقيقة هذا القول : أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه ، وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه. وانظر أيضا : الفتاوىٰ ٨/ ٣٤١.

مسألة التحسين والتقبيح

هذا [١٠٤/ أ] أصل القدرية الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب، وتحسين العقل وتقبيحه، وأن الأفعال كلها سواء، لا يختص بعضها بما صار حسنا لأجله، وبعضها بما صار قبيحا لأجله، وما ثم إلا محض الأمر والنهي الذي حسن البعض منها لأجله، وقبح البعض لأجله[1]، ويجوز في العقل أن يأمر بما نهىٰ عنه، وينهىٰ عما أمر به، ولا يكون ذلك مناقضا للحكمة[2].

إذ الحكمة ترجع عندهم إلىٰ مطابقة العلم الأزلي لمعلومه، والإرادة الأزلية لمرادها، والقدرة لمقدورها، فإذاً الأفعال بالنسبة إلىٰ المشيئة والإرادة مستوية، لا توصف بحسن ولا قبح، فإذا تعلق بها الأمر والنهي صارت حينئذ حسنة وقبيحة وليس حسنها وقبحها زائدا علىٰ كونها مأمورا بها ومنهيا عنها، فعلىٰ هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهي إلىٰ جمع المشيئة والحكم، لم يستحسن حسنة، ولم يستقبح قبيحة، فإذا نزل إلىٰ[3] فرق الأمر، صح له الاستحسان والاستقباح.

فهذا محمل ثان لكلامه؛ وله محمل ثالث - وهو أبعد الناس منه، ولكن قد حمل عليه - وهو: أن السالك ما دام محجوبا عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية، رأىٰ الأفعال بعين الحسن والقبح، فرأىٰ منها الطاعة

---

(١) سقط من غ، أ، ب، د، ح١، ح٢، م قوله: «وما ثم إلا محض الأمر والنهي الذي حسن البعض منها لأجله، وقبح البعض لأجله».

(٢) انظر معنىٰ هذا الكلام في الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٣٤٣.

(٣) «إلىٰ» ساقطة من أ، م، غ، ق، ب، د، ح١، ش.

والمعصية ، فإذا ترقىٰ إلىٰ شهود الحقيقة الأولىٰ ، وهي الحقيقة الكونية ، ورأىٰ شمول الحكم الكوني للكائنات وإحاطته بها ، وعدم خروج ذرة منه[1] عنه ، زال عنه استقباح شيء من الأفعال ، وشهدها كلها طاعات للأقدار والمشيئة ، وفي مثل هذا الحال يقول : إن كنت عصيت الأمر ، فقد أطعت الإرادة. ويقول :

أصبحت منفعلا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات[2]

فإذا ترقىٰ مرتبة أخرىٰ ، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد ، كما زال عنه في المرتبة الثانية الفرق بين المحبوب والمسخوط ، والمأمور والمحظور [١٠٤/ب] قال : ما ثم طاعة ، ولا معصية ، إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة ، والمطيع عين المطاع ، فما هاهنا غير ، فالوحدة المطلقة تنفي الطاعة والمعصية ، فالصعود من وحدة الفعل إلىٰ وحدة الوجود يزيل عنه بزعمه توهم الانقسام إلىٰ طاعة ومعصية ، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلىٰ وحدة الحكم ، يزيل عنه ثبوت المعصية.

وهذا عند القوم من الأسرار التي لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم ، وأهل الوصول منهم؛ لكن صاحب المنازل بريء من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفر لهم؛ بل[3] مخرج لهم عن جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك؛ لأنهم

---

(١) « منه » ساقطة من ح٢.

(٢) سبق هذا البيت : ص٥٠٤.

(٣) في ب ، أ زيادة «هو».

يحملون كلامه عليه ، ويظنونه منهم.

فاعلم أن هذا مقام عظيم ، زلت فيه أقدام طائفتين من الناس ، طائفة من أهل الكلام والنظر ، وطائفة من أهل السلوك والإرادة.

فنفىٰ لأجله كثير من النظار التحسين والتقبيح العقليين ، وجعلوا الأفعال كلها سواء في نفس الأمر ، وأنها غير منقسمة في ذواتها إلىٰ حسن وقبيح ، و[١] لا تميز[٢] القبيح بصفة اقتضت قبحه ، بحيث[٣] يكون هو[٤] منشأ القبح ، وكذلك الحسن ، فليس الفعل عندهم منشأ حسن ولا قبح ، ولا مصلحة ولا مفسدة ، ولا فرق بين السجود للشيطان ، والسجود للرحمن في نفس الأمر ، ولا بين الصدق والكذب ، ولا بين السفاح والنكاح ، إلا أن الشارع حرم هذا وأوجب هذا[٥] ، فمعنىٰ قبحه : كونه منهيا عنه ؛ لا أنه منشأ مفسدة ، ولا فيه صفة اقتضت قبحه. ومعنىٰ[٦] حسنه : أن الشارع أمر به ؛ لا أنه منشأ مصلحة ، ولا فيه صفة اقتضت حسنه[٧] .

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ح٢ ، م ، أ ، غ ، ح١ « يميز » ، وفي ب « ولا يتميز ».

(٣) في ح٢ ، م زيادة « هو ».

(٤) « هنا » ساقطة من د .

(٥) في ش ، أ ، ب ، ح٢ ، ح١ ، د ، م ، غ ، ق زيادة « فمعنىٰ حسنه : كونه مأموراً به ، لا أنه منشأ مصلحة».

(٦) في ش العبارة : « ولا فيه صفة اقتضت قبحه وحسنه وإنما ».

(٧) ذهب إلىٰ القول بنفي التحسين والتقبيح العقليين الأشاعرة. انظر مذهبهم في ذلك :

وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجها في كتابنا المسمىٰ «تحفة النازلين بجوار رب العالمين» ، وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك[١] ، وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب[٢] ، وبينا بطلانه[٣].

الرد على نفاة التحسين والتقبيح

فإن هذا المذهب بعد تصوره ، وتصور لوازمه يجزم العقل [١٠٥/أ]

الإرشاد لأبي المعالي الجويني ٢٢٨ ، نهاية الأقدام للشهرستاني ٣٧٠ ، المواقف في علم الكلام للإيجي ٣٢٣ ، المطالب العالية للرازي ٣/ ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٥٨ ، وقد تكلم علىٰ هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من كتبه؛ انظر علىٰ سبيل المثال : منهاج السنة النبوية ١/ ٤٤٨ ، مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٢٨ ، ١١/ ٤٤٧-٣٥٥ ، درء التعارض ٤٩ ، الرد علىٰ المنطقيين ٤٢٠-٤٣٧.

(١) سقط من ش ، وفي ق « فيه هناك ».

(٢) في ب « هذه المذاهب ».

(٣) تكلم ابن القيم علىٰ مسألة التحسين والتقبيح في كتابه مفتاح دار السعادة ، وأطال الكلام عليها ، ورد علىٰ النفاة ، فقال ـ رحمه الله ـ : إذا عرفت هذه المقدمة فالكلام علىٰ كلمات النفاة من وجوه. ثم ذكر واحدا وستين وجها – ثم قال : فهذه مجامع طرق العالم في هذا المقام ، ألقيت إليك مختصرة، بذكر قواعدها وأدلتها وترجيح الصواب منها ، وإبطال الباطل، ولعلك لا تجد هذا التفصيل والكلام علىٰ هذه المذاهب وأصولها في كتاب من كتب القوم ، والله تعالىٰ المسئول لتمام نعمته ، ومزيد العلم والهدىٰ ، إنه المانُّ بفضله. ثم ذكر بعد ذلك الوجه الثاني والستين ، والثالث والستين. انظر : مفتاح دار السعادة ص ١٤-١١٨ ، وقد تقدم إشارة ابن القيم إلىٰ ذلك في أول الكتاب عند كلامه علىٰ أقسام الناس في منفعة العبادة ، وأن القسم الأول منهم نفاة الحكم والتعليل. وقد تكلم عنها أيضا في آخر الكتاب عند كلامه علىٰ منزلة التوحيد ، ثم بين أنه قد رد علىٰ النفاة من نحو ستين وجهاً في كتاب مفتاح دار السعادة. انظر : المدارج ٣/ ٤٨٨-٤٩٢.

ببطلانه، وقد دل القرآن علىٰ فساده في غير موضع، والفطرة أيضا وصريح العقل.

فإن الله فطر عباده علىٰ استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم علىٰ استقباح أضدادها. ونسبة هذا إلىٰ فطرهم[1] كنسبة الحلو والحامض إلىٰ أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلىٰ مشامهم، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلىٰ أسماعهم، وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره.

وقد زعم بعض نفاة التحسين والتقبيح أن هذا متفق عليه، وهو راجع إلىٰ الملاءمة والمنافرة، بحسب اقتضاء الطباع، وقبولها للشيء، وانتفاعها به، ونفرتها من ضده.

قالوا: وهذا ليس الكلام فيه، إنما الكلام في كون الفعل[2] متعلقا للمدح والذم[3] عاجلا، والثواب والعقاب آجلاً، فهذا الذي نفيناه، وقلنا: إنه لا يعلم إلا بالشرع؛ و[4] قال خصومنا: إنه معلوم بالعقل، والعقل مقتض له[5].

---

(١) في د، غ، ح١، ح٢، ب، أ، م، ق زيادة «وعقولهم».

(٢) في ح٢ «العقل».

(٣) في د، ح١، ح٢، أ، غ، ق، م «للذم والمدح».

(٤) «الواو» ساقطة من ق.

(٥) ممن قال بذلك الإيجي في المواقف ٣٢٣-٣٢٤، فقال: «ولا بد من تحرير محل النزاع، فنقول: الحسن والقبح يقال لمعان ثلاثة:

فيقال : هذا فرار من الزحف ، إذ هاهنا أمران متغايران لا تلازم بينهما.

أحدهما : هل الفعل نفسه مشتمل علىٰ صفة اقتضت حسنه وقبحه ، بحيث ينشأ الحسن والقبح منه ، فيكون منشأ لهما أم لا؟.

والثاني : أن الثواب المترتب[1] علىٰ حسن الفعل ، والعقاب المترتب[2] علىٰ قبحه ثابت بل واقع بالعقل ، أم لا يقع إلا بالشرع ؟.

ولما ذهبت المعتزلة ومن وافقهم إلىٰ تلازم الأصلين استطلتم عليهم ، وتمكنتم من ابداء تناقضهم وفضائحهم ، ولما نفيتم أنتم الأصلين جميعا استطالوا عليكم. وأبدوا من فضائحكم وخلافكم لصريح العقل والفطرة ما أبدوه ، وهم غلطوا في تلازم الأصلين ، وأنتم غلطتم في نفي الأصلين.

والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل : أنه لا تلازم بينهما ، وأن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة ، كما [١٠٥/ ب] أنها نافعة وضارة ، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات؛ ولكن لا يرتب[3] عليها

الأول : صفة الكمال والنقص ، يقال للعلم حسن ، والجهل قبيح ، ولا نزاع أن مدركه العقل.

الثاني : ملاءمة الغرض ومنافرته ، وقد يعبر عنهما بالمصلحة والمفسدة ، وذلك أيضا عقلي ، ويختلف بالاعتبار ...

الثالث : تعلق المدح والثواب ، أو الذم والعقاب ، وهذا هو محل النزاع ، فهو عندنا شرعي ، وعند المعتزلة عقلي ...».

(١) في ح١ « المرتب ».

(٢) في ح١ « المرتب ».

(٣) في ق ، أ ، م ، ب ، د ، غ ، ح٢ ، ح١ « لا يترتب ».

ثواب ولا عقاب إلا في الأمر[1] والنهي ، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحا موجبا للعقاب مع قبحه في نفسه؛ بل هو في غاية القبح ، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل ، فالسجود للأوثان والشيطان[2] ، والكذب ، والزنا ، والظلم ، والفواحش ، كلها قبيحة في ذاتها ، والعقاب عليها مشروط بالشرع.

فالنفاة يقولون : ليست في ذاتها قبيحة ، وقبحها والعقاب عليها إنما ينشأ بالشرع. والمعتزلة يقولون[3] : قبحها والعقاب عليها ثابتان بالعقل[4].

وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربعة[5] يقولون : قبحها ثابت بالعقل ، والعقاب متوقف علىٰ ورود الشرع ، وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني[6]

---

(١) في ق ، أ ، م ، د ، غ ، ح٢ ، ح١ « بالأمر ».

(٢) في أ ، غ ، ح١ « للشيطان والأوثان ».

(٣) في ح٢ ، أ ، غ ، د ، ق ، ح١ ، م « تقول ».

(٤) انظر مذهب المعتزلة في هذه المسألة : المغني للقاضي عبد الجبار ، الجزء السادس ، القسم الأول ، فقد تكلم عن هذه المسألة ، وما يتعلق بها في هذا الجزء ، كما تكلم عنها في شرح الأصول الخمسة في مواضع متفرقة منه. انظر مثلاً: ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٦١٤ ، وانظر أيضا: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٥ ، المعتمد في أصول الفقه ، لأبي حسين البصري ٢/ ٨٨١ ، وانظر المسألة أيضاً في كتاب الحكمة والتعليل في أفعال الله د. محمد ربيع المدخلي ٧٧-١٠٥.

(٥) في د « الأربع ».

(٦) هو الإمام العلامة الحافظ العابد شيخ الحرم ، أبو القاسم ، سعد بن علي بن محمد بن علي الزنجاني الصوفي ، ولد سنة ٣٨٠هـ ، سمع أبا عبد الله بن نظيف ، حدث عنه أبو بكر الخطيب ، وأبو المظفر السمعاني ، وغيرهم ، ذكر له الذهبي عدة كرامات ، وتوفي في أول سنة ٤٧١هـ ، وله تسعون عاماً. انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٧ .

من الشافعية ، وأبو الخطاب[1] من الحنابلة ، وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة نصّاً[2] ، لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دل القرآن على[3] أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بعد[4] إرسال[5]

---

(١) هو أبو الخطاب ، محفوظ بن أحمد بن حسن العراقي الكلواذاني ثم البغدادي ، تلميذ القاضي أبي يعلىٰ ، ولد سنة ٤٣٢هـ ، قال الذهبي : كان أبو الخطاب من محاسن العلماء ، خيِّرا صادقاً ، حسن الخلق ، حلو النادرة ، من أذكياء الرجال ، له عدة مصنفات ، منها : كتاب الهداية في فقه الإمام أحمد ، وكتاب رؤوس المسائل ، وكتاب أصول الفقه؛ توفي سنة ٥١٠هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٨ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٣ ، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١١٦-١٢٧.

(٢) ذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الرد علىٰ المنطقيين ٤٢٠ ، فقال : وأكثر الطوائف علىٰ إثبات الحسن والقبح العقليين؛ لكن لا يثبتونه كما يثبته نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم ... وهذا قول الحنفية ، ونقلوه أيضا عن أبي حنيفة نفسه ، وهو قول كثير من المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، كأبي الحسن التميمي ، وأبي الخطاب ، وغيرهما من أئمة أصحاب أحمد، وكأبي علي بن أبي هريرة، وأبي بكر القفال الشاشي ، وغيرهما من الشافعية ، وكذلك من أصحاب مالك ، وكذلك أصحاب أهل الحديث ، كأبي نصر السجزي ، وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني ، وغيرهما. وقد قرر هذا القول أبو الخطاب في كتابه التمهيد في أصول الفقه ٤/ ٢٩٤-٣٠٦ ، وكذلك محمود بن أحمد الزنجاني في كتاب تخريج الفروع علىٰ الأصول ٢٤٤ ، وذكر رأيَ أبي حنيفة وأصحابه صاحبُ كتاب تيسير التحرير شرح كتاب التحرير ١/ ٣٨٣ ، ٢/ ١٥١.

(٣) « علىٰ » ساقطة من غ ، د ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ .

(٤) « بعد » ساقطة من غ ، أ ، ح١ ، ش ، م .

(٥) في غ ، أ ، ح١ ، ش ، م « بإرسال ».

الرسول[١]، وأن الفعل في[٢] نفسه حسن وقبيح. ونحن نبين دلالته علىٰ الأمرين.

أما الأول ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وفي قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وفي قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ[٣] ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل؛ بل للنذر، وبذلك دخلوا النار، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وفي الزمر[٤]: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ[٥]﴾ [الزمر: ٧١]، ثم قال [في الأنعام بعدها][٦]: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ

---

(١) في ش، ب، أ، م، غ، ح١، ح٢ «الرسل».

(٢) «في» ساقطة من ش، م.

(٣) في ح٢ «رسول».

(٤) في الأصل «وفي الأنعام» بدل وفي الزمر.

(٥) سقط من ش من قوله: «وفي الزمر» إلىٰ نهاية الآية.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من ق، ب، م، أ، ح١، ح٢، د، غ؛ وقوله بعدها: أي بعد آية الأنعام السابقة، وهي قوله: «يا معشر الجن ...» وآخر قوله: «ذلك أن لم يكن ربك ...»؛ لأنه يريد أن يبين معناها وما تدل عليه.

﴿ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٣١] ، وعلىٰ أحد [١٠٦/ أ] القولين ، وهو أن يكون المعنىٰ : لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسول(١) ، فتكون الآية دالة علىٰ الأصلين ، أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة ، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال(٢) ، وتكون هذه الآية في دلالتها علىٰ الأمرين نظير الآية التي في القصص : ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص : ٤٧] ، فهذا يدل علىٰ أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم ، ولولا قبحه لم يكن سببا؛ لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها ، وهو عدم مجيء الرسول إليهم ، فمذ جاء الرسول(٣) انعقد السبب ، ووجد الشرط ، فأصابهم سيئات ما عملوا ، وعوقبوا بالأول والآخر.

* * *

---

(١) في أ ، ب ، ح١ ، « الرسل ».

(٢) ذكر القولين في تفسير الآية البغوي في تفسيره ٢/ ١٣٢ ، وما ذكر المؤلف أحدهما ، والثاني ذكره البغوي بقوله : وقيل : معناه لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل ، فيكون قد ظلمهم ، وذلك أن الله تعالىٰ أجرىٰ السنة أن لا يأخذ أحدا إلا بعد وجود الذنب ، وإنما يكون مذنبا إذا أمر فلم يأتمر ، أو نهي فلم ينته ، وذلك يكون بعد إنذار الرسل.

(٣) في ح١ زيادة « إليهم ».

فصل

دلالة القرآن على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح

وأما الأصل الثاني: وهو دلالته علىٰ أن الفعل في نفسه حسن وقبيح، فكثير جداً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٣]، فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه، وأمره باجتنابه بأخذ الزينة. والفاحشة هاهنا[1]: طوافهم بالبيت عراة، الرجال والنساء غير قريش[2]، ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ﴾ أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقل والفطرة[3]، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهي، وأنه لا معنىٰ لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنىٰ الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهىٰ عنه، وهذا يصان عن التكلم به آحاد[4] العقلاء، فضلا عن كلام العزيز الحكيم،

---

(١) في أ، ب، ح١، غ

(٢) أخرج مسلم في التفسير، باب في قوله تعالىٰ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٤/ ٢٣٢٠)، حديث: (٣٠٢٨) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت، وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوفا، تجعله علىٰ فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(٣) في د، أ، ح٢، غ، ق، م، ح١ «العقول والفطر».

(٤) في أ «لآحاد».

وأي فائدة في قوله : « إن الله لا يأمر بما ينهىٰ عنه » ، فإنه ليس لمعنىٰ كونه [١٠٦/ ب] فاحشة عندهم إلا أنه منهي عنه ، لا أن العقول تستفحشه.

ثم قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ والقسط عندهم : هو المأمور به. لا أنه قسط في نفسه ، فحقيقة الكلام : قل أمر ربي بما أمر به.

ثم قال : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ، دل علىٰ أنه طيب قبل التحريم(١) ، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه ، فتحريمه مناف للحكمة. ثم قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ(٢)﴾ ، ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها ، وليست فواحش قبل ذلك ، لكان حاصل الكلام : قل إنما حرم ربي ما حرم. وكذلك تحريم الإثم والبغي ، فكون ذلك فاحشة وإثما وبغيا بمنزلة كون الشرك شركا ، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

فمن قال : إن الفاحشة والقبائح والإثم إنما صارت كذلك بعد النهي ، فهو بمنزلة قائل يقول : الشرك إنما صار شركا بعد النهي ، وليس شركا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا(٣) مكابرة صريحة للعقل والفطرة ، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده ، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده ، والفاحشة

---

(١) هكذا في جميع النسخ الخطية ، وكذلك في الأصل، لكن شطب عليها، وكتب في الهامش: «التحليل» ورمز له بالتصحيح وهو الموافق للمعنىٰ.

(٢) في غ ، أ ، ب ، د ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق زيادة « ما ظهر منها وما بطن ».

(٣) « وهذا » ساقطة من أ .

كذلك ، وكذلك الشرك ، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحاً إلىٰ قبحها ، فكان قبحُها من ذاتها ، وازدادت قبحاً عند العقل(١) بنهي الرب تعالىٰ عنها(٢) ، وذمِّه لها ، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها ، كما أن العدل والصدق والتوحيد ، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر حسن في نفسه ، وازداد حسنا إلىٰ حسنه بأمر الرب به ، وثنائه علىٰ فاعله ، وإخباره بمحبته ذلك ، و محبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه [١٠٧/ أ] معروفاً ومنكراً وخبيثاً وطيباً إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به ، لكان بمنزلة أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به ، وينهاهم عما ينهاهم عنه ، ويحل لهم ما يحله(٣) ، ويحرم عليهم ما يحرمه(٤) ، وأي فائدة في هذا؟ ، وأي علم يبقىٰ فيه لنبوته ؟ ، وكلام الله يصان عن ذلك ، وأن يُظَنَّ به ذلك ، وإنما المدح والثناء والعلم الدال علىٰ نبوته : أن ما يأمر به تشهد العقولُ الصحيحة حسنَه وكونَه معروفاً ، وما ينهىٰ عنه تشهدُ قبحَه وكونَه منكراً ، وما يحله تشهدُ كونَه طيباً ، وما يحرمه تشهدُ كونه خبيثا ، وهذه دعوة

(١) ب « الفعل ».

(٢) « عنها » ساقطة من أ .

(٣) في أ ، ب ، م ، ح١ ، غ ، ح٢ « ما يحل لهم » ، وفي د ، ق « ما يحله لهم ».

(٤) في أ ، غ « ما يحرم عليهم » ، وفي ب ، ق ، م ، ح١ ، ح٢ ، د « ما يحرمه عليهم ».

الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ، وهي بخلاف دعوة[1] المبطلين ، والكذابين والسحرة ، فإنهم يدعون إلىٰ ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ، وقد أسلم ، لما عرف دعوته ﷺ : عن[2] أي شيء أسلمت؟ ، وما رأيت منه مما دلك علىٰ أنه رسول الله ؟ ، قال : «ما أمر بشيء ، فقال العقل : ليته نهىٰ عنه ، ولا نهىٰ عن شيء ، فقال العقل : ليته أمر به، ولا أحل شيئا ، فقال العقل : ليته حرمه ، ولا حرم شيئا ، فقال العقل : ليته أباحه»[3]. فانظر إلىٰ هذا الأعرابي ، وصحة عقله وفطرته ، وقوة إيمانه ، واستدلاله علىٰ صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما هو حسن في العقل ، ومطابقة نهيه لما هو قبيح في العقل ، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ، ولو كان جهة الحسن والقبح ، والطيب والخبث مجرد تعلق الأمر والنهي ، والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب ، ولكان بمنزلة أن يقول : وجدته يأمر وينهىٰ ، ويبيح ويحرم ، وأي دليل في هذا؟.

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾[النحل : ٩٠].

وهؤلاء يزعمون أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه ، لا أن في

---

(١) زيادة من ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، د ، ق زيادة « المتغلبين ».

(٢) في ب « علىٰ ».

(٣) لم أجده.

نفس الأمر ظلما نهىٰ عنه، وكذلك الظلم الذي نزه [١٠٧/ ب] نفسه عنه هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرا ممكنا مقدورا لو فعله لكان ظلما، فليس[١] في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه، ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقهم، والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم هو كـ[٢] الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضا، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٧- ٢٩]، أي لا أؤاخذ عبدا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، فإذا أخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه[٣] عنه سبحانه. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، يعني لا يحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده، لم يكن لعدم الخوف منه معنىٰ، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

---

(١) في ب زيادة «ما».

(٢) سقط «الكاف» من م، ح٢، أ، غ، د.

(٣) في م زيادة اسم الجلالة «الله».

وقال تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، أي لا يحمِّل المسيءَ عقابَ ما لم يعمله، ولا يمنع المحسنَ من ثواب عمله.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ[1] ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ[2] وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، فدل علىٰ أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظلما[3]، وعندهم يجوز ذلك، وليس بظلم لو فعله، ويؤولون الآية علىٰ أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك، وخلاف خبره ومعلومه مستحيل، وذلك حقيقة[4] الظلم، ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعا، ولا أريد بها، ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول [١٠٨/ أ] معناها إلىٰ أنه ما كان ليهلك القرىٰ[5] بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون، وكلامه تعالىٰ يتنزه عن هذا ويتعالىٰ عنه.

وكذلك عند هؤلاء أيضاً، العبث والسدىٰ والباطل كلها هي المستحيلات الممتنعة، التي لا تدخل تحت المقدور، والله سبحانه قد نزه نفسه عنها، إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده، المنكرون لأمره ونهيه. فأخبر أن

---

(١) في الأصل، ح١، ق، د، غ، م، ح١ «مهلك».

(٢) «بظلم» ساقطة من م.

(٣) في غ، أ، ح١ «ظالما».

(٤) ساقطة من ش.

(٥) في ح١، د، غ، أ، م، ح١ زيادة «بظلم».

ذلك يستلزم كون الخلق عبثا وباطلا ، وحكمته وعزته تأبىٰ ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا[1]﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون ، ولا تثابون ولا تعاقبون ، والعبث قبيح ، فدل علىٰ أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول ، ولذلك أنكره عليهم إنكار منبه لهم علىٰ الرجوع إلىٰ عقولهم وفطرهم ، وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به ، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه[2] عبثا ، لا لأمر ولا لنهي ، ولا لثواب ولا لعقاب ، وهذا يدل علىٰ أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر ، وأن من جوز علىٰ الله الإخلال به فقد نسبه إلىٰ ما لا يليق به ، وتأباه أسماؤه الحسنىٰ وصفاته العليا[3].

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[القيامة : ٣٦] ، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : مهملا لا يؤمر ولا ينهىٰ. وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب[4]. وهما متلازمان ، فأنكر علىٰ من يحسب ذلك ، فدل علىٰ أنه قبيح تأباه حكمته وعزته ، وأنه لا يليق به ، ولهذا استدل علىٰ أنه لا يتركه سدىٰ

---

(١) في ح١ ، ح٢ ، أ ، غ ، ق زيادة « وأنكم إلينا لا ترجعون » .

(٢) « خلقه » ساقطة من ش .

(٣) في م ، ح٢ « العلا ».

(٤) ذكر ذلك في الرسالة ٢٥ ، وبمثل قوله قال الحسن. انظر تفسير الطبري ٢٩/ ٢٠١ ، قال القرطبي : وقيل : أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث. تفسير القرطبي ١٩/ ١٠٥ ، وقد سبق كلام المؤلف علىٰ هذه الآية عند كلامه علىٰ أقسام الناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها ص٣٧٣.

بقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[القيامة : ٣٧-٣٨] إلىٰ آخر السورة ، ولو كان قبحه إنما علم بالسمع لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع ، وخلاف ما أعلمناه وأخبرناه به ، ولم يكن إنكاره لكونه(١) قبيحا في [١٠٨/ ب] نفسه؛ بل لكونه خلاف ما أخبر به ، ومعلوم أن هذا ليس(٢) وجه الكلام.

وكذلك قوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ [ص : ٢٧] ، والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين؛ بل الذي ظنوه أنه لا شرع ولا جزاء ، ولا أمر ولا نهي ، ولا ثواب ولا عقاب ، فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه ، وذلك هو الحق الذي خُلقت به ، وهو التوحيد ، وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك بربه.

وقال تعالىٰ : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١] فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل علىٰ قبحه ، وأنه حكم سيء ، فالحاكم(٣) به مسيء ظالم ، ولو كان إنما(٤) قبح لكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء ،

---

(١) في ش « بربه » بدل « لكونه ».

(٢) في ح٢ زيادة « في ».

(٣) في أ ، غ « والحاكم ».

(٤) « إنما » ساقطة من ح١ ، غ.

المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم، ولا كان هناك حكما سيئا في نفسه ينكر علىٰ من حكم به.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وهذا استفهام إنكار، فدل علىٰ أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر، أفتظنون[١] أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟، فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة علىٰ قبحه، وأنه لا يليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في الإلـهية[٢]، وعبادة غيره معه بما ضربه له[٣] من الأمثال، وأقام علىٰ بطلانه من الأدلة العقلية، ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنىٰ.

وعند نفاة التحسين والتقبيح يجوز في العقل أن يأمر بالإشراك به، وعبادة غيره، وإنما علم قبحه بمجرد النهي عنه.

فيا عجباً! أي فائدة تبقىٰ في تلك الأمثال والحجج، والبراهين الدالة علىٰ قبحه في صريح العقول [١٠٩/أ] والفطر؟، وأنه أقبح القبيح، وأظلم الظلم؟، وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي،

---

(١) في ق، أ «فيظنون»، وفي م «فيظنون».

(٢) في ح٢، م، د، غ، أ، ح١ «ألـهيته».

(٣) في أ، ب، ح٢، ق، غ، د، م «لـهم».

وأن العلم بقبحه بديهي[1] معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم علىٰ ما في عقولهم وفطرهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة؛ بل نفىٰ عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره، فأخبر أنهم صم بكم عمي، وذلك وصف قلوبهم، لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق، وشبههم بالأنعام التي لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل، ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل، وأنهم لو رجعوا إلىٰ أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال[2] تعالىٰ [حاكياً عنهم][3]: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وكم يقول لهم في كتابه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. فينبههم علىٰ ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح، ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه[4] أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلي وحسي ينبه به العقول علىٰ حسن ما أمر به، وقبح ما نهىٰ عنه، فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول

---

(١) في ب زيادة «فذلك».

(٢) في أ، غ، د، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من غ، أ، ب، د، م، ح١، ح٢، ق.

(٤) في ح١ «أنهم».

معنىٰ ، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي ، دون ضرب الأمثال ، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحس والعقل.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره ، كقوله تعالىٰ : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم : ٢٨] ، يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له ، فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ، ولا يرضىٰ [١٠٩/ب] بذلك ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي ؟ ، وهذا يبين أن قبح عبادة غيره تعالىٰ مستقر في العقول والفطر ، والسمع نبه العقول وأرشدها إلىٰ معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا[١] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٢٩] ، احتج سبحانه علىٰ قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون[٢] سيئوا الملكة ، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له ، فهل يصح في العقول استواء حال العبدين ؟ ، فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته للواحد[٣] الحق ؟ ، لا يستويان.

---

(١) في الأصل ، ش ، د ، ق « سالما ».

(٢) « متعاسرون » ساقطة من ش .

(٣) في ب ، ح١ ، م ، أ ، غ ، د ، ق « لإلهه ».

وكذلك قوله تعالىٰ ممثلا لقبح الرياء المبطل للعمل ، والمن[١] والأذىٰ المبطل للصدقات بـ « صفوان » وهو الحجر الأملس « عليه تراب » غبار قد لصق به فأصابه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب ، «فتركه صلدا» أملس لا شيء عليه ، وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه ، فـ « الصفوان » وهو الحجر ، كقلب المرائي والمانّ والمؤذي. والتراب الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته ، والوابل المطر الذي به حياة الأرض ، فإذا صادفها لينة قابلة[٢] ، نبت فيها الكلأ ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصم ، لم ينبت فيها شيئا ، فجاء هذا الوابل إلىٰ التراب الذي علىٰ الحجر ، فصادفه رقيقا ، فأزاله ، فأفضىٰ إلىٰ حجر غير قابل للنبات[٣].

وهذا يدل علىٰ أن قبح المن والأذىٰ والرياء مستقر في العقول ، فلذلك نبهها علىٰ شبهه ومثاله[٤].

وعكس ذلك قوله : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ

---

(١) « والمن » ساقطة من ش .

(٢) « قابلة » ساقطة من أ .

(٣) ذكر الله عز وجل هذا المثل في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤].

(٤) في ش « شبهها ومثالها ».

﴿فَإِن لَّمْ [١١٠/ أ] يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فإن كانت هذه الجنة التي بموضع عال حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد، فأخرجت ثمرها[1] ضعفي ما يخرج غيرها، إن كانت مستحسنة في العقل والحس، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا شكورهم[2]، بثبات من نفسه، وقوة علىٰ الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرجف علىٰ خروجها، ويداه ترتعد[3]، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق علىٰ هذين القسمين، كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت، كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف، فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص، والقوة واليقين فيه، وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبه العقول علىٰ ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فنبه سبحانه العقول علىٰ قبح ما فيها من

---

(١) في أ، ح٢، ق، د، ح١، م، ب، غ، ش «ثمرتها».

(٢) في أ، غ، ح٢، م، ح١، «ولا لشكور» في ق، د «ولا شكور»، وفي ب «ولا لشكورهم».

(٣) في ش، غ، د، م، ق، ب، ح٢ «ترتعدان»، وفي ح١ «ترعدان».

الأعمال السيئة[1] التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها سبحانه بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث يخشىٰ عليهم الضيعة وعلىٰ نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، فأرجىٰ[2] ما هو له، وأسر ما كان به إذ أصابته نار شديدة فأحرقته، فنبه العقول علىٰ أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات بعدها كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس برجل عمل بطاعة الله زمانا، فبعث الله إليه[3] الشيطان، فعمل بمعاصي الله حتىٰ أغرق أعماله. ذكره البخاري [١١٠/ ب] في صحيحه[4].

أفلا تراه نبه العقول علىٰ قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل؟، ونفاة التعليل والأسباب والحكم وحسن الأفعال وقبحها يقولون ما ثم إلا محض المشيئة، لا أن بعض الأعمال يبطل بعضها، وليس فيها ما هو قبيح لعينه، حتىٰ يشبه بقبيح آخر، وليس فيها ما هو منشأ لمفسدة أو مصلحة

---

(١) سقطت من أ، غ، ب، ح١ العبارة هكذا: «علىٰ ما فيها من قبح الأعمال السيئة».

(٢) في ش، ب، ح١، ح٢، م زيادة «وأفقر».

(٣) «إليه» ساقطة من ش.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٢٠١)، ح: (٤٥٣٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، قال عمر: أي عمل؟، قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتىٰ أغرق أعماله.

تكون سببا لهما[١]، ولا لها[٢] علل غائية هي مفضية إليها[٣]، وإنما هي متعلق المشيئة والإرادة، والأمر والنهي فقط.

والفقهاء لا يمكنهم البناء علىٰ هذه الطريقة البتة، فكلهم مجمعون إذا تكلموا بلسان الفقه علىٰ بطلانها، إذ[٤] يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم، ويفرقون بين المصالح الخالصة[٥] والراجحة والمرجوحة، والمفاسد التي هي كذلك، ويقدمون أرجح المصلحتين علىٰ مرجوحهما، ويدفعون أقوىٰ المفسدتين باحتمال أدناهما، ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال، ومعرفة رتبها.

وكذلك الأطباء لا يصح[٦] لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوىٰ الأدوية والأغذية والأمزجة[٧] وطبائعها، ونسبة بعضها إلىٰ بعض، ومقدار تأثير بعضها في بعض، وانفعال بعضها عن البعض[٨]، والموازنة بين قوة الدواء وقوة

---

(١) في غ، أ، م، د، ح١، م، ح٢، د «لها».

(٢) في ش «لهما».

(٣) العلة الغائية: هي ما يوجد الشيء لأجله. التعريفات ٢٠٢، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/٣١٦، الكليات ٦٢٠.

(٤) في م، ح٢ «و» بدل «إذ».

(٥) في غ «الخاصة».

(٦) في غ، ح١، أ «يصلح».

(٧) في ح١، م، ح٢، غ، د، أ، ق «والأمزجة والأغذية».

(٨) في ش «بعض».

المرض ، وقوة المريض[1] ، ودفع الضد بضده ، وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبه ، فصناعة الطب وعلمه مبنية علىٰ معرفة الأسباب والعلل ، والقوىٰ والطبائع والخواص ، فلو نفوا ذلك وأبطلوه ، وأحالوا علىٰ محض المشيئة ، وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل ، وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء ، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ، ليس في أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر ، لفسد علم الطب. وبطلت حكم[2] الله تعالىٰ؛ بل العالم مربوط بالأسباب [١١١/ أ] والقوىٰ ، والعلل الفاعلية والغائية[3].

وعلىٰ هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم ، والكل مربوط بقضائه وقدره ومشيئته ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا شاء سلب قوة الجسم الفاعل منه ومنع تأثيرها. وإذا شاء جعل في الجسم المنفعل قوة تدفعها وتمنع موجبها مع بقائها ، وهذا لكمال قدرته ونفوذ مشيئته.

أقسام الناس في الأسباب والقوى والطبائع

والناس في الأسباب والقوىٰ والطبائع ثلاثة أقسام :

منهم : من بالغ في نفيها وإنكارها ، فأضحك العقلاء علىٰ عقله ، وزعم أنه بذلك ينصر الشرع ، فجنىٰ علىٰ العقل والشرع ، وسلط خصمه عليه.

ومنهم : من ربط العالم العلوي والسفلي بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل

---

(١) سقط من ش قوله : « وقوة المريض ».

(٢) في أ ، ح١ ، غ ، د ، م ، ح٢ ، ق « حكمة ».

(٣) العلة الغائية : سبق تعريفها ، أما العلة الفاعلية فهي : ما يوجد الشيء لسببه. التعريفات ٢٠٢ ، الكليات ص ٣٠٤ ، ٦٢٠.

مختار، مدبر لها يصرفها كيف أراد[1]، فيسلب قوة هذا ويقيم لقوة هذا قوة تعارضه، ويكف قوة هذا عن التأثير مع بقائها، ويتصرف فيها كما يشاء ويختار.

وهذان طرفان جائران عن الصواب.

ومنهم: من أثبتها خلقا وأمرا، قدرا وشرعا، وأنزلها بالمحل الذي أنزلها الله به، من كونها تحت تدبيره ومشيئته، وهي طوع المشيئة والإرادة، ومحل جريان حكمها عليها، فيقوي سبحانه بعضها ببعض، ويبطل إن شاء بعضها ببعض، ويسلب بعضها قوته وسببيته، ويعريه منها، ويمنعه من موجبها مع إبقائها عليه، ليُعْلِم خلقَه أنه الفعال لما يريد، وأنه لا مستقل[2] بالفعل والتأثير غير مشيئته، وأن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت مع كونه سببا.

وهذا باب عظيم نافع في التوحيد، وإثبات الحكم، يوجب للعبد إذا تبصر فيه الصعود من الأسباب إلىٰ مسببها، والتعلق به دونها، وأنها لا تضر ولا تنفع[3] إلا بإذنه، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضارا، وضارها نافعا، ودواءها داء، وداءها دواء، فالالتفات إليها بالكلية [١١١/ ب] شرك مناف للتوحيد، وإنكارها أن تكون أسبابا بالكلية قدح في الشرع والحكمة، والإعراض عنها مع العلم بكونها أسبابا نقصان في العقل[4]، وتنزيلها منازلها، ومدافعة

---

(١) في أ «يشاء».

(٢) في ش «لا يستقل».

(٣) في م «لا تنفع ولا تضر».

(٤) وردت هذه العبارة عند المؤلف في آخر الكتاب ٣/ ٤٩٩، بلفظ آخر، فيه بعض الاختلاف

بعضها ببعض ، وتسليط بعضها علىٰ بعض ، وشهود الجمع في تفرقتها ، والقيام بها هو محض العبودية والمعرفة ، وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة. والله أعلم.



فصل

فناء الصوفية في توحيد الربوبية

وأما غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة فيْ هذا الباب فحيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية ، والفناء[1] في توحيد الربوبية من مقامات العارفين؛ بل أجل مقاماتهم ، فساروا شائمين لبرق هذا الشهود ، سالكين لأودية الفناء فيه ، وحثهم علىٰ هذا السير ورغبهم فيه ما شهدوه من حال أرباب الفرق

عما هنا ، فقال : وقد قال بعض أهل العلم : الالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

ووردت العبارة عند شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١/ ١٣١ ، ١٠/ ٣٥ مماثلة لما ذكره المؤلف في آخر الكتاب؛ ولكن بدل قوله : « تغيير في وجه العقل » ، قال : « نقص في العقل ».

وذكر نحوا من ذلك الغزالي في إحياء علوم الدين في أول كلامه علىٰ التوكل ٤/ ٢٤٣.

وعندما أورد ابن القيم العبارة في آخر الكتاب قال : « وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح وتقييد ، فالالتفات إلىٰ الأسباب ضربان : أحدهما : شرك ، والآخر : عبودية وتوحيد. فالشرك : أن يعتمد عليها ، ويطمئن إليها ، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود ، فهو معرض عن المسبب لها » إلىٰ أن قال : « وأما محوها أن تكون أسباباً : فقدح في العقل والحس والفطرة ، فإن أعرض عنها بالكلية ، كان ذلك قدحاً في الشرع وإبطالا له ».

(١) في د « والقيام ».

الطبعي ، فأنفوا من صحبتهم في الطريق ، ورأوا مفارقتهم فرضا معينا لا بد لـهم[1] منه. فلما عرض لـهم الفرق الشرعي[2] في طريقهم ، وَرَدَ عليهم منه أعظم وارد فرّق جمعيتَهم ، وقسّم وحدةَ عزيمتهم ، وحال بينهم وبين عين الجمع الذي هو نهاية منازل سيرهم[3]؛ فافترقت طرقهم في هذا الوارد[4] العظيم.

فمنهم من اقتحمه ولم يلتفت إليه ، وقال : الاشتغال بالأوراد عن عين المورد[5] انقطاع عن الغاية ، والقصد من الأوراد : الجمعيةُ علىٰ الأمر ، فما

---

(١) « لـهم » ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٢) يقصد الصوفية بالفرق: ما يصدر من العبد من أفعال تكون كسباً لـه ومشاهدته لتلك الأفعال ، فإن كانت هذا الأفعال من حظوظ نفسه ، ومما هو من طبيعة البشر فهو فرق طبعي ، وإن كانت مما جاءت به الشريعة من الأوامر فهي فرق شرعي.

قال الكاشاني في لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ : وقالوا : الجمع هو الاشتغال بالحق بحيث يجتمع الهم ، ويتفرغ الخاطر للتوجه إلىٰ حضرة قدسه تعالىٰ ، وأن الفرق هو تفرقة الخاطر عن ذلك ، ويقرب من هذا قولـهم في التفرقة بأنها : عبارة عن اشتغال النفس بقوىٰ البدن ، والتصرف فيها ، والانهماك في لذّاتها ، وأن يجمع إقبال النفس علىٰ العالم القدسي مشتغلة به عن العالم الحسي. انتهىٰ. وسيأتي بعد قليل مزيد بيان لذلك من المؤلف رحمه الله.

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ ، الرسالة القشيرية ص ٦٤-٦٥ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥ ، المدارج ٣/ ٤٢٦.

(٣) قال الـهروي في منازل السائرين في باب الجمع ١٣٥ : فأما جمع العين فهو تلاشي كل ما تقلـه الإشارة في ذات الحق حقا ، والجمع غاية مقام السالكين ، وهو طرف بحر التوحيد.

(٤) في ش « الوادي ».

(٥) في ش « الورد » ، وفي غ « المورود » ، وفي ح١ : « الموارد ».

للاشتغال[1] عن المقصود بالوسيلة بعد الوصول إليه ، والرجوع من حضرته إلىٰ منازل السفر إليه ؟.

وربما أنشد بعضهم :

يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد[2]

فإذا اضطر أحدهم إلىٰ التفرقة بوارد الأمر ، قال : ينبغي أن يكون الفرق علىٰ اللسان موجودا ، والجمع في القلب مشهودا.

ثم من هؤلاء من يسقط الأوامر والنواهي جملة ، ويرىٰ القيام بها من باب ضبط ناموس الشرع [١١٢/ أ] ، ومصلحة العموم ، ومبادئ السير ، فهي التي تحث أهل الغفلة علىٰ التشمير للسير ، فإذا جد في السير[3] استغنىٰ بقربه وجمعيته عنها[4].

ومنهم : من لا يرىٰ سقوطها إلا عن من شهد الحقيقة الكونية ، ووصل إلىٰ مقام الفناء فيها ، فمن كان هذا مشهده ، سقط عنه الأمر والنهي عندهم.

وقد يقولون : شهود الإرادة يسقط الأمر[5] ، وفي هذا المشهد يقولون : العارف لا يستقبح قبيحة ، ولا يستحسن حسنة. ويقول قائلهم : العارف لا

---

(١) في م ، أ ، غ ، د ، ق ، ح٢ ، ب « فما الاشتغال ».

(٢) تقدم ذكر هذا البيت ص٣٥٠ .

(٣) في غ ، ب ، ح٢ ، ق ، ح١ ، أ ، م ، د « المسير ».

(٤) انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي ٥١٥.

(٥) في ح٢ زيادة « والنهي ».

ينكر منكرا، لاستبصاره بسر الله تعالىٰ في القدر.

ويقولون: القيام بالعبادة مقام التلبيس[1]. ويحتجون بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩].

وهذا من أقبح الجهل، فإن هذا داخل في جواب «لو» التي ينتفي بها الملزوم وهو المقدم لانتفاء اللازم، وهو الجواب، وهو التالي. فانتفاء جعل الرسول ملكا كما اقترحوه لانتفاء التلبيس من الله تعالىٰ عليهم. والكفار كانوا قد قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[الأنعام: ٨]، [أي نعاينه ونراه؛ وإلا[2] فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه، فهم اقترحوا نزول

---

(١) عرف الجرجاني التلبيس بأنه: ستر الحقيقة، وإظهارها بخلاف ما هي عليه.

وعرف الهروي التلبيس بأنه: تورية بشاهد معار عن موجود قائم.

واسْتَدَل علىٰ مقام التلبيس بالآية التي ذكر المؤلف أنهم يحتجون بها، وقد رد عليه ابن القيم استدلاله بها، فقال عند شرحه لكلام الهروي في باب التلبيس: ليته لم يستشهد بهذه الآية في هذا الباب، فإن الاستشهاد بها علىٰ مقصوده أبعد شاهد عليه، وأبطله شهادة، وليته لم يسم هذا الباب «بالتلبيس، واختار له اسما أحسن منه موقعا». ثم تكلم ابن القيم علىٰ الآية، وبين معناها، ثم شرح بعد ذلك التعريف، وكلام الهروي علىٰ مقام التلبيس، وبين ما فيه من الباطل. وذكر الكاشاني أن التلبيس ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: تلبيس المبتدأ، ويسمىٰ تلبيس الابتداء، وتلبيس المبتدئ.

الثاني: تلبيس المنتَهَىٰ، ويسمىٰ تلبيس الانتهاء، وتلبيس المنتهي.

انظر: منازل السائرين ١٣٠، المدارج ٣/ ٣٩٢-٤١٠، التعريفات ٩١، لطائف الإعلام ١/ ٣٤٤-٣٤٦.

(٢) «وإلا» ساقطة من أ.

ملك[1]][2] يعاينونه، فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، ولا أنزل ملكا يرونه. فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، أي لوجب العذاب، وفرغ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب. وهذا نظير قوله في الحجر: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٧]، قال الله عز وجل: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، والحق هاهنا العذاب. ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ[3]﴾ [الأنعام: ٩]، أي لو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة آدمي، إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها. وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم؛ لأنهم لا يدرون أرجل هو [١١٢/ ب] أو ملك[4]؟. فلو[5] جعلناه ملكا[6] رجلا لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

وقوله: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ فيه قولان:

---

(١) في د، ح٢، ق، أ، غ، م، ح١ «الملك».

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من ق، ب، أ، غ، د، م، ح١، ح٢.

(٣) سقط من ب، ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق قوله: «وللبسنا عليهم ما يلبسون».

(٤) في ق، ش، ح٢، ح١، م، د، أ، ب «أم ملك».

(٥) في غ، ب، أ، د، م، ح٢، ق «ولو».

(٦) «ملكا» ساقطة من ش، ب، أ، ح١، م، غ، ق، ح٢، د.

أحدهما : أنه جزاء علىٰ لبسهم[١] صنعنا بهم[٢]. والمعنىٰ : أنهم كما[٣] شبهوا علىٰ ضعفائهم ، ولبسوا عليهم الحق بالباطل ، نشبه[٤] عليهم ونلبس[٥] عليهم الملك بالرجل.

والثاني : أنا نلبس عليهم ما لبسوا علىٰ أنفسهم ، فإنهم خلطوا علىٰ أنفسهم، ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ عنادًا[٦] منهم ، بعد معرفتهم صدقه ، وطلبوا رسولاً ملكيًّا[٧] يعاينونه. وهذا تلبيس [منهم][٨] علىٰ أنفسهم ، فلو أجبناهم إلىٰ ما اقترحوه لم يؤمنوا عنده ، وللبسنا عليهم لبسهم علىٰ أنفسهم[٩].

فأي تعلق لهذا بالتلبيس الذي تذكره[١٠] هذه الطائفة من تعليق الكائنات[١١] والمثوبات والعقوبات بالأسباب ، وتعليق المعارف بالوسائط ، والقضايا

(١) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق زيادة « علىٰ ».

(٢) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق « ضعفائهم ».

(٣) « كما » ساقطة من غ .

(٤) في ح١ ، ق ، غ ، د ، ح٢ ، م « تشبه » ، وفي ش « يشبه ».

(٥) في ح١ ، غ ، ق ، ش ، د ، ح٢ ، م « تلبس » ، وفي ش « يلبس ».

(٦) « عنادا » ساقطة من سائر النسخ.

(٧) في ش ، أ « ملكا ».

(٨) زيادة من غ .

(٩) ذكر القولين في الآية البغوي في تفسيره ٢/ ٨٦.

(١٠) في ش « يذكره ». وفي غ ، ب ، أ ، ش ، ح١ ، ح٢ ، م ، ق ، د « ذكرته ».

(١١) في ب ، ح١ « الكنايات ».

بالحجج، والأحكام بالعلل، والانتقام بالجنايات، والمثوبات بالطاعات، مما هو محض الحكمة وموجبها.

وأثر اسمه «الحكيم» في الخلق والأمر، والخلق والأمر إنما قام بالأسباب، وكذلك الدنيا والآخرة، وكذلك الثواب والعقاب، فجعل الأسباب منصوبة للتلبيس من أعظم الباطل شرعا وقدرا.

والذي أوقع هؤلاء في هذا الغلو نفرتهم من أرباب الفرق الأول، ومشاهدتهم قبيح[1] ما هم عليه.

وهم لعمر الله خير منهم، مع ما هم عليه، فإنهم مقرون بالجمع والفرق، [و][2] أن الله رب كل شيء، ومليكه وخالقه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وبأنه فرق بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه، وإن كانوا كثيرا ما يفرقون بأهوائهم ونفوسهم، فهم في فرقهم النفسي خير من أهل هذا الجمع، إذ هم مقرون بأن الله يأمر بالحسنات ويحبها، وينهىٰ عن السيئات ويبغضها، وإذا فرقوا بحسب [١١٣/ أ] أهوائهم، وفرقوا بنفوسهم لم يجعلوا هذا الفرق دينا يسقط عنهم أمر الله تعالىٰ ونهيه؛ بل يعترفون أنه ذنب قبيح، وأنهم مقصرون؛ بل مفرطون في الفرق الشرعي. ونهاية ما معهم صحة إيمان مع غفلة وفرق نفساني، وأولئك معهم جمع، وشهود يصحبه فساد إيمان، وخروج عن الدين.

---

(١) في غ، أ، م، ح١، ب، د، ح٢ «قبح».

(٢) زيادة من ح١.

ومن العجب أنهم فروا من فرق أولئك النفسي إلىٰ جمع أسقط التفرقة الشرعية ، ثم آل أمرهم إلىٰ أن صار فرقهم كلّه نفسيّاً ، فهم في الحقيقة راجعون إلىٰ فرقهم ، ولا بد. فإن الفرق أمر ضروري للإنسان ولا بد ، فمن لم يفرق بالشرع فرق بالنفس والهوىٰ. فهم أعظم الناس اتباعا لأهوائهم ، يميلون مع الهوىٰ حيث مال بهم ، ويزعمون أنه الحقيقة.

وبالجملة فلهذا السلوك لوازم عظيمة البطلان ، مناقضة[1] للإيمان ، [جالبة للخسران ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ[2]]﴾ [المائدة : ٦٠]. وآخر أمر صاحبه : الفناء في شهود الحقيقة العامة المشتركة بين الأبرار والفجار ، وبين الملائكة والشياطين[3] ، وبين الرسل وأعدائهم ، وهي الحقيقة الكونية القدرية. ومن وقف معها ولم يصعد إلىٰ الفرق الثاني ، وهو الحقيقة [الدينية][4] النبوية فهو زنديق كافر.

فصل

الفرق الثاني

ومنهم من لم ير إسقاط الفرق الثاني جملة[5]؛ بل إنما يسقطه عن الواصل إلىٰ عين الجمع ، الشاهد للحقيقة. وما دام سالكاً ، أو محجوباً عن شهود

---

(١) في ح١ ، د ، ب ، أ ، ح٢ ، م ، غ ، ق « منافية ».

(٢) زيادة من ح١ ، ق ، م ، غ ، ح٢ ، د ، أ ، ب.

(٣) في أ « والشيطان ».

(٤) زيادة من ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق .

(٥) المراد بالفرق الثاني : الفرق الشرعي .

الحقيقة ، فالفرق لازم لـه.

وهـؤلاء أيـضا مـن جـنس الفريـق الأول؛ بـل هـم خواصـهم؛ فـإذا وصـل واصلهم إلىٰ شهود حقيقة الجمع ، لم يجب عليه القيام بتفرقة الأوامر ، وإن قام بها فلحفظ المرتبة ، وضبط الناموس ، وحفـظ الـسالكين عـن الـذهاب مـع الفرق الطبيعي قبل شهود الحقيقة ، ويسمون هذه الحال « تلبيسا » وقـد تقـدم ذكره.

وسيأتي إن شاء الله تعـالىٰ كـشف هـذا التلبيس الـذي يـشيرون إليه[1] كـشفا بيِّناً[2].

وقد تقدم أنهم يحتجـون علىٰ سقوط الفرق عمـن شـهد الحقيقـة بقولـه : ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩][3].

ويقولون [١١٣/ ب] : إن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان في هـذا المقام ، وإنما كان قيامه بالأعمال تشريعا. وذكرنـا أن اليقين المـوت. وأنـه مـن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأوامر والنواهي لا تسقط عن العبد ما دام في دار التكليف ، إلا إذا زال عقلـه وصار مجنوناً.

---

(١) « إليه » ساقطة من ح٢ .

(٢) سـيأتي كـلام المؤلـف عليـه عنـد كلامـه عـلىٰ منـزلة « التلبـيس » في آخـر الكتـاب؛ انظـر ٣/ ٣٩٢-٤١٠.

(٣) سبق الكلام علىٰ ذلك ص ٥٠٤، ٥٠٨ .

فصل

ومنهم من يرىٰ القيام بالأوامر[١] واجبا إذا لم تفرق جمعيته ، فإذا فرقت جمعيته رأىٰ الجمعية أوجب منها ، فيزعم أنه يترك واجبا لما هو أوجب منه ، وأهم منه ، وهذا أيضا جهل وضلال.

وإن رأىٰ أن الأمر لم يتوجه إليه في حال الجمعية فهو كافر ، وإن علم توجهه إليه ، وأقدم علىٰ تركه ، فله حكم أمثاله من العصاة والفساق.

فصل

ومنهم من يرىٰ أن[٢] الأمر لا يسقط عنه ؛ ولكن إذا ورد عليه وارد الفناء والجمع غيب عقله واصطلمه ، فلم يشعر بوقت الواجب ولا حضوره ، حتىٰ يفوته فيقضيه ، فهذا متىٰ استدعىٰ ذلك الفناء وطلبه فليس بمعذور في اصطلامه ، بل هو عاص لله[٣] في استدعائه ما يعرضه لإضاعة حقه ، وهو مفرط، أمره إلىٰ الله ، ومتىٰ هجم عليه بغير استدعاء ، وغلب عليه[٤] مع مدافعته له ، خشية إضاعة الحق ، فهذا معذور ، وليس بكمال في حاله ؛ بل الكمال وراء ذلك ، وهو الانتقال عن وادي الجمع والفناء ، والخروج عنه إلىٰ أودية

---

(١) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، أ ، غ زيادة « والنواهي ».

(٢) « أن » ساقطة من ب ، ح١ ، غ ، أ .

(٣) في م « به » بدل « لله ».

(٤) في الأصل ، ش ، ح١ ، ح٢ ، ق ، م « عنه ».

الفرق الثاني والبقاء ، فالشأن كل الشأن فيه ، وهو الذي كان ينادي عليه شيخ الطائفة علىٰ الإطلاق الجنيد بن محمد رحمه الله [١] ، ووقع بينه وبين أصحاب هذا الجمع والفناء ما وقع لأجله ، فهجرهم وحذر منهم ، وقال عليكم بالفرق الثاني ، فإن الفرق فرقان ، الفرق الأول : وهو النفسي الطبعي [٢] المذموم ، وليس الشأن في الخروج منه إلىٰ الجمع والفناء في توحيد الربوبية والحقيقة [١١٤/ أ] الكونية ؛ بل الشأن في شهود هذا الجمع ، واستصحابه في الفرق الثاني ، وهو الحقيقة الدينية ، فمن [٣] لم يتسع لذلك فليترك جمعه وفناءه تحت قدمه ، ولينبذه وراء ظهره ، مشتغلا بالفرق الثاني ، والكمال أيضا وراء ذلك ، وهو شهود الجمع في الفرق ، والكثرة في الوحدة ، وتحكيم الحقيقة الدينية علىٰ الحقيقة الكونية ، فهذا حال العارفين الكمل.

---

(١) انظر أقواله في الأمر بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ومتابعة السنة والقيام بما أوجب الله في: طبقات الصوفية للسلمي ١٢٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ ، ومن هذه الأقوال : ما رواه محمد بن الحسن السلمي ، قال : سمعت أبابكر الرازي يقول : سمعت أبا محمد الجريري يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يصلون إلىٰ ترك الحركات من باب البر والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها ، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوىٰ في حالي. طبقات السلمي ١٣١ ، وأخرج هذه الحكاية عنه الأصفهاني في الحلية ١٠/ ٢٧٨.

(٢) في ش ، م « الطبيعي ».

(٣) ساقطة من غ « فمن ».

يُسقَىٰ ويَشربُ لا تلهيه سكرتُه عن النديم ولا يلهو عن الكأس[١]

«إني لأسمع بكاء الصبي ، وأنا في الصلاة ، فأتجوز فيها ، كراهة أن أشق علىٰ أمه»[٢] ، « وكان في صلاته واشتغاله بالله وإقباله عليه وهو يشعر بعائشة رضي الله عنها إذا استفتحت الباب ، فيمشي خطوات يفتح لها ، ثم يرجع إلىٰ مصلاه »[٣]. « وذكر في صلاته تبراً كان عنده ، فصلىٰ ، ثم قام مسرعا فقسمه ، وعاد إلىٰ مجلسه»[٤] ، فلم تشغله جمعيته العظمىٰ ، التي لا يدرك لها من بعده

---

(١) ذكر هذا البيت الكاشاني في لطائف الإعلام (١/ ٣٧٧) ، بلفظ : « يملي ويشرب لا تلهيه سكرته ».

(٢)) أخرجه البخاري في الأذان ، (٢/ ٢٠١) ، ح : (٧٠٧) ، عن أبي قتادة ، بلفظ : « **إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز في صلاتي ، كراهية أن أشق علىٰ أمه** ». وأخرجه مسلم في الصلاة ، (١/ ٣٤٢) ، ح : (٤٧٠) عن أنس ، بلفظ : « كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه ، وهو في الصلاة ، فيقرأ بالسورة الخفيفة ، أو بالسورة القصيرة ».

(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة ، (٢/ ٤٩٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب. وأخرجه النسائي في السهو ، (٣/ ١١) ، وأخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١) ، وقد حسن الحديث الألباني. انظر : إرواء الغليل (٢/ ١٠٨) ، صحيح سنن النسائي (١/ ٣٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ، (٢/ ٣٣٧) ، ح : (٨٥١) عن عقبة قال : صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطىٰ رقاب الناس إلىٰ بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم ، فرأىٰ أنهم عجبوا من سرعته ، فقال : « **ذكرت شيئاً من تبر عندنا ، فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته** ». وأخرجه في كتاب العمل في الصلاة ، (٣/ ٨٩) ، ح : (١٢٢١) ، وفيه : « ذكرت وأنا في الصلاة تبراً عندنا ... » الحديث ، وأخرجه النسائي في السهو ، (٣/ ٨٤) ، وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٧-٨).

رائحة ، عن هذه الجزئيات ، صلوات الله وسلامه عليه .



فصل

ومنهم من يتمكن الإيمان والعلم من قلبه ، فإذا جاء الأمر قام إليه ، وبادر بجمعيته ، فإن صحبته وإلا طرحها ، وبادر إلىٰ الأمر ، وعلم أنه لا يسعه غير ذلك ، وأن الجمعية فضل ، والأمر فرض ، ومن ضيع الفروض للفضول ، حيل بينه وبين الوصول ؛ لكن إذا جاءت المندوبات التي هي محل الأرباح والمكاسب العظيمة ، والمصالح الراجحة من عيادة المريض ، واتباع الجنازة[1] ، والجهاد المستحب ، وطلب العلم النافع ، والخلطة التي ينتفع بها وينفع غيره ، لم[2] يؤثرها علىٰ جمعيته ، ورأىٰ جمعيته خيرا له وأنفع منها ، فهذا غير آثم ولا مفرط إلا إذا تركها رغبة عنها بالكلية ، واستبدالا بالجمعية ، فهذا ناقص.

أما إذا قام بها وتركها أحياناً ، لاشتغاله [١١٤/ ب] بجمعيته ، فهذا غير مذموم ؛ بل هذا حقيقة الاعتكاف المشروع ، وهو جمعية العبد علىٰ ربه ، وخلوته به ، « وكان النبي ﷺ يحتجر بحصير في المسجد في اعتكافه ، يخلو به مع ربه عز وجل »[3] ، ولم يشتغل بتعليم الصحابة ، وتذكيرهم في تلك

---

(١) في ش « الجنائز ».

(٢) في م « ولم ».

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ، (٢/ ٢١٤) ، ح : (٧٣١) عن زيد بن ثابت بلفظ : « أن رسول الله ﷺ اتخذ حجرة - قال حسبت أنه قال : من حصير - في رمضان فصلىٰ فيها ليالي -

الحال ، ولهذا كان المشهور من مذهب أحمد وغيره ، أنه لا يستحب للمعتكف إقراء القرآن والعلم ، وخلوته للذكر والعبادة أفضل له ، واحتجوا بفعل النبي ﷺ[1].



فصل

وأكمل من هؤلاء من إذا جاءه تفرقة الأمر ، ورآها أرجح من مصلحة الجمعية ، ولم يمكنه الجمع في التفرقة اشترىٰ الفاضل بالمفضول ، والراجح بالمرجوح. فإذا كان المندوب مفضولاً مرجوحاً ، والجمع خيرا منه ، اشتغل بالجمع عنه ، فهذا أعلىٰ الأقسام. والرجل كل الرجل من يرد من تفرقته علىٰ

فصلىٰ بصلاته ناس من أصحابه ...» الحديث ، وليس فيه ذكر الاعتكاف.

وأخرجه عن عائشة بلفظ : « **كان له حصير يبسطه بالنهار ، ويحتجره بالليل ، فثاب إليه ناس ، فصلوا وراءه** ».

وأخرج مسلم حديث زيد بن ثابت في المسافرين ، (١/ ٥٣٩-٥٤٠) ، ح : (٧٨١) ، وحديث عائشة في باب فضيلة العمل الدائم (١/ ٥٤٠) ، ح : (٧٨٢).

وأخرج مسلم في الصيام ، (٢/ ٨٢٥) ح ؛ (١١٦٧) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال : « **إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية علىٰ سدتها حصير ، قال : فأخذ الحصير بيده فنحاها في ناحية القبلة** » .

وأخرجه ابن ماجه في الصيام (١/ ٥٦٤).

(١) قال ابن قدامة عند كلامه علىٰ ما يستحب للمعتكف أن يفعله : فأما إقراء القرآن ، وتدريس العلم ودرسه ، ومناظرة الفقهاء ومجالستهم وكتابة الحديث ، ونحو ذلك مما يتعدىٰ نفعه ، فأكثر أصحابنا علىٰ أنه لا يستحب ، وهو ظاهر كلام أحمد ، وقال أبو الحسن الآمدي : في استحباب ذلك روايتان. المغني ٤/ ٤٧٩-٤٨١.

جمعه ، ومن جمعه علىٰ تفرقته ، فيقوي كل واحد منهما بالآخر ، ولا يلقي الحرب بينهما ، فإذا جاءت تفرقة الأمر جد فيها، وقام بها ممداً بها[١] لجمعيته ، مقويا لها بالأمر ، فإذا جاءت حالة[٢] الجمعية تقوىٰ بها علىٰ تفرقة الأمر ، فإذا تفرق تفرق لله ، ليجمعه عليه[٣] ، وإذا جاءت الجمعية قال : أجتمع لأتقوىٰ علىٰ أمر الله ورضاه ، لا لمجرد[٤] حظي ولذتي من هذه الجمعية. فما أكثر من يغيب بحظه منها ، ولذتها ونعيمها وطيبها ، عن مراد الله منه.

فتدبر هذا الفصل ، وأحط به علما ، فإنه من قواعد السلوك والمعرفة ، وكم قد زلت فيه من أقدام ، وضلت فيه من أفهام ، ومن عرف ما عند الناس ، أو[٥] نهض من مدينة طبعه إلىٰ السير[٦] إلىٰ الله ، عرف مقداره ، فمن عرفه عرف مجامع الطرق ، ومفترق الطرق التي تفرقت بالسالكين ، وأهل العلم والنظر. والله الموفق بالصواب.

---

(١) في ح١ « ممهداً ».

(٢) في ش « حال ».

(٣) في ق ، م ، د ، أ ، ح١ ، ح٢ ، ب ، غ بدل قوله : « فإذا تفرق تفرق لله ، ليجمعه عليه » العبارة كالآتي : «والبقاء به ، فيرد من هذا علىٰ هذا، ومن هذا علىٰ هذا ، فإذا جاءت تفرقة الأمر قال: أتفرق لله ، ليجمعني عليه ».

(٤) في ش « بمجرد ».

(٥) في غ « و ».

(٦) في أ « المسير ».

فصل

الفرق بين المحبة والرضا والمشيئة والإرادة

وأصل ذلك كله : [١١٥/أ] هو الفرق بين محبة الله ورضاه ، ومشيئته وإرادته الكونية ، وأن منشأ الضلال في هذا الباب من التسوية بينهما ، أو اعتقاد تلازمهما ، فسوىٰ بينهما الجبرية والقدرية ، وقالوا : المشيئة والمحبة سواء ، أو متلازمان.

ثم اختلفوا : فقالت الجبرية : الكون[١] كله قضاؤه وقدره ، طاعاته[٢] ومعاصيه[٣] ، خيره وشره ، فهو محبوبه.

ثم من[٤] تعبد منهم ، وسلك علىٰ هذا الاعتقاد ، رأىٰ أن الأفعال جميعها محبوبة للرب ، إذ هي صادرة عن مشيئته ، وهي عين محبته ورضاه ، وفني في هذا الشهود الذي كان اعتقادا ، ثم صار مشهدا ، فلزم من ذلك ما تقدم ، من أنه لا يستقبح سيئة ، ولا ينكر منكرا ، وتلك اللوازم الباطلة المنافية للشرائع جملة[٥].

---

(١) في الأصل ، ش : « والكون ».

(٢) في أ ، غ ، ب ، د ، ح١ « وطاعته » ، وفي الأصل ، ش « وطاعاته ».

(٣) في أ « ومعصيته ».

(٤) في م « فمن » بدل « ثم من ».

(٥) انظر : الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٧٦-٧٨ ، ١٣٨ ، والفتاوىٰ ٦/ ١١٥ ، شفاء العليل ٤٦٠.

ولما ورد على هؤلاء قوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] ، وقوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٣٨] ، واعتاص عليهم كيف يكون مكروها له ، وقد أراد كونه ؟ ، وكيف لا يحبه ، وقد أراد وجوده ؟ ، أولوا هذه الآيات ونحوها : بأنه لا يحبها ديناً ، ولا يرضاها شرعاً ، ويكرهها كذلك ، بمعنى أنه لا يشرعها ، مع كونه يحب وجودها ويريده.

فشهدوا في مقام الفناء كونها محبوبة الوجود ، ورأوا أن المحبة تقتضي موافقة المحبوب فيما يحبه ، والكون كله محبوبه ، فإنما أحبوا بزعمهم جميع ما في الكون ، وكذبوا وتناقضوا ، فإنما يحبون ما تهواه نفوسهم وإرادتهم ، فإذا جاء[1] في الكون ما لا يلائم أحدهم ويكرهه طبعه أبغضه ، ونفر منه وكرهه، مع كونه مرادا للمحبوب ، فأين الموافقة؟ ؛ وإنما وافقوا أهواءهم وإرادتهم.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء ، وهذه قضاؤه[2] ، فنحن نرضى بها ، فما لنا ولإنكارها ومعاداة فاعلها ؟ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ ، فتركب لاعتقادهم[3] ، كونها محبوبة للرب[4] ، وكونهم مأمورين بالرضا بها ، [١١٥/ ب] التسوية بين الأفعال ، وعدم استقباح شيء منها أو

---

(١) في ق ، غ ، ح١ ، ب ، م ، د ، أ ، ح٢ « كان » بدل « جاء ».

(٢) في غ ، أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م «وهذه قضاء من قضائه» ، وفي ق «وهذه قضاؤه من قضائه».

(٣) في ح٢ ، أ ، د ، غ ، ب ، ح١ ، غ ، ق « فتركب من اعتقادهم ».

(٤) في ش « كونها محبوب الرب ».

إنكاره.

وانضاف إلىٰ ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله. فلزم عن[١] ذلك رفع الأمر والنهي، وطي بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان، وصارت لهم هذه العقائد مشاهد، وكل أحد إذا ارتاض وصفا باطنه، تجلىٰ له فيه[٢] صورة معتقده، فهو يشاهدها[٣] بقلبه فيظنها حقا، فهذا حال هذه الطائفة.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله، ولا مرضية، فليست مقدرة له ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

قالوا: ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء، ومأمورون بسخط هذه الأفعال وبغضها وكراهتها[٤]، فليست إذا بقضاء الله، إذ الرضا والقضاء متلازمان، كما أن محبته ومشيئته متلازمان، أو متحدان.

فهؤلاء[٥] لا يجيء من سالكيهم وعبادهم ما جاء من سالكي الجبرية وعبادهم البتة، لمنافاة عقائدهم لمشاهد أولئك وعقائدهم؛ بل غايتهم التعبد والورع، وهم في تعظيم الذنوب والمعاصي خير من أولئك، وأولئك قد

---

(١) في ق، غ، ح١، ب، م، د، أ، ح٢ «من» بدل «عن».

(٢) في ق «في» بدل «فيه».

(٣) في الأصل «يشاهده».

(٤) في م، ح٢، أ، د، ب، ح١، غ، ق «وكرهتها».

(٥) في ق، غ، ح١، ب، د، أ، ح٢، م «وهؤلاء».

يكونون أقوىٰ حالا وتأثيرا منهم.

فمنشأ الغلط التسوية بين المشيئة والمحبة ، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء ، ونحن نبين ما في الفصلين ؛ [إن شاء الله تعالىٰ ، فإن القوة لله جميعاً](١).

فصل

الفرق بين المشيئة والمحبة

فأما المشيئة والمحبة فقد دل علىٰ الفرق بينهما القرآن والسنة ، والعقل ، والفطرة ، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالىٰ : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء : ١٠٨] ، فقد أخبر أنه لا يرضىٰ بما يبيتونه من القول المتضمن للبهت(٢) ، ورمي البريء ، وشهادة الزور ، وبراءة الجاني ، فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها(٣) ، مع أن ذلك كله بمشيئته ، إذ أجمع المسلمون علىٰ أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية ، الذين [١١٦/ أ] يقولون : يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء.

وتأويل من تأول الآية علىٰ أنه لا يرضاه دينا ، مع محبته لوقوعه ، مما ينبغي

---

(١) زيادة من ب ، ح١ ، د ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، ق.

(٢) في ح١ ، م ، غ ، ح٢ ، أ ، د ، ب ، ق « البهت ».

(٣) ذكر القصة التي نزلت الآية في شأنها ابن جرير في تفسيره ، والواحدي في أسباب النزول. انظر : تفسير الطبري ٥/ ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، أسباب النزول ١٢٤.

أن يصان كلام الله تعالىٰ عنه ، إذ المعنىٰ عندهم أنه محبوب له ؛ ولكن لا يثاب فاعله عليه ، فهو محبوب بالمشيئة ، غير مثاب عليه شرعا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنه مسخوط للرب ، مكروه له قدرا وشرعا ، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه ، فإنه يخلق ما يحب وما يكره ، وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه ، وفيها ما يبغضه ويكرهه ، كإبليس وجنوده ، وسائر الأعيان الخبيثة ، وفيها ما يحبه ويرضاه ، كأنبيائه ورسله ، وملائكته وأوليائه ، فهكذا[1] الأفعال كلها خلقه ، ومنها ما هو محبوب له ، وما هو مكروه له ، خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان ، قال[2][3] تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره ، قال[4] تعالىٰ : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر : ٧] ، فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره ، وأحدهما محبوب له مرضي ، والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله عقيب ما نهىٰ عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٣٨] ، فهو مكروه له ، مع

---

(١) في ق ، د ، أ ، ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، ب « وهكذا ».

(٢) في ق ، د ، أ ، ح٢ ، م ، ح١ ، غ ، ب « وقال ».

(٣) في د زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٤) في ق ، د ، أ ، ح٢ ، م ، ح١ ، غ ، ب « وقال ».

وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ[1] : « **إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال** »[2] ، فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة. وفي المسند عنه[3] « **إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتىٰ معصيته** »[4] ، فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين ، اجتمعا في المشيئة ، وافترقا في المحبة والكراهة ، وهذا أكثر من أن يذكر جميعه.

وقد فطر الله عباده علىٰ قولهم : هذا الفعل يحبه الله ، وهذا يكرهه الله ويبغضه ، وفلان يفعل [١١٦/ ب] ما لا يحبه الله ، والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه علىٰ أعدائه ، وذلك صفة قائمة به ، يترتب عليها العذاب واللعنة ، لا أن[5] السخط هو نفس العذاب واللعنة ؛ بل هما أثر السخط والغضب

---

(١) في ب ، ح١ ، أ ، غ ، د ، ق زيادة « أنه قال » ؛ وفي م ، ح٢ زيادة « قال ».

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (٣/ ٣٤٠) ح(١٤٧٧) ، ومسلم في الأقضية (٣/ ١٣٤١) ح(٥٩٣) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) « عنه » ساقطة من ب ، ح١ ، أ ، ح٢ ، م ، غ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٠٨) ، وابن حبان ، (الإحسان ٤/ ١٨٢) ، والبزار ، كشف الأستار (١/ ٤٦٩) ، وابن خزيمة (٢/ ٧٣) ، والبيهقي في السنن (٣/ ١٤٠) كلهم عن ابن عمر. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٦٢) ، وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، والبزار، والطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن. وصحح الحديث الألباني. انظر: إرواء الغليل (٣/ ٩) ، وصحح الحديث محققو مسند الإمام أحمد (١٠/ ١٠٧ ، ١١٢).

(٥) في ب « لأن » بدل « لا أن ».

وموجبهما، ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كل واحد غير الآخر.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»(١).

فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأولىٰ(٢) للصفة، والثاني لأثرها المترتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده، لا إلىٰ غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضىٰ عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره وأحذر، ومنعه أن يحل بي هي(٣) بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذتي(٤) بك منك: عياذي

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، (١/ ٣٥٢)، ح: (٤٨٦)، عن عائشة، وأبو داود في الصلاة، (١/ ٥٤٧)، والترمذي في الدعوات، (٥/ ٥٢٤)، والنسائي في الافتتاح، (٢/ ٢٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة، (١/ ٣٧٣)، عن علي بن أبي طالب.

(٢) في ب، أ، غ، ح١، م، ح٢، ق، ح٢، ق، د «فالأول».

(٣) في أ، ح١، غ، ب «هو».

(٤) في ح١، م، غ، أ، ق، د، ب، ح٢ «فعياذي».

بحولك وقوتك وقدرتك ورحمتك وإحسانك ، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك ، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ، ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك[1] ؛ بل هو منك[2] ، ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك ؛ بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك ، فأعوذ بك منك[3].

فلا[4] يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ، ومعرفة عبوديته.

وأشرنا إلىٰ شيء يسير من معناها ، ولو استقصي شرحها لقام منه سفر ضخم، ولكن قد فتح لك الباب ، فإن دخلت رأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن [١١٧/ أ] سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

والمقصود : أن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلىٰ محبوب للرب مرضي له ، ومسخوط مبغوض له مكروه له أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة ، من العقل والنقل[5] ، والفطرة والاعتبار ، فمن سوّىٰ بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عليها عباده ، وخالف المعقول والمنقول ، وخرج عما جاءت به

---

(١) في د ، ق زيادة « خلقك ».

(٢) في م ، ح١ ، غ ، أ ، ب ، ح٢ العبارة كالآتي : « فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ، ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك بل هو منك ».

(٣) انظر في الكلام علىٰ الحديث السابق ، وما ذكره المؤلف هنا : شفاء العليل ٤٤٩.

(٤) في ب ، ح١ ، أ ، غ ، ح١ ، م « ولا ».

(٥) في ش « من النقل والعقل ».

الرسل.

ولأي شيء نوّع سبحانه العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة، وأشهد عباده منها ما أشهدهم؟، لولا شدة غضبه وسخطه علىٰ الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له، فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه، وقوع أنواع المكاره بهم، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال ويرضاه أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعله، وشهود ما في العالم من إكرام أوليائه، وإتمام نعمه عليهم، ونصرهم وإعزازهم، وإهانة أعدائه وعقوبتهم، وإيقاع المكاره بهم، من أدل الدليل علىٰ حبه وبغضه وكراهته؛ بل نفس موالاته لمن والاه، ومعاداته لمن عاداه هي عين محبته وبغضه، فإن الموالاة أصلها الحب. والمعاداة أصلها البغض، فإنكار صفة المحبة والكراهة إنكار لحقيقة الموالاة والمعاداة.

وبالجملة: فشهود القلوب[1] لمحبته وكراهته، كشهود العيان لكرامته وإهانته.

* * *

---

(١) في ب «القلب».

فصل

وأما حديث الرضا بالقضاء فيقال :

حديث الرضا بالقضاء

أولا : بأي كتاب ، أم بأي سنة ، أم بأي معقول علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره ؟ ؛ بل جواز ذلك ، فضلا عن وجوبه؟ ، هذا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأدلة المعقول(١) ليس في شيء منها الأمر بذلك ، ولا إباحته.

بل من المقضي ما يرضىٰ به ، ومنه ما يسخط ويمقت(٢). ولا نرضىٰ بكل قضاء ، كما لا يرضىٰ به القاضي لأقضيته سبحانه ؛ بل من القضاء ما يسخط(٣) ، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ، ويمقت(٤) ، ويلعن ، ويذم [١١٧/ ب](٥).

---

(١) في ح٢ ، ش ، ب ، د ، م ، ح١ ، أ ، ق ، غ « العقول ».

(٢) في ح٢ ، ش ، ب ، د ، م ، ح١ ، أ ، ق ، غ « ما يسخطه ويمقته ».

(٣) في ح٢ ، ش ، ب ، د ، م ، ح١ ، أ ، غ « ما يسخطه ».

(٤) في ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، غ زيادة « عليه ».

(٥) القضاء يطلق ويراد به المقضي ، وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلىٰ قسمين : قضاء ديني شرعي ، وهذا يجب الرضا به. والقسم الثاني : قضاء كوني ، وهذا علىٰ ثلاثة أنواع : منه ما يجب الرضا به ، كالنعم والطاعات التي يجب شكرها ، ومن تمام شكرها الرضا بها. ومنه ما لا يجوز الرضا به وإن كان بقضاء الله وقدره ، وهذه المعائب والذنوب التي يسخطها الله. ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب ، وهناك من ذهب إلىٰ وجوبه.

ويطلق القضاء ويراد به فعله تعالىٰ ووصفه القائم به ، وهذا يرضىٰ به ، وهو من تمام الرضا بالله ربا. انظر : شفاء العليل ٤٦١ ، المدارج ٢/ ١٨٨-١٩٣ ، الاستقامة ٢/ ١٢٥ ، الفتاوىٰ ١٠/ ٤٠-٤٣ ، ٤٨٢-٤٨٣ ، ٧٠٩-٧١٠.

ويقال ثانياً : هاهنا أمران : قضاء ؛ وهو فعل قائم بذات الرب تعالىٰ ، ومقضي ؛ وهو المفعول المنفصل عنه ، فالقضاء كله خير[1] ، وعدل وحكمة ، فيرضىٰ به كله ، والمقضي قسمان : منه ما يرضىٰ به ، ومنه ما لا يرضىٰ به.

وهذا جواب من يقول : الفعل غير المفعول ، والقضاء غير المقضي.

وأما من يقول : [2] الفعل هو المفعول ، والقضاء عين المقضي ، فلا يمكنه أن يجيب بهذا الجواب.

ويقال ثالثا : القضاء له وجهان :

أحدهما : تعلقه بالرب تعالىٰ ، ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه يرضىٰ به كله.

الوجه الثاني : تعلقه بالعبد ، ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه ينقسم إلىٰ ما يرضىٰ به ، وإلىٰ ما لا يرضىٰ به.

مثال ذلك : قتل النفس مثلا ، له اعتباران ، فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه ، وجعله أجلا للمقتول ، ونهاية لعمره ، نرضىٰ به[3] ، ومن حيث[4] صدر من القاتل ، وباشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره ، وعصىٰ الله بفعله ، نسخطه ولا نرضىٰ به[5].

---

(١) في ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، غ ، ق « خير كله ».

(٢) في ب ، ح١ ، أ ، غ زيادة « إن ».

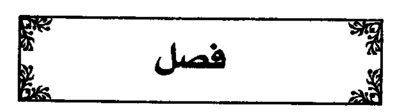
(٣) في ب ، ش ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق ، ح١ « يرضىٰ به ».

(٤) في ح٢ زيادة « إنه ».

(٥) في م ، ح٢ ، ق « يسخطه ولا يرضىٰ به ».

فهذه نهاية أقدام العالم المقرين بالنبوات في هذه المسألة ، ومفرق طرقهم ، وقد حصرت لك أقوالهم ومآخذهم ، وأصول تلك الأقوال ، بحيث لا يشذ عنها شيء ، وبالله التوفيق.

ولا تنكر الإطالة في هذا الموضع فإنه[1] مزلة أقدام الخلق ، وما نجا من معاطبه إلا أهلُ البصائر والمعرفة بالله وصفاتِه وأمرِه.



فصل

توبة العامة عند الهروي

ثم قال صاحب المنازل : « **فَتَوبَةُ العَامّةِ لِاستِكثَارِ الطَّاعةِ[2] ، وَهُوَ يَدعُو إِلَىٰ جُحُودِ نِعمَةِ السِّترِ وَالإِمهَالِ ، وَرُؤيَةِ الحَقِّ عَلَىٰ الله ، والاستِغنَاءِ الَّذِي هُوَ عَيْنُ الجَبَرُوتِ والتَّوثُّبِ[3] عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ** »[4].

العامة عندهم : من عدا أرباب الجمع والفناء ، وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم ، هذا مرادهم بالعامة ، ويسمونهم : أهل الفرق ، ويسميهم غلاتهم : المحجوبين.

ومراده أن توبتهم مدخولة عند الخواص منقوصة ، فإن توبتهم تكون[5] من

---

(١) في م زيادة « من ».

(٢) في ش ، ب « الاستكثار من الطاعة ».

(٣) في د « والتثويب » ؛ والتثويب هو التعالي والاستطالة. انظر : لسان العرب ٦/ ٤٧٦٢ ، مادة (وثب).

(٤) منازل السائرين ١٥.

(٥) « تكون » ساقطة من ح١ ، غ ، م ، أ ، ب .

[١١٨/ أ] استكثارهم ما يأتون به من الحسنات والطاعات، أي رؤيتهم كثرتها، وذلك يتضمن ثلاثة مفاسد عند الخاصة.

إحداها : أن حسناتهم التي يأتون بها ، سيئات بالنسبة إلىٰ مقام الخاصة ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهم محتاجون إلىٰ التوبة من هذه الحسنات(١) ،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فأما التوبة من الحسنات ، فلا تجوز عند أحد من المسلمين؛ بل من تاب من الحسنات مع علمه بأنه تاب من الحسنات فهو إما كافر وإما فاسق، وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضال. وذلك أن الحسنات هي الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الإيمان هي رجوع عنه ، والرجوع عنه ردة ، وذلك كفر ، والتوبة من الأعمال الصالحة : رجوع عما أمر الله به ، وذلك فسوق ومعصية. انتهىٰ كلامه ؛ جامع الرسائل ١/ ١٤٨.

ثم بين بعد ذلك أن التوبة تكون من التقصير ، وذلك كحال السابقين المقربين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، ومثّل لذلك بمن يصلي صلاة مجزئة غير كاملة ، فتبلغه صلاة النبي ﷺ المستحبة ، فيصلي كصلاته ، ويندم علىٰ ما كان يفعله من الصلاة الناقصة.

ثم تطرق بعد ذلك إلىٰ العبارة المشهورة : «حسنات الأبرار سيئات المقربين » ، فبين أن هذه العبارة لم تثبت عن النبي ﷺ ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما هو كلام له معنىٰ صحيح ، ويحتمل معنىٰ فاسداً.

فقال : فأما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون علىٰ أداء الواجبات وترك المحرمات ، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين ... ، فالمقربون يتوبون من الاقتصار علىٰ الواجبات ، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار ؛ بل يتوبون من الاقتصار عليها ...

الثاني : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنا منه ، إما واجبا وإما مستحبا ؛ لأن ذلك مبلغ علمه

ولغفلتهم[١] باستكثارها عن[٢] عيوبها ورؤيتها وملاحظتها ، هم جاحدون نعمة الله في سترها عليهم وإمهالهم ، كستره علىٰ أهل الذنوب الظاهرة وإمهالهم ، فهم وأهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله ؛ لكن أهل الذنوب مقرون بستره وإمهاله ، وهؤلاء جاحدون لذلك ؛ لأنهم قد توفرت هممهم علىٰ الاستكثار من الحسنات[٣] ، دون مطالعة عيب النفس والعمل ، والتفتيش علىٰ دسائسها[٤] ، وأن الحامل لهم علىٰ استكثارها[٥] رؤيتها والإعجاب بها[٦] ، ولو تفرغوا لتفتيشها و محاسبة النفس عليها ، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق، لشغلهم ذلك عن استكثارها ، ولأجل هذا كان من عدم الحضور والمراقبة والجمعية في العمل ، خف عليه واستكثر منه ، فكثر في عينه ، وصار بمنزلة العادة ، فإذا أخذ نفسه بتخليصه من الشوائب ، وتنقيته من

وقدرته ، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ؛ بل يؤمر بما هو أعلىٰ منه ، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان سيئة ... وأما المعنىٰ الفاسد فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمرا عاماً يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين ، مثل أن يظن أن الصلوات الخمس ، و محبة الله ورسوله ، والتوكل علىٰ الله ، وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين ... جامع الرسائل ١/ ٢٤٨-٢٥٥ ، وانظر : الفتاوىٰ ١١/ ٦٨٨.

(١) في ق ، م ، ب ، أ ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د « فلغفلتهم ».

(٢) في م ، ح٢ « باستكثارهم من ».

(٣) في ش زيادة « استكثارها ».

(٤) في م « دسائسهم » ، وفي ح١ ، د ، ح٢ « دسائسهما ».

(٥) في ق « استكثار ».

(٦) « بها » سقطت من ش.

الكدر[1] ، وجمعية القلب والهم علىٰ الله تعالىٰ بكليته ، وجد له ثقلا كالجبال ، وقل في عينه ، ولكن إذا وجد حلاوته[2] تسهل[3] عليه حمل أثقاله ، والقيام بأعبائه ، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة ، إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها ، وفهم ما أريد بكل آية ، وحظك[4] من الخطاب بها ، وتنزيلها علىٰ أدواء قلبك والتعبد[5] بها ، كيف تدرج الختمة[6] ، أو أكثرها ، أو ما قرأت منها ، بسهولة وخفة ، مستكثرا من القراءة ، فإذا ألزمت نفسك بالتدبر ومعرفة المراد ، والنظر إلىٰ [١١٨/ ب] ما يخلصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه علىٰ أدواء قلبك ، والاستشفاء به ، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلىٰ غيرها ، وكذلك إذا جمعت قلبك كله علىٰ ركعتين ، وأعطيتها[7] ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة ، لم تكد[8] تصلي

---

(١) في غ ، أ ، ب ، د ، ح١ ، م ، ح٢ ، ق زيادة « وما في ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب ».

(٢) في ش « حلاوة ».

(٣) في ق ، م ، ب ، أ ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د « سهل ».

(٤) في م « وحقك ».

(٥) في د ، غ ، أ ، ب ، ق ، ح١ « والتقيد ».

(٦) معنىٰ تدرج الختمة : أي تدنو من الختمة وتدركها وتدخل فيها. انظر : لسان العرب ٢/ ١٣٥١-١٣٥٣ ، مادة (درج).

(٧) في د ، ح٢ ، غ ، أ ، م ، ق ، ح١ « وأعطيتهما ».

(٨) في د ، غ ، أ ، ب ، م ، ق ، ح٢ ، ح١ زيادة « أن ».

غيرها[1] إلا بجهد ، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب ، فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هي توبة العامة.

المفسدة الثانية : رؤية فاعلها أن له حقا علىٰ الله تعالىٰ في مجازاته علىٰ تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان ، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أن[2] أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار ، وأنه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته.

الثالثة : استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، بما يشهدون من استحقاق المغفرة ، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم ، فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعتهم[3] ، واستكثارهم منها لذلك ، وكثرتها في عيونهم ، وإظهار الاستغناء[4] عن مغفرة الله وعفوه ، وذلك[5] عين الجبروت والتوثب علىٰ الله تعالىٰ.

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح ، من غير حضور ولا مراقبة ، ولا إقبال علىٰ الله، قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها، مع أنه قليل المنفعة[6]،

---

(١) في د ، غ ، أ ، ب ، م ، ق ، ح٢ ، ح١ « غيرهما ».

(٢) « أن » ساقطة من ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، أ ، غ .

(٣) في م ، ق ، ح٢ ، ح١ ، ب ، د ، م ، أ ، غ « بطاعاتهم ».

(٤) في م ، ق ، ح٢ ، ح١ ، ب ، د ، م ، أ ، غ « إظهار للاستغناء ».

(٥) في م « وتلك ».

(٦) في ح١ ، ب ، غ ، أ ، د ، م ، ق ، ح٢ زيادة « دنيا وآخرة ».

كثير المؤنة، فهو كالعمل علىٰ غير متابعة للأمر ولا إخلاص[1] للمعبود، فإنه وإن كثر مُتعِبٌ غيرُ مُفيدٍ، فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النّخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة، وإن[2] الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك، ونحوها.

فإن انضاف إلىٰ ذلك إحسان ظنه بها، واستكثارها، وعدم التفاته إلىٰ عيوبها [١١٩/ أ] ونقائصها، والتوبة إلىٰ الله، والاستغفار[3] منها، جاءت تلك المفاسد التي ذكرها وما هو أكثر منها.

وقد ظن بعض الشارحين لكلامه أن مراده به[4] الإزراء[5] بالاستكثار من الطاعات[6]، وأن مجرد الفناء والشهود والاستغراق في حضرة المراقبة خير منها وأنفع، وهذا باطل، وكذب عليه وعلىٰ الطريقة والحقيقة.

ولا ريب أن هذه طريقة المنحرفين من السالكين، وهو تعبد بمراد العبد وحظه من الله تعالىٰ، وتقديم له علىٰ مراد الله ومحابِّه من العبد.

---

(١) في ح١ «الأمر والإخلاص».

(٢) في ح١، ح٢، ق، م، د، أ، غ، ب «فإن».

(٣) في أ، ح١، ح٢، د، م، غ، ق، ب «واستغفاره».

(٤) «به» ساقطة من ب. وفي ش «بها» بدل «به».

(٥) في ب «بالإزراء».

(٦) انظر كلام التلمساني علىٰ ذلك في: شرحه للمنازل (١/ ٦٩).

فإن للعبد حظًّا ، وعليه حقًّا ، فحق الله عليه تنفيذ أوامره والقيام بها ، والاستكثار من طاعاته بحسب الإمكان ، والاشتغال بمحاربة أعدائه ومجادلتهم ، ولو فرّق ذلك جمعيتَه ، وشتّت حضورَه ، فهذا هو العبودية التي هي مراد الله وحقُّه.

وأما الجمعية والمراقبة والاستغراق في الفناء ، وتعطيل الحواس والجوارح عن إرسالها في الطاعات ، والاستكثار منها ، فهذا مجرد حظ العبد ومراده ، وهو بلا شك أنعم وألذ وأطيب من تفرقة الاستكثار من الطاعات ، لا سيما إذا شهدوا تفرقة(١) المستكثرين منها ، وقلة نصيبهم من الجمعية. فإنهم تشتد نفرتهم منهم ، ويعيبون عليهم ، ويُزْرون(٢) بهم.

وقد يسمون من رأوه كثير الصلاة : ثقاقيل الحصر، ومن رأوه كثير الطواف: حمر المدار ، ونحو هذا(٣).

وقد أخبرني من رأىٰ ابن سبعين(٤) قاعدا في طرف المسجد الحرام ، وهو

---

(١) في الأصل « معرفة ».

(٢) أي يحتقرونهم ، ويتهاونون بهم ، ويعتبون عليهم. انظر : لسان العرب ٣/ ١٨٣٠ ، القاموس المحيط ٤/ ٣٣٨ ، مادة (زرىٰ).

(٣) في غ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، ق « ذلك ».

(٤) أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، قطب الدين ، المقدسي الرقوطي المرسي ، ولد سنة ٦١٤هـ ، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة ، قال ابن كثير : فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد ، وصنف فيه ، وكان يعرف السيمياء ، وله من المصنفات : بدّ العارف ، وأسرار الحكمة المشرفية ، كان يرىٰ أن النبوة مكتسبة ، توفي بمكة سنة ٦٦٩هـ.
انظر : البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٥ ، شذرات الذهب ٥/ ٣٢٩ ، الأعلام ٣/ ٢٨٠.

يسخر من الطائفين ويذمهم ، ويقول : كأنهم الحمر حول المدار ، أو نحو هذا.

وكان يقول : إقبالهم علىٰ الجمعية أفضل لهم.

ولا ريب أن هؤلاء مؤثرون لحظوظهم علىٰ حقوق ربهم ، واقفون مع أذواقهم ومواجيدهم ، فانين بها عن حق الله ومراده.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكي عن بعض العارفين أنه قال : العامة تعبد[1] الله ، وهؤلاء يعبدون نفوسهم.

وصدق [١١٩/ ب] - رحمه الله - فإن هؤلاء المستكثرين من الطاعة[2] الذائقين لروح العبادة ، الراجين ثوابها ، قد رفع لهم علم الثواب ، وأنه مسبب عن الأعمال ، فشمروا إليه ، راجين أن تقبل منهم أعمالهم - علىٰ عيبها ونقصها - بفضل الله ، خائفين أن ترد عليهم ، إذ لا تصلح لله ولا تليق به ، فيردها بعدله وحقه ، فهم مستكثرون بجهدهم من طاعاته بين خوفه ورجائه ، والإزراء علىٰ أنفسهم ، والحرص علىٰ استعمال جوارحهم في كل وجه من وجوه الطاعات ، رجاء مغفرته ورحمته ، وطمعا في النجاة ، فهم يقاتلون بكل سلاح لعلهم ينجون.

قالوا : وأما ما أنتم فيه من الفناء ، ومشاهدة الحقيقة والقيومية ، والاستغراق في ذلك فنحن في شغل عنه بتنفيذ أوامر صاحب الحقيقة والقيومية ، والاستكثار من طاعاته ، وتصريف الجوارح في مرضاته ، كما أنكم بفنائكم

---

(١) في غ ، ب ، أ ، ح١ ، د ، م ، ح٢ ، ق « يعبدون ».

(٢) في غ ، ح١ ، ق ، ح٢ ، ب ، د ، أ ، م « الطاعات ».

واستغراقكم في شهود الحقيقة وحضرة الربوبية في شغل عما نحن فيه ، فكيف كنتم أولىٰ بالله منا ، ونحن في حقوقه ومراده منا ، وأنتم في حظوظكم ومرادكم منه.

قالوا : وقد ضرب لنا ولكم مثل مطابق لمن تأمله ، بملك ادعىٰ محبته مملوكان من مماليكه ، فاستحضرهما ، وسألهما عن ذلك ؟ ، فقالا : أنت أحب شيء إلينا ، ولا نؤثر عليك غيرك. فقال : إن كنتما صادقين فاذهبا إلىٰ سائر مماليكي وعرفاهم بحقوقي عليهم ، وأخبراهم بما يرضيني عليهم[1] ، ويسخطني[2] ، وابذلا[3] قواكما في تخليصهم من مساخطي ، ونفذا فيهم أوامري ، واصبرا علىٰ أذاهم ، وعودا مريضهم، وشيعا ميتهم، وأعينا ضعيفهم، بقواكما ، وأموالكما ، وجاهكما ، ثم اذهبا إلىٰ بلاد أعدائي[4] بهذه الملطفات[5] وخالطوهم[6] ، وادعوهم[7] إلىٰ موالاتي ، واشتغلا[8] بهم ، ولا

(١) في ب ، ح١ ، أ ، ح٢ ، غ « عنهم ».

(٢) في أ زيادة « عليهم ».

(٣) في هذه الكلمة وسائر ألفاظ التثنية بعدها «قواكما ، نفذا ، اصبرا... إلىٰ قوله : اذهبا» وردت في ب ، ح١ ، م ، د ، ق ، ح٢ ، أ ، غ ، بصيغة الجمع هكذا : وابذلوا ، قواكم ، نفذوا.. ».

(٤) هكذا في ب ، ح١ ، م ، د ، ق ، ح٢ ، أ ، غ ؛ وفي الأصل ، ش « بلادي ».

(٥) في ش « المطالعات ».

(٦) هكذا في جميع النسخ ، والمناسب للسياق « وخالطاهم ».

(٧) هكذا في جميع النسخ ، والمناسب للسياق « وادعواهم ».

(٨) هكذا في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ؛ وفي الأصل ، ش « واشتغلوا ».

تخافوهم[1] ، فعندي[2] من جندي وأوليائي من يكفيكما[3] شرهم.

فأما أحد المملوكين فقام وبادر[4] إلىٰ امتثال أمره ، وبعد عن حضرته في طلب [١٢٠/ أ] مرضاته.

وأما الآخر فقال : له لقد غلب علىٰ قلبي من محبتك ، والاستغراق في مشاهدة حضرتك وجمالك ، ما لا أقدر معه علىٰ مفارقة حضرتك ومشاهدتك.

فقال : إن رضاي في أن تذهب مع صاحبك ، فتفعل كما فعل ، وإن بعدت عن مشاهدتي.

فقال : لا أوثر علىٰ مشاهدتك والاستغراق فيك شيئا.

فأي المملوكين أحب إلىٰ هذا الملك ، وأحظىٰ عنده ، وأخص به ، وأقرب إليه ؟ ؛ أهذا الذي آثر حظه ومراده وما فيه لذته علىٰ مراد الملك وأمره ورضاه؟ ، أم ذلك الذي ذهب في تنفيذ أوامره ، وفرغ لها قواه وجوارحه ، وتفرق فيها في كل وجه ؟ ، فما أولاه أن يجمعه أستاذُه[5] عليه بعد قضاء أوامره وفراغه منها ، ويجعله من خاصته وأهل قربه ، وما أولىٰ صاحبه بأن يبعده عن

---

(١) هكذا في جميع النسخ ، والأنسب للسياق « ولا تخافاهم ».

(٢) في ب ، ح١ ، م ، ق ، د ، ح٢ ، أ ، غ « فعندهم ».

(٣) هكذا في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ؛ وفي الأصل ، ش « يكفيكم ».

(٤) في ب ، ح١ ، د ، ق ، ح٢ ، أ ، غ « مبادرا ».

(٥) هكذا في جميع النسخ ، ولعل الأنسب للسياق « سيده » ، أو « مولاه ».

قربه ، ويحجبه عن مشاهدته ، ويفرقه عن جمعيته[١] ، ويبدله بالتفرقة التي هرب منها في تفرقةِ أمرِه تفرقةً في هواه ومراده بطبعه ونفسه[٢].

فليتأمل اللبيب هذا حق التأمل ، وليفتح عين بصيرته ، ويسير بقلبه ، فينظر[٣] في مقامات العبيد وأحوالهم وهممهم ، ومن هو الأولىٰ[٤] بالعبودية ، ومن هو البعيد منها.

ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله[٥] ، وتوثب عليه ، وأورثته الطاعات جبروتا وحجبا عن رؤيته عيوب نفسه وعمله ، وكثرت[٦] في عينه ، فهو من أبغض الخلق إلىٰ الله تعالىٰ ، وأبعدهم عن العبودية ، وأقربهم إلىٰ الهلاك ، لا من استكثر من الباقيات الصالحات ، ومن قول النبي ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنة ، فقال : « **أعنِّي علىٰ نفسك بكثرة السجود** »[٧] ، ومن قوله تعالىٰ : ﴿ كَانُوا

---

(١) في غ ، ح١ ، ح٢ ، ق ، م ، ب ، أ ، د زيادة « عليه ».

(٢) في ب ، أ ، م ، ح٢ ، ح١ ، غ « وبنفسه ».

(٣) « فينظر » ساقطة من ش .

(٤) في أ ، غ ، ح١ « أولىٰ ».

(٥) في أ ، ح١ ، ب زيادة « وطاعته » ، وفي ق ، ح٢ ، م ، غ ، د زيادة « طاعاته ».

(٦) في ش « وكبرت » .

(٧) أخرجه مسلم في الصلاة ، (١/ ٣٥٣) ، ح : (٤٨٩) ، عن ربيعة بن كعب ، وأبو داود في الصلاة ، (٢/ ٧٨) ، والنسائي في الافتتاح ، (٢/ ٢٢٧) ، وأحمد (٤/ ٥٩) : فقلت : يا رسول الله ، اشفع لي إلىٰ ربك عز وجل فليعتقني من النار.. فقال النبي ﷺ : « **أعنّي علىٰ نفسك بكثرة السجود** » .

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٧-١٨] ، قال الحسن : مدوا الصلاة إلىٰ السحر [١٢٠/ ب] ، ثم جلسوا يستغفرون[١].

وقال النبي ﷺ « **تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد**»[٢]. وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به : «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله** »[٣].

---

(١) في ب زيادة اسم الجلالة « الله » ، وقد تقدم تخريج هذا الأثر ص٥٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الحج ، (٣/ ١٧٥) ، عن ابن مسعود ، والنسائي في مناسك الحج ، (٥/ ١١٥) ، عن ابن مسعود ، وابن عباس. وأخرجه ابن ماجه في المناسك ، (٢/ ٩٦٤) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، عن ابن مسعود ، وأخرجه أيضاً عن عمرو بن عامر بن ربيعة (١/ ٢٥ ، ٣/ ٤٤٧) ، وصححه ابن حبان من حديث ابن مسعود ؛ انظر : الإحسان (٦/ ٣) ، وابن خزيمة (٤/ ١٣٠) ، قال الترمذي : وفي الباب عن عمر ، وعامر بن ربيعة ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن حبشي ، وأم سلمة ، وجابر. قال أبو عيسىٰ : حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود.

قال الألباني عن حديث ابن عباس : هذا إسناد صحيح علىٰ شرط مسلم. وقال عن حديث ابن مسعود : إسناده حسن. وقد توسع في الكلام علىٰ الحديث ؛ انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعاء ، (٥/ ٤٥٨) عن عبد الله بن بُسر. وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه ابن ماجه في الأدب ، (٢/ ١٢٤٦) ، والإمام أحمد (٤/ ١٨٨ ، ١٩٠) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٠١) ، وابن المبارك في الزهد ٣٢٨ ، وصححه ابن حبان ؛ انظر : الإحسان (٢/ ٩٢) ، وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٥) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في السنن (٣/ ٣٧١) ، وفي الشعب (٢/ ٤١٠) ، وصححه الألباني ؛ انظر : صحيح ابن ماجه (٣/ ٢٤٣).

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه أعظمهم استكثارا منها. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع (١١/ ٣٤٠)، حديث: (٦٥٠٢) عن أبي هريرة، بلفظ: «**من عادىٰ لي وليا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته**».

وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٤)، من حديث أبي هريرة، وأخرجه عنه البيهقي في الأسماء والصفات (٦٢٣)، وفي السنن (٣/ ٣٤٦)، وقد ذكر طرقه، وتكلم عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوىٰ (١٨/ ١٢٩)؛ وقال: هذا حديث شريف قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء. وقال في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص (٢٩): وهذا أصح حديث يروىٰ في الأولياء.

وقد أفرد الشوكاني هذا الحديث بمؤلف خاص، أسماه: «قطر الولي علىٰ حديث الولي»، قال فيه: ولا حاجة لنا في الكلام علىٰ رجال إسناده، فقد أجمع أهل هذا الشأن أن أحاديث الصحيحين أو أحدهما كلها من المعلوم صدقه، المقبول المجمع علىٰ ثبوته، وعند الإجماعات تندفع كل شبهة، ويزول كل تشكيك. ص (٢٣٠).

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته، لا لأهل الفناء المستغرقين في شهود الربوبية.

وقال لآخر: «**عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله[1] بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**»[2].

فصل

مشابهة طريقة الصوفية لطريقة الجهمية

وهذه الطريقة في الإرادة والطلب نظير طريقة التجهم في العلم والمعرفة، تلك تعطيل للصفات والتوحيد، وهذه تعطيل للأمر والعبودية. وانظر إلىٰ هذا النسب والإخاء الذي بينهما، كيف شرك بينهما في اللفظ، كما شرك [بينهما][3] في المعنىٰ، فتلك طريقة النفي، وهذه طريقة الفناء، تلك نفي لصفات المعبود، وهذه فناء عن عبوديته.

وأما نفي خواص العبيد وفناؤهم فأمر وراء نفي أولئك وفنائهم؛ لأن نفيهم لصفات النقائص وما يضاد أوصاف الكمال، وفناؤهم عن إرادة غيره ومحبته وخوفه ورجائه، ففناؤهم عن كل ما يخالف أمره ومحابه، ونفيهم لكل ما

---

(١) اسم الجلالة ساقط من ح٢.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، (١/ ٣٥٣)، ح: (٤٨٨)، عن ثوبان، والترمذي في الصلاة، (٢/ ٢٣٠)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الافتتاح، (٢/ ٢٢٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، (١/ ٤٥٧).

(٣) زيادة من ب، ح١، م، أ، غ.

يضاد كماله وجلاله ، ومن له فرقان فهو يعرف هذا وهذا ؛ وغيره لا اعتبار به [١٢١/ أ].

وصاحب المنازل - رحمه الله - كان شديد الإثبات للأسماء والصفات ، مضادًّا للجهمية من كل وجه ، وله كتاب « الفاروق » ، استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها ، ولم يسبق إلىٰ مثله ، وكتاب «ذم الكلام وأهله» ، طريقته فيه[1] أحسن طريقة ، وله كتاب لطيف في أصول الدين ، يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها ، وله مع الجهمية المقامات المشهورة[2] ، وسعوا بقتله إلىٰ السلطان مرارا عديدة ، والله يعصمه منهم ، ورموه بالتشبيه والتجسيم علىٰ عادة بهت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث ، الذين لم يتحيزوا إلىٰ مقالة غير ما دل عليه الكتاب والسنة.

ولكن - رحمه الله - طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم علىٰ الفناء شيئا ، ويراه الغاية التي يشمر إليها السالكون ، والعلم الذي يؤمُّه السائرون ، واستولىٰ عليه ذوق الفناء وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده ، واتسعت إشاراته إليه ، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه ، علما وحالاً وذوقا ، فتضمن ذلك تعطيلا من العبودية ، بادياً علىٰ صفحات كلامه ، وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصوله من نفي الصفات.

---

(١) في الأصل ، ش « فيها ».

(٢) في غ « المشهودة ».

ولما اجتمع التعطيلان لمن اجتمعا له من السالكين تولد منهما[١] القول بوحدة الوجود، المتضمنة[٢] لإنكار الصانع وصفاته وعبوديته. وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في إثبات الصفات، فأشرف من عقبة الفناء علىٰ وادي الاتحاد[٣] فلم يسلكه[٤]، ولوقوفه علىٰ عقبته[٥]، ودعوة الخلق إليها[٦]، أقسم[٧] الاتحادية بالله جهد أيمانهم: إنه لمعهم، ومنهم؛ وحاشاه.

وتولىٰ شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة، وأعظمهم فيه مبالغة وعنادا لأهل الفرق: العفيف التلمساني [١٢١/ ب]، ونزل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل علىٰ جمع الوجود[٨]، وهو لم يرد به حيث ذكره إلا جمع الشهود؛ ولكن الألفاظ مجملة[٩]، وصادفت قلبا مشحونا بالاتحاد، ولسانا فصيحا متمكنا من التعبير عن المراد؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) في ش «بينهما».

(٢) في أ، ب، ح١، غ «المتضمن».

(٣) في ب، ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق زيادة «وأرض الحلول».

(٤) في ب، ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق «فلم يسلك فيها».

(٥) في ب، ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق زيادة «وإشرافه علىٰ تلك الربوع الخراب».

(٦) في ب، ح١، م، ح٢، د، أ، غ، ق «إلىٰ الوقوف علىٰ تلك العقبة» بدل «إليها».

(٧) في غ، ح٢، ح١، ب، م، أ «أقسمت».

(٨) انظر: شرح التلمساني للمنازل ٢/ ٣٩٥.

(٩) في ش «محتملة».

فصل

توبة الأوساط عند الهروي

قال « وَتَوبَةُ الأَوسَاطِ : مِن استِقلاَلِ[1] المَعصِيَةِ ، وَهُوَ عَيْنُ الجُرأَةِ[2] والمبُارَزَةِ ، وَمَحضُ التَّزَيُّنِ بِالحمِيَّةِ ، وَالاستِرسالُ لِلقَطِيعَةِ »[3].

يريد أن استقلال العبد[4] المعصية ذنب ، كما أن استكثاره[5] الطاعة ذنب ، والعارف من صغرت حسناته في عينه ، وعظمت ذنوبه عنده ، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله ، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلّت عند الله وصغرت[6] ، وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية ، تلاشت حسناته عنده ، وصغرت جدا في عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه ، وأن الذي يليق بعزته ، ويصلح له من العبودية أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها ؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه ، فشاهد قلبُه من عظمته وجلاله ما يستصغر معه جميعَ أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين. وإذا كثرت في عينه وعظمت ،

---

(١) في ح١ ، م ، ح٢ ، ب ، أ ، غ زيادة « العبد ».

(٢) في م ، ح١ ، ب ، د ، غ « الجراءة ».

(٣) منازل السائرين ١٥ .

(٤) « العبد » ساقطة من ح١ ، ب ، أ ، غ .

(٥) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، م ، ق « استكثار ».

(٦) في د ، أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، ق « قلت : وصغرت عند الله ».

دل علىٰ أنه محجوب عن الله تعالىٰ ، غير عارف به وبما ينبغي له. وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه ، وتعظم في عينه ، لمشاهدته الحق ومستحقه ، وتقصيره في القيام به ، وإيقاعه علىٰ الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

إذا عرف هذا فاستقلال العبد لمعصيته(١) عين الجرأة علىٰ الله تعالىٰ ، وجهله(٢) بقدر من عصاه ، وبقدر حقه. وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها ، وخفت علىٰ قلبه ، وذلك نوع مبارزة.

وأما قوله : « وَمَحْضُ التَّزَيُّنِ بِالحمِيَّةِ » أي بالمحاماة عن النفس [١٢٢/ أ]، وإظهار براءة ساحتها ؛ لاسيما إن انضاف إلىٰ ذلك مشاهدة الحقيقة ، والاحتجاج بالقدر ، وقوله : وأي ذنب لي ، والمحرك لي غيري ، والفاعل فيّ سواي؟ ، وإنما أنا كالميت بين يدي الغاسل ، وما حيلة من ليس له حيلة ، وما قدرة من ليس له قدرة؟ ، ونحو هذا مما يتضمن الجرأة علىٰ الله تعالىٰ ومبارزته ، والمحاماة عن النفس ، واستصغار ذنوبه ومعاصيه إذا أضافها إلىٰ الحكم. فيسترسل إذا للقطيعة ، وهي المقاطعة لربه تعالىٰ ، والانقطاع عنه ، فيصير خصما لله مع نفسه وشيطانه. وهذه حالة(٣) المحتجين بالقدر علىٰ

---

(١) في أ ، ب ، ح١ ، غ ، « المعصية ».

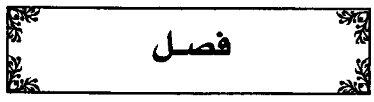
(٢) في غ ، ح١ « وجهل ».

(٣) في ب ، ح١ ، غ ، أ « وهذا حال » ، وفي ح٢ ، ق ، م ، د « وهذه حال ».

الذنوب، فإنهم خصماء الله عز وجل[١]، مع الشياطين والنفوس على الله تعالى؛ وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله سبحانه.

فإن قلت: كيف[٢] كانت توبة العامة من استكثار الطاعات، وتوبة من هم أخص منهم وأعلى درجة من استقلال المعصية؟، وهلا كان الأمر بالضد؟.

قلت: الأوساط لما كانوا أشد تطلبا[٣] لعيوب النفس والعمل، وأكثر تفتيشا عليها، انكشف لهم من ذنوبهم ومعاصيهم ما لم ينكشف[٤] للعامة، إذ حرص العامة على الاستكثار من الطاعات، ولذلك كثرت في أعينهم، وحرص هؤلاء على تنقية الآفات، والتفتيش على عيوب الأعمال، فاستقلال السيئات آفة هؤلاء، وقاطع طريقهم. واستكثار الحسنات وعظمها في قلوب أولئك آفتهم، وقاطع طريقهم. فذكر ما هو الأخص الأغلب على كل واحدة من الطائفتين.



فصل

توبة الخواص عند الهروي

قال[٥]: «وَتَوْبَةُ الخَوَاصِّ مِن تَضيِيعِ الوَقتِ، فإنَّهُ يَدعُو[٦] إلىٰ دَركِ النَّقِيصَةِ،

(١) في ب، ح١، م، د، غ، ح٢، ق، أ زيادة «وهم».

(٢) في د، أ، ح٢، ح١، م، ب، ق «فكيف».

(٣) في م، غ «طلبا».

(٤) في أ، ب، غ «يكشف».

(٥) في ش «قال صاحب المنازل».

(٦) في أ، غ، ب، ح٢، م، ح١ «يفضي».

وَيُطفِئُ نُورَ المُرَاقَبةِ ، وَيُكَدِّرُ عَينَ الصُّحبةِ»[١].

ليس مراده بتضييع الوقت : إضاعته في الاشتغال بمعصية أو لغو ، أو الإعراض عن واجبه وفرضه. فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنىٰ لم يكونوا من الخواص ؛ بل هذه توبة العامة [١٢٢/ ب] بعينها. والوقت عند القوم أخص منه في لغة العرب ، حتىٰ إن منهم من يقول : الوقت : هو الحق. ومنهم من يقول : استغراق رسم العبد في وجود الحق. يشيرون إلىٰ الفناء في حضرة الجمع[٢] ، والغالب علىٰ اصطلاحهم أنه زمن[٣] الإقبال علىٰ الله تعالىٰ بالمراقبة، والحضور والفناء في الوحدانية ، ويقولون : هو صاحب وقت مع الله ، فخصوا الوقت بهذا الاسم تخصيصا للفظ العام ببعض أفراده ، وإلا فكل من هو مشغول بأمر معني به فانٍ في شهوده وطلبه ، فله وقت معه ؛ بل أوقاته مستغرقة فيه[٤].

المراد بالوقت عند الصوفية

فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص[٥] الذي هو وقت وجْدٍ صادق ، وحال صحيحة مع الله تعالىٰ لا يكدرها الأغيار.

---

(١) منازل السائرين ١٥ ، وفيه بدل «الخواص» ، «الخاصة».

(٢) ذكر ذلك الهروي في منازل السائرين ١٠٢ ، في باب الوقت ، وقد شرح ذلك ابن القيم في المدارج ٣/ ١٣٧.

(٣) في أ ، ح١ ، ب ، غ «من».

(٤) انظر في الكلام علىٰ الوقت، وبيان المراد به عند القوم، وتفسيرهم له: الرسالة القشيرية ٥٥، عوارف المعارف ٢٥٠، المدارج ٣/ ١٢٧-١٤١، لطائف الإعلام ٢/ ٣٩٤، رشح الزلال ٤٥.

(٥) «الخاص» ساقطة من أ.

وربما يمر بك إشباع القول في الوقت، والفرق بين الصحيح منه والفاسد، فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ[1].

والقصد: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلىٰ درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق في درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه؛ بل ينزل إلىٰ درجات من النقص، فإن من[2] لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلىٰ فوق، وإما إلىٰ أسفل، إما إلىٰ أمام، وإما إلىٰ وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوىٰ أسرع طي إلىٰ الجنة أو إلىٰ[3] النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، ولم يذكر واقفا، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلىٰ غير الدارين البتة. [فمن لم يتقدم إلىٰ هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر بالأعمال السيئة][4].

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلىٰ طلبه.

---

(١) تكلم ابن القيم علىٰ ذلك في ٣/ ١٢٧.

(٢) سقط من ش، أ، ب، م، ح١، د، ح٢ «من».

(٣) «إلىٰ» ساقطة من ش.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من م، ب، ح١، ح٢، د، أ، غ، ق.

قلت : لا بد من ذلك ؛ ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجم نفسه[١] ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته[٢] سير [١٢٣/ أ] ، ولا تضره الوقفة ، فإن لكل عامل شرة[٣] ، ولكل شرة فترة[٤].

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخره ولا بد ، فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه علىٰ سبق الركب له ، وعلىٰ تأخره ، نهض نهضة الغضبان الآسف علىٰ الانقطاع ، ووثب وجمز واشتد سعياً ليلحق [الركب][٥] ، وإن استمر مع داعي التأخر ، وأصغىٰ إليه لم[٦] يرض برده إلىٰ

---

(١) ليجم نفسه : أي ليريحها ويذهب عنها الإعياء والتعب ، قال ابن منظور : والجمام بالفتح : الراحة ، وجم الفرس يجِم ، ويجُمُ وجماماً وأجم : ترك فلم يركب فعفا من تعبه ، وذهب إعياؤه. لسان العرب ١/ ٦٨٦ ، مختار الصحاح ١١٢ ، مادة (جمم).

(٢) في الأصل ، ش « وقفه ».

(٣) الشِّرَّة : بكسر الشين المعجمة ، وتشديد الراء : الحرص علىٰ الشيء والنشاط له.
والفترة : ضد ذلك فهو فتور وتراخي عن العمل.
انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٥٨ ، ٣/ ٤٠٨ ، أساس البلاغة ٢/ ١٨٢ .

(٤) أخرج الإمام أحمد (٢/ ١٨٨) عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « إن لكل عمل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح ، ومن كانت فترته إلىٰ غير ذلك فقد هلك ». وأخرجه ابن حبان ؛ انظر : الإحسان (١/ ١٠٧) ، وأخرجه ابن خزيمة (٣/ ٢٩٣-٢٩٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨) ، قال الألباني : إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. وأخرجه أحمد أيضاً (٢/ ١٥٨) بلفظ : « **فإن لكل عابد شرة ...** ».

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، غ ، م ، د ، ق ، ب ، ح٢ ، أ.

(٦) في د « ولم ».

حالته الأولىٰ من الغفلة ، وإجابة داعي الهوىٰ ، حتىٰ يرده إلىٰ أسوأ منها وأنزل دركا ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض[١] ، فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة فإن تدارك الله سبحانه هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه ، وتخليصه ، وإلا فهو في تأخر إلىٰ الممات ، راجعٌ القهقرىٰ[٢] ، ناكص علىٰ عقبيه ، أو مول ظهره ، ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله[٣].

وقوله : « **وَيُطْفِئُ نُورَ المُرَاقَبَةِ** ».

يعني أن المراقبة تعطي نورا كاشفا لحقائق المعرفة والعبودية. وإضاعة الوقت تطفئ[٤] ذلك النور ، وتكدر عين[٥] الصحبة مع الله تعالىٰ ، فإن صاحب الوقت[٦] مع صحبة الله ، وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله[٧] ،

---

(١) الإبلال من المرض : أي الشفاء من المرض ، يقال : بل الرجل ، وأبل ، إذا برأ. انظر : مختار الصحاح ٦٤ ، لسان العرب ١/ ٣٤٩ ؛ مادة (بلل).

(٢) قال في مختار الصحاح ٥٥٤ : القهقرى : الرجوع إلىٰ الخلف ، ورجع القهقرى : أي رجع الرجوع المعروف بهذا الاسم ؛ لأن القهقرى ضرب من الرجوع.

(٣) سقط لفظ الجلالة من د.

(٤) في ب ، ح١ ، أ ، غ « تغطي ».

(٥) في الأصل ، و ش « نور » ، وفي ق « عين نور » ، والمثبت في باقي النسخ ، وهو الموافق لما في المنازل.

(٦) في الأصل زيادة « له ».

(٧) سقط من أ قوله : « فإن صاحب الوقت له مع صحبة الله ، وله مع الله معية خالصة بحسب

فإن كان مع الله كان الله معه. فإذا أضاع وقته كدر عين هذه المعية الخاصة ، وتعرض لقطع هذه الصحبة ، فلا شيء أضر علىٰ العارف بالله من إضاعة وقته مع الله ، ويخشىٰ عليه إن لم يتداركه بالرجوع : أن تستمر الإضاعة إلىٰ يوم اللقاء[١] ، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره [وندامته][٢] ، وحجابه عن الله أشد من حجاب [من][٣] سواه ، ويكون حاله شبيها بحال قوم يؤمر بهم إلىٰ الجنة ، حتىٰ إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها ، صرفت وجوههم عنها إلىٰ النار. فإذن توبة الخواص من تضييع أوقاتهم مع الله التي [١٢٣/ ب] تدعو إلىٰ هذه الأمور.

فصل

وفوق هذا مقام آخر من التوبة ، أرفع منه وأخص ، لا يعرفه إلا خواص المحبين[٤] ، الذين يستقلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها ، ويرون شأن محبوبهم أعظم ، وقدره أعلىٰ من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له ، فهم أشد

حفظه وقته مع الله ».

(١) في ب ، أ ، غ ، ق ، ح١ ، د ، م ، ح٢ « القيامة ».

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من ح٢ ، ح١ ، د ، أ ، ق ، ب ، م ، غ.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من ح١ ، د ، أ ، ق ، ح٢ ، ب ، م ، غ.

(٤) في غ ، م ، ب ، ح٢ ، أ ، د ، ح١ « الخواص المحبون ».

شيء احتقارا لها ، وإزراء بها[1] ، وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم[2] ، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً، وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون، [﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦]][3] ، وكلما ازدادوا حبا له ازدادوا معرفة بحقه ، وشهودا لتقصيرهم ، فَعظُمتْ لذلك توبتهُم ، ولذلك كان خوفهم أشد ، وإزراؤهم علىٰ أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

وبالجملة فتوبة المحبين العارفين [الصادقين][4] العارفين بربهم وبحقه هي التوبة ، وسواهم محجوب عنها ، وفوق هذه توبة أخرىٰ ، الأولىٰ بنا الإضراب عنها صفحاً.

* * *

(١) في د ، ح٢ ، ب ، ح١ ، أ ، غ ، م « عليها ».

(٢) في الأصل « منه » ، وساقطة من ش.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق .

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ .

فصل

التوبة مما دون الحق

قال صاحب المنازل رحمه الله : « وَلاَ يَتِمُّ مَقَامُ التَّوبَةِ إلاَّ بِالانتِهَاءِ إلىٰ : التَّوبَةِ مِمَّا دُونَ الحقِّ ، ثُمَّ رُؤيَةِ عِلَّةِ التَّوبَةِ ، ثُمَّ التَّوبةِ مِن رُؤْيَةِ تِلكَ العِلَّةِ »(١).

التوبة مما دون الله : أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوىٰ الله ، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته ، فيكون كله له وبه.

وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولىٰ عليه سلطان المحبة ، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالا وتعظيما ، وذلا وخضوعا وانكسارا بين يديه ، وافتقارا إليه.

فإذا صح له ذلك بقيت عليه عندهم بقية أخرىٰ ، هي علة في توبته ، وهي شعوره بها ، ورؤيته لها ، وعدم فنائه عنها ، وذلك بالنسبة إلىٰ مقامه وحاله ذنب ، فيتوب من هذه الرؤية.

فهاهنا ثلاثة أمور : توبته مما سوىٰ الله ، ورؤيته هذه التوبة ، وهي [١٢٤/ أ] علتها، وتوبته من رؤية تلك الرؤية ، وهذا عند القوم الغاية التي لا شيء بعدها ، والنهاية التي لا تكون إلا لخاصة الخاصة ، ولعمر الله إن رؤية العبد فعله ، واحتجابه به عن ربه ، ومشاهدته له علة في طريقه موجبة للتوبة.

وأما رؤيته له واقعا بمنة الله وفضله ، وحوله وقوته وإعانته : فهذا أكمل من غيبته عنه ، وهو أكمل من المقام الذي يشيرون إليه ، وأتم عبودية ، وأدعىٰ للمحبة وشهود المنة ، إذ يستحيل شهود المنة والفضل علىٰ شيء لا شعور

---

(١) منازل السائرين ١٥ ، وفيه : « ثم رؤية علة تلك التوبة ... ».

للشاهد به البتة.

والذي ساقهم إلىٰ ذلك سلوك وادي الفناء في الشهود، فلا يشهد مع الحق سببا، ولا وسيلة ولا رسماً البتة.

ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام، وأن السالك ينتهي إليه، ويجد له حلاوة ووجدا ولذة لا يجدها لغيره البتة، وإنما يطالب أربابه و(١) المشمرون إليه بأمر وراءه، وهو أن هذا هو الكمال، وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها، ورأىٰ تفاصيلها مشاهدا(٢) لها صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته، فشهد عبوديته مع شهود معبوده، ولم يغب في شهود العبودية عن المعبود، ولا بشهود المعبود عن العبودية، فكلاهما ناقص، والكمال: أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته، فيجتمع لك الشهودان، فإن غبت بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة، وهل في الغيبة عن العبودية إلا هضم لها؟.

والواجب أن يقع التحاكم في ذلك إلىٰ الله ورسوله، وإلىٰ حقائق الإيمان دون الذوق. فإنا لا ننكر ذوق هذه الحال، وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها. فأين الإشارة في القرآن أو في السنة، أو في كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلىٰ هذا الفناء، وأنه هو الكمال، وأن رؤية العبد [١٢٤/ب] لفعله بالله وحوله(٣) وفضله وشهوده

(١) سقط «الواو» من أ.

(٢) في ح٢ «شاهدا».

(٣) في أ زيادة «وقوته».

لذلك[١] علة توجب[٢] التوبة منها ؟.

وهذا القدر مما يصعب إنكاره علىٰ القوم جدا ، ويرمون منكره بأنه محجوب من أهل الفرق ، وأنه لم يصل إلىٰ هذا المقام ، ولو وصل إليه لما أنكره. وليس في شيء من ذلك حجة لتصحيح قولهم ، ولا جواب المطالبة ؛ فقد سألكم هذا المحجوب عن مسألة شرعية ، وما ذكرتموه ليس بجواب لها.

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال ، ومقام أرفع منه. وليس في مجرد الفناء والاستغراق في شهود القيومية ، وإسقاط الأسباب والعلل والحكم والوسائط كبير[٣] علم ، ولا معرفة ولا عبودية. وهل المعرفة كل المعرفة والعبودية إلا شهود الأشياء علىٰ ما هي عليه؟. والقرآن مملوء من دعاء العباد إلىٰ التفكر في الآيات ، والنظر في أحوال المخلوقات ، ونظر الإنسان في نفسه وتفاصيل أحواله ، وأخص من ذلك نظره فيما قدمه[٤] لغده ، ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية ، وتذكر ذلك والتفكر فيه ، وحمد الله وشكره عليه. وهذا لا يحصل مع الفناء حتىٰ عن رؤية الرؤية ، وشهود الشهود.

ثم إن هذا غير ممكن البتة ، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها ،

---

(١) في ش ، ح٢ ، أ ، ح١ ، ب ، م ، غ ، د « له كذلك » ، وفي ق « له لذلك ».

(٢) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، م ، ق « تجب ».

(٣) في أ ، ب ، ح٢ ، ح١ ، غ ، م « كثير ».

(٤) في غ « قدم ».

فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضا علة[1] توجب عليه توبة[2] ، وهلم جرا. فلا ينتهي الأمر إلا بسقوط التميز جملة ، والسكر والطمس المنافي للعبودية ، فضلا عن أن يكون غاية للعبودية.

فتأمل الآن تفاصيل عبودية الصلاة ، كيف لا تتم إلا بشهود فعلك الذي متىٰ غبت عنه كان ذلك نقصا في العبودية.

فإذا قال المصلي : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا » ، فعبودية هذا القول : أن يشهد وجهه ، وهو قصده وإرادته ، وأن [١٢٥/ أ] يشهد حنيفيته[3] ، وهي إقباله علىٰ الله.

ثم إذا قال : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » ، فعبودية هذا القول أيضا[4] : أن يشهد الصلاة والنسك المضافين [إليه][5] لله سبحانه ، ولو غاب عنهما كان قد أضاف إلىٰ الله بلسانه ما[6] هو غائب عن استحضاره بقلبه ، فكيف يكون هذا أكمل وأعلىٰ من حال من استحضر فعله وعبوديته ، وأضافها إلىٰ الله تعالىٰ ، وشهد مع ذلك كونها به ؟ ، فأين هذا من

---

(١) في ب ، ح١ ، ق ، ح٢ ، أ ، د ، م ، غ زيادة « رؤيته لتلك الرؤية أيضا علة ».

(٢) في الأصل ، ش « توبته ».

(٣) في ق ، د « حقيقيته » ، وفي أ ، ب ، ح١ ، غ « حقيقته ».

(٤) سقط « أيضا » من غ ، أ ، ب ، م ، د ، ح١ ، ح٢ ، ق .

(٥) زيادة من أ ، ب ، م ، د ، ح١ ، ح٢ ، ق.

(٦) « ما » ساقطة من م .

حال المستغرق الفاني المصطلم ، الذي قد غاب بمعبوده عن حقه وعبادته[١] ، وقد أخذ منه وغيب عنه ؟.

نعم غاية هذا : أن يكون معذورا ، أما أن يكون مقامه أعلىٰ مقام وأجله فكلا.

وكذلك إذا قال في قراءته : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ، فعبودية هذا القول : فهم معنىٰ العبادة والاستعانة ، واستحضارهما ، وتخصيصهما بالله ، ونفيهما عن غيره. فهذا أكمل من قول ذلك بمجرد اللسان. وكذلك إذا قال في ركوعه : « **اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت**[٢] ، **خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي ، وما استقلت به قدمي**»[٣]. فكيف يؤدي عبودية هذه الكلمات غائب عن فعله ، ومستغرق في فنائه؟ ، وهل يبقىٰ غير أصوات جارية علىٰ لسان[٤]؟ ، ولولا العذر لم تكن هذه عبودية.

---

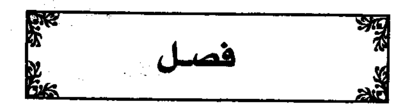
(١) سقط « وعبادته » من غ ، ب ، أ ، ح١.

(٢) في ب زيادة « وعليك توكلت ».

(٣) ورد ذلك في حديث علي بن أبي طالب كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصلاة قال : «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ...**» ، وإذا ركع قال : «**اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي**».
أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) ،ح : (٧٧١). وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٩٥ ، ١١٩) والترمذي في الدعوات ٥ ، ٤٨٥ ، والنسائي في الافتتاح ٢/ ١٣٠.

(٤) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق ، غ ، م « لسانه ».

نعم رؤية هذه الأفعال، والوقوف عندها، والاحتجاب بها عن المنعم بها الموفق لها المانّ بها، من أعظم العلل والقواطع؛ قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالعارف غائب بمنة الله عليه في طاعته، مع شهودها ورؤيتها. والجاهل غائب بها عن رؤية منة الله. والفاني غائب باستغراقه في الفناء وشهود القيومية عن شهودها، وهو [١٢٥/ ب] ناقص. وقد جعل الله لكل شيء قدراً.



فصل

وجوب المبادرة إلى التوبة

ونذكر نبذا تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها، ولا يليق بالعبد جهلها.

منها: المبادرة[1] إلىٰ التوبة من الذنب فرض علىٰ الفور، لا يجوز تأخيرها[2]، فمتىٰ[3] أخرها عصىٰ بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرىٰ، وهي توبته من تأخير التوبة؛ وقل أن تخطر هذه ببال التائب؛ بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه، ومما لا يعلم؛

---

(١) في ب، أ، غ، د، م، ح١، ح٢، ق «أن المبادرة».

(٢) انظر في بيان وجوبها علىٰ الفور: شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ٥٩، إحياء علوم الدين ٤/ ٧، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ١٢٠.

(٣) في غ «فمن».

فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله، إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد، وفي صحيح ابن حبان أن النبي ﷺ قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل**». فقال أبوبكر رضي الله عنه: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟، قال: «**أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٣٠) في ترجمة يحيىٰ بن كثير، أبو النضر، قال فيه: شيخ يروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد ... روىٰ هذا عن سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق.

وأخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (١/ ٦٠-٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٤): رواه أبو يعلىٰ من رواية ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن حذيفة، وليث مدلس، وأبو محمد إن كان هو الذي روىٰ عن ابن مسعود أو الذي روىٰ عن عثمان بن عفان، فقد وثقه ابن حبان، وإن كان غيرهما فلم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٦٩٥) من طريق يحيىٰ بن كثير عن سفيان الثوري، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق يحيىٰ بن كثير، عن سفيان الثوري (٧/ ١١٢)، وأورده الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٧٥)، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية، وتكلم علىٰ أسانيده، وبين تضعيف الأئمة لحديث ليث بن أبي سليم، وحديث يحيىٰ بن كثير، قال: وقال الدارقطني: لا يصح هذا الحديث عن الثوري ولا عن إسماعيل، ويحيىٰ بن كثير متروك الحديث. العلل المتناهية (٢/ ٣٣٩-٣٤٠)، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٤٠٣).

فهذا طلب الاستغفار مما يعلم[1] الله[2] أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «أنه كان يدعو في صلاته: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، [وما أنت أعلم به مني][3]، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[4].

وفي الحديث الآخر: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله[5]، وسره[6] وعلانيته، أوله وآخره»[7].

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة علىٰ ما علمه العبد من ذنوبه وما لا يعلمه[8].

---

(١) في غ، ح٢، ح١، م، د، ب، أ «يعلمه».

(٢) في ح١، م، د، ح٢، ق زيادة «منه»، وفي أ، غ «من».

(٣) زيادة من ح١، غ، أ، ق، م، ب، د.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات، (١١/ ١٩٦)، ح: (٦٣٩٨) عن أبي موسىٰ، وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، (٤/ ٢٠٨٧)، ح: (٢٧١٩).

(٥) في ب، أ، غ، د، م، ح١، ح٢، ق زيادة «خطأه وعمده».

(٦) في أ، ب، غ، د، م، ح١، ح٢، ق «سره» بدون واو.

(٧) أخرجه مسلم في الصلاة، (١/ ٣٥٠)، ح: (٤٨٣) عن أبي هريرة، بلفظ: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره». وأبو داود في الصلاة، (١/ ٥٤٦-٥٤٧)، بلفظ: «اللهم اغفر لي ذنبي كله: دقه وجله، وأوله وآخره، علانيته وسره».

(٨) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مختصر الفتاوىٰ المصرية ١٣٨: إذا عرف ذلك

فصل

التوبة من الذنب مع الإصرار على غيره

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على [١٢٦/ أ] غيره؟. فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد رضي الله عنه(١)؛ ولم يطلع على

فمن تاب توبة عامة كانت مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه، لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس قبيحاً.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مختصر الفتاوى المصرية ١٣٧ : وتصح التوبة من ذنب مع إصراره على آخر عند السلف والخلف، وقال طائفة من أهل الكلام، كأبي هاشم : لا تصح إلا بالتوبة من الجميع، وحكى القاضي وابن عقيل : هذا عن أحمد، والمعروف الأول، وما رُوي عنه محمول على أنها ليست توبة تجعله تائباً مطلقا، فإن الذي ذكر المروزي عنه : أنه سُئل عمن تاب عن الفاحشة، ولم يتب عن النظر؟، فقال : أي توبة ذه؟، وهذا لا يعطى ما قاله عنه، إنما أراد أنها ليست توبة عامة يحصل بها توبة مطلقة، لم يرد أن هذا كالمصر على الكبائر، فإن نصوصه المتواترة عنه تنافي ذلك فحمل كلامه على ما يوافقه أولى، لاسيما إذا كان القول الآخر مبتدعا لا يعرف له سلف. انتهى.

وذكر مثل ذلك في الفتاوى ١٠/ ٣٢٠.

وذكر الخلاف في ذلك الحليمي في كتاب المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٢٨، وناقش قول من ذهب إلى عدم صحتها، ورد عليه قوله، وذكر الخلاف ابن حزم في الفصل ٣/ ٢٨٦، وذكر الخلاف أيضاً إمام الحرمين الجويني في الإرشاد ٣٤٠، وذكر أنها تصح، وأنه قد خالف في ذلك أبو هاشم ومتبعوه. وتكلم عن التوبة من بعض الذنوب دون بعض الغزالي في الإحياء ٤/ ٣٩-٤٠، ونسب القول بعدم الصحة من ذنب مع الإصرار على غيره إلى أبي هاشم القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ٧٩٤، وذكر أنه هو الصحيح من المذهب.

الخلاف من حكىٰ الإجماع علىٰ صحتها، كالنووي[١]، وغيره[٢].

والمسألة مشكلة، ولها غور؛ ويحتاج الجزم بأحد القولين إلىٰ دليل يحصل به الجزم. والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام، وهو توبة من الكفر، مع البقاء علىٰ معصية لم يتب منها، فهكذا[٣] تصح [التوبة][٤] من ذنب، مع بقائه علىٰ آخر[٥].

---

(١) أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن حسن، محيي الدين، النووي، ثم الدمشقي الشافعي، العلامة، شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه، ولد بنوىٰ سنة ٦٣١هـ، حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلىٰ دمشق، فاجتهد في طلب العلم حتىٰ أدرك، ثم اعتنىٰ بالتصنيف، فجمع شيئا كثيرا، منها ما أكمله، ومنها ما لم يكمله، فمن مؤلفاته: شرح مسلم، والروضة، والمنهاج، ورياض الصالحين، والأذكار، وتهذيب الأسماء واللغات، وشرح المهذب، وغيرها؛ توفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٩٤، طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ١٦٥.

(٢) الذي ذهب إليه النووي، كما في شرح مسلم هو أن المسألة فيها خلاف بين أهل السنة والمعتزلة، ولذا قال: وتصح التوبة من ذنب، وإن كان مصراً علىٰ ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها، ثم عاود ذلك الذنب، كتب عليه ذلك الذنب الثاني، ولم تبطل توبته؛ هذا مذهب أهل السنة في المسألتين، وخالفت المعتزلة فيهما، قال أصحابنا: ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت. شرح مسلم ١٧/ ٥٩-٦٠. وقال في رياض الصالحين ٣٨: فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

(٣) في م «فهذا».

(٤) زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق.

(٥) ذكر هذه الحجة الجويني في الإرشاد ٣٤٠، وقد تكلم شيخ الإسلام عن مسألة الكافر إذا أسلم، هل يغفر له بالإسلام الذنوب التي فعلها في حال الكفر، ولم يتب منها في الإسلام، وذكر أن المسألة فيها قولان معروفان. انظر: الفتاوىٰ ١٠/ ٣٢٣، وانظر أيضاً: الفصل لابن حزم ٤/ ٩٥.

وأجاب الآخرون عن هذا : بأن الإسلام له شأن ليس لغيره ، لقوته ونفاذه ، وحصوله تبعا بإسلام الأبوين أو أحدهما للطفل ، وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه ، أو بموت أحد أبويه في أحد القولين ؛ وكذلك بكون سابيه ومالكه مسلما ، في أحد القولين أيضا ؛ وذلك لقوته ، وتشوف الشرع إليه ، حتىٰ حصل بغير القصد ، بل بالتبعية.

واحتج الآخرون : بأن التوبة : هي الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ من مخالفته إلىٰ طاعته ، وأي رجوع لمن تاب من ذنب واحد ، وأصر علىٰ ألف ذنب؟.

قالوا : والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب ؛ لأنه قد رجع إلىٰ طاعته وعبوديته ، وتاب توبة نصوحا ؛ والمصر علىٰ مثل ما تاب منه[1] ، أو أعظم لم يراجع الطاعة ، ولم يتب توبة نصوحا.

قالوا : ولأن التائب إذا تاب إلىٰ الله ، فقد زال عنه اسم العاصي ، كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم الكافر ، فأما[2] إذا أصر علىٰ غير الذنب الذي تاب منه فاسم المعصية لا يفارقه ، فلا تصح توبته.

وسر المسألة : أن التوبة هل تتبعض كالمعصية ، فيكون تائبا من وجه دون وجه ، وكالإيمان والإسلام ؟.

والراجح : تبعضها. فإنها كما تتفاضل في كيفيتها هكذا تتفاضل في كميتها، ولو أتىٰ العبد بفرض وترك فرضا آخر ، لاستحق العقوبة علىٰ ما تركه دون ما

---

(١) في ب « عليه ».

(٢) في ب ، م ، غ ، ح٢ ، ح١ ، أ « وأما ».

فعله ، فهكذا إذا [١٢٦/ ب] تاب من ذنب وأصر علىٰ آخر ؛ لأن التوبة فرض من الذنبين ، فقد أدىٰ أحد الفرضين ، وترك الآخر ، فلا يكون ما ترك موجبا لبطلان ما فعل ، كمن ترك الحج وأتىٰ بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا : بأن التوبة فعل واحد ، معناه الإقلاع عما يكرهه الله تعالىٰ ، والندم عليه ، والرجوع إلىٰ طاعته ، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة ، إذ هي عبادة واحدة ، فالإتيان ببعضها وبعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها ، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون : كل ذنب له توبة تخصه ، وهي فرض منه ، لا تتعلق بالتوبة من الآخر ، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

والذي عندي في هذه المسألة : أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار علىٰ آخر من نوعه. وأما التوبة[١] من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه ، فتصح ؛ كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلا. فإن توبته من الربا صحيحة. وأما إذا تاب من ربا الفضل، وأصر علىٰ[٢] ربا النسيئة[٣]، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر علىٰ شرب الخمر، أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته ؛ وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر علىٰ الزنا

---

(١) في الأصل « توبة ».

(٢) في د ، ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « ولم يتب من ».

(٣) في د ، ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، أ ، غ ، ق زيادة « وأصر عليه ».

بغيرها[1] غير تائب منه[2]. أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر علىٰ غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل من نوع منه إلىٰ نوع آخر، بخلاف من عدل من معصية إلىٰ معصية أخرىٰ غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها، وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلىٰ استدعائها، [١٢٧/ أ] بخلاف معصية يحتاج إلىٰ استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه علىٰ إفساد جاهه بالتوبة[3]، كما قال أبو نواس[4] لأبي العتاهية[5]، وقد لامه علىٰ تهتكه في المعاصي:

---

(١) في أ «وهو مصر علىٰ غيرها».

(٢) في أ، ب، ح١، ح٢، غ، م، ق «منها».

(٣) وإلىٰ مثل هذا التفصيل ذهب الحليمي في المنهاج ٣/ ١٢٩، وأبو علي من المعتزلة؛ انظر: شرح الأصول الخمسة ٧٩٤.

(٤) أبو نواس: هو أبو علي، الحسن بن هاني الحكمي، رئيس الشعراء، ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، سمع من حماد بن سلمة وطائفة، أخذ اللغة عن أبي زيد الأنصاري، وغيره، مدح الخلفاء والوزراء، ونظمه في الذروة، كان له حظوة في أيام الرشيد والأمين؛ توفي سنة خمس أو ست وتسعين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٧٩، البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٧، شذرات الذهب ١/ ٣٤٥.

(٥) أبو العتاهية: هو أبو إسحاق، إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي مولاهم، الكوفي، نزيل بغداد، الأديب الصالح، سار شعره لجودته، وحسنه، وعدم تعقده، قال شعراً في المواعظ، والزهد، تنسك بآخر عمره، كان أبو نواس يعظمه، ويتأدب معه، لدينه؛

أتـــراني يــــا عتـــــاهي تاركــــاً تلـــك الملاهـــي؟
أتـــراني مفـــسدا بالنـــ ـــسك عنـد القــوم جـاهي؟[1]

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس، وسرقة[2] أموال المعصومين، وأكل أموال اليتامىٰ، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة، صحت توبته فيما[3] تاب منه، ولم يؤاخذ به، وبقي مؤاخذا بما هو مصر عليه؛ والله أعلم.

فصل

هل تعطل التوبة بالعودة إلى الذنب

ومن[4] أحكام التوبة أنه هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلىٰ الذنب أبداً، أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض الناس عدم معاودة الذنب، وقال: متىٰ عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

مدح المهدي والخلفاء بعده والوزراء؛ توفي سنة ٢١١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥، البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٧، شذرات الذهب ٢/ ٢٥.

(١) لم أجدها في ديوان أبي نواس، وهي في الأغاني ٤/ ١٠١، وفي اعتلال القلوب للخرائطي ١/ ٣٢، قال: حدثنا علي بن الأعرابي قال: قال أبو العتاهية: لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته، وقلت له: أما آن لك أن ترعوي، أما آن لك أن تزدجر، فرفع رأسه إلي وهو يقول: – ثم ذكر الأبيات –.

(٢) في الأصل وش «بسرقة» بدل «وسرقة».

(٣) في د، ح٢، ح١، ب، غ، م، أ، ق «مما».

(٤) في غ، د، ح٢، ش، م «من» بدون الواو.

والأكثرون علىٰ أن ذلك ليس بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف علىٰ الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم علىٰ ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمي ، فهل يشترط تحلله ؟ ، فيه تفصيل سنذكره إن شاء الله تعالىٰ ، فإذا عاوده مع عزمه حال التوبة علىٰ أن لا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة[1].

إذا تاب من الذنب ثم عاوده هل يعود إليه إثم الأول

والمسألة مبنية علىٰ أصل ، وهو أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه[2] إثم الذنب الذي كان[3] قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة علىٰ الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ ، أو أن ذلك قد بطل بالكلية ، فلا يعود إثمه ، وإنما يعاقب علىٰ هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان[4] :

القول الأول وأدلته

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ، لفساد التوبة ، وبطلانها

---

(١) انظر الكلام علىٰ هذه المسألة : المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ١٤/ ٣٧٦ ، الفصل لابن حزم٤/ ١٠٧ ، الإرشاد للجويني ٣٤٣ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٣ ، المواقف للإيجي ٣٨١ ، مختصر الفتاوىٰ المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥٦٢ ، فتح الباري ١٢/ ٢٦٦.

(٢) في ح١ « عليه » بدل « إليه ».

(٣) « كان » ساقطة من أ ، غ .

(٤) ذكر أبو الحسن الأشعري في المقالات ٢٧٢ أن المعتزلة اختلفوا في ذلك علىٰ قولين :

القول الأول : أنه يؤاخذ بالذنب الذي تاب منه إذا عاد إليه.

القول الثاني : أنه لا يؤاخذ بما سلف ؛ لأنه قد تاب منه.

بالمعاودة. قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامُه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإن ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة ؛ كما ثبت [١٢٧/ ب] في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر** »[١]. فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه ، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام ، فإذا أخذ بعدها بما كان في حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ؛ فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها ، والمعلق علىٰ[٢] الشرط عدم عند عدم الشرط ، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه.

قالوا : والتوبة واجبة وجوبا مضيقا بزمن[٣] العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره ، فهي بالنسبة إلىٰ العمر

---

(١) رواه البخاري في استتابة المرتدين ، (١٢/ ٢٦٥) ، ح : (٦٩٢١) ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، (١/ ١١١) ، ح : (١٢٠) ، كلاهما من حديث ابن مسعود.

قال ابن حجر علىٰ قوله : « ومن أساء في الإسلام ... » إن المراد بالإساءة الكفر ؛ لأنه غاية الإساءة ، وأشد المعاصي ، فإذا ارتد ومات علىٰ كفره ، كان كمن لم يسلم فيعاقب علىٰ جميع ما قدمه. فتح الباري (١٢/ ٢٦٦).

(٢) في ش زيادة « هذا ».

(٣) في ش ، ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « مدىٰ » ، بدل « زمن ».

كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم ، فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطر[١] ، بطل ما تقدمه ، ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئا من يومه.

قالوا : ويدل علىٰ هذا الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ : « **إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها** »[٢]. وهذا أعم من أن يكون هذا[٣] العمل الثاني كفرا موجبا للخلود ، أو معصية موجبة للدخول ، فإنه لم يقل : « فيرتد فيفارق الإسلام » ، وإنما أخبر بأنه يعمل بعمل يوجب له النار. وفي بعض السنن : « **إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار** »[٤] ، فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم.

---

(١) في ب ، ح١ ، أ ، غ « بالمفطرات ».

(٢) هو جزء من حديث ابن مسعود ، أخرجه البخاري في عدة مواضع ، منها : ما أخرجه في الأنبياء ، (٦/ ٣٦٣) ، ح : (٣٣٣٢). وأخرجه مسلم في القدر (٤/ ٢٠٣٦) ح : (٢٦٤٣).

(٣) « هذا » ساقطة من ح٢.

(٤) أخرجه أبو داود في الوصايا ، (٣/ ٢٨٩) عن أبي هريرة ، بلفظ : « **إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ، ثم يحضرهما الموت ، فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار** ».
وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة بهذا اللفظ في الوصايا ، (٤/ ٤٣١) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وضعف الحديث الألباني ؛ انظر : ضعيف سنن أبي داود (٢٢٣) ، وأخرجه ابن ماجه في الوصايا (٢/ ٩٠٢) عن أبي هريرة ، بلفظ : « **سبعين سنة** ».

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات ، وهذا قول المعتزلة[١] ، والقرآن والسنة قد دلا علىٰ أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس ، كما[٢] قال[٣] تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود : ١١٤].

وقال [١٢٨/ أ] النبي ﷺ لمعاذ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »[٤].

---

(١) انظر : الفصل ٤/ ٨٦ ، الإرشاد للجويني ٣٢٧ ، الفتاوىٰ لابن تيمية ١٠/ ٦٣٧ ، شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٦٢٣-٦٤٣.
قال الجويني : جماهير المعتزلة صاروا إلىٰ أن الكبيرة الواحدة تحبط ثواب الطاعات وإن كثرت ، وذهب الجبائي وابنه إلىٰ أن الزلات إنما تحبط ثواب الطاعات إذا أربت عليها ، وإن أربت الطاعات درأت السيئات وأحبطتها.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣٨ : وما ادعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف ، فإنه سبحانه ذكر حد الزنىٰ وغيره ، ولم يجعلهم كفارا حابطي الأعمال ... فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات ، فهل تحبط بقدرها ، وهل يحبطُ بعضُ الحسنات بذنب دون الكفر؟ ، فيه قولان للمتنسبين إلىٰ السنة ، منهم من ينكره ، ومنهم من يثبته ، كما دلت عليه النصوص ، مثل قوله : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ ﴾ الآية ، دل علىٰ أن هذه السيئة تبطل الصدقة ، وضرب مثله بالمرائي.
وقد توسع في بيان مذهب المعتزلة في هذه المسألة القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ، فقد استغرق الكلام عليها من ٦٢٣ إلىٰ ٦٢٨.

(٢) في م ، ح٢ زيادة « صح ».

(٣) في ح٢ زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة ، (٤/ ٣٥٥) من حديث أبي ذر ، ومعاذ. قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وذكر عن شيخه محمود بن غيلان أنه قال : والصحيح حديث أبي

أدلة القرآن والسنة على الموازنة وإحباط الحسنات بالسيئات

قيل : والقرآن والسنة أيضا[1] قد دلا علىٰ الموازنة ، وإحباط الحسنات بالسيئات ، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض ، ولا يرد القول[2] بمجرد كون المعتزلة قالوه[3] ، فعل أهل الهوىٰ والتعصب ؛ بل نقبل الحق ممن قاله ، ونرد الباطل علىٰ من قاله.

فأما الموازنة فمذكورة في سورة الأعراف ، والأنبياء ، والمؤمنين ،

ذر. وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦) عن أبي ذر ، ومعاذ ، وأخرجه الدارمي عن أبي ذر (٢/ ٣٢٣) ، والحاكم (١/ ٥٤) عن أبي ذر ، وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه.

وهؤلاء كلهم خرجوه من رواية سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن أبي ذر. وكذلك حديث معاذ خرجوه بهذا الإسناد.

وقد تكلم عليه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٥) ، وبين أن الحديث مختلف في إسناده ، فقد روي عن حبيب عن ميمون أن النبي ﷺ وصىٰ بذلك. قال ابن رجب : ورجح الدارقطني هذا المرسل. ثم قال : وقد حسن الترمذي هذا الحديث ، وما وقع في بعض النسخ من تصحيحه فبعيد ، ولكن الحاكم خرجه ، وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ، وهو وهم من وجهين :

أحدهما : أن ميمون بن أبي شبيب ، ويقال : ابن شبيب لم يخرج له البخاري في صحيحه شيئا ، ولا مسلم إلا في مقدمة كتابه حديثا عن المغيرة بن شعبة.

والثاني : أن ميمون بن أبي شبيب لم يصح سماعه من أحد من الصحابة.

(١) « أيضا » ساقطة من ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ.

(٢) في ب ، ح١ ، أ ، غ « القرآن ».

(٣) في أ زيادة « فإن هذا ».

والقارعة(١).

وأما الإحباط فقد قال(٢) تعالىٰ : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد : ٣٣] ، وتفسير الإبطال هاهنا بالردة ؛ لأنها أعظم المبطلات ، لا أن المبطل منحصر(٣) فيها ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، فهذان سببان عرضا بعد الصدقة فأبطلاها. وشبه(٤) سبحانه حال(٥) إبطالها(٦) ، بالمن والأذىٰ بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) قال تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيتنا يظلمون ﴾ ؛ الآية رقم : ٨-٩.

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين ﴾ ؛ الآية رقم : ٤٧ .

وقال في سورة المؤمنون : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ ؛ الآية رقم : ١٠٢-١٠٣ .

وقال في سورة القارعة : ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ﴾ ؛ الآية رقم : ٦-٩.

(٢) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ ، ق زيادة اسم الجلالة « الله ».

(٣) في أ ، غ ، د ، م ، ب ، ح١ ، ق ، ح٢ « ينحصر ».

(٤) في سائر النسخ « شبه » بدون الواو .

(٥) « حال » ساقطة من ح١ ، م ، غ ، أ ، ب .

(٦) في ح٢ ، ق ، ح١ ، ب ، م ، د ، أ ، غ « بطلانها ».

ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « من ترك صلاة العصر حبط عمله »[١] ، وقالت عائشة رضي الله عنها لأم ولد زيد بن أرقم ، وقد باع بيعة[٢] العينة[٣] : « أخبري زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، إلا أن يتوب »[٤] ، وقد نص أحمد علىٰ هذا[٥] في رواية ، فقال[٦] : ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف علىٰ نفسه ، فيستدين ويتزوج ،

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ، (٢/ ٣١) ، ح : (٥٥٣) ، والنسائي في الصلاة ، (١/ ٢٣٦) ، وأحمد (٥/ ٣٤٩). قال ابن حجر عند شرحه للحديث : وقد استدل بهذا الحديث من يقول بتكفير أهل المعاصي من الخوارج وغيرهم ... ، وأما الجمهور فتأولوا الحديث ، فافترقوا في تأويله فرقا ، ثم ذكر أقوالهم في ذلك. وذكر أن القاضي أبا بكر بن العربي قسم الحبط إلىٰ قسمين : حبط إسقاط : وهو إحباط الكفر للإيمان وجميع الحسنات، وحبط موازنة : وهو إحباط المعاصي للانتفاع بالحسنات عند رجحانها عليها إلىٰ أن تحصل النجاة ، فيرجع إليه جزاء حسناته. انظر : فتح الباري٢/ ٣٢-٣٣.

(٢) في ب ، م ، ح٢ ، د ، غ ، أ « بيع » ، والكل ساقط من ح١ .

(٣) بيع العينة : هو أن يستقرض رجل من تاجر شيئا فلا يقرضه قرضا حسنا ؛ بل يعطيه عينا ويبيعها من المستقرض بأكثر من القيمة وسمي بها ؛ لأنها إعراض عن الدين إلىٰ العين. التعريفات ٦٩ ، كشاف اصطلاحات الفنون١/ ١٨٦ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ١٨٤) ، والدارقطني (٣/ ٥٢) ، والبيهقي في السنن (٥/ ٣٣٠-٣٣١).

(٥) في د زيادة « فقال ».

(٦) « فقال » ساقطة من د.

لا يقع في محظور، فيحبط عمله[1].

فإذا استقرت قاعدة الشريعة: أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها ما يحبطها بالنص [١٢٨/ ب]، جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن، فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعا.

قالوا: وقد دل القرآن والسنة وإجماع السلف علىٰ الموازنة. وفائدتها: اعتبار الراجح، فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يحاسب الناس[2] يوم القيامة، فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ

---

(١) لم أجد هذا النص عن أحمد فيما بين يدي من مراجع، وورد في مسائل صالح أنه سأله عن رجل يعمل بالخوص، وليس يصيب منه أكثر من قوته، هل يقدم علىٰ التزوج؟، قال أبي: يقدم علىٰ التزوج، فإن الله يأتي برزقها، وقال يتزوج ويستقرض.

انظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة جمع عبد الإله بن سلمان الأحمدي (٢/ ٢٧٣).

ونصوص أحمد تدل علىٰ أنه يذهب إلىٰ أن المعاصي لا تحبط جميع الأعمال، إلا ما دل الدليل علىٰ كونه مكفراً، كترك الصلاة، فالعبد إذا مات مصرا علىٰ بعض الذنوب فهو تحت المشيئة.

انظر: المرجع السابق (١/ ١٢٦-١٢٩).

(٢) في ش «العبد».

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ ، ثم قال : « إن الميزان يخف بمثقال حبة ، أو يرجح » ، قال : « ومن استوت حسناته وسيئاته ، كان من أصحاب الأعراف »[1].

وعلىٰ هذا فهل يحبط الراجح المرجوح ، حتىٰ يجعله كأن لم يكن ، أو يحبط ما قابله بالموازنة ، ويبقىٰ التأثير للقدر الزائد؟ ، فيه قولان للقائلين بالموازنة.

ينبني عليهما [أنه][2] إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلا ، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة ؟ ، فيثاب علىٰ الحسنات كلها ، أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات ، فلا يثاب عليه، ولا يعاقب علىٰ تلك السيئات، فيبقىٰ القدر الزائد لا مقابل له ، فيثاب عليه وحده؟.

وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة.

---

(١) أخرج هذا الأثر نعيم بن حماد في زوائد الزهد لابن المبارك ص (١٢٣) ، وأخرجه الطبري في تفسيره من طريق ابن المبارك (٨/ ١٩٠) ، قال ابن جرير : الأعراف جمع ، واحدها عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو عرف ، وإنما قيل لعرف الديك عرف لارتفاعه علىٰ ما سواه من جسده. تفسير الطبري (٨/ ١٨٨).

أما أصحاب الأعراف ، فقال ابن كثير : واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ، وكلها قريبة ترجع إلىٰ معنىٰ واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه. تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤.

(٢) زيادة من أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، م ، ق.

وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل، أو بكل السيئات التي رجحت ؟، علىٰ القولين. هذا كله علىٰ أصل أصحاب التعليل والحكم[1].

وأما علىٰ أصول الجبرية، نفاة التعليل والحكم والأسباب، واقتضائها للثواب والعقاب، فالأمر مردود عندهم إلىٰ محض المشيئة، من غير اعتبار شيء من ذلك، ولا يدرىٰ عندهم ما يفعل الله ؛ بل يجوز عندهم أن يعاقب صاحب الحسنات الراجحة [١٢٩/ أ]، ويثيب صاحب السيئات الراجحة، ويدخل الرجلين النار مع استوائهما في العمل، وأحدهما في الدرك تحت الآخر، ويغفر لزيد ويعاقب عمرا، مع استوائهما من جميع الوجوه، وينعم من لم يطعه قط، ويعذب من لم يعصه قط، فليس عندهم سبب، ولا حكمة، ولا علة، ولا موازنة، ولا إحباط ولا تدافع بين السيئات والحسنات[2]، والخوف علىٰ المحسن والمسيء واحد، إذ من الجائز تعذيبهما، وكل مقدور له فجائز عليه، لا يعلم امتناعه إلا بإخبار الرسول : أنه لا يكون. فيمتنع وقوعه لمطابقة خبره العلم بعدم[3] وقوعه[4].

---

(١) ذكر القولين في هذه المسألة القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ٦٢٨، فقال : «وهنا موضع آخر وقع فيه الخلاف بينهما، وهو الكلام في الموازنة، فإن أبا علي ينكره، وأبا هاشم يثبته، ويقول به»، ثم ذكر ترجيح قول أبي هاشم، وذكر أدلته علىٰ ذلك.

وانظر : الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣٧، الإرشاد ٣٢٧، الفصل ٤/ ٨١-٨٩.

(٢) في ب، غ، ح١، أ تقديم وتأخير «بين الحسنات والسيئات».

(٣) في غ «بعد».

(٤) انظر : الإرشاد ٣٢٧-٣٢٩، الفصل ٤/ ٨٠، ٨٣.

فصل

القول الثاني وأدلته

واحتج الفريق الآخر ، وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة: بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما[1] لم يعمله، وكأنه لم يكن ؛ فلا يعود إليه بعد ذلك ، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا : ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلىٰ الممات ؛ بل إذا ندم وأقلع وعزم علىٰ الترك ، محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك ، فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا : وليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال ، فإن الكفر له شأن آخر ، ولهذا يحبط جميع الحسنات ، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات ، فلو أبطلها معاودة الذنب ، لأبطل غيرها من الحسنات ، وهذا باطل قطعا ، وهو يشبه مذهب الخوارج[2] المكفرين

---

(١) في م « من ».

(٢) هم الذين خرجوا علىٰ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما جرىٰ التحكيم ، واجتمعوا علىٰ مقاتلته ، وذلك لاعتقادهم بكفره ، زعما منهم أنه حكم آراء الرجال في كتاب الله ، ويذهبون إلىٰ القول بتكفير أصحاب الكبائر ، والقول بأن صاحب الكبيرة مخلد في النار ، ويقولون بوجوب الخروج علىٰ الإمام الجائر ، وهم عشرون فرقة ، منهم : المحكمة الأولىٰ ، والأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والإباضية. انظر : مقالات الإسلاميين ١/ ٨٦ ، الفرق بين الفرق ٧٢ ، التنبيه والرد ٦٢ ، الملل والنحل ١/ ١١٤.

بالذنب، والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة التي تقدمها الألوف من الحسنات، فإن الفريقين متفقان علىٰ خلود أرباب الكبائر في النار؛ لكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسّقُوهم، وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام، مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ [١٢٩/ب] حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله في مسنده مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب»[1].

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه[2]، فلو كانت[3] معاودته تبطل توبته لما كان محبوبا للرب، ولكان ذلك أدعىٰ إلىٰ مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند في موضعين بإسناد واحد عن علي، فأخرجه (١/ ٨٠) بلفظ: «إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب»، وأخرجه (١/ ١٠٣) باللفظ الذي ذكره المؤلف. وأخرجه أبو يعلىٰ (١/ ٣٧٦) بسند عبد الله بن أحمد، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧٨-١٧٩) من طريق عبد الله بن أحمد؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٠): رواه عبد الله، وأبو يعلىٰ، وفيه من لم أعرفه. وفي سنده أبو عمرو البجلي، قال ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٩٩): يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به بحال.

(٢) انظر هذا المعنىٰ في: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤١٠.

(٣) في الأصل، ش «كان».

فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران : ١٣٥]. والإصرار : عقد القلب علىٰ ارتكاب الذنب متىٰ ظفر به ، فهذا الذي يمنع مغفرته[1].

قالوا : وأما استمرار التوبة فشرط في صحة كمالها ونفعها ، لا شرط في صحة ما مضىٰ منها ، وليس ذلك[2] كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة ، فإن تلك عبادة واحدة ، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة : فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب ، فكل ذنب له توبة تخصه ، فإذا أتىٰ بعبادة وترك أخرىٰ ، لم يكن ما ترك موجبا لبطلان ما فعل ، كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه؟.

بل نظير من صلىٰ ولم يصم ، أو زكىٰ ولم يحج.

ونكتة المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا : وهذا علىٰ أصول أهل السنة أظهر ، فإنهم متفقون علىٰ أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين ، ويكون محبوبا لله

---

(١) قال الراغب في المفردات ٢٨٢ : الإصرار : التعقد في الذنب والتشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه.

(٢) في ح١ ، ب ، أ ، غ ، م « كذلك ».

مبغوضا له من وجهين أيضا ؛ بل يكون فيه إيمان ونفاق [١٣٠/ أ] ، وإيمان وكفر ، ويكون إلىٰ أحدهما أقرب منه إلىٰ الآخر ، فيكون من أهله ، كما قال تعالىٰ : ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، وقال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك ، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله ، وإن كان معه تصديق لرسله ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر ، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان : شرك خفي وجلي.

فالخفي[١] : قد يغفر ، وأما الجلي فلا يغفره الله تعالىٰ إلا بالتوبة[٢] ، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء : ٤٨][٣].

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ح١ ، ب ، أ ، غ زيادة « منه ».

(٣) سيأتي كلام المؤلف عن الشرك عند كلامه علىٰ أقسام ما يتاب منه. انظر : ١/ ٣٣٩-٣٤٧ ، وتكلم علىٰ الشرك أيضاً في كتاب : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٩٠-٢٠٥ ، ومما قاله فيه : وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته ؛ بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب ، وهذا

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا فمعاود[1] الذنب مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه علىٰ كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فصل

عود الحسنات التي أحبطتها السيئات بالتوبة

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها، ثم تاب منها توبة نصوحا خالصة، عادت إليه حسناته، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها؛ بل يقال له: تبت علىٰ ما أسلفت من خير، فإن[2] الحسنات التي فعلها[3] في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره، من عتاقة، وصدقة، وصلة، وقد قال حكيم بن حزام رضي الله عنه [4]: «يا رسول الله،

حال أكثر الناس ...، وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب علىٰ ترك الأمر...، وهذا الشرك ينقسم إلىٰ مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر.

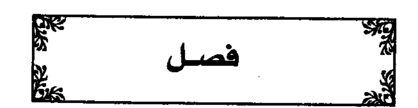
(١) في الأصل، ش «فمعاودة».

(٢) «إن» ساقطة من ح١، ب، غ، أ.

(٣) في ب، غ، م، ح١، د، أ، ح٢، ق «فعلتها».

(٤) هو حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي القرشي، أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وغزا

أريت عتاقة أعتقتها في الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحمي، هل[1] لي فيها من أجر؟، فقال: أسلمت علىٰ ما أسلفت من خير »[2]، وذلك أن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت [١٣٠/ ب] الطاعتان واجتمعتا؛ والله أعلم.



فصل

توبة العاجز عن المعصية

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟، وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا جب، والسارق إذا أتي علىٰ أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده، ومن وصل إلىٰ حد بطلت معه دواعيه إلىٰ معصية كان يرتكبها.

ففي هذا قولان للناس[3]:

حنيناً والطائف، كان من أشراف قريش وعقلائها ونبلائها، وكانت خديجة عمته، والزبير ابن عمه، عاش ١٢٠ سنة، وولد قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة، توفي سنة ٥٤هـ رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٤، طبقات خليفة ١٣، التاريخ الكبير ٣/ ١١.

(١) في ب، غ، د، م، ح١، أ، ح٢ « فهل ».

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، (٣/ ٣٠١)، ح: (١٤٣٦)، ومسلم في الإيمان، (١/ ١١٣)، ح: (١٢٣).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوىٰ ١٠/ ٧٤٥: ومما ينبنىٰ علىٰ هذا مسألة معروفة بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية: وهي توبة العاجز عن الفعل، كتوبة المجبوب

القول الأول

فقالت طائفة : لا تصح توبته ؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك ، فالتوبة من الممكن ، لا من المستحيل ، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلىٰ السماء ، ونحوه.

قالوا : ولأن التوبة مخالفة داعي النفس ، وإجابة داعي الحق ، ولا داعي للنفس هنا ، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا : ولأن هذا كالمكره علىٰ الترك ، المحمول عليه قهراً ، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا : ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح توبة[1] غير معتبرة ، ولا يحمدون عليها ، ولهذا يسمونها توبة إفلاس ، وتوبة جائحة ، قال الشاعر :

ورحتُ عن توبته سائلاً وجدتُهَا توبة إفلاس[2]

قالوا : ويدل علىٰ هذا أيضا أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت علىٰ

عن الزنا ، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ، ونحوه من العجز ، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم ، وخالف في ذلك بعض القدرية ، بناء علىٰ أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب علىٰ تركه الفعل ؛ بل يعاقب علىٰ تركه ، وليس كذلك ؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب ، كما بينا ... انتهىٰ.

وانظر الكلام علىٰ المسألة في : المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٢٦ ، شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٦٣٨ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، المغني للقاضي عبد الجبار ١٤/ ٣٠٨ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٠-٤١ ، التوبة إلىٰ الله ومكفرات الذنوب للغزالي ١٠٩ ، الإرشاد٣٣٧.

(١) « توبة » ساقطة من ش.

(٢) البيت للبهاء زهير بن محمد المهلبي ، انظر : ديوانه ١٨٢.

معنى التوبة من قريب

أن التوبة عند المعاينة لا تنفع ؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء : ١٧ - ١٨]، والجهالة [١٣١/ أ] هاهنا : جهالة العمل ، وإن كان عالما بالتحريم ، قال قتادة رضي الله عنه : « أجمع أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة ، عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصىٰ الله فهو جاهل »(١).

وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين علىٰ أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة(٢) : قبل الموت. وقال الضحاك(٣) : قبل معاينة ملك الموت. وقال

---

(١) أخرج هذا الأثر عن قتادةَ ابنُ جرير عند تفسير الآية (٤/ ٢٩٨) ، وليس فيه قوله : « وكل من عصىٰ الله فهو جاهل ». وذكره كاملاً البغوي في تفسيره (٤/ ٤٠٧).

(٢) هو العلامة الحافظ المفسر ، أبو عبد الله القرشي مولاهم المدني البربري الأصل ، حدث عن ابن عباس ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وغيرهم ، كان كثير الأسفار ، كان أعلم الناس بالتفسير ، قاله قتادة. كان يتهم برأي الخوارج ، مات سنة ١٠٥ هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ١٢ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٧ ، طبقات خليفة ٢٨٠.

(٣) أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي ، وقيل : أبو القاسم ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم ، قال الذهبي : وليس بالمجود لحديثه ، وهو صدوق في نفسه ، حدث عن ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وأنس ، وغيرهم، وثقه أحمد ، ويحيىٰ بن معين، وغيرهما ، وحديثه في السنن ، توفي سنة ١٠٢هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨ ، طبقات ابن سعد ٣٠٠ ، التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٢.

السدي[1] والكلبي : أن يتوب في صحته قبل مرض موته[2]. وفي المسند وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما[3] عن النبي ﷺ **«إن الله يقبل[4] توبة العبد ما لم يغرغر»**[5]، وفي نسخة دراج[6] عن أبي الهيثم[7] عن أبي سعيد مرفوعا : إن

---

(١) أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر، ، الحجازي ثم الكوفي، أحد موالي قريش، حدث عن أنس بن مالك، وابن عباس، وعدد كبير من كبار التابعين، مات سنة ١٢٧هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤، طبقات ابن سعد٦/ ٣٢٣، التاريخ الكبير ١/ ٣٦١.

(٢) انظر : هذه الأقوال في تفسير الطبري٤/ ٣٠٠-٣٠١، وفي تفسير البغوي ١/ ٤٠٧.

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي المكي ثم المدني، أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه قبل أن يحتلم، واستصغر يوم أحد، وهو ممن بايع تحت الشجرة، توفي سنة ٧٣هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٠٣، طبقات ابن سعد ٤/ ١٤٢، التاريخ الكبير ٥/ ٢.

(٤) في ح٢ « ليقبل ».

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣)، والترمذي في الدعوات، (٥/ ٥٤٧)، وقال : هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد (٢/ ١٤٢٠)، وابن حبان، الإحسان (٢/ ١٢)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ؛ ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣٨٣).

(٦) هو دراج، أبو السمح المصري، يقال : اسمه عبد الرحمن، سمع عبد الله بن الحارث بن جزاء، وأبا الهيثم، وابن حجيرة، قال أحمد : أحاديثه مناكير، ولينه، وقال : عباس عن يحيى ليس به بأس، وقال عثمان بن سعيد عن يحيىٰ : ثقة، وقال أبو حاتم : ضعيف، مات سنة ست وعشرين ومائة. انظر : التاريخ الكبير ٣/ ٢٥٦، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤.

(٧) هو سليمان بن عمرو بن عبدة، ويقال : عبيد الليثي العتواري، أبو الهيثم المصري، روىٰ عن

الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب[1]: «وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[2].

فهذا شأن التائب من قريب. وأما إذا وقع في السياق فقال: إني تبت الآن، لم تقبل توبته؛ وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة: هي كف النفس عن الفعل الذي هو[3] متعلق النهي. والكف إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال فلا يعقل كف النفس عنه؛ ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتىٰ

أبي سعيد الخدري، وكان في حجره، وأبي هريرة، وأبي نضرة، وعنه دراج، وكعب بن علقمة، وعبد الله بن زجر، وغيرهم، قال ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال العجلي: تابعي ثقة. انظر: التاريخ الكبير ٤/ ٢٧، معرفة الثقات للعجلي ٢/ ٤٣٦، تهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٢١٢.

(١) «الرب» ساقطة من م.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في التفسير (١/ ٤٠٧)، وأخرجه الإمام أحمد من طريقين عن أبي سعيد (٣/ ٢٩، ٤١)، وأبو يعلىٰ (١٣٩٩)، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٦٧)، وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧)، وقال: رواه أحمد، وأبو يعلىٰ، والطبراني في الأوسط، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلىٰ.

(٣) «هو» ساقطة من م.

يتأتىٰ منه الإقلاع.

قالوا : ولأن الذنب عزم جازم علىٰ فعل المحرم ، يقترن[1] به فعله المقدور ، والتوبة منه عزم جازم علىٰ الترك[2] المقدور ، يقترن به الترك. والعزم علىٰ غير المقدور محال. والترك في حق هذا ضروري ، لازم[3] غير مقدور له[4] ؛ بل هو بمنزلة تركه للطيران[5] إلىٰ السماء ، وحمل[6] الجبال ونحو[7] ذلك.

القول الثاني وأدلته

والقول الثاني [١٣١/ ب] **وهو الصواب** : أن توبته صحيحة ممكنة ؛ بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه ، والمقدور له منها الندم ، وفي المسند مرفوعا : « **الندم توبة** »[8] ، فإذا تحقق ندمه علىٰ الذنب ، ولومه نفسه عليه ، فهذه توبته. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه ، مع شدة ندمه علىٰ الذنب ، ولومه نفسه عليه[9] ؟ ، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه ، [وحزنه][10] ، وخوفه ،

---

(١) في ب « ويقترن ».

(٢) في غ « ترك ».

(٣) في ح١ ، أ ، ب ، غ « لا عزم ».

(٤) « له » سقط في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

(٥) في ح٢ ، م ، غ ، أ ، ب ، ق ، ح١ ، د « ترك الطيران ».

(٦) في د ، ح١ ، ق ، ب ، أ ، غ ، م ، ح٢ « ونقل ».

(٧) في أ ، ح١ ، ب ، غ ، م ، ح٢ « وغير ».

(٨) سبق تخريجه ص٥٤٠.

(٩) سقط من أ قوله : « فهذه توبته ، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه مع شدة ندمه علىٰ الذنب ولومه نفسه عليه ».

(١٠) زيادة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

وعزمه الجازم ، ونيته أنه لو كان صحيحا والفعل مقدور له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها ، إذا صحت نيته ، كقوله في الحديث الصحيح : « **إذا مرض العبد ، أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما** »[(١)] ، وفي الصحيح أيضا عنه : « **إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم** ». قالوا : وهم بالمدينة؟ ، قال : «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[(٢)] ، وله نظائر في الحديث ، فتنزيل العاجز عن المعصية ، التارك لها قهرا مع نيته تركها اختيارا لو أمكنه منزلة التارك المختار أولىٰ.

يوضحه : أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة ، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلا وعزما ، والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضا فإن هذا تعذر منه الفعل ، لم يتعذر منه التمني والوداد ، فإذا كان يتمنىٰ ويود لو واقع الذنب ، ومن نيته [أنه][(٣)] لو كان سليما لباشره ، فتوبته

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، ٦/ ١٣٦ ، ح : (٢٩٩٦) ، عن أبي موسىٰ الأشعري ، وأبو داود في الجنائز ، (٣/ ٤٧٠) ، عن أبي موسىٰ بلفظ مقارب ، وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤١٠) عن أبي موسىٰ بلفظ البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ، (٨/ ١٢٦) ، ح : (٤٤٢٣) ، عن أنس ، وأخرجه مسلم في الإمارة ، (٣/ ١٥١٨) ، ح (١٩١١) ، عن جابر بلفظ : «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض** ».

(٣) زيادة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن علىٰ فوته، فإن الإصرار متصور في حقه قطعا، فيتصور في حقه ضده، وهو التوبة؛ بل هي أولىٰ بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعاين، ومن ورد القيامة أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصور منه عن التمني والوداد، والأسف [١٣٢/ أ] علىٰ فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن علىٰ فعله؛ والله أعلم.



فصل

حكم التوبة من الذنب مع ارتكاب بعضه

ومن أحكامها أن من توغل ذنباً[١]، وعزم علىٰ التوبة منه، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه[٢]، كمن أولج في فرج حرام، ثم عزم علىٰ التوبة قبل النزع الذي هو جزء الوطء. وكمن توسط أرضا مغصوبة، ثم عزم علىٰ التوبة، ولا يمكنه إلا بالخروج، الذي هو مشي فيها وتصرف؛ فكيف[٣] يتوب من الحرام بحرام مثله؟، وهل تعقل[٤] التوبة من الحرام بالحرام؟[٥].

---

(١) في ب، ح١ «في ذنب».

(٢) في ش «معصية».

(٣) «كيف» ساقطة من م.

(٤) في ش «يعقل»، وفي ق «وهذا تعقل».

(٥) سقط من أ قوله: «مثله وهل تعقل التوبة من الحرام بالحرام».

فهذا مما أشكل علىٰ بعض الناس ، حتىٰ دعاه ذلك إلىٰ أن قال بسقوط التكليف عنه في هذا الفعل الذي يتخلص به من الحرام.

قال : لأنه لا يمكن أن يكون مأمورا به وهو حرام ، وقد تعين في حقه طريقا للخلاص من الحرام ، لا يمكنه التخلص بدونه ، فلا حكم في هذا الفعل البتة، وهو بمنزلة العفو الذي لا يدخل تحت التكليف[١].

وقالت طائفة : بل هو حرام واجب ، فهو ذو وجهين : مأمور به من أحدهما، منهي عنه من الآخر ، فيؤمر به من حيث تعينه طريقا للخلاص من الحرام ، وهو من هذا الوجه واجب ، وينهىٰ عنه من جهة كونه مباشرة[٢] للحرام ، وهو من هذا الوجه محرم ، فيستحق عليه الثواب والعقاب.

قالوا : ولا يمتنع كون الفعل في الشرع ذا وجهين مختلفين[٣] ، كالاشتغال عن الحرام بالمباح[٤] ، فإن المباح إذا نظرنا إلىٰ ذاته ، مع قطع النظر عن ترك الحرام به[٥] ، قضينا بإباحته، وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركا للحرام به[٦] كان واجباً[٧].

---

(١) انظر : المغني للقاضي عبد الجبار ١٤/ ٤١٣ ، الإحكام للآمدي ١/ ١٣٥.

(٢) في ب « مباشرا ».

(٣) « مختلفين » ساقطة من م .

(٤) في ق ، ح٢ ، م ، غ ، د ، ب ، أ ، ح١ « بمباح ».

(٥) « به » ساقطة من غ ، ح١ ، أ ، ب.

(٦) « به » ساقطة من غ ، ح١ ، أ ، ب.

(٧) انظر الكلام علىٰ مسألة كون الفعل مأمورا به منهيا عنه معاً : المحصول للرازي الجزء الأول - القسم الثاني - صفحة ٤٧٦ ، روضة الناظر ١/ ١٢٦.

نعم، غايته أنه لا يتعين مباح دون مباح، فيكون واجباً مخيراً.

قالوا: وكذلك الصلاة في الدار المغصوبة، هي حرام، وهي واجبة، وستر العورة بثوب الحرير كذلك، حرام واجب من وجهين مختلفين.

والصواب: أن هذا النزع والخروج من الأرض توبة ليس بحرام [١٣٢/ ب]؛ إذ هو مأمور به قطعا، ومحال أن يؤمر بالحرام، وإنما كان النزع الذي هو جزء الوطء حراما لقصد التلذذ به، وتكميل الوطء. وأما النزع الذي يقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية، فلا دليل علىٰ تحريمه، لا من نص ولا إجماع[١]، ولا قياس صحيح يستوي فيه الأصل والفرع في علة الحكم[٢].

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها، وحكمه فيها: الأمر بالنزع قطعا، وإلا كانت الاستدامة مباحة، وذلك عين المحال، وكذلك الخروج من الأرض مأمور به، وإنما تكون الحركة والتصرف في ملك الغير حراما إذا كان علىٰ وجه الانتفاع بها، المتضمن لإضرار مالكها، أما إذا كان القصد ترك

---

(١) **الإجماع في اللغة**: العزم والاتفاق.

وفي الاصطلاح: اتفاق المجتهدين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام في عصر من العصور علىٰ أمر ديني، والعزم التام علىٰ أمر من جماعة أهل الحل والعقد.

التعريفات ٢٤، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٢٣، الإحكام للآمدي ١/ ١٩٥، روضة الناظر ١/ ٣٣١، المحصول الجزء الثاني - القسم الأول ص ١٩.

(٢) **القياس في اللغة**: التقدير.

وفي الشرع: حمل فرع علىٰ أصل في حكم جامع بينهما.

انظر: روضة الناظر ٢/ ٢٢٦، التعريفات ٢٣٢، كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٥٢٥.

الانتفاع ، وإزالة الضرر عن المالك ، فلم يحرم الله تعالىٰ ولا رسوله ذلك ؛ ولا دل علىٰ تحريمه نظر صحيح ، ولا قياس صحيح.

وقياسه علىٰ مشي[1] مستديم الغصب ، وقياس نزع التائب علىٰ نزع المستديم ، من أفسد القياس وأبينه بطلانا ، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان ؛ ولكن إذا تحقق النهي عنه والأمر به ، أمكن اعتبار وجهيه[2] ، فإن الشارع أمر بستر العورة ، ونهىٰ عن[3] لبس الحرير ، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين ، فصار فعله ذا وجهين.

وأما محل النزاع فلم يتحقق فيه النهي عن النزع والخروج من الأرض من الشارع البتة ، لا بقوله ولا بمعقول قوله ، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر ، بينهما أشد تباين ، وأعظم فرق في الحس والعقل والفطرة والشرع.

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو ، فإن أريد به أنه معفو له عن المؤاخذة به فصحيح ، وإن أريد أنه لا حكم لله فيه ؛ بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم ، والناسي والمجنون ، فباطل ؛ إذ هؤلاء غير مخاطبين ، وهذا مخاطب بالنزع والخروج ، فظهر الفرق ؛ والله الموفق للصواب.

فإن قيل : هذا يتأتىٰ لكم فيما إذا لم يكن [١٣٣/ أ] في المفارقة بنزع أو خروج مفسدة ، فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة؟ ، مثل مفسدة الإقامة ،

---

(١) « مشي » ساقطة من ش.

(٢) في م « وجهه ».

(٣) في أ « عنه ».

كمن توسط جماعة جرحىٰ ليسلبهم[1] ، فطرح نفسه علىٰ واحد ، إن أقام عليه قتله بثقله ، وإن انتقل عنه لم يجد بدا من انتقاله إلىٰ مثله فيقتله بثقله ، وقد عزم علىٰ التوبة ، فكيف تكون توبته؟.

قيل : توبة مثل هذا بالتزام أخف المفسدتين ، من الإقامة علىٰ الذنب المعين أو الانتقال عنه ، فإن تساوت مفسدة الإقامة علىٰ الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه ، فهذا يؤمر من[2] التوبة بالمقدور له منها ، وهو الندم ، والعزم الجازم علىٰ ترك المعاودة ، وأما الإقلاع فقد تعذر في حقه إلا بالتزام مفسدة أخرىٰ مثل[3] مفسدته.

فقيل[4] : إنه لا حكم لله في هذه الحادثة ، لاستحالة ثبوت شيء من الأحكام الخمسة فيها ، إذ إقامته علىٰ الجريح تتضمن مفسدة قتله ، فلا يؤمر بها ، ولا هو مأذون له فيها ، وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر ، فلا يؤمر بالانتقال ، ولا يؤذن له فيه ، فيتعذر الحكم في هذه الحادثة ، وعلىٰ هذا فتتعذر التوبة منها.

والصواب : أن التوبة غير متعذرة ، ولله فيها حُكْم ، فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم ، علمه من علمه ، وجهله من جهله.

---

(١) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق « لسلبهم ».

(٢) في م « ب ».

(٣) في ش « دون ».

(٤) هكذا في جميع النسخ الخطية ، ولعل الصواب « وقيل ».

فيقال: حكم الله في هذه الواقعة، كحكمه في الملجأ، فإنه قد ألجئ قدرا إلىٰ إتلاف أحد النفسين ولا بد، والملجأ ليس له فعل يضاف إليه؛ بل هو آلة، فإذا صار هذا كالملجأ، فحكمه أن لا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار، فلا يعدل من واحد إلىٰ واحد؛ بل يتخلىٰ عن الحركة والاختيار، ويستسلم استسلام من هو عليه [من الجرحىٰ](١)، إذ لا قدرة له علىٰ حركة مأذون له فيها البتة، فحكمه الفناء عن الحركة والاختيار، وشهود نفسه كالحجر الملقىٰ علىٰ هذا الجريح، ولا سيما إن كان قد ألقي عليه بغير اختياره، فليس له أن يلقي [١٣٣/ ب] نفسه(٢) علىٰ جاره لينجيه بقتله، والقدر ألقاه علىٰ الأول، فهو معذور به، فإذا انتقل إلىٰ الثاني انتقل بالاختيار والإرادة، فهكذا إذا ألقىٰ نفسه عليه باختياره، ثم تاب وندم، لا نأمره بإلقاء نفسه علىٰ جاره، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء.

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط، لا بالإقلاع، والإقلاع في حقه مستحيل، فهو كمن أولج في فرج حرام، ثم شد وربط في حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع البتة، فتوبته بالندم والعزم والتجافي بقلبه عن السكون إلىٰ الاستدامة، وكذلك توبة الأول بذلك، وبالتجافي عن الإرادة والاختيار؛ والله أعلم.

---

(١) زيادة من ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ب.

(٢) «نفسه» ساقطة من ش.

فصل

حكم التوبة إذا كانت متضمنة لحق آدمي

ومن أحكامها أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي أن يخرج إليه منه[1]، إما بأدائه، وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به إن كان حقاً مالياً أو جناية علىٰ بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**»[2]، وإن كانت المظلمة بقدحه فيه، بغيبة أو قذف، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه، والتحلل منه؟، أو إعلامه بأنه نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا؛ بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله تعالىٰ من غير إعلام من قذفه واغتابه؟[3].

علىٰ ثلاثة أقوال. وعن أحمد - رضي الله عنه - روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة القاذف إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟،

---

(١) في ح٢ «إليها منها».

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، (٥/ ١٠١)، ح: (٢٤٤٩)، عن أبي هريرة، وأخرجه الترمذي عنه في صفة القيامة، (٤/ ٦١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث سعيد المقبري، وأخرجه الإمام أحمد عنه في (٢/ ٤٣٥، ٥٠٦).

(٣) انظر الكلام علىٰ مسألة التوبة إذا كانت متضمنة لحق آدمي: المنهاج للحليمي ٣/ ١٢١-١٢٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١٥٩، ١٦/ ٢٨٨، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٦-٣٨، المغني للقاضي عبد الجبار ١٤/ ٣١٢-٣٣٤، ٤٣٥-٤٥٠، شرح الأصول الخمسة ٧٩٨-٧٩٩، الآداب الشرعية ٧١-٨١.

ويخرج عليه توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف من مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك اشتراط الإعلام والتحلل ، هكذا ذكر أصحابهم في كتبهم[1].

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي ، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه. ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول يشترط إعلامه بعينه [١٣٤/ أ] ، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفا بقدره ، فلا بد من إعلام مستحقه به ؛ لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور ، وهو قوله : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض ، فليتحلله اليوم »[2].

قالوا : ولأن في هذه الجناية حقين : حقا لله ، وحقا لآدمي ، فالتوبة منها بتحلل الآدمي ، والندم فيما بينه وبين الله تعالىٰ لأجل حقه.

قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه ، إن شاء اقتص ، وإن شاء عفا ، وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ؛ بل يكفي توبته بينه وبين الله تعالىٰ. ويذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته وإحصانه ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه. وهذا اختيار

---

(١) انظر الكلام علىٰ توبة القاذف : المغني لابن قدامة ١٤/ ١٨٨-١٩٥.

(٢) سبق تخريجه ص٧٥٤.

شيخنا [أبي العباس ابن تيمية](1) ـ قدس الله روحه ـ(2).

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذىٰ وحنقا وغما، وقد كان(3) مستريحا قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر علىٰ حمله، وأورثه ضررا في نفسه أو بدنه(4)، كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيك منه سماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل(5)

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه، فضلا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سببا للعداوة والحرب بينه وبين القائل، فلا يصفو له أبدا، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة(6) لشر أكبر من شر الغيبة والقذف، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحاب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت [١٣٤/ ب] إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنه محض حقه، فيجب عليه أداؤه إليه، بخلاف الغيبة والقذف، فإنه

---

(١) زيادة من ح١، م، د، ح٢، غ، أ، ب، ق.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٥٤١.

(٣) كرر «وقد كان» في ش.

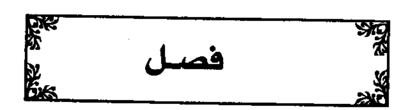
(٤) في ش «وبدنه».

(٥) لم أجد هذا البيت.

(٦) في ح١، ب، ح٢، أ، غ «مؤكدة».

ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما علىٰ الآخر من أفسد القياس.

والثاني : أنه إذا أعلمه بها لم يؤذه[١] ، ولم يهيج[٢] منه غضبا وعداوة ؛ بل ربما سره ذلك ، وفرح به ، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلا ونهاراً، من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد، وهذا هو الصحيح في[٣] القولين كما رأيت [والله أعلم][٤].



فصل

هل يعود التائب إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة

ومن أحكامها : أن العبد إذا تاب من الذنب ، فهل يرجع إلىٰ ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب ، أو لا يرجع إليها؟ ، اختلف في ذلك.

فقالت طائفة : يرجع إلىٰ درجته ؛ لأن التوبة تجب الذنب بالكلية ، وتصيره[٥] كأن لم يكن ، والمقتضي لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح ، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا : ولأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح ، فإن كان ذنبه قد حطه عن

(١) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق « تؤذه ».

(٢) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق « تهج ».

(٣) في ش « من ».

(٤) زيادة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

(٥) في ش « وصيرته ».

درجته ، فحسنته بالتوبة ترقيه إليها ، وهذا كمن سقط في بئر ، وله صاحب شفيق ، أدلىٰ إليه حبلا تمسك به حتىٰ رقي منه إلىٰ موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح ، والأخ الشفيق.

وقالت طائفة : لا يعود إلىٰ درجته وحاله ؛ لأنه لم يكن في وقوف ؛ بل كان في ترق وصعود ، فبالذنب صار في نزول وهبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدا فيه[1] للترقي.

قالوا : ومثل هذا مثل رجلين سائرين علىٰ طريق سيرا واحدا ، ثم عرض لأحدهما ما رده علىٰ عقبه ، أو أوقفه ، وصاحبه سائر ، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته ، وسار بإثر صاحبه لم يلحقه أبدا ؛ لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذلك أخرىٰ.

قالوا : والأول سيره[2] بقوة أعماله [وإيمانه][3] ، وكلما ازداد سيره[4] [١٣٥/ أ] ازدادت قوته ، وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوة سيره [وإيمانه][5] بالوقوف والرجوع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يحكي هذا الخلاف، ثم قال:

---

(١) في ب ، ح١ ، غ ، أ « له ».

(٢) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق « يسير ».

(٣) زيادة من ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق.

(٤) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، غ « سيرا ».

(٥) زيادة من ب ، ح١ ، د ، ح٢ ، غ ، م ، ق.

والصحيح : أن من التائبين[1] من لا يعود إلىٰ درجته ، ومنهم من يعود إليها ، ومنهم من يعود إلىٰ أعلىٰ منها ، فيصير خيرا مما كان قبل الذنب ، فكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة.

قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وعزمه ، وحذره وجده[2] ، وتشميره ، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرا مما كان وأعلىٰ درجة ، وإن كان مثله عاد إلىٰ مثل حاله ، وإن كان دونه لم يعد إلىٰ درجته ، وكان منحطا عنها ، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة[3].

ويتبين هذا بمثلين مضروبين :

أحدهما : رجل مسافر سائر علىٰ الطريق بطمأنينة وأمن ، فهو يعدو مرة ، ويمشي أخرىٰ ، ويستريح تارة ، وينام أخرىٰ ، فبينا هو كذلك إذ عرض له في طريق سيره ظل ظليل ، وماء بارد ومقيل ، وروضة مزهرة ، فدعته نفسه إلىٰ النزول عليها[4] ، فنزل عليها ، فوثب عليه منها عدو ، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير ، فعاين الهلاك ، وظن أنه منقطع به ، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه ، فبينا هو علىٰ ذلك

---

(١) في ش « الناس ».

(٢) في ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، أ ، ب ، ق قدم قوله : « وجده » علىٰ قوله : « عزمه ».

(٣) انظر الكلام علىٰ هذه المسألة في : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤-٣١٦ ، ١٥/ ٥٤-٥٧ ، طريق الهجرتين ، ٢٣١-٢٤٥.

(٤) في ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، غ ، ق « علىٰ تلك الأماكن ».

تتقاذف به الظنون ، إذ وقف علىٰ رأسه والده الشفيق القادر ، فحل كتافه وقيوده ، وقال : اركب الطريق واحذر هذا العدو ، فإنه علىٰ منازل الطريق بالمرصاد ، واعلم أنك ما دمت حاذرا له متيقظا لا يقدر عليك ، فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلىٰ المنزلة ، وفرط لك فاتبعني علىٰ الأثر.

فإن كان هذا السائر كيسا فطنا لبيبا ، حاضر الذهن والعقل ، استقبل سيره استقبالا آخر ، [أقوىٰ من الأول وأتم](١) ، واشتد حذره ، وتأهب لهذا العدو ، وأعد له عدته ، فكان سيره الثاني أقوىٰ من [١٣٥/ ب] الأول ، وخيرا منه ، ووصوله إلىٰ المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلىٰ مثل حاله الأولىٰ(٢) ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولا قوة حذر واستعداد ، عاد كما كان ، وهو معرض لما عرض له أولا.

وإن أورثه ذلك توانيا في سيره وفتورا ، وتذكرا لطيب مقيله ، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه ، وتفيؤ ظلاله ، وسكونا(٣) بقلبه إليه ، لم يعد إلىٰ مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني : عبد في صحة وعافية جسم ، عرض له مرض أوجب له حمية وشرب دواء وتحفظا من التخليط ، ونقص بذلك عنه(٤) مادة ردية كانت منقصة

---

(١) زيادة من ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، غ ، ق.

(٢) في ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، ق ، غ « الأول ».

(٣) في ش « وسكن ما ».

(٤) « عنه » ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، د.

لكمال قوته وصحته، فعاد بعد المرض أقوىٰ مما كان قبله؛ [كما قيل][١] :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل[٢]

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا في القوة ، وتداركه بمثل ما نقص من قوته ، عاد إلىٰ مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته ، عاد إلىٰ دون ما كان عليه من القوة.

وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول ، لا يلوي علىٰ شيء في طريقه ، فعرض له رجل من خلفه جبذ[٣] ثوبه ، وأوقفه قليلا ، يريد تعويقه عن الصلاة ، فله معه حالان :

أحدهما : أن يشتغل به حتىٰ تفوته الصلاة. فهذه حال غير التائب.

الثاني[٤] : أن يجاذبه علىٰ نفسه ، ويتفلت منه ، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال :

أحدها[٥] : أن يكون سيره جمزا و[٦] وثوبا[٧] ، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة ،

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق ، م ، غ.

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي ؛ انظر الديوان ٣/ ٢١٠.

(٣) في ش « جذب ».

(٤) في الأصل ، ش ، ب ، ح١ ، غ ، ق ، د « الثانية ».

(٥) في ح٢ « أحدهما ».

(٦) في ش « أو ».

(٧) في غ ، أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، ق « وثبا ».

فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني : أن يعود إلىٰ مثل سيره.

الثالث: أن تورثه تلك الوقفة فتورا وتهاونا[١]، فيفوته[٢] فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت ، فهكذا التائب[٣] سواء[٤].

فصل

المفاضلة بين المطيع الذي لم يعصِ والعاصي التائب

ويتبين هذا بمسألة شريفة ، وهي أنه هل المطيع [١٣٦/ أ] الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلىٰ الله توبة نصوحا ، أو هذا التائب أفضل منه؟ ؛ اختلف في ذلك.

فطائفة رجحت من لم يعص علىٰ من عصىٰ وتاب [توبة نصوحا][٥] ، واحتجوا بوجوه :

أدلة القول الأول

أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم أطوعهم لله تعالىٰ ، وهذا الذي لم يعص أطوع ؛ فيكون أفضل.

الثاني : أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلىٰ فوق، فتكون درجته أعلىٰ من درجته؛ وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه،

---

(١) في ح١ « وتوانيا ».

(٢) في ش « فتفوته ».

(٣) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ق « التائبين السائرين » ؛ وفي ح١ « التائب السائر ».

(٤) في ب زيادة « بسواء ».

(٥) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١.

وذاك في سير آخر ، فأنىٰ له بلحاقه ؟ ، فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئا كسب الآخر مثله ، فعمد أحدهما إلىٰ كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف. والآخر مُـجِدّ[1] في الكسب ، فإذا أدركته حمية المنافسة ، وعاد إلىٰ الكسب ، وَجَدَ صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئا كثيرا ، فلا يكسب شيئا إلا كسب صاحبه نظيره[2] ، فأنىٰ له بمساواته؟.

الثالث : أن غاية التوبة أن تمحو عن هذا سيئاته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها ، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه ، فأين هذا السعي من سعي من هو كاسب رابح ؟.

الرابع : أن الله يمقت علىٰ معاصيه ومخالفة أوامره ، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب ، كان حظه المقت ، وحظ المطيع الرضا ، فالله لم يزل عنه راضيا ، ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيا عنه فمقته[3] ، ثم رضي عنه ، فإن الرضا المستمر خير من الذي تخلله المقت.

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم ، والتوبة هي ترياقه ودواؤه ، والطاعة هي الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه ، [وربما أديا به إلىٰ التلف أو المرض أبدا][4].

(١) في الأصل ، ش « يجد ».

(٢) في د ، ق « مثله ».

(٣) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « ثم مقته ».

(٤) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

السادس : أن العاصي علىٰ خطر شديد ، فإنه دائر بين ثلاثة أشياء ، **أحدها** : العطب والهلاك بشرب السم. **الثاني** : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك [١٣٦/ ب]. **والثالث** : عود قوته إليه كما كانت أو خيرا(١) منها(٢).

والأكثر إنما هو القسمان الأولان ، ولعل الثالث نادر جدًّا ، فهو علىٰ يقين من ضرر السم ، وعلىٰ رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع : أن المطيع قد أحاط علىٰ بستان طاعته حائطا حصينا ؛ لا يجد العدو(٣) إليه سبيلا ، فثمرته وزهرته ونضرته(٤) وبهجته في زيادة ونمو أبدا. والعاصي قد فتح فيه ثغرة(٥) ، [وثلم فيه ثلمة](٦) ، ومكن منه السراق والأعداء ، فدخلوا فعاثوا فيه [يمينا وشمالا](٧) ؛ وأفسدوا [أغصانه](٨) ، [وخربوا حيطانه](٩) ، وقطعوا ثمرته، وأحرقوا في نواحيه ، وقطعوا ماءه، أو نقصوا(١٠)

---

(١) في ب ، ح١ « خير ».

(٢) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق زيادة « خير ».

(٣) في ب ، أ ، د ، ق ، غ ، ح١ « العدا ».

(٤) في ب ، أ ، م ، ح٢ ، غ ، ح١ « وخضرته ».

(٥) في ب ، ح١ ، غ ، أ « ثغرا ».

(٦) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

(٧) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

(٨) زيادة من سائر النسخ.

(٩) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

(١٠) في ب ، م ، ح١ ، غ ، ح٢ ، أ ، د « ونقصوا ».

سقيه ، [فمتىٰ يرجع هذا إلىٰ حاله الأول؟][1] ، فإذا تداركه قيِّمُه ولمَّ شعثَه ، وأصلح ما فسد منه ، وفتح طرق مائه ، وعمر ما خرب منه ، فإنه إما أن يعود كما كان ، أو أنقص ، أو خيرا ؛ ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذي لم يزل علىٰ نضارته وحسنه ؛ بل في زيادة ونمو ، [وتضاعف ثمرة[2] ، وكثرة غرس[3]][4].

الثامن : أن طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته ، ولذلك يسمىٰ جاهلا ، قال قتادة - رضي الله عنه - : «أجمع[5] أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة»[6]. فلذلك[7] قال الله تعالىٰ في حق آدم عليه السلام : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه : ١١٥] ، وقال في حق غيره : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف : ٣٥] ، وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوي إيمانه لم يطمع فيه عدوه ، وكان أفضل.

التاسع : أن المعصية لا بد أن تؤثر أثرا سيئا ولا بد ، إما[8] هلاكا كليا ، وإما خسرانا وعقابا يعقبه[9] عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود

---

(١) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

(٢) في م ، د ، ح٢ ، ق « ثمرته ».

(٣) في م ، د ، ح٢ ، ق « غرسه ».

(٤) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق.

(٥) في الأصل « احتج ».

(٦) سبق تخريج هذا الأثر ص٧٤٣.

(٧) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « وكذلك » ؛ وفي ش « ولذلك ».

(٨) في ش « أو ».

(٩) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق زيادة « إما ».

مصباح الإيمان، وعمل التوبة[1] في[2] رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع في الزيادة، ورفعة[3] الدرجات.

ولهذا كان[4] قيام الليل نافلة للنبي ﷺ خاصة، فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في التكفير[5]؛ وأين هذا من هذا؟.

العاشر: أن المقبل علىٰ الله[6] له سير[7] بجملة[8] أعماله؛ وكلما ازدادت[9] طاعاته [١٣٧/ أ] وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة من يسافر[10] فكسب عشرة أضعاف رأس ماله، فسافر ثانيا برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة أضعافه أيضا، فسافر ثالثا أيضا بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهلم جرا، فإذا فتر عن السفر في آخر أمره، مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه، وهذا معنىٰ قول بعض العارفين[11]: «لو

---

(١) في غ «التائب».

(٢) في ح٢ زيادة «التائب».

(٣) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «رفع».

(٤) «كان» ساقطة من ب، ح١، غ، أ.

(٥) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «تكفير السيئات».

(٦) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق زيادة «المطيع».

(٧) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «يسير».

(٨) في ش «تحمله».

(٩) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «زادت».

(١٠) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «سافر».

(١١) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «الجنيد» بدل قوله: «بعض العارفين».

أقبل عبد[1] على الله كذا وكذا سنة[2] ، ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما حصل له[3] »[4]. وهو صحيح بهذا المعنى ، فإنه قد فاته في مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها ، وهو أزيد من الربح المتقدم ، فإذا كان هذا حال من أعرض ، فكيف من عصى وأذنب؟ ؛ وفي هذا الوجه كفاية.

فصل

القول الثاني وأدلته

وطائفة رجحت التائب ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه ، واحتجت بوجوه.

أحدها : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ، وأكرمها عليه ، فإنه سبحانه يحب التوابين[5] ، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة، يوضح ذلك :

الوجه الثاني : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ،

---

(١) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « صادق » بدل « عبد ».

(٢) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « ألف عام » بدل « كذا وكذا سنة ».

(٣) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « ناله » بدل « حصل له ».

(٤) أخرج هذا الأثر عن الجنيد السلمي في طبقات الصوفية ١٣٣ ، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧٨) بلفظ : « ألف ألف سنة » ، ولفظ : « أكثر مما ناله ».

(٥) في أ زيادة « ويحب المتطهرين ».

ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب [إليه][1] أعظم فرح يقدّر ، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة ، بعدما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة[2] ، ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوىٰ التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرا عظيما في حال التائب وقلبه ، ومزيدهُ لا يعبر عنه ، وهو من أسرار تقدير الذنوب علىٰ العباد ، فالعبد[3] ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيبا[4] [١٣٧/ ب] لله ؛ فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب. ويوضحه :

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت في القدر والكمية علىٰ عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ، ومخُّها ولبُّها. يوضحه :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار المعصية ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلىٰ عبده عند ذله وإنكسار[5]

---

(١) زيادة من ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ص٥٦٩.

(٣) في ب ، م ، أ ، غ ، ح١ «فإن العبد».

(٤) في ش «محبوبا».

(٥) سقط من أ، غ قوله : «المعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلىٰ عبده عند ذله وانكساره».

قلبه ، كما في الأثر الإسرائيلي : « يا رب أين أجدك؟ ، قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلي »[1]. ولأجل هذا : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2] ؛ لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه عز وجل.

وتأمل قول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ : « **أنه يقول يوم القيامة : ابن[3] آدم ، استطعمتك فلم تطعمني. قال : يا رب ، كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين؟ ، قال : استطعمك عبدي فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، ابن آدم : استسقيتك فلم تسقني. قال : يا رب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين؟ ، قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم ، مرضت فلم تعدني. قال : يا رب كيف أعودك ، وأنت رب العالمين؟ ، قال : أما إن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتني عنده** »[4]. فقال في عيادة المريض : « **لوجدتني عنده** » ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ١٢٠ ، عن عمران القصير ، قال : قال موسىٰ بن عمران : أي رب أين أبغيك؟ ، قال : أبغني عند المنكسرة قلوبهم ، إني أدنو منهم كل يوم باعاً ، ولولا ذلك لانهدموا. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٤) عن مالك بن دينار، قال : قال موسىٰ، ثم ذكره.

(٢) ورد ذلك في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء** ». أخرجه مسلم في الصلاة ، (١/ ٣٥٠) ، ح : (٤٨٢). وأبو داود في الصلاة ، (١/ ٥٤٥). والنسائي في الافتتاح ، (٢/ ٢٢٦) ، وأحمد (٢/ ٤٢١).

(٣) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ « يا ابن ».

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ، (٤/ ١٩٩٠) ، ح : (٢٥٦٩) ، عن أبي هريرة وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٧٨) ، وأحمد بلفظ مقارب(٢/ ٤٠٤).

وقال في الإطعام، والإسقاء: «**لوجدت ذلك عندي**»، ففرق بينهما، فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلا بد أن يكسره المرض، فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا والله أعلم هو السر في استجابة دعوة الثلاثة [١٣٨/ أ] المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكسرته مما يجدها[1] العبد في نفسه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس[2] السبعية الحيوانية، ويذلها.

والقصد: أن شمعة[3] الخير[4] والفضل والعطايا، إنما يتنزل في شمعدان[5] الانكسار، وللعاصي التائب من ذلك نصيب وافر[6]. يوضحه:

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من

---

(١) في ب، م، د، ح٢، ش، ح١ «يجده».

(٢) سَوْرة النفس: أي وثوبها وسطوتها وشدتها وحدتها وهيجانها. انظر: مختار الصحاح ٣٢٠، المعجم الوسيط ١/ ٤٦٢، مادة (سور).

(٣) في ش «سعة». والشمعة: واحدة الشمع، وهو الذي يستصبح به، وأشمع السراج ونحوه: سطع نوره، والشمع والشمعة المرح والطرب واللعب. انظر: مختار الصحاح ٣٤٧، المعجم الوسيط ١/ ٤٩٤، مادة (شمع).

(٤) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «الجبر».

(٥) في ش «ميدان»؛ والشمعدان: منارة تزين ويركز عليها الشمع حين الاستضاءة به. المعجم الوسيط ١/ ٤٩٤.

(٦) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «أوفر نصيب».

كثير من الطاعات ، وهذا معنىٰ قول بعض السلف : قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، وقد يعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك؟ ، قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشىٰ ، كلما ذكره أحدث له توبة[1] واستغفارا وندما ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام وإن قعد وإن مشىٰ ، كلما ذكرها أورثته عجبا وكبرا ومنّة ، فتكون سبب هلاكه[2]. فيكون الذنب موجبا لترتب طاعات وحسنات ، ومعاملات قلبية ، من خوف من[3] الله ، وحياء منه ، والإطراق بين يديه منكسا رأسه خجلا ، باكيا نادما ، مستقبلا ربه ، وكل واحد من[4] هذه الآثار[5] أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبرا ، وازدراء بالناس ،

---

(١) في ب ، أ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ق « ذكر ذنبه فيحدث له انكسارا وتوبة ».

(٢) أخرج ابن المبارك في الزهد عن الحسن مرسلا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن العبد ليذنب الذنب فيدخله الجنة** » قيل : كيف؟ ، قال : « **يكون نصب عينيه ثابتاً قاراً حتىٰ يدخل الجنة** ». الزهد (٥٢). وروىٰ نحوه عن الحسن موقوفاً (٥٣). وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في الزهد ص ٣٨١ ، ٣٩١ ، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٨).

وذكر ابن المبارك عن أبي حازم ، قال : إن الرجل ليعمل السيئة ، إن عمل حسنة له قط أنفع له منها ، وإنه ليعمل الحسنة إن عمل سيئة قط أضر عليه منها. الزهد (٥٣) ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٤٢) ، وأخرج أبو نعيم هذا المعنىٰ عن أبي حازم بلفظ أطول من هذا وأقرب إلىٰ ما ذكره المؤلف. انظر المرجع السابق.

(٣) « من » ساقطة من د.

(٤) سقط من ح٢ قوله : « واحد من ».

(٥) في ب ، ح١ ، د ، ح٢ « الخصال ».

ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلىٰ النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها وبحاله علىٰ الله عز وجل، وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد علىٰ ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلائق[1] إذ[2] لم يعظموه ويرفعوه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به كذلك[3]. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأىٰ فيها ذلك كامنا، ولهذا تراه عاتبا علىٰ من لم يعظمه ويعرف له حقه، متطلبا لعيبه في قالب حمية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا [١٣٨/ ب]، فتح له باب المعاذير والرجاء، وأغمض عينه[4]، وسمعه، وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء - عليهم السلام - مسدود. وربما ظن أن ذنوبه[5] تكفر بإجلاله[6] وتعظيمه وإكرامه. فإذا أراد الله بهذا العبد خيرا ألقاه في ذنب كسره[7] به، وعرفه به[8] قدره، وكفىٰ به عباده شره، ونكس به رأسه، واستخرج به منه داء العجب

---

(١) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «الخلق».

(٢) في ب، ح١، ق، ح٢، ش «إذا».

(٣) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «ذلك».

(٤) في ش، د، ق «عينيه».

(٥) في ب، أ، م، د، ح٢، غ، ح١، ق «ذنوب من يعظمه».

(٦) في ح٢، م «بإجلاله له».

(٧) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، ق «يكسره».

(٨) في م «ويعرفه».

والكبر والمنة عليه وعلىٰ عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال ، كما قيل بلسان الحال في قصة آدم عليه السلام ، وخروجه من الجنة بذنبه : يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل[١] كانت سبب كيسك ، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به[٢]، وألبست بها خلعة[٣] العبودية.

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام[٤] بالعلل[٥]

يا آدم ، إنما ابتليتك بالذنب ؛ لأني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي ، علىٰ من عصاني « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون[٦] الله[٧] فيغفر[٨] لهم** »[٩].

يا آدم ، كنت تدخل علي دخول الملوك علىٰ الملوك ، واليوم تدخل علي

---

(١) في الأصل « ذلك فإنها » ، وفي ش « ذلك » بدل « زلل ».

(٢) في أ « عليه ».

(٣) في م ، أ ، ح١ ، ب ، غ ، ح١ « حلة ». قال في القاموس المحيط ٣/ ١٩ : الخلعة بالكسر : ما يخلع علىٰ الإنسان ، وخيار المال ؛ ويضم.

(٤) في م ، ق ، ح٢ ، د « الأجساد ».

(٥) سبق هذا البيت ص٧٦١.

(٦) في ش «فيستغفروني».

(٧) لفظ الجلالة « الله » ساقط من الأصل ، ش ، ق ، غ ، ب ، ح١ ، د ، أ.

(٨) في الأصل ، ش « فاغفر » ، والمثبت هو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٩) هذا الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، وقد سبق تخريجه ص٥٩٤.

دخول العبيد علىٰ الملوك.

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب ، فعلىٰ من أجود بحلمي؟ وعلىٰ من أجود بعفوي ومغفرتي ، وتوبتي ، وأنا التواب الرحيم؟.

يا آدم ، لا تجزع من قولي لك : ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ فلك خلقتها ، ولكن اهبط إلىٰ دار المجاهدة ، وابذر بذار[1] التقوىٰ ، وأمطر عليه سحائب الجفون ، فإذا اشتد الحب واستغلظ ، واستوىٰ علىٰ سوقه ، فتعال فاحصده.

يا آدم ، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إليَّ في الصعود ، وما أخرجتك منها نفيا لك عنها ، ما أخرجتك[2] إلا لتعود[3].

إن جرىٰ بيننا وبينك عتب أو[4] تناءت منا ومنك الديار [١٣٩/ أ]
فالوداد الذي عهدت مقيم والعثار[5] الذي أصبت جبار[6]

يا آدم ، ذنب تذلّ به لدينا ، أحب إلينا من طاعة تدلّ بها علينا.

يا آدم ، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيح المدلين.

---

(١) في أ ، ح١ ، ب ، غ ، ح٢ ، م « بذر ».

(٢) في أ ، ح١ ، ب ، غ زيادة « منها ».

(٣) في د زيادة « شعر ».

(٤) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ « و ».

(٥) قال في مختار الصحاح ٤١٢ : العثرة : الزلة ، وقد عثر في ثوبه يعثر بالضم عثار بالكسر. يقال : عثر به فرسه فسقط ، وعثر عليه اطلع. وقال في المعجم الوسيط ٢/ ٥٨٣-٥٨٤ : عثر عثراً وعثاراً : زل وكبا ... والعثار : الشر وما عثر به.

(٦) انظر : ديوان البحتري ٢/ ٨٥٢.

« ويا ابن[1] آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، ابن[2] آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك[3] ، يا ابن آدم[4] ، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا ، أتيتك بقرابها مغفرة »[5].

---

(١) في ب ، م ، ح٢ ، غ ، ح١ ، أ « يا ابن ».

(٢) في غ ، ق « يا ابن ».

(٣) سقط من ش قوله : « ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ».

(٤) في أ ، د ، ح١ ، ح٢ ، م ، ق ، ب « ابن آدم ».

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات ، (٥/ ٥٤٨) ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٠) : هذا الحديث تفرد به الترمذي من طريق كثير بن فائد ... ، وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ؛ انتهى. قال ابن رجب : وإسناده لا بأس به ... ، وقال الدارقطني عن سعيد مرفوعاً ، ورواه مسلم بن قتيبة عن سعيد بن عبيد فوقفه على أنس ، قال ابن رجب : قلت : قد روي عنه مرفوعاً وموقوفاً ، وتابعه على رفعه أيضا أبو سعيد مولى بني هاشم ، فرواه عن سعيد بن عبيد مرفوعا أيضاً ، وقد روى أيضا من حديث ثابت عن أنس مرفوعاً ، ولكن قال أبو حاتم : منكر الحديث.

وللحديث شواهد من حديث أبي ذر ، أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٢) ، والدارمي في سننه (٢/ ٣٢٢). وله شاهد من حديث ابن عباس ، أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٩) ، وفي الصغير ؛ انظر : الروض الداني (٢/ ٨٢). قال الهيثمي : رواه الطبراني في الثلاثة ، وفيه

ويذكر عن بعض العباد: أنه كان يطوف ليلة[١] يسأل ربه في الطواف[٢]، أن يعصمه من[٣] معصيته[٤]، ثم غلبته عيناه، فنام[٥]، فسمع قائلا يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة، فإذا عصمتهم فعلىٰ[٦] من أجود[٧] بمغفرتي وعفوي؟، وعلىٰ من أتوب؟، وأين كرمي وعفوي، ومغفرتي وفضلي؟، أو نحو[٨] هذا من الكلام.

ويا ابن آدم، إذا آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حملة العرش[٩] ومن حوله يسبحون بحمدي، ويستغفرون لك، وأنت علىٰ فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر[١٠] رضي الله عنه:

إبراهيم بن إسحاق الصيني، وقيس بن الربيع، وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٥-٢١٦).

(١) سقط من ب، ح١، د، أ، غ، ق قوله: «يطوف ليلة».

(٢) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق «طوافه بالبيت».

(٣) في ش «عن».

(٤) سقط من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق قوله: «من معصيته».

(٥) «فنام» ساقطة من ش، م.

(٦) «فعلىٰ» ساقطة من م.

(٧) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق «أتفضل وأجود».

(٨) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق «ونحو».

(٩) في ح٢، غ، ق، ب، م، د، ح١ «حملة عرشي».

(١٠) أبو ذر: هو جندب بن جنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين، من نجباء الصحابة، لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة هاجر إليه أبو ذر، ولازمه وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي

« عبادي[1] ، إنكم تخطِئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب ، فمن علم أني ذو قدرة علىٰ المغفرة غفرت له ولا أبالي » ، ويا عبادي[2] الذين أسرفو علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[3].

ويا عبدي ، لا تعجز ، فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة ، ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة ، ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات ؛ يوضحه[4] :

تبديل السيئات حسنات وكيفيته

الوجه السادس[5] : وهو قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:

بكر وعمر وعثمان ، شهد فتح بيت المقدس مع عمر ، كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل قوالا بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، استأذن عثمان في الخروج إلىٰ الربذة والسكن فيها ، فأذن له ؛ مات سنة ٣٢هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦ ، طبقات ابن سعد ٤/ ٢١٩-٢٣٧ ، طبقات خليفة ٣١.

(١) في غ ، أ ، ق ، ب ، ح٢ ، ح١ « يا عبادي ».

(٢) في ب ، أ ، غ ، ح١ « قل يا عبادي » ، وفي ق ، م ، د ، ح٢ « يا عبادي ».

(٣) هذا الحديث جزء من حديث : « إني حرمت الظلم علىٰ نفسي » الذي أخرجه مسلم وغيره ، وقد سبق تخريج هذا الحديث ص٣٦٤ ؛ ولكن قوله : « **عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب** » عند مسلم وأحمد فقط. وأما قوله : « **فمن علم أني ذو قدرة علىٰ المغفرة غفرت له ولا أبالي** » إنما هو في رواية أحمد والترمذي وابن ماجه.

انظر : المسند (٥/ ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، والترمذي (٤/ ٦٥٦) ، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢).

(٤) « يوضحه » ساقطة من م ، ح٢.

(٥) في الأصل ، ش ، ح٢ ، ق ، م ، د « الوجه الثامن ».

٧٠]، وهذا من أعظم البشارة للتائب[1]، إذا اقترن بتوبته[2] إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة [١٣٩/ ب]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت؛ وفرحه بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ـ٢]»[3].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟، علىٰ قولين[4]:

فقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وأصحابه: هو في تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانا، وبالزنا عفة وإحصانا، وبالكذب صدقا، وبالخيانة أمانة.

فعلىٰ هذا معنىٰ الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا

---

(١) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق «للتائبين».

(٢) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق «بتوبتهم».

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩٣٥)، والبغوي في التفسير (٣/ ٣٧٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٨٤)، وقال: رواه الطبراني من رواية علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، وقد وثقا وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

أخرجه في التفسير، تفسير سورة الفتح، (٨/ ٥٨٢)، ح: (٤٨٣٣).

(٤) ذكر هذين القولين في تفسير الآية الطبري في تفسيره ١٩/ ٤٦-٤٧، ورجح قول ابن عباس. وذكرهما البغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٧، وقد تكلم ابن القيم عن هذه المسألة في طريق الهجرتين ٣٤٥-٣٥٠، فذكر القولين، وأدلة كل منهما وحجته.

عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلىٰ ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب[١] ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روىٰ الترمذي في جامعه : حدثنا الحسين بن حريث[٢] حدثنا[٣] وكيع[٤] ، حدثنا[٥]

---

(١) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن ، القرشي المخزومي ، الإمام العلم ، عالم أهل المدينة ، وسيد التابعين في زمانه ، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر ، رأىٰ عمر وسمع عثمان وعليا وزيد بن ثابت وأبا موسىٰ وغيرهم ، له مراسيل عن جمع من الصحابة ، ومراسيله محتج بها ، توفي سنة ٩٤هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧ ، طبقات ابن سعد ٥/ ١١٩ ، التاريخ الكبير ٣/ ٥١٠.

(٢) أبو عمار الحسين بن حريث بن الحسن بن ثابت بن قطبة الخزاعي مولاهم ، المروزي ، روىٰ عن الفضل بن موسىٰ ، والفضيل بن عياض ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، ووكيع ، وغيرهم، روىٰ عنه الجماعة سوىٰ ابن ماجه وسوىٰ أبي داود فكتابةً، وابن خزيمة، والذهلي ، وأبو زرعة ، وابن أبي الدنيا ، وغيرهم ؛ قال النسائي : ثقة ، وذكره ابن حبان في الثقات ، توفي سنة ٢٤٤هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٢/ ٣٣٣ ، الجرح والتعديل ٣/ ٥٠.

(٣) ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، غ ، ق « قال حدثنا ».

(٤) أبو سفيان وكيع بن الجراح ، الرؤاسي من قيس عيلان كوفي ، روىٰ عن الأعمش وإسماعيل ابن أبي خالد ، وهشام بن عروة ، روىٰ عنه يزيد بن هارون ، ومسدد ، وأحمد بن حنبل ، والحميد وغيرهم ، كان ثقة ثبتاً حافظاً مجمع علىٰ ذلك ، ولد سنة ١٢٨هـ ، وتوفي سنة ١٩٦هـ. انظر : الجرح والتعديل ٩/ ٣٧ ، تهذيب التهذيب ١١/ ١٢٣.

(٥) في ح٢ ، ح١ ، غ ، د ، م ، ب « قال حدثنا ».

الأعمش[1]، عن المعرور بن سويد[2]، عن أبي ذر - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ «**إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبا ما أراها هاهنا**» قال أبو ذر - رضي الله عنه -: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتىٰ بدت نواجذه»[3].

---

(١) أبو محمد سليمان بن مهران، الإمام شيخ المقرئين والمحدثين، الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الحافظ، ولد سنة ٦١هـ، رأىٰ أنس بن مالك، وروىٰ عنه، وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ، كان مع إمامته مدلساً، روىٰ عن خلق كثير من كبار التابعين، روىٰ عنه خلق كثير، كان عالماً بكتاب الله، حافظاً للحديث، عابداً، زاهداً، وثقه ابن معين، والنسائي، مات سنة ١٤٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦، طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٢، الجرح والتعديل ٤/ ١٤٦.

(٢) أبو أمية المعرور بن سويد، أبو أمية الأسدي الكوفي، حدث عن ابن مسعود، وأبي ذر، وجماعة، وحدث عنه واصل الأحدب، وسالم بن أبي الجعد، وسليمان الأعمش، وثقه يحيىٰ بن معين، كان من المعمرين، قال الأعمش: رأيته وهو ابن مائة وعشرين سنة أسود الرأس واللحية، توفي سنة بضع وثمانين.

انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ١٧٤، طبقات ابن سعد ٦/ ١١٨، التاريخ الكبير ٨/ ٣٩.

(٣) رواه الترمذي في صفة جهنم، ٤/ ٧١٣، وقال: حدثنا هناد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش به؛ بلفظ مقارب. والإسناد الذي ذكره المؤلف هو إسناد البغوي الذي روىٰ به الحديث، فقد رواه من طريق الترمذي به. انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣٧٧).

ورواه مسلم في الإيمان، (١/ ١٧٧)، ح: (١٩٠)، عن الأعمش به. ورواه الإمام أحمد (٥/ ١٥٧)، عن وكيع عن الأعمش به، ورواه الطبري في تفسيره (١٩/ ٤٧).

وهذا[1] حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به علىٰ صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطي مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس [١٤٠/ أ] في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، ولو[2] كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ؛ فأين في هذا الحديث ما يدل علىٰ ذلك؟.

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية علىٰ هذا القول ، وقد علمت ما فيه ؛ لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عُرفتْ عُرفَ لطف الاستدلال به ودقته ، وهي أن الذنب لا بد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة ، وبالحسنات الماحية تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وذلك[3] إذا اشتد أثره ، ولم تَقْو تلك الأمور علىٰ محوه ، فلا بد إذاً من دخول النار ؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث[4] ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير

---

(١) في غ ، ب ، ح١ « فهذا ».

(٢) في غ ، ب ، د ، ح١ ، ح٢ ، ق ، م « إذ لو ».

(٣) في ق ، م ، ح٢ ، ح١ ، د ، ب ، غ « وكذلك ».

(٤) في م ، ق ، ح١ ، ح٢ ، د ، ب « الخبث ».

الامتحان ، ليتخلص[1] ذهب إيمانه من خبثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهي أقوىٰ الأسباب ، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطي مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولىٰ بأن يعطىٰ مكان كل سيئة حسنة ؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلىٰ الله تعالىٰ ، وإزالة النار بدل منها ، وهي الأصل ، فهي أولىٰ بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه :

الوجه السابع[2] : وهو أن التائب قد بدل كل سيئة [حسنة][3] بندمه عليها ، إذ هو[4] توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة ، فصار له [١٤٠/ ب] مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلىٰ هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها ، وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق

---

(١) في ب ، ح١ ، م ، ح٢ ، غ « ليخلص ».

(٢) في جميع النسخ الخطية « الوجع التاسع » ، وما أثبته هو الصواب ؛ لأنه الموافق للترتيب السابق.

(٣) زيادة من ح٢ ، م.

(٤) في ب ، ح٢ ، م ، د « هي ».

التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه علىٰ مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه :

الوجه الثامن(١) : أن ذنب العارف بالله تعالىٰ وأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعا ، وأحب إلىٰ الله من عصمته من ذلك الذنب ، من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتىٰ يقول الشيطان : يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان علىٰ إيقاعه في الذنب ، كندامة فاعله علىٰ ارتكابه ؛ لكن شتان ما بين الندمين. والله يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه ، كما تقدم أن هذا من العبودية(٢) ، فيحصل من العبد [مراغمة العدو](٣) بالتوبة والتدارك. وحصول محبوب الله تعالىٰ من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال(٤) ، يوجب(٥) جعل مكان السيئة حسنة ؛ بل حسنات.

وتأمل قوله تعالىٰ في الآية(٦) : ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان :

---

(١) في جميع النسخ الخطية «الوجه العاشر»، وما أثبته هو الصواب؛ لأنه الموافق للترتيب السابق.

(٢) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق زيادة « من أسرار التوبة » ، وقد تقدم كلامه علىٰ عبودية المراغمة عند كلامه علىٰ النظر الرابع من نظر العبد في الذنب ، وهو نظره إلىٰ الآمر له بالمعصية ص ٦١٩.

(٣) زيادة من غ ، ق ، ح١ ، د ، م ، ح٢ ، ب ، أ.

(٤) في غ ، أ ، ح١ ، د ، م ، ح٢ ، ب زيادة « هنا ».

(٥) في الأصل ، ب ، ح١ ، غ ، ق ، أ « ما يوجب ».

(٦) سقط من ب ، ح١ ، أ ، غ قوله : « في الآية ».

٧٠]، ولم يقل مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات، بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عذب علىٰ ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة؛ وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهىٰ إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل[1][2] بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة؛ ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلىٰ أن هذا التبديل [١٤١/أ] يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارَها»، فهذا إشعار بأنه إذا رأىٰ تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده [من تبديل الصغائر][3]، وهو به أشد فرحا واغتباطا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به علىٰ نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها، ولا سئل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر

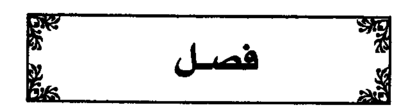
---

(١) في أ «فعل».

(٢) في ب، ح١، م، ح٢، د، غ، أ زيادة اسم الجلالة «الله».

(٣) زيادة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق.

اللطيف، المتودد إلىٰ عباده بأنواع الإحسان[1] ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.



فصل

حقيقة التوبة وشمولها

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم علىٰ أن لا يعاود الذنب ، وبالإقلاع عنه في الحال ، وبالندم عليه في الماضي. وإن كان في حق آدمي فلا بد من أمر رابع : وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمىٰ التوبة ؛ بل شطرها[2] ، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ، كما تتضمن ذلك ، تتضمن العزم علىٰ فعل المأمور والتزامه ، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا ، حتىٰ يوجد منه العزم الجازم علىٰ فعل المأمور ، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة ، وهي اسم لمجموع الأمرين ؛ لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه ، فإذا أفردت تضمنت الأمرين ؛ وهي كلفظة التقوىٰ التي عند إفرادها تقتضي[3] فعل ما أمر الله تعالىٰ به ، وترك ما نهىٰ[4] عنه ، وعند اقترانها بفعل المأمور تقتضي الانتهاء عن المحظور.

---

(١) في ش « البر والإحسان ».

(٢) في أ ، ب ، ح١ ، غ « شرطها ».

(٣) في م ، غ ، أ « التي تقتضي عند إفرادها ».

(٤) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ زيادة اسم الجلالة « الله ».

فإن حقيقة التوبة الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلىٰ محبوب، فالرجوع إلىٰ المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا [١٤١/ ب] علق سبحانه الفلاح المطلق علىٰ فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه بالتوبة الجامعة للأمرين[١]، فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا. فالتائبون هم: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فحفظ حدوده جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي التائب تائبا لرجوعه إلىٰ أمر الله من نهيه، وإلىٰ طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذا التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمىٰ التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين[٢]، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

فإذا التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلىٰ ما يحبه ظاهرا

---

(١) في ق، د، غ، ح١ «الأمرين».

(٢) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق زيادة «ويحب المتطهرين».

وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، كما تقدم. وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر، والتوحيد جزء منها؛ بل[1] جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علما وعملا وحالا، ولم يجعل الله محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالىٰ يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها.

فصل

الاستغفار وأنواعه

وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا [١٤٢/أ]﴾ [نوح: ١٠-١١]، وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا[2] تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿[3] وَمَا

(١) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق زيادة «هو».

(٢) في ش «ألآ».

(٣) في ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق زيادة «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم».

كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، والمقرون كقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود : ٣]، وقول صالح لقومه : ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ[1] ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود : ٩٠] ، فالاستغفار المفرد كالتوبة ؛ بل هو التوبة نفسها[2] مع تضمنه طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ، ووقاية شره ، لا كما ظنه بعض الناس ، أنها الستر ؛ فإن الله يستر علىٰ من يغفر له ومن [3] لا يغفر له ؛ ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه ، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها : وقاية شر الذنب ، ومنه المغفر ، لما يقي الرأس من الأذىٰ[4] ، والستر لازم لهذا المعنىٰ ، وإلا فالعمامة لا تسمىٰ مغفرا ، ولا القبع[5] ونحوه

---

(١) في الأصل ، د ، ح٢ ، ق ﴿ واستغفروا ربكم ... ﴾ ؛ وفي أ ، غ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م «استغفروا ربكم» ، وما أثبته هو الصواب.

(٢) في ب ، ح١ ، م ، د ، ح٢ ، أ ، غ ، ق « بعينها ».

(٣) في ش « وعلىٰ من ».

(٤) المغفر : زرد ينسخ من الدروع علىٰ قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، قيل هو رفرف البيضة، وقيل : هو حَلَق يتقنع به المتسلح.انظر : مختار الصحاح ٤٧٦ ، لسان العرب ٥/ ٣٢٧٤ ، مادة : (غفر).

(٥) قال ابن منظور : القبعة : خرقة تخاط كالبرنس ، يلبسها الصبيان ، والقبيعة التي علىٰ رأس قائم السيف ، وهي التي يدخل القائم فيها. انظر : لسان العرب ٥/ ٣٥١٥ ، مختار الصحاح ٥١٩ ، مادة : (قبع).

مع ستره، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية. وهذا الاستغفار الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣]، فإن الله لا يعذب مستغفرا، وأما من أصر علىٰ الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل واحد[1] منهما يدخل في مسمىٰ الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدىٰ اللفظتين بالأخرىٰ، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضىٰ. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان:

ذنب قد مضىٰ، فالاستغفار طلب وقاية شره.

وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة العزم علىٰ أن لا يفعله؛ والرجوع إلىٰ الله يتناول النوعين، رجوع إليه ليقيه شر ما مضىٰ، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه [١٤٢/ ب] وسيئات أعماله.

وأيضا فإن المذنب بمنزلة من قد[2] ارتكب طريقا تؤديه إلىٰ هلاكه، ولا توصله إلىٰ المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلىٰ الطريق التي[3]

---

(١) «واحد» ساقطة من ب، ح١، م، د، ح٢، أ، غ، ق.

(٢) «قد» ساقطة من د، ح٢، م، ب، أ، غ، ح١.

(٣) في ب، ح١، م، ح٢، د، غ، أ «فيها نجاته وتوصله».

توصله [إلىٰ مقصوده][1]، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بد منهما : مفارقة شيء، والرجوع إلىٰ غيره. فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا والله أعلم جاء الأمر بهما مرتبا بقوله : ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود : ٥٢]، فإن[2] الرجوع إلىٰ طريق الحق بعد مفارقة طريق الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب طلب[3] إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة : أن يقيه شر الذنب. والتوبة : أن يحصل له بعد الوقاية ما يحبه ؛ فكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده ؛ والله أعلم.

فصل

التوبة النصوح وحقيقتها

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها ؛ قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم : ٨]، فجعل وقاية شر السيئات، وهو تكفيرها، بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات، وهو حصول ما يحب العبد، منوطا بحصول التوبة النصوح. والنصوح : علىٰ وزن «فعول» المعدول عن «فاعل[4]» قصدا للمبالغة، كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح)

(١) زيادة من د، ح٢، ب، م، أ، غ، ح١.

(٢) في ب، أ، ح١، غ، ق «فإنه».

(٣) «طلب» ساقطة من ب، أ، ح١، غ.

(٤) في د «الفاعل».

لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر[1] لنصح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش[2].

وقد اختلفت عبارات السلف عنها، ومرجعها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب[3] - رضي الله عنهما -: « التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع »[4]. وقال الحسن البصري: « هي[5] أن يكون العبد نادما على ما مضى، مجمعا على أن لا يعود فيه ». وقال الكلبي: « أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن

---

(١) قال الجرجاني: الاشتقاق الأكبر: هو أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج، نحو نعق من النهق. التعريفات ٤٤، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٥١١.

(٢) هذا الذي ذكر المؤلف لتعريف كلمة نصوح هو التعريف اللغوي لهذه الكلمة؛ انظر في بيان ذلك: المفردات للأصفهاني ٤٩٦، أساس البلاغة للزمخشري ٢/ ٤٤٦، النهاية لابن الأثير ٥/ ٦٢، القاموس المحيط ١/ ٢٥٢، لسان العرب ٦/ ٤٤٣٨، مادة: (نصح).

(٣) أبو منذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، الأنصاري النجاري المدني البدري، سيد القراء، شهد العقبة وبدراً، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ، وعرضه عليه، وحفظ عنه علماً مباركاً، كان رأساً في العلم والعمل - رضي الله عنه -، جمع عمر الناس عليه في قيام رمضان، توفي سنة ٢٢هـ في خلافة عمر، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٩، طبقات ابن سعد ٣/ ٤٩٨، التاريخ الكبير ٢/ ٣٩.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٨/ ١٦٧، تفسير البغوي ٤/ ٣٦٧، تفسير القرطبي ١٨/ ١٧٤.

(٥) « هي » ساقطة من غ.

[١٤٣/ ب] ».

وقال سعيد بن المسيب : «توبة نصوحاً : تنصحون بها أنفسكم». جعلها بمعنىٰ ناصحة للتائب ، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنىٰ المفعول ، أي قد نصح فيها التائب، ولم يشبها بغش. فهي إما بمعنىٰ منصوح فيها ، كركوبة وحلوبة ، بمعنىٰ مركوبة و محلوبة ، أو بمعنىٰ الفاعل ، أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي[١] ـ رحمه الله ـ : « يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الإخوان[٢]»[٣].

قلت : النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

تعميم جميع الذنوب ، واستغراقها بها[٤] ، بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.

والثاني : إجماع العزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقىٰ عنده تردد ، ولا تلوّم ولا انتظار ؛ بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها.

---

(١) أبو حمزة المدني محمد بن كعب بن سليم القرظي الإمام العلامة الصادق ، حدث عن أبي أيوب الأنصاري ، وأبي هريرة ، ومعاوية ، وغيرهم ، وهو يرسل كثيراً ، وثقه ابن المديني ، وأبو زرعة ، والعجلي ، كان من أئمة التفسير ، توفي سنة ١١٧هـ ، وقيل : ١٢٠هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٥ ، التاريخ الكبير ٢١٦١ ، الجرح والتعديل ٨/ ٦٧.

(٢) في هامش الأصل كتبت عبارة : « أعني قرين السوء » تفسيراً لقوله : « سيء الإخوان ».

(٣) ذكر هذا القول عنه : البغوي في تفسيره ٤/ ٣٦٧ ، القرطبي في التفسير ١٨/ ١٧٥.

(٤) « بها » ساقطة من أ.

الثالث : **تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها** ، ووقوعها لمحض الخوف من الله تعالىٰ ، وخشيته ، والرغبة فيما لديه ، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ، ومنصبه ورياسته ، أو لحفظ حاله ، أو حفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس ، أو الهرب من ذمهم ، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الذنب ، أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله.

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، **والثالث** : [يتعلق][1] بمن يتوب إليه ، **والأوسط** : يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها ، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها ، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه ، وتمحو جميع الذنوب ، وهي أكمل ما يكون من التوبة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل
في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

وقد جاء في كتاب الله تعالىٰ ذكرهما مقترنين ، وذكر كل واحد منهما[2] مفردا[3] عن [١٤٣/ ب] الآخر. فالمقترنان كقوله تعالىٰ حاكيا عن عباده المؤمنين : ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾

---

(١) زيادة من أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، ق ، م.

(٢) في ب ، أ ، ح١ ، م ، ح٢ ، غ « كلا منهما » ؛ وفي د ، ق « كل منهما ».

(٣) في ش « منفردا ».

[آل عمران: ١٩٣]، والمفرد كقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]؛ ونظائره.

فهاهنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر. والمراد بالسيئات: الصغائر؛ و(1) ما تعمل فيه الكفارة من الخطأ، وما جرىٰ مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطانٌ ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد، ولا في اليمين الغموس(2) في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة(3).

---

(١) في ب، أ زيادة «هي»؛ وفي ح١، غ زيادة «هو».

(٢) اليمين الغموس: هي الحلف علىٰ أمر ماض يتعمد فيه الكذب، مثل أن يحلف علىٰ شيء فعله، مع علمه أنه لم يفعله، وتقييدها بالماضي باعتبار كثرة وقوعها ماضياً، وإلا فهي تقع علىٰ الحال أيضاً، مثل أن يقول: والله ما لهذا علي دين، وهو كاذب، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار. انظر: التعريفات ٣٣٣، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤/٤١٨.

(٣) انظر الخلاف في اليمين الغموس هل فيها كفارة: تفسير القرطبي ٦/٢٤٨، ٢٤٩-٢٥١، السنن الكبرىٰ للبيهقي ١٠/٣٦، المغني لابن قدامة ١٣/٤٤٨، من أحكام اليمين بالله عز وجل، د. خالد بن علي المشيقح ٤٦.

وانظر الخلاف في قتل العمد هل فيه كفارة: المغني ١٢/٢٢٦، تفسير القرطبي ٥/٣١٤.

والدليل علىٰ أن السيئات هي الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالىٰ : ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] ، وفي صحيح مسلم من[1] حديث[2] أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « **الصلوات الخمس ، والجمعة إلىٰ الجمعة ، ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** »[3].

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير ، ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر ؛ فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة ، وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر ؛ كما تقدم. فقوله تعالىٰ : ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [محمد : ٢] يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ، ووقاية شرها ؛ بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال ، كما قال تعالىٰ : ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الزمر : ٣٥].

وإذا فهم هذا فهم السر في الوعد علىٰ المصائب والهموم والغموم والوصب والنصب[4] بالتكفير دون المغفرة ، كقوله في الحديث الصحيح : « **ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذىٰ ، حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها**

---

(١) في أ « عن ».

(٢) « حديث » ساقطة من أ .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة ، (١/ ٢٠٩) ، ح : (٢٣٣) ، والترمذي في الصلاة (١/ ٤١٨) ، وأحمد (٢/ ٤٠٠ ، ٤١٤).

(٤) في ب ، أ ، ح١ ، غ تقديم وتأخير «والنصب والوصب» ؛ والنصب : التعب. والوصب : دوام الوجع ولزومه ، وقد يطلق الوصب علىٰ التعب والفتور في البدن. النهاية لابن الأثير ٥/ ٦٢ ، ١٩٠ .

من خطاياه »[1]. فإن المصائب [١٤٤/ أ] لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشىٰ فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تف بطهرهم، طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبد[2] خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبا طاهرا، فلم يحتج إلىٰ النهر[3] الرابع.

فصل

توبة العبد بين توبتين من ربه

وتوبة العبد إلىٰ الله تعالىٰ محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من الله[4]، سابقة ولاحقة، فإنه[5] تاب عليه أولا إذنا

---

(١) أخرجه البخاري في المرضىٰ(١٠/ ١٠٣)، ح (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة بلفظ: « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذىٰ ولا غم حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ». وأخرجه مسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٩٢) ح: (٢٥٧٣)، عن أبي سعيد، وأبي هريرة، بلفظ: « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتىٰ الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته ».

(٢) في أ « بعبده ».

(٣) في ق، ب، م، غ، أ، ح١ « التطهير ».

(٤) في ب، أ، ح١، م، غ، ق « ربه ».

(٥) في ب، أ زيادة « إذا ».

وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة؛ قال[1] تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وإنما[2] هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل علىٰ أنهم ما تابوا حتىٰ تاب عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرىٰ يثبته[3] الله بها علىٰ هدايته؛ فإن من ثواب الهدىٰ، الهدىٰ بعده، كما أن من عقوبة الضلالة، الضلالة بعدها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولا فاهتدوا [١٤٤/ ب]، فزادهم هدىٰ ثانيا. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبة [لهم][4] علىٰ زيغهم.

---

(١) في ش، ب، أ، ح١، م، غ، ق زيادة اسم الجلالة «الله».

(٢) في ب، ح١، غ، أ، ق، م «وإنها».

(٣) في أ، ش، م، ح١، ق، ب، غ «يثبيه».

(٤) زيادة من ش.

وهذا القدر من سر اسمه « الأول والآخر » فهو المعد ، وهو الممد ، ومنه السبب والمسبب ؛ وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه ، ويجير من نفسه بنفسه ، كما قال أعرف الخلق به : « وأعوذ بك منك »[١]. والعبد تواب ، والله تواب ، فتوبة العبد : رجوعه إلىٰ سيده بعد الإباق، وتوبة الرب[٢] نوعان: إذن وتوفيق ، وقبول واعتداد[٣].

فصل

والتوبة لها مبدأ ومنتهىٰ ؛ فمبدؤها : الرجوع إلىٰ الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذي نصبه لعباده ، موصلا إلىٰ رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ[٤]﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وبقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورىٰ : ٥٢ ـ ٥٣] ، وبقوله : ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج : ٢٤].

ونهايتها : الرجوع إليه في المعاد ، وسلوك صراطه[٥] الذي

---

(١) هو جزء من حديث : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك » الذي أخرجه مسلم وغيره ، وقد تقدم تخريج هذا الحديث ص٦٨٢ .

(٢) في ب ، أ ، ح١ ، م ، غ ، ق « الله ».

(٣) في ش « واغتفار ».

(٤) في ح٢ ، غ زيادة « ولا تتبعوا السبل » ، وفي أ ، ب « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

(٥) في ش « طريقه ».

نصبه[1] موصلا إلىٰ جنته ، فمن رجع إلىٰ الله في هذه الدار بالتوبة ، رجع إليه في المعاد بالثواب ، وهذا هو[2] أحد التأويلات في قوله : ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان : ٧١] ، قال البغوي وغيره : يتوب إلىٰ الله متابا : يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل علىٰ غيره[3] ، فالتوبة الأولىٰ : وهي[4] قوله : ﴿وَمَن تَابَ﴾ ، رجوع عن الشرك. والثانية : رجوع إلىٰ الله تعالىٰ للجزاء والمكافأة[5].

والتأويل الثاني : أن الجزاء متضمن معنىٰ الأمر[6] ؛ والمعنىٰ : ومن عزم علىٰ التوبة وأرادها ، فليجعل توبته إلىٰ الله ، ولوجهه خالصا ، لا لغيره[7].

التأويل الثالث : أن المراد لازم هذا المعنىٰ ، وهو إشعاره[8] وإعلامه بمن تاب إليه ، ورجع إليه ؛ والمعنىٰ : فليعلم توبته إلىٰ من؟ ، ورجوعه إلىٰ من؟ ، فإنها إلىٰ الله لا إلىٰ [١٤٥/ أ] غيره[9].

---

(١) في ب « ينصبه ».

(٢) « هو » ساقطة من ش.

(٣) ذكر ذلك البغوي في التفسير ٣/ ٣٧٨.

(٤) في ش ، أ « وهو ».

(٥) ذكر ذلك البغوي في التفسير ٣/ ٣٧٨.

(٦) في ب ، أ ، ح١ ، غ « الأوامر ».

(٧) ذكر هذا التأويل البغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٨.

(٨) في ش ، ح١ « إشعار التائب ».

(٩) ذكر هذا التأويل البغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٨.

ونظير هذا على أحد التأويلين قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة : ٦٧] ، أي اعلم ما يترتب على من عصى أمره ، ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع : أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها ، ثم إذا قوي العزم وصار جازماً ، وجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى : بالعزم والقصد لفعلها. والثانية[1] : بنفس إيقاع التوبة وإيجادها ؛ والمعنى : من تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً ، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً ، وهذا نظير قوله ﷺ : «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا[2] يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3].

* * *

(١) في ش « والثاني ».

(٢) في غ ، ح١ « إلى دنيا ».

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، (١/ ٩) ، ح : (١) ، بلفظ مقارب ؛ وأخرجه باللفظ الذي ذكره المؤلف في الإيمان ، (١/ ١٣٥) ، ح(٥٤) ، وأخرجه مسلم في الإمارة ، (٣/ ١٥١٥) ، ح : (١٩٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

ففي ختام إعداد هذا البحث يطيب لي أن أشير إلىٰ بعض النتائج التي توصلت إليها، ويحسن إيداعها في هذه الصفحات، وهي كما يلي:

١ـ مكانة ابن القيم العلمية، وذلك يتبين بما أوردته في هذا الكتاب من مادة علمية واسعة متنوعة، تدل علىٰ قوة حافظته وقدرته العقلية علىٰ استيعاب المسائل ومعرفته بالمذاهب الكلامية والفقهية، وسعة اطلاعه علىٰ أقوال الصوفية ومصطلحاتهم وإشاراتهم ورموزهم وأحوالهم ورجالاتهم.

هذا بالإضافة إلىٰ ما يتمتع به ابن القيم من جودة في التعبير، تجمع بين جزالة العبارة وسهولتها ووضوحها وقدرته علىٰ التقسيم والتفريع بصورة لا يجد معها القارئ كلفة في الفهم والإدراك للمعاني التي تدل عليها عبارته وأسلوبه.

٢ـ العدل والإنصاف لدىٰ ابن القيم، وقد تبين ذلك من خلال مناقشته للهروي وللصوفية عموماً، حيث بين ما يحتمله كلام الهروي في المنازل من حق وباطل، وحمل كلامه علىٰ أحسن المحامل، وذلك فيما كان محتملاً للأمرين، أما إذا كان كلامه لا يحتمل إلا وجهاً واحداً فإنه يبين مخالفته للصواب في ذلك، ويتمنىٰ أنه لم يقل ذلك، وكذلك الحال بالنسبة لغيره من

أئمة الصوفية المتقدمين الذين عرف عنهم محبة السنة والدعوة إليها، وإلىٰ التمسك بها، فهو لم يبطل محاسنهم بما صدر منهم من مخالفاتهم وشطحات مخالفة للحق، أما من كان من المنحرفين من الصوفية من أهل الاتحاد والحلول فهؤلاء وإن صدر منهم ما قد يوافق الكتاب والسنة فلا يوجب مدحهم والثناء عليهم وتصحيح ما هم عليه من باطل.

٣ـ تبين لي اطلاع ابن القيم علىٰ بعض شروح منازل السائرين، وخاصة شرح التلمساني، فإن ابن القيم قد استفاد منه في بيان بعض عبارات الهروي، كما أشار إلىٰ ما يحمل عليه كلام الهروي من محامل باطلة، وقام بتفنيدها والرد عليها.

٤ـ عظم سورة الفاتحة وما تضمنته من المعاني العظيمة من بيان التوحيد بأنواعه، ودلالتها علىٰ النبوة والرسالة، وعلىٰ الجزاء والحساب، وتضمنها لشفاء القلوب والأبدان، والرد علىٰ جميع المبطلين من المنحرفين عن الصراط المستقيم.

٥ـ شمول مفهوم العبودية في الإسلام، وأنها ليست مقتصرة علىٰ شيء عين، أو وقت محدد، بل هي متنوعة علىٰ حسب الأوقات والأحوال والأزمان، كما أنها ملازمة للعبد إلىٰ الممات، وهي وصف أكمل خلق الله من الأنبياء والمرسلين ومن سار علىٰ نهجهم.

٦ـ أن السير إلىٰ الله يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فللعبد في كل حال عبادة يتقرب بها إلىٰ الله عز وجل، وله في كل عقد من عقوده وواجب من

واجباته أحوال ومقامات، لا يكون موفياً لذلك العقد، والواجب إلا بها، وكلما وفّىٰ واجباً أشرف علىٰ واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرىٰ.

وكذلك الأشخاص، فمنهم المقربون، ومنهم الأبرار، وكل منهم يتقرب بما يسره الله له ووفقه إليه، وبناء علىٰ هذا اختلف في عدد المنازل وترتيبها وصفاتها، فكل يصف منازل سيره وحال سلوكه.

٧ـ حاجة العبد إلىٰ ربه، وإلىٰ اللوذ بجنابه، فهو محتاج دائماً إلىٰ العود إلىٰ الله بالتوبة إليه مما اقترفه من الذنوب، وما قصر فيه من حق ربه.

٨ ـ رحمة الله بعبده، حيث جعل له مخرجاً من سيئاته بالتوبة، وعظيم منته عليه بتوفيقه للتوبة أولاً، وقبولها منه ثانياً، فتوبة العبد إلىٰ الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها.

٩ـ سعة وشمول مفهوم التوبة، فهي ليست مقتصرة علىٰ ترك الذنوب، والندم عليها، والعزم علىٰ عدم العود إليها فحسب، بل تتضمن مع ذلك العزم علىٰ فعل المأمور والتزامه، فحقيقة التوبة : الرجوع إلىٰ الله بالتزام فعل ما يجب، وترك ما يكره.

١٠ـ وسطية أهل السنة والجماعة، وذلك من خلال النظر في مذهبهم في الصفات، والقدر، والشرع، والجمع بين أعمال القلوب والجوارح.

١١ـ تبين لي من خلال هذا البحث قيمة كتاب مدارج السالكين العلمية، وذلك بما حواه من مباحث نفيسة ومتنوعة، وبخاصة فيما يتعلق بتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات ؛ فقد تميز هذا الكتاب بما أودعه فيه ابن

القيم من الكلام علىٰ أعمال القلوب، حيث بين فيه أدلتها وأحوال أهلها، وما يعرض لهم في هذه الأحوال من علل وأدواء، مع بيان علاجها، وسبيل الخلاص منها، كل ذلك بقلم سلفي معتمد علىٰ الكتاب والسنة، وأقوال السلف الصالح.

كما تضمن ربط ذلك بأسماء الله وصفاته، ففي هذا الكتاب دراسات تطبيقية بتوحيد الأسماء والصفات قل أن توجد في غير هذا الكتاب.

وفي الختام : أوصي المهتمين بالدراسات العقائدية بالاهتمام بهذين الجانبين اللذين احتوىٰ عليهما هذا الكتاب، وذلك لأن حاجة الناس إليهما ماسة، مع قلة الدراسات التي تطرقت لمثل هذه الموضوعات، أو اهتمت بمثل هذه الجوانب ؛ ـ حسب علمي واطلاعي ـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

* * *